تفسير القرآن العظيم

للإمام الحافظ

عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

طبعة مجودة قوبلت على أوثق النسخ الخطية والمطبوعة، محققة الأحاديث والآثار، مخرجة القراءات، ذات فوائد منتخبة وفهارس علمية.

تحقيق الأحاديث والآثار

للشيخ عادل بن يوسف العزازي

قام على الخدمة العلمية للكتاب ومقابلة النسخ

أبو الفداء أحمد بن بدر الدين — أبو مجدي جمال بن السيد الأبيض

أبو محمد محمد بن إبراهيم بن شحاتة — أبو طلحة شاهر بن سيد زكي

إشراف ومتابعة

أبي الفداء أحمد بن بدر الدين بن عبد العزيز

المجلد الثالث

المائدة - الأنفال

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٣١٢

الطبعة: الأولى

التاريخ: ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

المكتبة الإسلامية

الإدارة والفرع الرئيس
القاهرة ٣٣ ش صعب صالح عين شمس الشرقية
ت: ٢٤٩٩١٢٥٤ - ٢٤٩٠٠٦٠٦ فاكس ٢٤٩٠٠٨٠٨

فرع الأزهر: ١ ش البيطار خلف جامع الأزهر درب الأتراك ت/٢٥١٠٨٠٠٤ محمول: ٠١١١٢٧٢٨٧٢٥

E-mail: islamya2005@hotmail.com

facebook Alslamya.2005

سُورَةُ المَائِدَة

تفسير سورة المائدة وهي مدنية(١)(٢)

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو النَّضر، حدَّثنا أبو معاوية شَيْبان، عن لَيْث، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أسماءَ بنت يَزيد قالت: إنِّي لآخِذَةٌ بزِمَام العَضْباء ناقةِ رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت مِن ثِقَلِهَا تَدُقُّ عَضُد النَّاقةِ (٣).

وروىٰ ابن مَرْدويه من حديث صالح بنِ سُهَيْل (٤)، عن عاصم الأحول قال: حدَّثتني أم عمرو، عن عَمِّها؛ أنَّه كان في مَسِيرٍ مع رسول الله ﷺ، فنزلت عليه سورة المائدة، فاندَقَّ عُنُق الرَّاحلة مِن ثِقَلِهَا (٥).

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني حُيَيُّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: أُنزلت علىٰ رسول الله ﷺ سورة المائدة، وهو راكبٌ علىٰ راحلته، فلَم تَسْتَطِع أن تحمله، فنزل عنها. تفرَّد به أحمد (٦).

وقد روىٰ التِّرمذِي عن قُتَيْبَة، عن عبد الله بن وَهْب، عن حُيَيٍّ، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله ابن عمرو قال: آخر سورةٍ أنزلت: [سورة المائدة والفَتْح (٧)، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. وقد روي عن ابن عبَّاس أنه قال: آخر سورة أنزلت:] (٨) ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [سورة النصر: ١] (٩).

---

(١) وحكىٰ ابن عطية الإجماع علىٰ ذلك. «المحرر الوجيز»: (٢/ ١٤٣)، وانظر: «البحر المحيط»: (٣/ ٤٢٧).

(٢) قال ابن تيمية رحمه الله: أَجْمَعُ سورةٍ في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «هي آخرُ القُرآنِ نُزُولًا فأحِلُّوا حلالَهَا وحرِّموا حَرَامَهَا» ولهذا افتتحت بقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ والعقود هي العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها.

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤٥٥، ٤٥٨) من حديث أسماء بنت يزيد، وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق، أُدخِل في حديثه ما ليس منه ولـم يميز حديثه فتُرِك، وفيه شَهْر بن حَوْشَب: صدوق، كثير الإرسال والأوهام، والحديث حسن لغيره لشَواهده الآتية.

(٤) في (ز): سهل.

(٥) ورواه ابن أبي شيبة في «المسند» (٦٦٠- بتحقيقي) من حديث أم عمرو عن عمها، وهو شاهد لما سبق.

(٦) رواه أحمد (٢/ ١٧٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وفيه حُيَي بن عبد الله، قال البخاري: فيه نظر، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وبمجموع هذه الطرق السابقة فالحديث حسن، إن شاء الله.

(٧) ضعيف: فيه حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، قال ابن عدي: (٢/ ٨٥٥) وله بهذا الإسناد خمسٌ وعشرون حديثًا، عامتها لا يتابع عليها، قلت: هو مخالفٌ لحديث ابن عبَّاس الآتي.

(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٩) رواه مسلم (٣٠٢٤).

وقد روىٰ الحاكم في «مستدركه»(١)، من طريق عبد الله بن وهب بإسناده ـ نحو رواية الترمذي، ثم قال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الحاكم أيضًا: حدَّثنا أبو العبَّاس محمَّد بن يعقوب، حدَّثنا بحر بن نَصر، قال: قُرِئَ علىٰ عبد الله بن وَهْب، أخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نُفَيْر قال: حَجَجْت فدَخَلْت علىٰ عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقُلْتُ: نعم، فقالَتْ: أما إنَّها آخر سورةٍ نَزلَت، فما وجدتم فيها من حلالٍ فاسْتَحِلُّوه، وما وَجَدْتُم فيها مِن حرامٍ فحَرِّمُوه(٢)، ثم قال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

ورواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألتها عن خُلُق رسولِ الله ﷺ، فقالت: القرآن. ورواه النسائي مِن حديثِ ابن مهدي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نُعَيم بن حماد، حدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا مِسْعَرٌ، حدَّثني مَعْن وعَوْف - أو: أحدهما - أنَّ رجلًا أتىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: اعهد إليَّ. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِها سَمْعَك، فإنَّه خيرٌ يَأْمُر به، أو شرٌّ يَنْهَىٰ عنه(٣).

وقال: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دُحيم - حدَّثنا الوليد، حدَّثنا الأوزاعي، عن الزُّهْرِيِّ قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا، فالنَّبيُّ ﷺ منهم.

وحدَّثنا أحمد بن سنَان، حدَّثنا محمَّد بن عُبيد، حدَّثنا الأعمش، عن خَيْثَمَة قال: كل شيءٍ في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التَّوْرَاة: يَاأَيُّها المساكين.

فأمَّا ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدَّثنا معاوية - يعني: ابن هشام - عن عيسىٰ ابن راشد، عن علي بن بُذَيْمَة، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: ما في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(١) لوحة (٢٣٧ أ).

(٢) حسن: رواه الحاكم (٢/ ٣١١)، وأحمد (٦/ ١٨٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣) لأبي عبيد في «فضائله»، و النحاس في «ناسخه»، وابن المنذر والحاكم وابن مردويه.

(٣) حسن: رواه ابن أبي حاتم (١٠٣٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠).

إلا أَنَّ عليًّا سيدها وشريفها وأميرها(١)، وما من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أحدٌ إلا قد عوتب في القرآن، إلا علي بن أبي طالب، فإنَّه لم يُعَاتَبْ في شيءٍ منه(٢). فهو أثر غريب، ولفظه فيهِ نكارَة، وفي إسناده نظر.

قال البخاري: عيسىٰ بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر. قلت: وعلي بن بُذَيْمة -وإن كان ثقة- إلا أنَّه شِيعِيٌّ غالٍ، وخبره في مثل هذا فيه تُهمة، فلا يقبل. وقوله: ولَمْ يَبْقَ أحدٌ مِن الصَّحَابة، إلا عُوتِبَ في القرآن إلا عليًّا، إنَّمَا يُشير به إلىٰ الآية الآمرة بالصَّدَقَةِ بَيْنَ يدي النَّجوىٰ، فإنَّه قد ذَكَر غير واحدٍ أنه لم يعمل بها أحدٌ إلا عليٌّ، ونزل قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ﴾ الآية [سورة المجادلة: ١٣]، وفي كون هذا عتابًا نظر؛ فإنَّه قد قيل: إنَّ الأمر كان ندبًا لا إيجابًا، ثم قد نَسَخَ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم يُرَ مِن أحد منهم خلافه. وقوله عن علي: إنَّه لَم يُعَاتَب في شيءٍ من القُرآنِ - فيه نظر أيضًا؛ فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة علىٰ أخذ الفِداء، عَمَّت جميعَ مَن أشار بأخذه، ولم يَسْلَم منها إلا عُمر بن الخطاب ﵁، فعُلِمَ بهذا، وبما تقدَّم ضَعْفُ هذا الأثر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثنا اللَّيْث، حدَّثني يونس، قال: قال محمَّد بن مسلم: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الَّذي كَتب لعَمْرو بن حَزْم حين بعثه إلىٰ نَجْران، وكان الكِتَاب عند أبي بكر بن حزم، فيه: هذا بيانٌ مِنَ الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ فكتب الآيات منها حتىٰ بلغ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، حدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم، عن أبيه قال: هذا كتابُ رسول الله ﷺ عِنْدَنا، الَّذي كتبه لعمرو بن حَزْم، حين بعثه إلىٰ اليمن يُفَقِّهُ أهلها ويُعَلِّمُهُم السُّنَّة، ويأخذ صدقاتهم. فكتب له كتابًا وعهدًا، وأمره فيه بأمره، فكتب: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ اليَمَنِ، أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**»(٤).

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾(٥) قال ابن عبَّاس ومجاهد وغير واحدٍ(٦): يعني بالعقود: العهود. وحكىٰ ابن جرير الإجماع علىٰ ذلك، قال: والعهود ما كانُوا يتعاهَدُون عليه؛ من الحِلْف وغيره.

---

(١) لوحة (٢٣٧ ب).

(٢) منكر: رواه ابن أبي حاتم (١٠٣٥)، وفيه عيسىٰ بن راشد. قال البخاري: مجهول وخبره منكر، وفيه علي بن بذيمة: شيعي غالٍ، كما قال ابن كثير.

(٣) مرسل: رواه الطبري (٦/ ٤٩).

(٤) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (١٠٧٧٩).

(٥) قال ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾: هذا عامٌّ؛ أي: عقدٌ، فإنه يجب الوفاء به، ولكن لا بد أن يُقَيَّدَ بما جاءت به الشريعة، وهو ألا يكون العقد محرمًا، فإن كان العقد محرمًا فإن النصوص تدل علىٰ عدم الوفاء به، بل علىٰ تحريم الوفاء به؛ لقول النبي ﷺ: «ما كان من شرطٍ ليس في كتاب الله فهو باطلٌ»، وإن كان مائة شرط.

(٦) لوحة (٢٣٨ أ).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يعني بالعهود: يَعْنِي ما أَحَلَّ الله وما حَرَّم، وما فرض وما حَدَّ في القرآن كُلِّه، ولا تَغْدِرُوا ولا تَنْكُثُوا، ثم شَدَّد في ذلك فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضَّحَّاك: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ قال: ما أحلَّ الله وما حرَّم، وما أخذَ الله من الميثاق علىٰ من أقرَّ بالإيمان بالنَّبيِّ ﷺ والكتاب - أن يُوفُوا بما أخذ اللهُ عليهم من الفرائض، من الحلال والحرام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ قال: هي سِتَّة: عَهْد الله، وعَقْد الحِلْف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين.

وقال محمَّد بن كعب: هي خمسة منها: حِلْف الجاهلية، وشركة المفاوضة[(١)].

وقد استدلَّ بعض مَن ذهب إلىٰ أنه لا خيار في مجلس البيع - بهذه الآية: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾، قال: فهذا يدل علىٰ لزوم العَقْدِ وثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحُجَّة في ذلك: ما ثبتَ في «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا**»[(٢)]، وفي لفظ للبخاري: «**إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا**»[(٣)]، وهذا صريحٌ في إثبات خيار المجلس المتعقِّب لعَقْدِ البيع، وليس هذا منافيًا للزُوم العقد، بل هُو مِن مُقْتَضَيَاتِهِ شرعًا، فالْتِزَامُه مِن تمَام الوَفَاء بالعَقْدِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ هي: الإبل والبقر والغنم. قاله الحسن وقتادة وغير واحدٍ. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. وقد استدل ابن عمر، وابن عبَّاس، وغير واحدٍ بهذه الآيَةِ علىٰ إباحة الجنين إذا وُجِد ميتًا في بطن أُمِّه، إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، من طريق مُجالد، عن أبي الودَّاك جبر بن نَوْف، عن أبي سعيد، قال: قلنا: يا رسول الله، نَنْحَرُ النَّاقة، ونَذْبَحُ البقرة أو الشَّاة في بطنها الجنين، أَنُلْقِيهِ أُم نَأْكُله؟ فقال: «**كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ؛ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ**»[(٤)]. وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال أبو داود[(٥)]: حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ بن فارس، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا عَتَّاب بن بشير، حدَّثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله

---

(١) شركة المفاوضة في الفقه: شركة يتساوىٰ فيها الأطراف مالًا وتصرفًا. «المعجم الوسيط»: (ص/ ٧٠٦).

(٢) البخاري (٢١٠٧، ٢١١١، ٢١١٦)، ومسلم (١٥٣١).

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) **صحيح لغيره**: أبو داود (٢٨٢٧)، والترمذي (١٤٧٦)، وابن ماجة (٣١٩٩)، وفيه مجالد بن سعيد: ليس بالقوي، لكنه توبع، فقد تابعه يونس بن أبي إسحاق عن أبي الوداك به، رواه أحمد (٣/ ٣٩)، وابن حبان، وإسناده حسن، ويشهد له حديث جابر الآتي.

(٥) لوحة (٢٣٨ ب).

ﷺ قال: «ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ». تفرَّد به أبو داود[١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني بذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير[٢].

وقال قتادة: يعني بذلك الميتة، وما لم يُذْكر اسم الله عليه.

والظاهر -والله أعلم- أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ فإنَّ هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنَّها تُحرَّم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعني: منها. فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحُقُه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما سَيُتْلَىٰ عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوبٌ علىٰ الحال. والمراد من الأنعام: ما يَعُمُّ الإنْسِيَّ: من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوَحْشِيَّ: كالظباء والبقر والحمر، فاستثنىٰ من الإنْسِيِّ ما تقدَّم، واستثنىٰ من الوَحْشِيِّ الصيد في حال الإحرام.

وقيل: المراد أَحْلَلْنا [لكم الأنعام، إلَّا ما استثني لمن الْتَزَم تحريم الصَّيْد، وهو حرام، كقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: أبحنا تناول الميتة للمُضْطَرِّ بشرط أن يكون غير باغٍ ولا عادٍ، أي: كما أحللنا][٣] الأنعام لكم في جميع الأحوال، فحَرِّمُوا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهىٰ عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾[٤] قال ابن عبَّاس: يعني بذلك مناسك الحج[٥].

وقال مجاهد: الصَّفا والمَرْوَة والهَدْي والبُدن مِن شعائر الله.

وقيل: شَعَائِر الله محارِمُهُ [التي حرَّمها][٦]، أي: لا تُحِلُّوا محارِمَ الله الَّتِي حرَّمها تعالىٰ؛ ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني بذلك: تحريمه والاعتراف بتَعْظِيمِه، وتَرْكَ ما نهىٰ الله عن تعاطيه فيه من الابْتِدَاء بالقتال، وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ

---

(١) صحيح لغيره: رواه أبو داود (٢٨٢٨)، والحاكم (٤/ ١١٤) وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي ورجاله ثقات، إلا أن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، ويشهد له ما تقدم.

(٢) رواه الطبري (٦/ ٥١).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تنتهكوا حرماتها، والشعائر جمع شعيرة، وهي العبادات الكبار، كالحج والعمرة ونحو ذلك؛ وذلك لأن الأحكام الشرعية شعائر وغير شعائر، فالأحكام الكبيرة تسمىٰ شعائر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

(٥) رواه الطبري (٦/ ٥٤).

(٦) سقط من (ز).

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ [ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ](١) فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية.[التوبة: ٣٦].

وفي «صحيح البخاري»: عن أبي بَكْرة أن رسول الله(٢) ﷺ قال في حَجَّة الوداع: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**(٣)، **السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ**»(٤)(٥).

وهذا يدلُّ علىٰ استمرار تحريمها إلىٰ آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السَّلف.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني: لا تَسْتَحِلُّوا قتالًا فيه(٦). وكذا قال مُقَاتل بن حَيَّان، وعبد الكريم بن مالك الجزَرِيُّ، واختاره ابن جرير أيضًا، وقد ذهب الجمهور إلىٰ أنَّ ذلك منسوخٌ، وأنَّه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجُّوا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة:٥] قالوا: والمراد: أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ قالوا: فلم يَسْتَثْنِ شهرًا حرامًا من غيره.

وقد حكىٰ الإمام أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماعَ، علىٰ أنَّ الله قد أحلَّ قِتَالَ أهل الشِّرْكِ، في الأَشْهُر الحُرُم وغيرها مِن شهور السَّنَة، قال: وكذلك أجمعوا علىٰ أنَّ المُشْرِكَ لو قلَّد عُنُقَه أو ذراعيه بِلِحَاءِ جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أمانًا من القَتْل، إذا لم يكن تقدَّم له عقد ذِمَّةٍ من المسلمين أو أمانٍ، ولهذه المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلىٰ البيت؛ فإنَّ فيه تعظيمًا لشعائر الله، ولا تَتْرُكوا تَقْلِيدَها في أعناقها؛ لتتميز به عما عَدَاهَا من الأنعام، وليُعلم أنها هديٌ إلىٰ الكعبة، فَيَجْتَنِبَهَا من يريدها بسوء، وتبعث مَن يراها علىٰ الإتيان بمِثْلِهَا، فإنَّ من دعا إلىٰ هُدَىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتَّبعَه، مِن غير أن يَنْقُصَ مِن أجورهم شيئًا؛ ولهذا لما حَجَّ رسول الله ﷺ بات بذي الحُلَيْفَة، وهو وادي العَقِيق، فلمَّا أصبح طاف علىٰ نسائه، وكُنَّ تِسْعًا، ثم اغتسل وتَطَيَّب وصلَّىٰ ركعتين، ثمَّ أَشْعَر هَدْيَه وقلَّده، وأهَلَّ بالحج والعمرة، وكان هَدْيُهُ إبلًا كثيرةً، تُنَيِّفُ علىٰ السِّتِّين، مِن أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

---

(١) سقطت من (ز). (٢) لوحة (٢٣٩ أ).

(٣) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى إن الإيمان قد استدار كهيئته: أي كان في الجاهلية غيَّروا في أسماء الشهور؛ حرموا هذا، وأحلوا هذا، وخالفوا ما كان الأمر عليه، فلما بُعث رسولُ الله ﷺ ردَّ ما كان إلى ما كان من أصل أسماء الشهور.

(٤) أضافَ رَجَبًا إلىٰ مُضَرَ؛ لأنهم كانوا يُعظِّمُونه خلافَ غيرهم، فكأنَّهم اختُصُّوا به، وقوله: «بين جُمادَىٰ وشعبانَ» تأكيدٌ للبيان وإيضاح؛ لأنَّهم كانوا يُنسِئُونه ويُؤَخِّرونَه من شهرٍ إلىٰ شهرٍ، فيتحَوَّل عن موضعه المُخْتَصِّ به، فبيَّن لهم أنه الشَّهرُ الذي بين جُمادَىٰ وشعبانَ، لا ما كانوا يُسَمُّونه علىٰ حِساب النَّسِيء. «النهاية»، وانظر: «فتح الباري»: (٨/ ٣٢٥).

(٥) البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩). (٦) رواه الطبري (٦/ ٥٥)، وإسناده منقطع.

قال بعضُ السلف: إعظامها: استحسانها واسْتِسْمَانها.

وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِف العين والأذن. رواه أهل السنن[١].

وقال مُقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ فلا تستحلوا، وكان أهل الجاهليَّة إذا خرجوا من أوطانهم في غَيْرِ الأشهر الحرم، قلَّدوا أنفسهم بالشَّعْر والوَبَر، وتقلَّد مشركو الحرم من لِحاء شجر الحرم، فيأمنون به.

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدَّثنا محمَّد بن عَمَّار، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عَبَّاد بن العَوَّام، عن سفيانَ بن حسينٍ، عن الحَكَم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس[٢] قال: نُسِخَ من هذه السورة آيتان: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:٤٢][٣].

وحدَّثنا المنذر بن شاذان، حدَّثنا زكريا بن عَدِيّ، حدَّثنا محمَّد بن أبي عَدِيٍّ، عن ابن عَوْن قال: قلت للحسن: نُسِخَ مِن المائدة شيء؟ قال: لا.

وقال عطاء: كانوا يتقلَّدون مِن شجر الحرم فيأمنون، فنهىٰ الله عَن قَطْعِ شجره. وكذا قال مُطرِّف ابن عبد الله.

وقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ولا تَسْتَحِلُّوا قتال القاصدين إلىٰ بيت الله الحرام[٤]، الذي مَن دَخَلَه كان آمنًا، وكذا مَن قصده طالبًا فضل الله، وراغبًا في رضوانه، فلا تَصُدُّوه ولا تمنعوه ولا تُهَيِّجُوه[٥].

قال مجاهد، وعطاء، وأبو العالية، ومُطَرِّف بن عبد الله، وعبد الله بن عُبَيد بن عُمير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومُقاتل بن حَيَّان في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بذلك: التجارة.

وهذا كما تقدم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ قال ابن عبَّاس: يترضَّون الله بحَجِّهم.

وقد ذكر عِكْرِمة، والسُّدِّي، وابن جُرَيْج: أن هذه الآية نزلت في الحُطم بن هند البكري، كان قد أغار علىٰ سَرْح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمَرَ إلىٰ البيت، فأراد بعض الصحابة أن يَعْتَرِضُوا في طريقه إلىٰ البيت، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾[٦].

---

(١) صحيح لغيره: رواه الترمذي (١٥٠٣)، والنسائي (٧/ ٢١٧)، وابن ماجة (٣١٤٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني في «إرواء الغليل» (٤/ ٣٦٤) -بعدما ساق طرقه-: وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح.

(٢) لوحة (٢٣٩ ب).

(٣) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٣٥/ ٦٣٨٨)، والحاكم (٢/ ٣١٢).

(٤) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل قاصد للحرم لكل شيء: الحج والعمرة والتجارة.

(٥) قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودخل في هذا الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلىٰ بيت الله، وجَعْلُ القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين علىٰ أنفسهم من القتل فما دونه، ولا علىٰ أموالهم من المَكْس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فالمشرك لا يُمَكَّنُ من الدخول إلىٰ الحرم.

(٦) روىٰ هذه الآثار ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وكلها مرسلة لا تصلح دليلًا.

وقد حكىٰ ابن جرير الإجماع، علىٰ أن المشرك يَجُوزُ قَتْلُهُ إذا لم يكن له أمان، وإن أَمَّ البيت الحرام، أو بيت المقدس؛ فإنَّ هذا الحكم منسوخ في حَقِّهِم، والله أعلم.

فأمَّا مَن قصده بالإلحاد فيه، والشِّرك عنده، والكُفْرِ به، فهذا يمنع كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، ولهذا لما بعث رسول الله ﷺ عام تسع -لما أَمَّر الصديق علىٰ الحجيج- عليًّا، وأَمَرَهُ أن يُنَادِيَ علىٰ سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وألا يحج بعد العام مُشْرِك، ولا يطوفَنَّ بالبيت عُرْيان.(١)

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني: مَن توجَّه قِبَل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحُجُّون البَيْتَ الحرام، فنَهَىٰ الله المؤمنين أن يمنعوا أحدًا يَحُج البيت، أو يعرضوا له؛ من مؤمنٍ أو كافرٍ، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾(٢) [التوبة: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنفىٰ المشركين من المسجد الحرام.(٣)

وقال عبد الرزاق: حدَّثنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ قال: منسوخ، كان الرَّجل في الجاهليَّة إذا خرج مِن بَيْتِهِ يريد الحجَّ تَقلَّد من الشجر، فلم يعرض له أحد، وإذا رجع تقلَّد قِلادةً من شَعرٍ، فلم يعرِض له أحد، وكان المشرك يومئذٍ لا يُصَدُّ عن البيت، فأمروا ألا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البَيْتِ، فنسخها قوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ يعني: إِن تَقَلَّدُوا قلادةً من الحرم فأَمِّنُوه، قال: ولم تَزَلِ العرب تُعَيِّر من أخفر ذلك، قال الشاعر:

أَلَمْ تَقْتُلَا الحِرْجَيْنِ إِذْ أَعْوَرَا لَكُمْ ... يُمِرَّانِ بِالأَيْدِي اللِّحَاءَ المُضَفَّرَا(٤)

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ أي: إذا فرغتم مِن إحرامكم وأَحْلَلْتُم منه، فقد أبحنا لكم ما كان مُحَرَّمًا عليكم في حال الإحرام من الصَّيْد، وهذا أمرٌ بعد الحظر، والصحيح الذي يَثْبُت علىٰ السَّبْر(٥) أنَّه يَرُدُّ الحكم إلىٰ ما كان عليه قبل النَّهْيِ، فإن كان واجبًا رده واجبًا، وإن كان مستحبًّا فمُسْتَحَبٌّ، أو مباحًا فمباح. ومن قال: إنَّه علىٰ الوجوب، يُنْتَقَض عليه بآياتٍ كثيرةٍ، ومَن قال: إنه للإباحة، يَرُدُّ عليه آيات أخر، والذي يَنْتَظِم الأدلَّة كلَّها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٠٩١، ٣٠٩٢)، وانظر: أوائل سورة التوبة.

(٢) لوحة (٢٤٠ أ). (٣) رواه الطبري (٦/ ٦١).

(٤) **الحرجان**: مثنىٰ حِرْج، وهي الودعة، وعنىٰ بها رجلين، شبههما بالودعة في بياضها، وأعورا لكم: بدت لكم عورتهما، وأمرَّ الحبل: فتله، واللحاء: قشر الشجر، والمضفر: الذي جُدِلَ ضفائر.

(٥) **سبر الأمر يسبُره سَبْرًا**: جربه واختبره.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ إِن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ ومن القرَّاء من قرأ: ﴿ أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الألف من «أَنْ»[١] ومعناها ظاهرٌ؛ أي: لا يَحْمِلنَّكم بُغْضُ قوم، قد كانوا صدُّوكم عن الوصول إلىٰ المسجد الحرام، وذلك عامَ الحُدَيبية- علىٰ أَن تَعْتَدُوا في حكم الله فيهم[٢]، فتَقْتَصُّوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بُغْضُ أقوامٍ علىٰ ترك العدل، فإن العدل واجبٌ علىٰ كلِّ أَحَدٍ، في كُلِّ أَحَدٍ، في كل حال.

وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصىٰ الله فيك، بمثل أَنْ تُطِيعَ الله فيه، والعدل به قامت السَّمَوات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سَهْل بن عثمان[٣]، حدَّثنا عبد الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحُدَيبية وأصحابه، حين صَدَّهُم المشركون عن البيت[٤]، وقد اشتَدَّ ذلك عليهم، فمَرَّ بهم أناسٌ مِن المشركين من أهل المَشْرِقِ، يُرِيدُون العُمْرَةَ، فقال أصحاب النَّبِيِّ ﷺ: نَصُدُّ هؤلاء كما صَدَّنَا أصحابهم. فأنزل الله هذه الآية[٥].

والشَّنَآنُ: هو البُغْض. قاله ابن عبَّاس وغيره، وهو مصدرٌ من شَنَأْتُه أَشْنَؤُه شَنَآنًا-بالتَّحْرِيك- مثل قولهم: جَمَزَان ودَرَجَان ورَفَلان، من جَمَزَ، ودَرَج، ورَفَل[٦][٧]. قال ابن جرير: من العرب مَن يُسْقِطِ التَّحْرِيك في شَنَآن، فيقول: شَنَان. قال: ولم أعلم أحدًا قرأ بها، ومنه قول الشاعر:

وَمَا العَيْشُ إِلَّا مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي ... وَإِنْ لَامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَّدَا[٨]

وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالمعاونة علىٰ فِعْل الخَيْرَات، وهو البِرّ، وترك المنكرات وهو التَّقْوىٰ، ويَنْهَاهم عن التَّناصر علىٰ الباطل، والتَّعاون علىٰ المآثم والمحارم.

قال ابن جرير: الإثم: تَرْكُ ما أمر الله بِفِعْلِهِ، والعُدْوَان: مجاوَزَةُ ما حَدَّ الله في دينكم، ومجاوَزَةُ ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم.

---

(١) **متواترة**: قَرَأَ (إِن صَدُّوكُمْ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو، وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَن صَدُّوكُمْ).
(٢) في (ز): فيكم، وما أثبتناه أقرب.
(٣) في (ز): عفان، والصواب ما أثبتناه.
(٤) لوحة (٢٤٠ ب).
(٥) **ضعيف**: عزاه لابن أبي حاتم، ولم أقف عليه في «تفسيره»، ولا «مراسيله»، وإسناده مرسل، وعبد الله بن جعفر المديني: ضعيف. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ١١٥).
(٦) رفل يَرْفُل رفلًا ورفلانًا، وأرفل: جر ذيله وتبختر.
(٧) **قال أحمد شاكر** رَحِمَهُ اللهُ: «الجمز» بسكون الميم، و«الجَمَزىٰ» بفتحها مع ألف مقصورة: هو ضرب من السير مسرعًا دون العَدْو الشديد، ولم أجد استعمال «الجمزان» الذي حكاه ابن كثير هنا، و«الدرج» بسكون الراء، و«الدرجان»: مِشْية الشيخ والصبي، و«الرفل» بسكون الفاء، و«الرفلان»: جر الذيل مع التبختر.
(٨) **فند**: من التفنيد، وهو اللوم وتضعيف الرأي.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا هُشَيْم، حدَّثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، [عن جده أنس][(١)] بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نَصَرْتُه مظلومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالمًا؟ قال: «تَحْجِزُهُ وَتَمْنَعُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[(٢)].

انفرد به البخاري من حديث هُشَيْم به نحوه وأخرجاه من طريق ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نَصَرْتُهُ مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيدُ، حدَّثنا سفيانُ بن سعيدٍ، عن يحيىٰ بن وَثَّاب، عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ [عن النَّبيِّ ﷺ][(٣)] قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ»[(٤)].

وقد رواه أحمد أيضًا في «مسند عبد الله بن عمر»: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيىٰ ابن وثاب، عن شيخ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، [قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ][(٥)] أنَّه قال: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُهُمْ وَلا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ»[(٦)].

وهكذا رواه التِّرمذي من حديث[(٧)] شعبة، وابن ماجة من طريق إسحاق بن يوسف، كلاهما عن الأعمش، به.

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدَّثنا إبراهيمُ بن عبد الله بن محمَّد أبو شيبة الكوفيُّ، حدَّثنا بكر بن عبد الرحمن، حدَّثنا عيسىٰ بن المختار، عن ابن أبي ليلىٰ، عن فُضَيْل بن عمرو، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدَّالُّ عَلَىٰ الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[(٨)]. ثم قال: لا نعلمه يُرْوَىٰ إلا بهذا الإسناد.

قلت: وله شاهد في «الصحيح»: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، لا يَنْقُصُ [ذَلِكَ][(٩)] مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[(١٠)].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤)، والترمذي (٢٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٩٩)، وفي الباب عن ابن عمر ﭭ.

(٣) سقط من (ز).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٦٥)، (٢/ ٤٣)، والترمذي (٢٥٠٧) من طرق عن الأعمش به.

(٥) سقط من (ز). (٦) انظر التعليق السابق.

(٧) لوحة (٢٤١ أ).

(٨) صحيح لغيره: رواه البزار (١٥٤- كشف): وفيه ابن أبي ليلىٰ، وهو محمد بن عبد الرحمن، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ جدًّا، لكن للحديث شواهد استوفاها شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٦٦٠)، ويشهد له الحديث الآتي.

(٩) سقط من (ز).

(١٠) مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجة (٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٩٧).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا عمرو بن إسحاق بن [إبراهيم بن العلاء بن][(1)] زِبْرِيق[(2)] الحِمْصي، حدَّثنا أبي، حدَّثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، قال [عياش بن مؤنس][(3)]: إنَّ أبا الحسن نِمْرَان بن مخمر حدَّثَه [أنَّ أوس بن شُرَحْبيل أحد بني المجمع حدثه][(4)] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مَشَىٰ مَعَ ظَالِمٍ لِيُعِينَهُ - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ- فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِسْلَامِ»[(5)(6)].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ عبادَهُ خبرًا متضمنًا النَّهْيَ عن تعاطِي هذه المحرَّمات: من المَيْتَةِ وهي: ما مَات من الحَيَوان حَتْفَ أَنْفِهِ، مِن غير ذكاةٍ ولا اصْطِيَادٍ، وما ذاك إلا لما فيها من المَضَرَّة، لما فِيهَا من الدَّم المُحْتَقِن، فهي ضارَّةٌ للدِّين وللبَدَن، فلهذا حرمها الله ﷻ ويُسْتَثْنَىٰ من الميتةِ السَّمَك، فإنَّه حلالٌ سواء مات بتَذْكِيَةٍ أو غيرها، لما رواه مالك في «مُوَطَّئِه»، والشَّافعي وأحمد في «مسنديهما»، وأبو داود والترمذي والنَّسائي وابن ماجة في «سُنَنِهِم»، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ سُئِل عن ماء البحر، فقال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[(7)].

وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث، وقوله: ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني به: المسفوح؛ لقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قاله ابن عبَّاس وسعيد بن جُبَيْر.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا كثير بن شهاب المذْحِجي، حدَّثنا محمَّد بن سعيد بن سابق، حدَّثنا عمرو -يعني ابن قيس- عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن [(8)]ابن عبَّاس: أنَّه سُئل عن الطِّحَال فقال: كُلُوه فقالوا: إنَّه دم. فقال: إنَّما حُرِّم عليكم الدم المسفوح[(9)].

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): زريق، والصواب ما أثبتناه.
(٣) في (ز): (عباس بن يونس)، والمثبت موافق لما في «المعجم الكبير»، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، وهو الصواب.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) ضعيف جدًّا: انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٨٥٨)، والحديث رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٢٧/ ٩١٦).
(٦) علَّق العلامة ابن باز رحمه الله على هذا الحديث بقوله: «هذا الخبر مرسل ضعيف؛ لأن نمران تابعي، ولأن عياش بن مؤنس مجهول الحال، وهكذا نمران مجهول الحال، وفي المتن نكارة، والله ولي التوفيق.
(٧) صحيح: رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١/ ٥٠)، وابن ماجة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٣٩٤).
(٨) لوحة (٢٤١ ب).
(٩) رواه ابن أبي شيبة (٥/ ٥٤٧)، والبيهقي (١٠/ ٧)، ورواية سماك عن عكرمة خاصة مضطربة.

وكذا رواه حماد بن سلمة، عن يحيىٰ بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة قالت: إنَّما نهىٰ عن الدَّم السَّافح.

وقد قال أبو عبد الله محمَّد بن إدريس الشافعي: حدَّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُحِلَّ لنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا المَيْتَتَانِ: فَالحُوتُ وَالجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»(١).

وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجة، والدارقطني، والبيهقي، من حديث عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وهو ضعيف. قال الحافظ البيهقي: ورواه إسماعيل بن أبي إدريس، عن أسامة، وعبد الله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعًا.

قلتُ: وثلاثتهم ضعفاء، ولكن بعضهم أصلح من بعض، وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسن، حدَّثنا محمَّد بن عبد الملك بن أبي الشَّوارب، حدَّثنا بَشير بن سُرَيج، عن أبي غالب، عن أبي أمامة -وهو صُدَيُّ بن عجلان- قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ قومي أدعوهم إلىٰ الله ورسوله، وأَعْرِض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم، فبَيْنَا نحن كذلك إذ جاءوا بقَصْعَةٍ من دم، فاجتمعوا عليها يأكلونها، قالوا: هلمَّ يا صُديُّ، فكلْ. قال: قلت: وَيْحَكُم! إنَّما أتيتكم من عند مُحرِّمِ هذا عليكم، وأنزل الله عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: فتَلَوْتُ عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ الآية(٢).

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه من حديث ابن أبي الشَّوَارِب بإسناد مثله، وزاد بعد هذا السياق: قال: فَجَعَلْتُ أدعوهم إلىٰ الإسلام، ويَأْبَوْنَ عليَّ، فقلتُ لهم: وَيْحَكُم، اسْقُونِي شربَةً مِن ماءٍ، فإنِّي شديد العطش -قال: وعليَّ عباءتي- فقالوا: لا ولكن ندعك حتىٰ تَمُوتَ عطشًا. قال: فاغْتَمَمْتُ، وضَرَبْتُ بِرَأْسِي في العباء، ونمتُ علىٰ الرَّمْضَاء في حَرٍّ شديدٍ، قال: فأتَانِي آتٍ في منامي بقَدَحٍ مِن زجاج لم يَرَ النَّاس أحسن منه، وفيه شراب لم يَرَ النَّاس شرابًا ألذَّ منه، فأَمْكَنَنِي منها فشَرِبْتُها، فحَيْثُ فرغت مِن شرابي استيقظت، فلا والله ما عَطِشْتُ، ولا عَرِيتُ بعد تلكَ الشَّربة(٣).

ورواه(٤) الحاكم في «مستدركه»، عن علي بن حمشاذ(٥) عن [عبد الله بن](٦) أحمد بن حنبل،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة (٣٣١٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١١٨).

(٢) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣) إلىٰ ابن أبي حاتم، والطبراني (٨/ ٣٣٥)، والحاكم (٣/ ٦٤١) وابن مردويه، ومداره علىٰ أبي غالب: صدوق يخطئ كذا في «التقريب»؛ فالإسناد ضعيف.

(٣) ضعيف كسابقه.

(٤) لوحة (٢٤٢ أ).

(٥) في (ز): (علي بن حماد)، والمثبت هو الصواب، وصحَّفه بعضهم فقال: (حمشاد)، وصوابه بالذال المعجمة، الثقة الحافظ شيخ الحاكم.

(٦) زيادة من «المستدرك».

حدَّثني عبد الله بن سلمة بن عياش العامري، حدَّثنا صدقة بن هُرْمُز[(١)]، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، فذكر نحوه، وزاد بعد قوله: «بَعد تِيكَ الشَّربة»: فسمعتهم يقولون: أتاكم رجلٌ مِن سَرَاةِ قَومِكُمْ، فلم تَمْجعُوه بمَذْقَةٍ[(٢)]، فأَتَوْني بمَذْقَةٍ، فقلت: لا حاجَة لي فيها، إنَّ الله أَطْعَمَنِي وسَقَانِي، وأَرَيْتُهُم بَطْنِي فأسلموا عن آخِرِهِم[(٣)].

وما أحسن ما أنشد الأعشىٰ في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

وإيَّاكَ والمَيْتَاتِ [لا تقْرَبنَّها][(٤)] ... ولا تأخُذَنْ عظمًا حَدِيدًا فتَفْصِدا

أي: لا تفعل كما فعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئًا محدَّدًا من عظم ونحوه، فَيفْصِد به بعيره، أو حيوانًا من أي صنفٍ كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم، فيشربه؛ ولهذا حرَّم الله الدم علىٰ هذه الأمة، ثم قال الأعشىٰ:

وَذَا النُّصُبِ المَنْصُوبَ لا تَأْتِيَنَّهُ ... وَلا تعبدِ الأَصْنَامَ وَاللهَ فَاعْبُدَا

وقوله: ﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ يعني: إِنْسِيَّه ووَحْشِيَّه، واللحم يَعُمُّ جميع أجزائه، حتىٰ الشَّحم، ولا يحتاج إلىٰ تَحَذْلُقِ الظَّاهريَّة في جُمُودهم هاهنا وتَعَسُّفِهِم في الاحتجاج بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾ يعنون قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أعادوا الضَّمِير فيما فَهِمُوه علىٰ الخِنزير، حتىٰ يَعُمَّ جميع أجزائه، وهذا بَعِيدٌ مِن حيث اللُّغَةُ، فإنَّه لا يعود الضمير إلا إلىٰ المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أنَّ اللحم يَعُمُّ جميع الأجزاء، كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطَّرد.

وفي «صحيح مسلم»، عن بُريدةَ بن الحُصَيْب الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنزِيرِ وَدَمِهِ»[(٥)] فإذا كان هذا التَّنفير لمجرَّد اللَّمس، فكيف يكون التَّهديد والوعيد الأكيد علىٰ أكله، والتَّغذِّي به، وفيه دلالة علىٰ شُمُول اللحم لجميع الأجزاء؛ من الشحم وغيره.

وفي «الصحيحين»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ». فقيل: يا رسول الله، أرأيتَ شحوم الميتة، فإنَّها تُطْلَىٰ بها السُّفنُ، وتُدْهَن بها الجلودُ، ويَسْتَصبِحُ بها الناس؟ فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ»[(٦)].

---

(١) في (ز): هرم. والمثبت من «المستدرك».

(٢) المَجْع والتمجُّع: أكل التمر اليابس، ومجَع يمجَعُ مَجْعًا: أكل التمر باللبن، وقيل: هو أن يأكل التمر ويشرب عليه اللبن، والمَذْقة: الشَّرْبة من اللبن.

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٦٤١ - ٦٤٢)، وهو ضعيف كالسابق.

(٤) سقط من (ز).

(٥) مسلم (٢٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٣٩)، وابن ماجة (٣٧٦٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦١).

(٦) البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي سفيان: أنَّه قال لِهرقـلَ ملكِ الروم: «نهانا عن الميتـة والدَّم»[١].

وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذُبِحَ فذُكِر عليه اسم غير الله[٢]، فهو حرامٌ؛ لأن الله أَوْجَب أَن تُذْبَح مخلوقاته علىٰ اسمه العَظِيم، فمتىٰ عُدِل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صَنَمٍ، أو طاغوتٍ، أو وثنٍ، أو غير ذلك مِن سائر المخلوقات، فإنَّها حرامٌ بالإجماع. وإنَّما اختلف العلماء في المتروك التَّسْمِيَة عليه، إمَّا عمدًا أو نسيانًا، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسن الهِسِنْجَاني، حدَّثنا نُعَيم بن حمَّاد، حدَّثنا ابن فُضَيل، عن الوليد بن جُمَيْع، عن أبي الطُّفَيْل قال: نزل آدمُ بتحريم أربعٍ: الميتةِ، والدَّمِ، ولحمِ الخِنْزِيرِ، وما أُهِلَّ لغير الله به، وإن هذه الأربعةَ الأشياء لم تَحِلَّ قط، ولم تزل حرامًا منذ خلق الله السموات والأرض، فلما كانت بنو إسرائيل، حرَّم الله عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم بذنوبهم، فلما بعث الله عيسىٰ ابن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم عليه السلام، وأحلَّ لهم ما سوىٰ ذلك، فكذَّبُوه وعَصَوْه[٣]. وهذا أثر غريب.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن يونس، حدَّثنا رِبْعِيُّ بن عبد الله، قال: سمعت الجَارُود بن أبي سَبْرَة -قال: هو جَدِّي- قال: كان رجلٌ مِن بني رَيَاح يقال له: ابن وَثِيل، وكان شاعرًا، نَافَرَ «غَالِبًا» أبَا الفَرَزْدَق بماءٍ بظهر الكُوفَة، علىٰ أَن يعقر هذا مائةً مِن إبله، [وهذا مائةً مِن إبلِهِ][٤]، إذا وردت الماء، فلما وردت الماء قاما إليها بالسُّيُوف، فجعلا يَكْسِفان عَرَاقِيبَها[٥]. قال: فخرج الناس علىٰ الحُمُرات والبِغَال يُرِيدُون اللَّحم -قال: وعَلِيٌّ بالكوفة- قال: فخرج [عليٌّ][٦] علىٰ بغلةِ رسول الله ﷺ البَيْضَاء وهو يُنَادي: يا أَيُّها النَّاس، لا تأكلوا مِن لُحُومِهَا فإنَّما أُهِلَّ بها لغير الله[٧].

هذا أثرٌ غريبٌ، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود: حدَّثنا هارون بن عبد الله، [حدَّثنا][٨] حماد ابن مَسْعَدة، عن عوف، عن أبي رَيْحانة، عن ابن عبَّاس قال: نهىٰ النَّبيُّ ﷺ عن مُعاقَرَةِ الأعراب[٩].

ثم قال أبو داود: محمَّد بن جعفر -هو غُنْدَر- أوقفه علىٰ ابن عبَّاس. تفرد به أبو داود.

---

(١) حديث هرقل في «صحيح البخاري» (٧) ولم أجد هذا اللفظ فيه.
(٢) لوحة (٢٤٢ ب).
(٣) ضعيف: فيه نُعَيم بن حمَّاد: وهو صدوق يخطئ كثيرًا، فلا يعتمد عليه إذا انفرد، ولم أجد من تابعه.
(٤) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «تفسير ابن أبي حاتم».
(٥) كسف عُرْقوب الناقة: قطعه بالسيف، والعُرْقوب: هو الوتر الذي خلف الكعبين، بين مفصل القدم والساق من ذوات الأربع، وهو من الإنسان فُوَيْقَ العَقِب.
(٦) سقط من (ز).
(٧) حسن: وقد عزاه المصنف لابن أبي حاتم بإسناده، ولم أقف عليه في «مسنده».
(٨) في (ز): بن.
(٩) حسن: رواه أبو داود (٢٨٢٠).

وقال أبو داود أيضًا: حدَّثنا هارون بن زيد بن أبي الزَّرقاء، حدَّثنا أبي، حدَّثنا جرير بن حازم، عن الزُّبير بن خِرِّيت قال: سمعت عِكْرِمة يقول: [كان ابن عبَّاس يقول:](١) إن رسول الله ﷺ نهىٰ عن طعام المُتبارِيَيْن أن يُؤْكَل(٢).

ثم قال أبو داود(٣): أكثر من رواه عن جرير(٤) لا يذكر فيه ابن عبَّاس. تفرَّد به أيضًا.

وقوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تَموت بالخَنْقِ إمَّا قصدًا أو اتِّفاقًا، بأن تَتخبل في وَثَاقِها، فتموت به، فَهي حرام.

وأما ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ فهِيَ الَّتي تُضْرَب [بشيءٍ ثقيل غير مُحَدَّدٍ حتىٰ تموت، كما قال ابن عبَّاس وغير واحد: هي التي تضرب](٥) بالخَشَبة حتىٰ تُوقَذَ بها(٦) فتَمُوت.

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعِصِي حتَّىٰ إذا ماتت أكلوها.

وفي «الصَّحيح»: أنَّ عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي أَرْمِي بالمِعراض الصيد فأصيب. قال: «إِذَا رَمَيْتَ بِالمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيذٌ فَلَا تَأْكُلْهُ»(٧).

[ففرَّق بين ما أصابه بالسَّهم، أو بالمِزْرَاق(٨) ونحوه بحدِّه فأَحَلَّه](٩) وما أصابه بعَرْضِه، فجعله وقيذًا فلم يُحِلَّه، وقد أجمع الفقهاء علىٰ هذا الحكم هاهنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحةُ الصَّيد فقتله بثِقَلِه ولم يَجْرَحْه، علىٰ قولين، هما قولان للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أحدهما: أنَّه لا يَحِلُّ، كما في السَّهم، والجامع أنَّ كلًّا منهما مَيِّتٌ بغير جُرْحٍ، فهو وَقِيذٌ.

والثَّاني: أنَّه يَحِلُّ؛ لأنَّه حكم بإباحَةِ ما صاده الكلب، ولم يَسْتَفْصِل، فدلَّ علىٰ إباحة ما ذكرناه؛ لأنَّه قد دخل في العموم. وقد قررت لهذه المسألة فصلًا، فليُكتَبْ هاهنا.

فصل

اختلف العلماء -رحمهم الله تعالىٰ- فيما إذا أَرْسَل كلبًا علىٰ صيدٍ، فقتله بثِقَلِهِ ولم يَجْرَحْه، أو صدَمَهُ، هل يَحِلُّ أم لا ؟ علىٰ قولين:

أحدهما: أنَّ ذلك حلالٌ؛ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤] وكذا عمومات

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) رواه أبو داود (٣٧٥٤) وإسناده مرسل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح، رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٠٦٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٢٦).

(٣) لوحة (٢٤٣ أ).

(٤) في (ز): غير ابن جرير، وما أثبتناه موافق لما في «سنن أبي داود».

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) في (ز): حتىٰ يوقذها. والمثبت من «الطبري».

(٧) البخاري (١٧٥، ٢٠٥٤)، ومسلم (١٩٢٩)، وأبو داود (٢٨٤٧)، والترمذي (١٤٦٥)، والنسائي (٧/ ١٨٠)، وابن ماجة (٣٢١٥).

(٨) المزراق: رمح قصير.

(٩) سقط من (ز).

حديث عَدي بن حاتم. وهذا قولُ حكاه الأصحاب عن الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، وصَحَّحَه بعضُ المتأخِّرين [منهم][(١)]، كالنَّووي والرَّافعي.

قلتُ: وليس ذلك بظَاهِرٍ مِن كلام الشافعي في «الأُمِّ» و«المختصر»، فإنَّه قال في كلا الموضعين: «يَحْتَمِل مَعْنَيَيْن». ثم وجَّه كلًّا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه، فأطلقوا في المسألة قولين عنه، اللَّهُمَّ إلا أنَّه في بحثه حكايته للقول بالحل رشحه قليلًا، ولَمْ يُصَرِّح بواحدٍ منهما ولا جزم به. والقول بذلك؛ أعني: الحِلَّ، نقله ابن الصبَّاغ عن أبي حنيفة، من رواية الحسن بن زياد عنه، ولم يَذْكُر غير ذلك، وأمَّا أبو جعفر ابن جرير فحكَاه في «تفسيره» عن سلمان الفارسي، وأبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وهذا غريبٌ جدًّا، وليس يوجد ذلك مصرحًا به عنهم، إلا أنَّه من تَصَرُّفِه رحمه الله، ورضي عنه[(٢)].

والقول الثاني: أنَّ ذلك لا يَحِلُّ، وهو أحد القولين عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، واختاره المُزَني، ويَظْهَر مِن كلام ابن الصبَّاغ تَرْجِيحُه أيضًا، والله أعلم، ورواه أبو يوسف ومحمَّد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد[(٣)] بن حنبل رضي الله عنه، وهذا القول أشبه بالصواب والله أعلم؛ لأنَّه أَجْرَىٰ علىٰ القواعد الأصولية، وأَمْشَىٰ علىٰ الأصول الشَّرْعِيَّة، واحتج ابن الصَّبَّاغ له بحديث رافع بن خَدِيج، قلت: يا رسول الله، إنَّا لَاقُو العدو غدًا وليس معنا مُدًى، أفنذبح بالقَصَب؟ قال: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ**»[(٤)]. الحديث بتمامه، وهو في «الصحيحين».

وهذا وإن كان واردًا علىٰ سببٍ خاصٍّ، فالعبرة بعموم اللَّفظ عند جمهور من العلماء، في الأصول والفروع، كما سئل عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ البِتْعِ -وهو نبيذ العسل- فقال: «**كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ**»[(٥)] أفيقول فقيه: إنَّ هذا اللَّفظ مخصوص بشَراب العسل؟ وهكذا هذا: سألوه عَن شيءٍ من الذَّكاة، فقال لهم كلامًا عامًّا، يشمل ذاك المَسْئُول عنه وغيره؛ لأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أُوتِيَ جَوَامِعَ الكلم.

إذا تقرَّر هذا؛ فما صَدَمَه الكلب أو غَمَّه بثِقَلِهِ، ليس ممَّا أَنْهَر دَمَه، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث. فإن قيل: هذا الحديث لَيْسَ مِنْ هذا القَبِيل بشيءٍ؛ لأنَّهم إنَّما سألوا عن الآلَةِ التي يُذَكَّىٰ بها، ولم يسألوا عن الشيء الذي يذكَّىٰ؛ ولهذا اسْتَثْنَىٰ من ذَلك السِّنَّ والظُّفر، حيث قال: «**لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَىٰ الحَبَشَةِ**»[(٦)]. والمستثنىٰ يدلُّ علىٰ جنس المستثنىٰ منه، وإلا لم

---

(١) ليست في (ز).

(٢) علَّق على هذا الموضع سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: فَصَّل في المعراض ولم يُفَصِّل في صيد الكلب ـ أي أن النبي ﷺ فَصَّل في المعراض ولم يُفَصِّل في صيد الكلب ـ أي أن النبي ﷺ فَصَّل في المعراض في حديث عدي بن حاتم مرفوعًا بينما النصوص في صيد الكلب مطلقة ـ فعلى هذا: القولُ بالحلّ هو الصحيح، وليس القول: إنه من تصرف ابن جرير ظاهرًا، بل الصحيح أنه هو الموافق للأدلة، ومن أبين ذلك قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤].

(٣) لوحة (٢٤٣ ب).

(٤) البخاري (٢٤٨٨، ٥٤٩٨)، ومسلم (١٩٦٨)، وأبو داود (٢٨٢١)، والترمذي (١٤٩١)، والنسائي (٧/ ٢٢٦).

(٥) البخاري (٢٤٢، ٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١).

(٦) جزء من حديث رافع المتقدم.

يكن متصلًا، فدلَّ علىٰ أن المسئول عنه هو الآلة، فلا يبقىٰ فيه دلالة لما ذكرتم.

فالجواب عن هذا: بأنَّ في الكلام ما يُشْكِلُ عليكم أيضًا، حيث يقول: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ**». ولم يقل: فَاذْبَحُوا به، فهذا يُؤخَذ منه الحكمان معًا، يُؤْخَذ حكم الآلة الَّتي يُذَكَّىٰ بها، وحُكْم المُذَكَّىٰ، وأنَّه لا بد من إنهار دَمِهِ بآلةٍ، ليست سنًّا ولا ظفرًا. هذا مسلك.

والمسلك الثاني: طريقة المُزَني، وهي أن السَّهم جاء التصريح فيه بأنَّه إن قتل بعَرْضِه فلا تأكل، وإن خَزَق فَكُلْ. والكلبُ جاء مطلقًا، فيُحْمَل علىٰ ما قُيِّد هناك من الخَزْق؛ لأنهما اشتركا في الموجب، وهو الصيد، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب، كما وجب حمل مطلق الإعتاق في الظِّهار[1] علىٰ تقييده بالإيمان في القتل، بل هذا أولىٰ. وهذا يَتَوَجَّه له علىٰ من يسلم له أصل هذه القاعدة مِن حيث هي، وليس فيها خلافٌ بين الأصحاب قاطبةً، فلا بد لهم من جوابٍ عن هذا، وله أن يقول: هذا قتله الكلب بِثِقَلِه، فلم يحلَّ؛ قياسًا علىٰ ما قتله السهم بعَرْضه، والجامع أنَّ كلًّا منهما آلةٌ للصيد، وقد مات بِثِقَلِهِ فيهما. ولا يعارَضُ ذلك بعموم الآية؛ لأنَّ القياس[2] مُقَدَّمٌ علىٰ العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلكٌ حسنٌ أيضًا[3].

مسلك آخر، وهو: أن قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٤] عامٌّ فيما قَتَلْنَ بجرحٍ أو غيره، لكن هذا المقتول علىٰ هذه الصورة المتنازَعِ فيها، لا يخلو إمَّا أن يكون نطيحًا أو في حكمه، أو منخنقًا أو في حكمه، وأيًّا ما كان فيجب تقديم حكم هذه الآية علىٰ تلك لوجوه:

أحدها: أنَّ الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعديِّ بن حاتم: «**وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيذٌ فَلَا تَأْكُلْهُ**». ولم نعلم أحدًا من العلماء، فصل بين حكم وحكم مِن هذه الآية، فقال: إنَّ الوَقِيذَ معتبر حالة الصيد، والنَّطيح ليس معتبرًا، فيكون القول بحل المتنازع فيه خَرْقًا للإجماع لا قائل به، وهو محظور عند كثيرٍ من العلماء.

الثاني: أن تلك الآية: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٤] ليست علىٰ عمومها بالإجماع، بل مخصوصة بما صِدْنَ من الحيوان المأكول، وخرج من عمومِ لفظها الحيوان غير المأكول بالاتِّفاق، والعموم المحفوظ مقدَّم علىٰ غير المحفوظ.

المسلك الآخر: أنَّ هذا الصَّيد -والحالة هذه- في حكم الميتة سواء؛ لأنَّه قد احتقن فيه الدماء، وما يتبعها من الرُّطوبات، فلا تحل قياسًا علىٰ الميتة.

المسلك الآخر: أنَّ آية التحريم؛ أعني قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ إلىٰ آخرها، محكمةٌ لم

---

(١) **الظِّهارُ**: أن يقول الرجل لامرأته: أنت عَليَّ كظَهْرِ أمي، وهو مُحَرَّم، وكان يعدُّ طلاقًا، فلما جاء الإِسلام نُهُوا عنه، وأُوجبَت الكفَّارةُ علىٰ من ظَاهَرَ من امرأته، وأَصله مأخوذٌ من الظَّهْر. ينظر: «**اللسان**»: ظهر، و«**فتح الباري**»: (٩/ ٤٣٢).

(٢) لوحة (٢٤٤ أ).

(٣) **قال ابن باز** رحمه الله: ما قتله الكلب ليس نطيحًا ولو صدمه فمات، وهذا هو الصحيح، بخلاف ما ذكر هنا.

يدخلها نسخٌ ولا تخصيصٌ، وكذا ينبغي أن تكون آية التَّحليل محكمةً؛ أعني: قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] فينبغي ألا يكون بينهما تعارضٌ أصلًا، وتكون السُّنَّة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصَّة السَّهم، فإنَّه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خَزَقه المِعْرَاض فيكون حلالًا؛ لأنَّه من الطَّيِّبات، وما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعَرْضٍ فلا يُؤْكَل؛ لأنَّه وَقِيذٌ، فيكون أحدَ أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء، إن كان قد جَرَحَه الكلب فهو داخل في حكم آية التَّحليل. وإن لم يجرحه بل صدَمَهُ، أو قتَلَهَ بِثِقَلِه، فهو نطيح أو في حكمه، فلا يكون حلالًا.

فإن قيل: فلم لا فَصَّل في حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حَرَام؟

فالجواب: أنَّ ذلك نادر؛ لأنَّ مِن شأن الكلب أن يَقْتُلَ بظفره أو نَابِه أو بهما معًا، وأما اصطدامه -هو والصيد- فنَادِرٌ، وكذا قَتْله إياه بثِقَلِه، فلم يَحْتَجْ إلىٰ الاحتِراز مِن ذلك لنُدُورِه، أو لظُهُور حكمه عند[1] مَن عَلِمَ تحريم الميتة والمُنْخَنِقَة والمَوْقُوذَة والمُتَرَدِّيَة والنَّطِيحة، وأما السَّهم والمِعْرَاض فتارةً يُخْطِئ لسُوءِ رَمْيِ راميه، أو لِلْهَوَاء، أو نحو ذلك، بل خَطَؤُه أكثر من إصابته؛ فلهذا ذكر كلًّا من حُكْمَيْه مفصلًا والله أعلم؛ ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنَّه قد يأكل من الصيد، ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد، فقال: «إِنْ أَكَلَ فَلا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ»[2] وهذا صحيحٌ ثابتٌ في «الصَّحِيحَيْن» وهو أيضًا مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحِلُّ ما أكل منه الكلب، حُكِيَ ذلك عن أبي هريرة، وابن عبَّاس. وبه قال الحسن، والشعبي، والنَّخَعي، وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباه، وأحمد بن حنبل، والشَّافعي في المشهور عنه، وروىٰ ابن جرير في «تفسيره» عن علي، وسعدٌ، وسلمانُ، وأبي هريرة، وابنُ عمرَ، وابن عبَّاس: أنَّ الصَّيْدَ يُؤْكَل وإن أكل منه الكلب، حتىٰ قال سعد، وسلمان، وأبو هريرة وابن عمر، وغيرهم: يُؤْكَل ولَو لَمْ يَبْقَ منه إلا بَضْعةٌ، وإلىٰ ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأومأ في الجديد إلىٰ قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصَّبَّاغ، وغيرُه مِن الأصحاب [عنه][3].

وقد روىٰ أبو داود بإسنادٍ جَيِّدٍ قويٍّ، عن أبي ثَعْلبةَ الخُشَنِي، عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ، وَكُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ»[4].

ورواه أيضًا النسائي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنَّ أعرابيًّا يقال له: أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، فذكر نحوه.

---

(١)لوحة (٢٤٤ ب). (٢)هو جزء من حديث عَدِيٍّ المتقدم. (٣)سقط من (ز).

(٤) حسن: أبو داود (٢٨٥٢) وفيه ضعف، ورواه من الطريق الثاني (٢٨٥٧)، وكذا رواه النسائي (٧/ ١٩١) وإسناده حسن، ويشهد له أيضًا حديث سلمان الآتي.

وقال محمَّد بن جرير في «تفسيره»: حدَّثنا عمران بن بَكَّار الكَلاعِيُّ، حدَّثنا عبد العزيز بن موسىٰ -هو اللاحوني- حدَّثنا محمَّد بن دينار -هو الطاحي- عن أبي إياس -وهو معاوية بن قُرَّةَ- عن سعيد بن المسيب، عن سلمانَ الفارسيِّ، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَرْسَلَ [الرَّجُلُ]**[١] **كَلْبَهُ عَلَىٰ الصَّيْدِ فَأَدْرَكَهُ، وَقَدْ أَكَلَ مِنْهُ، فَلْيَأْكُلْ مَا بَقِيَ**»[٢].

[ثم][٣] إنَّ ابن جرير علَّله، بأنَّه قد رواه قتادةُ وغيره، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفًا، وأمَّا الجمهور فقدَّموا حديث عَديٍّ علىٰ ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره. وقد حمله بعض العلماء علىٰ أنَّه [إن][٤] أكل بعد ما انْتَظَر صاحبَهُ؛ وطال عليه الفصل ولم يجئ، فأَكَلَ منهُ لجوعه ونحوه، فإنَّه لا بأس بذلك؛ لأنه -والحالة هذه- لا يُخْشَىٰ أنَّه أمسك علىٰ نفسه، بخلاف ما إذا [أكل][٥] منه أول وَهْلةٍ، فإنَّه يظهر منه أنَّه أمسك علىٰ نفسه، والله أعلم.

فأمَّا الجوارح مِن الطَّيْر فنصَّ[٦] الشافعي علىٰ أنها كالكلاب، فيَحْرُم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين. واختار المزني من أصحابنا أنَّه لا يحرم أكل ما أَكَلَتْ منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنَّه لا يمكن تعليمها كما يُعَلَّمُ الكلب بالضَّرب ونحوه، وأيضًا فإنها لا تُعَلَّمُ إلا بأكلها مِن الصَّيْد، فيُعْفَىٰ عن ذلك، وأيضًا فالنَّص إنَّما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو علي في «الإفصاح»: إذا قلنا: يحرم ما أكل منه الكلب، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب؛ لنص الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ التَّسْوِيَة بينهما، والله تَعَالَىٰ أعلم.

وأما ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ فهي الَّتِي تقع مِن شاهِقٍ أو مَوضِعٍ عالٍ، فتموت بذلك، فلا تَحِلُّ.

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تسقط مِن جَبَلٍ. وقال قتادة: هي التي تَتَردَّي في بئر.

[وقال السُّدِّي: هي التي تقع من جبلٍ أو تَتَردَّىٰ في بئر][٧].

وأما ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ فهي التي ماتت بسبب نَطْح غيرها لها، فَهِيَ حَرَامٌ، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو مِن مَذْبَحِهَا.

والنَّطيحة: فعيلة بمعنىٰ مفعولة؛ أي: منطوحة. وأكثر ما تَرِد هذه البِنْيَة في كلام العرب بدون تاء التأنيث، فيقولون: كَفٌّ خَضِيبٌ، وعينٌ كَحِيل، ولا يقولون: كفٌّ خَضِيبةٌ، ولا عينٌ كَحِيلةٌ: وأما هذه

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ٩٧) ورجاله ثقات عدا محمَّدَ بنَ دينار، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ، ورجح الطبري كونه موقوفًا علىٰ سلمان، وقال ابن جرير: في إسناده نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان؛ يعني: أنه منقطع.

(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (٢٤٥ أ). (٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

فقال بعض النَّحاة: إنما استعمل فيها تاء التأنيث؛ لأنها أجريت مجرىٰ الأسماء، كما في قولهم: طَرِيقَةٌ طويلةٌ. وقال بعضهم: إنما أُتِي بتاء التأنيث فيها؛ لتدلَّ علىٰ التأنيث مِن أوَّل وهلةٍ، بخلاف: عين كحيل، وكفٌّ خَضِيب؛ لأنَّ التَّأنيث مستفادٌ من أوَّل الكلام.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نَمِر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرامٌ وإن كان قد سَالَ منها الدِّماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهليَّة يأكلون ما أفضل السَّبُع من الشَّاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك، فحرَّم الله ذلك علىٰ المؤمنين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائدٌ علىٰ ما يُمْكِنُ عَوْدُه عليه، ممَّا انعقد سبب موته، فأمكن تداركه بذِكَاةٍ وفيه حياةٌ مستقرَّةٌ، وذلك إنَّما يعود علىٰ قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذَبَحْتُم من هؤلاء وفيه رُوح، فكُلُوه، فهو ذَكِيٌّ. وكذا رُوِي عن سعيد بن جبير، والحسن البصري، والسُّدِّي.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد[1] الأشَجّ، حدَّثنا حَفْص بن غِيَاث، حدَّثنا جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي قال: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قال: إن مَصَعَتْ بِذَنَبِها[2]، أو رَكَضَتْ برجلها، أو طَرَفَتْ بعينها - فكُلْ[3].

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا هُشَيْم وعَبَّاد قالا: حدَّثنا حجاج، عن حُصَين، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يدًا أو رجلًا، فكُلْهَا[4].

وهكذا رُوِيَ عن طاوس، والحسن، وقتادة، وعُبَيد بن عُمير، والضَّحَّاك وغير واحدٍ: أنَّ المذكَّاة متىٰ تحركت بحَرَكَةٍ تدل علىٰ بقاء الحياة فيها بعد الذَّبْحِ، فهي حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل.

وقال ابن وهب: سُئِل مالك عن الشاة التي يخرق جوفَها السَّبُعُ حتىٰ تَخْرُج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرىٰ أن تُذَكَّىٰ. أيُّ شيء يُذَكَّىٰ منها؟!

وقال أشهب: سُئِل مالك عن الضَّبع يعدو علىٰ الكَبْش، فيدقّ ظهره، أترىٰ أن يُذَكَّىٰ قبل أن يموت، فيُؤْكَل؟ قال: إن كان قد بلغ السُّحْرة[5]، فلا أرىٰ أن يُؤْكَل، وإن كان أصاب أطرافه، فلا أرىٰ بذلك بأسًا. قيل له: وثب عليه فدَقَّ ظهره؟ فقال: لا يُعْجِبُنِي، هذا لا يَعِيشُ منه. قيل له: فالذِّئب يعدو

---

(١) لوحة (٢٤٥ ب).
(٢) مَصَعَتْ بذَنَبِها: حرَّكَتْهُ.
(٣) منقطع: رواه عبد الرزاق (٤/ ٤٩٩/ ٨٦٣٤)، والطبري (٦/ ٧٢) وهو منقطع بين محمَّد بن علي، وجده علي بن أبي طالب، ولكن له طريق أخرىٰ من طريق الحارث الأعور: رواه الطبري (٦/ ٧٢)، والحارث الأعور متهم بالكذب، قال الحافظ: كذَّبه الشعبي في رأيه، ورُمِي بالرفض، وفي حديثه ضعف.
(٤) انظر التعليق السابق.
(٥) السُّحْرة: القلب. «اللسان»: س ح ر.

علىٰ الشَّاة، فيشق بَطْنَهَا ولا يَشُقُّ الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرىٰ أَن تُؤْكَل.

هذا مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ، وظاهر الآية عامٌّ فيما استثناه مالك رَحِمَهُ اللهُ مِن الصُّوَرِ، التي بلغ الحيوان فيها إلىٰ حالةٍ لا يعيش بعدها، فيحتاج إلىٰ دليل مُخَصِّصٍ للآية، والله أعلم.

وفي «الصحيحين»: عن رافع بن خَدِيج أنَّه قال: قلت: يا رسول الله! إنَّا لاقو العَدُوِّ غدًا، وليس معنا مُدًى، أفنذبح بالقَصَب؟ فقال: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَىٰ الحَبَشَةِ**»(١).

[وفي الحديث الَّذي رواه الدَّارقطني عن أبي هريرة مرفوعًا، وفيه نظر، وروي عن عمر موقوفًا، وهو أصح: «**أَلَا إِنَّ الذَّكَاةَ فِي الحَلْقِ وَاللَّبَّةِ، وَلَا تُعَجِّلُوا الأَنْفُسَ أَنْ تَزْهَقَ**»(٢)](٣).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية حماد بن سلمة، عن أبي العُشَراء الدارمي، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذَّكاة إلَّا مِن اللَّبَّة والحلق؟ فقال: «**لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخِذِهَا لَأَجْزَأَ عَنْكَ**»(٤).

وهو حديث صحيح، ولكنَّه محمول علىٰ ما لم يَقْدِر علىٰ ذبحه في الحلق واللَّبَّة.

وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قال مجاهد وابن جُرَيْج: [كانت النُّصُبُ حجارةً حول الكعبة، قال ابن جريج:](٥) وهي ثلاثمائة وستُّون نُصُبًا، كان العَرب في جَاهِلِيَّتِهَا يذبحون عندها، ويَنْضَحُون(٦) ما أقبل منها إلىٰ البيت بدماء تلك الذبائح، ويُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ(٧)(٨)، وَيَضَعُونَهُ عَلَىٰ النُّصُب.

وكذا ذكره غير واحدٍ، فنهىٰ الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحَرَّم عليهم أكل هذه الذَّبائح التي فُعِلَت عند النُّصُب [حتىٰ ولو كان يُذْكَر عليها اسم الله في الذَّبح عند النُّصُب](٩) من الشِّرك الَّذي حرَّمَه الله ورسولُهُ. ويَنْبَغي أَن يحمل هذا علىٰ هذا؛ لأنه قد تقدَّم تحريم ما أُهِلَّ به لغير الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: حرَّم عليكم أيُّها المؤمنون الاستقسام بالأَزْلَام: واحدها: زُلَم، وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَم، وقد كانت العرب في جاهليَّتِها يتعاطَوْن ذلك، وهي عبارة عن

---

(١) متفق عليه: وتقدم قريبًا.

(٢) صحيح موقوف علىٰ عمر: أما المرفوع فقد رواه الدارقطني (٤/ ٢٨٣) وفي إسناده ضعف، فيه سعيد بن سلام العطار: منكر الحديث، وأما الموقوف فقد رواه عبد الرزاق عن علي (٨٦١٤)، وثبت كذلك عن ابن عبَّاس، رواه البخاري تعليقًا (٩/ ٦٤١)، ووصله البيهقي (٩/ ٢٧٨) من طريق أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس وإسناده صحيح.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه أبو داود (٢٨٢٥)، والترمذي (١٤٨١)، والنسائي (٣/ ٢٢٨)، وابن ماجة (٣١٨٤)، وإسناده ضعيف فيه أبو العُشَراء، قال الحافظ: أعرابي مجهول، وقال الذهبي في «الميزان»: لا يدرىٰ من هو، ولا من أبوه، وبهذا تعلم أن تصحيح ابن كثير للحديث وهم منه.

(٥) سقط من (ز). (٦) النضح: الرش.

(٧) أي: يجعلونه شرائح رفيعة. (٨) لوحة (٢٤٦ أ). (٩) سقط من (ز).

قِداحٍ ثلاثةٍ، علىٰ أحدها مكتوب: «افْعَلْ» وعلىٰ الآخر: «لَا تَفْعَلْ» والثالث غُفْل ليس عليه شيءٌ. ومن النَّاس مَن قال: مكتوب علىٰ الواحد: «أَمَرني ربِّي» وعلىٰ الآخر: «نهانِي ربِّي». والثالث غفل[1] ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطَلَع السهم الآمر فعله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستقسام.

[والاستقسام:][2] مأخوذٌ مِن طلب القَسْم من هذه الأَزْلَام. هكذا قَرَّر ذلك أبو جعفر بن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصَّباح، حدَّثنا الحجاج بن محمَّد، أخبرنا ابن جُرَيج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾ قال: والأزلام: قِدَاحٌ كانوا يَسْتَقْسِمُون بها في الأُمُور[3].

وكذا رُوِيَ عن مجاهد، وإبراهيم النَّخَعِي، والحسن البَصْرِي، ومُقَاتِل بن حَيَّان.

وقال ابن عبَّاس: هي القِدَاح، كانوا يَسْتَقْسِمُون بها في الأمور. وذكر محمَّد بن إسحاق وغيره: أنَّ أعظم أصنام قريشٍ صنم كان يُقَال له: هُبَل، وكان داخل الكعبة، منصوبٌ علىٰ بئرٍ فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، كان عندَه سبعة أزلام مكتوب فيها ما يَتحَاكَمُون فيه، مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه.

وثبت في «الصحيح»: أن النَّبيَّ ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مُصَوَّرَيْن فيها، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «**قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا**»[4].

وفي «الصحيح»: أنَّ سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم لما خرج في طلب النَّبيِّ ﷺ وأبي بكر، وهما ذاهبان إلىٰ المدينة مهاجرَيْنِ، قال: فاسْتَقْسَمْت بالأزلام هل أَضُرُّهُم أم لا؟ فخرج الذي أَكْرَه: لا تَضُرُّهم، قال: فعصيت الأزلام واتَّبَعْتُهُم، ثم إنَّه استقسم بها ثانيةً وثالثةً، كل ذلك يخرج الذي يكره: لا تضرهم، وكان كذلك، وكان سُراقة لَمْ يُسْلِمْ إذ ذاك، ثم أسلم[5] بعد ذلك[6].

وروىٰ ابن مَرْدويه مِن طريق إبراهيمَ بنِ يزيدَ، عن رَقَبَة[7]، عن عبد الملك بن عُمَيْر، عن رَجاء بن حَيْوَة، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يَلِجَ الدَّرَجَاتِ مَنْ تَكَهَّنَ**[8]، **أَوِ اسْتَقْسَمَ، أَوْ رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ طَائِرًا**[9]»[10].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾ قال: هي سهَام العرب، وكِعَاب فارس والروم،

---

(١) في (ز): عطل.
(٢) ليست في (ز).
(٣) منقطع: رواه الطبري (٦/ ٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس.
(٤) البخاري (١٦٠١، ٣٣٥٢)، وأبو داود (٢٠٢٧).
(٥) لوحة (٢٤٦ ب).
(٦) انظر: «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).
(٧) في (ز): رقية.
(٨) في (ز): تكبر.
(٩) طائرًا؛ أي: متطيرًا.
(١٠) صححه الألباني: انظر «السلسلة الصحيحة» (٢١٦١).

كانوا يتقامرون بها.

وهذا الَّذِي ذُكِر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقِمَار فيه نظر، اللَّهُمَّ إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارةً، وفي القمار أخرى، والله أعلم، فإنَّ الله ﷻ قد فرَّق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [الآيتان:٩٠، ٩١] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [أي: تعاطيه فسق](١) وغيٌّ وضلالٌ وجهالةٌ وشركٌ، وقد أمر الله المؤمنين إذا تَرَدَّدُوا في أُمُورِهم أن يَسْتَخِيرُوه بأَن يَعْبُدُوه، ثمَّ يسألوه الخِيَرَة في الأمر الذي يريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخاري وأهل السُّنن، من طُرُقٍ عن عبد الرحمن بن أبي المَوَالي، عن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر ابن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستخارة، كما يعلمُنا السورةَ من القرآنِ، يقولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ** -ويسميه باسمه- **خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، وَبَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ شَرًّا لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**». لفظ أحمد(٢).

وقال التِّرمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُه إلا مِن حديث ابن أبي المَوالي.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني: يَئِسُوا أن يُرَاجِعُوا دِينَهُم.

وكذا رُوِيَ عن عطاء بن أبي رباح، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان. وعلى هذا المعنىٰ يَرِد الحديث الثَّابت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(٣)(٤).

ويُحْتَمَل أن يكون المراد: أنَّهم يَئِسُوا من مشابهة المسلمين، بما تميَّز به المسلمون مِن هذه الصِّفات المخالفة للشِّرك وأهله؛ ولهذا قال تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين أن يَصْبِرُوا ويَثْبُتُوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدًا إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: لا تَخافُوا منهم في مخالفتكم إيَّاهم، واخشوني أَنْصُرْكُم عليهم، وأُبِيدْهُمْ وأُظفِركم بهم، وأَشْفِ صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) البخاري (١١٦٢، ٦٣٨٣)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٦/ ٨٠)، وابن ماجة (١٣٨٣).

(٣) مسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧).

(٤) أي: في حَمْلهم علىٰ الفتن والحرُوب. «النهاية».

وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ هذه أكبر نِعَمِ الله عَجَلَّ علىٰ هذه الأُمَّة، حيث أكمل تعالىٰ لهم دِينَهُم، فلا يَحْتَاجُون إلىٰ دينٍ غيره(١)، ولا إلىٰ نبيٍّ غير نبيِّهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلىٰ الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلَّه، ولا حرام إلا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حقٌّ وصدقٌ، لا كذب فيه ولا خُلْف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنَّواهي، فلمَّا أكمل الدِّين لهم تمَّت النِّعمة عليهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أي: فارْضَوْه أنتم لأنفسكم، فإنَّه الدِّين الذي رَضِيَه الله، وأَحبَّه، وبَعَثَ به أفضل رُسُلِهِ الكرام، وأنزل به أشرف كُتُبِهِ.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله

---

(١) قال القرطبي رحمه الله: لعل قائلًا يقول: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ يدل علىٰ أن الدين كان غير كامل في وقتٍ من الأوقات ، وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين، والأنصار، والذين شهدوا بدرًا والحديبية وبايعوا رسول الله ﷺ البيعتين جميعًا، وبذلوا أنفسهم لله مع عظيم ما حل بهم من أنواع المِحَن ماتوا علىٰ دينٍ ناقصٍ، وأن رسول الله ﷺ في ذلك كان يدعو الناس إلىٰ دينٍ ناقصٍ، ومعلوم أن النقصَ عيبٌ، ودين الله تعالىٰ قيِّمٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ [الأنعام: ١٦١] فالجواب أن يقال له: لِمَ قلتَ إن كل نقص فهو عيبٌ، وما دليلك عليه؟ ثم يقال له: أرأيت نقصان الشهر، هل يكون عيبًا؟! ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها؟! ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١] أهو عيب له؟ ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحمل، ونقصان المال بسرقةٍ أو حريقٍ أو غرقٍ إذا لم يفتقر صاحبه، فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالىٰ هذه ليست بشَيْنٍ ولا عيب، وما أنكرت أن معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ يخرج علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد بلَّغتُه: أقصىٰ الحد الذي كان له عندي، فيما قضيته وقدرته، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصًا نقصانَ عيب، لكنه يوصف بنقصانٍ مقيدٍ، فيقال له: إنه كان ناقصًا عما كان عند الله تعالىٰ أنه مُلْحِقُه به وضامُّه إليه، كالرجل يبلغه الله مائة سنة، فيقال: أكمل الله عمره؛ ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان ابن ستين، كان ناقصًا نقصَ قصورٍ وخللٍ؛ فإن النبي ﷺ كان يقول : «**من عمَّره الله ستينَ سنةً فقد أعذَرَ إليه في العُمُر**». ولكنه يجوز أن يوصف بنقصانٍ مقيدٍ، فيقال: كان ناقصًا عما كان عند الله تعالىٰ أنه مبلِّغُه إياه ومُعمِّرُه إليه. وقد بلغ الله بالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات؛ فلو قيل عند ذلك أكملها لكان الكلام صحيحًا، ولا يجب عن ذلك أنها كانت حين كانت ركعتين ناقصًة نقص قصورٍ وخللٍ؛ ولو قيل: كانت ناقصةً عما عند الله أنه ضامُّه إليها، وزائدُهُ عليها لكان ذلك صحيحًا، فهكذا هذا في شرائع الإسلام، وما كان شرع منها شيئًا فشيئًا، إلىٰ أن أنهىٰ الله الدين منتهاه الذي كان له عنده، والله أعلم.

والوجه الآخر: أنه أراد بقوله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أنه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره، فحجوا؛ فاستجمع لهم الدين أداءً لأركانه، وقيامًا بفرائضه؛ فإنه يقول عليه السلام: «بني الإسلام علىٰ خمس» الحديث. وقد كانوا تشهَّدُوا وصلَّوْا وزكَّوْا وصامُوا وجاهدُوا واعتمروا ولم يكونوا حجُّوا؛ فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي ﷺ أنزل الله تعالىٰ وهم بالموقف عشيَّة عرفة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فإنما أراد أكمل وضعه لهم؛ وفي ذلك دلالة علىٰ أن الطاعات كلها دينٌ وإيمانٌ وإسلامٌ.

نَبيَّه ﷺ والمؤمنين أنَّه قد أكملَ لهم الإيمان، فلا يَحْتاجُون إلىٰ زيادةٍ أبدًا، وقد أتمَّه الله فلا يُنْقِصُه أبدًا، وقد رَضِيَه الله فلا يَسْخَطُه أبدًا.

وقال أَسْباطٌ عن السُّدِّي: نزلت هذه الآية يوم عَرَفَة، فلم ينزل بعدها حلالٌ ولا حرامٌ، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماءُ بنتُ عُمَيس: حَجَجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجةَ، فبَيْنَمَا نحن نسير إذ تَجلَّىٰ له جبريل، فمال رسول الله ﷺ علىٰ الرَّاحلة، فلم تُطِق الراحلة مِن ثِقَلِ ما عليها من القرآن فبركت، فأتيته فَسَجَّيْتُ عليه بُرْدًا كان عَلَيَّ (١).

قال ابن جُرَيْج وغير واحدٍ: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة (٢) بأَحَد وثمانين يومًا.

رواهما ابن جرير، ثم قال: حدَّثنا سفيان بن وَكِيع، حدَّثنا ابن فُضَيْل، عن هارون بن عنترةَ، عن أبيه قال: لما نزلت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ وذلك يوم الحَجِّ الأكبر، بكىٰ عمر، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة مِن دِينِنَا، فأما إِذْ أُكْمِلَ فإنه لم يكمُلْ شيء إلا نقصَ. فقال: «صَدَقْتَ» (٣).

ويشهد لهذا المعنىٰ الحديث الثَّابتُ: «إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ» (٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا جعفر بن عَوْن، حدَّثنا أبو العُمَيْس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلىٰ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أَمِيرَ المؤمنين، إنَّكم تَقْرَءُون آيةً في كتابكم، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: وأيُّ آيةٍ؟ قال قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فقال عمرُ: والله إني لَأَعْلَمُ اليَوْمَ الَّذِي نَزلت علىٰ رسول الله ﷺ، والسَّاعةَ التي نزلت فيها علىٰ رسول الله ﷺ، نزلت عَشِيَّة عَرَفَة في يَوْمِ جمعةٍ (٥).

ورواه البخاري عن الحسن بن الصبَّاح، عن جعفر بن عون به. ورواه أيضًا مسلم، والترمذي، والنَّسائي، من طرق عن قيس بن مسلم به.

ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري، عن قيس، عن طارق قال: قالت

---

(١) مرسل: رواه الطبري (٦/ ٧٩-٨٠)، ورواية السُّدِّي (وهو إسماعيل بن عبد الرحمن) عن أسماءَ بنتِ عُمَيْسَ مرسلةٌ. وأما السدي: قال يحيىٰ بن سعيد: لا بأس به، وقال أحمد: ثقة، وضعَّفه ابن معين، وأنكر الشعبي علىٰ السُّدي تفسيره للقرآن، وكذلك إبراهيم النَّخعي، وقال أبو زُرْعة: لين، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم الحديث، صدوق لا بأس به. انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ١٢٤)، وقال الحافظ: صدوق يهم ورمي بالتشيع. «التقريب» ترجمة (٤٦٣).

(٢) لوحة (٢٤٧ ب).

(٣) مرسل: رواه الطبري (٦/ ٨٠)، ورجاله ثقات عدا محمَّد بن فضل، فصدوق، لكن الحديث مرسل.

(٤) مسلم (١٤٥) وابن ماجة (٣٩٨٦) من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم (١٤٦) من حديث ابن عمر، وللحديث ألفاظ وشواهد، وقد شرحه الحافظ ابن رجب في رسالةٍ مستقلةٍ، قد قمت بتحقيقها ضمن مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب.

(٥) البخاري (٤٤٠٧، ٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧).

اليهود لعمر: إنَّكم تقرءون آيةً، لو نزلت فينا لاتَّخذْناها عِيدًا. فقال عمر: إني لأعلم حين أُنْزِلَت، وأين أُنْزِلَت، وأين رسول الله ﷺ حيث أُنزِلَت: يومَ عرفةَ، وأنا والله بعَرَفَة -قال سفيان: وأَشُكُّ كان يومَ الجمعة أم لا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية[١].

وشَكُّ سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ إن كان في الرِّواية فهو تَورُّعٌ، حيث شكَّ هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكًّا في كون الوقوف في حجة الوَدَاع كان يوم جمعة، فهذا ما إخالُه يَصْدُر عن الثَّوْرِي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّ هذا أمرٌ معلومٌ مقطوعٌ به، لم يَخْتَلِف فيه أحدٌ مِن أصحاب المغازي والسِّيَر، ولا مِن الفقهاء، وقد وردت في ذلك أحاديثُ متواترةٌ، لا يُشَكُّ في صِحَّتِها، والله أعلم، وقد روي هذا الحديث مِن غير وجهٍ عن عمر.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا رَجاء بن أبي سلمة، أخبرنا عُبادة بن نُسَيٍّ، أخبرنا أميرنا إسحاق -قال أبو جعفر بن جرير: هو إسحاق بن خَرَشَة- عن قَبِيصة -يعني ابن[٢] ذُؤيب- قال: قال كعب: لو أنَّ غير هذه الأُمَّة نزلت عليهم هذه الآيةُ، لنَظَرُوا اليوم الذي أُنزِلَت فيه عليهم، فاتَّخذوه عيدًا يجتمعون فيه. فقال عمر: أيُّ آيةٍ يا كعب؟ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ فقال عمر: قد علمتُ اليومَ الَّذي أُنزِلَت فيه، والمكانَ الذي أُنْزِلَت فيه، نَزَلَت في يوم جمعة ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عِيدٌ[٣].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا قَبيصة، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن عمار -هو مولىٰ بني هاشم- أن ابن عبَّاس قرأ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فقال يهوديٌّ: لو نزلت هذه الآيةُ علينا لاتَّخذْنا يومها عيدًا. فقال ابن عبَّاس: فإنَّها نزلت في يوم عِيدَيْنِ اثنين: يومِ عيدٍ ويومِ جمعةٍ[٤].

وقال ابن مَرْدويه: حدَّثنا أحمد بن كامل، حدَّثنا موسىٰ بن هارون، حدَّثنا يحيىٰ بن الحِمَّاني، حدَّثنا قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سَلْمان، عن أبي عمر البَزَّار، عن ابن الحنفيَّة، عن علي رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ، وهو قَائِمٌ عَشِيَّةَ عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٥].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكُوني، حدَّثنا هشام[٦] بن عمار، حدَّثنا ابن عياش، حدَّثنا عمرو بن قيس السكوني: أنَّه سَمِعَ معاوية بن أبي سفيان علىٰ المنبر يَنْتَزِعُ[٧] بهذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتىٰ ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم جمعة[٨].

---

(١) البخاري (٤٦٠٦). (٢) لوحة (٢٤٨ أ).

(٣) حسن: الطبري (٦/ ٨٢- ٨٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٣٠).

(٤) رواه الطبري (٦/ ٨٢)، وإسناده حسن.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٨٢)، وفيه إسماعيل بن سلمان الأزرق، قال الحافظ: ضعيف، وقيس بن الربيع: صدوق تغير لما كبر، ويحيىٰ الحِمَّاني: متهم بسرقة الحديث.

(٦) في (ز): هشيم. (٧) يعني: يتمثل. (٨) رواه الطبري (٦/ ٨٣).

وروىٰ ابن مَرْدويه، من طريق محمَّد بن إسحاق، عن عمر بن موسىٰ بن وجيه، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة قال: نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ وَاقِفٌ علىٰ المَوْقِفِ[١].

فأمَّا ما رواه ابن جرير وابن مردويه، والطبراني من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَنَش بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عبَّاس قال: وُلِدَ نَبِيُّكم ﷺ يوم الاثنين، [ونُبِّئَ يوم الاثنين][٢] وخرج من مكَّة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، [وأُنْزِلَت سورة المائدة يوم الاثنين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ورفع الذِّكر يوم الاثنين[٣]][٤] فإنَّه أثرٌ غريبٌ، وإسناده ضعيف.

وقد رواه الإمام أحمد: حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حَنَش الصَّنْعَانِي، عن ابن عبَّاس قال: وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ يوم الاثنين، واسْتُنْبِئَ يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا مِن مكَّة إلىٰ المدينة يوم الاثنين[٥]، وقَدِمَ المدينة يوم الاثنين، وتُوُفِّيَ يوم الاثنين، ورُفِعَ[٦] الحجر الأسود يوم الاثنين[٧].

هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين، فالله أعلم. ولعلَّ ابن عبَّاس أراد أنَّها نزلت يوم عِيدَيْن اثْنَيْن كما تقدَّم، فاشتبه علىٰ الرَّاوي، والله أعلم.

وقال ابن جرير: وقَد قِيلَ: ليس ذلك بيوم معلوم عند النَّاس، ثم رَوَىٰ مِن طريق العَوْفِيِّ، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول: ليس ذلك بيومٍ معلومٍ عند الناس[٨] قال: وقَد قِيلَ: إنَّها نزلت علىٰ رسول الله ﷺ في مسِيرِهِ إلىٰ حَجَّة الوداع. ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس[٩].

قلتُ: وقد روىٰ ابن مَرْدويه من طريق أبي هارون العَبْدي، عن أبي سعيد الخدري؛ أنها أنزلت علىٰ رسول الله ﷺ يوم غَدِير خُم[١٠] حين قال لعلي: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»[١١]. ثم رواه عن أبي هريرة، وفيه: أنَّه اليوم الثَّامنَ عَشَرَ مِن ذي الحِجَّةِ[١٢]؛ يعني: مَرْجِعَه عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن حَجَّة الوداع.

---

(١) رواية الحسن عن سمرة منقطعة، ولم يسمع منه إلا حديث العقيقة، لكن يشهد لحديثه الروايات المذكورة قبله.

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: عزاه لابن جرير (٦/ ٨٤)، والطبراني (١٢/ ٢٣٧)، وفيه أن نزول الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يوم الاثنين، هذا الأثر ضعيف، فإنه من رواية ابن لهيعة، وقد اختلط، وهو مخالفٌ لما ثبت عن الصحابة أن الآية نزلت يوم الجمعة.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٢٤٨ ب). (٦) في (ز): ووقع.

(٧) رواه أحمد (١/ ٢٧٧)، انظر التعليق السابق.

(٨) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٨٤) من طريق عطية العَوْفي، وهو شيعي كثير التدليس والخطإ.

(٩) ضعيف: رواه الطبري (٤/ ٨٤)، والإسناد مرسل.

(١٠) غدير خُم: موضِعٌ بين مكة والمدينة تصبُّ فيه عينٌ هُنَاك، وبينهما مسجد للنبي ﷺ. «النهاية».

(١١) ضعيف - أعني سبب نزول الآية-: وعلته أبو هارون العبدي: وهو متروك، وأما الحديث المذكور «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهو صحيح. رواه أحمد (١٩٣٠٢ - شعيب)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١٤٨).

(١٢) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٦٤٢٢)، وفيه داود بن يزيد: ضعيف.

ولا يَصِحُّ لا هذا ولا هذا، بل الصَّواب الَّذِي لا شكَّ فِيهِ ولا مِرْيَةَ: أَنَّها أُنْزِلَت يوم عَرَفَة، وكان يوم جمعة، كما روىٰ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأوَّل ملوك الإسلام معاوية ابن أبي سفيان، وتَرْجُمان القرآن عبد الله بن عبَّاس، وسَمُرَة بن جندب رضي الله عنهم، وأرسله عامر الشَّعْبِي، وقتادة ابن دِعامة، وشَهْر بن حَوْشَب، وغير واحدٍ من الأئمَّة والعلماء، واختاره ابن جرير الطَّبَري رحمه الله.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: فمن احتاج إلىٰ تناول شيءٍ مِن هذه المحرَّمات التي ذكرها تعالىٰ؛ لِضَرُورَةٍ ألجأته إلىٰ ذلك، فلَهُ تناول ذلك، والله غفورٌ رحيمٌ له؛ لأنَّه تعالىٰ يَعْلَم حاجة عَبْدِهِ المضطر، وافتقارَه إلىٰ ذلك، فيتجاوز عنه ويَغْفِر له[1].

وفي «المسند» و«صحيح ابن حبَّان»، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَىٰ رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَىٰ مَعْصِيَتُهُ**» لفظ ابن حبان[2]. وفي لفظ لأحمد «**مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رُخْصَةَ اللهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ جِبَالِ عَرَفَةَ**»[3].

ولهذا قال الفُقَهَاء: قد يكون تناوُلُ الميتةِ واجبًا في بَعْضِ الأحيان، وهو ما إذا خاف علىٰ مُهْجَتِهِ التَّلَف ولم يَجِدْ غيرَها، وقد يكون[4] مندوبًا، وقد يكون مباحًا، بِحَسَبِ الأحوال، واختلفوا: هل يَتَنَاوَل منها قدر ما يَسُدُّ به الرَّمَق، أو لَه أَن يَشْبَعَ، أو يَشْبَعَ ويَتَزَوَّد؟ علىٰ أَقْوَالٍ، كما هو مُقَرَّرٌ في كتاب الأحكام، وفيما إذا وَجَدَ مَيْتَةً وطعام الغير، أو صيدًا وهو مُحْرِم: هَل يتناول الميتةَ، أو ذلك الصيدَ ويلزمه الجزاءُ، أو ذلك الطعامَ ويضمنُ بدلَهُ؟ علىٰ قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله، وليس مِن شرط جواز تناولِ المَيْتَةِ أن يمضيَ عليه ثلاثةُ أيَّام لا يجد طعامًا، كما قد يَتَوَهَّمُهُ كثيرٌ من العوامِّ وغيرهم، بل متىٰ اضْطُرَّ إلىٰ ذلك جاز له، وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا الأوزاعي، حدَّثنا حسَّان بنُ عطيةَ، عن أبي واقدٍ اللَّيْثِي أنَّهم قالوا: يا رسول الله، إنَّا بأَرْضٍ تُصِيبُنَا بها

---

(١) قال ابن عثيمين رحمه الله: ولا يحل المحرَّم للضرورة إلا بشرطين:

أولهما: ألا يوجد ما يدفع به الضرورة إلا هذا؛ لأنه إن وجد لم يضطر.

والثاني: أن تزول ضرورته به، وإنما اشترطنا هذا لكي لا يقول قائل: إذن يجوز التداوي بالمحرم. نقول: لا يجوز التداوي بالمحرم؛ لأنه: أولًا: غير مُلْجِئٍ لذلك؛ إذ قد يزول بدواء آخر، وقد يزول مرضه بدون دواء، فكم من إنسان وصل إلىٰ أدنىٰ حالة، ثم يقوم ماشيًا بإذن الله ﷻ! والثاني: أن ضرورته لا تزول بهذا الدواء؛ لأنه قد يتداوىٰ الإنسان ولا يُشفىٰ، بخلاف من أكل المحرَّم للجوع، فإن الإنسان إن لم يجد مثلًا إلا الميتة، فهو الآن لا يمكن أن تزول ضرورته إلا بأكله وإذا أكله زالت ضرورته.

والفرق بين الحاجة والضرورة: أن الحاجة من باب الكماليات، والضرورة من باب دفع الضرر، مثلًا: إنسان عليه ثوب يقيه البرد، ولو خلعه لضره البرد، ولكنه يحصل به نوع من التأذي؛ لأنه ليس كاملًا، فليس عليه ثوبًا آخر، فالثوب بالنسبة له ضرورة، ولكن لو لَبِسَ عليه آخر لدفع التأذي فقط لا لدفع الضرر، نقول: هذه حاجة، والفرق بينهما ظاهر.

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٢/ ١٠٨)، و ابن حبان (٢٧٤٢)، وانظر «الصحيحة» للألباني (٥٦٤).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٧١)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وعلىٰ هذا؛ فالحديث بهذا اللفظ ضعيف، ويكفي في الاستدلال الروايةُ السابقة.

(٤) لوحة (٢٤٩ أ).

المَخْمَصة، فمتىٰ تَحِلُّ لنا بها الميتةُ؟ فقال: «إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا، وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بَقْلًا[١] فَشَأْنُكُمْ بِهَا»[٢].

تفرَّد به أحمد مِن هذا الوجه، وهو إسنادٌ صحيحٌ علىٰ شرط «الصَّحِيحَين». وكذا رواه ابن جرير، عن عبد الأعلىٰ بن واصل، عن محمَّد بن القاسم الأَسَدِي، عن الأوزاعي به لكن رواه بعضهم عن الأوزاعي، [عن حسان بن عطية، عن مسلم بن يزيدَ، عن أبي واقدٍ به، ومنهم من رواه عن الأوزاعي،][٣] عن حسان، عن مَرْثَدٍ -أو أبي مرثد- عن أبي واقد به، ورواه ابن جرير عن هَنَّاد بن السَّرِيِّ، عن عيسي بن يونس، عن حسان، عن رجل قد سُمِّيَ له فذكره، ورواه أيضًا عن هَنَّاد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان مُرْسلًا.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوبُ بنُ إبراهيمَ، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن عَوْنٍ قال: وجدت عند الحسن كتابَ سَمُرَةَ، فقرأته عليه، فكان فيه: «وَيُجْزِئ مِنَ [الاضْطِرَارِ][٤] غَبُوقٌ أَوْ صَبُوحٌ»[٥].

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا هُشَيْم، عن الخَصيب بن زيد التميمي، حدَّثنا الحسن، أن رجلًا سأل النَّبيَّ ﷺ فقال: إلىٰ متىٰ يَحِلُّ لي الحرام؟ قال: فقال: «إِلَىٰ مَتَىٰ يَرْوَىٰ أَهْلُكَ مِنَ اللَّبَنِ، أَوْ تَجِيءَ مِيرَتُهُم[٦]»[٧].

حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا سلمةُ، عن ابن إسحاقَ، حدَّثنا عمرُ بن عبد الله بن عروةَ، عن جَدِّه عروةَ ابن الزبير، عن جَدَّتِهِ؛ أَنَّ رجلًا من الأعراب أتىٰ النَّبيَّ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ في الَّذي حَرَّم الله عليه، والذي أحلَّ له، فقال النَّبيُّ ﷺ: «تَحِلُّ لَكَ الطَّيِّبَاتُ، وَتَحْرُمُ عَلَيْكَ الخَبَائِثُ، إِلَّا أَنْ تَفْتَقِرَ إِلَىٰ طَعَامٍ لا يَحِلُّ لَكَ، فَتَأْكُلَ مِنْهُ حَتَّىٰ تَسْتَغْنِيَ عَنْهُ». فقال الرَّجُل: وما فَقْرِي الَّذِي يَحِلُّ لي؟ وما غِنَايَ الذي يُغْنِينِي عن ذلك؟ فقال النَّبيُّ ﷺ[٨]: [«إِذَا كُنْتَ تَرْجُو نِتَاجًا، فَتَبْلُغُ بِلُحُومِ مَاشِيَتِكَ إِلَىٰ نِتَاجِكَ، أَوْ كُنْتَ تَرْجُو

---

(١) الاصطباح: أكل الصَّبُوح، وهو الغداء، والاغتباق: أكل الغَبُوق، وهو العشاء، وأصلهما في الشرب، ثم استعملا في الأكل؛ أي: ليس لكم أن تجمعوهما من الميتة، وتحتفئوا بقلًا: تقتلعوه وترموا به، وورد في بعض نسخ «المسند»: (تحتفئوا)، قال أبو عبيد: من الحَفَأ؛ مهموز مقصور، وهو: أصل البردي الأبيض الرطب منه، وقد يؤكل، يقول: ما لم تقتلعوا هذا بعينه، فتأكلوه.

وقال الزَّمَخْشَرِي: الاحتفاء: اقتلاع الحفأ، وهو البردي، وقيل: أصله، فاستُعير لاقتلاع البقل. وانظر: «المسند» ط: الرسالة (٣٦/ ٢٢٩).

(٢) ضعيف: رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢١٨)، والطبري (٦/ ٨٧)، ورجاله ثقات إلا أنه منقطع؛ فحسان بن عطية لم يسمع من أبي واقد. وقد اضطرب حسان في إسناده، فمرة يرويه عن مسلم بن يزيد، عن أبي واقد، ومرة عن مرثد أو أبي مرثد، عن أبي واقد، ومرة يسقط الواسطة، ومرة يرويه مرسلًا، والحديث عندي ضعيف، رغم أن ابن كثير صححه، وكذا الحاكم (٤/ ١٢٥)، وقد تعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٤) في (ز): (الأضرار).

(٥) رواه الطبري (٦/ ٨٧)، ورجاله ثقات لكنه منقطع.

(٦) المِيرَة: الطعام ونحوه. (٧) مرسل: ابن جرير (٦/ ٨٧)، وهذا من مراسيل الحسن.

(٨) لوحة (٢٤٩ ب).

غِنًىٰ، تطلُبُهُ، فتبلُغُ مِنْ ذلِكَ شيئًا، فَأَطْعِمْ أَهْلَكَ مَا بَدَا لَكَ حَتَّىٰ تَسْتَغْنِيَ عَنْهُ». فقال الأعرابي: ما غِنَايَ الذي أَدَعُهُ إذا وجدته؟ فقال النَّبيُّ ﷺ:](١) «إِذَا أَرْوَيْتَ أَهْلَكَ غَبُوقًا مِنَ اللَّيْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكَ مِنْ طَعَامٍ، [وَأَمَّا](٢) مَالُكَ فَإِنَّهُ مَيْسُورٌ كُلُّهُ، لَيْسَ فِيهِ حَرَامٌ»(٣).

ومعنىٰ قوله: «مَا [لَمْ](٤) تَصْطَبِحُوا» يعني به: الغداء، «وَمَا لَمْ تَغْتَبِقُوا» يعني به: العشاء، «أَوْ تَحْتَفِئُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا» أي: فكلوا منها.

وقال ابن جرير: يروىٰ هذا الحرف -يعني قوله: «أَوْ تَحْتَفِئُوا [بَقْلًا](٥)» علىٰ أربعة أوجه: «تَحْتَفِئُوا» بالهمزة، و«تَحْتَفِيُوا» بتخفيف الياء والحاء، «وَتَحْتَفُّوا» بتشديد الفاء، و«تَحْتَفُوا» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمز، كذا ذكره في «التفسير».

حديث آخر: قال أبو داود: حدَّثنا هارون بن عبد الله، حدَّثنا الفضل بن دُكَيْن، حدَّثنا [عُقْبَة ابن](٦) وَهْب بن عقبة العامري، سمعت أبي يُحَدِّث عن الفُجَيْع العامري؛ أنَّه أتىٰ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: ما يَحِلُّ لنا من الميتة؟ قال: «مَا طَعَامُكُمْ؟» قلنا: نَغْتَبِق ونَصْطَبِح. قال أبو نُعَيم: فَسَّرَه لي عقبة: قَدَحُ غُدوة، وقَدَحُ عَشيَّة قال: «ذَاكَ وَأَبِي الجُوعُ». وأحلَّ لهم الميتة علىٰ هذه الحال(٧).

تفرَّد به أبو داود: وكأنَّهم كانوا يَصْطَبِحُون ويَغْتَبِقُون شيئًا لا يَكْفِيهِم، فأحلَّ لهم الميتة لتمام كفايتهم، وقد يَحْتَجُّ به مَن يرىٰ جواز الأكل منها حتىٰ يبلغ حَدَّ الشِّبع، ولا يَتَقَيَّد ذلك بسد الرَّمَق، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، حدَّثنا سِمَاك، عن جابر بن سَمُرَة، أنَّ رجلًا نزل الحَرَّةَ، ومعه أهلُهُ وولدُهُ، فقال له رجل: إنَّ ناقةً لي ضَلَّتْ، فإن وَجَدْتَها فأَمْسِكْها، فوجدَهَا ولَمْ يجد صاحِبَهَا، فمَرِضَتْ فقالت امرأته: انْحَرْهَا، فأَبَىٰ، فَنَفَقَتْ، فقالت له امرأتُه: اسْلُخْهَا؛ حتىٰ نُقَدِّد شَحْمَها ولَحْمَهَا، فنأكله. فقال: حتىٰ أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله، فقال: «هَلْ عِنْدَكَ غِنًىٰ يُغْنِيكَ؟» قال: لا. قال: «فَكُلُوهَا». قال: فجاء صاحبها، فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نَحَرْتَهَا؟ قال: اسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ(٨).

تفرَّد به، وقد يَحْتَجُّ به من يُجَوِّز الأكل والشِّبع، والتَزَوُّد منها مُدَّة يَغْلِب علىٰ ظَنِّه الاحتياجُ إليها، والله أعلم.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وإثباته موافق لما في «تفسير الطبري».

(٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٨٧)، وفيه عمر بن عبد الله بن عروة، قال الحافظ: مقبول.

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: رواه أبو داود (٣٨١٧)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٩٠٦- بتحقيقي) وإسناده ضعيف، قال الحافظ عن عقبة بن وهب: مقبول، وأما أبوه وهب بن عقبة، فقال الحافظ عنه: مستور.

(٨) حسن: أبو داود (٣٨١٦)، وأحمد (٥/ ١٠٤)، وفي إسناده سِمَاك تغيَّر بآخره، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي: غير مُتَعاطٍ لِمَعْصِيَة الله، فإنَّ الله قد أباح ذلك له، وسكت عَن الآخَر، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

وقد استدلَّ بهذه الآية مَن يقول، بأنَّ العاصي بسَفَرِهِ لا يترخَّص بشيءٍ مِن رُخَص السَّفر؛ لأنَّ الرُّخص لا تُنَال بالمعاصي[١]، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا[٢] أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ ما حرَّمه في الآية المتقدِّمة من الخبائِثِ الضَّارَّة لمتناولها؛ إمَّا في بَدَنِه، أو في دِينِهِ، أو فيهِمَا، واستثنىٰ ما استثناه في حالة الضَّرُورَةِ، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ كما قال في سورة الأعراف في صِفَةِ محمَّدٍ ﷺ: أنَّه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الآية: ١٥٧].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بُكَيْر، حدَّثني عبد الله ابن لهيعة، حدَّثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَيْر، عن عَدِيِّ بن حاتم، وزيد بن المهَلْهِل الطائِيَّيْنِ سألا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرَّم الله الميتة، فماذا يَحِلُّ لنا منها؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[٣] [قال سعيد بن جبير يعني: الذَّبائِحَ الحلال الطَّيِّبَة لهم.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾][٤] فالطَّيِّبات ما أحلَّ لهم مِن كلِّ شيءٍ أن يُصِيبُوه، وهو الحلال مِن الرِّزق. وقد سُئِل الزُّهْري عن شُرْبِ البَوْل للتَّداوِي، فقال: ليس هُو مِن الطَّيِّبات. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن وَهْبٍ: سُئِلَ مالك عن بَيْعِ الطِّينِ الَّذِي يأكله النَّاس. فقال: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبات.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أُحِلَّ لكم الذَّبائح التي ذُكِرَ اسم الله عليها

---

(١) قال ابن باز رحمه الله: هذا الكلام من المؤلف يحتاج إلى تأمل؛ لأن العاصي إذا علم بهذه الرخص من الشارع ربما يحمله ذلك على الرجوع عن المعصية.

قلت: وفي هذه المسألة خلاف مشهور بين أهل العلم، فمذهب مالك والشافعي وأحمد على اشتراط أن يكون السفر في واجب أو مباح للأخذ بالرخص، وذهب أبو حنيفة وابن حزم وشيخ الإسلام إلى أنه يأخذ بالرخص في كل سفر ولو في المعصية، فمن ترجح عنده أن القصر رخصة منع القصر في سفر المعصية، ومن أوجب القصر لم يفرق بين سفر الطاعة والمعصية.

(٢) لوحة (٢٥٠ أ).

(٣) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٤٥٩) لابن أبي حاتم، ولم أجده في «تفسيره»، وفي إسناده ابن لهيعة: وقد اختلط بعد احتراق كتبه، ورواية عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير: صحيفة وجدها في ديوان عبد الملك بن دينار، وكان سعيد بن جبير قد كتبها لعبد الملك فأخذها عطاء ورواها. انظر: «الجرح والتعديل» (٦/ ٣٣٢).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

والطَّيِّبات مِن الرِّزق، وأُحِلَّ لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباه ذلك، كما هو مذهب الجمهور من الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة، وممَّن قال ذلك: علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ وهُنَّ الكلاب المعلَّمة والبازِي، وكلُّ طيرٍ يعلم للصيد، والجَوَارِح: يعني الكلابَ الضَّوارِيَ والفهودَ والصُّقورَ وأشباهَهَا.

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خَيْثَمَة، وطاوس، ومجاهد، ومكحول، ويحيىٰ بن أبي كثير، نحو ذلك، وروي عن الحسن أنه قال: البَازُ والصَّقْرُ مِن الجوارح. وروي عن علي بن الحسين مثله. ثم رَوَىٰ عن مجاهد أنَّه كَرِهَ صَيْدَ الطَّيْرِ كُلِّه، وقرأ قول الله ﷻ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

ونقله ابن جرير عن الضَّحَّاك والسُّدِّي، ثم قال: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن نافع(١)، عن ابن عمر قال: أمَّا ما صاد مِن الطَّيْر، البُزَاة وغيرها من الطَّير، فما أَدْرَكْتَ فهو لك، وإلا فلا تَطْعَمْهُ(٢).

قلتُ: والمَحْكِيُّ عن الجمهور أنَّ صيد الطُّيور كصَيْدِ الكِلَابِ؛ لأنَّها تَكْلَبُ الصيد بمَخَالِبِهَا كما تكلبه الكلاب، فلا فرق. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير، واحتج في ذلك بما رواه عن هناد، حدَّثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: «مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ»(٣).

واستثنىٰ الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنَّه عنده ممَّا يَجِبُ قَتْلُهُ، ولا يحل اقْتِنَاؤُه؛ لما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الحِمَارُ وَالمَرْأَةُ وَالكَلْبُ الأَسْوَدُ» فقلت: ما بال الكلب الأسود مِن الأحمر؟ فقال: «الكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»(٤)، وفي الحديث الآخر: أنَّ رسول الله ﷺ أَمَرَ بِقَتْلِ الكلاب، ثم قال: «مَا بَالُهُمْ وَبَالُ الكِلَابِ؟! اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ»(٥).

وسُمِّيَت هذه الحيوانات الَّتِي يُصْطَادُ بهن: جوارح، مِن الجَرْح، وهو: الكَسْب. كما تقول العرب: فلان جَرَح أهله خيرًا؛ أي: كسبهم خيرًا. ويَقولُون: فلانٌ لا جَارِحَ له؛ أي: لا كاسب له، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ما كَسَبْتُم مِن خيرٍ وشرٍّ.

وقد ذُكِرَ في سبب نزول هذه الآية الكريمة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدَّثنا حجاج بن

---

(١) لوحة (٢٥٠ ب).

(٢) رواه الطبري (٦/ ٩٠)، ورجاله ثقات، إلا أن ابن جُرُيج مدلس، وقد عنعن.

(٣) **ضعيف**: رواه الطبري (٦/ ٩١)، وفي إسناده مُجالِد بن سعيد. قال الدارقطني: ليس بالقوي. قلت: وقد انفرد مجالد بذكر البازي في روايته فهي رواية منكرة.

(٤) مسلم (٥١٠).

(٥) مسلم (٢٨٠، ١٥٧٠)، وأبو داود (٧٤)، والنسائي (١/ ٥٤)، وابن ماجة (٣٢٠١).

حمزة، حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، حدَّثني موسىٰ بن عبيدة، حدَّثني أبان بن صالح، عن القَعْقاع بن حكيم، عن سلمىٰ أم رافع، عن أبي رافع -مولىٰ رسول الله ﷺ- أنَّ رسول الله ﷺ أمر بِقَتْل الكلاب، فقُتِلَتْ، فجاء الناس، فقالوا: يا رسول الله، ما يَحِلُّ لنا مِن هذه الأُمَّةِ التي أَمَرْتَ بِقَتْلِهَا؟ قال: فسكت، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «**إذا أَرْسَلَ الرَّجُلُ كَلْبَهُ، وَسَمَّىٰ، فَأَمْسَكَ عَلَيْهِ، فَلْيَأْكُلْ، ما لَمْ يَأْكُلْ**»(١).

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن زيد بن الحُبْاب بإسناده، عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ لِيَسْتَأْذِن عليه، فأَذِنَ له فقال: قد أَذِنَّا لك يا رسول الله(٢). قال: أجل، ولكنا لا نَدْخُل بيتًا فيه كلب، قال أبو رافع: فأَمَرَنِي أن أَقْتُل كلَّ كلبٍ بالمدينة، [فقتلت](٣) حتىٰ انتهيت(٤) إلىٰ امرأةٍ عندها كلب يَنْبَحُ عليها، فتركته رحمةً لها، ثم جئت إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلىٰ الكلب فقَتَلْتُهُ، فجاءوا، فقالوا: يا رسول الله، مَا يَحِلُّ لنا مِن هذه الأُمَّة التي أَمَرْتَ بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾(٥).

ورواه الحاكم في «مُسْتَدْركه» من طريق محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح به. وقال: صحيح ولم يُخَرِّجاه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عِكْرَمة أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قَتْلِ الكِلَاب، حتىٰ بلغ العَوَالِيَ(٦)، فدخل عاصم بن عَدِيٍّ، وسعد بن خَيْثَمَةَ، وعُوَيْم بن ساعِدَةَ، فقالوا: ماذا أُحِلَّ لنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية(٧).

ورواه الحاكم مِن طريق سِمَاك، عن عكرمة وهكذا قال محمَّد بن كعب القُرَظِيّ في سبب نزول هذه الآية: إنَّه في قتل الكِلَابِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالًا من الضَّمِيرِ في ﴿عَلَّمْتُم﴾ فيكون حالًا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالًا من المفعول وهو ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾؛ أي: وما عَلَّمْتُم من الجوارح في حال كَوْنِهِنَّ مكلَّباتٍ للصَّيد، وذلك أن تَقْتَنِصَه الجوارح بمخالبها، أو أظفارها، فيستدل بذلك -والحالة

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الطبري (٦/ ٨٨)، وفيه موسىٰ بن عبيدة، قال الحافظ في «التقريب»: ضعيف. قلت: وقد توبع، فرواه الحاكم (٢/ ٣١١) كما أشار المؤلف من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن، ورواه الطبري عن عكرمة مرسلًا.

(٢) يعني برسول الله: جبريل.

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (٢٥١ أ).

(٥) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ٨٩)، ولم أقف عليه عند الحاكم.

(٦) **العوالي**: أماكِنُ بأعْلَىٰ أَرَاضِي المدينة، والنِّسْبَةُ إليها: عُلْوِيّ، علىٰ غير قياس، وأَدْنَاهَا مِن المدينة علىٰ أربَعة أَمْيال، وأَبْعَدُها من جِهَة نَجْد ثمانِيَة. «النهاية».

(٧) رواه الطبري (٦/ ٨٩) وإسناده مرسل.

هذه- علىٰ أنَّ الجارحة إذا قتل الصَّيد بصَدْمَتِهِ أو بمِخْلَابه وظفره، أنه لا يحل، كما هو أحد قولَي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو أنَّه إذا أرسله اسْتَرْسَل، وإذا أشلاه اسْتَشْلَىٰ[(١)(٢)]، وإذا أخذ الصَّيْد أمسكه علىٰ صَاحِبه، حتىٰ يَجِيءَ إليه، ولا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمَتَىٰ كان [الجارح][(٣)] معلَّمًا وأمسك علىٰ صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله - حَلَّ الصيد، وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السُّنَّة بمثل ما دَلَّت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عَدِيٍّ بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي أرسل الكلاب المعلَّمة، وأذكر اسم الله. فقال: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ**». قلت: وإن قَتَلْنَ؟ قال: «**وَإِنْ قَتَلْنَ مَا لَمْ يَشْرَكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَىٰ كَلْبِكَ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَىٰ غَيْرِهِ**». قلت له: فإنِّي أَرْمِي بالمِعْرَاض الصيد فأُصِيبُ؟ فقال: «**إِذَا رَمَيْتَ[(٤)] بِالمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضٍ فَإِنَّهُ وَقِيذٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ**». وفي لفظ لهما: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرِ [اسْمَ][(٥)] اللهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَدْرَكْتَهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قُتِلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنَّ أَخْذَ الكَلْبِ ذَكَاتُهُ**». وفي رواية لهما: «**فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ**»[(٦)]. فهذا دليلٌ للجمهور، وهو الصَّحيح مِن مذهب الشَّافعي، وهو أنَّه إذا أكل الكلب مِن الصَّيْدِ يحرم مطلقًا، ولَمْ يَسْتَفْصِلُوا، كما ورد بذلك الحديث. وحُكِيَ عن طائفةٍ من السَّلَفِ أنَّهم قالوا: لا يَحْرُمُ مُطْلَقًا.

ذكر الآثار بذلك

قال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا وَكِيع، عن شُعْبَة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: قال سلمانُ الفارسيُّ: كُلْ وإن أَكَلَ ثُلُثَيْه[(٧)]؛ يعني: الصيد إذا أكل منه الكلب[(٨)]، وكذا رواه سعيد بن أبي عَرُوبَة، وعمر بن عامر، عن قتادة، وكذا رواه محمَّد بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان.

ورواه ابن جرير أيضًا عن مجاهد بن موسىٰ، عن يزيد، [عن بكر بن عبد الله المُزَنِيِّ والقاسم؛ أنَّ سلمان قال: إذا أَكَلَ الكَلْبُ فكُلْ، وإن أكلَ ثُلُثَيْهِ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني مَخْرَمَة بن بُكَيْر عن أبيه،][(٩)] عن حميد بن مالك بن خُثَيْم الدُّؤَلي؛ أنَّه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصَّيْد يأكل منه

---

(١) أي: دعاه إليه. (٢) أشليت الكلب: دعوته إليك. (٣) في (ز): (الجارحة).

(٤) لوحة (٢٥١ ب). (٥) سقط من (ز).

(٦) البخاري (٢٠٥٤)، ومسلم (١٩٢٩)، وأبو داود (٢٨٤٧)، والترمذي (١٤٦٥)، والنسائي (٧/ ١٨٠)، وابن ماجة (٣٢١٥).

(٧) في (ز): ثلثه. (٨) صحيح موقوفًا: رواه الطبري (٦/ ٩٥).

(٩) ما بين المعقوفتين ليست في (ز).

الكَلْب، فقال: كُلْ، وإن لم يَبْقَ منه إلا حِذْيَة؛ يعني: إلا بَضْعَة[١].

ورواه شعبة، عن عبد ربه بن سعيد، عن بكير بن الأشَجِّ، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص قال: كُلْ وإن أكل ثُلُثَيه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن المُثَنَّىٰ، حدَّثنا عبد الأعلىٰ، حدَّثنا داود، عن عامر، عن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأَكَلَ منه، فإن أَكَلَ ثُلُثَيه وبَقِيَ ثُلُثُه، فكُلْ[٢].

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المُعْتَمِر قال: سمعت عُبَيد الله، وحدَّثنا هَنَّاد، [حدَّثنا][٣] عبدة، عن عبيد الله بن عمر- عن نافع، عن عبد الله [بن عمر][٤] قال: إذا أَرْسَلْت كلبك المعلم وذَكَرْت اسْمَ الله عليه، فكُلْ ما أمسك عليك، أَكَلَ أو لم يَأْكُل[٥].

وكذا رواه عبيد الله بن عمر، وابن أبي ذئب، وغير واحدٍ، عن نافع.

فهذه الآثار ثابتة عن سلمان، وسعد[٦] بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عمر، وهو محكيٌّ عن عليٍّ، وابن عبَّاس، واختلف فيه عن عطاء، والحسن البصري، وهو قول الزهري، وربيعة، ومالك، وإليه ذهب الشَّافعي في القديم، وأومأ إليه في الجديد.

وقد رُوِيَ مِن طريق سلمان الفارسي مرفوعًا، فقال ابن جرير: حدَّثنا عمران بن بَكَّار الكَلاعِيُّ، حدَّثنا عبد العزيز بن موسىٰ اللاحوني، حدَّثنا محمَّد بن دينار-هو الطاحي-عن أبي إِيَاس معاوية بن قُرَّة، عن سعيد بن المسيَّب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا أَرْسَلَ الرَّجُلُ كَلْبَهُ عَلَىٰ الصَّيْدِ فَأَدْرَكَهُ، وَقَدْ أَكَلَ مِنْهُ، فَلْيَأْكُلْ مَا بَقِيَ**»[٧].

ثم قال ابن جرير: وفي إسناد هذا[٨] الحديث نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان، والثِّقات يَرْوُونه من كلام سلمان غير مرفوع.

وهذا الَّذِي قاله ابن جرير صحيح، لكن قد روي هذا المعنىٰ مرفوعًا مِن وجوهٍ أُخَر، فقال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن مِنْهال الضرير، حدَّثنا يزيد بن زُرَيْع، حدَّثنا حبيب المعلم، عن عَمْرو بن شعيب، عَنْ أَبِيهِ، عن جَدِّه؛ أنَّ أعرابيًّا -يقال له: أبو ثعلبة- قال: يا رسول الله! إنَّ لي كلابًا مُكَلَّبَةً، فَأَفْتِنِي في صَيْدِهَا. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنْ كَانَ لَكَ كِلَابٌ مُكَلَّبَةٌ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكَ**». فقال: ذكيًّا وغير ذَكِيٍّ؟ قال: «**نَعَمْ**». قال: وإن أكل منه؟ قال: «**نَعَمْ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ**». قال: يا رسول الله، أَفْتِنِي في قَوْسي فقال: «**كُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ**

---

(١) صحيح: رواه الطبري (٦/ ٩٥) من طرق.
(٢) صحيح: رواه الطبري (٦/ ٩٥).
(٣) في (ز): بن.
(٤) ليست في (ز).
(٥) صحيح: رواه الطبري (٦/ ٩٦).
(٦) في (ز): سعيد، وهو خطأ.
(٧) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ٩٧)، ورجاله ثقات عدا محمَّد بن دينار، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ، ورجح الطبري أنه موقوف علىٰ سلمان، وقال عن هذا الإسناد: في إسناده نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان؛ يعني: أنه منقطع.
(٨) لوحة (٢٥٢ أ).

قَوْسُكَ» قال: ذكيًا وغير ذكيٍّ؟ قال: «وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْكَ مَا لَمْ يَصِلَّ[١]، أَوْ تَجِدْ فِيهِ أَثَرَ غَيْرِ سَهْمِكَ». قال: أَفْتِنِي في آنيةِ المجوس إذا اضطررنا إليها. قال: «اغْسِلْهَا وَكُلْ فِيهَا»[٢].

هكذا رواه أبو داود، وقد أَخْرَجَه النَّسائي، وكذا رواه أبو داود مِن طريق يونس بن سيف[٣] عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ، وَكُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ»

وهذان إسنادان جيدان، وقد روىٰ الثوري، عن سِماك بن حَرْب، عن عَدِيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا كَانَ مِنْ كَلْبٍ ضَارٍ أَمْسَكَ عَلَيْكَ، فَكُلْ». قلت: وإن أكل؟ قال: «نَعَمْ»[٤].

وروىٰ عبد الملك بن حبيب: حدَّثنا أسد بن موسىٰ، عن ابن أبي زائدة، عن الشعبي، عن عَدي مثله.

فهذه آثارٌ دالَّةٌ علىٰ أنَّه يُغْتَفر إن أكل منه الكلب، وقد احتجَّ بها مَن لم يُحَرِّم الصَّيْدَ بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدَّم عمن حكيناه عنهم، وقد توسَّط آخرون، فقالوا: إن أكل عَقِبَ ما أمسكه فإنَّه يَحْرُم؛ لحديث عَدِيٍّ بن حاتم، ولِلعِلَّة التي أشار إليها النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ»[٥] وأما إِن أمسكه، ثم انتظر صاحِبَه، فطال عليه، وجاعَ، فأكل مِن الصَّيْد لِجُوعِهِ، فإنَّه لا يُؤَثِّر في التَّحريم. وحَمَلُوا علىٰ ذلك حديث أبي ثعلبة الخُشَنِيِّ، وهذا تفريقٌ حسنٌ، وجَمْعٌ بين الحَدِيثَيْنِ صحيح. وقد تَمَنَّىٰ الأستاذ أبو المعالي الجُوَيني في كتابه «النِّهاية» أن لو فَصَّلَ مُفَصِّلٌ هَذَا التَّفْصِيلَ، وقد حقَّق الله أُمْنِيَتَهُ، وقال بهذا القول والتَّفريق طائفةٌ من الأصحاب منهم، وقال آخرون: قولًا رابعًا في المسألة[٦]، وهو التَّفْرِقَة بين أكل الكلب فيحرُمُ لحديث عَدِيٍّ، وبين أكل الصُّقُور ونحوها فلا يحرم؛ لأنَّه لا يقبل التَّعليم إلا بالأكل.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أسباط بن محمَّد، حدَّثنا أبو إسحاق الشيباني، عن حماد، عن[٧] إبراهيم، عن ابن عبَّاس؛ أنَّه قال في الطير: [إذا أرسلته فقتَل فكُل، فإنَّ الكلب إذا ضربته لم يَعُدْ، وإن تَعَلَّم الطَّير][٨] أن يرجع إلىٰ صاحبه وليس يُضْرَب، فإذا أكل مِن الصَّيد، ونتف الرِّيش، فكُلْ[٩].

وكذا قال إبراهيم النَّخَعِي، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان.

---

(١) أي: ينته.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٢٨٥٢)، وفيه ضعف، وله طريق أخرىٰ عنده (٢٨٥٧)، وكذا رواها النسائي (٧/ ١٩١) وإسناده حسن.

(٣) في (ز): يوسف بن سيف، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «السنن».

(٤) لكن هذا اللفظ مخالف لروايات عدي بن حاتم في «الصحيحين» وغيرهما؛ ولذا لا يُعْتَمد علىٰ هذه الرواية، وسِماك ابن حرب تغير بآخره.

(٥) البخاري (٢٠٥٤)، ومسلم (١٩٢٩)، وقد تقدمت أطراف لهذا الحديث قريبًا.

(٦) لوحة (٢٥٢ ب). (٧) في (ز): حماد بن إبراهيم. (٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٩) رواه الطبراني (٦/ ٩٣)، ورجاله ثقات لكنه منقطع بين إبراهيم النخعي وابن عبَّاس.

وقد يَحتجُّ لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا المُحارِبي، حدَّثنا مُجالدٌ، عن الشعبي، عن عَدِيِّ بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنَّا قومٌ نصيدُ بالكلاب والبُزاة، فما يحلُّ لنا منها؟ قال: «يَحِلُّ لَكُمْ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ» ثم قال: «مَا أَرْسَلْتَ مِنْ كَلْبٍ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». قلت: وإن قتل؟ قال: «وَإِنْ قَتَلَ، مَا لَمْ يَأْكُلْ». قلت: يا رسول الله، وإن خالطت كلابَنا كلابٌ غيرها؟ قال: «فَلَا تَأْكُلْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ كَلْبَكَ هُوَ الَّذِي أَمْسَكَ». قال: قلت: إنَّا قوم نَرْمِي، فما يحل لنا؟ قال: «مَا ذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَخَزَقْتَ فَكُلْ»(١).

فوجه الدَّلالة لهم أنَّه اشترط في الكلب ألا يأكل، ولم يشترط ذلك في البُزاة، فدلَّ علىٰ التفرقة بينهما في الحكم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال، كما قال النَّبيُّ ﷺ لعدي ابن حاتم: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». وفي حديث أبي ثعلبة المخرَّج في «الصَّحيحين» أيضًا: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ، فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ»(٢)؛ ولهذا اشترط مَنِ اشترط من الأئمَّة كأحمد بن حنبل -في المشهور عنه- التَّسمية عند إرسال الكَلْب والرَّمْي بالسَّهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور، أنَّ المراد بهذه الآية: الأمر بالتَّسمية عند الإرسال، كما قال السُّدِّي وغير واحدٍ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقول: إذَا أَرْسَلْت جَارِحَك فقل: باسم الله، وإن نسيت فلا حرج(٣).

وقال بعض النَّاس: المراد بهذه الآية: الأمر بالتَّسمية عند الأكل، كما ثبت في «الصحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ علَّم رَبِيبَهُ عمرَ بنَ أبي سلمة فقال: «سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ(٤)، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(٥). وفي «صحيح البخاري»: عن عائشة أنَّهم قالوا: يا رسول الله، إنَّ قومًا يأتوننا -حَديثٌ عَهْدُهُم بكُفرٍ- بلُحْمانٍ لا ندري: أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سَمُّوا اللهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»(٦).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا هشام(٧)، عن بُدَيل، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعامًا في ستةِ نَفَرٍ من أصحابه، فجاء أعرابيٌّ، فأكله بِلُقْمَتَيْنِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ لَكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ، فَإِنْ

---

(١) سبق تخريجه قريبًا. (٢) البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (١٩٣٠).
(٣) منقطع بين علي بن أبي طلحة، وابن عبَّاس: رواه الطبري (٦/ ٩٩- ٥٣٧٨).
(٤) لوحة (٢٥٣ أ). (٥) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٦) البخاري (٥٥٠٧، ٧٣٩٨)، وابن ماجة (٣١٧٤).
(٧) في (ز): هشيم.

نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ أَوَّلَهُ، فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»(١).

وهكذا رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيدَ بنِ هارونَ به. وهذا منقطع بين عبد الله ابن عبيد بن عمير، وعائشة، فإنَّه لم يسمع منها هذا الحديث، بدليل ما رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الوهاب، أخبرنا هشام -يعني ابن أبي عبد الله الدَّسْتَوائي- عن بُدَيل، عن عبد الله بن عبيد بن عمير؛ أنَّ امرأةً منهم -يقال لها: أم كلثوم- حدَّثَتْه، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل طعامًا في ستَّةٍ من أصحابه، فجاء أعرابيٌّ جائعٌ، فأكله بلُقْمَتَيْنِ، فقال: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ لَكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ، فَإِنْ نَسِيَ اسْمَ اللهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ».

ورواه أحمد أيضًا، وأبو داود، والترمذي، والنَّسائي مِن غير وجهٍ، عن هشام الدَّسْتَوائي به. وقال التِّرمذي: حسن صحيح(٢).

حديث آخر: وقال أحمد: حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا جابر بن صبح، حدَّثني المُثَنَّىٰ بن عبد الرحمن الخُزَاعي، وصَحِبْتُه إلىٰ واسط، فكان يُسَمِّي في أوَّل طَعَامِهِ، وفِي آخر لُقْمَةٍ يقول: بسْم الله أولَه وآخرَه. [فقلت له: إنَّك تسمي فِي أوَّل ما تأكل، أرأيت قولك في آخِرِ ما تأكل: باسم الله أَوَّلَهُ وآخِرَهُ؟](٣) فقال: أخبرك [عن ذلك](٤) إنَّ [جدي أمية بن مَخْشِيٍّ](٥) -وكان من أصحاب النَّبيِّ ﷺ- [سمعته يقول: إنَّ رجلًا كان يأكل، والنَّبيُّ ينظر، فلَمْ يُسَمِّ، حتىٰ كان في آخر طَعَامِهِ لقمةٌ، فقال: باسم الله أَوَّلَهُ وآخرَهُ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَاللهِ](٦) مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ حَتَّىٰ سَمَّىٰ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِي بَطْنِهِ حَتَّىٰ قَاءَهُ»(٧).

وهكذا رواه أبو داود والنَّسائي، من حديث جابر بن صبح الرَّاسِبِيِّ أبي بِشْر البصري، ووثقه ابن مَعِين والنسائي، وقال أبو الفتح الأزْدي: لا تقوم به الحجة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاويةَ، حدَّثنا الأعمش، عن خَيْثَمَة، عن أبي حذيفة قال أبو عبد الرحمن عبد الله ابن الإمام أحمد(٨): واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب -من أصحاب ابن مسعود-

---

(١) **صحيح من غير هذا الإسناد:** والحديث رواه ابن ماجة (٣٢٦٤)، وأحمد (٦/ ١٤٣) وفي إسناده انقطاع، ورواه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، والنسائي، وفيه مجهولة، وهي أم كلثوم، والراجح أنها الليثية، لكن للحديث شاهد بإسناد صحيح عن ابن مسعود. رواه أبو يعلىٰ (٧١٥٣)، وابن حبان (٥٢١٣)، ويشهد له الحديث الآتي.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) سقط من (ز)، وهو في «المسند».

(٤) سقط من (ز)، وهو في «المسند».

(٥) في (ز): خالد بن أمية بن مخشي.

(٦) سقط من (ز)، وهو في «المسند».

(٧) **صحيح لغيره:** دون ذكر القيء: رواه أبو داود (٣٧٦٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠١١٣) وفيه المثنىٰ بن عبد الرحمن الخزاعي. قال الحافظ: مستور، لكن له شواهد؛ منها حديث عائشة: «حين يذكر باسم الله في أوله وآخره، فإنه يستقبل طعامًا جديدًا، ويمنع الخبيث ما كان يصيب منه»، أخرجه ابن حبان (١٣٤٠) وإسناده صحيح.

(٨) لوحة (٢٥٣ ب).

عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النَّبيِّ ﷺ علىٰ طعام، لم نَضعْ أيدِيَنا حتىٰ يَبْدَأَ رسول الله ﷺ فيضعَ يدَه، وإنَّا حضرْنَا معه طعامًا فجاءتْ جاريةٌ كأنَّما تُدفع(١)، فذهبت تَضعُ يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدِهَا، وجاء أعرابيٌّ كأنَّما يُدفع، فذهب يَضعُ يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ؛ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، وَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ؛ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهِمَا» يعني: الشيطان، وكذا رواه مسلم وأبو داود والنَّسائي، من حديث الأعمش به(٢).

حديث آخر: روىٰ مسلم وأهل السنن إلا الترمذي من طريق ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر ابن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ». لفظ أبي داود(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيدُ بنُ عبد ربِّه، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن وَحْشِيِّ بن حَرْب بن وَحْشِيِّ بن حَرْب، عن أبيه، عن جدِّه؛ أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: إنَّا نأكل وما نَشبَع؟ قال: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ»(٤).

ورواه أبو داود، وابن ماجة، من طريق الوليد بن مسلم.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

لما ذكر تعالىٰ ما حرَّمَه علىٰ عباده المؤمنين من الخبَائِثِ، وما أحلَّه لهم مِن الطَّيِّبات، قال بعده: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

ثم ذكر حكم ذَبائِحِ أهل الكِتابَيْنِ مِن اليَهُودِ والنَّصارَىٰ، فقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ قال ابن عبَّاس، وأبو أمامة، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، وعَطاء، والحسن، ومَكْحول، وإبراهيم النَّخَعِي، والسُّدِّي، ومُقاتل بن حيَّان(٥): يعني ذبائحهم.

---

(١) أي: يدفعها دافع.

(٢) مسلم (٢٠١٧)، وأبو داود (٣٧٦٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦٧٥٤)، وأحمد (٥/ ٣٨٢).

(٣) مسلم (٢٠١٨)، وأبو داود (٣٧٦٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٧٨)، وابن ماجة (٣٨٨٧)، وأحمد (٣/ ٣٨٢).

(٤) حسن لغيره: أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجة (٣٢٨٦)، وفيه وحشي بن حرب بن وحشي. قال الحافظ في «التقريب»: مستور، وقال عن أبيه: مقبول.
لكن للحديث شواهد في معناه. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٦٤).

(٥) لوحة (٢٥٤ أ).

وهذا أمرٌ مُجْمَعٌ عليه بين العلماء أنَّ ذبَائِحَهُم حلالٌ للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذَّبح لغير الله[(١)]، ولا يذكرون علىٰ ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالىٰ ما هو مُنَزَّه عن قولهم، تعالىٰ وتقدَّس. وقد ثبت في «الصَّحِيحِ» عن عبد الله بن مُغَفَّل قال: دُلِّيَ بجِرَابٍ مِن شحم يومَ خَيْبر. قال فَاحْتَضَنْتُهُ وقلت: لا أُعْطِي اليوم مِن هذا أحدًا، والتفتُّ فإذا النَّبيُّ ﷺ يَتَبَسَّم[(٢)].

فاستدلَّ به الفقهاءُ علىٰ أنَّه يجوز تناولُ ما يحتاج إليه منَ الأطعمة ونحوِهَا من الغَنِيمَةِ قبل القِسْمَة، وهذا ظاهرٌ. واستدل به الفُقُهَاء: الحنفيَّة والشافعيَّة والحنابلة علىٰ أصحاب مالك في مَنْعِهِم أكل ما يَعْتَقِدُ اليهود تحريمه مِن ذبائحهم، كالشُّحوم ونحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يُجَوِّزُون للمسلمين أكله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ قالوا: وهذا لَيْسَ مِن طعامهم. واستدلَّ عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر؛ لأنه قضيَّة عين، ويحتمل أنَّه كان شحمًا يَعْتَقِدُون حِلَّه، كشَحْم الظَّهر والحَوَايا ونحوِهما، والله أعلم.

وأجودُ منه في الدلالة ما ثبت في «الصحيح»: أنَّ أهل خيبر أَهْدَوْا لرسول الله ﷺ شاةً مَصْلِيَّةً، وقد سَمُّوا ذراعها، وكان يُعْجِبُه الذِّرَاع، فتناوله فنَهَشَ منه نَهْشَةً، فأخبره الذِّرَاع أنَّه مسمومٌ، فَلَفَظَهُ وأَثَّر ذلك السُّم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أَبْهَرِه[(٣)]، وأكل معه منها بِشْر بن البراء بن مَعْرور؛ فمات، فقتَل اليهوديةَ الَّتِي سَمَّتْهَا، وكان اسمُها زينبَ، فقُتِلَت ببِشْر بن البراء[(٤)].

ووجه الدَّلالة منه: أنَّه عزم علىٰ أَكْلِهَا ومن معه، ولم يسألهم: هل نَزَعُوا منها ما يعتقدون تَحْرِيمَه مِن شحمها أم لا؟

وفي الحديث الآخرِ: أن رسول الله ﷺ أضافه يهوديٌّ [علىٰ][(٥)] خُبْزِ شعير وإهالة سَنِخَة، يعني: ودَكًا زَنِخًا[(٦)][(٧)].

وقال ابن أبي حاتم: قرئ علىٰ العبَّاس بن الوليد بن مَزْيَد، أخبرنا محمَّد بن شعيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] ثم نَسَخَها الرَّبُّ ﷻ ورَحِمَ المسلمين، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ

---

(١) **قال هاني الحاج**: (قلت: يبدو أن ذلك كان في زمان ابن كثير، وإلا فالمعروف الآن أنهم يقولون غير ذلك، وقد نص الإمام أحمد على أنه إذا علم أنه ذكر غير اسم الله عليها لم تحل. وانظر: «المغني» (٩/ ٣٩١). اهـ. «التحبير للأوهام والتنبيهات في تفسير الحافظ ابن كثير» (ص٣٨).

(٢) البخاري (٣١٥٣، ٤٢١٤، ٥٥٠٨)، ومسلم (١٧٧٢).

(٣) **شاة مصلية**: مشوية، والأبهر: وريد في العنق.

(٤) البخاري (٣١١٩، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧)، وأبو داود (٤٥٠٩).

(٥) ليست في (ز).

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٢١٠) وأصل الحديث في «الصحيح» (٢٠٦٩).

(٧) **الإهالة**: كل شئ من الأدهان مما يُؤْتَدم يسمىٰ إهالة، وقيل: هو ما أُذِيب من الأَلْيَة والشحم، وقيل: الدسم الجامد، والسَّنِخَة: المتغيرة الريح، والودك: دسم الدهن.

لَكُمْ﴾ فنسخها بذلك، وأحلَّ طعام أهل الكتاب[(١)].

وفي هذا الَّذي قاله مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ نظر، فإنَّه لا يلزم مِن إباحته طعامَ أهلِ الكتابِ إباحةُ أكل ما لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عليه؛ لأنَّهم يذكرون[(٢)] اسم الله علىٰ ذَبَائِحِهِم [وقرابينِهِم، وهم متعبِّدون بذلك؛ ولهذا لم يبح ذَبَائِح مَن عداهم مِن أهل الشِّرك ومَن شَابَهَهُم؛ لأنَّهم لَمْ يذكُروا اسم الله علىٰ ذبَائِحِهِم،][(٣)] بل ولَا يَتوقَّفُون فيما يأكلونه من اللَّحْمِ علىٰ ذكاةٍ، بل يأكلون المَيْتَةَ، بخلاف أهل الكِتَابَيْن ومَن شاكلهم مِن السَّامِرَة والصَّابِئَة، ومن تَمَسَّك بدين إبراهيم وشِيث وغيرهما من الأنبياء، علىٰ أحد قَوْلَي العُلَمَاءِ، ونصارىٰ العرب: كبني تَغْلِب، وتَنُوخ، وبَهْرَاء، وجُذام، ولَخْم، وعَامِلة ومَن أشبههم، لا تُؤْكَل ذبائِحُهُم عند الجمهور.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمَّد بن عَبِيدة قال: قال عليٌّ: لا تأكلوا ذبائح بني تَغْلِب؛ لأنَّهم إنَّما يتمسكون من النَّصرانيَّة بشُربِ الخَمْر[(٤)].

وكذا قال غير واحدٍ مِن الخلفِ والسَّلَفِ.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن سَعِيدِ بن المسيَّب والحسن: أنَّهما كانا لا يَرَيَان بأسًا بذَبِيحَة نصارَىٰ بَنِي تَغْلِب.

وأمَّا المجوس: فإنَّهم وإن أُخِذَت منهم الجزيَة؛ تبعًا وإلحاقًا لأَهْل الكتاب، فإنَّهم لا تؤكَل ذبائِحُهُم ولا تُنْكَح نِسَاؤُهُم، خلافًا لأبي ثور إبراهيمَ بنِ خالدٍ الكَلْبِي، أحد الفُقُهَاء من أصحاب الشَّافعي، وأحمد بن حنبل، ولما قال ذلك واشتُهِرَ عنه أَنْكَر عليه الفقهاء ذلك، حتَّىٰ قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه؛ يعني: في هذه المسألة، وكأنَّه تمسَّك بعموم حديثٍ رُوِيَ مرسلًا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ**»[(٥)]، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي[(٦)] في «صحيح البخاري»: عن عبد الرحمن بن عوف: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ الجِزْيَةَ من مَجوس هَجَر[(٧)] ولو سُلِّم صحة هذا الحديث، فعمُومُه مخصوصٌ بمفهوم هذه الآية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ فدل بمفهومه -مفهوم المخالفة- علىٰ أنَّ طعام من عَدَاهُم مِن أهل الأديان لا يَحِلُّ.

وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ويَحِلُّ لكم أن تُطْعِمُوهُم مِن ذبائحكم، وليس هذا إخبارًا عن

---

(١) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٣٨٣٧) وإسناده مرسل؛ لأن مكحولًا لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ.

(٢) لوحة (٢٥٤ ب).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ١٠١).

(٥) **ضعيف**: رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٣٣)، والبيهقي (٩/ ١٨٩)، وضعفه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٢٦١)، وضعفه الشيخ الألباني، انظر: «إرواء الغليل» (١٢٤٨).

(٦) في (ز): وإنما النهي.

(٧) البخاري (٢١٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣)، والترمذي (١٥٨٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٧٦٨)، وأحمد (١/ ١٩٠).

الحكم عندهم، اللَّهمَّ إلا أن يكون خبرًا عما أُمِرُوا به من الأكل مِن كلِّ طعام ذُكِرَ اسم الله عليه، سواء كان مِن أهل مِلَّتِهِم أو غيرها. والأوَّل أظهر في المعنىٰ؛ أي: ولكم أن تُطْعِمُوهُم مِن ذبائحكم كما أَكَلْتُم مِن ذبائحهم. وهذا مِن باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما أَلْبَس النَّبيُّ ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبيٍّ بن سلول حين مات، ودفنه فيه، قالوا: لأنَّه كان قد كسا العبَّاس حين قَدِم المدينةَ ثوبَه، فجازاه النَّبيُّ ﷺ ذلك بذلك[١]، فأمَّا الحديث الذي فيه: «**لا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ[٢] طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**»[٣] فمحمول علىٰ النَّدْب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وأحلَّ لكم نكاح الحَرائِر العَفَائِف من النِّساء المُؤْمِنات، وذكر هذا توطئةً لما بعده، وهو قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: أراد بالمحصنات: الحَرائر دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد. وإنَّما قال مجاهد: المحصنات: الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحُرَّةِ العَفِيفَةَ، كما قاله مجاهد في الرواية الأخرىٰ عنه. وهو قول الجمهور هاهنا، وهو الأشبه؛ لئلَّا يَجْتَمِع فيها أن تكون ذِمِّيَّةً، وهي مع ذلك غير عفيفةٍ، فيَفْسُدَ حالها بالكليَّة، ويتحصَّل زوجها علىٰ ما قيل في المثل: «حَشَفًا وسَوءَ كِيلَةٍ»[٤]. والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزِّنا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

ثم اختلف المُفسِّرون والعلماء في قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هل يعُمُّ كل كتابيَّةٍ عفيفةٍ، سواء كانت حُرَّةً أو أَمَةً؟ حكاه ابن جرير عن طائفةٍ من السَّلف، ممَّن فسَّر المحصنة بالعفيفة، وقيل: المراد بأهل الكتاب هاهنا: الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذِّمِّيات دون الحَرْبِيَّات؛ لقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]

وقد كان عبد الله بن عمر لا يَرَىٰ التَّزْوِيجَ بالنَّصرانِيَّة، ويقول: لا أعلم شركًا أعظم مِن أن تقول: إنَّ ربَّها عيسىٰ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١][٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن حاتم بن سليمان المؤدِّب، حدَّثنا القاسم بن مالك -يعني المُزَنِيّ- حدَّثنا إسماعيل بن سَمِيع، عن أبي مالك الغِفَاري، عن ابن عبَّاس قال: لما

---

(١) البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٧٧٤) من حديث ابن عمر، ورواه البخاري (١٢٧٠) من حديث جابر.
(٢) لوحة (٢٥٥ أ). (٣) حسن: أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥).
(٤) أي: أَتَجْمَعُ التَّمرَ الرَّدِيءَ والكَيْلَ المُطَفَّفَ، يُضْرَب مثلًا لمن يجمع بين خَصْلَتين مكروهتين. ينظر: «مجمع الأمثال»: (١/ ٢٠٧)، و«تاج العروس»: (٢٣/ ١٤٣).
(٥) البخاري (٥٢٨٥).

نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: فحجز النَّاس عنهنَّ حتىٰ نزلت التي بعدها: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فنكح النَّاس من نساء أهل الكِتَاب(١).

وقد تزوَّج جماعةٌ مِن الصحابة مِن نساء النَّصارىٰ ولم يَرَوْا بذلك بأسًا؛ أخذًا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه مخصِّصة للآية التي في البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [الآية: ٢٢١] إن قيل بدخول الكِتَابيَّات في عمومها، وإلا فلا مُعَارَضَة(٢) بَيْنَهَا وبينها؛ لأنَّ أهل الكتاب قد يُفصَل في ذِكْرِهم عن المشركين في غيرِ موضعٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وكقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: مُهُورَهُنَّ؛ أي: كما هُن محصنات عفائف، فابْذُلُوا لهُنَّ المُهُورَ عَن طيب نفسٍ. وقد أفتىٰ جابر بن عبد الله، وإبراهيم النَّخَعي، وعامر الشَّعبي، والحسن البصري بأنَّ الرجل إذا نكح امرأةً، فزنت قبل دخوله بها: أنَّه يُفرَّق بينه وبينها، وتَرُدُّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ فكما شرط الإحصان في النِّساء، وهي العِفَّة عن الزِّنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرَّجُل أيضًا مُحْصَنًا عفيفًا؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وهم الزُّناة الَّذين لا يَرْتَدِعُون عن معصيةٍ، ولا يَرُدُّون أنفسهم عمَّن جاءَهُم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: ذوي(٣) العَشِيقَات الَّذين لا يفعلون إلا مَعَهُنَّ، كما تقدم في سورة النساء سواء؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنَّه لا يصحُّ نكاح المرأة البَغِيِّ، حتىٰ تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رَجُل عفيفٍ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرَّجل الفاجر علىٰ عفيفةٍ، حتىٰ يتوب ويُقْلِع عما هو فيه من الزِّنا؛ لهٰذه الآية، وللحديث الآخر: «**لا يَنكِحُ الزَّانِي المَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ**»(٤).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا سليمان بن حَرْب، حدَّثنا أبو هلال، عن قتادة، عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هَمَمْتُ ألَّا أَدَعَ أحدًا أصاب فاحشةً في الإسلام أن يتزوَّج محصنةً. فقال له أبيُّ بن كعب: يا أمير المؤمنين، الشِّرك أَعْظَم من ذلك، وقد يُقْبَل منه إذا تاب(٥).

وسيأتي الكلام علىٰ هذه المسألة مُسْتَقْصًىٰ، إن شاء الله تعالىٰ عند قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]؛ ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٠٥/ ١٢٦٠٧).

(٢) لوحة (٢٥٥ ب). (٣) في (ز): دون.

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٢٠٥٢)، وسيأتي في تفسير سورة النور الآية (٣).

(٥) مسلم (٢٧٧)، وأبو داود (١٧٢)، والترمذي (٦١)، والنسائي (١/ ٨٦)، وأحمد (٥/ ٣٥٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم (١) مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

قال كثيرون من السَّلف: قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناه: وأَنْتُم مُحْدِثون.

وقال آخرون: إذا قمتم من النَّوم إلىٰ الصَّلاة وكلاهما قريب.

وقال آخرون: بل المَعْنَىٰ أعمُّ مِن ذلك، فالآية آمِرَةٌ بالوُضُوءِ عند القيام إلىٰ الصَّلَاةِ، ولَكِنْ هو فِي حقِّ المُحْدِثِ علىٰ سبيل الإيجاب، وفي حقِّ المُتطَهِّر علىٰ سبيل الندب والاستحباب. وقد قيل: إنَّ الأَمْرَ بالوُضُوءِ لكلِّ صلاةٍ كان واجبًا في ابتداء الإِسْلَامِ، ثم نُسِخَ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن عَلْقَمَةُ بن مَرْثَدٍ، عن سليمان ابن بُرَيْدة عن أبيه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يتوضَّأ عند كل صلاةٍ، فلما كان يوم الفتح توضَّأ، ومسح علىٰ خُفَّيْه، وصلَّىٰ الصلواتِ بوضوءٍ واحدٍ. فقال له عمرُ: يا رسول الله، إنَّك فعلتَ شيئًا لم تكن تفعلُه؟ قال: «إِنِّي عَمْدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ»(٢).

وهكذا رواه مسلم وأهل السُّنن مِن حديث سفيانَ الثَّوْرِيِّ، عن علقمةَ بن(٣) مَرْثَد، ووقع في «سنن ابن ماجة»، عن سفيان عن مُحاربِ بن دِثَار -بدل علقمة بن مرثد- كلاهما عن سليمان بن بُريدة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عباد بن موسىٰ، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطُّفَيْل البَكَّائي، حدَّثنا الفضل بن المُبَشِّر قال: رأيت جابر بن عبد الله يُصَلِّي الصلواتِ بوضوءٍ واحدٍ، فإذا بالَ أو أحْدَثَ، توضَّأ ومسح بفَضْلِ طَهُوره الخُفَّيْنِ، فقلت: أبا عبد الله، شيء تَصْنَعُه برأيك؟ قال: بل رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يَصْنَعُه، [فأنا أصنعُهُ، كما رأيتُ رسول الله ﷺ يصنعُ](٤)(٥).

وكذا رواه ابن ماجة، عن إسماعيل بن تَوْبة، عن زياد البَكَّائي بِهِ.

وقال أحمد: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا أبي، عن ابن إسحاق(٦)، حدَّثني محمَّد بن يحيىٰ بن حَبَّان

---

(١) لوحة (٢٥٦ أ). (٢) رواه الطبري (٦/ ١٠٥).
(٣) في (ز): علقمة عن مرثد. (٤) سقط من (ز).
(٥) **صحيح لغيره**: ابن ماجة (٥١١)، وفيه الفضل بن مبشِّر، قال الحافظ: فيه لين، لكن يشهد له حديث بريدة السابق.
(٦) في (ز): عن أبي إسحاق.

الأنصاري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: [قلت له:][١] أرأيتَ وضوءَ عبدِ اللهِ بن عمرَ لكلِّ صلاةٍ طاهرًا [كان][٢] أو غير طاهر، عمَّن هو؟ قال: حدَّثته أسماءُ بنت زيد بن الخطاب؛ أنَّ عبد الله ابن حَنْظَلَةَ [بن أبي عامر][٣] بن الغَسِيل حدَّثها: أنَّ رسول الله ﷺ كان أَمَرَ بالوُضُوءِ لكلِّ صلاةٍ، طاهرًا كان أو غير طاهرٍ، فلما شقَّ ذلك علىٰ رسول الله ﷺ أمر بالسِّوَاكِ عند كلِّ صلاةٍ، وَوُضِع عنه الوضوء، إلا مِن حدثٍ. فكان عبد الله يَرَىٰ أن به قوَّةً علىٰ ذلك، كان يفعله حتىٰ مات[٤].

وكذا رواه أبو داود، عن محمَّد بن عَوْف الحِمْصِيّ، عن أحمد بن خالد الوَهْبِي[٥]، عن محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن يحيىٰ بن حَبَّان، عن عبد[٦] الله بن عبد الله[٧] بن عمر ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد، عن محمَّد بن إسحاق فقال: عبيد الله بن عبد الله بن عمر؛ يعني: كما تقدَّم في رواية الإمام أحمد.

وأيًّا ما كان فهو إسنادٌ صحيحٌ، وقد صرَّح ابن إسحاقَ فيه بالتَّحْدِيثِ والسَّماع مِن محمَّد بن يحيىٰ بن حَبَّان، فزَال محذُورُ التَّدْلِيس. لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سلمة بن الفضل، وعلي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، عن محمَّد بن طلحةَ بنِ يزيدَ بنِ رُكَانَةَ، عن محمَّد بن يحيىٰ بن حَبَّان به، والله أعلم.

وفي فعلِ ابن عُمَرَ هذا، ومُدَاوَمَتِهِ علىٰ إسباغِ الوضوء لكلِّ صلاةٍ دَلالةٌ علىٰ اسْتِحْبَاب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

وقال ابن جرير: حدَّثنا زكريا بن يحيىٰ بن أبي زائدة، حدَّثنا أَزْهَرُ، عن ابن عَوْن، عن ابن سِيرين: أنَّ الخلفاء كانوا يَتَوَضَّئُون لكلِّ صلاةٍ[٨].

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن المُثَنَّىٰ، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شُعْبَة، سمعت مسعود ابن علي الشَّيْبانِيَّ، سمعت عِكْرِمة يقول: كان عليٌّ ﷺ يتوضَّأُ عند كل صلاةٍ، ويقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[٩].

وحدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثني وَهْب بن جرير، أخبرنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسرة، عن النَّزَّالِ ابن سَبْرَة قال: رأيت عليًّا صلىٰ الظهر، ثم قعَدَ للنَّاس في الرَّحْبة، ثم أُتِي بِمَاءٍ فغسل وجْهَهُ ويَدَيْهِ، ثمَّ مَسَحَ برأسه ورِجْلَيْهِ، وقال: هذا وُضُوءُ مَن لم يُحْدث[١٠].

---

(١) زيادة من «المسند». (٢) زيادة من «المسند». (٣) زيادة من «المسند».

(٤) **حسن**: أبو داود (٤٨)، وحسنه الألباني، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فأمن تدليسه.

(٥) في (ز): الذهبي، والمثبت هو الصواب. (٦) في (ز): عبيد الله.

(٧) لوحة (٢٥٦ ب). (٨) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ١١٢).

(٩) رواه الطبري (٦/ ١١٢)، والطحاوي في «شرح المعاني» (١/ ٤٥).

(١٠) رواه البخاري (٥٦١٦)، والطبري (٦/ ١١٣).

وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هُشَيْم، عن مُغِيرةَ، عن إبراهيم؛ أنَّ عليًّا [اكْتَالَ][١] من حُبٍّ[٢]، فتَوَضَّأَ وضوءًا فيه تجوُّز فقال: «هَذَا وُضُوءُ مَنْ لَمْ يُحْدِثْ»[٣]. وهذه طرقٌ جيدةٌ عن عليٍّ ﷺ يُقَوِّي بعضها بعضًا.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا ابن بَشَّارٍ، حدَّثنا ابن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيْد، عن أنس قال: توضأ عُمَرُ ابن الخطَّاب وضوءًا فيه تَجَوُّز خفيفًا، فقال: هذا وُضُوء مَن لَمْ يُحْدِث[٤]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

وقال محمَّد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضَّئُون لكلِّ صلاةٍ[٥].

وأمَّا ما رواه أبو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عن أبي هلال، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب [أنَّه قال: الوُضُوءُ مِن غير حدث اعتداءٌ[٦]. فهو غريب عن سعيد بن المسيب،][٧] ثم هو محمول علىٰ أنَّ مَنِ اعْتَقَدَ وجوبه فهو مُعْتَدٍ، وأما مشروعِيَّتُه استحبابًا، فقد دلَّت السُّنَّة علىٰ ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، حدَّثنا سفيان، عن عمرو بن عامر الأنصاري، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النَّبِيُّ ﷺ يتوضَّأ عند كلِّ صلاة، قال: قلت فأَنْتُم كيف كنتم تَصْنَعُون؟ قال: كنَّا نُصَلِّي الصَّلواتِ بوُضُوءٍ واحدٍ، ما لم نُحْدِث[٨].

وقد رواه البخاري وأهل السُّنَن مِن غير وجهٍ، عن عَمْرو بن عامر به.

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو سعيد البغدادي، حدَّثنا إسحاق بن منصور[٩]، عن هُرَيم، عن عبد الرَّحمن بن زياد -هو الإفْرِيقي- عن [أبي][١٠] غُطَيف، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ عَلَىٰ طُهْرٍ كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»[١١].

ورواه أيضًا مِن حديث عيسىٰ بن يونس، عن الإفريقي، عن أبي غُطَيف، عن ابن عمر فذَكَرَهُ، وفيه قِصَّة.

وهكذا رواه أبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجة من حديث الإفريقي: به نحوه، وقال التِّرمِذِيُّ: وهو إسناد ضعيف.

---

(١) في (ز): أدار. والمثبت من «الطبري».

(٢) الحُبُّ: وعاء الماء كالزِّير والجَرَّة، (ج): أحباب وحِبَبَة وحِبابٌ. «المعجم الوسيط»: (ص/ ١٥١).

(٣) رواه الطبراني (٦/ ١١٣)، ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع بين إبراهيم النخعي، وعلي بن أبي طالب.

(٤) صحيح: رواه الطبري (٦/ ١١٣).

(٥) صحيح: رواه الطبري (٦/ ١١٢).

(٦) ورواه ابن أبي شيبة (١٢)، وإسناده ضعيف، في إسناده أبو هلال محمَّد بن سليم الراسبي، قال الحافظ: صدوق فيه لين.

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٨) البخاري (٢١٤)، وأبو داود (١٧١)، والترمذي (٦٠)، والنسائي (١/ ٨٥)، وابن ماجة (٥٠٩)، وابن جرير (٦/ ١١٣).

(٩) لوحة (٢٥٧ أ).

(١٠) سقطت من (ز).

(١١) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ١١٥)، وفيه الإفريقي: وهو ضعيف، ورواه أبو داود (٦٢)، والترمذي (٥٩)، وابن ماجة (٥١٢).

قال ابن جرير: وقد قال قوم: إنَّ هذه الآية نَزَلَتْ إعلامًا مِن الله، أنَّ الوضوء لا يَجِبُ إلَّا عند القِيَام إِلَىٰ الصَّلَاةِ، دون غيرها مِن الأعمال؛ وذلك لأنَّه ﷺ كان إذا أَحْدَث امْتَنَع من الأَعْمَال كُلِّها حتَّىٰ يتوضَّأَ.

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا معاويةُ بنُ هشام، عن شَيْبانَ[١] عن جابر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عَمْرو بن حزم، عن عبد الله بن عَلْقَمَة بن الفَغْواء، عَن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَرَاق[٢] البَوْلَ نُكَلِّمُه فلا يُكَلِّمُنَا، ونُسَلِّم عليه فلا يَرُدُّ عَلَيْنَا، حتىٰ نزلت آية الرخصة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[٣].

ورواه ابن أبي حاتم عن محمَّد بن مسلم، عن أبي كُرَيْب به نحوه. وهو حديثٌ غريبٌ جدًّا، وجابر هذا هو ابن يزيد[٤] الجُعْفِي، ضعفوه.

وقال أبو داود: حدَّثنا مُسَدَّد، حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا أيوب،عن عبد الله بن أبي مُلَيكة، عن عبد الله بن عبَّاس؛ أنَّ رسول الله ﷺ خرج مِن الخَلَاءِ، فَقُدِّم إليه طعام، فقالوا: ألا نَأْتِيكَ بوَضُوءٍ، فقال: «إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»[٥].

وكذا رواه التِّرمِذيُّ عن أحمد بن مَنِيع، والنَّسَائِيُّ عن زِيادِ بن أيوب، عن إسماعيل -وهو ابن عُلَيَّة- به، وقال التِّرمِذيُّ: هذا حديث حسن.

وروىٰ مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان بن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحُوَيْرِث، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كنَّا عند النَّبيِّ ﷺ فأتىٰ الخَلَاءَ، ثمَّ إنَّه رجع فأُتِيَ بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تَتَوضَّأُ؟ فقال: «لِمَ؟ أَأُصَلِّي[٦] فَأَتَوَضَّأَ؟!»[٧].

وقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ قد استدلَّ طائفةٌ مِن العُلَمَاءِ بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ علىٰ وجوب النِّيَّة في الوُضُوءِ؛ لأنَّ تقدير الكلام: إذا قُمْتُم إلىٰ الصلاة فاغسلوا وجوهَكُم لها، كما تقول العرب: إذَا رأَيْت الأميرَ فقُمْ؛ أي: له. وقد ثبت في «الصحيحين» حديث: «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ»[٨]. ويُسْتَحَبُّ قبل غسل الوجه أَن يذكر اسم الله تعالىٰ علىٰ وُضُوئِهِ؛ لما ورد في الحديث مِن طُرُقٍ جَيِّدَةٍ، عن جماعة من الصحابة، عن النَّبيِّ ﷺ[٩] أنه قال: «لَا

---

(١) في (ز): سفيان.

(٢) في (ز): أراد. والمثبت من «الطبري».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ١١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٥٣) برقم (١٤٤٣١)، وفيه جابر الجعفي: وهو ضعيف.

(٤) في (ز): زيد، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٥) صحيح: أبو داود (٣٧٦٠)، والترمذي (١٨٤٧)، والنسائي (١/ ٨٥)، وانظر ما بعده.

(٦) في (ز): لم أصل، والمثبت موافق لـ«صحيح مسلم».

(٧) مسلم (٣٧٤).

(٨) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٤٠١) والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٥٨)، وابن ماجة (٤٢٢٧).

(٩) لوحة (٢٥٧ ب).

وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ»(١).

ويُسْتَحَبُّ أَن يغسل كَفَّيْه قبل إدخالهما في الإناءِ، ويتأكَّد ذلك عند القيام من النَّوم؛ لما ثبت في «الصَّحِيحَيْن» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يُدْخِلْ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ**»(٢)(٣).

وحَدُّ الوَجْهِ عند الفُقَهَاء: ما بين منابت شعر الرأس -ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم(٤)- إلىٰ مُنْتَهىٰ اللَّحْيَيْن والذَّقَنِ طولًا، ومِن الأُذُن إلىٰ الأُذُن عرضًا، وفي النَّزْعَتَيْنِ(٥) والتَّحْذِيف خلافٌ، هل هما مِن الرَّأس أو الوجه، وفي المسترسِلِ من اللِّحْيَةِ عن مَحَلِّ الفرض قولان، أحدهما: أنَّه يجب إفاضة الماء عليه؛ لأنَّه تقع به المواجهة. ورُوِيَ في حديثٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأىٰ رجلًا مُغَطِّيًا لحيتَهُ، فقال: «**اكْشِفْهَا، فَإِنَّ اللِّحْيَةَ مِنَ الوَجْهِ**»(٦).

وقال مجاهدٌ: هِيَ مِنَ الوجه، ألا تَسْمَع إلىٰ قول العرب في الغُلَام إذَا نبتَتْ لِحْيَتُهُ: طَلَعَ وَجْهُهُ.

ويُسْتَحَبُّ للمُتَوَضِّئِ أن يُخَلِّلَ لِحْيَتَهُ إذا كانت كَثَّةً، قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا إسرائيلُ، عن عامر بن شَقِيق بن جَمْرَة، [عن أبي وائل](٧) قال: رأيتُ عثمان توضَّأ -فذكر الحديث- قال: وخَلَّلَ اللِّحْيَة ثلاثًا حين غسل وَجْهَهُ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الَّذِي رأيتموني فَعَلْتُ(٨). رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث عبد الرَّزَّاق، وقال التِّرمذي: حسن صحيح، وحسَّنه البخاري.

وقال أبو داود: حدَّثنا أبو تَوْبَة الربيعُ بنُ نافع، حدَّثنا أبو المَلِيح، حدَّثنا الوليد بن زَوْرَان عن أنس ابن مالك؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا توضَّأ أخذ كَفًّا مِن ماءٍ، فأدخله تحت حَنَكِهِ، يُخَلِّلُ به لحيته، وقال: «**هَكَذَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي ﷻ**»(٩).

---

(١) **حسن لغيره:** رواه أبو داود (١٠١)، وابن ماجة (٣٩٩)، وللحديث شواهد كثيرة، انظر رسالة: «كشف المخبوء» للشيخ أبي إسحاق الحويني.

(٢) البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨)، وأبو داود (١٠٥)، والترمذي (٢٤)، والنسائي (١/ ٧٠٦)، وابن ماجة (٣٩٣).

(٣) والأمر بالغسل علىٰ الاستحباب، وهو يَعُمّ نوم الليل والنهار علىٰ السواء، وهو قول الجمهور، ورجحه النووي وغيره، وخَصَّه أحمد بنوم الليل. ينظر: «شرح مسلم»: (٣/ ١٨١)، و«فتح الباري»: (١/ ٢٦٣).

(٤) **الغَمَم:** أن يسيل الشعر من الرأس في الوجه والقفا، حتىٰ تضيق الجبهة ويصغر القفا.

(٥) **النزعة:** الموضع الذي انحسر منه الشعر، علىٰ جانبي ناصيته يمينًا وشمالًا. والتحذيف من الرأس: ما تعتاد النساء تنحية الشعر عنه، وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه.

(٦) **ضعيف:** الحديث رواه الدَّيْلَمِي في «مسنده» (٧٧٣٣)، قال الحافظ ابن حجر: (ذكره الحازِمي في تخريج أحاديث المُهذَّب فقال: هذا الحديث ضعيف، وله إسناد مظلم، ولا يثبت عن النَّبيِّ ﷺ فيه شيء، وتبعه المُنْذِري وابن الصلاح والنووي). انظر: «تلخيص الحَبِير» (١/ ٦٨)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٧٥٤).

(٧) سقط من (ز).

(٨) **صحيح:** رواه الترمذي (٣١)، وابن ماجة (٤٣٠).

(٩) **صحيح لغيره:** أبو داود (١٤٥) وفيه عبد الجبار بن عاصم الهَرَوِيّ: فيه مقال، ولكن للحديث شواهد استوفاها =

تفرَّد به أبو داود، وقد رُوي هذا من غير وجه عن أنس.

قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمَّارٍ، وعائشةَ، وأمِّ سلمةَ عن النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ عن عليٍّ وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر، والحسن بن علي، ثم عن النَّخَعي، وجماعة من التابعين.

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ مِن غير وجه في «الصِّحاح» وغيرها: أنَّه كان إذا توضَّأ تَمَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ، فاختلف الأئمَّة في ذلك: هل هما واجِبَان في الوضوء والغُسْل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؟ لما ثبت في الحديث الَّذِي رواه أهل السُّنَن وصحَّحه ابن خُزَيمة، عن رِفاعةَ بن رافع[١] الزُّرَقي أن النَّبيَّ ﷺ قال للمُسِيءِ في صلاته: «تَوَضَأْ كَمَا أَمَرَكَ اللهُ»[٢] أو يَجِبَان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة؟ أو يَجِب الاسْتِنْشَاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد؛ لما ثبت في الصحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ[٣]»[٤]، وفي رواية: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مِنْخَرَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لْيَنْتَثِرْ» والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سلمة الخُزَاعي، حدَّثنا سليمانُ بن بلالٍ، عن زيد بن أسلمَ، عن عطاء بن يسار، عن ابن عبَّاس؛ أنه توضَّأ فغسَل وجهه، ثم أخذ غَرْفةً مِن ماءٍ فتَمَضْمَضَ بها واسْتَنْثَرَ، ثمَّ أخذ غَرْفَةً فجعل بها هكذا؛ يعني: أضافها إلىٰ يده الأخرىٰ، فغَسَلَ بهما وجهه. ثم أَخَذَ غرفةً مِن ماءٍ، فغسل بها يده اليُمْنَىٰ، ثمَّ أخذ غَرْفَةً مِن ماءٍ فغسل بها يده اليسرىٰ، ثمَّ مسح رَأْسَه، ثمَّ أخذ غَرْفَةً من ماءٍ، ثم رَشَّ علىٰ رِجْلِه اليمنىٰ حتىٰ غسلَهَا، ثم أخذ غَرْفَةً أخرىٰ فغَسَل بها رجله اليسرىٰ، ثمَّ قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ؛ يعني: يَتَوَضَّأ[٥].

ورواه البخاري، عن محمَّد بن عبد الرحيم، عن أبي سلمة منصورِ بنِ سلمةَ الخُزَاعي به.

وقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المَرَافِق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]

وقد رَوَىٰ الحافظ الدَّارَقُطْني وأبو بكر البَيْهقي، من طريق القاسم بن محمَّد، عن عبد الله بن محمَّد بن عَقِيل، عن جَدِّه، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضَّأ أدار الماءَ علىٰ

= الألباني في «إرواء الغليل» (٩٢) وصحح الحديث.
قلت: أما قوله: هكذا أمرني ربي، فهذا اللفظ ضعيف، في إسناده الوليد بن زَوْرَان، قال الحافظ: لين الحديث. وأما توثيق الذهبي له فيمن له رواية في الكتب الستة، فلا أدري علىٰ أي شيء اعتمد فإن الوليد لم يوثقه غيرُ ابنِ حبانَ، وهو متساهل كما هو معلوم.

(١) لوحة (٢٥٨ أ).
(٢) **صحيح**: أبو داود (٨٦١)، والترمذي (٣٠٢) وابن خزيمة (٥٤٥).
(٣) في (ز): فليستنشق.
(٤) البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٣٧)، وأبو داود (١٤٠)، والنسائي (١/ ٦٥).
(٥) البخاري (١٤٠)، وأحمد (١/ ٢٦٨).

مِرْفَقَيْهِ[١]. ولكِنَّ القاسمَ هذا متروك الحديث، وجَدُّه ضعيفٌ والله أعلم.

ويُسْتَحَبُّ للمتوضِئِ أن يشرع في العَضُد؛ لِيَغْسِلَه مع ذراعيه؛ لما روىٰ البخاري ومسلم، من حديث نُعَيم المُجْمِر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ[٢] مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»**[٣].

وفي «صحيح مسلم»: عن قُتَيْبَة، عن خَلَف بن خليفة، عن أبي مالك الأشْجَعِي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: **«تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»**[٤].

وقوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه «الباء» هل هِيَ لِلْإِلْصَاق؟ وهو الأظهر، أو للتَّبْعِيضِ؟ وفيه نظر، علىٰ قولين. ومن الأصوليين مَن قال: هذا مُجْمَلٌ، فليُرجَعْ في بيانه إلىٰ السُّنَّة، وقد ثبت في «الصحيحين» مِن طريق مالك، عن عمرو بن يحيىٰ المَازِنِيِّ، عن أبيه، أنَّ رجلًا قال لعبد الله بن[٥] زيد بن عاصم -وهو جَدُّ عمرو بن يحيىٰ، وكان مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ-: [هل تَسْتَطِيع أن تُرِيَنِي كيف كان رسول الله ﷺ][٦] يَتَوَضَّأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوَضُوء، فأفرغَ علىٰ يديه، فغسل يَدَيْه مرَّتين مَرَّتين، ثم مَضْمَضَ واستَنْشَقَ ثلاثًا، وغسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلىٰ المِرْفَقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بِهِمَا وأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّم رأسه ثم ذهب بهما إلىٰ قَفَاهُ، ثم رَدَّهُما حتىٰ رجع إلىٰ المكان الذي بدأ مِنْهُ، ثم غسل رجليه[٧].

وفي حديث عَبدِ خَيْرٍ، عن عليٍّ في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا[٨]، وروىٰ أبو داود، عن معاويةَ والمِقْدام[٩] بن مَعْدِ يكَرِب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله[١٠].

ففي هذه الأحاديث دلالةٌ لِمَنْ ذهب إلىٰ وجوب تكميل مَسْحِ جميعِ الرَّأْسِ، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما علىٰ قول مَن زعم أنَّها خرجت مخرج البيان لما أُجْمِلَ فِي القرآن.

وقد ذهب الحَنَفِيَّة إلىٰ وجوب مسح ربع الرأس، وَهُوَ مِقْدَار النَّاصية.

وذهب أصحابنا إلىٰ أنه إنَّما يجب ما يُطْلَق عليه اسم مسح، لا يَتَقَدَّر ذلك بحدٍّ، بل لو مسح بعض شَعْرَةٍ مِن رأسه أَجْزَأَهُ.

---

(١) الدارقطني (١/ ٥٦). وهو ضعيف كما أعلَّه ابن كثير.

(٢) الغُرَّة: بياض في جبهة الفرس، والتحجيل: بياض يكون في قوائم الفرس. «اللسان»: غ رر، وح ج ل. يُريد بَياض وجُوهِهم بنور الوُضوء يوم القيامة. «النهاية».

(٣) البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٤) مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١/ ٢٣).

(٥) لوحة (٢٥٨ ب).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٧) البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، وأبو داود (١١٩)، والترمذي (٢٨)، والنسائي (١/ ٧٢)، وابن ماجة (٤٤٠).

(٨) أبو داود (١١١- ١١٣)، والنسائي (١/ ٦٧)، وابن ماجة (٤٠٤)، وأصله عند البخاري (٢٤١٥).

(٩) في (ز): المقداد، وهو خطأ.

(١٠) حديث معاوية رواه أبو داود (١٢٤) وصححه الألباني، وحديث المقدام رواه أبو داود (١٢٢) وصححه الألباني.

واحتج الفَرِيقَان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النَّبِيُّ ﷺ، فَتَخَلَّفْتُ معه، فلما قضىٰ حاجته قال: «هَلْ مَعَكَ مَاءٌ؟» فأتيته بِمِطْهَرة، فغسل كفَّيْه ووجهه، ثم ذهب يَحْسِر عن ذراعيه، فضاق كُمُّ الجُبَّة، فأخرج يديه مِن تَحْتِ الجُبَّة وألقىٰ الجُبَّة علىٰ مَنْكِبَيْه، فغسل ذِرَاعَيْه، ومسح بِنَاصِيَتِهِ، وعلىٰ العمامة وعلىٰ خُفَّيْه... وذكر باقي الحديث[١]، وهو في «صحيح مسلم»، وغيره.

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنَّما اقتصر علىٰ مسح النَّاصية؛ لأنَّه كمَّل مسح بقيَّة الرأس علىٰ العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع؛ كما وردت بذلك أحاديثُ كثيرةٌ، وأنَّه كان يَمْسَح علىٰ العِمَامَةِ وعلىٰ الخُفَّيْن، فهذا أَوْلَىٰ، وليس لَكُم فِيهِ دلالَةٌ علىٰ جواز الاقتصار علىٰ مسح النَّاصية، أو بَعْضِ الرَّأسِ، مِن غير تَكْمِيلٍ علىٰ العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنَّه: هل يُسْتَحَبُّ تكْرار مَسْحِ الرَّأْس ثلاثًا، كما هو المَشْهُور مِن مذهب الشَّافِعِيِّ، أو إنَّما يُسْتَحَبُّ مسحةٌ واحدةٌ، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومَنْ تابعه، علىٰ قولين. فقال عبد الرزَّاق: عن مَعْمَر، عن الزُّهْرِيِّ، عن عطاء بن يزيدَ اللَّيْثِيِّ، عن حُمْران بن أَبان قال: رَأَيْتُ عثمانَ بن عفَّان توضَّأ فأَفْرَغَ علىٰ يَدَيْهِ ثلاثًا فغسلهما[٢]، ثم مَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يدَهُ اليُمْنَىٰ إلىٰ المرفق ثلاثًا، ثمَّ غسل اليُسْرَىٰ مثل ذلك، ثمَّ مسح بِرَأْسِهِ، ثمَّ غسل قَدَمَه اليُمْنَىٰ ثلاثًا، ثمَّ اليُسْرَىٰ ثلاثًا مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وُضُوئِي هذا، ثم قال: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٣].

أخرجه البخاري ومسلم في «الصَّحِيحَيْن» من طريق الزُّهري به نَحْو هذا، وفي «سنن أبي داود» من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَة، عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرةً واحدةً[٤]، وكذا من رواية عبدِ خَيْرٍ، عن عليٍّ مثله.

واحتجَّ مَنِ اسْتَحَبَّ تكْرار مسح الرَّأس، بعموم الحديثِ الَّذِي رواه مسلم في «صحيحه» عن عثمان رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ توضَّأ ثلاثًا ثلاثًا[٥].

وقال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا الضَّحَّاك بن مَخْلَد، حدَّثنا عبد الرحمن بن وَرْدَان، حدَّثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدَّثني حُمْران قال: رَأَيْتُ عثمان بن عفان توضَّأ. فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاسْتِنْشَاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثًا، ثم غسل رجليه ثلاثًا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضَّأ هكذا، وقال: «**مَنْ تَوَضَّأَ [دُونَ]**[٦] **هَذَا كَفَاهُ**»[٧].

---

(١) مسلم (٢٧٤)، والترمذي (١٠٠)، وأبو داود (١٥٠)، والنسائي (١/ ٧٦).

(٢) لوحة (٢٥٩ أ).

(٣) البخاري (١٦٤) (١٩٣٤) (٦٤٣٣)، ومسلم (٢٢٦)، وأبو داود (١٠٧)، وابن ماجة (٢٨٥).

(٤) صحيح: أبو داود (١٠٨).

(٥) البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).

(٦) سقط من (ز)، وما أثبتناه موافق لما في السنن.

(٧) صحيح: رواه أبو داود (١٠٧)، وصححه الشيخ الألباني. انظر: «تمام المنة» للألباني (ص ٩١).

تفرَّد به أبو داود، ثم قال: وأحاديثُ عثمانَ الصِّحاحُ تدلُّ علىٰ أنَّه مسحَ الرَّأس مرَّةً واحدةً.

وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قُرِئَ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنَّصْبِ [1] عطفًا علىٰ ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا وُهَيْبٌ، عن خالد، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس أنَّه قرأها: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ يقول: رَجَعَت إلىٰ الغَسْلِ.

ورُوِي عن عبد الله بن مسعود، وعُرْوَة، وعطاء، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، ومُقاتل بن حيان، والزهري، وإبراهيم التيمي، نحو ذلك.

وهذه قراءةٌ ظاهرةٌ في وجوب الغَسْل، كما قاله السَّلف، ومِن هاهنا ذهب مَن ذهب إلىٰ وجوب التَّرتيب، كما هو مذهب الجمهور، خلافًا لأبي حنيفة حيث لم يشترط التَّرْتيب، بل لو غسل قدميه، ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجْهَهُ أجزأه ذلك؛ لأنَّ الآية أمرت بِغَسْل هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدل علىٰ الترتيب. وقد سَلَكَ الجمهور في الجواب عن هذا البحث طُرُقًا، فمنهم من قال: الآية دلَّت علىٰ وجوب غَسْل الوجه ابتداءً عند القِيَام إلىٰ الصلاة [2]؛ لأنَّه مأمور به بفَاء التَّعْقِيب، وهي مُقْتَضِيَة للتَّرْتِيب، ولم يَقُل أحدٌ من النَّاس بوجوب غَسْلِ الوجه أولًا، ثم لا يَجِبُ التَّرْتِيب بعده، بل القَائِلُ اثنان، أحدهما: يُوجِب التَّرْتيب، كما هو واقع في الآية. والآخر يقول: لا يَجِبُ التَّرْتِيب مطلقًا، والآية دلَّت علىٰ وجوب غَسْل الوجه ابتداءً، فوَجَبَ التَّرْتيبُ فيما بعده بالإجماع، [حيث] [3] لا فارق. ومنهم من قال: لا نُسَلِّمَ أنَّ «الواو» لا تدلُّ علىٰ التَّرتيب، بل هي دالَّةٌ -كما هو مذهب طائفة من النُّحاة وأهل اللُّغة وبعض الفقهاء- ، ثم نقول -بتقدير [تسليم] [4] كونها لا تدلُّ علىٰ التَّرتِيب اللُّغَوي-: هي دالَّة علىٰ التَّرْتيب شرعًا، فيما من شأنه أن يُرتَّب، والدَّليلُ علىٰ ذلك أنَّه ﷺ لما طاف بالبَيْتِ، خرج مِن باب الصَّفا، وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» [5] لفظ مسلم، ولفظ النسائي: «ابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» [6]. وهذا لفظُ أمرٍ، وإسناده صحيح، فدلَّ علىٰ وجوب البَدَاءَةِ بما بدأ الله به، وهو معنىٰ كونها تدلُّ علىٰ التَّرْتِيبِ شرعًا، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر تعالىٰ هذه الصِّفَة في هذه الآية علىٰ هذا التَّرتيب، فقطع النَّظِير عن النَّظِير، وأدخل الممسوح بين المَغْسُولَيْنِ، دل ذلك علىٰ إِرَادَةِ التَّرْتِيبِ.

---

(١) متواترة: قَرَأَ (وَأَرْجُلَكُمْ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ، وَقَرَأَ (وَأَرْجُلُكُمْ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَأَرْجُلِكُمْ).

(٢) لوحة (٢٥٩ ب).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) رواه مسلم (١٢١٨).

(٦) هذا اللفظ رواه الأمام أحمد (٣/ ٣٩٤)، والبيهقي (١/ ٨٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣٩٦٨)، وقد ضعفه الألباني بهذا اللفظ. انظر: «ضعيف الجامع» (٣٦).

ومنهم من قال: لا شكَّ أنَّه قد روىٰ أبو داود وغيره مِن طريق عَمْرو بن شعيب، عن أَبِيهِ، عن جَدِّه؛ أنَّ رسول الله ﷺ توضَّأ مرَّة مرَّة، ثم قال: «**هَذَا وُضُوءٌ لا يَقْبَلُ اللهُ الصَّلاةَ إِلَّا بِهِ**»[١] قالوا: فلَا يَخْلُو إمَّا أن يكون توضَّأ مُرَتَّبًا، فيجب التَّرتِيب، أو يكون توضَّأ غير مرتَّب، فيجب عدَم التَّرْتِيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكرناه.

وأمَّا القِرَاءَة الأخرىٰ، وهي قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالخفض[٢]. فقد احتجَّ بها الشِّيعة في قولهم بوجوب مسح الرِّجْلَيْن؛ لأنَّها عندهم معطوفة علىٰ مسح الرَّأس. وقد رُوي عن طائفةٍ من السَّلف ما يُوهِمُ القول بالمَسْحِ، فقال ابن جرير:

حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّةَ، حدَّثنا حُمَيْد قال: قال موسىٰ بن أنس لأنس، ونَحْنُ عندَهُ: يا أبا حمزة، إنَّ الحجَّاج خَطَبَنا بالأَهْوَازِ ونَحْنُ مَعَه، فذكر الطَّهُور، فقال: اغْسِلُوا وجوهَكُم وأيديكم، وامسحوا برءُوسِكم وأرجلكم، وإنَّه ليس شيء من ابن آدم أقرب مِن خَبَثِهِ مِن قَدَمَيْه، فاغسلوا بطونهما وظُهُورَهُما وَعَرَاقِيبَهُما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجَّاج، قال الله تعالىٰ ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ قال: وكان أنس[٣] إذا مسح قدميه بَلَّهما[٤]. إسناد صحيح إليه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن سَهْل، حدَّثنا مُؤَمَّل، حدَّثنا حماد، حدَّثنا عاصم الأحول، عن الحسن قال: نزل القرآن بالمسح، والسُّنَّة الغسل. وهذا أيضًا إسناد صحيح[٥].

وقال ابن جرير: [حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا محمَّد بن قَيْس الخُرَاساني،][٦] عن ابن جُرَيْج، عن عمرو بن دينار، عن عِكرِمة، عن ابن عبَّاس قال: الوضوء غَسْلتَان ومَسْحَتَانِ[٧].

وكذا روىٰ سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثني أبي، حدَّثنا أبو مَعْمَر المِنْقَرِيّ، حدَّثنا عبد الوهَّاب، حدَّثنا علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلِكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ قال: هو المسح[٨]. ثم قال: وروي عن ابن عمر، وعلقمة، وأبي جعفر، ومحمَّد بن علي، والحسن - في إحدىٰ

---

(١) ثبت الحديث بهذا اللفظ عند البخاري (١٥٧)، وأبو داود (١٣٨)، والترمذي (٤٢)، والنسائي (١/ ٦٢)، وابن ماجة (٤١١) من حديث ابن عبَّاس، وأما اللفظ الذي ذكره ابن كثير من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فلم أقف عليه.

(٢) **متواترة**: سبق التعليق عليها.

(٣) لوحة (٢٦٠ أ).

(٤) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ١٢٩).

(٥) الطبري (٦/ ١٢٨).

(٦) في (ز): حدَّثنا أبو كريب بن ميسرة الخراساني. والمثبت من «الطبري».

(٧) رواه الطبري (٦/ ١٢٨)، ومحمَّد بن قيس. قال الشيخ أحمد شاكر: لم أجد له ذكرًا، ولم أعرف من يكون.

قلت: تابعه عبد الرزاق في «مصنفه» (١/ ١٩) عن ابن جريج به، ورجاله ثقات، إلا أن ابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٨) عزاه لابن أبي حاتم، وفيه علي بن زيد: ضعيف، وكذا عزاه السيوطي في «الدُّرِّ المنثور» إلىٰ ابن أبي حاتم، وثبت عن ابن عبَّاس أنه قال: «أبىٰ الناس إلا الغسل، ولا أجد في كتاب الله إلا المسح». رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٧)، وهذا اللفظ قال عنه الألباني: منكر، وذلك في تخريجه علىٰ ابن ماجة.

الروايات- وجابر بن زيد، ومجاهد -في إحدىٰ الروايات- نحوه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا ابن علية، حدَّثنا أيوب، قال: رأيت عكرمة يمسح علىٰ رِجْلَيْه، قال: وكان يقوله.

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو السائب، حدَّثنا ابن إدريسَ، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح. ثم قال الشعبي: ألا ترىٰ أنَّ التَّيَمُّم أنْ يمسح ما كان غسلًا، ويُلْغِي[1] ما كان مسحًا؟!

وحدَّثنا ابن أبي زياد، حدَّثنا يزيد، أخبرنا إسماعيل، قلت لعامر: إنَّ ناسًا يقولون: إنَّ جبريل نزلَ بِغَسْل الرِّجْلَيْن؟ فقال: نزل جبريل بالمَسْح.

فهذه آثارٌ غريبةٌ جدًّا، وهي محمولةٌ علىٰ أنَّ المراد بالمَسْح: هو الغَسْل الخفيف، لما سنذكره من السُّنَّة الثَّابتة في وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض؛ إما علىٰ المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، وكقوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغٌ ذائعٌ، في لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هي محمولةٌ علىٰ مسح القَدَمَيْنِ إذا كان عليهما الخُفَّان، قاله أبو عبد الله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ومنهم مَن قال: هي دالَّة علىٰ مسح الرِّجْلَيْن، ولكن المراد بذلك: الغَسْل الخفيف، كما وردت به السُّنَّة. وعلىٰ كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضًا لا بدَّ مِنهُ للآية؛ والأحاديث التي سَنُورِدُها.

ومِن أحسن مَا يستدل به علىٰ أنَّ المسح يُطْلَق علىٰ الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البَيْهَقِيُّ، حيث قال: أخبرنا أبو علي الروذباري، حدَّثنا أبو بكر محمَّد بن أحمد بن محمويه العسكري، حدَّثنا جعفر بن محمَّد القَلانِسِيّ، حدَّثنا آدمُ، حدَّثنا شعبةُ، حدَّثنا عبد الملك بن مَيْسَرَة، سمعت النَّزَّال بن سَبْرَة، يحدث عن علي بن أبي طالب[2] أنَّه صلَّىٰ الظُّهر، ثم قعدَ في حَوائِجِ النَّاس في رَحْبَةِ الكوفة، حتىٰ حَضَرَت صلاة العصر، ثمَّ أُتِيَ بكُوزٍ مِن ماءٍ، فأخذ مِنهُ حَفْنَةً واحدةً، فمسح بها وجهه ويديه ورَأْسَهُ ورِجْلَيْهِ، ثمَّ قام فشَرِبَ فَضْلَه، وهو قائِمٌ، ثمَّ قال: إنَّ ناسًا يَكْرَهُون الشُّرْبَ قائمًا، وإنَّ رسول الله ﷺ صَنَعَ ما صَنَعْتُ. وقال: «**هَذَا وُضوءُ مَنْ لَمْ يُحْدِثْ**»[3].

رواه البخاري في «الصحيح» عن آدم ببعض معناه.

ومن أَوْجَبَ مِن الشِّيعة مسحهما كما يمسح الخُفَّ، فقد ضَلَّ وأَضَلَّ. وكذا من جَوَّز مسحهما وجَوَّز غسلهما، فقد أخطأ أيضًا، ومَن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنَّه أوجب غسلهما لِلْأَحَاديث، وأَوْجَب مسحهما للآية، فلَمْ يُحَقِّق مذهبه في ذلك، فإنَّ كلامه في «تفسيره» إنَّما يدُلُّ علىٰ أنَّه أراد أنَّه يَجِبُ دَلْك الرِّجْلَيْن مِن دون سَائِر أعضاء الوُضُوء؛ لأنَّهما يَلِيَانِ الأرضَ والطِّينَ وغير ذلك،

---

(١) في (ز): وبلغني، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «الطبري».

(٢) لوحة (٢٦٠ ب).

(٣) رواه البيهقي (١/ ٧٥)، ورواه البخاري (٥٦١٦) ببعض ألفاظه، كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فأوجب دَلْكَهما ليذهب ما عليهما، ولكنَّه عَبَّر عن الدَّلْكِ بالمسح، فاعتقد مَن لَمْ يَتأَمَّل كلامه أنَّه أراد وجوب الجمع بين غَسْلِ الرِّجْلَيْن ومسحهما، فحَكَاهُ مَن حَكَاه كذلك؛ ولهذا يَسْتَشْكِلُه كثيرٌ مِن الفقهاء، وهو مَعْذُورٌ، فإنَّه لا معنىٰ للجَمْع بين المسح والغسل، سواء تقدَّمه أو تأخَّر عليه؛ لِانْدِرَاجِهِ فيه، وإنَّما أراد الرَّجلُ ما ذكرتهُ، والله أعلم.

ثم تَأَمَّلْت كلامه أيضًا، فإذَا هو يحاول الجمع بين القِرَاءَتَيْنِ، في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ خفضًا علىٰ المسح وهو الدَّلك، ونصبًا علىٰ الغسل، فأوجبهما أخذًا بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديثِ الواردَةِ في غَسْلِ الرِّجْلَيْن، وأنَّه لا بدَّ منه:

قد تقدَّم في حديث أميرَي المؤمنين عثمانَ وعليٍّ، وابن عبَّاس، ومعاوية، وعبد الله بن زيد بن عاصم، و[المِقْدام بن معدي كرب][1]؛ أنَّ رسول الله ﷺ غَسَلَ الرِّجْلَيْن في وضوئه، إمَّا مرَّة، وإمَّا مرَّتَيْن، أو ثلاثًا، علىٰ اختلاف رواياتهم[2].

وفي حديث عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ رسول الله ﷺ توضَّأ فغسل قدميه، ثم قال: «**هَذَا وُضُوءٌ لا يَقْبَلُ اللهُ الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ**»[3].

وفي «الصحيحين»، من رواية أبي عَوَانة، عن أبي بِشْر، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عمرو قال: تَخلَّف عنَّا رسول الله ﷺ في سَفْرَةٍ سافرناها، فأدركَنا وقد أرْهَقَتْنَا الصلاةُ، صلاةُ العَصْر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح علىٰ أَرْجُلِنا، فنادىٰ بأعلىٰ صوته: «**أَسْبِغُوا الوُضُوءَ، وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»[4].

وكذلك هو في[5] «الصحيحين» عن أبي هريرة[6]، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَسْبِغُوا الوُضُوءَ؛ وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»[7].

وروىٰ اللَّيث بن سعد، عن حَيْوة بن شُرَيْح، عن عُقْبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ أنه[8] سمع رسول الله ﷺ يقول: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ وَبُطُونِ الأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ**». رواه البيهقي والحاكم وهذا إسنادٌ صحيحٌ[9].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق: أنَّه سَمِعَ سعيد بن أبي كَرِب - أو شعيب بن أبي كرب- قال: سَمِعْتُ جابر بن عبد الله -وهو علىٰ جمل[10]- يقول: سَمِعْتُ

---

(١) في (ز): (المقداد بن معد يكرب). (٢) تقدمت هذه الأحاديث قريبًا.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد أورده الذهبي في «ذَخيرة الحُفَّاظ» (٢/ ٧١٢) من طريق معاوية بن قرة عن ابن عمر، وتكلم عليه وبيَّن أنه حديثٌ ضعيفٌ.

(٤) البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٥) لوحة (٢٦١ أ). (٦) رواه البخاري (١٦٥)، ومسلم (٢٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٧) رواه مسلم (٢٤٠) من حديث عائشة. (٨) في (ز): بن جزانة. وهو تحريف.

(٩) **صحيح**: رواه ابن خزيمة (١١٣)، والبيهقي (١/ ٧٠)، والحاكم (١/ ١٦٢).

(١٠) في (ز): علي جبل. وما أثبتناه موافق لما في «المسند».

رسول الله ﷺ يقول: «[وَيْلٌ](١) لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ»(٢).

وحدَّثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن أبي كَرِب، عن جابر بن عبدالله قال: رأى النَّبيُّ ﷺ في رِجلِ رَجُلٍ [منَّا](٣) مثْلَ الدِّرْهَمِ لم يَغْسِلْه، فقال: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»(٤).

ورواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي الأحْوَص، عن أبي إسحاق، عن سعيد به نحوه، وكذا رواه ابن جرير مِن حديث سُفْيان الثَّوْري وشعبة بن الحجاج وغير واحدٍ، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن سعيد بن أبي كَرِب، عن جابر عن النَّبيِّ ﷺ مثله. ثم قال:

حدَّثنا عليُّ(٥) بن مسلم، حدَّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدَّثنا حفص، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر؛ أنَّ رسول الله ﷺ رأى قومًا يَتوضَّئُون، لم يُصِب أعْقَابَهُم الماءُ، فقال: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ»(٦).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا خَلَف بن الوليد، حدَّثنا أيوب بن عُتْبة، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن مُعَيْقيب قال: قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». تفرَّد به أحمد(٧).

وقال ابن جرير: حدَّثني علي بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المحاربي، عن مُطَّرِح بن يزيد، عن عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». قال: فما بَقِيَ في المسجد شَرِيف ولا وَضِيع، إلا نظرت إليه يُقَلِّب عُرْقوبيه، ينظر إليهما(٨).

وحدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا حسين، عن زائدة، عن لَيْثٍ، حدَّثني عبد الرحمن بن سابِط، عن أبي أمامة -أو عن أخي أبي أمامة- أن رسول الله ﷺ أبْصَرَ قومًا يتوضَّئُون(٩) وفي عَقِب أحدهم -أو: كعب أحدهم- مثل موضع الدِّرْهَم -أو: موضع الظُّفر- لم يَمَسَّهُ(١٠) الماءُ، فقال: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». قال: فجعل الرَّجُل إذا رأىٰ في عَقِبِهِ شيئًا لم يُصِبْهُ الماءُ أعاد وُضُوءَهُ(١١).

ووجه الدَّلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنَّه لو كان فَرْض الرِّجْلَين مَسْحَهُما، أو أنَّه

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (٣/ ٣٦٩)، ورواه نحوه (٣/ ٣٩٠).

(٣) سقط من (ز).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٩٠) وانظر الحديث السابق.

(٥) في (ز): عفان بن مسلم. والمثبت موافق لـ«الطبري».

(٦) رواه ابن ماجة (٤٥٤)، والطبري (٦/ ١٣٢).

(٧) رواه أحمد (٣/ ٤٢٦) وفيه أيوب بن عتبة: ضعيف، لكن للحديث شواهد كما تقدم.

(٨) **ضعيف:** رواه الطبري (٦/ ١٣٤) وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني: ضعيف: والراوي عنه عبد الله بن زَحْر، وقد تكلموا فيه، والأكثر على تضعيفه، وقال الحافظ: صدوق يخطئ، وقال ابن حبان:: يروي الموضوعات عن الأثبات.

(٩) في (ز): يصلون. والمثبت موافق لما في «الطبري».

(١٠) لوحة (٢٦١ ب).

(١١) **ضعيف** : رواه الطبري (٦/ ١٣٤) وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق أُدْخِل في حديثه ما ليس منها ولم تتميز، فترك.

يجوزُ ذلك فيهما -لما توعَّد على تَرْكِهِ؛ لأنَّ المسح لا يَسْتَوْعِب جميع الرِّجل، بل يَجْرِي فيه ما يَجْرِي في مَسْح الخُفِّ، وهكذا وجَّه هذه(١) الدَّلالَةِ على الشِّيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد روى مسلم في «صحيحه»، من طريق أبي الزبير، عن جابر، عن عمر بن الخطاب: أن رجلًا توضَّأ، فترك موضع ظُفر على قدمه، فأبصره النَّبيُّ ﷺ، فقال: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَكَ»(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العبَّاس محمَّد بن يعقوب، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق الصَّغَاني(٣)، حدَّثنا هارون بن معروف، حدَّثنا ابن وَهْب، حدَّثنا جرير بن حازم: أنه سمع قتادة بن دِعامةَ قال: حدَّثنا أنس بن مالك؛ أنَّ رجلًا جاء إلى النَّبيِّ ﷺ قد توضَّأ، وترك على قدمه مثلَ موضع الظُّفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَكَ»(٤).

وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن معروف، وابن ماجة، عن حَرْمَلَة بن(٥) يحيى، كلاهما عن ابن وَهْب به، وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثِقَاتٌ، لكن قال أبو داود: ولَيْسَ هذا الحديث بمَعْرُوفٍ، لم يَرْوِهِ إلا ابنُ وهب.

وحدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدَّثنا حماد، أخبرنا يونس وحميد، عن الحسن: أن رسول الله ﷺ... بمعنى حديث قتادة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم بن أبي العبَّاس، حدَّثنا بَقِيةُ، حدَّثني بَحِير بن سعد، عن خالد ابن مَعْدان، عن بعض أزواج النَّبيِّ(٦) ﷺ: [أنَّ رسول الله ﷺ](٧) رأى رجلًا يُصلِّي، وفي ظَهْرِ قَدَمِهِ لُمْعَةٌ قدرَ الدِّرْهَمِ لم يُصِبْهَا الماء، فأَمَرَهُ رسول الله ﷺ أن يُعِيدَ الوُضُوءَ(٨).

ورواه أبو داود مِن حديث بَقِيَّة وزاد: «والصَّلَاةَ». وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ قويٌّ صحيحٌ، والله أعلم.

وفي حديث حُمْرَان، عن عثمان، في صفة وضوء النَّبيِّ ﷺ: أنَّه خلَّل بين أصابعه. وروى أهلُ السُّنَن مِن حديث إسماعيل بن كثير، عن عاصم بن لَقِيط بن صَبِرةَ، عن أَبِيهِ قال، قلت: يا رسول الله، أَخْبِرْني عن الوضوء: فقال: «أَسْبِغِ الوُضُوءَ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ، وَبَالِغْ فِي الِاسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا»(٩).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الله بن يزيد، أبو عبد الرحمن(١٠) المُقْرِي، حدَّثنا عِكْرِمة بن عمار، حدَّثنا شدَّاد بن عبد الله الدِّمَشْقِي، قال: قال أبو أمامة: حدَّثنا عَمْرو بن عَبَسَةَ قال: قلت: يا نَبِيَّ الله،

---

(١) ليست في (ز).
(٢) مسلم (٢٤٣)، وابن ماجة (٦٦٦) من حديث عمر.
(٣) في (ز): (الصنعاني)، وهو خطأ.
(٤) رواه أبو داود (١٧٣) من حديث أنس، وإسناده صحيح، وصححه الألباني في «الإرواء» (١/ ١٢٧).
(٥) في (ز): حرملة ويحيى.
(٦) عند أبي داود وأحمد: «عن بعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ».
(٧) سقط من (ز).
(٨) **صحيح**: رواه أبو داود (١٧٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، وصححه الشيخ الألباني، وقال ابن كثير: هذا إسنادٌ قويٌّ صحيحٌ.
(٩) صحيح: رواه أبو داود (١٤٢، ٢٣٦٦)، والترمذي (٧٨٨)، والنسائي (١/ ٦٦)، وابن ماجة (٤٠٧).
(١٠) لوحة (٢٦٢ أ).

أخبرني عن الوضوء. قال: «مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُقَرِّبُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَنْتَثِرُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَاهُ مِنْ فَمِهِ وَخَيَاشِيمِهِ مَعَ المَاءِ حِينَ يَنْتَثِرُ، ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَىٰ المِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَنَامِلِهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَىٰ الكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ يَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». قال أبو أمامة: يا عمرُو؛ انظرْ ما تقول، سَمِعْتَ هذا من رسول الله ﷺ؟! أَيُعْطَىٰ هذا الرجلُ كلَّه في مقامه؟ فقال عمرو بن عَبَسَةَ: يا أبا أمامة، لقد كَبُرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حَاجةٌ أَنْ أَكْذِبَ علىٰ الله، وعلىٰ رسول الله ﷺ، ولو لَمْ أَسْمَعْهُ مِن رسول الله ﷺ إلَّا مرةً أو مرَّتَيْن أو ثلاثًا، لقد سمعته منه سَبْعَ مرَّاتٍ، أو أكثرَ مِن ذلك [١].

وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وهو في «صحيح مسلم» من وجهٍ آخر، وفيه: «ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ». فدلَّ علىٰ أنَّ القرآن يَأْمُرُ بِالغَسْلِ.

وهكذا روىٰ أبو إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنَّه قال: اغسلوا القدمين إلىٰ الكعبين كما أُمِرْتُم [٢].

ومن هاهنا يَتَّضِحُ لك المراد مِن حديث عبدِ خيرٍ، عن عليٍّ؛ أنَّ رسول الله ﷺ رَشَّ علىٰ قَدَمَيْه الماء، وهما في النَّعْلَيْن، فدلَكهُما. إنَّما أراد غسلًا خفيفًا وهما في النَّعْلَيْن ولا مانع من إيجاد الغسل والرِّجل في نَعْلِها، ولكن في هذا ردٌّ علىٰ المُتَعَمِّقِين والمُتَنَطِّعين من المُوَسْوِسِينَ.

وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير علىٰ نفسه، وهو مِن رَوَايَتِهِ، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حُذَيفَة قال: أتىٰ رسول الله ﷺ سُباطةَ قومٍ [٣] فبال قائمًا، ثم دعا بماءٍ فتوضَّأ، ومسح علىٰ نَعْلَيْهِ [٤]، وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه بأنَّ الثِّقَات الحُفَّاظ رَوَوْه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: فبال قائمًا، ثمَّ توضَّأ، ومسح علىٰ خُفَّيْهِ.

---

(١) مسلم (٨٣٢)، وأحمد (٤/ ١١٢).

(٢) رواه الطبري (٦/ ١٢٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣١)، والبيهقي (١/ ٧١) وإسناده ضعيف، وفيه أبو إسحاق السَّبيعي: مدلس وقد عنعن، والحارث بن علي: كذَّبه الشعبي، وفي حديثه ضعف.

(٣) السُّباطة والكُناسةُ: الموضعُ الذي يُرْمَىٰ فيه الترابُ والأوساخ، وما يُكْنَس من المَنازل. وقيل: هي الكُناسة نفسُها. وإضافتُها إلىٰ القوم إضافةُ تخصيص لا مِلك؛ لأنها كانت مَوَاتًا مُباحة. وأما قوله: قائمًا، فقيل: لأنه لم يجد موضعًا للقُعود؛ لأن الظاهر من السُّباطة أن لا يكون موضِعُها مُسْتويًا. وقيل: لمَرَض منَعَه عن القُعود. وفيه: (أن مُدافَعة البَول مكروهةٌ؛ لأنه بال قائمًا في السُّباطة ولم يُؤَخِّره). «النهاية»: (٢/ ٣٣٥). والبول قائمًا جائز إذا أَمِن عدم انكشاف عورته، وأَمِنَ عدم ارتداد رَشَاش البول عليه. ينظر: «شرح مسلم» للنووي: (٣/ ١٦٦)، و«فتح الباري»: (١/ ٣٣٠)، و«الشرح الممتع»: (١/ ١١٥).

(٤) البخاري (٢٢٤)، ومسلم (٢٧٣)، وأبو داود (٢٣)، والترمذي (١٣)، والنسائي (١/ ٢٥)، وابن ماجة (٣٠٥).

قلت[1]: ويُحتَمَل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خُفَّان، وعليهما نعلان.

وهكذا الحديثُ الَّذِي رواه الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا يحيىٰ، عن شُعْبَة، حدَّثني يَعْلَىٰ، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضَّأ ومسح علىٰ نَعْلَيْهِ، ثمَّ قام إلىٰ الصَّلَاةِ. وقد رواه أَبُو داود عن مُسَدَّد وعبَّاد بن موسىٰ كلاهما، عن هُشَيْم، عن يَعْلَىٰ بن عَطاء، عن أبيه، عن أوس بن أَبِي أوسٍ قال: رَأَيْت رسول الله ﷺ أتىٰ سُبَاطَةَ قومٍ، فبَالَ، وتوضَّأ، ومسح علىٰ نَعْلَيْهِ وقَدَمَيْهِ[2].

وقد رواه ابن جرير مِن طريق شعبة، ومن طريق هُشَيم، ثم قال: وهذا محمولٌ علىٰ أنَّه توضَّأ كذلك وهو غير مُحْدِثٍ؛ إذ كان غير جائزٍ أن تكون فرائض الله وسُنَنِ رسولِهِ مُتَنَافِيَةً مُتَعارِضَةً، وقد صحَّ عنه ﷺ الأمر بعموم غسلِ القدمين في الوضوء بالماء بالنَّقْل[3] المُسْتَفِيضِ القاطع عُذْرَ مَنِ انْتَهَىٰ إليه وبَلَغَهُ.

ولما كان القرآن آمِرًا بغسل الرجلين -كما في قراءةِ النَّصْبِ، وكما هو[4] الواجب في حمل قراءة الخَفْضِ عليها- توهَّم بعض السَّلف أن هذه الآية ناسخةٌ لرخصة المسح علىٰ الخُفَّين، وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يَصِحَّ إسناده، ثمَّ الثَّابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنَّه قد ثبت أن النَّبيَّ ﷺ مسح علىٰ الخُفَّيْن بعد نزول هذه الآية الكريمة[5].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا زِياد بن عبد الله بن عُلاثة، عن عبد الكريم بن مالك الجَزَري، عن مجاهد، عن جرير بن عبد الله البَجَلي قال: أَنَا أسلَمْتُ بعد نزولِ المائدة، وأَنَا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد مَا أَسْلَمْتُ[6]. تفرَّد به أحمد.

وفي «الصَّحِيحَيْن»، مِن حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: بال جريرٌ، ثمَّ توضَّأ ومسح علىٰ خُفَّيْهِ، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رَأَيْتُ رسول الله ﷺ بَالَ، ثمَّ توضَّأ ومسح علىٰ خُفَّيْه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يُعْجِبُهُم هذا الحديث؛ لأنَّ إسلام جرير كان بعد نُزُولِ المَائِدَةِ[7]. لفظ مسلم.

وقد ثبت بالتَّوَاتُر عن رسول الله ﷺ مشروعيَّة المسح علىٰ الخُفَّين قولًا منه وفعلًا، كما هو مقرَّر في كتاب «الأحكام الكبير»، وما يَحْتَاج إلىٰ ذِكْرِهِ هناك، مِن تَأْقِيتِ المسح، أو عَدَمِهِ، أو التَّفْصِيل فيه، كما هو

---

(١) لوحة (٢٦٢ ب).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١٦٠)، ولفظه: «أتىٰ كظاظة قوم فتوضأ ومسح علىٰ قدميه»، وصححه الألباني. انظر: «صحيح أبي داود» (١٤٥).

والكظاظ: المِطْهرة والمِيضأة، وأما اللفظ الذي ذكره ابن كثير، فهو عند ابن جرير (٦/ ١٣٤)، وليس في اللفظ قوله: «فبال».

(٣) في (ز): بالفعل.

(٤) في (ز): وكما في.

(٥) قال ابن عثيمين رحمه الله: ذهب شيخ الإسلام رحمه الله إلىٰ مذهب جيد، قال: إن الله قال: «أرجلكم» و«أرجلِكم» لأن للرِّجْلِ حالين: حالًا تكون فيها مكشوفةً ففرضها الغسل، وحالًا تكون فيها مستورةً ففرضها المسح.

(٦) رواه أحمد (٤/ ٣٦٣) وانظر ما بعده.

(٧) البخاري (٣٨٧)، ومسلم (٢٧٣)، وأبو داود (١٥٤)، والترمذي (٩٤)، والنسائي، وابن ماجة (٥٤٢).

مبسوط في موضعه[١]. وقد خالفت الرَّوَافِضُ ذلك كله بلا مُسْتَنَدٍ، بل بجهلٍ وضلالٍ، مع أنَّه ثابت في «صحيح مُسْلِمٍ»، من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]. كما ثبتً في «الصحيحين» عنه، عن النَّبيِّ ﷺ النَّهيُ عَن نكاح المُتْعَةِ[٣] وهم يَسْتَبِيحُونَهَا. وكذلك هذه الآية الكريمة دالَّة علىٰ وجوب غسل الرِّجْلَيْنِ، مع ما ثبت بالتَّوَاتُرِ مِن فعل رسول الله ﷺ، علىٰ وَفْقِ ما دلَّت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كُلِّه، وليس لهم دليلٌ صحيحٌ في نفس الأمر، ولله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمَّة والسَّلف في الكَعْبَيْنِ اللَّذَيْن في القَدَمَيْنِ، فعِنْدَهُم أنَّهما في ظَهْرِ القَدَمِ، فعندهم في كُلِّ رِجْلٍ كَعْبٌ، وعند الجمهور أن الكعبين هما العَظْمَان النَّاتِئَانِ عند مفصل السَّاق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفًا في أنَّ الكَعْبَيْنِ اللَّذَيْن ذكرهما الله في [كتابه في الوضوء هما النَّاتِئَان، وهما مَجْمَع مفصل السَّاقِ والقَدَم. هذا لفظه. فعند الأئمَّة رحمهم الله، أنَّ في][٤] كل قدم [كَعْبَيْنِ][٥] كما هو المعروف عند الناس، وكما دلَّت عليه السُّنَّة، ففي «الصحيحين» مِن طريق حُمْران عن عثمان؛ أنَّه توضَّأ فغَسَلَ رجله اليُمْنَىٰ إلىٰ الكَعْبَيْنِ، واليُسْرَىٰ مثل ذلك[٦].

وروىٰ البخاري تعليقًا مجزومًا به، وأبو داود وابن خزيمة في «صحيحه»، من رواية أبي القاسم الحسيني بن الحارث الجَدَلي، عن النُّعمان بن بَشِير قال: أَقْبَلَ علينا رسول الله ﷺ بِوَجْهِهِ فقال: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ -ثَلَاثًا- وَاللهِ لَتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». قال: فرأيت الرجل يُلْزِق كعبه بكعب صاحبه، ورُكْبَتَه برُكْبَةِ صاحبه، ومَنْكِبَه بمَنْكِبه[٧]. لفظ ابن خزيمة.

فليس يُمْكِن أَن يُلْزِق كَعْبَه بكعبِ صاحبه، إلا والمراد به العَظْمُ النَّاتِئ في السَّاق، حتىٰ يُحَاذِيَ كَعْبَ الآخر، فدلَّ ذلك علىٰ ما ذَكَرْنَاه، مِن أنَّهما العَظْمَان النَّاتِئَان عند مَفْصِل السَّاق [والقَدَم][٨]، كما هو مذهب أهل السُّنَّة.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إسماعيل بن موسىٰ، أخبرنا شَرِيك، عن يحيىٰ بن [عبد الله ابن][٩] الحارث التَّيمي - يعني الجابر- قال: نَظَرْتُ فِي قَتْلَىٰ أصحاب زَيْدٍ، فوَجَدْتُ الكَعْبَ فوق ظَهْرِ القدم[١٠]، وهذه عقوبة عُوقِب بها الشِّيعَة بعد قَتْلِهِم، تنكيلًا بهم في مخالَفَتِهِم الحقَّ وإصرارهم عليه.

---

(١) لوحة (٢٦٣ أ).
(٢) مسلم (٢٧٦).
(٣) البخاري (٤٢١٦) (٥١١٥) (٥٥٢٣)، ومسلم (١٤٠٧).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٦) البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، وأبو داود (١١٩)، والترمذي (٢٨)، والنسائي (١/ ٧٢)، وابن ماجة (٤٤٠).
(٧) **صحيح**: رواه البخاري تعليقًا (٢/ ٢١١)، ووصله أبو داود (٦٦٢) وابن خزيمة (١٦٠).
(٨) سقط من (ز).
(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، ويحيىٰ بن الحارث هو يحيىٰ بن عبد الله بن الحارث الجابر أبو الحارث الكوفي.
(١٠) في (ز): فوجدت الكعب فوق الكعب ظهر القدم.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم (١) مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ (٢) صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ كل ذلك قد تقدَّم الكَلام عليه في تفسير آيَةِ النِّساء، فلا حاجَةَ بِنا إلىٰ إعادَتِهِ؛ لئلَّا يطول الكلام. وقد ذَكَرْنَا سبب نُزُولِ آية التَّيمُّم هناك، لَكِنَّ البخاري رَوَىٰ هاهنا حديثًا خاصًّا بهذه الآية الكريمة، فقال:

حدَّثنا يحيىٰ بن سليمان، حدَّثنا ابن وَهْبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، أنَّ عبد الرحمن بن القاسم حدَّثَه، عن أبيه، عن عائشة: سَقَطَتْ قِلادة لِي بالبَيْداء، ونحن داخِلُون المدينةَ، فأَنَاخَ رسول الله ﷺ ونزَل، فثَنَىٰ رَأْسه في حِجْري رَاقِدًا، أَقْبَل أبو بكر فلَكَزَني لكزةً شديدةً، وقال: حَبَسْتِ النَّاسَ في قِلَادَةٍ، فَبي الموتُ(٣) لمكان رسول الله ﷺ، وقد أَوْجَعَنِي، ثم إن النَّبيَّ ﷺ استيقظ، وحضَرَتِ الصُّبح، فالتمس الماء فلَمْ يوجَد، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ هذه الآية، فقال أُسَيْد بن الحُضَير: لقد بارك الله للنَّاس فيكُم يا آلَ أبي بكرٍ، ما أَنْتُم إلَّا بركةٌ لهم(٤).

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: فلِهَذا سهَّل عليكم ويَسَّر ولم يُعَسِّر، بل أباحَ التَّيمُّم عند المَرَضِ، وعند فَقْدِ الماء؛ تَوْسِعَةً عليكم ورحمةً بكم، وجَعَلَهُ في حقِّ مَنْ شُرِعَ له يقُوم مقام الماء، إلَّا مِن بعض الوجوه، كما تقدَّم بيانه، وكما هو مقرَّرٌ في كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَلَٰكِن [يُرِيدُ](٥)لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [أي: لعلَّكم تشكرون](٦) نعمَه عليكم فيما شرَعَه لكم من التَّوْسِعَة والرَّأفة والرَّحمة والتَّسهيل والسَّماحة، وقد وردت السُّنَّة بالحَثِّ علىٰ الدُّعاء عَقِب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الدَّاخِلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السُّنَنِ، عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعايةُ الإبل، فجاءت نَوْبَتِي فَرَوَّحتها بعَشِيٍّ، فأدركت رسول الله ﷺ قائمًا يُحدِّث النَّاس، فأدركت من قوله: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ». قال: قلت: ما أجودَ هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قَبْلَهَا أجود منها. فنظرت فإذا عُمر ﵁، فقال: إنِّي قد رأيتك جِئْتَ آنفًا قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ(٧) فَيُبْلِغُ -أَوْ: فَيُسْبِغُ-

---

(١) لوحة (٢٦٣ ب).

(٢) قال ابن عثيمين ؒ: من فوائد هذه الآية: أن غسل الجنابة تستباح به الصلاة، وأنه لا يجب الوضوء معه، ووجه الدلالة: أن الله قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ولم يذكر وضوءًا، حتىٰ لو لم ينوِ إلا رفع الحدث الأكبر فإنه يجزئه؛ لعموم الآية.
ومنها: أنه لا يجب التطهر بغير الماء؛ يعني: لو كان مع الإنسان نبيذ أو شاي مثلًا أو لبن، فإنه لا يتطهر به فإنه لا يجب عليه؛ لأن الله جعل آية الطهارة في الماء فقط.

(٣) أي: كاد ينزل بي الموت من شدة الوجع، ولم أتحرك؛ حتىٰ لا أُزعِج رسول الله ﷺ.

(٤) البخاري (١٦٠٨) وقد تقدم نحوه في سورة النساء.

(٥) سقطت من (ز). (٦) ما بين المعقوفتين ليست في (ز). (٧) لوحة (٢٦٤ أ).

الوُضُوءَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». لفظ مسلم[1].

وقال مالك: عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ[2] العَبْدُ المُسْلِمُ - أَوِ: المُؤْمِنُ- فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ المَاءِ -أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ- فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ -أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ- فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ المَاءِ- أَوْ: مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ- حَتَّىٰ يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»[3].

رواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن مالك به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا معاوية بنُ هشام، عن سفيانُ، عن منصورٍ، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن كعب بن مُرَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَتَوَضَّأُ فَيَغْسِلُ يَدَيْهِ -أَوْ: ذِرَاعَيْهِ- إِلَّا خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْهُمَا، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رَأْسِهِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ»[4].

هذا لفظُهُ. وقد رواه الإمام أحمد، عن محمَّد بن جعفر، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن مرة بن كعب، أو كعب بن مُرَّةَ السُّلَمِي، عن النبيِّ ﷺ قال: «وَإِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ فَغَسَلَ يَدَيْهِ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ، وَإِذَا غَسَلَ ذِرَاعَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ [مِنْ ذِرَاعَيْهِ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ][5] مِنْ رِجْلَيْهِ»[6]. قال شعبة: ولم يذكر مسح الرَّأس. وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

وروىٰ ابن جرير من طريق شَمِر بن عطية، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ»[7].

وروىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد بن سَلَّام، عن جَدِّه مَمْطُور، عن أبي مالك الأشعري؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، [وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ،][8] وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ

---

(١) مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩)، والترمذي (٥٥). (٢) في (ز): إذا توا.

(٣) مسلم (٢٤٤)، والترمذي (٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه ابن جرير (٦/ ١٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٥) من حديث كعب بن مرة، وإسناده صحيح.

(٥) ما بين المعقوفتين بياض في (ز). (٦) انظر التعليق السابق.

(٧) **صحيح لغيره:** من حديث أبي أمامة رواه ابن جرير (٦/ ١٣٨)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال، لكنه يصلح للمتابعات، وحديثه هذا يشهد له ما تقدم.

(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا»[١].

وفي «صحيح مسلم» من رواية سِمَاك بن حَرْب، عن مُصْعب بن سعد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:[٢] «لا يَقْبَلُ اللهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ، وَلَا صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ»[٣].

وقال أبو داودَ الطَّيالِسيُّ: حدَّثنا شعبةُ، عن قتادةَ، سمعت أبا المَلِيح الهُذَلي، يحدث عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيتٍ، فسمعته يقول: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ صَلَاةً مِنْ غَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةٍ مِنْ غُلُولٍ»[٤].

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، من حديث شعبة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالىٰ مُذكِّرًا عبادَهُ المؤمنين نعمتَه عليهم في شرعه لهم هذا الدينَ العظيمَ، وإرسالِهِ إِلَيْهِم هذا الرَّسولَ الكريمَ، وما أُخِذَ عَلَيْهِم من العهد والميثاق في مبايعته علىٰ متابعته، ومناصرته ومُؤَازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البَيْعَة التي كانوا يُبَايِعُون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: بَايَعْنَا رسول الله ﷺ علىٰ السَّمع والطَّاعة، في مَنْشَطِنا ومَكْرهنا، وأَثَرةٍ علينا، وألا نُنَازِعَ الأمرَ أهلَهُ[٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمَّد ﷺ، والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس. وقيل: هو تَذْكار بما أخذ تعالىٰ من العهد علىٰ ذريَّة آدم حين استخرجهم من صُلْبه وأشهدهم علىٰ أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] قاله مجاهد، ومُقَاتِل بن حَيَّان. والقول الأول أظهر، وهو المَحْكيُّ عن ابن عبَّاس، والسُّدِّي. واختيار ابن جرير.

---

(١) مسلم (٢٢٤)، والدارمي (٢/ ١٦٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) لوحة (٢٦٤ ب). (٣) مسلم (٢٢٤)، والترمذي (١). ومعنىٰ الغُلُول: الخيانة.

(٤) صحيح: أبو داود (٥٩)، والنسائي (٥/ ٥٦)، وابن ماجة (٢٧١)، والطيالسي في «المسند» (صـ١٨٧)، وأحمد (٥/ ٧٥).

(٥) البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩)، والنسائي (٧/ ١٣٧)، وابن ماجة (٢٨٦٦).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيدٌ وتحريضٌ علىٰ مواظبة[١] التقوىٰ في كل حال.

ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسَّرائر، من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله ﷻ، لا لأجل الناس والسُّمْعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجَوْر. وقد ثبت في «الصحيحين»، عن النُّعْمان بن بَشِير أنه قال: نَحَلَنِي أبي نَحْلًا، فقالت أمي عَمْرةُ بنتُ رَوَاحةَ: لا أَرْضىٰ حتىٰ تُشْهد رسول الله ﷺ، فجاءه، ليشهده علىٰ صدقتي، فقال: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟» قال: لا. قال: «اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ». وقال: «إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَىٰ جَوْرٍ». قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة[٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: لا يحملنكم بُغْض قوم علىٰ ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًّا؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عَدْلُكم أقرب إلىٰ التَّقوىٰ مِن تركه. ودلَّ الفعل علىٰ المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء[٣]، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وكقول بعض الصحابيات لعُمَرَ: أنت أفظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ[٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وسيَجْزيكم علىٰ ما عَلِمَ من أفعالكم التي عَمِلْتُموها، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التي هي مِنْ رحمته علىٰ عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالىٰ الذي جعلها أسبابًا إلىٰ نَيْلِ رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكُلُّ منه وله، فله الحمد والمِنَّة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهذا مِن عدله تعالىٰ، وحكمته، وحُكْمه الذي لا يَجُور فيه، بل هو الحَكَمُ العدل الحكيم القدير.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ

---

(١) لوحة (٢٦٥ أ).

(٢) البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣)، وانظر: «سنن أبي داود» (٣٥٤٣)، والترمذي (١٣٦٧)، والنسائي (٦/ ٢٥٨)، وابن ماجة (٢٣٧٦).

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ولم يقل: هو التقوىٰ بل قال: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وذلك لأن العدل قد يحمل عليه مخافة الله فيكون تقوىٰ، وقد تحمل عليه محبة الثناء عند الناس فلا يكون تقوىٰ.

(٤) البخاري (٣٢٩٤) (٣٦٨٣) (٦٠٨٥)، ومسلم (٢٣٩٦).

أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، ذكره[(١)] عن أبي سلمة، عن جابر؛ أن النَّبيَّ ﷺ نزل منزلًا وتَفرَّق الناس في العِضَاه[(٢)] يستظلون تحتها، وعلَّق النَّبيُّ ﷺ سلاحه بشجرةٍ، فجاء أعرابي إلىٰ سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلَّه، ثم أقبل علىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: مَن يمنعك مني؟ قال: «اللهُ» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثًا: من يمنعك مني؟ والنَّبيُّ ﷺ يقول: «اللهُ» قال: فَشَام الأعرابي السَّيف[(٣)]، فدعا النَّبيُّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خَبَرَ الأعرابي، وهو جالس إلىٰ جنبه ولم يعاقبه[(٤)] -وقال معمر: وكان قتادة يَذْكُر نحو هذا، وذكر أنَّ قومًا من العرب أرادوا أن يَفْتكِوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ الآية.

وقصة هذا الأعرابي -وهو غَوْرَث بن الحارث- ثابتةٌ في «الصحيح»[(٥)].

وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ وذلك أن قومًا من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعامًا؛ ليقتلوهم، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه بشأنهم، فلم يَأْتِ الطعامَ، وأمر أصحابه [فلم يأْتوه][(٦)]. رواه ابن أبي حاتم[(٧)].

وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأَشْرف وأصحابه، حين أرادوا أن يَغْدِرُوا بمحمَّدٍ ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم.

وذكر محمَّد بن إسحاق بن يَسار، ومجاهد وعكْرِمَة، وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النَّضير، حين أرادوا أن يُلْقُوا علىٰ رأس رسول الله ﷺ الرَّحَىٰ، لما جاءهم يستعينهم علىٰ ديَةِ العامريَّيْن، ووكَّلوا عمرو بن جَحَّاش بن كعب بذلك، وأمروه إن جلس النَّبيُّ ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده، أن يُلْقِيَ تلك الرَّحَىٰ من فوقه، فَأَطْلَعَ اللهُ رسولَهُ علىٰ ما تَمَالَئُوا عليه، فرجع إلىٰ المدينة وتَبِعَهُ أصحابه، فأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول الله ﷺ أن يَغْدُوَ[(٨)] إليهم فحاصرهم، حتىٰ أنزلهم فأجلاهم[(٩)(١٠)].

---

(١) لوحة (٢٦٥ ب).
(٢) العِضاه: واحدة عِضاهَةٌ، وهي أعظم الشجر.
(٣) أي: أغمده.
(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٨٥).
(٥) البخاري (٤١٣٩)، ومسلم «باب توكله علىٰ الله» (٨٤٣).
(٦) في (ز): فأتوه.
(٧) رواه ابن جرير (٦/ ١٤٦)، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم، ولم أقف عليه في «تفسيره»، وفيه عطية العَوْفي: وهو ضعيف.
(٨) في (ز): يهدوا.
(٩) لوحة (٢٦٦ أ).
(١٠) هذه الآثار مرسلة فهي عن مجاهد وعكرمة فلم يصح منها في سبب النزول شيء.

[وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾] [(١)] [يعني: مَن توكل علىٰ الله كفاه الله ما أهمَّه، وحفظه مِن شرِّ الناس وعصمه] [(٢)].

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

لما أمر الله تعالىٰ عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم علىٰ لسان عبده ورسوله محمَّد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمَه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدىٰ، شرع يُبيِّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق علىٰ من كان قبلهم مِن أهل الكتابَيْنِ اليهود والنصارىٰ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك [لعنًا] [(٣)] منه لهم، وطَرْدًا عن بابه وجَنَابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلىٰ الهدىٰ ودين الحقِّ، وهو العلم النَّافع والعمل الصالح، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعني: عُرَفاء علىٰ قبائلهم بالمُبَايَعَةِ والسَّمع والطَّاعة لله، ولرسوله، ولكتابه.

وقد ذكر ابن عبَّاس، ومحمَّد بن إسحاق، وغير واحدٍ أنَّ هذا كان لما توجه موسىٰ عليه السلام لِقتال الجَبَابِرَةِ، فأمر بأن يُقِيم النُّقَباء، من كل سِبْط نقيب -قال محمَّد بن إسحاق: فكان من سبط روبيل: شامون ابن زكور، ومن سِبْط شَمْعُون: شافاط بن حُرِّي، ومن سِبْط يَهُوذا: كالب بن يوفنا، ومن سبط أبين: فيخائيل بن يوسف، ومن سبط يوسف، وهو [سبط] [(٤)] أفرايم: يُوشَع بن نُون، ومن سبط بِنْيامين: فلطمىٰ ابن رفون، ومن سبط زبلون [(٥)] جدي بن سودىٰ، ومن سبط يوسف: وهو منشا بن يوسف: جدي بن سوسىٰ، ومن سبط دان: حملائيل بن جمل، ومن سبط أسير: ساطور بن ملكيل، ومن سبط نفتالي [(٦)]:

---

(١) سقط من (ز).

(٢) حصل في (ز) تقديم وتأخير، فوقعت هذه العبارة التي بين المعقوفتين بعد الآية السابقة.

(٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): زابكون.

(٦) في (ز): دار.

نحىٰ بن وفسىٰ، ومن سبط جاد[١]: جولايل بن ميكي[٢].

وقد رأيتُ في السِّفر الرَّابع من التوراة تَعْدَاد النُّقباء علىٰ أسباط بني إسرائيل، وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلىٰ بني روبيل: الصوني بن سادون، وعلىٰ بني شمعون: شموال[٣] بن صورشكي، وعلىٰ بني يهوذا: يحشون بن عمبياذاب[٤]، وعلىٰ بني يساخر: شال بن صاعون، وعلىٰ بني زبلون: الياب بن حالوب، وعلىٰ بني يوسف إفرايم: منشا بن عمنهود، وعلىٰ بني منشا: حمليائيل بن يرصون، وعلىٰ بني بنيامين: أبيدن بن جدعون، وعلىٰ بني دان: جعيذر بن عميشذي، وعلىٰ بني أسير: نحايل بن عجران، وعلىٰ بني حاز: السيف بن دعواييل، وعلىٰ بني نفتالي: أجزع بن عمينان.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثْنَا عشَرَ نقيبًا، ثلاثةٌ من الأوس وهم: أُسَيد بن الحُضَيْر، وسعد بن خَيْثَمَة، ورفاعة بن عبد المنذر -ويقال بدله: أبو الهيثم بن التَّيِّهان ﷺ، وتسعةٌ من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرَارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رَوَاحة، ورافع بن مالك بن العَجْلان، والبَرَاء بن مَعْرور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عُبَادة، وعبد الله بن عَمْرو بن حَرَام، والمنذر بن عَمْرو بن خُنَيس ﷺ. وقد ذَكَرَهم كعب بن مالك في شِعْرٍ له، كما أورده ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمقصود أنَّ هؤلاء كانوا عُرَفَاءَ علىٰ قومهم لَيْلَتَئِذٍ، عن أمر النَّبيِّ ﷺ لهم بذلك، وهم الَّذين وَلُوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنَّبيِّ ﷺ علىٰ السَّمع والطَّاعة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسىٰ، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن مُجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: كنا جلوسًا عند عبد الله بن مسعود، وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألْتُم رسول الله ﷺ: كم يملك هذه الأمةَ مِن خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألني عنها أحدٌ منذ قدمتُ العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: «**اثْنَا عَشَرَ كَعِدَّةِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»[٥].

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وأصل هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» عن جابر بن سَمُرة قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «**لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا**». ثم تكلَّم النَّبيُّ ﷺ بكلمةٍ خَفِيَت عَلَيَّ، فسألت أَبِي: ماذا قال النَّبيُّ ﷺ؟ قال: «**كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**»[٦].

وهذا لَفظُ مسلمٍ، ومعنىٰ هذا الحديث: البِشَارَة بوجود اثْنَيْ عَشَرَ خليفةً صالحًا يُقِيم الحق

---

(١) في (ز) ثقال.
(٢) في (ز): مكيدة.
(٣) لوحة (٢٦٦ ب).
(٤) في (ز): عميناذاب.
(٥) أحمد (١/ ٣٩٨)، وفي إسناده مجالد بن سعيد. قال الدارقطني: ليس بالقوي.
وأصله في «الصحيحين» كما قال ابن كثير من حديث جابر، رواه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١).
(٦) البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١).

ويَعْدِل(١) فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتَتَابُع أيَّامهم، بل قد وجد منهم أربعةٌ علىٰ نَسَق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﵃، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شكٍّ عند الأئمَّة، وبعض بني العبَّاس. ولا تقوم السَّاعة حتىٰ تكون ولايتهم لا محالةَ، والظَّاهر أنَّ منهم المهديَّ المبشَّرَ به في الأحاديث الواردة بذكره(٢): أنه يُواطئُ اسمُه اسم النَّبيِّ ﷺ، واسمُ أبيه اسمَ أبيه، فيملأ الأرض عدْلًا وقِسْطًا، كما مُلِئت جَوْرًا وظُلْمًا، وليس هذا بالمنتظر الذي يتوهم الرَّافضة وجودَه، ثمَّ ظهورَهُ من سَرْداب «سَامرَّاء»، فإن ذلك ليس له حقيقةٌ ولا وجود بالكليَّة، بل هو من هَوَسِ العقول السَّخِيفَة، وَتَوهُّم الخيالات الضَّعيفَة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء [الاثْنَيْ عشَرَ](٣): الأئمَّة الاثْنَي عَشَر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية مِن الرَّوافض؛ لجهلهم وقلَّة عقلهم. وفي التَّوراة البشارة بإسماعيل ﵇، وأنَّ الله يُقِيم من صُلْبِه اثنيْ عشر عظيمًا، وهم هؤلاء الخُلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سَمُرة.

وبعض الجهلة ممن أَسْلَم مِن اليهود، إذا اقترن بهم بعض الشِّيعة، يُوهِمُونَهم أنهم الأئمَّة الاثنا عشر، فيتشيَّع كثيرٌ منهم جهلًا وسَفَهًا؛ لقلَّة علمهم وعلم من لَقَّنَهُم ذلك بالسُّنَن الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بحفظي وكَلاءتي ونصري(٤) ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) لوحة (٢٦٧ أ).

(٢) قال ابن باز ﵀: هذا ليس بظاهر؛ لأن الأدلة تدل على تتابعهم، وليس المهدي منهم؛ لأن قبله تظهر أمور عظام.

(٣) سقط من (ز).

(٤) قال ابن عثيمين ﵀: اعلم أن الله تعالىٰ وصف نفسه بالمَعِيَّة في عدة آيات، فمرة ذكرها عامةً، ومرة ذكرها خاصةً بوصف، ومرة ذكرها خاصةً بشخص، وكلها حق، فالعامة مقتضاها الإحاطة بالخلق علمًا وقدرةً وسلطانًا وتدبيرًا وملكًا، وغير ذلك، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ومِن ذكرها مقيدةً بوصف مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، لكن هذه تقتضي مع الإحاطة العامة النصر والتأييد والدفاع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

الثالث: مقيدة بشخص: مثل قوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، ومثل قول النبي ﷺ -فيما حكاه الله عنه- لصاحبه أبي بكر ﵁: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

هذه المعية هل هي حقيقية أو هي مجاز عن العلم والإحاطة والنصرة والتأييد وما أشبه ذلك؟ الجواب: الأول، كسائر الصفات، أنها حقيقة، وأنها تقتضي في كل موضع ما يناسبها.

لكن إذا قلنا: إنها حقيقة، هل تنافي ما ذكر من علو الله؟

الجواب: لا، فهو معنا وهو علىٰ عرشه، وليس معنا أنه في الأرض، كلا ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ومن كان هذا شأنه كيف يمكن أن يتصور عاقل فضلًا عن مؤمن أن يكون معنا في أماكننا، لكن هو معنا وهو عالٍ ولا مانع؛ لأن الله بكل شيء محيط، حتىٰ أن الرسول ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، قال: «**أيُّها النَّاسُ ارْبَعُوا علىٰ أنفسكم إنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائبًا، إنَّما تَدْعُونَ سميعًا بصيرًا، إنَّ الذي تدعونَه أقربُ إلىٰ أحدِكم من عُنُقِ راحلتِه**». فنحن نؤمن بهذا، ولكن ليس معنىٰ هذا أن الله ﷻ في نفس المكان؛ لأنك لو قلت هكذا لكنت ممن عمل بالنصوص، ونظر إليها نظر الأعور، أي: من جانب واحد، ولهذا لما نظرت الجهمية إلىٰ هذا من جانبٍ واحدٍ قالوا: إن الله معنا في نفس المكان، في كل

=

وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتموهم فيما يُجيئُونكم به من الوحي ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم وآزرْتُمُوهم علىٰ الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاءَ مرضاته ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم أَمْحُوها وأَسْتُرُها، ولا أُؤَاخِذُكم بها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أَدْفَع عنكم المَحْذُور، وأحصل لكم المقصود.

وقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْده وتوكيده وشدِّه، وجَحْده، وعامله معاملة مَن لا يعرفُه، فقد أخطأ الطَّريق الحقَّ، وعدَلَ عن الهُدَىٰ إلىٰ الضلال.

ثم أخبر تعالىٰ عما أحلَّ بهم من العقوبة، عند مخالفتهم ميثاقَه، ونقضِهم عهدَهُ، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي: فبسبب نقضهم الميثاقَ الذي أُخِذ عليهم لعناهم؛ أي: أبعدناهم عن الحقِّ، وطردناهم عن الهدىٰ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي: فلا يَتَّعظون بموعظة؛ لغِلَظِهَا وقساوتها، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: فسدت فُهومُهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأوَّلوا كتابه علىٰ غير ما أنزله، وحملوه علىٰ غير مراده، وقالوا عليه ما لَمْ يَقُل، عياذًا بالله من ذلك، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وتركوا العمل [به][(١)]، رغبةً عنه[(٢)].

قال الحسن: تركوا عُرَىٰ دينهم ووظائف الله التي لا يُقْبَل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل؛ فصاروا إلىٰ حالةٍ رديئةٍ، فلا قلوبَ سليمةٌ، ولا فِطَرَ مستقيمةٌ، ولا أعمالَ قويمةٌ.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغَدْرهم لك ولأصحابك.

وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم علىٰ الفَتْك بالنَّبيِّ ﷺ.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ عنهم، وهذا هو عين النَّصر والظَّفَر، كما قال بعض السلف: ما عاملتَ مَن عصىٰ الله فيك بمِثْل أن تُطِيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليفٌ وجمعٌ علىٰ الحق، ولعلَّ الله أن

= مكان، لكنهم غَفَلُوا عن العلو، ونحن نقول: إن الله معنا حقيقةً وعلىٰ عرشه حقيقةً، ولا منافاة.

فإذا قال قائل: هل يتصور العقل أن الشيء يطلق عليه أنه معك، وهو بعيد عنك؟

قلنا: نعم، أولًا: أنه يتصور في الأمور المخلوقة، فالقمر يقول المسافرون: إنه معنا، والنجم يقولون: إنه معنا، والشمس يقولون: معنا، وأمكنة هذه الأشياء في السماء، فالعرب تقول: القمر معنا، والقطب معنا، والجَدْي معنا، يقولون هكذا، ويعبِّرون عن هذا علىٰ أنه حقيقة، ومحله في السماء، ولا يُعَد ذلك تناقضًا. ثم علىٰ فرض أنه تناقض في المخلوق، وأنه لا تجتمع المعية في الحقيقة والعلو في الحقيقة، فهل يقاس الخالق بالمخلوق؟! لا يقاس، فنقول: نثبت لله ما أثبته لنفسه مع علوه ومعيته، ونعلم أنه لا تناقض، بل هو عالٍ ومعنا، ولا منافاة.

(١) سقط من (ز).

(٢) **قال القاسمي** رحمه الله: قال بعض المفسرين: في هذا دلالة علىٰ جواز التحليف علىٰ الأمور المستقبلة، وأخذ الكفيل علىٰ الحق الذي يُفْعَل في المستقبل. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ...﴾ الخ، دليل علىٰ تأكيد الميثاق، وقبح نقضه، وأنه قد يَسْلُبُ اللطفَ المُبْعِدَ من المعاصي. ويُورِث النسيان، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وعن ابن مسعود: قد ينسىٰ المرء بعض العلم بالمعصية. انتهىٰ.

يَهْدِيَهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك.

وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ منسوخة بقوله: ﴿قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: ومن الذين ادَّعَوْا لأنفسهم أنَّهم نصارىٰ يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك- أخذنا [عليهم][(١)] العهود والمواثيق علىٰ متابعة الرسول ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبيٍّ يرسله الله إلىٰ أهل الأرض؛ أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالَفُوا المواثيق ونقَضُوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضًا، ولا يزالون كذلك إلىٰ قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارىٰ علىٰ اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادِينَ، يُكَفِّر بعضهم[(٢)] بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ فكل فرقةٍ تُحَرِّم الأخرىٰ ولا تدعها تَلِجُ معبدها، فالمَلْكيَّة تُكفِّر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النُّسْطُورية والآريوسية، كل طائفةٍ تُكفِّر الأخرىٰ في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد[(٣)].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ للنصارىٰ علىٰ ما ارتكبوه من الكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله، وما نسبوه إلىٰ الرب عز وجل وتعالىٰ وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا، مِنْ جَعْلهم له صاحبةً وولدًا، تعالىٰ الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفوًا أحد.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمَّدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق إلىٰ جميع أهل الأرض، عَرَبِهم وعَجَمهم، أُمِّيِّهم وكتابيِّهم، وأنه بعثه بالبينات، والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٦٨ أ).

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: فإن قال قائل: نحن الآن نجد أن النصارىٰ متفقون.

نقول: هذا الاتفاق ظاهري، وإلا ففي قلوبهم من العداوة والبغضاء ما لا يعلمه إلا الله. ثم إنهم متفقون علىٰ عدوٍّ ثالثٍ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] فهم متفقون علىٰ عدوٍّ ثالث، وإلا فهم فيما بينهم مختلفون، وقلوبهم متنافرة، واعتداءاتهم ظاهرة.

كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ أي: يُبيِّن ما بدَّلوه وحرَّفوه وأوَّلوه، وافتروْا علىٰ الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيَّروه ولا فائدة في بيانه.

وقد روىٰ الحاكم في «مستدركه» من حديث الحسين بن واقد، عن يزيد النَّحْوِي، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوْه(١).

ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالىٰ عن القرآن العظيم الذي أنزله علىٰ نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: طرق النَّجاة والسَّلامة ومناهج الاستقامة(٢) ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يُنَجِّيهم من المهالك، ويُوَضِّح لهم أبينَ المسالكِ، فيصرف عنهم المحذورَ، ويحصِّلُ لهم أنجبَ الأمور(٣)، ويَنْفِي عنهم الضَّلالة، ويُرشِدُهم إلىٰ أقومِ حالةٍ.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٨﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا وحاكمًا بكفر النصارىٰ في ادعائهم في المسيح ابن مريم -وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه- أنَّه هو الله، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

ثم قال مخبرًا عن قدرته علىٰ الأشياء، وكونِهَا تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر علىٰ صرفه عن ذلك؟

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميعُ الموجودات ملكهُ وخَلْقه، وهو القادر علىٰ ما يشاء، لا يُسأل عما يَفْعَل؛ لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا

---

(١) إسناده حسن: من أجل الحسين بن واقد لا بأس به، رواه الحاكم (٤/ ٣٥٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾، ولم يقل: «سبيل السلام»، مع أن التعبير الغالب أنه يعبِّر عن طريق الإسلام بالإفراد، وعن طرق الضلال بالجمع، لكن هنا لما قال: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، تعيَّن أن يكون المراد بالسبل هنا شرائع الإسلام؛ لأنه إذا كان متبعًا لرضوان الله فقد اهتدىٰ وأسلم وآمن، لكن الإسلام له شرائع، وله سبل.

(٣) لوحة (٢٦٨ ب).

ردٌّ علىٰ النَّصارىٰ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة.

ثم قال تعالىٰ رادًّا علىٰ اليهود والنصارىٰ في كَذِبِهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ أي: نحن منتسبون إلىٰ أنبيائه، وهم بَنُوه وله بهم عنايةٌ، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أنَّ الله تعالىٰ قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بِكْرِي». فحملوا هذا علىٰ غير تأويله، وحَرَّفوه. وقد رد عليهم غير واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم علىٰ التَّشريف والإكرام، كما نقل النصارىٰ عن كتَابهم أن عيسىٰ قال لهم: إني ذاهبٌ إلىٰ أبي وأبيكم؛ يعني: ربي وربكم. ومعلومٌ أنهم لم يدَّعوا لأنفسهم من البنوة ما ادَّعَوْها في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنَّما أرادوا بذلك معزَّتهم لديه وحَظْوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله تعالىٰ رادًّا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: لو [كنتم -كما تدعون- أبناءه وأحباءه، فلِمَ أعَدَّ لكم نار جهنم][1] علىٰ كفركم وكَذِبِكُم وافترائكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أنَّ الحبيب لا يُعَذِّب[2] حبيبه؟ فلَمْ يرد عليه، فتلَا الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾.

وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في «المسند» للإمام أحمد؛ حيث قال: حدَّثنا ابن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيْد، عن أنس قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ في نفرٍ من أصحابه، وصبيٌّ في الطريق، فلما رأت أُمُّه القوم خَشِيَت علىٰ ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعىٰ، وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لِتُلقيَ ابنها في النار. قال: فَخفَّضَهُم[3] النَّبيُّ ﷺ فقال: «لا، وَاللهِ مَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ»[4]. تفرد به.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالىٰ هو الحاكم في جميع عباده ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو فعالٌ لما يريد، لا مُعَقِّب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه، وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن أبي محمَّد، عن عِكْرِمَة، أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: وأتىٰ رسولَ اللهِ ﷺ نعمانُ بنُ أضاء، وبَحْري بن عمرو، وشَاسُ بن عَدِي، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلىٰ الله وحذَّرهم نقمته، فقالوا: ما تُخَوِّفُنَا يا محمَّد؟! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارىٰ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ إلىٰ آخر الآية[5].

---

(١)سقط من (ز). (٢)لوحة (٢٦٩ أ). (٣)أي: سكَّنهم وهدَّأهم.

(٤) **إسناده ضعيف:** رواه أحمد (٣/ ١٠٤)، وأبو يعلىٰ (٣٧٤٧) ورجاله ثقات إلا أن حميدًا مدلس، فالإسناد ضعيف، لكن معناه صحيح؛ لظاهر الآية.

(٥) **ضعيف:** في إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول، رواه الطبري (٦/ ١٦٤)، وعزاه السيوطي في «الدُّر المنثور» إلىٰ ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣٥).

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ورويا أيضًا من طريق أسباط، عن السُّدِّي في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحىٰ إلىٰ إسرائيل (أن ولدك - بِكْرَك من الولد- فيدخلهم النار)[١] فيكونون فيها أربعين ليلةً، حتىٰ تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل. فأخرجوهم[٢] فذلك قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤][٣].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ: إنه قد أرسل إليهم رسوله محمَّدًا خاتم النَّبِيِّين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المُعقِّب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعد مدةٍ متطاولةٍ ما بين إرساله وعيسىٰ ابن مريم[٤].

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، كم هي؟ فقال أبو عثمان النَّهْديُّ وقتادة -في رواية عنه-: كانت سِتَّمائةِ سنةٍ. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خَمْسمائة وستون سنة، وقال مَعْمَر، عن بعض أصحابه: خَمْسمائة وأربعون سنة. وقال: الضَّحَّاك: أربعمائة وبضعٌ وثلاثون سنة.

وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسىٰ ﷺ عن الشعبي أنه قال: ومِنْ رَفْعِ المسيح إلىٰ هجرة النَّبيّ ﷺ تِسْعُمائة وثلاث وثلاثون سنة.

والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية؛ وبين كل [مائة][٥] سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث[٦] سنين؛ ولهذا قال تعالىٰ في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أي: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومةٌ لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسىٰ ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمَّدٍ ﷺ خاتم النَّبِيِّين من بني آدم علىٰ الإطلاق، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا[٧] أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ»[٨] هذا فيه ردٌّ علىٰ مَن زعم أنه بُعِثَ بعد

---

(١) نص الطبري: «أن ولدًا من ولدك أدخلهم النار» (٦/ ١٠٦). مستفاد من ط. دار طيبة والشعب.

(٢) في (ز): فأخرجهم.

(٣) مرسل: رواه الطبري (٦/ ١٦٤).

(٤) لوحة (٢٦٩ ب).

(٥) سقط من (ز).

(٦) في (ز): ثمان.

(٧) في (ز): إن.

(٨) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

عيسىٰ عليه السلام نبيٌّ يقال له: خالد بن سِنان، كما حكاه القُضَاعي وغيره.

والمقصود أنَّ الله تعالىٰ بعث محمَّدًا ﷺ علىٰ فترةٍ من الرسل، وطُمُوسٍ من السبل، وتَغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنِّيران والصُّلْبان، فكانت النِّعمة به أتمَّ النِّعم، والحاجة إليه أمرٌ عَمَم[1]، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا مِن دين الأنبياء الأقدمين، مِن بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النصارىٰ والصابئين، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا هشام، حدَّثنا قتادة، عن مُطرِّف، عن عِياض بن حِمَار المُجَاشِعيِّ رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَني فِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ[2] سُلْطَانًا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَجَمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ) وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، إِذَنْ يَثْلَغُوا[3] رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ[4]، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جُنْدًا نَبْعَثْ خَمْسَةً أَمْثَالَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ مُتَصَدِّقٌ، وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ[5] لَهُ[6]، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا أَوْ تُبَعَاءَ -شك يحيىٰ- لا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلا مَالًا[7]، وَالخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ»، وذكر البخل أو الكذب، «وَالشِّنْظِيرُ: الفَاحِشُ»[8].

ثم رواه الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي من غير وجهٍ، عن قتادة، عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير. وفي رواية سعيد[9] عن قتادة التصريحُ بسماعِ قَتادة هذا الحديث من مطرف. وقد ذكر الإمام

---

(١) في (ز): عام. (٢) لوحة (٢٧٠ أ).

(٣) يثْلَغوا: يَشْدَخُوا، ويدعوه خُبْزَة: أي مكسورة كالخبزة.

(٤) أي: نُعينك علىٰ غزوهم.

(٥) في (ز): لا دين له. وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) أي: لا عقل له يَزْبُرُه وينهاه عن الإقدام علىٰ ما لا ينبغي.

(٧) أي: لا يسعون في تحصيل منفعة دينية ولا نفسية ولا دنيوية.

(٨) مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٦).

(٩) في (ز): شعبة. والمثبت من «المسند».

أحمد في «مسنده» أن قتادة لم يسمعْهُ من مُطَرِّف، وإنما سمعه من أربعةٍ عنه. ثم رواه هو عن رَوْح، عن عوف، عن حكيم الأَثْرم، عن الحسن قال: حدَّثني مطرِّف، عن عِياض بن حمَار، فذكره. و كذا رواه النسائي من حديث غُنْدَر، عن عوف الأعرابي به.

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». وفي لفظ مسلم: «مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ». وكان الدين قد التبس علىٰ أهل الأرض كلِّهم، حتىٰ بعث الله محمَّدا ﷺ، فهدىٰ الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلىٰ النور، وتركهم علىٰ المحجَّة البيضاء، والشريعة الغرَّاء؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ أي: لئلا تحتجوا وتقولوا[1] -: يا أيها الذين بدَّلوا دينهم وغيَّروه- ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ؛ يعني: محمَّدًا ﷺ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

قال ابن جرير: معناه: أنِّي قادرٌ علىٰ عقابِ مَن عصاني، وثواب مَن أطاعني.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا[2] وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن عبده ورسوله وكَلِيمِه موسىٰ بنِ عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما ذَكَّر به قومه نِعَمَ الله عليهم وآلاءه لديهم، في جَمْعِهِ لهم خيرَ الدنيا والآخرة لو استقاموا على[3] طريقتهم المستقيمة، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ أي: كلما هلك نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ، من لَدُن أبيكم إبراهيم وإلىٰ من بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلىٰ الله ويُحذِّرون نقمته، حتىٰ خُتِمُوا بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ خاتم الرسل والأنبياء علىٰ الإطلاق محمَّد بن عبد الله، المنسوب إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أشرف مِن كل من تقدَّمه منهم ﷺ.

---

(١) في (ز): وتقولوا: ما جاء.

(٢) لوحة (٢٧٠ ب).

(٣) في (ز): في.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن الحَكَم أو غيره، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت[1].

وروىٰ الحاكم في «مستدركه» من حديث الثوري أيضًا، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: المرأة والخادم ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الذين هم بين ظَهرانيهِم يومئذٍ، ثم قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه[2].

وقال ميمون بن مِهْران، عن ابن عبَّاس قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار[3] سُمِّي مَلِكًا[4].

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وَهْب، أنبأنا أبو هانئ؛ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلِيَّ يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجلٌ فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكنٌ تسكُنُه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي[5] خادمًا. قال: فأنت من الملوك[6].

وقال الحسن البصري: هل المُلك إلا مركب، وخادم، ودار؟

رواه ابن جرير. ثم رَوَىٰ عن منصور والحكم، ومجاهد، وسفيان الثوري نحوًا من هذا. وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مِهْران.

وقال ابن شَوْذَب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له مَنْزِلٌ وخادمٌ، واستُؤْذِن عليه، فهو ملك.

وقال قتادة: كانوا أول من مَلَكَ الخدمَ.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ [قال: «**كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لأَحَدِهِمْ خَادِمٌ وَدَابَّةٌ وَامْرَأَةٌ، كُتِبَ مَلِكًا**»[7].

---

(١) رواه الطبري (٦/ ١٦٩) ورجاله ثقات إلا أن الحَكَم بن عُتَيْبة ثقة لكنه يدلس، والراوي قد قال في إسناده عن (الحكم أوغيره) علىٰ الشك ولا ندري من غيره، لكن تشهد له الروايات الآتية.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٣١١-٣١٢)، والطبري (٦/ ١٧٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٣) في (ز): والمرأة.

(٤) رواه الطبري (٦/ ١٦٩) وفيه حجاج بن تميم: ضعيف.

(٥) لوحة (٢٧١ أ).

(٦) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ١٦٩)، ورواه مسلم (٢٩٧٩)، واكتفىٰ المصنف بعَزْوِهِ إلىٰ الطبري، وهو أيضًا في «صحيح مسلم».

(٧) **ضعيف**: لم أقف عليه عند ابن أبي حاتم، وفي إسناده ابن لهيعة وقد اختلط، ودَرَّاج أبو السَّمْح عن أبي الهيثم قال الحافظ: صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الزبير بن بكَّار، حدَّثنا أبو ضَمْرَة أنس بن عياض، قال سمعت زيد بن أسلم يقول: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فلا أعلم إلا أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ:] [١] «مَنْ كَانَ لَهُ بَيْتٌ وَخَادِمٌ فَهُوَ مَلِكٌ» [٢].

وهذا مرسلٌ غريبٌ. وقال مالك: بيت وخادم وزوجة.

وقد ورد في الحديث: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا» [٣].

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عالَمِي زمانكم، فكأنَّهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقِبْط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] وقال تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعةً، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًّا، وأعظم مُلْكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع مملكةً، وأدوم عزًّا، قال الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله، عند قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران.

وروىٰ ابن جرير عن ابن عبَّاس، وأبي مالك، وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: أمةَ محمَّدٍ ﷺ، وكأنَّهم أرادوا أنَّ هذا الخطاب في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مع هذه الأمة. والجمهور علىٰ أنَّه خطابٌ من موسىٰ لقومه، وهو محمولٌ علىٰ عالَمِي زمانهم كما قدمنا.

وقيل: المراد: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني بذلك: ما كان تعالىٰ نزَّله عليهم من المنِّ والسَّلوىٰ، [ويُظَلِّلُهم به من الغمام] [٤] وغير ذلك، مما كان تعالىٰ [٥] يَخُصُّهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالىٰ مخبراً عن تحريض موسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل علىٰ الجهاد، والدُّخول إلىٰ بيت

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) **مرسل**: رواه ابن جرير (٦/ ١٦٩)، وإسناده مرسل.
(٣) **حسن لغيره**: وهذه الطريق استوفاها الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٢٣١٨).
(٤) في (ز): (وتظللهم من الغمام).
(٥) لوحة (٢٧١ ب).

المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوبَ، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلىٰ بلاد مصر أيامَ يوسف عليه السلام [ثم لم يزالوا بها، حتىٰ خرجوا مع موسىٰ عليه السلام][1] فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبَّارين، قد استحوذوا عليها وتملَّكُوها، فأمرهم رسول الله موسىٰ عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبَشَّرهم بالنُّصْرة والظَّفَر عليهم، فنَكَلُوا وعَصَوْا وخالفوا أمره، فعُوقِبُوا بالذَّهاب في التِّيه والتمادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلىٰ مَقْصِدٍ، مُدَّةَ أربعين سنةً، عقوبةً لهم علىٰ تفريطهم في أمر الله تعالىٰ فقال تعالىٰ، مخبرًا عن موسىٰ أنَّه قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ أي: المطهَّرة.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ قال: هي الطُّور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحدٍ.

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد البقَّال، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: هي أَرِيحَاءُ. وكذا ذكر غير واحد من المفسِّرين.

وفي هذا نظر؛ لأن أَرِيحَاءَ ليست هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلىٰ بيت المقدس، وقد قدموا مِن بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللَّهمَّ إلا أن يكون المراد [بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله -السُّدِّي فيما رواه ابن جرير عنه- لا أن المراد][2] بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغَوْر شرقي بيت المقدس.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي: التي وعَدَكُمُوها اللهُ علىٰ لسان أبيكم إسرائيلَ: أنه وِراثةُ من آمن منكم، ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ[3]﴾ أي: ولا تَنْكُلُوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ[4] مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ أي: اعْتَذَرُوا بأن في هذه البلدة -التي أَمَرْتَنا بدخولها وقتال أهلها- قومًا جبَّارين، أي: ذوي خِلَقٍ هائلةٍ، وقوىٰ شديدةٍ، وإنا لا نقدر علىٰ مقاومتهم ولا مُصَاولتهم، ولا يُمْكِنُنا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد قال ابن جرير: حدَّثني عبد الكريم بن الهيثم، حدَّثنا إبراهيم بن بَشَّار، حدَّثنا سفيانُ قال: قال أبو سعيد قال عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: أُمِرَ موسىٰ أن يدخل مدينة الجبارين. قال: فسار موسىٰ بمن معه، حتىٰ نزل قريبًا من المدينة -وهي أريحا- فبعث إليهم اثْني عشَرَ عينًا، من كل سِبْطٍ منهم عينٌ، ليأتوه[5] بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة، فرأوا أمرًا عظيمًا من هيئتهم وجُثَثِهم وعِظَمِهم، فدخلوا حائطًا لبعضهم،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) في (ز): أعقابكم أدباركم.

(٤) في (ز): وإنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فإن يخرجوا. فخلط بين الآيتين (٢٢)، (٢٤).

(٥) لوحة (٢٧٢ أ).

فجاء صاحب الحائط ليجتني الثِّمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار. وينظر إلىٰ آثارهم، فتتبعهم، فكلما أصاب واحدًا منهم أخذه فجعله في كُمِّه مع الفاكهة، حتىٰ التقط الاثنىٰ عشر كلهم، فجعلهم في كُمِّه مع الفاكهة، وذهب إلىٰ ملكهم فنثرهم بين يديه، فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلىٰ موسىٰ، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم[١].

وفي هذا الإسناد نظر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: لما نزل موسىٰ وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلًا- وهم النقباء الذين ذكر الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا، فَلَقِيَهُم رجلٌ من الجبارين، فجعلهم في كسائه، [فحملهم][٢] حتىٰ أتىٰ بهم المدينة، ونادىٰ في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم موسىٰ، بعثنا نأتيه بخبركم. فأعطَوْهُم حبةً من عنبٍ تكفي الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلىٰ موسىٰ وقومه فقولوا لهم: اقدروا قَدْر فاكهتهم فلما أتَوْهُم قالوا: يا موسىٰ، ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ إِنَّا قَٰعِدُونَ﴾[٣].

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي مريمَ، حدَّثنا يحيىٰ بن أيوبَ، عن يزيد بن الهاد، حدَّثني يحيىٰ بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصًا، فذَرَع فيها بشيء، لا أدري كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمسًا وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق[٤].

وقد ذكر كثير من المفسِّرين هاهنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل، في عظمة خَلْق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عَوْجُ بْنُ عُنُقٍ، بنت آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنَّه كان طوله ثلاثة آلاف ذراعٍ وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعًا وثلث ذراع، تحرير الحساب! وهذا شيءٌ يُسْتَحَىٰ من ذكره. ثم هو مخالفٌ لما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّىٰ الآنَ**»[٥].

ثمَّ قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا، وأنه كان ولد زِنْيةٍ، وأنَّه امتنع من ركوب السَّفينة، وأنَّ الطُّوفان لم يصل إلىٰ ركبته، وهذا كذبٌ وافتراءٌ، فإنَّ الله ذكر أن نوحًا دعا علىٰ أهل الأرض من[٦] الكافرين، فقال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾[٧]

---

(١) رواه ابن جرير (٦/ ١٧٤) ويشبه أن يكون هذا من الإسرائيليات، التي أخذها ابن عبَّاس من كتبهم؛ لذا قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر.

(٢) ليست في (ز).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ١٧٤-١٧٥)، وإسناده منقطع.

(٤) رجاله ثقات عدا يحيىٰ بن أيوب، قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ، ولم أقف عليه عند ابن أبي حاتم.
قلت: والظاهر من مجموع ما سبق أن لهم أحجامًا وأطوالًا ضخمةً. والله أعلم.

(٥) البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١)، وابن حبان (٦١٦٢) واللَّالَكَائِيّ (٧١١)، وأحمد (٢/ ٣١٥).

(٦) لوحة (٢٧٢ ب).

(٧) في (ز): فأنجيناه ومن معه أجمعين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١١٩﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٠]، وقال تعالىٰ: قَالَ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وإذا كان ابن نوح الكافر غَرِق، فكيف يبقىٰ عَوْجُ بنُ عُنُق، وهو كافرٌ وولد زِنْيةٍ؟! هذا لا يَسُوغ في عقلٍ ولا شرعٍ، ثم في وجود رجلٍ يقال له: «عَوْجُ بنُ عُنُقٍ» نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما نكَلَ بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حرَّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشىٰ عقابه.

وقرأ بعضهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخَافُونَ﴾[١] أي: ممَّن لهم مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا»، قاله ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وغير واحدٍ من السلف، والخلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فقالا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: متىٰ توكَّلْتُم علىٰ الله واتَّبَعْتُم أمره، ووافقتم رسوله، نصَرَكُم الله علىٰ أعدائكم، وأيَّدكم وظَفَّركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذاك فيهم شيئًا. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وهذا نكولٌ منهم عن الجهاد، ومخالفةٌ لرسولهم، وتخلُّفٌ عن مقاتلة الأعداء.

ويقال: إنهم لما نكَلوا علىٰ الجهاد، وعزموا علىٰ الانصراف والرجوع إلىٰ بلادهم، سجد موسىٰ وهارون -عليهما السلام- قُدَّام ملأ من بني إسرائيل، إعظامًا لما همُّوا به، وشَقَّ «يوشع بن نون» و «كالب بن يوفنا» ثيابهما ولاما قومَهُما علىٰ ذلك، فيقال: إنَّهم رجموهما. وجرىٰ أمر عظيم وخطر جليل.

وما أحسنَ ما أجاب به الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوم بدرٍ رسولَ الله ﷺ حين استشارهم في قتال النَّفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان، فلمَّا فات اقتناص العِير، واقترب منهم النفير، وهُم في جمعٍ ما بين التِّسْعمائة إلىٰ الألف في العُدَّة والبَيْض واليَلَبَ[٢]، فتكلَّم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأحسن، ثم تكلَّم [من تكلَّم][٣] من الصَّحابة من المهاجرين ورسولُ الله ﷺ يقول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ». وما يقول ذلك إلا ليستعلم[٤] ما عند الأنصار؛ لأنَّهم كانوا جمهورَ النَّاسِ يومئذٍ. فقال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كأنَّك تُعرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك، وما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكْرَه أن تلقىٰ بنا عدوَّنا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسِرْ بنا علىٰ بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك.

وقال أبو بكر بن مَرْدويَه: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا أبو حاتم الرازي، حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الأنصاري، حدَّثنا حُمَيْد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلىٰ بدرٍ استشار المسلمين،

---

(١) قراءة قَرَأَ (يُخَافُونَ) ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (يَخافُونَ).

(٢) البَيْض: واحدها بيضة، وهي الخُوذة، واليَلَب: الدروع.

(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٧٣ أ).

فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إيَّاكم يُريدُ رسول اللهِ ﷺ، قالوا: إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [والذي بعثك بالحق لو ضَرَبْت أكبادها إلىٰ بَرْك الغِمَاد[١] لاتَّبَعْنَاكَ[٢]].

ورواه الإمام أحمد، عن [عَبيدةَ بن حُمَيد عن حميد الطويل][٣]، عن أنس به، ورواه النسائي، عن محمَّد بن المثنىٰ، عن خالد بن الحارث، عن حميد به، ورواه ابن حبان عن أبي يعلىٰ، عن عبد الأعلىٰ بن حماد، عن معتمر بن سليمان، عن حميد به.

وقال ابن مَرْدويه: أخبرنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، حدَّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن شعيب، عن الحسن[٤] بن أيوب، عن عبد الله بن ناسخ، عن عتبة بن عبد السُّلَمِي قال: قال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه: «أَلَا تُقَاتِلُونَ؟» قالوا: نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾][٥] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[٦]. وكان ممَّن أجاب[٧] يومئذٍ المقدادُ بن عمرٍو الكِنْدي رضي الله عنه، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا وكيعٌ، حدَّثنا سفيانُ، عن مُخارِق بن عبد الله البَجَلِي الأَحْمَسِي، عن طارق -هو ابن شهاب- أنَّ المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنَّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[٨].

هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه من طريق أخرىٰ فقال:

حدَّثنا أسود بن عامر، حدَّثنا إسرائيل، عن مُخَارِق، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله -هو ابن مسعود رضي الله عنه-: لقد شَهِدْتُ من المقداد مشهدًا، لأَنْ أكونَ أنا صاحبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتىٰ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يدعو علىٰ المشركين، فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إِسْرَائِيلَ لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكنَّا نقاتل عن يمينِك وعن يسارك، ومِن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشْرِق لذلك، سُرَّ بذلك[٩].

وهكذا رواه البخاري في «المغازي» وفي «التفسير» من طُرُقٍ عن مُخارقٍ به. ولفظه في «كتاب التفسير» عن عبد الله قال: قال المقدادُ يومَ بدرٍ: يا رسول الله، إنَّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

---

(١) بَرْك الغِماد: تُفْتح الباء وتُكْسر، وتُضَمّ الغَين وتُكسر، وهو اسم موضع باليمن. وقيل: هو موضع وراء مكة بِخَمْس ليالٍ. «النهاية»: (١/ ١٢١).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٤٧٢١)، وأحمد (٣/ ١٠٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٢٤٣).

(٣) في (ز): (عبيدة بن حُميد الطويل)، والمثبت هو الصواب، وعَبيدة المذكور في السند هو في «تهذيب الكمال» (١٩/ ٢٥٧) ط: الرسالة.

(٤) في بعض النسخ: الحكم بن أيوب.

(٥) سقط من (ز).

(٦) حسن: رواه أحمد (٤/ ١٨٤).

(٧) في (ز): أجاد.

(٨) أحمد (٤/ ٣١٤).

(٩) أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاري (٣٩٥٢) (٤٦٠٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٤٠).

لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن نقول: امضِ ونحنُ معك، فكأنَّه سُرِّيَ عن[1] رسول الله ﷺ[2].

ثم قال البخاري: ورواه وَكِيعٌ، عن سفيان، عن مُخارقٍ، عن طارقٍ؛ أنَّ المقداد قال للنَّبيِّ ﷺ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بِشْرٌ، حدَّثنا يزيدُ، حدَّثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قال: ذُكِرَ لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحُدَيبية، حين صَدَّ المشركون الهَدْيَ، وحِيلَ بينهم وبين مناسكهم: «إنِّي ذَاهِبٌ بِالهَدْيِ فَنَاحِرُهُ عِنْدَ البَيْتِ». فقال له المقداد بن الأسود: أما والله لا نكون كالملإ من بني إسرائيل، إذ قالوا لنبيِّهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا معكم مقاتلون. فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تتابعوا علىٰ ذلك[3].

وهذا إن كان محفوظًا يوم الحديبية، فيحتمل أنَّه كَرَّر هذه المقالة يومئذٍ، كما قاله يوم بَدْر.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ يعني: لما نكَل بنو إسرائيل عن القتال غَضِبَ عليهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال داعيًا عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: ليس أحدٌ يطيعُني منهم فيمتثلُ أمر الله، ويجيبُ إلىٰ ما دعوتُ إليه، إلا أنا وأخي هارون، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ قال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس: يعني اقضِ بيني وبينهم . وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس.

[وكذا قال الضَّحَّاك: اقضِ بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افْرُقْ:][4] افصِلْ بيننا وبينهم، كما قال الشاعر:

يَــا رَبِّ فَــافْرُقْ بَيْنَــهُ وَبَيْنِــي ... أَشَــدَّ مَــا فَرَقْــتَ بَــيْنَ اثْنَــيْنِ[5]

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ لما دعا عليهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين نكَلُوا عن الجهاد، حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا مدةَ أربعينَ سنةً، فوقعوا في التِّيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارقُ كثيرة، من تظليلهم بالغَمام وإنزال المَنِّ والسَّلْوَىٰ عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرةٍ صماءَ تُحمَلُ معهم علىٰ دابةٍ، فإذا ضربها موسىٰ بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشْرَةَ عينًا تجري لكل شِعْبٍ عينٌ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسىٰ بن عمران[6]. وهناك أُنزِلت التوراة، وشُرِعت لهم الأحكام، وعُمِلَت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان.

---

(١) لوحة (٢٧٣ ب). (٢) البخاري (٤٦٠٩).

(٣) مرسل: رواه ابن جرير (٦/ ١٨٠). (٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) البيت في «تفسير الطبري».

(٦) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعطاهم الله هذه الأشياء بعد توبتهم، ومن رحمة الله وفضله التفضُّل على عباده بجوده وكرمه، فقد أعطى الكافر والمسلم من رزقه.

قال يزيد بن هارون، عن أَصْبَغ بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: سألت ابن عبَّاس عن قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية[١]. قال: فتاهوا في الأرض أربعين سنةً، يُصْبحُون كل يوم يسيرون ليس لهم قَرارٌ، ثم ظَلَّلَ عليهم الغمام في التِّيه، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلوىٰ وهذا قطعة من حديث «الفُتُون»[٢]، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاثةِ سنينَ مات موسىٰ الكَلِيمُ عليه السلام وأقام الله فيهم يوشعَ بنَ نون عليه السلام نبيًّا خليفةً عن موسىٰ بن عمران، ومات أكثرُ بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبقَ منهم أحدٌ سوىٰ يوشع و كالب، ومن هاهنا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وقفٌ تامٌّ، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [منصوب بقوله:][٣] ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام، أو بمن بَقِي منهم، وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فَتْحُها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تَضَيَّفَتِ[٤] الشمس للغروب، وخَشِيَ دخولَ السبت عليهم قال: «إنَّكِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللَّهمَّ احْبِسْهَا عليَّ»، فحبسها الله تعالىٰ حتىٰ فتحها، وأمر اللهُ يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل، حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سُجدًا، وهم يقولون: حِطَّةٌ؛ أي: حُطَّ عنا ذنوبنا، فبدَّلوا ما أُمِرُوا به، فدخلوا يزحفون علىٰ أستاهِهِم، وهم يقولون: حَبَّة في شَعْرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن أبي عمر العَدَنِيُّ، حدَّثنا سفيان، عن أبي سعيد[٥]، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: فتاهوا أربعين سنةً، فهَلَكَ موسىٰ وهارون في التِّيه وكلُّ من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنةً ناهَضَهُم يوشعُ بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسىٰ، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له: «اليَوم يوم الجمعة» فهَمُّوا بافتتاحها، ودنت الشمس للغروب، فخَشِي إن دخلت ليلةُ السبت أن يَسْبِتُوا، فنادىٰ الشمس: «إنِّي مأمورٌ وإنَّكِ مأمورةٌ» فوقفت حتىٰ افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم يُرَ مثلُه قط، فقرَّبوه إلىٰ النار فلم تأتِ، فقال: فيكم الغُلُولُ، فدعا رءوس الأسباط، وهم اثنا عَشَرَ رجلًا فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغُلُولُ عندك، فأَخْرِجْه فأخرج رأس بقرةٍ من ذهبٍ، لها عينانِ من ياقوتٍ، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القُرْبان، فأتت النار فأكلتها[٦].

---

(١) لوحة (٢٧٤ أ).

(٢) رواه أبو يعلىٰ (٢٦١٨)، وابن أبي حاتم (١/ ١٧) وهو حديثٌ طويلٌ، سيورده ابن كثير في سورة «طه» الآية (٤٠)، ورجاله ثقات، قال ابن كثير: (وهو موقوف من كلام ابن عبَّاس، وليس منه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقَّاه ابن عبَّاس رضي الله عنه مما أُبِيحَ نقلُه من الإسرائيليات من كعب الأَحْبارِ أو غيره، والله أعلم). انظر: تفسير سورة طه الآية ٤٠.

(٣) سقط من (ز). (٤) تضيفت: دنت. (٥) في (ز): (سعد)، وهو خطأ.

(٦) صحيح: رواه الطبري (٦/ ١٨٣) مختصرًا، ولم أقف عليه في «تفسير ابن أبي حاتم».

وهذا السياق له شاهد في «الصحيح»[(١)]. وقد اختار ابن جرير أن قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هو العامل في «أربعين سنةً»[(٢)]، وأنهم مَكَثوا لا يدخلونها أربعين سنةً، وهم تائهون في البَرِّيَّةِ لا يهتدون لمَقْصِدٍ. قال: ثم خرجوا مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ففتح بهم بيت المقدس، ثم احْتَجَّ علىٰ ذلك قال: بإجماع علماء أخبار الأولين أن «عَوْجَ بْنَ عُنُقٍ» قتله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: فلو كان قَتْلُه إياه قبل التِّيه لما رَهِبَتْ[(٣)] بنو إسرائيل من العماليق، فدلَّ علىٰ أنه كان بعد التِّيه. قال: وأجمعوا علىٰ أن «بِلْعَامَ بْنَ بَاعُورَا» أعان الجبَّارين بالدعاء علىٰ موسىٰ، قال: وما ذاك إلا بعد التِّيه؛ لأنَّهم كانوا قبل التِّيه لا يخافون من موسىٰ وقومه، هذا استدلاله، ثم قال[(٤)]: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدَّثنا ابن عطيةَ، حدَّثنا قَيْسٌ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كانت عصا موسىٰ عشرةَ أذرعٍ، ووَثْبَتُهُ عشرةَ أذرع، وطولُه عشرة أذرع، فوثب فأصاب كَعْبَ «عَوْجٍ» فقتله، فكان جسرًا لأهل النِّيلِ سنةً[(٥)].

وروي أيضًا عن محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا مُؤَمَّل، حدَّثنا سفيان، عن أبي إسحاقَ، عن نَوْف البِكالي قال: كان سرير «عَوْج» ثلاثَمائةِ ذراعٍ، وكان طول موسىٰ عشرة أذرع، وعصاه عشرةَ أذرعٍ، ووثب في السماء عشرة أذرع، فضرب «عَوْجًا» فأصاب كعبه، فسقط ميتًا، وكان جسْرًا للناس يمرون عليه[(٦)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تسليةٌ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنهم؛ أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم، فمَهْمَا حكمت عليهم به فإنَّهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمَّنَت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولِهم عن طاعتهما في الذي [أمراهم][(٧)] به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسولَ اللهِ ﷺ وكَلِيمَه وَصَفِيَّه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحلَّ الله بعدوِّهم فرعونَ من العذاب والنَّكال، والغرق له ولجنوده في اليمِّ وهم ينظرون؛ لتَقَرَّ به أعينهم، وما بالعهد من قِدَمٍ، ثم يَنْكُلون عن مقاتلة أهل بلد، هي بالنِّسْبَة إلىٰ ديار مصر لا توازي عُشْر المِعْشَارِ في عِدَّة أهلها وعُدَدهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاصِّ والعامِّ، وافْتُضِحُوا فضيحةً لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وَهُمْ في جهلهم يَعْمَهون،

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٤) (٥١٥٧)، ومسلم (١٧٤٧).

(٢) لوحة (٢٧٤ ب).

(٣) في (ز): وهنت.

(٤) كذا ذكره ابن جرير (٦/ ١٨٥)، وأحاديث عوج بن عنق لا تصح، كما تقدم من قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم في وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظر)، وكذا حَكَم ابن القيم بوضعها في «المَنار المُنِيف» (ص٧٦).

(٥) في إسناده أبو إسحاق السَّبِيعي: وهو مدلس وقد عنعن، وقد أشار ابن القيم أن الحديث موضوع في كتابه «المنار المنيف» (ص٧٦).

(٦) موضوع: عليه علامات الوضع، وفي الإسناد نَوْف البِكَالي: مستور، وأبو إسحاق: مدلس، والإسناد أيضًا مرسل.

(٧) في (ز): (أمرهم).

وفي غَيِّهم يترددون، وهم البُغَضاء إلىٰ الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فقبَّح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود(١)، وألزمهم لعنةً تَصْحَبُهم إلىٰ النَّار ذاتِ الوَقُود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعَل وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ مبينًا وَخِيمَ عاقبةِ البَغْيِ والحسد والظُّلم في خبر ابنَيْ آدمَ لصُلْبه - في قول الجمهور - وهما هابيلُ وقابيلُ كيف عَدَا أحدهما علىٰ الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النِّعمة وتَقَبُّل القربان الذي أخلص فيه لله ﷻ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلىٰ الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصَّفقة الخاسرة في الدُّنيا والآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: واقصُصْ علىٰ هؤلاء البغاة الحَسَدَةِ، إخوانِ الخنازير والقردة، من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبرَ ابني آدم، وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحدٍ من السَّلف والخلف(٢).

وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: علىٰ الجَلِيَّة، والأمرِ الذي لا لَبْسَ فيه ولا كذب، [ولا وَهْم](٣) ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ [آل عمران:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الكهف:١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحدٍ من السَّلف والخلف، أنَّ الله تعالىٰ قد شرَع لآدم ﵇ أن يُزَوِّج بناتِهِ من بَنِيهِ؛ لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يُولَد له في كل بطنٍ ذكرٌ وأنثىٰ، فكان يزوِّج أنثىٰ هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دَميمةً، وأخت قابيل وضيئةً، فأراد أن يستأثر بها علىٰ أخيه، فأبىٰ آدم ذلك إلَّا أن يُقَرِّبا قربانًا، فمن تُقُبِّلَ منه فهي له، فقربا فَتُقُبِّلَ من هابيل ولم يتَقَبَّل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصَّ الله في كتابه.

---

(١) لوحة (٢٧٥ أ).

(٢) قال أحمد شاكر ﵀: أما أنهما ابنا آدم لصُلْبِهِ، فهو القول الثابت الصحيح، الذي يدل عليه سياق الآيات، مؤيَّدًا بالسنة الصحيحة، كما سيأتي، وأما تسميتهما - «قابيل وهابيل» فإنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب، لم يرد به القرآن، ولا جاء في سنةٍ ثابتةٍ فيما نعلم، فلا علينا ألا نجزم به ولا نرجحه، وإنما هو قول قِيلَ.

(٣) سقط من (ز).

ذِكْرُ أقوالِ المفسرين هاهنا:

قال السُّدِّي -فيما ذكر- عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبيِّ ﷺ؛ أنَّه كان لا يولدُ لآدمَ مولودٌ إلا ولدٌ[١] معه جاريةٌ، فكان يزوِّج غلامَ هذا البَطْن جاريةَ هذا البطن الآخر، ويزوِّجُ جاريةَ هذا البطنِ غلامَ هذا البطن الآخر، حتىٰ وُلِدَ له ابنانِ يُقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضَرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسنُ من أخت هابيل، وإنَّ هابيل طلب أن يَنْكِح أخت قابيل، فأبىٰ عليه، وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن مِن أختك، وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها. فأمره أبوه أن يُزَوِّجها هابيل، فأبىٰ، وأنَّهما قرَّبا قربانًا إلىٰ الله ﷻ أيُّهما أحق بالجارية، وكان آدم ﷺ قد غاب عنهما، أتىٰ مكة ينظر إليها، قال الله ﷻ: «**هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ لِي بَيْتًا فِي الأَرْضِ؟**» قال: اللَّهمَّ لا. قال: «**إِنَّ لِي بَيْتًا فِي مَكَّةَ فَأْتِهِ**». فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت. وقال للأرض، فأبت. وقال للجبال، فأبت. فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرُّك، فلما انطلق آدم قرَّبا قربانًا، وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وَصِيُّ والدي. فلما قرَّبا، قرب هابيل جَذَعَة[٢] سمينة، وقرب قابيل حُزْمَة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة، ففركها فأكلها. فنزلت النَّار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتىٰ لا تنكح أختي. فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصبَّاح، حدَّثنا حجَّاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني ابن خُثَيْم قال: أقبلت مع سعيد بن جبير، فحدَّثني عن ابن عبَّاس قال: نهي أن تَنْكِحَ المرأة أخاها تَوْأمها، و[أمر][٤] أن يَنْكِحَها غيرُه من إخوتها، وكان يولد له في كل [بطن رجل][٥] وامرأة، فبينما هم[٦] كذلك وُلِدَ له امرأة وضيئة، ووُلِدَ له أخرىٰ قبيحةٌ دميمةٌ، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختَكَ وأُنْكِحَكَ أختي. قال: لا، أنا أحق بأختي، فقرَّبا قربانًا، فتُقُبِّل من صاحب الكَبْش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. إسناد جيد[٧].

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو سَلَمَة، حدَّثنا حمَّاد بن سلمةَ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، قوله: ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فقرَّبا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكبش أَعْيَنَ أَقْرَنَ[٨] أبيض،

---

(١) لوحة (٢٧٥ ب). (٢) الجَذَعَة من الضأن: ما تمَّتْ لها سنة.

(٣) رواه الطبري (١٠/ ٢٠٦ برقم ١١٧١٥) ورجاله ثقات إلا أنه منقطع؛ حيث إنه قال: فيما ذُكِر، ولم يصله.

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): فبينهما.

(٧) إسناده حسن: رواه الطبري (٦/ ١٨٦) لكنه من رواية بن عبَّاس، وهو من الأخبار، وقد أخذ ابن عبَّاس من كتب بني إسرائيل، ومعلوم أن العلماء: اشترطوا في قبول رواية الأخبار أن يكون الصحابي ممن لم يأخذ منها؛ لذا فمثل هذه مما لا يصدق ولا يكذب.

(٨) أَعْيَنَ: واسع العينين، وأقرن: كبير القرنين.

وصاحبُ الحرثِ بصُبْرَةٍ[(١)] من طعام، فقبِلَ الله الكبش فخَزَنَهُ في الجنة أربعين خريفًا، وهو الكبش[(٢)] الذي ذبحه إبراهيم ﷺ، إسناد جيد[(٣)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا عَوْف، عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو قال: إنَّ ابْنَيْ آدمَ اللَّذَينِ قرَّبا قربانًا فتُقُبِّل مِن أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرثٍ والآخر صاحبَ غَنَم، وإنهما أُمِرَا أن يقرِّبا قُرْبانا، وإن صاحب الغنم قرَّب أَكْرَم غنمه وأسمنَها وأحسنها، طَيِّبَة بها نَفْسُه، وإن صاحب الحرث قرَّب أَشَرَّ حرثِه الكردن[(٤)] والزُّوان[(٥)] غيرَ طيبةٍ بها نفسُهُ، وإن الله ﷻ تقبَّل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان مِن قصتهما ما قصَّ الله في كتابه، قال: وأَيْمُ الله، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التَّحرُّج أن يبسط [يده][(٦)] إلىٰ أخيه[(٧)].

وقال إسماعيل بن رافع المَدَنِي القاصُّ: بلغني أنَّ ابْنَيْ آدمَ لمَّا أُمِرَا بالقربان، كان أحدهما صاحب غَنَم، وكان أُنْتِجَ له حَمَلٌ في غنمه، فأحبَّه حتىٰ كان يُؤْثِرُه باللَّيل، وكان يحمِلُه علىٰ ظهره مِن حُبِّه، حتىٰ لَمْ يكن له مال أحبُّ إليه منه. فلما أُمِرَ بالقربان قرَّبه لله ﷻ فقبِلَه الله منه، فما زال يَرْتَع في الجنَّة حتىٰ فَدىٰ به [ابن][(٨)] إبراهيم ﷺ. رواه ابن جرير[(٩)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الأنصاري، حدَّثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدَّثنا محمَّد بن علي بن الحسين قال: قال آدم ﷺ لهابيل وقابيل: إنَّ ربي عَهِدَ إليَّ أنه كائنٌ من ذريتي من يُقَرِّب القربان، فقرِّبا قربانًا، حتىٰ تَقَرَّ عيني إذا تُقُبِّل قربانكما، فقرَّبا. وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب أُكُولةَ غنَمِهِ[(١٠)]، خَيْر ماله، وكان قابيل صاحب زَرْع، فقرَّب مُشَاقةً[(١١)] مِن زرعه، فانطلق آدم معهما، ومعهما قُرْبَانُهما، فصَعِدَا الجبل فوضعا قُرْبَانَهُمَا، ثم جلسوا ثلاثَتُهم: آدمُ وهما، ينظرون إلىٰ القربان، فبعث الله نارًا، حتىٰ إذا كانت فوقهما دنا منها عُنُقٌ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل، فانصرفوا،

---

(١) **الصُبْرَة**: الطعام المجتمع كالكُومةِ؛ أي: قَدَّم طعامًا من غير وزنٍ ولا كيلٍ.

(٢) لوحة (٢٧٦ أ).

(٣) **إسناده صحيح**: رواه ابن أبي حاتم وهو أيضًا من رواية ابن عبَّاس، راجع التعليق السابق.

(٤) في بعض النسخ: الكودن.

(٥) **الزُوَانُ والزِّوَانُ**: ما يخرج من الطعام فيرمىٰ به، وهو الرديءُ منه. «اللسان»: زون.

(٦) سقط من (ز).

(٧) **رجاله ثقات**: رواه الطبري (٦/ ١٨٦-١٨٧) وهو من رواية عبد الله بن عمرو، وقد أخذ من كتب بني إسرائيل، فيقال: هنا ما تقدم في التخريج قبل السابق.

(٨) سقط من (ز).

(٩) **منقطع**: رواه الطبري (٦/ ١٨٧)، وإسماعيل بن رافع: ضعيف الحفظ كما في «التقريب-ترجمة ٤٤٢»، وهو يروي الحديث بلاغًا؛ أي: أنه لم يُسْنِدْه، فالإسناد منقطعٌ لذلك.

(١٠) أي: التي تُسَمَّن للأكل.

(١١) أي: بقية.

وعلم آدم أنَّ قابيل مَسْخُوط عليه، فقال: وَيْلَك يا قَابِيلُ رُدَّ عليك قربانُكَ. فقال قابيل: أحببتَه فصلَّيْتَ علىٰ قربانه ودعوتَ له فتُقُبِّل قربانه، ورُدَّ عليَّ قرباني. وقال قابيلُ لهابيلَ: لأقتلنَّك فأستريح منك، دعا لك أبوك فصلَّىٰ علىٰ قربانك، فتُقُبِّل منك. وكان يتواعده بالقتل[١]، إلىٰ أن احتبَس هابيل ذات عشيَّة في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ قال: وبَعثتني له راعيًا؟! لا أدري. فقال له آدم: وَيْلَكَ يا قابيل. انطلق فاطلب أخاك. فقال قابيل في نفسه: الليلةَ أَقْتُلُه. وأخذ معه حديدةً فاستقبله وهو منقلبٌ، فقال: يا هابيل، تُقُبِّلَ قُربَانُكَ وَرُدَّ عليَّ قربَانِي، لأقتلنك. فقال هابيل: قربتُ أطيبَ مالي، وقربتَ أنت أخبثَ مالك، وإنَّ الله لا يقبل إلا الطيب، إنَّما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غَضِبَ قابيل فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يَجْزِيك بعملك؟ فقتله فطرحه في جَوْبة[٢] من الأرض، وحثىٰ عليه شيئًا من التُّراب[٣].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إنَّ آدم أمر ابنه قابيل[٤] أن يَنكح أخته تَوْأَمة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته تَوْأَمة قابيل، فسَلَّم لذلك هابيل ورضي، وأبَىٰ ذلك قين[٥] وكره، تكرمًا عن أخت هابيل، ورَغِبَ بأخته عن هابيل، و[قال:][٦] نحن وِلادة الجنة، وهما مِن وِلادة الأرض، وأنا أحق بأختي -ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل مِن أحسن الناس، فَضَنَّ بها عن أخيه وأرادها لنفسه، فالله أعلم أي ذلك كان- فقال له أبوه: يا بني، [إنَّها لا تحل لك، فأبىٰ قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بني،][٧] قرِّب قربانًا، ويقرِّب أخوك هابيل قربانًا، فأيكما تُقُبِّل قربانه فهو أحق بها، وكان قابيل علىٰ بَذْر الأرض، وكان هابيل علىٰ رعاية الماشية، فقَرَّب قابيل قمحًا، وقرَّب هابيل أبكارًا من أبكار غنمه -وبعضهم يقول: قرب بقرة- فأرسل الله نارًا بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يُقْبَل القربان إذا قَبِلَه. رواه ابن جرير[٨].

وروىٰ العَوْفِيُّ، عن ابن عبَّاس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكينٌ يُتَصدَّق عليه، وإنما كان القربان يُقَرِّبه الرجل. فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قَرَّبنا قربانًا وكان الرجل إذا قَرَّب قربانًا فرَضِيَه الله، أرسل إليه نارًا فتأكله، وإن لم يكن رَضِيَهُ الله خَبَت النَّار، فقَرَّبا قربانًا، وكان أحدهما راعيًا، وكان الآخر حَرَّاثًا، وإنَّ صاحب الغنم قرَّب خيرَ غنمِهِ وأسمَنها، وقرَّب الآخر بعضَ زَرْعِهِ، فجاءت النَّار فنزلَتْ بينهما، فأكلت الشَّاة وتركت الزَّرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أَتَمْشِي في النَّاس، وقد علموا أنك

---

(١) لوحة (٢٧٦ ب).
(٢) أي: حفرة.
(٣) عزاه لابن أبي حاتم: وإسناده مرسل، وفيه القاسم بن عبد الرحمن: وهو ضعيف الحديث كما في «ميزان الاعتدال»، ولم أقف عليه في التفسير.
(٤) ورد في (ز): «قينا» بدلًا من «قابيل»، ولم أقف عليه عند ابن إسحاق، والذي في «الطبري»: (قابيل)، وكذا في «الكامل» لابن الأثير (١/ ١٣).
(٥) قين: هو قابيل.
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٨) مرسل منقطع: رواه الطبري (٦/ ١٨٨).

قَرَّبت قربانًا فَتُقُبِّل منك وَرُدَّ عليَّ؟ فلا والله؛ لا ينظر الناس إليك وإليَّ وأنت خير[١] مني، فقال: لأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنَّما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير[٢].

فهذا الأثر يقتضي أنَّ تقريب القربان كان لا عن سببٍ، ولا عن تدارؤ في امْرَأَةٍ، كما تقدم عن جماعة مَنْ تقدَّم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسِّياق يقتضي أنَّه إنما غَضِبَ عليه وحسده؛ لقَبُول قربانه دونه.

ثم المشهور عند الجمهور أنَّ الذي قَرَّب الشَّاة هو هابيل، وأنَّ الذي قَرَّب الطعام هو قابيل، وأنه تُقُبِّل مِن هابيل شاته، حتىٰ قال ابن عبَّاس وغيره: إنَّه الكبش الذي فُدِيَ به الذَّبيح، وهو مناسب، والله أعلم، [ولم يُتَقَبَّل من قابيل.][٣] كذلك نصَّ عليه غيرُ واحدٍ من السَّلف والخلف، وهو المشهور عن مجاهد أيضًا، ولكن روىٰ ابن جرير عنه أنَّه قال: الذي قَرَّب الزَّرع قابيل، وهو المُتقبَّلُ منه، وهذا خلاف المشهور، ولعلَّه لم يحفظ عنه جيدًا، والله أعلم.

ومعنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ممن اتقىٰ الله في فعله ذلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إبراهيم بن العلاء بن زِبْرِيق[٤]، حدَّثنا إسماعيل بن عَيَّاش، حدَّثني صَفْوان بن عمرو، عن تَمِيم؛ يعني: ابن مالك المُقْرِي، قال: سمعت أبا الدرداء يقول: لأَنْ أستيقنَ أن الله قد تَقَبَّل مِنِّي صلاةً واحدةً أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها، إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٥]

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن عمران، حدَّثنا إسحاق بن سليمان -يعني الرازي- عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون بن أبي حمزة قال: كنت جالسًا عند أبي وائل، فدخل علينا رجل -يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ- فقال له شقيق بن سلمة[٦]: يا أبا عفيف، ألا تحدِّثُنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلىٰ، سمعته يقول: يُحْبَسُ الناس في بقيعٍ واحدٍ، فيُنَادِي منادٍ: أين المتقون؟ فيقومون في كَنَفٍ من الرحمن، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلتُ: من المتقون؟ قال: قوم اتَّقَوْا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة، فيمرون إلىٰ الجنَّة[٧].

وقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول له أخوه الرَّجل الصَّالح، الذي تقبل الله قُرْبَانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل علىٰ غير ما ذَنْب منه إليه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[٨] أي: لا أقابلك علىٰ صنيعِكَ

---

(١) لوحة (٢٧٧ أ).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ١٨٧)، وفيه عطية العَوْفي: شيعي مدلس وقد عنعن.

(٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): (بن زبر)، وما أثبتناه هو الصواب.

(٥) عزاه لابن أبي حاتم وإسناده لا بأس به.

(٦) في (ز): سفيان بن سلمة. وهو خطأ.

(٧) إسناده ضعيف جدًّا، رواه ابن أبي حاتم (٦١)، فيه أبو حمزة النجار، واسمه ميمون، قال الحافظ: ضعيف.

(٨) لوحة (٢٧٧ ب).

الفاسد بمثله، فأكونَ أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: من أنْ أصنع كما تريد أَن تصنَع، بل أصبر وأحتسب(١).

قال عبد الله بن عمرو: وأَيْمُ الله، إن كان لأشدَّ الرجلين ولكن منعه التَّحرُّج؛ يعني: الورع(٢).

ولهذا ثبت في «الصحيحين»، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدَّثنا لَيْثُ بن سعد، عن عَيَّاش بن [عبَّاس، عن](٤) بكير بن [عبد الله، عن](٥) بُسْر(٦) بن سعيد؛ أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**». قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي، فبسط يده إليَّ ليقتلني قال: «**كُنْ كَابْنِ آدَمَ**»(٧).

وكذا رواه التِّرمذي عن قُتَيبَة بن سعيد وقال: هذا الحديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة، وخَبَّاب بن الأرَتِّ، وأبي بَكْرَة وابن مسعود، وأبي واقد، وأبي موسىٰ، وخَرَشَة. ورواه بعضهم عن الليث بن سعد، وزاد في الإسناد رجلًا(٨).

قال الحافظ ابن عساكر: الرجل هو حسين الأَشْجَعِي.

قلت: وقد رواه أبو داود من طريقه فقال: حدَّثنا يزيد بن خالد الرَّمْلِي، حدَّثنا المُفَضَّل، عن عيَّاش ابن عبَّاس عن بُكَيْر، عن بُسْر(٩) بن سعيد، عن حسين(١٠) بن عبد الرحمن الأشجعي؛ أنه سمع سعد بن أبي وقاص، عن النَّبيِّ ﷺ في هذا الحديث قال: فقلت: يا رسول الله، أرأيت إن دخل [عليَّ](١١) بيتي وبَسَط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**كُنْ كَابْنِ آدَمَ**» وتلا [يزيد:](١٢) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ

---

(١) **قال ابن عثيمين** رحمه الله: من فوائد هذه الآية الكريمة: أن من أُريد قتله ولم يدافع؛ خوفًا من الإثم، فإنه لا حرج عليه، ولكن كيف الخوف من الإثم؟ نقول: لأنه ربما يقتل الصائل فيتعجل؛ لأن الواجب نحو الصائل أن يدافعَ مدافعةَ الأخ ضد الأخ، فإن رجع عن قوله بالتهديد لم يُضْرَب، وإن رجع بالضرب اليسير لم يضرب كثيرًا، وإن رجع بالضرب الكثير لم يُقْتَل، وإن لم يندفع إلا بالقتل، فالحكم أنه يُقْتَلُ، إلا أن العلماء -رحمهم الله- قالوا: ما لم يخف أن يبادره بالقتل، فإن خاف أن يبادره بالقتل فلا بأس أن يقتله الأول؛ يعني: مثل لو كان هذا الصائل معه سلاح أشهره علىٰ صاحبه، وصاحبه يخاف أن يطلقه عليه فيقتله؛ فحينئذٍ لا حرج أن تبادره بالقتل؛ لأن هذا ربما لا يعطيك فرصة لأن تدفعه بيدك مثلًا أو تُطِيحَ به أو ما أشبه ذلك، وحينئذٍ لا بأس أن تبادره بالقتل.

(٢) **رجاله ثقات**: رواه الطبري (٦/ ١٨٦-١٨٧)، ورجاله ثقات، وهذه الأخبار مما لا يصدَّق ولا يكذَّب.

(٣) البخاري (٣١، ٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأبو داود (٤٢٦٩)، والنسائي (٧/ ١٢٥)، وأحمد (٥/ ٤٦).

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) في (ز): بشر.

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤).

(٨) في (ز): رجلان. (٩) في (ز): بشر. (١٠) في (ز): سعيد.

(١١) سقط من (ز). (١٢) سقط من (ز).

يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

قال أيوب السَّخْتِياني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لَعُثْمانُ بنُ عفان رضي الله عنه. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا مَرْحومٌ، حدَّثني أبو عمران الجَوْني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ قال: ركب النَّبيُّ ﷺ حمارًا وأردفني خلفه، وقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَىٰ مَسْجِدِكَ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟». قال[(٢)]: قال: الله ورسوله أعلم. قال: [«تعفَّفْ» قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ، وَيَكُونُ البَيْتُ فِيهِ بِالعَبْدِ؛ يَعْنِي: القَبْرَ[(٣)]، كَيْفَ تَصْنَعُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال:][(٤)] «اصْبِرْ». قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ يَعْنِي: حَتَّىٰ تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ[(٥)] مِنَ الدِّمَاءِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ». قال: فإن لم أُتْرَكْ؟ قال: «فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ، فَكُنْ فِيهِمْ» قال: فآخذ سلاحي؟ قال: «إِذًا تُشَارِكُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ إِنْ خَشِيتَ أَنْ يُرَوِّعَكَ[(٦)] شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَىٰ وَجْهِكَ كَيْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ»[(٧)].

رواه مسلم[(٨)] وأهل السنن سوى النسائي، من طرق عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت به ورواه أبو داود وابن ماجة، من طريق حماد بن زيد، عن أبي عمران، عن المُشَعَّث[(٩)] بن طَرِيف، عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر بنحوه.

قال أبو داود: ولم يذكر المشعَّث[(١٠)] في هذا الحديث غير حماد بن زيد.

وقال ابن مَرْدويَه: حدَّثنا محمَّد بن علي بن دُحَيم، حدَّثنا أحمد بن حازم، حدَّثنا قَبِيصَة بن عُقْبَة، حدَّثنا سفيان، عن منصور، عن رِبْعِيّ قال: كنا في جنازة حُذَيفة، فسمعت رجلًا يقول: سمعت هذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: «لَئِنِ اقْتَتَلْتُمْ لَأَنظُرَنَّ إِلَىٰ أَقْصَىٰ بَيْتٍ فِي دَارِي، فَلَأَلْجَنَّهُ، فَلَئِنْ دَخَلَ عَلَيَّ [فُلَانٌ لَأَقُولَنَّ:][(١١)] هَا بُؤْ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فَأَكُونَ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ»[(١٢)].

---

(١) انظر التعليق السابق. (٢) لوحة (٢٧٨ أ).

(٣) المعنىٰ: أن مواضع القبور تضيق، فيبتاعون كل قبر بعبد.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). وما أثبتناه موافق لما في «المسند».

(٥) **حجارة الزيت، أو أحجار الزيت**: موضع كان بالمدينة، غلب عليها الطريق واندفنت.

(٦) في (ز): يردعك.

(٧) صحيح: أحمد (٥/ ١٤٩)، وأبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجة (٣٩٥٨).

(٨) عزوه لمسلم من هذا الطريق ليس بصواب، والذي عند مسلم من حديث أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«كَيْفَ أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة على وقتها، أو يميتون الصلاة عن وقتها؟»**.

(٩) في (ز): الشعث. (١٠) في (ز): الشعث.

(١١) في (ز): فلأقولن. (١٢) عزاه لابن مردويه، ورجاله ثقات.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: يعني ذلك أني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي. وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشىٰ أن يكون غلطًا؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. يعني: ما رواه سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾ قال: [بقتلك إياي، ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ قال:][(١)] بما كان منك قبل ذلك.

وكذا روىٰ عيسىٰ [عن][(٢)] ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، مثْله، وروىٰ شِبْل عن ابن أبي [نَجِيح،][(٣)] عن مجاهد: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ يقول: إني أريد أن يكون عليك خَطِيئَتِي ودَمِي، فتبوءَ بهما جميعًا.

قلت: وقد يتوهم كثيرٌ من النَّاس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثًا لا أصل له: ما ترك القاتِل علىٰ المقتول مِن ذنبٍ[(٤)].

وقد روىٰ الحافظ أبو بكر البَزَّار[(٥)] حديثًا يشبه هذا، ولكن ليس به، فقال: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا عامر بن إبراهيم الأَصْبَهاني، حدَّثنا يعقوب بن عبد الله، حدَّثنا عتبة بن سعيد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**قَتْلُ الصَّبْرِ لا يَمُرُّ بِذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ**»[(٦)].

وهذا بهذا لا يَصِحُّ، ولو صَحَّ فمعناه: أنَّ الله يكفِّر عن المقتول بألَم القتل ذنوبَهُ، فأمَّا أن تُحمَل علىٰ القاتل فلا. ولكن قد يَتَّفِق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإنَّ المقتول يطالب القاتِل في العَرَصات، فيؤخذ له مِن حسناته بقدر مَظْلِمَتِهِ، فإن نَفِدَت[(٧)] ولم يستوفِ حقَّه أُخِذ مِن سيِّئات المقتول فطُرِحَت علىٰ القاتل، فرُبَّما لا يبقىٰ علىٰ المقتول خطيئة إلا وُضِعت علىٰ القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها[(٨)]، والقتل من أعظمها وأشدها، والله أعلم.

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) قال العَجْلُوني في «كشف الخَفاء»: (قال الحافظ في «اللآلئ»: هو حديث لا يُعْرف أصلًا ولا بإسناد ضعيف، ومعناه صحيح. وقال ابن كثير في «تاريخه»: لا نعرف له أصلًا بهذا اللفظ، ومعناه صحيح كما أخرجه ابن حبان عن ابن عمر: «إن السيف مَحَّاءٌ للذنوب»، وللعُقَيْلي عن أنس رَفَعَه: «لا يمر السيف بذنب إلا محاه...» إلخ. وقال الشيخ الألباني: لا أصل له، انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٨٧).

(٥) لوحة (٢٧٨ ب).

(٦) حسن: رواه البزار (١٥٤٥ - كشف)، ورواه ابن أبي عاصم في «الديات» (٤٠)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين» (٤٦٤)، وأبو نُعَيم في «أخبار أصبهان» (١٥٣٩)، والمقري في «معجمه» (٢٧٣)، والحديث حسنه الألباني. انظر: «صحيح الجامع» (٤٢٢٦).

(٧) في (ز): فقدت، وفي بعض النسخ: نفذت. (٨) رواه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨).

وأما ابن جرير فقال: والصواب مِن القول في ذلك أن يقال: إن تأويله: إنِّي أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي -وذلك هو معنىٰ قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾ [وأما معنىٰ](١) ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ فهو إثمه بغير(٢) قتله، وذلك معصية الله ﷻ في أعمال سواه.

وإنما قلنا: ذلك هو الصواب؛ لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله ﷻ أخبرنا أنَّ كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه في خلقه، فغير جائزٍ أن تكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتلُ، وإنَّما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرَّم، وسائر آثام معاصِيهِ الَّتِي ارتكبها بنَفْسِه دون ما رَكِبَه قَتِيلُه. هذا لفظه.

ثم أورد سؤالًا حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون علىٰ أخيه قابيل إِثْمُ قتله، وإثم نفسه، مع أن قتله له محرَّمٌ؟ وأجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه بأنَّه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يَكُفُّ يده عنه، طالبًا -إنْ وقع قتل- أن يكون مِن أخيه لا مِنْهُ.

قلتُ: وهذا الكلام متضمِّنٌ موعظةً له لو اتَّعظ، وزجرًا له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ [أي: تتحمَّل إثمي وإثمك](٣) ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ابن عبَّاس: خَوَّفَه النار فلم يَنْتَهِ ولم يَنْزَجِرْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: فحسَّنت وسوَّلت له نفسه، وشجَّعَتْه علىٰ قتل أخيه فقتله؛ أي: بعد(٤) هذه الموعظة وهذا الزَّجر.

وقد تقدَّم في الرواية عن أبي جعفر الباقر، وهو محمَّد بن علي بن الحسين: أنَّه قتله بحديدةٍ في يده(٥).

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس -وعن مُرَّةَ، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فطلبه ليَقْتُلَه، فراغ الغلام منه في رءوس الجبال، فأتاه يومًا من الأيام وهو يرعىٰ غنمًا له، وهو نائمٌ فرفع صخرةً، فشَدَخ بها رأسه فمات، فتركه بالعَرَاء. رواه ابن جرير(٦).

وعن بعض أهل الكتاب: أنَّه قتله خنقًا وعضًّا، كما تَقْتُل السباع، وقال ابن جرير(٧) لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابَّةً ووضع رأسها علىٰ حجرٍ، ثم أخذ حجرًا آخر فضرب به رأسها حتىٰ قَتَلَهَا، وابن آدم يَنْظُر، ففعل بأخيه مثل ذلك(٨). رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبد الله بن وَهْب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقتله،

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): يعني.
(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٧٩ أ).
(٥) **عزاه المصنف لابن أبي حاتم، وقد تقدم قريبًا، وإسناده مرسل، وفيه القاسم بن عبد الرحمن: ضعيف.**
(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٩٥)، ورجاله ثقات، إلا أن أسباطًا قال: «فيما ذُكِرَ» يعني: أنه لم يصل الإسناد فهو منقطع: ضعيف.
(٧) في (ز): ابن جريج. (٨) **قال ابن باز رحمه الله: هذه إسرائيليات.**

فاضطجع له، وجعل يَغْمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يَقْتُلُه، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخُذْ هذه الصَّخرة فاطْرَحْها علىٰ رأسه. قال: فأخذها، فألقاها عليه، فشَدَخ رأسه. ثم جاء إبليس إلىٰ حوَّاء مسرعًا، فقال: يا حوَّاء، إنَّ قابيل قتل هابيل. فقالت له: ويحك. أيُّ شيءٍ يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرَّك. قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت. فجعلت تصيح حتىٰ دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: ما لكِ؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين، فلم تكلمه. فقال: عليك الصَّيحة وعلىٰ بناتك، وأنا وبَنِيَّ منها براء. رواه ابن أبي حاتم[١].

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأيُّ خسارةٍ أعظم من هذه؟ وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية ووَكِيع قالا: حدَّثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**»[٢].

وقد أخرجه الجماعة سوىٰ أبي داود من طرق، عن الأعمش به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني حجَّاج قال: قال ابن جُرَيْج[٣]: قال مجاهد: عُلِّقت إحدىٰ رِجْلَي القاتل بساقها إلىٰ فَخِذها من يومئذٍ [إلىٰ يوم القيامة،][٤] ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرةٌ من نارٍ، وعليه في الشتاء حظيرةٌ من ثلج -قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنَّا لنجدُ ابنَ آدم القاتلَ يقاسم أهل النار قسمةً صحيحة العذابَ، عليه شَطْرُ عذابهم[٥].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حُمَيْد، حدَّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، أنه حدَّث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إنَّ أشقىٰ أهل النَّار رجلًا ابنُ آدمَ الَّذي قتل أخاه، ما سُفِكَ دمٌ في الأرض منذ قَتَل أخاه إلىٰ يوم القيامة، إلا لَحِقَ به منه شرٌّ، وذلك أنَّه أول مَن سَنَّ القتل[٦].

وقال إبراهيم النَّخَعي: ما من مَقْتُولٍ يقتل ظلمًا، إلا كان علىٰ ابنِ آدمَ الأولِ والشيطانِ كِفْل منه. رواه ابن جرير أيضًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ قال السُّدِّي بإسناده المتقدم إلىٰ الصحابة: لما مات الغلام تركه بالعَرَاء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غُرابَيْنِ أخوين،

---

(١) ضعيف: عزاه لابن أبي حاتم، ورواه الطبري (٦/ ١٩٤) والإسناد مرسل، ولم أقف عليه في «تفسيره».

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٨٣). ورواه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧)، والنسائي، وابن ماجة (٢٦١٦).

(٣) لوحة (٢٧٩ ب). (٤) سقط من (ز).

(٥) رواه الطبري (٦/ ١٩٤) وإسناده مرسل، وفيه ابن جريج: مدلس وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، وأما إسناده إلىٰ عبد الله بن عمرو فكذلك ضعيف؛ لتدليس ابن جريج.

(٦) رواه الطبري (٦/ ١٩٤)، وفيه ابن إسحاق: مدلس وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، ثم إن الخبر من الإسرائيليات.

فاقتتلا فقتل أحدهما صاحِبَه، فحفر لَه ثمَّ حثىٰ عليه. فلما رآه قال: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: جاء غُرابٌ إلىٰ غراب ميِّتٍ، فبَحَث عليه من التراب حتىٰ وَاراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾(٢).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: مكث يحمل أخاه في جِرَابٍ علىٰ عَاتِقِهِ سَنَةً، حتىٰ بعث الله الغُرابين، فرآهما يبحثان، فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [فدفن أخاه(٣)].

وقال لَيْثُ بن أبي سُلَيْم، عن مجاهدٍ: وكان يحمله علىٰ عاتقه مِائَةَ سَنَةٍ ميتًا، لا يدري ما يصنع به، يحمله ويضعه إلىٰ الأرض، حتىٰ رأىٰ الغراب يَدْفِنُ الغراب، فقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ](٤)فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال عطية العَوْفي: لما قتله نَدِمَ. فضَمَّه إليه حتىٰ أروح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متىٰ يَرْمِي به فتأكله. رواه ابن جرير.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن بعضِ أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سُقِط في يديه، ولم يدرِ كيف يواريه. وذلك أنَّه كان -فيما يزعمون- أوَّلَ قتيل في بني آدم وأول مَيِّتٍ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ(٥) قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال: وزعم أهل التَّوراة أنَّ قينًا(٦) لما قتل أخاه هابيل، قال له الله عَجَّلَ: يا قين، أين أخوك هابيل؟ قال: قال: ما أَدْرِي، ما كنت عليه رقيبًا. فقال الله: إِن صَوْت دم أخيك لَيُنادِيني من الأرض، والآن أنت ملعونٌ من الأرض التي فَتَحَتْ فَاهَا فبلعت(٧) دَمَ أخيكَ مِن يدك، فإن أنت عَمِلْت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتىٰ تكون فَزِعًا تائهًا في الأرض(٨).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾(٩) قال الحسن البصري: علاه الله بندامةٍ بعد خسرانٍ.

فهذه أقوال المفسِّرين في هذه القصة، وكلُّهُم مُتَّفِقُون علىٰ أنَّ هذين ابنا آدم لصُلْبه، كما هو ظاهر

---

(١) هذا الإسناد عن ابن مسعود عن ابن عبَّاس، تقدم قول ابن كثير فيه أنه يقع فيه إسرائيليات كثيرة انظر: (سورة البقرة ٣٤)، والخبر رواه الطبري (٦/ ١٩٧).

(٢) منقطع: رواه الطبري (٦/ ١٩٧).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ١٩٧)، وفيه انقطاع بين الضَّحَّاك وابن عبَّاس، وأيضًا ففي الإسناد سفيان بن وكيع: ضعيف.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) لوحة (٢٨٠ أ).

(٦) قال الشيخ العلامة أحمد شاكر رحمه الله: عند هذا الموطن من «تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٦)»: (في المطبوعة والمخطوطة «قابيل»، وفي «التاريخ» مكان «قابيل» في كل موضع «قين»)، وهما واحد.

(٧) في (ز): فتلقت. وما أثبتناه هو المثبت في «الطبري».

(٨) ضعيف: وهو من الإسرائيليات. رواه الطبري (٦/ ١٩٨).

(٩) قال القاسِمي رحمه الله: في الآية دلالةٌ علىٰ أن الندم، إذا لم يكن لقُبْح المعصية، لم يكن توبةً. قال الرازي: نَدِم علىٰ قساوة قلبه وكونه دون الغراب في الرحمة. فكان ندمه لذلك، لا لأجل الخوف من الله تعالىٰ، فلا جَرَمَ لم ينفعه ذلك الندم.

القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: «إِلَّا كَانَ عَلَىٰ [ابْنِ آدَمَ][١] الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[٢]. وهذا ظاهرٌ جليٌّ، ولكن قال ابن جرير:

حدَّثنا [ابن][٣] وَكِيع، حدَّثنا سَهْل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن -هو البصري- قال: كان الرَّجلان اللَّذان في القرآن، اللَّذان قال الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ مِن بني إسرائِيلَ، ولم يكونا ابْنَيْ آدمَ لِصُلْبِه، وإنما كان القُربان في بني إسرائيل، وكان آدم أوَّلَ من مات. وهذا غريبٌ جدًّا، وفي إسناده نظر.

وقد قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ابْنَيْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ضُرِبَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ[٤] مَثَلًا فَخُذُوا بِالخَيْرِ مِنْهُمَا»[٥].

ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ضَرَبَ لَكُمُ ابْنَيْ آدمَ مَثَلًا، فَخُذُوا مِنْ خَيْرِهِمْ وَدَعُوا الشَّرَّ»[٦].

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المُزَني، روىٰ ذلك كله ابن جرير.

وقال سالم بن أبي الجَعْد: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائةَ سنةٍ حزينًا لا يضحك، ثم أُتِيَ فقيل له: حيَّاكَ الله وبيَّاك؛ أي: أضحكك[٧].

رواه ابن جرير، ثم قال: حدَّثنا ابن حُمَيْد، حدَّثنا سلمة، عن غِياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمْداني قال: قال علي بن أبي طالب: لما قَتَلَ ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تَغَيَّرَتِ البِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَلَوْنُ الأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ الوَجْهِ المَلِيحِ

فأجيب آدم عليه السلام:

أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلَا جَمِيعًا ... وَصَارَ الحَيُّ كَالمَيْتِ الذَّبِيحِ[٨]
وَجَاءَ بِشِرَّةٍ قَدْ كَانَ مِنْهَا ... عَلَىٰ خَوْفٍ فَجَاءَ بِهَا يَصِيحُ[٩]

والظَّاهر أنَّ قابيل عُوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد[١٠] بن جَبْر أنَّه عُلِّقَت ساقه بفَخِذِه يوم قتله،

---

(١) سقط من (ز). (٢) البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧)، والنسائي، وابن ماجة (٢٦١٦).

(٣) سقط من (ز). (٤) في (ز): الآية.

(٥) مرسل: لأن الحسن البصري لم يُسْنِدْه عن أحد من الصحابة. رواه الطبري (٦/ ١٩٩).

(٦) انظر التعليق السابق.

(٧) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ١٩٠)، وفيه حسام بن محك. قال الحافظ: ضعيف يكاد أن يترك، والإسناد أيضًا مرسل.

(٨) لوحة (٢٨٠ ب).

(٩) موضوع: رواه الطبري (٦/ ١٩١)، وفيه عيان بن إبراهيم. قال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات.

(١٠) في (ز): (ابن مجاهد)، وهو خطأ.

وجعل الله وجهه إلىٰ الشَّمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلًا به(١). وقد ورد في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ، مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(٢). وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدوانًا: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: شرَّعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: ومن قتَل [نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض(٣)، واستحلَّ قتلها بلا سببٍ ولا جنايةٍ، فكأنَّما قتل](٤) النَّاس جميعًا؛ لأنَّه لا فرق عنده بين نفسٍ ونفسٍ(٥)، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرَّم قتلها واعتقد ذلك، فقد سَلِمَ النَّاسُ كلُّهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وقال الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: دخلتُ علىٰ عثمان يوم الدار فقلت: جئتُ لأنصُركَ وقد طاب الضَّرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيَسُرُّك(٦) أن تَقتُلَ النَّاس جميعًا وإيَّاي معهم؟ قلت: لا. قال فإنَّك إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنَّما قتَلْتَ النَّاس جميعًا، فانْصَرِفْ مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزورٍ. قال: فانصرفتُ ولم أُقاتِلْ(٧).

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٣٥١٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢/ ٥٥٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجة (٤٢١١)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: ومن الإفساد في الأرض السطو علىٰ البيوت الآمنة وقتل أهلها أو السرقة منها، أو ما أشبه ذلك مما يكون فيه اجتماعات وفِرَق تؤذي الناس بخلاف السارق الواحد، هذا له حكم خاص لكن هؤلاء الذي يخربون ويكونون فئات وجماعات يروع سطوهم علىٰ الناس في البنيان أو في الصحراء.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) قال السعدي رحمه الله: لأنه ليس معه داعٍ يدعوه إلىٰ التبيين، وأنه لا يُقدِمُ علىٰ القتل إلا بحقٍّ، فلما تجرأ علىٰ قتل النفس التي لم تستحق القتل علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمَّارة بالسوء. فتجرُّؤه علىٰ قتله كأنه قتل الناس جميعًا.

(٦) في (ز): أبشرك. (٧) صحيح: رواه ابن سعد (٣/ ٥١)، ورجاله ثقات.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هو كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وإحياؤها: ألَّا يقتل نفسًا حَرَّمها الله، فذلك الذي أحيا النَّاس جميعًا؛ يعني: أنَّه من حَرَّم قتلها [إلَّا][(١)] بحقٍّ، حَيِي النَّاس منه [جميعًا][(٢)].

وهكذا قال مجاهد[(٣)]: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: كَفَّ عَن قتلها.

وقال العَوْفِيُّ عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: مَن قتل نفسًا واحدةً حرمها الله، فهو مثل من قتل الناس جميعًا. وقال سعيد بن جبير: من استحلَّ دمَ مُسْلِمٍ فكأنَّما استحلَّ دماء النَّاس جميعًا، ومَن حرَّم دم مسلمٍ فكأنَّما حرَّم دماء النَّاس جميعًا.

هذا قولٌ وهو الأظهر، وقال عِكْرمة والعوفي، عن ابن عبَّاس [في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول][(٤)] مَن قتل نبيًّا أو إمامَ عَدْلٍ، فكأنَّما قتل النَّاس جميعًا؛ ومن شَدَّ علىٰ عَضد نبيٍّ أو إمام عَدل، فكأنَّما أحيا الناس جميعًا. رواه ابن جرير.

وقال مجاهد في رواية أخرىٰ عنه: مَن قتل نفسًا بغير نفسٍ فكأنَّما قتل النَّاس جميعًا؛ وذلك لأنَّه مَن قتل النَّفس فله النَّار، فهو كما لو قتل النَّاس كُلَّهُم.

وقال ابن جُرَيْج، عن الأعرج، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ من قتل النفس المؤمنة متعمدًا، جعل الله جزاءه جهنَّم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا، يقول: لو قَتَلَ النَّاس جميعًا لم يزد علىٰ مثل ذلك العذاب.

قال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: مَن لم يَقْتُل أحدًا فقد حَيِيَ النَّاس منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مَن قتَل نفسًا فكأنَّما قتل النَّاس جميعًا؛ يعني: فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: عفا عَن قاتلِ وَلِيِّه، فكأنَّما أَحْيَا النَّاس جميعًا. وحُكِيَ ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير.

وقال مجاهد -في رواية-: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنجاها مِن غَرقٍ أو حَرقٍ أو هَلكةٍ.

وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا تعظيمٌ لتعَاطِي القتل -قال قتادة: عَظُم -واللهِ- وِزْرُها، وعَظُم -واللهِ- أجرها.

وقال ابن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن علي الرِّبْعِي قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إِي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٢٨١ أ).
(٤) ليست في (ز).

وما جعل دماء بني إسرائيل أكْرَم على الله من دمائنا؟

وقال الحسن البصري: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: وزرًا. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال: أجرًا.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا [حسن، حدَّثنا][١] ابن لهيعة، حدَّثنا حُيَي[٢] بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلىٰ رسول الله ﷺ[٣] فقال: يا رسول الله، اجعلني علىٰ شيءٍ أَعِيشُ به. فقال رسول الله ﷺ: «**يَا حَمْزَةُ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُمِيتُهَا؟**» قال: بل نفسٌ أُحْيِيها: قال: «**عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**»[٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجَج والبراهين والدَّلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وهذا تقريعٌ لهم، وتوبيخٌ علىٰ ارتكابهم المحارم بعد عِلْمِهِم بها، كما كانت بنو قُرَيْظَة والنَّضير وغيرهم من بني قَيْنُقاع ممَّن حول المدينة من اليهود، الَّذين كانوا يُقَاتِلُون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارَهَا فَدَوْا من أَسَرُوهُ، ووَدَوْا مَن قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة، حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة علىٰ الكفر، وعلىٰ قطع الطريق وإخافة السَّبيل، وكذا الإفساد في الأرض يُطْلَق علىٰ أنواعٍ منَ الشَّرِّ، حتىٰ قال كثير من السَّلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدَّراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما قال ابن جرير:

حدَّثنا ابن حُمَيْد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح، حدَّثنا الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عِكْرِمَة والحسن البصري قالا: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلىٰ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) ما بين المعقوفتين ليست في (ز). (٢) في (ز): يحيىٰ. وهو خطأ، والمثبت موافق «للمسند».

(٣) لوحة (٢٨١ ب). (٤) ضعيف: رواه أحمد (٢/ ١٧٥)، وفيه ابن لهيعة: وهو قد اختلط.

رَّحِيمٌ ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمَن تاب منهم مِن قبل أن تَقْدِرُوا عليه، لم يكن عليه سبيل، ولَيْسَت تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحَدِّ، إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله، ثم لَحِقَ بالكفَّار قبل أن يُقْدَرَ عليه، لم[١] يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب.

ورواه أبو داود والنسائي، من طريق عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ نزلت في المشركين، فمَن تاب منهم قبل أن يُقْدَرَ عليه لم يمنعه ذلك أن يُقَام فيه الحد الذي أصابه[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ قال: كان قومٌ مِن أهل الكتاب، بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ عهدٌ وميثاقٌ، فنَقَضُوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخيَّر الله رسوله: إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير[٣].

وروىٰ شعبة، عن منصور، عن هلال بن يَسَاف، عن مُصْعَب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت في الحَرُورية[٤]: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ رواه ابن مردويه[٥].

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممَّن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قِلابة -واسمه عبد الله بن زيد الجَرْمي البصري- عن أنس بن مالك: أنَّ نفرًا من عُكَل ثمانية، قَدِمُوا علىٰ رسول الله ﷺ [فبايعوه علىٰ الإسلام، فاستوخموا الأرْض[٦] وسَقَمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ][٧] فقال: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا؟»[٨] فقالوا: بلىٰ. فخرجوا، فشربوا من أبوالها وألبانها، فَصَحُّوا فقتلوا الراعي وطَرَدُوا الإبل[٩]. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم، فأُدْرِكُوا، فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرت[١٠] أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتىٰ ماتوا[١١].

لفظ مسلم. وفي لفظ لهما: «مِنْ عُكَلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ»، وفي لفظ: «وَأُلْقُوا فِي الحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ

---

(١) لوحة (٢٨٢ أ).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (٤٣٧٢)، والنسائي (٧/ ١٠١)، وحسنه الألباني.

(٣) **ضعيف**: رواه ابن جرير (٦/ ٢٠٦)، وإسناده منقطع؛ فعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عبَّاس.

(٤) **الحرورية**: هم الخوارج، وتقدم التعريف بهم في سورة البقرة.

(٥) عزاه لابن مردويه، وإسناده صحيح.

(٦) أي: استثقلوا أرض المدينة فلم يوافق هواؤها أبدانهم.

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٨) ومن فوائد الحديث: مشروعية الطب والتداوىٰ بألبان الإبل وأبوالها. «فتح الباري»: (١/ ٣٤١).

(٩) أي: أخرجوها واستاقوها.

(١٠) **السمر والسمل**: فقء العين بأي شئ كان.

(١١) البخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١)، ورواه أبو داود (٤٣٦٧)، والترمذي (٧٢) (١٨٤٥)، ورواه كذلك النسائي.

تنبيه: أورد ابن كثير الحديث بألفاظ كثيرة وروايات مختلفة، وقد اكتفيت بذكر هذه الرواية فقط، والباقي لا يخرج عن معناها.

فَلَا يُسْقَوْنَ». وفي لفظٍ لمسلم: «وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ»(١). وعند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحَارَبُوا الله ورسوله. ورواه مسلم من طريق هُشَيْم، عن عبد العزيز بن صُهَيب وحميد، عن أنس، فذكر نحوه، وعنده: «فَارْتَدُّوا». وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس بنحوه. وقال سعيد عن قتادة: «مِنْ عُكَلٍ وَعُرَيْنَةَ». ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النَّبيُّ ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاء. ورواه مسلم، من حديث معاوية بن قرة عن أنس قال: أتىٰ رسول الله ﷺ(٢) نفرٌ من عُرينة، فأسلموا وبايعوه، وقد وقع بالمدينة المُومُ - وهو البِرْسام(٣)- ثم ذكر نحو حديثهم، وزاد: وعنده شبابٌ من الأنصار، قريبٌ من عشرين فارسًا فأرسلهم، وبعث معهم قائفًا يَقْتَصُّ(٤) أثرهم. وهذه كلها ألفاظ مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال حمَّاد بن سلمة: حدَّثنا قتادة وثابت البناني وحُمَيْد الطويل، عن أنس بن مالك: أن ناسًا من عُرينة قدموا المدينة، فاجْتَوَوْها، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصَّدقة، وأمرهم أن يشربوا من أَبْوَالِهَا [وألبانها](٥) ففعلوا، فصَحُّوا فارْتَدُّوا عن الإسلام، وقتلوا الرَّاعي، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فجِيءَ بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَرَ أعينهم وألقاهم في الحَرَّة. قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يَكْدِمُ الأرض بِفِيهِ عطشًا حتىٰ ماتوا، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية(٦).

وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه -وهذا لفظه- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة، عن أنس بن مالك، منها ما رواه من طريقين، عن سلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: ما ندمتُ علىٰ حديث ما ندمت علىٰ حديث سألني عنه الحجَّاج، قال: أَخْبِرْني عن أشدِّ عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ ؟ قال: قلت: قَدم علىٰ رسول الله ﷺ قومٌ من عُرَيْنة، من البحرين، فشَكَوْا إلىٰ رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم، وقد اصْفَرَّت ألوانهم، وضَخُمت بطونهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبلَ الصدقة، فيَشْرَبُوا مِن أبوالها وألبانها، حتَّىٰ إذا رجعت إليهم ألوانهم وانْخَمَصَت بطونهم عَدَوْا علىٰ الرَّاعي فقتلوه، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثَارِهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَر أعينهم، ثم ألقاهُم في الرَّمْضَاء حتىٰ ماتوا.

---

(١) **الحسم**: الكي لمنع سيلان الدم، ومن الحسم وضع اليد بعد القطع في زيتٍ حارٍّ.

(٢) لوحة (٢٨٢ ب).

(٣) **المُوْم وهو البِرسام**: سرياني معرب، أطلق علىٰ اختلال العقل، وعلىٰ ورم الرأس، وعلىٰ ورم الصدر، والمراد هنا: الأخير. «فتح الباري»: (١/ ٣٣٨).
وفي «النهاية»: الموم هو البرسام مع الحمىٰ، وقيل: بثر أصغر من الجدري.

(٤) في (ز): يقص، وفي بعض النسخ: يقفو، والصواب ما أثبتناه موافقًا لـ«صحيح مسلم».

(٥) سقط من (ز).

(٦) **صحيح**: انظر التعليق السابق.

فكان الحَجَّاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أَيْدِي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرَّمضاء حتىٰ ماتوا لِحال ذَوْدٍ [من الإبل][١] فكان [الحجَّاج][٢] يحتج بهذا الحديث علىٰ النَّاس[٣].

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا الوليد -يعني ابن مسلم- حدَّثني سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: كانوا أربعة نفرٍ مِن عُرَيْنَةَ، وثلاثة نفر من عكل، فلما أتي بهم قَطَعَ أيديَهم[٤] وأرجلَهم، وسَمَلَ أعينَهم[٥]، ولم يَحْسِمْهم، وتركهم يتلقَّمون[٦] الحجارة بالحَرَّة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن حرب الموصلي، حدَّثنا أبو مسعود -يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج- حدَّثنا أبو سعد -يعني البقال- عن أنس بن مالك قال: كان رهطٌ من عُرَينة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جَهْد، مُصْفَرَّةٌ ألوانهم، عظيمةٌ بطونهم، فأمرهم أَن يلحقوا بالإبل فيَشْرَبوا مِن أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصَفَت ألوانهم وخَمَصَت بطونهم، وسَمِنُوا، فقتلوا الرَّاعي واستاقوا الإبل، فبعث النَّبيُّ ﷺ في طَلَبِهم، فأُتِيَ بهم، فقتل بعضهم، وسَمَرَ أعين بعضهم[٨]، وقطَع أيدي بعضهم وأرجلهم[٩]، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلىٰ آخر الآية[١٠].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، أنَّ عبد الملك بن مروان كتب إلىٰ أنسٍ يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يُخْبِرُه أنَّ هذه الآية نزلت في أولئك النَّفَر العُرَنِيِّين، وهم من بَجِيلة، قال أنس: فارتدُّوا عن الإسلام، وقتلوا الرَّاعي، واستاقوا الإبل، وأخَافُوا السَّبِيل، وأصابوا الفَرْج الحَرَام[١١].

وقال: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي الزناد، عن عبد الله بن عبيد الله، [عن عبد الله][١٢] بن عمر -أو: عمرو، شك يونس- عن

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف من هذا الطريق من أجل سلام بن أبي الصهباء: فإنه ضعيف، لكن أصل الحديث بدون قصة الحجاج صحيحة كما تقدم.

(٤) لوحة (٢٨٣ أ).

(٥) سَمَلَ أعينَهم: فَقَأَهَا، «القاموس المحيط» (ص٨٤٦) مادة: (سَمَلَ).

(٦) أي: يضعون الحجارة في أفواههم من العطش، كي تستدر الريق.

(٧) رواه الطبري (٦/ ٢٠٨).

(٨) سَمَرَ العين: سَمَلَهَا أو فَقَأَهَا، «القاموس المحيط» (ص٨٤٢) مادة (سَمَرَ).

(٩) قال ابن باز رحمه الله: الصحيح أنه فعل ذلك بالجميع. قلت: وهوظاهر حديث أنس المتفق عليه.

(١٠) ضعيف من هذا الطريق، عزاه لابن أبي حاتم ولم أجده في «تفسيره»، فيه أبو سعد البقال: ضعيف مدلس، ولكن أصل الحديث صحيح كما تقدم.

(١١) ضعيف من هذا الطريق: رواه الطبري (٦/ ٢٠٨)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(١٢) سقط من (ز)، وما أثبتناه موافق «للطبري».

رسول الله ﷺ بذلك -يعني بقصة العُرَنيين- ونزلت فيهم آية المحاربة[١]. ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد، وفيه: «عن ابن عمر» من غير شك.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن خَلَف، حدَّثنا الحسن بن حماد، عن عمرو بن هاشم، عن موسىٰ ابن عبيدة، عن محمَّد بن إبراهيم، عن جرير قال: قدم علىٰ رسول الله ﷺ قومٌ من عُرَيْنَة حُفَاةً مضرورين، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فلما صَحُّوا واشْتَدُّوا قتلوا رعَاء اللِّقَاح، [ثم خرجوا باللِّقاح][٢] عامدين بها إلىٰ أرض قومهم، قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ في نفرٍ من المسلمين حتىٰ أدركناهم بعد مَا أشرفوا علىٰ بلاد قومهم، فقدمنا بهم علىٰ رسول الله ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَل أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء. ورسول الله ﷺ[٣] يقول: «النَّارُ!» حتىٰ هلكوا. قال: وكره الله ﷻ سَمْل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلىٰ آخر الآية[٤].

هذا حديثٌ غريبٌ وفي إسناده الرَّبَذيُّ وهو ضعيف، وفيه فائدة، وهو ذكر أمير هذه السَّرِيَّة، وهو جرير بن عبد الله البجلي، وتقدَّم في «صحيح مسلم» أنَّ السَّرِيَّة كانوا عشرين فارسًا من الأنصار. وأما قوله: «فكَرِهَ الله سَمْلَ الأعين، فأنزل الله هذه الآية» فإنَّه منكرٌ، وقد تقدَّم في «صحيح مسلم» أنهم سَمَلُوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصًا، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق، عن إبراهيم بن محمَّد الأسلمي، عن صالح مولىٰ التوأمة، عن أبي هريرة قال: قدم علىٰ رسول الله ﷺ رجال من بني فَزارة قد ماتوا هزلًا. فأمرهم النَّبيُّ ﷺ إلىٰ لقاحه، فشربوا منها حتىٰ صحوا، ثم عمدوا إلىٰ لقاحه فسرقوها، فطُلِبوا، فأُتي بهم النَّبيُّ ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم، وسَمَر أعينهم. قال أبو هريرة: ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فترك النَّبيُّ ﷺ سَمْر الأعين بعدُ[٥].

ورُوي من وجه آخر عن أبي هريرة.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدَّثنا أحمد بن إسحاق، حدَّثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيّ[٦]، حدَّثنا أبو

---

(١) صحيح: رواه الطبري (٦/ ٢٠٧)، ورواه أبو داود (٤٣٦٩)، والنسائي (٧/ ١٠٠).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو موافق «للطبري».

(٣) لوحة (٢٨٣ ب).

(٤) منكر بهذا السياق: رواه الطبري (٦/ ٢٠٧)، فيه عمرو بن هاشم الجنبي: لين الحديث، وموسىٰ بن عبيدة الربذي: ضعيف، وهذا اللفظ (وكره الله سمل الأعين) لم يصح في رواية أنس، وعبد الله بن عمرو، فهذه لفظة منكرة كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) إسناده ضعيف: وعلته إبراهيم بن محمَّد الأسلمي: ضعيف، ضعفه أحمد ومالك، وقال النسائي: متروك. وقال أيضًا: ليس بثقةٍ ولا يكتب حديثه، وقد وثقه الشافعي وابن الأصبهاني، وقال ابن عدي عن أحاديثه: فلم أجد فيها منكرًا إلا عن شيوخ يحتملون.

قلت: وشيخه صالح مولىٰ التوأمة: صدوق لكنه اختلط، وبعضهم تركه، انظر: «ميزان الاعتدال» (ت١٨٩).

(٦) في (ز): القشيري.

القاسم محمَّد بن الوليد، عن عمرو بن محمَّد المديني، حدَّثنا محمَّد بن طلحة، عن موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي ﷺ غلامٌ يقال له: «يَسار» فنظر إليه يُحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه في لقاح[١] له بالحَرَّة، فكان بها، قال: فأظهر قوم الإسلام من عُرينة، وجاءوا وهم مرضىٰ موعوكون قد عظمت بطونهم، قال: فبعث بهم النَّبيُّ ﷺ إلىٰ «يسار» فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتىٰ انْطَوَت بطونهم، ثم عدوا علىٰ «يسار» فذَبَحُوه، وجعلوا الشَّوك في عينيه، ثم أطردوا الإبل، فبعث النَّبيُّ ﷺ في آثارهم خيلًا من المسلمين، أميرهم كُرْزُ بن جابر الفِهْري، فلحقهم فجاء بهم إليه، فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَلَ أعينهم[٢]. غريبٌ جدًّا.

وقد روىٰ قصة العُرَنِيِّينَ مِن حديث جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنىٰ الحافظ[٣] الجليل أبو بكر بن مردويه بطرق هذا الحديث من وجوه كثيرةٍ جدًّا، فرحمه الله وأثابه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن علي بن الحسن بن شَقِيق، سمعت أبي يقول: سمعت أبا حمزة، عن عبد الكريم -وسُئِلَ عن أبوال الإبل- فقال: حدَّثني سعيد بن جُبير عن المحاربين فقال: كان ناس أَتَوْا رسول الله ﷺ فقالوا: نُبَايِعُكَ علىٰ الإسلام. فبايعوه، وهم كذَبَةٌ، وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: إنا نَجْتَوي[٤] المدينة. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**هَذِه اللِّقَاحُ تَغْدُو عَلَيْكُمْ وَتَرُوحُ، فَاشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا**» قال: فبينا هم كذلك، إذ جاءهم الصريخ[٥]، فصرخ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: قتلوا الرَّاعي، واستاقوا النَّعم. فأمر النَّبيُّ ﷺ فنُودي في الناس أن: «**يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي**»[٦]. قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارسًا، قال: وركب رسول الله ﷺ علىٰ أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتىٰ أدخلوهم مأمنهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النَّبيَّ ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية. قال: فكان نَفْيُهم: أن نفوهم حتىٰ أدخلوهم مأمنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين. وقتل نبي الله ﷺ منهم، وصلب، وقطع، وسَمَر الأعين. قال: فما مَثَّل رسول الله ﷺ قبلُ ولا بعدُ. قال: ونهىٰ عن المُثْلة، قال: «**وَلَا تُمَثِّلُوا بِشَيْءٍ**» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنَّار بعد ما قتلهم.

قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بني سليم، ومنهم عُرينة ناس من بَجيلة[٧].

---

(١) **اللِّقَاح**: جمع لِقْحة، وهي ذوات الألبان من النوق.

(٢) **ضعيف جدًّا**: ورواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٧/ ٦٢٢٣)، في إسناده موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم، قال الحافظ: منكر الحديث.

(٣) لوحة (٢٨٤ أ).

(٤) أي: أصابهم الجوىٰ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها. ويقال: اجتويت البلد: إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة.

(٥) **الصريخ والصارخ**: المستغيث.

(٦) هذا علىٰ حذف المضاف، أراد: يافُرْسانَ خَيْلِ اللّه اركَبي. وهذا من أحسن المجازاتِ وألْطَفِها. «النهاية».

(٧) **مرسل**: رواه ابن جرير (٦/ ٢٠٧).

وقد اختلف الأئمَّة في حكم هؤلاء العُرَنيين: هل هو منسوخ [أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ][١] بهذه الآية، وزعموا أنَّ فيها عتابًا للنَّبيِّ ﷺ كما في قوله تعالىٰ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخٌ بنهي النَّبيِّ ﷺ عن المُثْلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مُطَالَبٌ ببيَان تأخُّر النَّاسخ الَّذي ادَّعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تَنْزل الحدود، قاله محمَّد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإنَّ قصَّتَهُم متأخرةٌ، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم[٢] ما يدل علىٰ تأخرها فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسمل النَّبيُّ ﷺ أعينهم، وإنَّما عزم علىٰ ذلك، حتىٰ نزل القرآن فبيَّن حكم المحاربين. وهذا القول أيضًا فيه نظر؛ فإنه قد تقدَّم في الحديث المُتَّفَقِ عليه أنَّه سمَلَ -وفي رواية: سَمَرَ- أعينهم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا الوليد بن مسلم قال: ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سَمْل النَّبيِّ ﷺ أعينهم، وتَركه حَسْمهم حتىٰ ماتوا، قال: سمعت محمَّد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ معاتبةً في ذلك، وعلَّمه عقوبة مثلهم: من القتل والقَطْع والنَّفْي، ولم يَسْمُل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو -يعني الأوزاعي- فأنكر أن يكون نزلت معاتبة، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممَّن حارب بعدهم، ورفع عنهم السَّمْل.

ثم قد احْتَجَّ بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلىٰ أن [حكم][٣] المحاربة في الأمصار وفي السُّبلَان علىٰ السواء؛ لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل، حتىٰ قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتىٰ يدخله بيتًا فيَقْتُلَهُ، ويأخذ ما معه: إنَّ هذا محاربة، ودَمُهُ إلىٰ السلطان لا إلىٰ ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطُّرقات، فأمَّا في الأمصار فلا؛ لأنَّه يلحقه الغوث إذَا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممَّن يُغيثُه ويُعِينُه. والله أعلم.

وأمَّا قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية: قال [علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية قال][٤] مَن شَهَر السِّلاح في قبَّة الإسلام[٥]، وأخاف السَّبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله[٦].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) لوحة (٢٨٤ ب).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٥) أي: في ظله.
(٦) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢١٤)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم النَّخعي، والضَّحَّاك.
وروىٰ ذلك كله أبو جعفر بن جرير، وحكي مثله عن [مالك بن](١) أنس رَحِمَهُ اللَّهُ. ومستند هذا القول أنَّ ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ(٢) صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله في كفارة الترفه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. وهذه كلها علىٰ التَّخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة علىٰ أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنبأنا إبراهيم -هو ابن أبي يحيىٰ- عن صالح مولىٰ التَّوأمة، عن ابن عبَّاس في قطَّاع الطَّريق: إذا قَتلوا وأخذوا المال قُتِلوا وصُلِبُوا، وإذا قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتِلوا ولم يُصْلَبُوا، وإذا أخذوا المال ولم يَقْتُلُوا قُطِّعت أيديهم وأرجلهم مِن خلاف، وإذا أخافوا السَّبيل ولم يأخذوا مالًا نُفُوا مِن الأرض.

وقد رواه ابن أبي شَيْبَة، عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية، عن ابن عبَّاس، بنحوه، وعن أبي مِجْلَز، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، نحو ذلك، وهكذا قال غير واحدٍ من السَّلف والأئمَّة.

واختلفوا: هل يُصْلَب حيًّا ويُتْرَك حتىٰ يموت بمنعه مِن الطعام والشَّراب، أو بقتله برمحٍ ونحوه، أو يقتل أولًا ثم يُصْلَب تنكيلًا وتشديدًا لغيرهِ من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم يُنْزَل، أو يترك حتىٰ يَسِيلَ صديده؟ في ذلك كله خلافٌ محرَّرٌ في موضعه، وبالله الثِّقة وعليه التكلان.

ويشهد لهذا التَّفصيل الحديثُ الَّذي رواه ابن جرير في «تفسيره» -إن صحَّ سنده- فقال:

حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا الوليد بن مسلم، عن [ابن لهيعة، عن](٣) يزيد بن أبي حبيب؛ أن عبد الملك بن مروان كتب إلىٰ أنس [بن مالك](٤) يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره: أن هذه الآية نزلت في أولئك النَّفر العُرَنِيِّين -وهم من بَجِيلة- قال أنس: فارْتَدُّوا عن الإسلام، وقتلوا الرَّاعي، واستاقوا الإبلَ، وأخافوا السَّبِيل، وأصابوا الفَرْج الحَرَام. قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن القضاء فيمَن حارب، فقال: مَن سرق وأخاف السبيل [فَاقْطَع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله، ومن قتل وأخاف السَّبِيل](٥) واستحَلَّ الفرج الحرام فاصلبه(٦).

وأما قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يُطْلَبَ حتىٰ يُقْدَرَ عليه، فيقام

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٨٥ أ).
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).
(٦) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ٢٠٨)، وفيه ابن لهيعة: مختلط، والوليد بن مسلم: مدلس تدليس تسوية.

عليه الحد، أو يَهْرُب مِن دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عبَّاس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضَّحَّاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث(١) بن سعد، ومالك بن أنس.

وقال آخرون: هو أن يُنْفَىٰ من بلده إلىٰ بلد آخر، أو يُخْرِجَه السُّلطان أو نائبه مِن معاملته بالكليَّة، وقال الشعبي: يَنْفِيهِ [-كما قال](٢) ابن هبيرة- مِن عملِهِ كُلِّه. وقال عطاء الخراساني: ينفىٰ من جُنْدٍ إلىٰ جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام.

[وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيان: إنه يُنْفَىٰ ولا يخرج مِن أرض الإسلام](٣).

وقال آخرون: المراد بالنَّفي هاهنا السَّجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي هاهنا: أن يخرج مِن بلدِهِ إلىٰ بلدٍ آخر فيُسْجَنَ فيه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هذا الذي ذكرته مِن قتلِهِم، ومن صَلْبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم مِن خلاف، ونَفْيِهِم -خزيٌ لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادَّخر الله لهم مِن العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيَّد به مَن ذهب إلىٰ أن هذه الآية نزلت في المشركين، فأمَّا أهل الإسلام فقد ثبت في «الصحيح» عند مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ علىٰ النِّساء: ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا يَعْضَه(٤) بعضنا بعضًا، «**فَمَنْ وَفَّىٰ مِنكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»(٥).

وعن علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا، [فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا](٦) فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ**»(٧).

رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وقال الترمذي: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روي مرفوعًا وموقوفًا، قال: ورفعه صحيح.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: شَرٌّ وعَارٌ ونَكَالٌ(٨) وذِلَّةٌ وعقوبةٌ

---

(١) لوحة (٢٨٥ ب).
(٢) سقط من (ز).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) أي: لا يرميه بالعضيهة، وهي البهتان والكذب.
(٥) مسلم (١٧٠٩)، وابن ماجة (٢٦٠٣).
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٧) رواه الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجة (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٩٩)، والحاكم (٢/ ٤٤٥) وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وصححه الدارقطني في «العلل».
وضعفه الشيخ الألباني وهو الذي يترجح عندي الآن، فإن أبا إسحاق: مدلس وقد عنعن، وقد اختلف فيه عنه -يعني اضطرب في روايته- رفعًا ووقفًا، وزيادةً ونقصًا في الإسناد، والله أعلم.
(٨) في (ز): وفكاكًا.

في عاجل الدُّنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فِعْلِهِمْ ذلك حتىٰ هلكوا -في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها- ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: عذاب جهنم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أمَّا علىٰ قول مَن قال: هي في أهل الشِّرك فظاهر، وأمَّا المحاربون المسلمون فإذَا تابوا قبل القُدْرَةِ عليهم، فإنَّه يسقط عنهم انْحِتَام القتل والصَّلب وقطع الرِّجل، وهل يسقط قطع اليَدِ أم لا؟ فيه قولان للعلماء.

وظاهر الآية يَقْتَضِي(1) سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدَّثنا أبو أسامة، عن مجالد(2) عن الشَّعبي قال: كان حارثة(3) بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أَفْسَد في الأرض وحارَب، فكلَّم رجالًا من قريش منهم: الحسن بن علي، وابن عبَّاس، وعبد الله بن جعفر، فكلَّموا عليًّا، فلم يُؤَمِّنْه. فأتىٰ سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتىٰ عليًّا فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت مَن حارب الله ورسوله وسعىٰ في الأرض فسادًا، فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أمانًا. قال سعيد بن قيس: فإنَّه حارثة(4) بن بدر(5).

وكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن مجالد(6) عن الشعبي به. وزاد: فقال حارثة بن بدر:

أَلا أَبْلِغَنْ هَمْدَانَ إِمَّا لَقِيتَهَا ... عَلَىٰ النَّأْيِ لا يَسْلَمْ عَدُوٌّ يَعِيبُهَا
لَعَمْرُ أَبِيهَا إِنَّ هَمْدَانَ تَتَّقِي الـ ... إِلَـهَ وَيَقْضِي بِالكِتَابِ خَطِيبُهَا

وروىٰ ابن جرير من طريق سفيان الثوري، عن السُّدِّي-ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبي قال: جاء رجلٌ من مُراد إلىٰ أبي موسىٰ، وهو علىٰ الكوفة في إمارة عثمان ﷺ بعدما صلَّىٰ المكتوبة فقال: يا أبا موسىٰ، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإنِّي كنت حارَبْتُ الله ورسوله وسَعَيْتُ في الأرض فسادًا، وإنِّي تُبْتُ مِن قبل أن يُقْدَر عليَّ. فقام أبو موسىٰ فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنَّه كان حارب الله ورسوله، وسعىٰ في الأرض فسادًا، وإنَّه تاب مِن قبل أن يُقْدَرَ عليه، فمَن لَقِيَهُ فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقًا فسبيل من صدق، وإن يك كاذبًا تدركه ذنوبه، فأقام الرَّجل ما شاء الله، ثم إنَّه خرج فأدركه الله تعالىٰ بذُنُوبه فقتله(7).

---

(1) لوحة (٢٨٦ أ).
(2) في بعض النسخ: مجاهد. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(3) في (ز): جارية. والصواب ما أثبتناه.
(4) في (ز): (جارية).
(5) رواه الطبري (٦/ ٢٢١)، ورجاله ثقات، لكن في المطبوع من الطبري (مجالد) بدلًا من (مجاهد)، فإن كان كذلك مجالد: ليس بالقوي، كما قال الدارقطني [مجالد هو الصواب].
(6) في بعض النسخ: مجاهد. وهو خطأ.
(7) الطبري (٦/ ٢٢٢)، وفي كلا الطريقين ضعف، لكن يقوي بعضها بعضًا.

ثم قال ابن جرير: حدَّثني علي، حدَّثنا الوليد بن مسلم قال: قال الليث، وكذلك حدَّثني موسىٰ بن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا: أنَّ عليًّا الأسدي حارب وأخاف السَّبيل وأصاب الدَّم والمال، فطلبه الأئمَّة والعامَّة، فامتنع ولم يُقْدَر عليه، حتىٰ جاء تائبًا، وذلك أنَّه سَمِعَ رجلًا يقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أَعِد قِرَاءَتَها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائبًا. حتىٰ قدم[1] المدينة من السَّحر، فاغتسل، ثم أتىٰ مسجد رسول الله ﷺ فصلَّىٰ الصُّبح، ثم قعد إلىٰ أبي هريرة في غِمَارِ أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليَّ، جئتُ تائبًا من قبل أن تَقْدِرُوا عليَّ. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتىٰ أتىٰ مَرْوَان بن الحكم - [وهو أمير][2] علىٰ المدينة في زمن معاوية- فقال: هذا عليٌّ جاء تائبًا، ولا سبيلَ لكم عليه ولا قَتْلَ. قال: فتُرِك من [ذلك كله،][3] قال: وخرج عليٌّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر، فلَقُوا الرُّوم، فقرَّبوا [سفينته إلىٰ][4] سفينةٍ من سفنهم فاقتحم علىٰ الرُّوم في سَفِينَتِهِم، فهربوا منه إلىٰ شِقِّها الآخر، فمالت به وبهم، فغرقوا جميعًا[5].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطَّاعة كان المراد بها: الانكفاف عن المحارم وتركُ المَنْهِيَّات، وقد قال بعدها: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثوري، [حدَّثنا أبي،][6] عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: أي القربة[7]. وكذا قال مجاهد وعطاء وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسُّدِّي، وابن زيد.

وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) لوحة (٢٨٦ ب). (٢) في (ز): في إمرته.

(٣) في (ز): من كلمته. والمثبت موافق لـ«الطبري». (٤) سقط من (ز).

(٥) الطبري (٦/ ٢٢٣)، وفي إسناده الوليد بن مسلم: ثقة لكنه كثير التدليس، وتدليسه من شر أنواع التدليس، وهو تدليس التسوية، وقد عنعن ولم يصرح بالسماع. فالقصة بهذا السند ضعيفة.

(٦) زيادة من «الطبري».

(٧) **قال ابن عثيمين** رحمه الله: ليست الوسيلة ما هو معروف عند المتأخرين بأن يتخذ الإنسان وسائل في دعائه أو نحو ذلك، بل المراد بـ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ التقرُّب إليه كما بيَّنَّا، لكن بعض المحرفين قال: المراد بالوسيلة: الولي أو النبي أو جاه الولي، وهذا تحريفٌ لكلام الله وإنما الوسيلة هي الشيء الموصل إلىٰ الله وإلىٰ التقرب إليه ﷻ، مثال ذلك: الصلاة، فهي تقرب إلىٰ الله كما قال ﷺ: «**وأَقرَبُ ما يَكُونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وهُوَ سَاجِدٌ**».

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء:٥٧]، وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا ... وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالوَسَائِلُ

والوسيلة: هي التي يُتَوَصَّل بها إلىٰ تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا: عَلَم علىٰ أعلىٰ منزلةٍ في الجنَّة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنَّة، وهي أقرب أمكنة الجنَّة إلىٰ العرش، وقد ثبت في «صحيح البخاري»، من طريق محمَّد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

حديث(٢) آخر في «صحيح مسلم»: من حديث كعب [بن](٣) علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ»(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن لَيْث، عن كعب، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أَعْلَىٰ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»(٥).

ورواه الترمذي، عن بُنْدار، عن أبي عاصم، عن سفيان -هو الثوري- عن لَيث بن أبي سُلَيم، عن كعب قال: حدَّثني أبو هريرة به. ثم قال: غريب، وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحدًا روىٰ عنه غير ليث بن أبي سليم.

طريق أخرىٰ عن أبي هريرة ﷺ: قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدَّثنا عبد الباقي بن قانع، حدَّثنا محمَّد ابن نصر الترمذي، حدَّثنا عبد الحميد بن صالح، حدَّثنا أبو شهاب، عن ليث، عن المعلىٰ، عن محمَّد ابن كعب، عن أبي هريرة رفعه قال: «صَلُّوا عَلَيَّ صَلَاتَكُمْ، وَسَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ». فسألوه وأخبرهم:

---

(١) البخاري (٦١٤)، وأبو داود (٥٢٩)، والترمذي (٢١١)، والنسائي (٢/ ٢٦)، وابن ماجة (٧٢٩).

(٢) لوحة (٢٨٧ أ). (٣) في (ز): (عن)، وهو خطأ.

(٤) مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤)، والنسائي (٢/ ٢٥).

(٥) صحيح من غير هذا الطريق: رواه أحمد (٢/ ٢٦٥)، والترمذي (٣٦١٢).

وفي إسناده ليث بن أبي سليم، أُدْخِل في حديثه ما ليس منه فلم تتميز أحاديثه فترك، وكعب المدني: مجهول.

ولكن للحديث شواهد أوردها ابن كثير عن ابن عبَّاس: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٣٣) وإسناده حسن، وعن أبي سعيد رواه الطبراني (٢٦٣) وإسناده حسن، وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو، رواه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والنسائي (٢/ ٢٥).

«أَنَّ الوَسِيلَةَ دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ، لَيْسَ يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ [أَنَا](١)»(٢).

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: أخبرنا أحمد بن علي الأبار، حدَّثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدَّثنا موسىٰ بن أعين، عن ابن أبي ذئب(٣) عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهَا لِي عَبْدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا -أَوْ: شَفِيعًا- يَوْمَ القِيَامَةِ»(٤).

ثم قال الطبراني: «لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسىٰ بن أعين». كذا قال، وقد رواه ابن مَرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن علي بن دحيم، حدَّثنا أحمد بن حازم، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، فذكر بإسناده نحوه.

حديث آخر: روىٰ ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غَزِيَةَ، عن موسىٰ بن وَرْدان: أنه سمع أبا سعيدٍ الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الوَسِيلَةَ دَرَجَةٌ عِنْدَ اللهِ(٥)، [لَيْسَ](٦) فَوْقَهَا دَرَجَةٌ، فَسَلُوا اللهَ أَنْ يُؤْتِيَنِي الوَسِيلَةَ عَلَىٰ خَلْقِهِ»(٧).

حديث آخر: روىٰ ابن مردويه أيضًا من طريقين، عن عبد الحميد بن بحر حدَّثنا شَرِيك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «فِي الجَنَّةِ دَرَجَةٌ تُدْعَىٰ الوَسِيلَةَ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوا لِي الوَسِيلَةَ». قالوا: يا رسول الله، مَن يسكن معك؟ قال: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ»(٨).

هذا حديثٌ غريبٌ منكرٌ من هذا الوجه

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين، حدَّثنا الحسن الدَّشْتَكِيّ، حدَّثنا أبو زهير، حدَّثنا سعد بن طَرِيف، عن علي بن الحسين الأَزْدِي -مولىٰ سالم بن ثَوْبان- قال: سمعت علي بن أبي طالب ينادي علىٰ منبر الكوفة: يا أيُّها النَّاس، إنَّ في الجنة لُؤْلُؤَتين: إحداهما بيضاء، والأخرىٰ صفراء، أما الصَّفراء فإنَّها إلىٰ بُطْنَان العرش، والمقام المحمود مِن اللُّؤْلُؤةِ البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بَيْتٍ منها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأَسِرَّتها وكأنَّها مِن عرقٍ واحدٍ، واسمها الوَسِيلَة، هي لمحمَّدٍ ﷺ وأهل بيته، [والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته](٩)(١٠).

---

(١) سقط من (ز).

(٢) في إسناده ليث بن أبي سليم تقدمت ترجمته في الحديث السابق، وانظر الحديث السابق.

(٣) في (ز): ابن أبي حبيب.

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٣٣)، ويشهد له الحديث السابق والآتي.

(٥) لوحة (٢٨٧ ب).

(٦) سقط من (ز).

(٧) حسن: رواه الطبراني (٢٦٣)، ويشهد له الحديثان السابقان.

(٨) منكر: مسلسل بالضعفاء؛ فعبد الحميد بن بحر: ضعيف جدًّا، وأبو إسحاق: مدلس وقد عنعن، والحارث الأعور: متهم بالكذب.

(٩) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١٠) موضوع: عزاه لابن أبي حاتم ولم أجده في «التفسير»، وفي إسناده سعد بن طريف، قال الحافظ: متروك الحديث، ورماه ابن حبان بالوضع، وكان رافضيًّا.

وهذا أثر غريب أيضًا.

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لما أمرهم بتَرْك المحَارِم وفعل الطَّاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التَّاركين للدِّين القويم، ورغَّبهم في ذلك بالَّذي أعدَّه للمجاهدين في سَبيلِهِ يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرَّة التي لا تَبِيد ولا تَحُول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، [الحسنة][(١)] مناظرها، الطَّيبة مساكنُها، التي مَن سكنها يَنْعَم لا ييأس، ويحيا لا يموت، لا تبلىٰ ثيابه، ولا يفنىٰ شبابه.

ثم أخبر تعالىٰ بما أعدَّ لأعدائه الكفَّار من العذاب والنَّكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملءِ الأرض ذهبًا، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به وتيقَّن وصوله إليه ما تُقُبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ [أَلِيمٞ]﴾ أي: موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ][(٢)]مُّقِيمٞ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا [مِنۡ غَمٍّ][(٣)] أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ الآية [الحج:٢٢]، فلا يزالون يُريدُون الخروج ممَّا هم فيه مِن شِدَّتِه وأليم مَسِّه، ولا سبيل لهم إلىٰ ذلك، كلما رفعهم اللَّهب فصاروا في أعالي جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيَرُدُّونَهم إلىٰ أسفلها، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أي: دائمٌ مستمرٌّ لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

وقد قال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله[(٤)] ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرَّ مَضْجَعٍ، فَيَقُولُ: هَلْ تَفْتَدِي بِقُرَابِ الأَرْضِ ذَهَبًا؟**» قال: «**فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: كَذَبْتَ! قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ: فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ**»[(٥)].

رواه مسلم والنَّسائي من طريق حماد بن سلمة بنحوه. وكذا رواه البخاري ومسلم من طريق معاذ ابن هشام الدَّسْتَوائي، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس به[(٦)]. وكذا أخرجاه من طريق أبي عمران الجَوْني، واسمه عبد الملك بن حبيب، عن أنس بن مالك به[(٧)]. ورواه مَطَر الورَّاق، عن أنس بن مالك، ورواه ابن مردويه من طريقه عنه.

ثم رواه ابن مَردويه، من طريق المسعودي، عن يزيد بن صُهَيب الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله:

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) سقط من (ز).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (٢٨٨ أ).
(٥) مسلم (٢٨٠٧)، والنسائي (٦/ ٣٦).
(٦) البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) نحوه.
(٧) البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا(١).

وقد روىٰ الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر وهذا أبسط سياقًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسين بن محمَّد بن شنبة(٢) الواسطي، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك بن فضالة، حدَّثني يزيد الفقير قال: جلست إلىٰ جابر بن عبد الله، وهو يُحدِّث، فحدَّث أن أُناسًا يخرجون من النَّار -قال: وأنا يومئذٍ أنكر ذلك، فغَضِبْتُ وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمَّد! تزعمون أنَّ الله يخرج ناسًا من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فانتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلىٰ قد جمعته قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾؟ [الإسراء:٧٩] فهو ذلك المقام، فإنَّ الله تعالىٰ يحتبس أقوامًا بخطاياهم في النَّار ما شاء، لا يُكلِّمُهم، فإذا أراد أن يُخرِجَهم أَخْرَجَهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلىٰ أن أكذب به(٣).

ثم قال ابن مردويه: حدَّثنا دَعْلَج بن أحمد، حدَّثنا عمرو بن حفص السَّدُوسي، حدَّثنا عاصم بن علي(٤)، حدَّثنا العبَّاس بن الفضل، حدَّثنا سعيد بن المُهلَّب، حدَّثني طَلْق بن حبيب قال: كنت من أشدِّ النَّاس تكذيبًا بالشفاعة، حتىٰ لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أَقْدِر عليها يذكر الله تعالىٰ فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أتُرَاك أَقْرأ لكتاب الله وأعلم بسُنَّة رسول الله ﷺ مِنِّي؟ إنَّ الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قومٌ أصابوا ذنوبًا فعُذِّبوا، ثم أُخرِجُوا منها ثم أهوىٰ بيديه إلىٰ أذنيه، فقال: صُمَّتا إن لم أكن سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا دَخَلُوا»(٥). ونحن نقرأ كما قرأت.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) صحيح: في إسناده المسعودي: وهو قد اختلط، لكن أصل الحديث دون مراجعة يزيد الفقير لجابر رواها مسلم (١٩١)، وأحمد (٣/ ٣٥٥) ويشهد له أيضًا الرواية الآتية.

(٢) في (ز): الحسين بن محمَّد بن أبي شيبة.

(٣) حسن: رجاله ثقات، ومبارك بن فضالة: مدلس تدليس تسوية، ولكنه صرح بالسماع في الإسناد، والحديث أخرجه مسلم (١٩١) من طريق يزيد الفقير بنحوه.

(٤) لوحة (٢٨٨ ب).

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والبخاري في «الأدب» (٨١٨).

يقول تعالىٰ حاكمًا وآمرًا بقطع يد السَّارق والسَّارقة[(١)]، وروىٰ الثوري عن جابر بن يزيد الجُعْفي، عن عامر بن شراحيل الشعبي؛ أنَّ ابن مسعود كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما»[(٢)]. وهذه قراءةٌ شاذَّةٌ، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقًا لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليلٍ آخر.

---

(١) قال أحمد شاكر كَلَلهُ: هذا حكم الله في السارق والسارقة، قاطع صريح اللفظ والمعنىٰ، لا يحتمل أي شك في الثبوت ولا في الدلالة، وهذا حكم رسول الله تنفيذًا لحكم الله وطاعة لأمره، في الرجال والنساء: قطع اليد، لا شك فيه، حتىٰ ليقول ﷺ بأبي هو وأمي: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

- فانظروا إلىٰ ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون! لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة مجرمة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله، ثم ربوا فينا ناسًا ينتسبون إلينا، أشربوهم في قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا علىٰ ألسنتهم كلمة الكفر: أن هذا حكمٌ قاسٍ لا يناسب هذا العصر الماجن، عصر المدنية المتهتكة! وجعلوا هذا الحكم موضع سخريتهم وتندرهم! فكان عن هذا أن امتلأت السجون ـ في بلادنا وحدها ـ بمئات الألوف من اللصوص، بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسرقة ليست برادعة، ولن تكون أبدًا رادعةً، ولن تكون أبدًا علاجًا لهذا الداء المستشري.

- ثم أدخلوها في عقول الطبقة المثقفة، وخاصةً القائمين علىٰ هذه القوانين الوثنية ـ ما يسمونه «علم النفس». وهو ليس بعلم ولا شبيه به، بل هو أهواء متناقضة متباينة. لكل إمام من أئمة الكفر في هذا العلم رأيٌ ينقض رأيَ مخالفه. ثم جاءوا في التطبيق يلتمسون الأعذار من «علم النفس» لكل لص بحسبه. ثم زاد الأمر شرًّا أن يكتب اللصوص أنفسهم كلامًا يلتمسون به الأعذار لجرمهم. وقام المدافعون عنهم المقامات التي توردهم النار: يعلمون أن الجريمة ثابتةٌ، فلا يحاولون إنكارها، بل يحاولون التهوين من شأنها، بدراسة نفسية المجرم وظروفه!!

- ولقد جادلت منهم رجالًا كثيرًا من أساطينهم، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن في هذا لا يناسب هذا العصر!! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لا عقابه. ثم ينسون قول الله سبحانه في هذا الحكم بعينه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] فالله سبحانه ـ وهو خالق الخلق، وهو أعلم بهم، وهو العزيز الحكيم ـ يجعل هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين، نصًّا قاطعًا صريحًا، فأين يذهب هؤلاء الناس؟!

- المسألة ـ عندنا نحن المسلمين ـ هي من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان، فهؤلاء المنتسبون للإسلام، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه ـ سنسألهم: أتؤمنون بالله وبأنه خلق هذا الخلق؟ فسيقولون: نعم. أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمدًا بالهدىٰ ودين الحق، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدًىٰ للناس وإصلاحًا لهم في دينهم ودنياهم؟ فسيقولون: نعم. أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ من القرآن؟ فسيقولون: نعم. أفتؤمنون بأن تشريع الله قائمٌ ملزمٌ للناس في كل زمان وفي كل مكان، وفي كل حال؟ فسيقولون: نعم. إذن فأنىٰ تصرفون؟! وعلىٰ أي شرع تقومون؟! أما من أجاب ـ ممن ينتسب للإسلام ـ علىٰ أي سؤال من هذه السؤالات بأن: لا، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره. وقد أيقن كل مسلم، من عالم أو جاهل، مثقف أو أمي ـ أن من يقول في شيء من هذا: «لا» فقد خرج من الإسلام، وتردىٰ في حمأة الردة، وأما من عدا المسلمين، ومن عدا المتتسبين للإسلام، فلن نجادلهم في هذا، ولن نسايرهم في الحديث عنه، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا، ولن يرضوا عنا أبدًا إلا أن نقول مثل قولهم! وعياذًا بالله من ذلك.

- ولو عقل هؤلاء الناس ـ الذين ينتسبون للإسلام ـ لعلموا أن بضعة أيد من أيدي السارقين لو قطعت كل عام، لنجت البلاد من سبة اللصوص، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات، كالشيء النادر، ولخلت السجون من مئات الألوف التي تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن في الجرائم، لو عقلوا لفعلوا، ولكنهم يصرون علىٰ باطلهم؛ ليرضىٰ عنهم سادتهم ومعلموهم! وهيهات!!

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٢٨)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف الحديث.

ورواه الطبري كذلك (٦/ ٢٢٨)، وفي إسناده ابن وكيع: وهو ضعيف كذلك.

وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية، فقُرِّرَ في الإسلام وزيدت شروط أُخَر، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ، كما كانت القسامة والدِّية والقِرَاض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتَقْرِيرِها علىٰ ما كانت عليه، وزيادات هي مِن تمام المصالح. ويقال: إن أوَّل مَن قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلًا يقال له: «دُوَيك» مولىٰ لبني مُلَيح بن عمرو من خُزَاعة، كان قد سرق كَنْزَ الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده.

وقد ذهب بعضُ الفقهاء مِن أهل الظَّاهر إلىٰ أنَّه متىٰ سرق السَّارق شيئًا قطعت يده به، سواء كان قليلًا أو كثيرًا؛ لعموم هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصابًا ولا حِرْزًا، بل أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم مِن طريق عبد المؤمن، عن نَجْدَة الحَنَفِي قال: سألت ابن عبَّاس عن قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاصٌّ أم عامٌّ؟

فقال: بل عامٌّ(١).

وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عبَّاس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم.

وتمسَّكوا بما ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ(٢) قال: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**»(٣). وأمَّا الجمهور فاعتبروا [النِّصاب في](٤) السَّرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كلٌّ من الأئمَّة الأربعة إلىٰ قول علىٰ حِدَةٍ، فعند الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: النِّصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتىٰ سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أنَّ رسول الله ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في «الصحيحين»(٥).

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: وقطع عثمان رضي الله عنه في أُتْرُجَّة(٦) قُوِّمَت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عَمْرة بنت عبد الرحمن: أنَّ سارقًا سرق في زمان عثمان أُتْرُجَّةً، فأمر بها عثمان أن تُقَوَّم، فَقُوِّمَت بثلاثة دراهم [من](٧) صَرْف اثني عشر درهمًا [بدينارٍ](٨) فقطع عثمان يده(٩).

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٢٩)، وفيه نجدة بن نفيع الحنفي: مجهول كما في الغريب.

(٢) لوحة (٢٨٩ أ).

(٣) البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧)، والنسائي (٨/ ٦٥)، وابن ماجة (٢٥٨٣).

(٤) سقط من (ز).

(٥) البخاري (٦٧٥٩)، ومسلم (١٦٨٦)، والنسائي (٨، ٧٧)، وأبو داود (٤٣٧٦)، وأحمد (٢/ ٥٤، ٨٢، ١٤٣).

(٦) **الأُترج**: قيل هو التفاح، وقيل غيره من الفاكهة.

(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز).

(٩) صحيح: رواه مالك في «الموطأ» (٢٣).

قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصَّنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكىٰ الإجماع السُّكوتي، وفيه دلالة علىٰ القطع في الثِّمار خلافًا للحنفيَّة. وعلىٰ اعتبار ثلاثة دراهم خلافًا لهم في أنَّه لا بد مِن عشرة دراهم، وللشافعيَّة في اعتبار ربع دينار، والله أعلم.

وذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدًا. والحُجَّة في ذلك ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن عَمْرة، عن عائشة رضي الله عنها؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا**»[١].

ولمسلم مِن طريق أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم، عن عَمْرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا**»[٢].

قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصلٌ في المسألة ونصٌّ في اعتبار ربع الدِّينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المِجَنِّ، وأنَّه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنَّه إذ ذاك كان الدِّينار باثني عشر درهمًا، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق.

ويروىٰ هذا المذهبُ عن عُمَر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي، وأصحابه، وإسحاق بن راهويه[٣] -في رواية عنه- وأبو ثور، وداود بن علي الظاهري رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه -في رواية عنه- إلىٰ أنَّ كل واحدٍ من ربع الدِّينار والثَّلاثة دراهم مَرَدٌّ شرعيٌّ، فمن سرق واحدًا منهما، أو ما يساويه قطع عملًا بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة رضي الله عنها، ووقع في لفظٍ عند الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اقْطَعُوا فِي رُبْعِ دِينَارٍ، وَلَا تَقْطَعُوا فِيمَا هُوَ أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ**»[٤]، وكان ربع الدِّينار يومئذٍ ثلاثة دراهم، والدِّينار اثني عشر درهمًا. وفي لفظ للنسائي: لا تقطع يد السَّارق فيما دون ثمن المِجَنِّ. قيل لعائشة: ما ثمن المِجَنِّ؟ قالت: ربع دينار[٥].

فهذه كلها نصوصٌ دالَّةٌ علىٰ عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمَّد، وزُفَر، وكذا سفيان الثوري رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فإنَّهم ذهبوا إلىٰ أنَّ النِّصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة. واحتَجُّوا بأنَّ ثمن المِجَنِّ الذي قطع فيه السارق علىٰ عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روىٰ أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا ابن نُمَير وعبد الأعلىٰ وعن محمَّد بن إسحاق، عن [أيوب بن موسىٰ، عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: كان

---

(١) البخاري (٦٧٩٠)، ومسلم (١٦٨٤)، وأبو داود (٤٣٨٤)، والنسائي (٨/ ٧٨)، والترمذي (١٤٤٥).

(٢) رواه مسلم (١٦٨٤). (٣) لوحة (٢٨٩ ب).

(٤) لا بأس به: أحمد (٦/ ٨٠، ٨١) رجاله ثقات عدا محمَّد بن راشد، قال عنه الحافظ: صدوق يهم.

(٥) رواه النسائي: (٧/ ٨١).

ثمن المجن علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ عشرة دراهم[١].

ثم قال: حدَّثنا عبد الأعلىٰ، عن محمَّد بن إسحاق، عن[٢] عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي دُونِ ثَمَنِ المِجَنِّ**». وكان ثمن المِجَنِّ عشرة دراهم[٣].

قالوا: فهذا ابن عبَّاس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأنَّ الحدود تدرأ بالشبهات.

وذهب بعض السَّلف إلىٰ أنَّه تُقْطَعُ يدُ السارق في عشرة دراهم، أو دينار، أو ما يبلغ قيمته واحدًا منهما، يحكىٰ هذا عن علي، وابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعِي، وأبي جعفر الباقر -رحمهم الله تعالىٰ-.

وقال بعض السَّلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس؛ أي: في خمسة دنانير، أو خمسين درهمًا. وينقل هذا عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد أجاب الجمهور عما تمسَّك به الظَّاهريَّة مِن حديث أبي هريرة: «**يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**»[٤] بأجوبة:

أحدها: أنَّه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنَّه مُؤَوَّل ببيضةِ الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه.

والثالث: أنَّ هذا وسيلةٌ إلىٰ التَّدرُّج في السَّرقة[٥] من القليل إلىٰ الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلَعَنَ السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة.

وقد ذكروا أن أبا العلاء المَعرِّي، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا علىٰ الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعرًا دلَّ علىٰ جهله، وقلة عقله فقال:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ[٦] ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ... وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبه الفقهاء فهرب منهم. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهَّاب المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: لما كانت أَمِينَة كانت ثَمِينَة، فلمَّا خانت هانت[٧].

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٦٥)، وفيه محمَّد بن إسحاق، وقد اختلف عليه فيه.

(٢) سقط من (ز).

(٣) حسن لغيره: دون قوله: «وكان ثمن المجن عشرة دراهم».
أما الحديث فرواه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٦٥)، وفيه محمَّد بن إسحاق: مدلس قد عنعن.
لكن للحديث شواهد وطرق استوفاها الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٤١٣)، وليس فيها محل الشاهد (وكان ثمن المجن...) فتظل هذه الجملة ضعيفة.

(٤) متفق عليه، وسبق قريبًا.   (٥) لوحة (٢٩٠ أ).   (٦) في (ز): فديت.

(٧) ورد المالكيُّ نظمًا أيضًا علىٰ هذا الزنديق فقال:
=

ومنهم مَن قال: هذا مِن تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشَّريعة العظيمة، فإنَّه في باب الجنايات ناسَبَ أنْ تعظم قيمة اليَدِ بخمسمائة دينار؛ لئلَّا يُجْنىٰ عليها، وفي باب السَّرقة ناسب أن يكون القَدْر الذي تقطع فيه ربع دينار؛ لئلَّا يتسارع النَّاس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: مجازاة علىٰ صنيعهما السِّيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنكيلًا من الله بهما علىٰ ارتكاب ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: من تاب بعد سرقته وأناب إلىٰ الله، فإنَّ الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأمَّا أموال النَّاس فلا بدَّ مِن رَدِّها إليهم أو بدلها عند الجمهور.

وقال أبو حنيفة: متىٰ قطع وقد تَلِفَتْ في يده فإنَّه لا يرد بدلها. وقد روىٰ الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث [محمَّد بن عبد الرحمن بن ثوبان،][(١)] عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتي بسارق قد سرق شَمْلَة فقال: «مَا إِخَالُهُ سَرَقَ»! فقال السارق: بلىٰ يا رسول الله. قال: «اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوهُ، ثُمَّ احْسِمُوهُ، ثُمَّ ائْتُونِي بِهِ». فقطع فأتي به، فقال: «تُبْ إِلَىٰ اللهِ». فقال: تُبْتُ إلىٰ الله. فقال: «تَابَ اللهُ عَلَيْكَ[(٢)]»[(٣)].

وقد روي من وجه آخر مرسلًا ورجح إرساله علي بن المَدِيني وابن خُزَيْمة رحمهما الله، روىٰ ابن ماجة من حديث ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري، عن أبيه؛ أن عَمْرو بن سَمُرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنِّي سرقت جملًا لبني فلان فطَهِّرني! فأرسل إليهم النَّبيُّ ﷺ فقالوا: إنَّا افتقدنا جملًا لنا. فأمر به فقُطِعَت يده. [قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده][(٤)] وهو يقول: الحمد لله الَّذي طَهَّرَنِي منك، أردت أن تُدْخِلِي جسدِي النَّارَ[(٥)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا موسىٰ بن داود، حدَّثنا ابن لهيعة، عن حُيَي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: سرقت امرأةٌ حُلِيًّا، فجاء الذين سرقتهم

= صِيَانَةُ العُضو أغلاها وأرخصها صيانةُ المال فَافْهَمْ حكمة الباري

«فتح الباري»: (١٢/ ٨٣ و٩٨). وترجمة المعري في «السير»: (١٨/ ٢٣).

(١) بياض في (ز)، والمثبت من «سنن الدارقطني».

(٢) لوحة (٢٩٠ ب).

(٣) رواه الدراقطني (٣/ ١٠٢)، والحاكم (٤/ ٤٢٢) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم وسكت عنه الذهبي، وأعله الدارقطني في «العلل» (١٠/ ٦٧) ورجح إرساله، وضعفه الألباني. انظر: «إرواء الغليل» (٢٤٣١).

(٤) زيادة من «سنن ابن ماجة».

(٥) ضعيف: رواه ابن ماجة (١٣٨٥)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط. والحديث ضعفه الألباني.

فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: «**اقْطَعُوا يَدَهَا الْيُمْنَىٰ**». فقالت المرأة: هل مِن توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أُمُّكِ!**» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿**فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(١).

وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا، فقال: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني حُيَي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن امرأةً سرقت علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الَّذين سَرَقَتْهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا! قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله: «**اقْطَعُوا يَدَهَا**» [فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار. قال: «**اقْطَعُوا يَدَهَا**». قال:](٢) فقطعت يدها اليمنىٰ. فقالت المرأة: هل لي مِن توبةٍ يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكِ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أُمُّكِ**». فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿**فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٣).

وهذه المرأة هي المخزوميَّة التي سرقت، وحديثها ثابت في «الصحيحين»، من رواية الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة؛ أنَّ قريشًا أهمهم شأنُ المرأة التي سرقت في عهد النَّبيِّ ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: مَن يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يَجْتَرِئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فأتي بها رسولُ الله ﷺ، فكلَّمه فيها أُسَامَةُ بن زيد، فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ فقال: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ**(٤) **حُدُودِ اللهِ** ﷻ؟» فقال له أسامة: اسْتَغْفِرْ لي يا رسول الله. فلما كان العَشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**». ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة ﵂ فحَسُنَتْ توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله ﷺ(٥).

وهذا لفظ مسلم، وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأةٌ مخزوميَّةٌ تستعير المتاع وتجحده، فأمر نبي الله ﷺ بقطع يدها.

وعن ابن عمر قال: كانت امرأةٌ مخزوميةٌ تستعير متاعًا علىٰ ألسنة جاراتها وتجحده، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها(٦).

رواه الإمام أحمد، وأبو داود والنسائي -وهذا لفظه- وفي لفظ له: أن امرأةً كانت تستعير الحلي للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ: [«**لِتَتُبْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ وَتَرُدَّ مَا تَأْخُذُ عَلَىٰ الْقَوْمِ**»،

---

(١) رواه ابن جرير (٦/ ٢٣٠)، وأحمد (٢/ ١٧٧)، وإسناده ضعيف وعلته ابن لهيعة كسابقه.

(٢) زيادة من «مسند أحمد».

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) لوحة (٢٩١ أ).

(٥) البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٥١)، وأبو داود (٤٣٩٥) والنسائي (٨/ ٧٠).

ثم قال رسول الله ﷺ: [(١) «قُمْ يَا بِلَالُ فَخُذْ بِيَدِهَا فَاقْطَعْهَا»(٢).

وقد ورد في أحكام السرقة أحاديثُ كثيرةٌ مذكورةٌ في كتاب «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا مُعقِّب لحكمه، وهو الفعَّال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ(٣) وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن(٤) كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المُقدِّمين آراءهم(٥) وأهواءهم علىٰ شرائع الله ﷻ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهَرُوا الإيمان بألسنتِهِم، وقلوبهم خرابٌ خاويةٌ منه، وهؤلاء هم المنافقون، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون(٦) له، منفعلون عنه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوامٍ آخرين لا يأتون مجلسك يا محمَّد. وقيل: المراد أنَّهم يَتسمَّعون الكلام، ويُنْهُونه إلىٰ أقوام آخرين ممنْ لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولونه علىٰ غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾.

---

(١) زيادة من «سنن النسائي».

(٢) رواه النسائي (٨/ ٧١)، وفيه أبو مالك الجنبي. قال ابن حجر: لين؛ أي: أن حديثه ضعيف، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٣) وقع من (ز) تقديم وتأخير.

(٤) لوحة (٢٩١ ب).

(٥) في (ز): أموالهم.

(٦) في (ز): يستجيبون.

قيل: نزلت في أقوام مِن اليهود، قتلوا قتيلًا وقالوا: تعالوا حتىٰ نَتَحَاكَمَ إلىٰ محمَّدٍ، فإن أفتانا بالدِّية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللَّذَيْن زَنَيَا، وكانوا قد بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم مَن أَحْصن منهم، فحرَّفوا واصطلحوا فيما بينهم علىٰ الجَلْدِ مائة جلدة، والتَّحميم[١] والإركاب علىٰ حمارٍ مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتىٰ نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتَّحْمِيم فخذوا عنه، واجعلوه حُجَّةً بينكم وبين الله، ويكون نبيٌّ من أنبياء الله قد حكم [بينكم بذلك، وإن حكم بالرَّجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث][٢] بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنَّه قال: أنَّ اليهود جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فذكروا له أنَّ رجلًا منهم وامرأةً زَنَيَا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟**» فقالوا: نفضحهم ويُجْلَدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنَشَرُوها، فوضع أحدهم يده علىٰ آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صَدَقْت يا محمَّد، فيها آية الرجم[٣]! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا فرأيت الرجل يَحْني علىٰ المرأة يقيها الحجارة[٤]. وأخرجاه وهذا لفظ البخاري.

وفي لفظ له: فقال لليهود: «**مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟**» قالوا: نُسخِّم وجوههما[٥] ونُخْزيهما. قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣] فجاءوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعورَ: اقرأ، فقرأ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ موضعٍ منها فوضع يده عليه، قال: «**ارْفَعْ يَدَكَ**». فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمَّد، إنَّ فيها آية الرجم، ولكنا نتكاتمه بيننا. فأمر بهما فَرُجما[٦].

وعند مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ أتي بيهوديٍّ ويهوديةٍ قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتىٰ جاء يَهُود، فقال: «**مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مَنْ زَنَىٰ؟**» قالوا: نُسَوِّد وجوههما [ونُحَمِّلهما، ونخالف بين وجوههما[٧]][٨] ويُطَاف بهما، قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ قال: فجاءوا بها، فقرأوها، حتىٰ إذا مر بآية الرجم وضع الفتىٰ الذي يقرأ يده علىٰ آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سَلام -وهو مع رسول الله ﷺ-: مُرْه فَلْيرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آيةُ الرجم. فأمر بهما رسولُ الله ﷺ فَرُجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه[٩].

---

(١) التحميم: تسويد الوجه. (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢٩٢ أ).
(٤) البخاري (٣٦٣٥) (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩)، وأبو داود (٤٤٤٦)، والترمذي (١٤٣٦).
(٥) أي: نسودها. (٦) البخاري (٧٥٤٣).
(٧) أي: نفضحهما بتسويد وجوههما، وحملهما علىٰ الدابة بالتخالف في الركوب.
(٨) زيادة من «صحيح مسلم». (٩) مسلم (١٦٩٩).

وقال أبو داود: حدَّثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، حدَّثنا ابن وَهْب، حدَّثنا هشام بن سعد؛ أن زيد ابن أسلم حَدَّثه، عن ابن عمر قال: أتَىٰ نفر من اليهود، فدعَوا رسول الله ﷺ إلىٰ القُفِّ[١] فأتاهم في بيت المِدْرَاس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلًا منَّا زنىٰ بامرأة، فاحكم. قال: ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادةً، فجلس عليها، ثم قال: [«ائْتُونِي بِالتَّوْرَاةِ». فأتي بها، فنزع الوسادة مِن تحته، ووضع التوراة عليها، وقال: «آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ». ثم قال:][٢] «ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ». فأتي بفتًىٰ شابٍّ، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع[٣].

وقال الزهري: سمعت رجلًا من مُزَيْنَة، ممَّن يتبع العلم ويَعِيهِ، ونحن عند ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: زنىٰ رجلٌ من اليهود بامرأةٍ، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلىٰ هذا النَّبيِّ، فإنه بُعِث بالتَّخفيف، فإن أفتانا بفُتْيا دون الرَّجم قبلناها، واحتجَجْنَا بها عند الله، قلنا: فُتْيَا [نبي من أنبيائك،][٤] قال: فأتوا النَّبيَّ ﷺ وهو جالسٌ في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأةٍ منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمةً حتىٰ أتىٰ بيت مِدْرَاسهم، فقام علىٰ الباب[٥] فقال: «أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مَنْ زَنَىٰ إِذَا أُحْصِنَ؟» قالوا: يُحَمَّم، ويُجبَّه ويجلد. والتجبية: أن يحمل الزَّانيان علىٰ حمار، وتقابل أقفيتهما، ويُطَاف بهما. قال: وسكت شابٌّ منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، أَلَظَّ به رسول الله ﷺ النِّشْدة[٦]، فقال: اللَّهمَّ إذ نَشَدْتَنا، فإنَّا نجد في التوراة الرجم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «فَمَا أَوَّلُ مَا ارْتَخَصْتُمْ أَمْرَ اللهِ؟» قال: زنىٰ ذُو قرابةٍ من ملك من ملوكنا، فأخَّر عنه الرجم، ثم زنىٰ رجلٌ في إِثْرِهِ من النَّاس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتىٰ تجيء بصاحبك فَتَرْجُمَهُ! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنِّي أَحْكُمُ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ» فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أنَّ هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ فكان النَّبيُّ ﷺ منهم[٧].

رواه أحمد، وأبو داود -وهذا لفظه- وابن جرير.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن البراء بن عازب قال: مَرَّ علىٰ رسولِ الله ﷺ يهوديٌّ محمَّمٌ مجلودٌ، فدعاهم فقال: «أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم فقال: «أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» فقال: لا والله، ولولا أنَّك نَشَدتني بهذا لم أُخْبِرْك، نجد حدَّ الزاني في

---

(١) القُف: وادٍ من أودية المدينة، وقف البئر: الدكة التي تجعل حولها، والمدراس: البيت الذي يدرسون فيه.
(٢) زيادة من «سنن أبي داود».
(٣) صحيح: أبو داود (٤٤٤٦).
(٤) في (ز): [بني إسرائيل]. والمثبت من «سنن أبي داود».
(٥) لوحة (٢٩٢ ب).
(٦) ألظ به النشدة: ألح في سؤاله.
(٧) ضعيف: رواه أبو داود (٤٤٥٠)، وأحمد (٢/ ٢٧٩)، وفي إسناده رجل لم يسم. والحديث ضعفه الألباني.

كتابنا الرَّجم، ولكنَّه كثُر في أشرافنا، فكُنَّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضَّعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتىٰ نجعل شيئًا نقيمه علىٰ الشريف والوَضِيع، فاجتمعنا علىٰ التحميم والجلد. فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ». قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمَّدًا، فإن أفتاكم بالتَّحمِيم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرَّجم فاحْذَرُوا، إلىٰ قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ قال: في اليهود إلىٰ قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال: في اليهود ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ[1] هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها.

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، من غير وجه، عن الأعمش، به[2].

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدي في «مسنده»: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن مُجالد ابن سعيد الهَمْدَاني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنىٰ رجلٌ من أهل فَدَك، فكتب أهل فدك إلىٰ ناسٍ من اليَهُودِ بالمدينة أَن سَلُوا محمَّدًا عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخُذُوه عنه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه، فسألوه عن ذلك، قال: «أَرْسِلُوا إِلَيَّ أَعْلَمَ رَجُلَيْنِ فِيكُمْ». فجاءوا برجل أعورَ -يقال له: ابن صُوريا- وآخر، فقال لهما النَّبيُّ ﷺ: «أَنْتُمَا أَعْلَمُ مَنْ قِبَلَكُمَا؟». فقالا: قد دعانا[3] قومنا لذلك، فقال النَّبيُّ ﷺ لهما: «أَلَيْسَ عِنْدَكُمَا التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ؟» قالا: بلىٰ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي فَلَقَ البَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الغَمَامَ، وَأَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَأَنْزَلَ المَنَّ وَالسَّلْوَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فقال أحدهما للآخر: ما نُشِدْتُ بمثله قط. قالا: نجد ترداد النَّظر زنية والاعتناق زنية، والقبل زنية، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد، كما يدخل الميل في المُكْحُلة، فقد وجب الرجم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «هُوَ ذَاكَ». فأُمِرَ به فَرُجِمَ، فنزلت: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[4].

ورواه أبو داود وابن ماجة، من حديث مُجالد به نحوه. ولفظ أبي داود عن جابر قال: جاءت اليهود برجلٍ وامرأةٍ منهم زنيا، فقال: «ائْتُونِي بِأَعْلَمِ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ». فأتوا بابني صوريا، فنشدهما:

---

(١) لوحة (٢٩٣ أ).

(٢) مسلم (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٤٧)، وابن ماجة (٣٢٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٩٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٤٤).

(٣) في (ز): لحانا. والمثبت من «سنن أبي داود».

(٤) ضعيف بهذا السياق: رواه الحميدي (١٢٩٤)، وفيه مجالد بن سعيد ليس بالقوي، ورواه أبو داود (٤٤٥٢)، وابن ماجة (٢٣٢٨) من نفس الطريق، فالحديث بهذا السياق ضعيف.

«كَيْفَ تَجِدَانِ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ؟» قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المُكْحُلة رُجِمَا، قال: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَرْجُمُوهُمَا؟» قالا: ذهب سلطاننا، فكرهنا القتل. فدعا رسول الله ﷺ بالشُّهود، فجاءوا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في [فرجها][(١)] مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما[(٢)].

ثم رواه أبو داود، عن الشعبي وإبراهيم النَّخَعِي مرسلًا، ولم يذكر فيه: «فَدَعَا بِالشُّهُودِ[(٣)] فَشَهِدُوا».

فهذه أحاديث دالَّة علىٰ أنَّ رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صِحَّتَه؛ لأنَّهم مأمورون باتِّباع الشرع المحمَّدي لا محالة، ولكن هذا بوَحْيٍ خاصٍّ من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إيَّاهم عن ذلك ليُقَرِّرهم علىٰ ما بأيديهم، مما تواصَوْا علىٰ كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدُّهور الطَّويلة، فلما اعترفوا به مع عَملهم علىٰ خلافه، بَانَ زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحَّتَه من الكتاب الَّذِي بأيديهم، وعدولهم إلىٰ تحكيم الرسول ﷺ إنَّما كان عن هوًىٰ منهم وشهوةٍ لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحَّة ما يحكم به، لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي: الجلد والتَّحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتِّباعه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: الباطل ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام، وهو الرِّشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد؛ أي: ومَن كانت هذه صفته كيف يُطَهِّر الله قلبَهُ وأنَّىٰ يَسْتَجِيبُ له؟.

ثم قال لنبيه: ﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إليك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنَّهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتِّباع الحق، بل ما وَافَقَ هَوَاهُم.

قال ابن عبَّاس، ومُجَاهد، وعِكْرِمَة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخةٌ بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل وإن كانوا ظلمةً خارِجين عَن طريق العدلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثم قال تعالىٰ -منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحَّتَه مِن الكتاب الذي بأيديهم، الذي يَزْعُمون أنَّهم مأمُورُون بالتَّمسُّك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلىٰ غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم- فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) زيادة من «سنن أبي داود». (٢) ضعيف: انظر التعليق السابق. (٣) لوحة (٢٩٣ ب).

ثم[1] مدح التَّوراة التي أنزلها علىٰ عبده ورسوله موسىٰ بن عمران، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يُبَدِّلُونها ولا يُحَرِّفونها ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما استودعوا مِن كتاب الله الذي أُمِرُوا أن يُظْهِرُوهُ ويعملوا به ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: لا تخافوا منهم وخافوني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إبراهيم بن العبَّاس، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عُبيد[2] الله بن عبد الله، عن ابن عبَّاس قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧] قال: قال ابن عبَّاس: أنزلها الله في الطَّائفَتَيْن من اليهود[3]، كانت إحداهما قد قهرت الأخرىٰ في الجاهليَّة، حتَّىٰ ارتضوا واصطلحوا علىٰ أنَّ كل قتيل قتلته العَزِيزَة من الذليلة [فديته خمسون وَسْقًا، وكل قَتيل قتلته الذَّليلة من العزيزة فديته مائة وَسْقٍ، فكانوا علىٰ ذلك حتىٰ قدم النَّبيُّ ﷺ المدينة، فذَلَّت الطَّائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله ﷺ، ويومئذٍ لم يظهر، ولم يوطئهما عليه، وهو في الصلح، فقَتَلَتِ الذَّليلة][4] من العزيزة قتيلًا فأرسلت العزيزة إلىٰ الذَّليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وَسْقٍ، فقالت الذَّليلة: وهل كان [هذا][5] في حَيَّيْن [قط][6] دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد: دِيَة بعضهم نصفُ دِيَة بعض. إنَّما أعطيناكم هذا ضَيمًا منكم لنا، وفَرَقًا منكم، فأمَّا إِذْ قَدِمَ محمَّد فلا نعطيكم [ذلك،][7] فكادت الحرب تَهِيجُ بينهما، ثم ارتضوا علىٰ أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمَّد بمُعْطِيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيمًا منَّا وقهرًا لهم، فدسُّوا إلىٰ محمَّد: من يَخْبُر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حَكَّمْتُمُوه وإن لم يُعطكم حَذِرْتم فلم تُحَكِّمُوه. فدَسُّوا إلىٰ رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين ليَخْبُروا لهم رأي

---

(١) لوحة (٢٩٤ أ). (٢) في (ز): (عبد الله)، وهو خطأ.

(٣) قال ابن عثيمين رحمه الله: وعلىٰ القول أنها للخصوص نقول: يلحق بذلك من لم يحكم بما أنزل الله من غير اليهود إلحاقًا معنويًّا، ولكن اعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله إما أن يكون للطمع وإما أن يكون لكفر بما أنزل الله، وإما أن يكون لعدوان وظلم علىٰ الغير.

الأول: إن كان لطمع فإنه فاسق، كقاضٍ تنازع عنده رجلان فأعطاه أحدهما رشوة فحكم بغير ما أنزل الله؛ طلبًا للرشوة والطمع، فهذا نقول: إنه فاسق.

الثاني: رجل تخاصمَ إليه رجلان وكان بينه وبين أحدهما عداوة فحكم عليه والحق معه، نقول: هذا ظالم معتدٍ ليس له غرض بالحكم عليه، ولكنه يريد أن ينتقم منه؛ لأنه يكرهه أو بينهما تشاحن.

(٤) زيادة من «المسند». (٥) زيادة من «المسند».

(٦) زيادة من «المسند». (٧) زيادة من «المسند».

رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ ففيهم -والله- أنزل، وإيَّاهم [١] عنىٰ الله ﷻ [٢].

ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه بنحوه.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا هَنَّاد بن السَّرِي وأبو كُرَيْب قالا: حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، عن محمَّد بن إسحاق، حدَّثني داود بن الحصين، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس؛ أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلىٰ ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ إنَّما أُنزِلَت في الدِّية في بني النَّضير وبني قُرَيْظَة، وذلك أنَّ قتلىٰ بني النضير، كان لهم شرفٌ، تُؤدَّىٰ الدية كاملة، وأنَّ قريظة كانوا يُودَوْن لهم نصف الدِّية، فتحاكموا في ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ علىٰ الحقِّ في ذلك، فجعل الدِّية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان [٣].

ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن إسحاق به.

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن علي بن صالح، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كانت قريظة والنضير، وكانت النَّضِير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجلٌ مِن قريظة [رجلًا من النَّضِير] [٤] قُتِلَ به، وإذا قَتَلَ رجلٌ من النضير رجلًا من قريظة، وُدِيَ مائة وسق تمر. فلما بُعث رسول الله ﷺ، قتل رجلٌ مِن النضير رجلًا من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ. فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [٥].

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن حِبَّان، والحاكم في «المستدرك»، من حديث عبيد الله بن موسىٰ بنحوه.

وهكذا قال قتادة، ومُقاتل بن حَيَّان، وابن زيد وغير واحدٍ.

وقد روىٰ العَوْفِيُّ، وعلي بن أبي طلحة الوالِبِي، عن ابن عبَّاس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللَّذَيْن زَنَيا، كما تقدَّمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقتٍ واحدٍ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كلِّه، والله أعلم.

---

(١) لوحة (٢٩٤ ب).

(٢) حسن صحيح: أحمد (١/ ٢٤٦)، وأبو داود (٣٥٧٦)، وقال الألباني: حسن صحيح.
وله طريق أخرىٰ عن عكرمة عن ابن عبَّاس، رواه ابن جرير (٦/ ٢٤٣)، وإسناده حسن كذلك، وبه يرقىٰ الحديث إلىٰ الصحة.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) سقط من (ز).

(٥) رواه الطبري (٦/ ٢٤٣)، وفي رواية سماك عن عكرمة خاصة اضطراب، لكن رواه الطبري أيضًا من طريق أخرىٰ وهو الطريق السابقة وإسناده حسن.
والحديث رواه أبو داود (٤٤٩٤)، والنسائي (٨/ ١٨)، والحاكم (٤/ ٣٦٦)، وابن حبان (٥٠٥٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلىٰ آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضيَّة القصاص، والله ﷻ أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١)﴾ قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عبَّاس، وأبو مِجْلَزٍ، وأبو رَجاء العُطارِدي، وعِكْرِمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبةٌ.

وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن منصور(٢)، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورَضِيَ الله لهذه الأمة بها. رواه ابن جرير(٣).

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا يعقوب، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة ابن كُهَيل، عن عَلْقَمَة ومسروق أنَّهما سألا ابن مسعود عن الرِّشوة، فقال: من السُّحْت: قال: فقالا: وفي الحكم؟ قال: ذاك الكُفْر! ثم تلا ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٤).

وقال السُّدِّي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلتُ فتركه عمدًا، أو جار وهو يعلم، فهُو مِن الكافرين.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقَرَّ به ولم يحكم فهو ظالمٌ فاسقٌ(٥). رواه ابن جرير(٦).

ثم اختار أنَّ الآية المراد بها: أهل الكتاب، أو مَن جحد حكم الله المُنَزَّل في الكتاب.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قال: للمسلمين.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا شعبة، عن ابن أبي السَّفَر، عن الشعبي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: هذا في [المسلمين، ﴿وَمَن لَّمْ

---

(١) قال ابن باز رحمه الله: شأن القرآن الكريم التنوع في الأساليب؛ فلهذا قال في هذا مرة: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومرة أخرى قال: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، فهُم بذلك: ظالمون وفاسقون وكافرون.

(٢) لوحة (٢٩٥ أ).

(٣) رواه عبد الرزاق (١/ ٥٩١)، والطبري (٦/ ٢٤٤)، وإسناده مرسل.

(٤) صحيح: رواه الطبري (٦/ ٢٤٠).

(٥) قال الشنقيطي رحمه الله: واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر، والظلم، والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مرادًا به المعصية تارةً، والكفر المُخْرِجُ من الملة أخرىٰ: ومن لم يحكم بما أنزل الله، معارضةً للرسل وإبطالًا لأحكام الله، فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقدًا أنه مرتكبٌ حرامًا فاعلٌ قبيحًا فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل علىٰ أن الأولىٰ في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارىٰ، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكل هو ما رأيت، والعلم عند الله تعالىٰ.

(٦) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٥٧)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

﴿يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال: هذا في][1] النَّصارىٰ.

وكذا رواه هُشَيْم والثوري، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عبَّاس عن قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: هي به كفر، قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله[2].

وقال الثوري عن ابن جُرَيْج، عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وقال وَكِيع [عن سفيان،][3] عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: ليس بِكُفْرٍ ينقل عن الملَّة[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن هشام ابن حُجَير، عن طاوس، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: ليس بالكُفْرِ الَّذِي يذهبون إليه[5].

ورواه الحاكم في «مستدركه»، عن حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه[6].

---

(١) سقط من (ز). (٢) **صحيح**: رواه الطبري (٦/ ٣٥٦). (٣) زيادة من «الطبري».

(٤) **قال ابن باز** رحمه الله: إن كان ذلك دون استحلال، أما من استحل ذلك فهو كافر أصلًا، ليس كفرًا دون كفر.

(٥) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (٦٤٣٤)، والحاكم (٢/ ٣١٣)، وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، قلت: فيه هشام بن حجير: صدوق له أوهام كما في «التقريب».

(٦) **قال الشيخ أحمد شاكر** رحمه الله: وهذه الآثار - عن ابن عباس وغيره - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا، من المنتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجَرَأَة علىٰ الدين، يجعلونها عذرًا أو إباحية للقوانين الوثنية الموضوعة، التي ضربت علىٰ بلاد الإسلام.

- وهناك أثر عن أبي مجلز، في جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة، عمدًا إلىٰ الهوىٰ، أو جهلًا بالحكم. والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم علىٰ ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء؛ ليكون ذلك عذرًا لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف. وهذان الأثران رواهما الطبري (١٢٠٢٥، ١٢٠٢٦)، وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقًا نفيسًا جدًّا، قويًّا صريحًا. فرأيت أن أثبت هنا نصَّ أُولىٰ روايتي الطبري، ثم تعليق أخي علىٰ الروايتين.

- فروىٰ الطبري (١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير، قال: «أتىٰ أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبا مجلز، أرأيت قول الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قال: فقالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا، فقالوا: لا والله، ولكنك تَفْرَق! قال: أنتم بهذا مني! لا أرىٰ، وإنكم ترون هذا ولا تحرَّجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارىٰ وأهل الشرك، أو نحوًا من هذا».

- ثم روىٰ الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه. وإسنادهما صحيحان. فكتب أخي السيد محمود، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه:

=

= - «اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة، وبعد، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف علىٰ هذين الخبرين، اتخذهما رأيًا يرىٰ به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها، والعامل عليها.

- والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسئول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعيٌّ ثقةٌ، وكان يحب عليًّا ﷺ وكان قوم أبي مجلز، وهم بنو شيبان، من شيعة علي يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج علىٰ علي ﷺ طائفة من بني شيبان، ومن بني سدوس ابن شيبان بن ذهل. وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز، ناس من بني عمرو بن سدوس (كما في الأثر: ١٢٠٢٥)، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر: ١٢٠٢٦)، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم، وفي تكفير علي ﷺ إذ حكم الحكمين، وأن عليًّا لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم. ثم إن عبد الله بن إباض قال: إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقام الخوارج علىٰ أن أحكام المشركين تجري علىٰ من خالفهم.

- ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقًا لا ندري معه في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون، بَيْد أن الإباضية كلها تقول: إن دُورَ مخالفيهم دُورُ توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم. ثم قالوا أيضًا: إن جميع ما افترض الله سبحانه علىٰ خلقه إيمان، وأن كل كبيرةٍ فهي كفر نعمةٍ، لا كفر شركٍ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها.

- ومن البيِّن أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء؛ لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه. ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم: ١٢٠٢٥): «فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا» وقال لهم في الخبر الثاني: «إنهم يعملون بما يعلمون ويعلمون أنه ذنب».

- وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلىٰ حكم غير الله في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبته عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر علىٰ حكم الله ﷻ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة - علىٰ اختلافهم - في تكفير القائل به والداعي إليه.

- والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج علىٰ تفضيل أحكام القانون الموضوع، علىٰ أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!!

- ولو كان الأمر علىٰ ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكمًا وجعله شريعةً ملزمةً للقضاء بها، هذه واحدة، وأخرىٰ: أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوىٰ ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة. وإما أن يكون حكم به متأولًا حكمًا خالف به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله.

- وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر، جاحدًا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرًا لأحكام أهل الكفر علىٰ أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه. فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها، وصرفها إلىٰ غير معناها، رغبة في نصرة سلطان، أو احتيالًا علىٰ تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض علىٰ عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله، أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضي بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر علىٰ كفره معروف لأهل هذا الدين. وكتبه محمود محمد شاكر».

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1]

وهذا أيضًا مما وُبِّخَتْ به اليهود وقُرِّعُوا عليه، فإنَّ عندهم في نصِّ التَّوراة: أنَّ النَّفس بالنَّفس. وهم يُخَالِفُون ذلك عمدًا وعنادًا، ويُقِيدُون النَّضْري من القرظي، ولا يُقِيدُون القرظي من النَّضْرِيِّ، بل يعدلون إلىٰ الدِّية، كما خالفوا حكم التَّوراة المنصوص عندهم في رجم الزَّاني المُحْصَن، وعدلوا إلىٰ ما اصْطَلَحوا عليه من الجَلْدِ والتَّحْمِيم والإشهار؛ ولهذا قال هناك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا، وقال هاهنا: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم [في الأمر][2] الذي أمر الله بالعَدْلِ والتَّسْوِيَة بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، [وتعدَّىٰ بعضهم علىٰ بعضٍ][3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا [يحيىٰ بن آدم،][4] حدَّثنا ابن المبارك، عن يونس بن يزيد، عن أبي علي بن يزيد -أخىٰ يونس بن يزيد- عن الزهري، عن أنس بن مالك؛ أنَّ رسول الله ﷺ قرأها: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنُ﴾[5] نصب النفس ورفع العين[6].

وكذا رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم في «مستدركه»، من حديث عبد الله بن المبارك، وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال البخاري: تفرد ابن المبارك بهذا الحديث.

وقد استدلَّ كثيرٌ ممَّن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلىٰ أنَّ شرع مَن قبلنا شرعٌ لنا، إذا حُكِيَ مقرَّرًا ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا علىٰ وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة.

وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلىٰ الناس عامة. رواه ابن أبي حاتم.

وقد حكىٰ الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه ثالثها: أن شرع إبراهيم حُجَّةٌ دون غيره، وصحح منها عدم الحُجِّيَّة، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أقوالًا عن الشافعي، ورجح أنه حُجَّةٌ عند الجمهور من أصحابنا، فالله أعلم.

---

(١) لوحة (٢٩٥ ب).
(٢) سقط من (ز).
(٣) في (ز): وتعدوا علىٰ بعضهم بعضًا.
(٤) في (ز): حدَّثنا آدم حدَّثنا ابن آدم.
(٥) ضعيف: رواه أبو داود (٣٩٧٦)، والترمذي (٢٩٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٣٦)، وأحمد (٣/ ٢١٥)، وفيه أبو علي بن يزيد: مجهول.
(٦) متواترة: قَرَأَ (الْعَيْنُ) الْكِسَائِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْعَيْنَ).

وقد حكىٰ الإمام أبو نصر بن الصباغ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الشامل» إجماع العلماء علىٰ الاحتجاج بهذه الآية علىٰ ما دلَّت عليه، وقد احتجَّ الأئمة كلهم علىٰ أن الرجل يُقْتَل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه[1] النسائي وغيره، أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم: «**أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالمَرْأَةِ**» وفي الحديث الآخر: «**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ**»[2] وهذا قول جمهور العلماء.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنَّ الرجل إذا قتل المرأة لا يُقْتَل بها، إلا أن يدفع وليها إلىٰ أوليائه نصف الدية؛ لأنَّ ديتها علىٰ النِّصف من دِيَة الرجل، وإليه ذهب أحمد في روايته عنه، وحكي هذا عن الحسن البصري وعطاء، وعثمان البَتِّي، ورواية عن أحمد به أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، بل تجب ديتها[3].

وهكذا احتج أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بعموم هذه الآية علىٰ أنَّه يقتل المسلم بالكافر الذِّمِّي، وعلىٰ قتل الحُرِّ بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي «الصحيحين» عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»[4]، وأما العبد فعن السلف في آثار متعددة: أنهم لم يكونوا يُقِيدُون العبد من الحر، ولا يقتلون حرًّا بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكىٰ الشافعي الإجماع علىٰ خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليلٍ مخصِّصٍ للآية الكريمة.

ويُؤَيِّد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا محمَّد بن أبي عَدِيّ، حدَّثنا حُمَيْد، عن أنس بن مالك: أن الرُّبَيِّعَ عَمّة أنس كسرت ثَنِيَّة جارية، فطلبوا إلىٰ القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «**القِصَاصُ**». فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله تكسر ثنية فلانة؟! فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ**». قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق، لا تُكْسَر ثَنِيَّة فلانة. قال: فرضي القوم، فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ**»[5].

أخرجاه في «الصحيحين»، وقد رواه محمَّد بن عبد الله بن المثنىٰ الأنصاري، في الجزء المشهور من حديثه، عن حميد، عن أنس بن مالك؛ أن الرُّبَيع بنت النضر عَمَّته لطمت جاريةً فكسرت ثنيتها فعرضوا عليهم الأرش، فأبوا فطلبوا الأرش والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثَنِيَّتها. فقال النَّبيُّ

---

(١) لوحة (٢٩٦ أ).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٥٣١)، وابن ماجة (٢٦٨٥)، وأحمد (٢/ ١٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: الصحيح قَتْلُ الرجل إذا قَتَلَ المرأة، بدليل أمر الرسول ﷺ بِرَضِّ رأس من رَضَّ رأس الجارية بين حجرين.

(٤) رواه البخاري (١١١). (٥) البخاري (٢٨٠٩)، ومسلم (١٦٧٥).

ﷺ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ». فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ:[1] «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ»[2]. رواه البخاري عن الأنصاري. فأما الحديث الذي رواه أبو داود:

حدَّثنا أحمد بن حنبل، حدَّثنا معاذ بن هشام، حدَّثنا أبي، عن قتادة، عن أبي نَضرة، عن عمران بن حصين، أن غلامًا لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتىٰ أهله النَّبيَّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناسٌ فقراء، فلم يجعل عليه شيئًا. وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه عن قتادة، به وهذا إسنادٌ قويٌّ رجاله كلهم ثقات فإنه حديث مشكل، اللَّهمَّ إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ، فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: تقتل النفس بالنفس، وتُفْقَأُ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السِّن بالسِّن، وتقتص الجراح بالجراح.

فهذا يَسْتَوِي فيه أحرار المسلمين به فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمدًا في النَّفس وما دون النَّفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمدًا، في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[4].

قاعدة مهمة:

الجراح تارة تكون في مَفْصِل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك. وأمَّا إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم، فقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه القصاص إلا في الفَخِذ وشبهها؛ لأنَّه مخوفٌ خَطِرٌ، وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقًا إلا في السِّن. وقال الشَّافعي: لا يجب القصاص في شيءٍ من العظام مطلقًا، وهو مرويٌّ عن عمر بن الخطاب، وابن عبَّاس، وبه يقول عطاء، والشعبي، والحسن البصري، والزهري، وإبراهيم النَّخَعِي، وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب سفيان الثوري، والليث بن سعد، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

وقد احتج أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث الرُّبَيع بنت النضر علىٰ مذهبه أنَّه لا قصاص في عظم إلا في السِّنِّ، وحديثُ الرُّبَيِّع لا حُجَّة فيه؛ لأنَّه ورد بلفظ: «كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جارية» وجائز أن تكون سقطت مِن غير كسر، فيجب القصاص -والحالة هذه- بالإجماع. وتمموا الدلالة بما رواه ابن ماجة، من طريق أبي بكر بن عيَّاش، عن دهْثَم بن قُرَّان، عن نِمْرَان بن[5] جارية، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي: أنَّ رجلًا ضرب رجلًا

---

(١) لوحة (٢٩٦ ب). (٢) البخاري (٢٧٠٣) (٤٤٩٩) (٦٨٩٤).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٥٩٠)، والنسائي (٨/ ٢٥، ٢٦)، وأحمد (٤/ ٤٣٨).

(٤) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٦٤٤٠ - ٦٤٤٧)، والطبري (٦/ ٢٥٩)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٥) لوحة (٢٩٧ أ).

علىٰ ساعده بالسيف من غير المفصل، فقطعها، فاستعدىٰ النَّبيَّ ﷺ، فأمر له بالدِّية، فقال: يا رسول الله، أُرِيد القصاص. فقال: «خُذِ الدِّيَةَ، بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا». ولم يقض له بالقصاص[١].

وقال الشيخ [أبو عمر بن عبد البر:][٢] ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد، وَدَهْثَم بن قُرَّان العُكلي: ضعيف أعرابي، ليس حديثه مما يُحْتَجُّ به، ونمران بن جارية: ضعيف أعرابي أيضًا، وأبوه جارية بن ظفر: مذكور في الصحابة.

ثم قالوا: لا يجوز أن يُقْتَصَّ من الجراحة حتىٰ تَنْدَمِل جراحة المجني عليه، فإنِ اقْتَصَّ منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فلا شيء له، والدليل علىٰ ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدَّثنا [يعقوب، حدَّثنا أبي، عن محمَّد بن إسحاق، فذكر حديثًا، قال ابن إسحاق: وذكر][٣] عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أنَّ رجلًا طعن رجلًا بقرن في ركبته، فجاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: أقدني. [فقال ﷺ: «**لَا تَعْجَلْ حَتَّىٰ يَبْرَأَ جُرْحُكَ**». قال: فأبىٰ الرجل إلا أن يستقيد،][٤] فأقاده [رسول الله ﷺ منه، قال: فعَرج المستقيد وبرأ المستقاد منه، فأتىٰ المستقيد إلىٰ رسول الله ﷺ][٥] فقال له: يا رسول الله، عَرَجْتُ [وبَرَأَ صاحبي][٦]. فقال: «**قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ اللهُ وَبَطَلَ عَرَجُكَ**». ثم نهىٰ رسول الله ﷺ أن يُقْتَصَّ من جرح حتىٰ يبرأ صاحبه[٧]. تفرَّد به أحمد.

مسألة:

فلو اقتصَّ المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص، فلا شيء عليه عند مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصَّحابة والتَّابعين وغيرهم، وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عامر الشعبي، وعطاء، وطاوس، وعمرو بن دينار، والحارث العُكْلِي، وابن أبي ليلىٰ، وحماد بن أبي سليمان، والزهري، والثوري: تَجِبُ الدِّية علىٰ عاقِلَةِ المقتص له. وقال ابن مسعود، وإبراهيم النَّخعي، والحكم بن عتَيبة، وعثمان البَتِّيُّ: يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله.

وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يقول: فمن عفا عنه، وتصدَّق عليه فهو كفارة للمطلوب، وأجر للطالب[٨].

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَن

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجة (٢٦٣٦)، وفيه دهثم بن قُرَّان، قال الحافظ: متروك، وقُرَّان ابن جارية: ضعيف.
(٢) في (ز): أبو عمر بن عمر بن عبد العزيز.
(٣) زيادة من «المسند»، وفي (ز) بياض.
(٤) زيادة من «المسند».
(٥) زيادة من «المسند».
(٦) زيادة من «المسند».
(٧) صححه الألباني لشواهده، انظر: «الإرواء» (٢٢٣٧).
(٨) رواه ابن أبي حاتم (٦٤٤٧) وإسناده منقطع، ويشهد له الإسناد الآتي.

﴿تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [قال: كفارة][1] للجارح، وأجر المجروح على الله ﷻ. رواه ابن أبي حاتم[2]، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم -في أحد قوليه- وعامر الشعبي، وجابر بن زيد نحو ذلك الوجه الثاني، ثم قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا حماد بن زاذان، حدَّثنا حَرَمِي -يعني[3] ابن عمارة- حدَّثنا شعبة، عن عمارة -يعني ابن أبي حفصة- عن رجل، عن جابر بن عبد الله، في قول الله ﷻ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: للمجروح[4]. وروى عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي -في أحد قوليه- وأبي إسحاق الهمداني، نحو ذلك.

وروى ابن جرير، عن عامر الشعبي وقتادة مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن حبيب، حدَّثنا أبو داود الطيالسي، حدَّثنا شعبة، عن قيس -يعني ابن مسلم- قال: سمعت طارق بن شهاب، يُحَدِّث عن الهيثم أبي العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهًا بالموالي، فسألته عن قول الله ﷻ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: يُهْدَم عنه مِن ذنوبه بقدر ما تَصدق به[5].

وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم. وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة.

وقال ابن مَرْدويه: حدَّثني محمَّد بن علي، حدَّثنا عبد الرحيم بن محمَّد المُجَاشِعي، حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن الحجاج المَهْري، حدَّثنا يحيى بن سليمان الجُعْفي، حدَّثنا مُعلَّى -يعني ابن هلال[6]- أنَّه سمع أبان بن تغلب، عن [أبي][7] العريان الهيثم بن الأسود، عن عبد الله بن عمرو -وعن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: «**هُوَ الَّذِي تُكْسَرُ سِنُّهُ، أَوْ تُقْطَعُ يَدُهُ، أَوْ يُقْطَعُ الشَّيْءُ مِنْهُ، أَوْ يُجْرَحُ فِي بَدَنِهِ فَيَعْفُو عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ فَيُحَطُّ عَنْهُ قَدْرُ خَطَايَاهُ، فَإِنْ كَانَ رُبْعُ الدِّيَةِ فَرُبْعُ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَ الثُّلُثُ فَثُلُثُ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتِ الدِّيَةُ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَذَلِكَ**»[8].

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدَّثنا ابن فضيل، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفَر قال: دفع رجلٌ من قريشٍ رجلًا من الأنصار، فاندقت ثَنِيَّته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية، فلما ألَحَّ عليه الرجل قال: شأنك وصاحبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٦٤٤٩)، والطبري (٦/ ٢٦٢)، ولا يضر اختلاط عطاء بن السائب، فإن الراوي عنه سفيان الثوري، وقد روى عنه السفيانان قبل الاختلاط.

(٣) لوحة (٢٩٧ ب).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٤٦)، وفيه رجل مجهول.

(٥) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٦٤٤٨)، والطبري (٦/ ٢٦١).

(٦) في (ز): ابن بلال.

(٧) سقط من (ز).

(٨) موضوع: عزاه لابن مردويه. وفيه معلى بن هلال. قال الحافظ: اتفق النقاد على تكذيبه.

أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ، فَيَهَبُهُ، إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً**». فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ ووعاه قلبي، فخلَّىٰ سبيل القُرَشِيِّ، فقال معاوية: مروا له بمال(١).

هكذا رواه ابن جرير، ورواه الإمام أحمد فقال: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفر(٢) قال: كسر رجلٌ من قريشٍ سنَّ رجل من الأنصار، فاستعدىٰ(٣) عليه معاوية، فقال [القرشيُّ: إنَّ هذا دقَّ سنِّي؟ قال](٤) معاوية: إنا سَنُرْضِيه. فألَحَّ الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحِبِكَ، وأبو الدَّرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ فِي جَسَدِهِ، فَيَتَصَدَّقُ بِهِ، إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**». فقال الأنصاري: فإني؛ يعني: قد عفوت.

وهكذا رواه التِّرمِذيُّ من حديث ابن المبارك، وابن ماجة من حديث وَكِيع، كلاهما عن يونس ابن أبي إسحاق به، ثمَّ قال التِّرمذي: غريب لا نَعْرِفُه إلَّا مِن هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السَّفَر سماعًا مِن أبي الدَّرداء(٥).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدَّثنا دَعْلَج بن أحمد، حدَّثنا محمَّد بن علي بن زيد، حدَّثنا سعيد بن منصور، حدَّثنا سفيان، عن عمران بن ظبيان، عن عدي بن ثابت؛ أنَّ رجلًا هَتَم فَمَهُ(٦) رجلٌ، علىٰ عهد معاوية ﷺ فأُعْطِيَ ديةً، فأبىٰ إلا أن يَقْتَصَّ، فأُعْطِيَ دِيَتَيْن، فأبىٰ، فأعطي ثلاثًا، فأبىٰ، فحدث رجل مِن أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَىٰ يَوْمِ يَمُوتُ**»(٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيج بن النُّعمان، حدَّثنا هُشَيْم، عن المغيرة، عن الشعبي؛ أن عبادة بن الصَّامت قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةً، فَيَتَصَدَّقُ بِهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ**»(٨).

ورواه النسائي، عن علي بن حُجْر، عن جرير بن عبد الحميد، ورواه ابن جرير، عن محمود بن

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٦٠)، وأحمد (٦/ ٤٤٨)، والترمذي (١٣٩٣)، وابن ماجة (٢٦٩٣)، وإسناده منقطع بين أبي السفر وأبي الدرداء.

(٢) لوحة (٢٩٨ أ). (٣) أي: استغاث بمعاوية علىٰ الرجل. (٤) سقط من (ز).

(٥) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٤٤٨)، وانظر التعليق علىٰ الحديث السابق.

(٦) هتم فاه: القىٰ مقدم أسنانه، ومثله: أهتم.

(٧) حسن لغيره: ورواه ابن جرير (٦/ ٢٦٠)، وفي إسناده عمران بن ظبيان. قال ابن حجر: ضعيف.
لكن للحديث شواهد: منها: عن عبادة بن الصامت. رواه أحمد (٥/ ٣١٦)، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة»: (٢٢٧٣) إن كان المغيرة سمعه من الشعبي.
وبالجملة: فالحديث حسن أو صحيح. والله أعلم.

(٨) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ٣١٦)، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢٢٧٣) إن كان المغيرة سمعه من الشعبي ويشهد له الرواية السابقة والآتية.

خِداش، عن هُشَيْم، كلاهما عن المغيرة به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد القطان، عن مجالد، عن عامر، عن المحرَّر بن أبي هريرة، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ، فَتَرَكَهُ للهِ، كَانَ كَفَّارَةً لَهُ»(١).

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قد تقدَّم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كُفْرٌ دون كفرٍ، وظلمٌ دون ظلمٍ، وفسقٌ دون فسقٍ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل: ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾(٢) أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدىً إلىٰ الحقِّ، ونور يُسْتَضاءُ به في إزالة الشُّبهات وحلِّ المشكلات، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مُتَّبِعًا لها، غير مخالفٍ لما فيها، إلَّا في القَليلِ مما بيَّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن المسيح أنَّه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بَعْضَ أحكام التوراة.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل ﴿هُدًى﴾ يهتدىٰ به، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقىٰ الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قُرِئ ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنَّصب علىٰ أنَّ اللام لام كي؛ أي: وآتيناه الإنجيل فيه هدًىٰ ونورٌ ليحكم أهل مِلَّتِهِ به في زمانهم. وقرئ: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بالجزم واللام لام الأمر(٣)، [أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمَّدٍ ﷺ والأمر](٤) باتِّباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي:

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ٤١٢)، وفيه مجالد بن سعيد: ليس بالقوي، لكن يشهد للحديث الروايتان السابقتان.
(٢) لوحة (٢٩٨ ب).
(٣) متواترة: قَرَأَ (وَلِيَحْكُمَ) حَمْزَةُ وَوَافَقَهُ الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَلْيَحْكُمْ).
(٤) سقط من (ز).

الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلىٰ الباطل، التَّاركون للحق. وقد تقدَّم أن هذه الآية نزلت في النصارىٰ، وهو ظاهر السِّيَاق.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ (١) أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ كليمه عليه السلام ومدحها وأثنىٰ عليها، وأمر باتِّباعها حيث كانت سائغةَ الاتِّباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدَّم بيانه، شرع تعالىٰ في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله علىٰ عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدْق الَّذِي لا ريب فيه أنَّه مِن عند الله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: من الكُتُب المُتَقَدِّمَةِ المُتَضَمِّنَة ذكْرَه ومَدْحَه، وأنه سينزل من عند الله علىٰ عبده ورسوله محمَّد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر، الَّذِين انقادوا لأَمْرِ الله واتَّبعُوا شرائع الله، وصدَّقوا رسل الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله علىٰ ألسنة الرُّسُل المتقدِّمين، مِن مجيء محمَّدٍ عليه السلام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي: لكائنًا لا محالةَ ولا بدَّ.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عبَّاسٍ، أي: مؤتمنًا عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين علىٰ كلِّ كتاب قبله.

وروي عن عِكْرِمَة، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، ومحمَّد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وابن زيد نحو ذلك.

وقال ابن جريج: القرآنُ أمينٌ علىٰ الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حَقٌّ، وما خالفه منها فهو باطلٌ.

وعن الوالبي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: شهيدًا. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي.

وقال العَوْفِي عن ابن عبَّاس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: حاكمًا علىٰ ما قبله من الكتب.

---

(١) لوحة (٢٩٩ أ).

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنىٰ، فإنَّ اسم «المُهَيْمِن» يتضمن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ علىٰ كُلِّ كتابٍ قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الَّذي أنزله آخِر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها. وتكفَّل تعالىٰ بحِفْظِهِ بنفسه الكريمة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

فأما ما حكاه ابن أبي[1] حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نَجيح، عن مجاهد؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يعني: محمَّدًا ﷺ أمين علىٰ القرآن، فإنَّه صحيح في المعنىٰ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيله عليه مِن حيث العربية أيضًا نظر. وبالجملة فالصحيح الأوَّل، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التَّأويل بعيدٌ مِن المفهوم في كلام العَرَبِ، بل هو خطأ، وذلك أن «المُهَيْمِن» عطف علىٰ «المُصدِّق»، فلا يكون إلا من صفة ما كان «المُصدِّق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقًا لما بين يديه من الكتاب مهيمنًا عليه». يعني: مِن غير عطف.

وقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: فاحكم يا محمَّد بين النَّاس: عَرَبهم وعَجَمِهم، أُميِّهم وكِتَابيِّهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرَّره لك مِن حكم مَن كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجهه ابن جرير بمعناه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عمار، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: كان النَّبيُّ ﷺ مخيرًا، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردَّهُم إلىٰ أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بَيْنَهُم بما في كتابنا[2][3].

---

(١) لوحة (٢٩٩ ب). (٢) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٦٣٨٨).

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: سبقت الإشارة إلىٰ هذا الحديث عن ابن عباس، ضمن الحكاية عن القائلين بالنسخ ـ مضت عند تفسير الآية: (١٧١) من سورة النساء.

وهذا الحديث إسناده عند ابن أبي حاتم صحيح، ورواه الحاكم (٢/ ٣١٢) من هذا الوجه بنحو معناه، مختصرًا، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

ورواه الطبري (١١٩٩٦) بنحوه، بأطول من رواية الحاكم. فرواه بالإسناد الذي رواه به ابن أبي حاتم، ولكن قصر به، فجعله من كلام مجاهد! فلا أدرىٰ: أهو تفسير من الطبري في الإسناد؟ أم سقط من الناسخين قوله: «عن ابن عباس»؟ وهذا الذي أكاد أرجحه.

وقد رواه أبو جعفر النحاس في كتاب «الناسخ والمنسوخ» (ص ١٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٨/ ٢٤٨، ٢٤٩) كلاهما من هذا الوجه، من طريق سفيان بن حسين، بهذا الإسناد، مطولًا، ولفظه: «عن ابن عباس، قال: نسخت من هذه السورة، ـ يعني المائدة ـ آيتان: آية القلائد، وقوله: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فكان رسول الله ﷺ مخيرًا، إن شاء حكم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلىٰ أحكامهم، فنزلت: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، فأمر النبي ﷺ =

= أن يحكم بينهم بما في كتابنا».
وهذه الرواية هي أوفىٰ الروايات لهذا الحديث. وكذلك نقله السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٢٨٤) بهذا اللفظ المطول، ونسبه لابن حاتم والنحاس في ناسخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «سننه» ومن الواضح أنه يريد أصل الحديث، وإلا فبعض هؤلاء رواه مختصرًا، كما في روايتي ابن أبي حاتم والحاكم.
وذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٣٤، ٤٣٥) معلقًا، بنحو روايتي النحاس والبيهقي.
ثم قال النحاس - بعد رواية الحديث-: «وهذا إسناد مستقيم، وأهل الحديث يدخلونه في «المسند»، وهو قول جماعة من العلماء»، ثم روىٰ نحو هذا بإسناد آخر عن مجاهد، ثم قال: «فهذا أيضًا إسناد صحيح، والقول بأنها منسوخة قول عكرمة والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي، وهو الصحيح من قول الشافعي، قال في كتاب الجزية: ولا خيار له إذا تحاكموا إليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]. وهذا من أصح الاحتجاجات؛ لأنه إذا كان معنىٰ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أن تجري عليهم أحكام المسلمين- وجب أن لا يردوا إلىٰ أحكامهم، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة».
ونقل البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٨/ ٢٤٨) عن الشافعي أنه «نص في كتاب الجزية علىٰ أن ليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذي يجري عليهم الحكم إذا جاءوه في حد الله، وعليه أن يقيمه. واحتج بقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قال: فكان الصغار -والله أعلم- أن يجري عليهم حكم الإسلام».
وقد رد القاضي أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» (١/ ٢٦١) قول من ذهب إلىٰ النسخ، فقال: «وهذه دعوىٰ عريضة! فإن شروط النسخ أربعة، منها: معرفة التاريخ بتحصيل المتقدم والمتأخر، وهذا مجهول من هاتين الآيتين، فامتنع أن يدعىٰ أن واحدةً منهما ناسخةٌ للأخرىٰ، وبقي الأمر علىٰ حاله»!!
وهذا كلام ملقىٰ علىٰ عواهنه، غير محرر.
فإن سياق الآيات، من أول قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] إلىٰ آخر هذه الآيات في الآية (٥٠) - يدل علىٰ أنه سياقٌ واحدٌ نزل دفعةً واحدةً غير منجَّم، ويزيده تأييدًا وتوكيدًا، حديث أسماء بنت يزيد، الذي مضىٰ في أول سورة المائدة الذي فيه: «إذ نزلت عليه المائدة كلها»، وكذلك حديث عبد الله بن عمرو، المذكور عقبه هناك، بما يدل في ظاهره علىٰ نزول «سورة المائدة»، من غير بيان أن بعضها تأخر نزوله عن سائرها.
وقد رد الجصاص (٢: ٤٣٥) برد آخر طريف! بأنه «لم يقل من أثبت التخيير أن آية التخيير نزلت بعد قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وأن التخيير نسخه». يريد بذلك أن يعقد تعارضًا بين الآيتين، وأن لابد أن إحداهما ناسخةٌ، وأنه لم يقل أحد: إن آية التخيير - وهي المقدمة في التلاوة- متأخرة النزول عن هذه الآية ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ حتىٰ يكون التخيير ناسخًا لها. فكان من الضروري أن الآية التالية في التلاوة ناسخةٌ للتخيير الذي في الآية قبلها.
وأما الطبري ، فإنه أبىٰ القول بالنسخ، مستندًا إلىٰ القاعدة الأصولية الصحيحة: أنه لا يصار إلىٰ القول بالنسخ إذا تعارضت الآيتان تعارضًا تامًّا بحيث لا يمكن الجمع بينهما، ولكنه حين أراد أن يجمع بينهما أخطأ طريق الجمع، فتأول الآية الثانية بما يجعلها غير مقررة حكمًا جديدًا! بأن جعل معناها: «وأن أحكم بينهم بما أنزل الله إذا حكمت منهم باختيارك الحكم بينهم، إذا اخترت ذلك، ولم تختر الإعراض عنهم». انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٣٣- ٣٣٤).
ومن المفهوم بداهة: أن هذا الجمع يكاد يجعل الأمر بالحكم بينهم في الآيتين (٤٨، ٤٩) تكرارًا فقط لما مضىٰ في الآية (٤٢)، آية التخيير؛ لأن نصها: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:٤٢] ثم جاءت الآية (٤٨): ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة:٤٨] إلىٰ آخر الآية. ثم جاءت بعدها (٤٩) مؤكدةً لحكمها، مثبتةً لمعناها: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة:٤٩].
=

= فسياق الآيات الثلاث واضحٌ جدًّا، وصريحٌ في أن الحكم في الآيتين الأخيرتين غير الحكم في الآية (٤٣)، وأنه حكمٌ جديدٌ مؤكدٌ مثبت المعنىٰ في آيتين متتاليتين، فحمله فيها علىٰ معنىٰ الآية (٤٣) بأن حكمها هذا إنما هو في أحد حالي التخيير فقط - غير سديد، ولا هو بمستقيم.

والوجه الصحيح في فهم هذه الآيات والجمع بينها، وفي فهم حديث ابن عباس بالنسخ: أن آية التخيير إنما هي في القوم الذين جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ يُحَكِّمُونَهُ بينهم في شأن الزانيين وفي شأن الديات، وهم قوم من يهود، لم يكونوا ذميين ولا معاهدين؛ أعني: أنهم لم يكونوا في سلطان الدولة الإسلامية ولا خاضعين لأحكامها، بل قدموا إلىٰ الحاكم الأعلىٰ في الدولة الإسلامية يجعلونه حكمًا بينهم في بعض شأنهم، وكانوا مستطيعين أن يحكموا بأنفسهم في شأنهم بحكم دينهم أو بأهوائهم، كعادتهم في سائر ما يعرض لديهم من الأقضية، فإذا جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ يُحَكِّمُونَهُ علىٰ بعض ما عرض لهم، أعلمه الله سبحانه أن له الخيار في أن يحكم بينهم فيما حَكَّمُوهُ فيه أو أن يعرض عنهم، وأمره في الآية نفسها أنه إذا أراد أن يحكم بينهم واختار ذلك - أن يحكم فيهم بالعدل. ويوضح ذلك ويبينه كالشمس: أنه قال له في الآية التي تتلو آية التخيير: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣]، فحددت هذه الآية معنىٰ حكم التخيير، وأنه في قوم لجئوا إليه وجاءوا يجعلونه حكمًا بينهم، ليس في قوم هم رعية له خاضعون لحكمه وسلطانه، ثم جاءت الآيتان الأخريان بحكمٍ جديدٍ: يأمره أن يحكم في رعيته من أهل الكتاب ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأن لا يتبع أهواءهم، فليس لهم حق أن يتحاكموا إلىٰ أهل ملتهم، وليس لهم علىٰ المسلمين امتياز بأن لا يخضعوا لحكم الدولة التي هم خاضعون لأحكامها، والتي يعطون فيها الجزية عن يد وهم صاغرون.

وإلىٰ هذا المعنىٰ الدقيق يشير كلام الشافعي في «الأم»، بل يكاد يكون صريحًا، فقد قال في الجزء (٤/ ١٢٩، ١٣٠): «لم أعلم مخالفًا من أهل العلم بالسير أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمدينة وادع يهود كافة علىٰ غير جزية، وأن قول الله ﷻ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة:٤٣]، إنما نزلت في اليهود الموادعين الذي لم يعطوا جزية، ولم يقروا بأن يجري عليهم الحكم، وقال بعضٌ: نزلت في اليهوديَّيِنِ اللذين زنيا. قال الشافعي: والذي يشبه ما قالوا؛ لقول الله ﷻ: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ [المائدة: ٤٩] يعني - والله أعلم -: إن تولوا عن حكمك بغير رضاهم. وهذا يشبه أن يكون ممن أتىٰ حاكمًا غير مقهور علىٰ الحكم، والذين حاكموا إلىٰ رسول الله ﷺ - في امرأة منهم ورجل زنيا - موادعون، وكان في التوراة الرجم، فجاءوا بهما فرجمهما رسول الله ﷺ، قال: وإذا وادع الإمام قومًا من أهل الشرك ولم يشترط أن يجري عليهم الحكم، ثم جاءوا متحاكمين، فهو بالخيار بين أن يحكم بينهم أو يدع الحكم، فإن اختار أن يحكم بينهم حكم بينهم حكمه بين المسلمين؛ لقول الله ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، والقسط: حكم الله الذي أنزله عليه ﷺ. قال الشافعي: وليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين الذي يجري عليهم الحكم، إذا جاؤوه في حد الله ﷻ، وعليه أن يقيمه، ولا يفارقون الموادعين إلا في هذا الموضع».

ثم قال الشافعي: «قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]، فكان الصغار - والله أعلم - أن يجري عليهم حكم الإسلام... ولا يجوز أن تكون دار الإسلام دار مقام لمن يمتنع من الحكم في حال».

وقد ذكر الجصاص (٢/ ٤٣٥) هذا المعنىٰ، وجعله محتملًا في معنىٰ الآية، ثم رده بما لا يصلح ردًّا، فقال: تحت أحكام الإسلام بالجزية، فلما أمر الله بأخذ الجزية منهم وجرت عليهم أحكام الإسلام أمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، فيكون حكم الآيتين جميعًا ثابتًا: التخيير في أهل العهد الذين لا ذمة لهم ولم يجرِ عليهم أحكام المسلمين، كأهل الحرب إذا هادناهم، وإيجاب الحكم بما أنزل الله في أهل الذمة الذين يجري عليهم أحكام المسلمين. وقد روي عن ابن عباس ما يدل علىٰ ذلك: روىٰ محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس: أن الآية التي في المائدة، قول الله تعالىٰ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٢] - إنما نزلت في الدية بين قريظة وبني النضير، وذلك: أن بني النضير كان لهم شرف، يدون دية كاملة، وأن بني قريظة يدون نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ علىٰ الحق في ذلك، فجعل الدية سواء، ومعلومٌ أن بني قريظة والنضير لم تكن لهم ذمةٌ قط، وقد أجلىٰ النبي ﷺ بني النضير وقتل بني قريظة، ولو كان لهم ذمةٌ لما أجلاهم =

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءَهُم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله علىٰ رسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الَّذِي أمرك الله به إلىٰ أهواء هؤلاء مِن الجهلة الأشقياء.

وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن التميمي، عن ابن عبَّاس: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ قال: سبيلًا.

وحدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا وَكِيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: وسُنَّة. وكذا روىٰ العَوْفِيّ، عن ابن عبَّاس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سبيلًا وسُنَّةً.

وكذا رُوي عن مجاهد وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وأبي إسحاق السبيعي؛ أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سبيلًا وسُنَّةً.

وعن ابن عبَّاس ومجاهد أيضًا وعطاء[١] الخراساني عكسه: [﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سُنَّةً وسبيلًا والأول أَنْسَب، فإن الشِّرعة][٢] وهي الشريعة أيضًا، هي ما يبتدأ فيه إلىٰ الشيء، ومنه يقال: «شَرَع فِي كذا»؛ أي: ابتدأ فيه. وكذا الشَّريعة وهي ما يشرع [منها][٣] إلىٰ الماء. أما «المنهاج»: فهو الطَّريق الواضِح السَّهل، والسُّنَن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسَّبيل والسُّنَّة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم.

= ولا قتلهم، وإنما كان بينه وبينهم عهد وهدنة فنقضوها، فأخبر ابن عباس أن آية التخيير نزلت فيهم، فجائز أن يكون حكمها باقيًا في أهل الحرب من أهل العهد، وحكم الآية الأخرىٰ - في وجوب الحكم بينهما بما أنزل الله - ثابتًا في أهل الذمة، فلا يكون فيها نسخ، وهذا تأويلٌ سائغٌ لولا ما روي عن السلف من نسخ التخيير بالآية الأخرىٰ.

وحديث ابن عباس، الذي ذكره الجصاص من رواية ابن إسحاق - حديثٌ صحيحٌ أيضًا، وقد مضىٰ عند تفسير الآيات (٤١- ٤٤) من سورة المائدة، وهو لا يعارض حديثه في نسخ آية التخيير، الذي ذكرناه مفسرًا واضحًا من الظاهر الراجح عندنا - والله أعلم- أنه يريد به معنىٰ التخصيص؛ أي: أن آية التخيير ليست عامةً في كل الحالات، بل هي قاصرة علىٰ مثل ما في معناه، وهو معنىٰ الجمع بين الآيتين، الذي يفهم من كلام الشافعي والذي بيَّنه الجصاص، وجعله تأويلًا سائغًا لولا ما يعكر عليه من التصريح بالنسخ - في رأيه.

ويكون معنىٰ كلام ابن عباس، أن آية التخيير قد يظن أنها عامةٌ في كل أحوال الحكم بين غير المسلمين فيكون الإمام مخيرًا دائمًا، فأبان ابن عباس بحديثيه: حديث أنها منسوخة، وحديث أنها نزلت في قريظة والنضير - أن هذا العموم حال الموادعين، الذين ليسوا بأهل ذمةٍ ولا عهدٍ، أعني: الذين لم يدخلوا تحت سلطان الدولة الإسلامية ولم يكونوا من رعيتها ولا قارين بها.

وليس في هذا التأويل والجمع أي تكلف، فالمعروف أن الصحابة وكثير من أئمة السلف يطلقون كلمة «النسخ» علىٰ التخصيص وغيره. ولذلك قال ابن القيم: «مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ: رفع الحكم بجملته، تارةً - وهو علىٰ المقيد وتفسيره وتبيينه، حتىٰ إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخًا؛ لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان من ذلك فيه ما لا يحصىٰ، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم علىٰ الاصطلاح الحادث المتأخر».

انظر: «تفسير الشيخ جمال الدين القاسمي» (١/ ٣٢- ٣٨).

(١) لوحة (٣٠٠ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

ثم هذا إخبارٌ عن الأُمَم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشَّرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التَّوحيد، كما ثبت في «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ**»[1] يعني بذلك: التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأمَّا الشَّرائع فمختلفة في الأوامر والنَّواهِي، فقد يكون الشَّيء في هذه الشريعة حرامًا ثم يَحِلُّ في الشريعة الأخرىٰ، وبالعكس، وخفيفًا فيُزاد في الشِّدَّة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالىٰ في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة: قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: سبيلًا وسُنَّةً، والسُّنن مختلفة هيَ في التَّوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يُحِلُّ الله فيها ما يشاء، ويُحَرِّم ما يشاء، ليَعْلَم مَن يُطِيعه ممَّن يَعْصِيه، والدِّين الذي لا يقبل الله غيره التَّوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾ القرآن ﴿مِنكُمْ﴾ أيتها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: هو لكم كلكم، تَقْتَدُون به، وحُذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أي: جعلناه؛ يعني: القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سبيلًا إلىٰ المقاصد الصحيحة، وسُنَّة أي: طريقًا ومسلكًا واضحًا بينًا.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، والصحيح القول الأول، ويدلُّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطابًا لهذه الأُمَّة لما صَحَّ أن يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [وهم أمة واحدة،][2] ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالىٰ العظيمة التي لو شاء لجَمَع النَّاس كلهم علىٰ دِينٍ واحدٍ وشريعةٍ[3] واحدةٍ، لا ينسخ شيءٌ منها، ولكنَّه تعالىٰ شرع لكل رسولٍ شِرْعةً علىٰ حدَة، ثم نسخها أو بعضها برسالةِ الآخر الذي بعده حتىٰ نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ الذي ابْتَعَثَهُ إلىٰ أهل الأرض قاطبةً، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أنَّه تعالىٰ شرع الشرائع مختلفة؛ ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويُثِيبَهم أو يُعاقِبهم علىٰ طاعته ومَعْصِيَتِهِ بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله.

وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني: من الكتاب.

---

(١) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٣٠٠ ب).

ثم إنَّه تعالىٰ نَدَبَهُم إلىٰ المسارعة إلىٰ الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1] وهي طاعة الله واتِّباع شرعه، الَّذي جعله ناسخًا لما قبله، والتَّصديق بكتابِهِ القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: معادكم أيُّها النَّاس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحَقِّ، فيجزي الصَّادقين بصدقهم، ويُعَذِّب الكافرين الجاحدين المكذِّبين بالحقِّ، العادلين عنه إلىٰ غيره بلا دليلٍ ولا برهانٍ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقال الضَّحَّاك: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: أمة محمَّد ﷺ. والأظهر الأول.

وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدَّم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه.

ثم قال تعالىٰ ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: احذر أعداءك اليَهود أَن يُدَلِّسوا عليك الحق فيما يُنْهُونه إليك من الأمور، فلا تَغْتَرَّ بهم، فإنَّهم كَذَبةٌ كَفَرةٌ خونةٌ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قَدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدىٰ لما عليهم من الذُّنوب السَّالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: أكثر النَّاس خارجون عَن طاعة ربِّهم، مخالفون للحَقِّ ناءون عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. [الأنعام: ١١٦].

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد مولىٰ زيد بن ثابت، حدَّثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا[2]، وشاس بن قيس، بعضهم لبعضٍ: اذهبوا بنا إلىٰ محمَّدٍ، لعلَّنا نَفْتِنُه عن دينه! فأتَوْهُ، فقالوا: يا محمَّد، إنَّك قد عَرَفْت أنَّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنَّا إن اتَّبعناك اتَّبعنا يهود ولم يُخالِفُونا، وإنَّ بَيْننا وبَيْن قومِنا خصومةً فنُحاكِمُهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونُؤْمِن لك، ونُصَدِّقك! فأبىٰ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3] رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا علىٰ الأمر، إلا بأمرين:
المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها... ويستدل بهذه الآية، علىٰ المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلىٰ أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد علىٰ مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها السبق.

(٢) لوحة (٣٠١ أ).

(٣) ضعيف: فيه محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول. رواه ابن أبي حاتم (١١٥٤)، والطبري (٦/ ٢٧٣).

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يُنكِر تعالىٰ علىٰ مَن خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل علىٰ كل خيرٍ، النَّاهي عن كلِّ شرٍّ، وعَدَلَ إلىٰ ما سواه من الآراء والأهواء والاصْطِلَاحات، التي وضعها الرِّجال بلا مستندٍ مِن شريعةِ الله، كما كان أهل الجاهليَّة يحكمون به من الضَّلالات والجهالات، ممَّا يضعونها بآرَائِهم وأهوائهم، وكما يحكم به التَّتَار مِن السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم «اليَاسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقْتَبَسَها عن شرائع شتىٰ، من اليهوديَّة والنصرانيَّة والملة الإسلاميَّة، وفيها كثيرٌ مِن الأحكام أخذها مِن مجرد نظرِهِ وهواه، فصارت في بَنِيهِ شرعًا متبعًا، يقدمونها علىٰ الحكم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافرٌ يَجِب قتاله، حتىٰ يرجع إلىٰ حكم الله ورسوله ﷺ فلا يُحَكِّم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[(١)] أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أَعْدَل مِن الله في حُكْمِهِ لمن عَقَل عن الله شرعه، وآمن به وأَيْقَن وعَلِم أَنَّه تعالىٰ أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنَّه تعالىٰ هو العالم بكل شيءٍ، القادر علىٰ كل شيءٍ، العادل في كل شيءٍ[(٢)].

---

(١) كلام ابن كثير هذا أعاده في «البداية والنهاية»: (١٧/ ١٦٢- ١٦٣)، وتكلم عن الياسق أو الياسا أو الياساق -شرع التتر-، وانظر: «تاج العروس»: (٢٧/ ٢٩- ٣١)، و«مجموع الفتاوىٰ»: (٣٥/ ٤٠٧- ٤٠٨)، وكلامًا نفيسًا للعلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في «عمدة التفسير»: (١/ ٦٨٧- ٦٩٧) ط الوفاء.

(٢) **قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ:** وقد نقل الحافظ المؤلف في «تاريخه» أشياء من سخافات هذا «الياسق» (١٣/ ١١٨، ١١٩) ثم قال: «فمن ترك الشرع المحكم المنزل علىٰ محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلىٰ غيره من الشرائع المنسوخة - كفر. فكيف بمن تحاكم إلىٰ الياسق وقدمها عليه؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين».

أقول: أفيجوز - مع هذا- في شرع الله أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا يبالي واضعه أوافق شِرْعَةَ الإسلام أم خالفها؟

إن المسلمين لم يُبْلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم- إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا، بثبات المسلمين علىٰ دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلِّموه أبناءهم. فما أسرع ما زال أثره.

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن- لذاك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في قرن واحد، أشرنا إليه آنفًا: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام، أتىٰ عليها الزمن سريعًا، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالًا وأشد ظلمًا وظلامًا منهم؛ لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك «الياسق» الذي اصطنعه رجلٌ كافرٌ ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناسٌ ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مردَّ أمرهم إلىٰ معتنقي هذا «الياسق العصري»! ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلىٰ الاستمساك بدينهم وشريعتهم «رجعيًّا» و«جامدًا»! إلىٰ مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

=

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هلال بن فياض، حدَّثنا أبو عبيدة الناجي، قال: سمعت الحسن يقول: مَن حَكَم بِغَيْر حُكْم الله، فحُكْم الجاهليَّة هو.

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءةً، حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نَجِيح قال: كان طاوس إذَا سأله رجلٌ: أفضِّل بين ولدي في النَّحْل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نَجْدة الخوطي، حدَّثنا أبو[1] اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن نافع بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ [وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ][2] سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَطَالِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ»[3]. ورویٰ البخاري، عن أبي اليمان بإسناده نحوه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾

ينهىٰ تعالىٰ عباده المُؤمنين عن موالاة اليَهود والنَّصارىٰ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، [قاتلهم الله،][4] ثمَّ أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدَّد وتوعَّد مَن يتعاطىٰ ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم

= بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلىٰ «ياسقهم الجديد»، بالهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات، ويصرحون - ولا يستحيون- بأنهم يعملون علىٰ فصل الدولة عن الدين!!

أفيجوز إذن - مع هذا- لأحد من المسلمين أن يعتنق الدين الجديد؛ أعني: التشريع الجديد! أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالمًا كان الأب أو جاهلًا؟!

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا «الياسق العصري» وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البيِّنة؟! ما أظن أن رجلًا مسلمًا يعرف دينه ويؤمن به جملةً وتفصيلًا، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله علىٰ رسوله كتابًا محكمًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبةٌ قطعية الوجوب في كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير مترددٍ ولا متأولٍ، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلةٌ بطلانًا أصليًّا، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة!

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضحٌ وضوح الشمس، هي كفرٌ بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسبون للإسلام - كائنًا من كان- في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، و «كل امرئ حسيب نفسه».

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيَّابين، وليبلِّغوا ما أمروا بتبليغه، غير موانين ولا مقصرين.

سيقول عني عبيد هذا «الياسق العصري» وناصروه، إني جامد، وإني رجعيٌّ، وما إلىٰ ذلك من الأقاويل، ألا فيقولوا ما شاءوا، فما عبأت يومًا ما بما يقال عني، ولكني قلت ما يجب أن أقول.

(١) لوحة (٣٠١ ب). (٢) في (ز): (مبتغي في الناس).

(٣) البخاري (٦٨٨٢) نحوه. ورواه بلفظه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٧٤/ ١٠٧٤٩).

(٤) سقط من (ز).

مِنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

قال [ابن أبي حاتم: حدَّثنا كثير بن شهاب، حدَّثنا محمَّد-يعني ابن سعيد بن سابق-حدَّثنا عمرو بن أبي قيس، عن سِمَاك بن حَرْب، عن عِياض: أنَّ عُمَر أمر أبا موسىٰ الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطىٰ في أديم واحدٍ، وكان له كاتبٌ نصرانيٌّ، فرفع إليه ذلك، فعَجِب عمر ﷺ وقال: إنَّ هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتابًا في المسجد جاء من الشَّام؟ فقال: إنَّه لا يستطيع أن يدخل المسجد فقال عمر: أجُنُبٌ هو؟ قال: لا بل نصراني. قال: فانتهرني وضرب فَخِذِي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

ثم](٣) قال الحسن بن محمَّد بن الصباح: حدَّثنا عثمان بن عمر، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمَّد بن سِيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: لِيَتَّقِ أحدكم أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا، وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾(٤).

وحدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا ابن فضيل، عن عاصم، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: أنَّه سُئِل عن ذبائح نصارىٰ العرب، فقال: كُلْ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾(٥)

وروي عن أبي الزِّناد، نحو ذلك.

وقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شَكٌّ، وريبٌ، ونفاقٌ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يبادرون إلىٰ مَوَالَاتِهِم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: يتأوَّلون في مودَّتهم وموالاتهم أنَّهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أيادٍ عند اليَهود والنَّصارىٰ، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالىٰ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ قال السُّدِّي: يعني فتح مكة. وقال غيره: يعني القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السُّدِّي: يعني ضرب الجزية علىٰ اليهود والنصارىٰ ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ يعني: الذين والوا اليهود والنصارىٰ من المنافقين ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الموالاة ﴿نَٰدِمِينَ﴾ أي: علىٰ ما كان منهم، مما لم يُجْد عنهم شيئًا، ولا(٦) دفع عنهم محذورًا، بل كان عين المفسدة، فإنَّهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم في الدُّنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرىٰ كيف حالهم. فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبيَّن أمرهم لعباد الله

---

(١) قال الطبري: (فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍ أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حُكْمُهُ حُكْمَهُ). اهـ «تفسير الطبري» (٨/ ٥٠٨)، وانظر: «نواقض الإيمان القولية والعملية» (ص٣٥٣ وما بعدها) للدكتور/ عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٦٥١٠) ورجاله ثقات، لكن سماك بن حرب تغير بأخرة، ولا نعلم هل روىٰ عنه عمرو بن قيس قبل الاختلاط أم لا، وعليه فالإسناد ضعيف.

(٣) سقط من (ز).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٦٥١١).

(٥) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٦٥١٢)، والطبري (٦/ ٢٧٧).

(٦) لوحة (٣٠٢ أ).

المؤمنين، فتعجَّبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وقد اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾ ثم منهم من رَفع ﴿وَيَقُولُ﴾ علىٰ الابتداء، ومنهم من نصب عطفًا علىٰ قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ تقديره «أَنْ يَأْتِيَ» «وأَنْ يَقُولَ»، وقرأ أهل المدينة: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بغير واو[١]، وكذلك هو في مصاحفهم علىٰ ما ذكره ابن جرير، قال ابن جُرَيْج[٢]، عن مجاهد: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ حينئذٍ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

واختلف المفسِّرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السُّدِّي أنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعةِ أُحُد: أمَّا أنا فإني ذاهبٌ إلىٰ ذلك اليهودي، فآوي إليه وأتهوَّد معه، لعلَّه ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأمَّا أنا فأذهب إلىٰ فلان النَّصراني بالشَّام، فآوي إليه وأتنصر معه، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآيات[٣].

وقال عكرمة: نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ بني قُرَيْظَة، فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلىٰ حلقه؛ أي: إنَّه الذبح. رواه ابن جرير[٤].

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبيٍّ بن سَلُول، كما قال ابن جرير:

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا ابن إدريس قال: سمعت أبي، عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصَّامت، من بني الخزرج، إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ لي موالي مِن يهود كثير عددُهم، وإني أبرأ إلىٰ الله ورسوله مِن ولاية يهود، وأتولىٰ الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إنِّي رجلٌ أخاف الدوائر، لا أبرأ مِن ولاية مواليَّ. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: «**يَا أَبَا الحُبَابِ، مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ عَلَىٰ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ**»[٥]. قال: قد قبلت! فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾[٦].

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، حدَّثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن الزهري

---

(١) متواترة: قَرَأَ (يَقُولُ) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ (وَيَقُولَ) أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمَا الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَيَقُولُ).

(٢) في (ز): ابن جرير. (٣) رواه الطبري (٦/ ٢٧٦)، والإسناد ضعيف وعلته الإرسال.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٧٦)، والإسناد ضعيف وعلته الإرسال.

(٥) لوحة (٣٠٢ ب).

(٦) ضعيف: رواه ابن جرير (٦/ ٢٧٥)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو شيعي مدلس، ولم يصرح بالسماع.

قال: لما انهزم أهل بدرٍ قال المسلمون لأوليائهم مِن يهود: آمِنُوا قبل أن يُصِيبَكم الله بيوم مثل يوم بدر! فقال مالك بن الصَّيف: أغرَّكم أن أصبتم رهطًا من قريش لا علم لهم بالقتال!! أما لو أمْرَرْنا العزيمة(١) أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدٌ(٢) بقِتَالِنا(٣)، فقال عبادة: يا رسول الله، إنَّ أوليائي من اليهود كانت شديدةً أنفسهم، كثيرًا سلاحهم، شديدةً شوكتهم، وإني أبرأ إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله مِن ولاية يهود، ولا مولىٰ لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: لكني لا أَبْرَأُ من ولاء يهود، أنا رجل لا بد لي منهم. فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا الحُبَابِ أَرَأَيْتَ الَّذِي نَفَّسْتَ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ عَلَىٰ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؟ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ**» فقال: إذًا أقبل! قال: فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧](٤).

وقال محمَّد بن إسحاق: فكانت أوَّل قبيلةٍ مِن اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ [بنو قينقاع. فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ](٥) حتىٰ نزلوا علىٰ حُكْمِه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمَّد، أَحْسِن في مَوَاليَّ. وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد، أَحْسِن في مواليَّ. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «**أَرْسِلْنِي**». وغضب رسول الله ﷺ حتىٰ رُئِي لوجهه ظللًا(٦) ثم قال: «**وَيْحَكَ أَرْسِلْنِي**». قال: لا والله لا أُرْسِلُك حتىٰ تحسن في مَوَاليَّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع(٧)، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم(٨) في غداةٍ واحدةٍ؟! إنِّي امرؤ أخشىٰ الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هُمْ لَكَ**»(٩).

قال محمَّد بن إسحاق: فحدَّثني أبو إسحاق بن يَسار، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حَارَبَتْ بنو قَيْنُقَاع رسولَ الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أُبَيّ، وقام دونهم، ومشىٰ عبادة بن الصامت إلىٰ رسول الله ﷺ(١٠)، وكان أحد بني عَوْف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فجعلهم إلىٰ رسول الله ﷺ وتبرأ إلىٰ الله ورسوله ﷺ مِن حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلىٰ الله وإلىٰ رسوله مِن حلفِهِمْ، وأتولَّىٰ الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأُ مِن حِلْفِ الكفَّار وولايتهم. ففيه وفي

---

(١) أمررنا العزيمة: أجمعناها.

(٢) في (ز): (بد)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) أي: لم يكن لكم قدرة علىٰ قتالنا.

(٤) **ضعيف جدًّا**: رواه ابن جرير (٦/ ٢٧٥)، وفيه عثمان بن عبد الرحمن بن عمرو، قال الحافظ: متروك وكذَّبه ابن معين، والحديث أيضًا مرسل.

(٥) سقط من (ز).

(٦) يعني: أن وجهه ﷺ تغير وتلون من الغضب.

(٧) **الحاسر**: الذي لا درع له، والدارع: الذي يلبس الدرع.

(٨) في (ز): يحصدني. والمثبت من «ابن هشام».

(٩) **مرسل**: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٧٤)، والإسناد مرسل.

(١٠) لوحة (٣٠٣أ).

عبد الله بن أُبَيٍّ نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ الآيات إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦][١].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة، عن محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، عن عُرْوَة، عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله ﷺ علىٰ عبد الله بن أُبيّ نعوده، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «قَدْ كُنْتُ أَنْهاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ». فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة، فمات[٢].

وكذا رواه أبو داود، من حديث محمَّد بن إسحاق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن قدرته العظيمة أنَّ مَن تولَّىٰ عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإنَّ الله يستبدل به مَن هو خيرٌ لها منه، وأشدُّ منعةً وأقوم سبيلًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨]، وقال تعالىٰ: [﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء:١٣٣]، وقال تعالىٰ:][٣] ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [إبراهيم:١٩، ٢٠] أي: بِمُمْتَنِعٍ ولا صعبٍ، وقال تعالىٰ [هاهنا][٤]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحقِّ إلىٰ الباطل.

قال محمَّد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش[٥]. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الرِّدَّة أيام أبي بكر. ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [قال الحسن: هو -والله- أبو بكر وأصحابه ﭫ][٦] رواه ابن أبي حاتم.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله: [﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾][٧] هم أهل القَادِسِيَّة. وقال لَيْث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قومٌ مِن سبأ.

---

(١) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٥/ ٦٥٠٦) ورجاله ثقات، لكن الإسناد مرسل.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٠١)، ورواه أبو داود (٣٠٩٤)، ورجاله ثقات غير أن محمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن والحديث ضعَّفه الألباني.

(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز).

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٥٣١)، والطبري (٦/ ٢٨٢) والإسناد مرسل؛ لأن محمَّد بن كعب لم يسنده.

(٦) رواه الطبري (٦/ ٢٨٢)، وابن أبي حاتم (٦٥٣٣)، وهذا تفسير من الحسن البصري للآية، وأما كونها بسبب النزول فالإسناد مرسل؛ لأنه لم يسنده.

(٧) سقط من (ز).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا عبد الله بن الأجلح، عن محمَّد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال: ناسٌ من أهل اليمن[(١)]، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُون[(٢)].

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن المصفىٰ، حدَّثنا معاوية -يعني ابن حفص- عن أبي زياد الخلقاني[(٣)]، عن محمَّد بن المُنْكَدر، عن جابر بن عبد الله قال: سُئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ، ثُمَّ مِنَ السَّكُونِ، ثُمَّ مِن تُجِيبَ»[(٤)].

وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

وقال ابن أبيٰ حاتم: حدَّثنا عمر بن شَبَّة، حدَّثنا عبد الصمد -يعني ابن عبد الوارث- حدَّثنا شعبة، عن سِمَاك، سمعتُ عياضًا يحدِّث عن الأشعريِّ قال: لما نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هُمْ قَوْمُ هَذَا»[(٥)]. ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدُهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، متعززًا علىٰ خَصْمِهِ وعدوِّه، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي صفة النَّبيِّ ﷺ أنَّه: «الضَّحُوكُ[(٦)] القَتَّالُ»[(٧)] فهو ضحوكٌ لأوليائه قتَّالٌ لأعدائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: لا يردُّهم عمَّا هم فيه من طاعة الله، وقتالِ أعدائه، وإقامةِ الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك رادٌّ، ولا يَصدُّهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائمٍ ولا عذل عاذلٍ.

---

(١) لوحة (٣٠٣ ب).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٦٥٣٤)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (١٣٩٢)، وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٢٩٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩)، والألباني أثناء تعليقه علىٰ الحديث (٣٣٦٨) من «السلسلة الصحيحة»، والإسناد حسن: وسالم هو ابن عجلان الأفطس، ومحمَّد بن عمرو هو الأسدي.

(٣) قال سامي بن محمَّد السلامة: [تنبيه: وقع هنا أبي زياد الحلفاني، وفي «العلل»: الخلقاني، وهو الصواب «الخلقاني» كما في «الاستغناء في المشهورين من حملة العلم بالكنىٰ» لابن عبد البر (٢/ ١١٩٩)].اهـ.

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦١/ ٦٥٤٠)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٠٤).

(٥) حسن: رواه ابن جرير (٦/ ٢٨٤)، وسماك مختلط، لكن الراوي عنه شعبة وقد روىٰ عنه قبل الاختلاط.

(٦) في (ز): (الضَّحَّاك)، وهو خطأ.

(٧) لم أقف عليه مسندًا في حديث رغم شهرته في كتب العلم. وعزاه الصالحي الشامي في كتاب «سبل الهدىٰ والرشاد» (١/ ٤٨٣) إلىٰ ابن فارس عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: اسم النَّبيِّ ﷺ في التوراة «الضحوك القتال»، وهذا لا يعتمد عليه في إثبات هذين الاسمين وذلك لما يلي:

١- أننا لم نقف علىٰ صحة الإسناد، فلم يذكروا إسنادًا.

٢- أن هذا من كتب أهل الكتاب كما في الرواية، وهذا غير كافٍ في إثبات هذين الاسمين، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا سلام أبو المنذر، عن محمَّد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحُبِّ المساكين والدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أنظر إلىٰ مَن هو دوني، ولا أنظر إلىٰ مَن هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أَدْبَرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أَن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنَّهنَّ مِن كنزٍ تحت العرش[١].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان عن أبي المثنىٰ؛ أَنَّ أبا ذرٍّ قال: بايعني رسولُ الله ﷺ خمسًا وواثقني سبعًا، وأشهد الله علي تسعًا، أنِّي لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو ذرٍّ: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «**هَلْ لَكَ إِلَىٰ بَيْعَةٍ وَلَكَ الجَنَّةُ؟**» قلت: نعم، قال: وبسطت يدي، فقال النَّبيُّ ﷺ وهو يشترط عليَّ ألا[٢] تسأل الناس شيئًا. قلت: نعم قال: «**وَلَا سَوْطَكَ وَإِنْ سَقَطَ مِنْكَ حَتَّىٰ**[٣] **تَنزِلَ إِلَيْهِ فَتَأْخُذَهُ**»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن الحسن، حدَّثنا جعفر، عن المعلىٰ القُرْدوسي، عن الحسن، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ**»[٥]. تفرَّد به أحمد.

وقال أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا سفيان، عن زُبَيْد، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَري، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَىٰ أَمْرًا للهِ فِيهِ مَقَالٌ، فَلَا يَقُولُ فِيهِ، فَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ قُلْتَ فِيَّ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: مَخَافَةَ النَّاسِ. فَيَقُولُ: إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَافَ**»[٦].

ورواه ابن ماجة من حديث الأعمش، عن عَمْرو بن مُرَّة به. وروىٰ أحمد وابن ماجة، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي طُوَالة عن نهار بن عبد الله العبدي المدني، عن أبي سعيدٍ الخدري عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْأَلُهُ يَقُولُ لَهُ: أَيْ عَبْدِي، رَأَيْتَ مُنْكَرًا فَلَمْ تُنْكِرْهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، وَثِقْتُ بِكَ وَخِفْتُ النَّاسَ**»[٧].

وثبت في «الصحيح»[٨]: «**مَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**»، قالوا: وكيف يذلُّ نفسه يا رسول الله؟

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٩٣/ ٧٥٨٢) من طرق عن محمَّد بن واسع به.

(٢) لوحة (٣٠٤ أ). (٣) في (ز): يعني. والمثبت من «المسند».

(٤) رواه أحمد (٥/ ١٧٢)، وفيه أبو اليمان: عامر بن عبد الله بن لُحَيّ، قال الحافظ: مقبول، وعلىٰ هذا فالإسناد ضعيف.

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو يعلىٰ (١٤١١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٨).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٢٧)، وابن ماجة (٤٠٨)،وإسناده منقطع بين أبي البختري وأبي سعيد، وضعفه الألباني.

(٧) صحيح: أحمد (٣/ ٢٧)، وابن ماجة (٤٠١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٩).

(٨) عزوه للصحيح وهمٌ، إلا إن أراد الحافظ ابن كثير تصححه له.

قال: «يَتَحَمَّلُ مِنَ البَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ»(١).

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من اتَّصف بهذه الصِّفات، فإنَّما هو مِن فضل الله عليه، وتوفيقه له، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمَن يستحقُّ ذلك ممن يَحْرمه إيَّاه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعةٌ إلىٰ الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المؤمنون المُتَّصِفُون بهذه الصفات، مِن إقام الصَّلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين.

وأما قوله ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهَّم بعضهم أنَّ هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل مِن غيره؛ لأنَّه ممدوحٌ، وليس(٢) الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمَّة الفتوىٰ، وحتىٰ إنَّ بعضهم ذكر في هذا أثرًا عن علي بن أبي طالب: أنَّ هذه الآية نزلت فيه: ذلك أنَّه مرَّ به سائلٌ في حالِ ركوعه، فأعطاه خاتمه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الربيع بن سليمان المرادي، حدَّثنا أيوب بن سُوَيْد، عن عتبة بن أبي حكيم في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب(٣).

وحدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا الفضل بن دُكَيْن أبو نعيم الأحول، حدَّثنا موسىٰ بن قيس الحضرمي، عن سلمة بن كُهَيْل قال: تصدَّق عليٌّ بخاتَمِهِ وهو رَاكِعٌ، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(٤).

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا غالب بن عبيد الله، سمعت مجاهدًا يقول في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية: نَزَلَتْ في عليِّ بن أبي طالب، تَصَدَّقَ وهو راكعٌ(٥).

وقال عبد الرزاق: حدَّثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) حسن لغيره: رواه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجة (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٤٠٥) وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف، والحسن البصري: مدلس.

وللحديث شاهد من حديث ابن عمر. رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٣٥٧)، ورجاله ثقات غير زكريا بن يحيىٰ بن أيوب الضرير. ذكره الخطيب ولم يتكلم فيه أحد، والحديث أورده الألباني في «الصحيحة» (٦١٣).

(٢) لوحة (٣٠٤ ب).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٦٥٤٩)، وعتبه بن أبي حكيم: صدوق يخطئ كثيرًا، فالإسناد ضعيف، ثم إنه لم يسنده إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فهو تفسير من عتبة للآية، وهو ليس صحابيًا ومع هذا فإن تفسيره للآية لا بأس به، فهو لم يخصها بعليٍّ بل عممها لجميع المؤمنين.

(٤) ضعيف: إسناده مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦٢).

(٥) منكر: رواه ابن جرير (٦/ ٢٨٩)، وفيه غالب بن عبيد الله: منكر الحديث. والإسناد مرسل.

﴿وَرَسُولُهُ﴾ الآية: نزلت في عَلِيِّ بن أبي طالب(١).

عبد الوهاب بن مجاهد لا يُحْتَجُّ به.

ورواه ابن مَرْدويه، من طريق سفيان الثوري، عن أبي سِنان، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس قال: كان علي بن أبي طالب قائمًا يُصَلِّي، فمرَّ سائلٌ وهو راكعٌ، فأعطاه خاتمه، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية(٢).

الضَّحَّاك لم يَلْقَ ابن عبَّاس.

وروىٰ ابن مَرْدويه أيضًا عن طريق محمَّد بن السائب الكلبي -وهو متروك- عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس قال: خرج رسول الله ﷺ إلىٰ المسجد، والنَّاس يُصَلُّون، بين راكعٍ وساجدٍ وقائمٍ وقاعدٍ، وإذا مسكينٌ يسأل، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أَعْطَاكَ أَحَدٌ شَيْئًا؟» قال: نعم. قال: «مَنْ؟» قال: ذلك الرجل القائم. قال: «عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ أَعْطَاكَهُ؟» قال: وهو راكعٌ، قال: «وَذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». قال: فكبَّر رسول الله ﷺ عند ذلك، وهو يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٣).

وهذا إسنادٌ لا يُفْرَحُ به.

ثم رواه ابن مردويه، من حديث علي بن أبي طالب ﵁ نفسه، وعمار بن ياسر، وأبي رافع. وليس يَصِحُّ شيءٌ منها بالكليَّة؛ لضعف أسانيدها وجهالة رجالها. ثم روىٰ بسنده عن ميمون بن مِهْران، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ(٤) وَرَسُولُهُ﴾ نزلت في المؤمنين، وعليٌّ بن أبي طالب أولهم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا عبدة، عن عبد الملك، عن أبي جعفر قال: سألته عن هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ [قال: الَّذين آمنوا!](٥) قلنا: بلغنا أنَّها نزلت في علي بن أبي طالب! قال: عَلِيٌّ من الذين آمنوا(٦).

وقال أسباط، عن السُّدِّي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مَرَّ به سائلٌ وهو راكعٌ في المسجد فأعطاه خاتمه(٧).

وقال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عبَّاس: مَن أسلم فقد تولَّىٰ الله ورسوله والذين آمنوا. رواه ابن جرير(٨).

وقد تقدَّم في الأحاديث التي أوردناها أنَّ هذه الآيات كلَّها نزلت في عبادة بن الصامت ﵁ حين تبرَّأ من حلْف يَهُود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالىٰ بعد هذا كله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ

---

(١) ضعيف: في الإسناد عبد الوهاب بن مجاهد: ضعيف.

(٢) ضعيف: في الإسناد الضَّحَّاك وروايته عن ابن عبَّاس منقطعة.

(٣) ضعيف جدًا: لأنه من طريق الكلبي وهو متروك الحديث.

(٤) لوحة (٣٠٥ أ). (٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (٦/ ٢٨٨)، وهو تفسير من أبي جعفر، وليس دليلًا علىٰ أنها سبب النزول.

(٧) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٢٨٨) والإسناد مرسل لم يسنده السُّدِّي.

(٨) ضعيف والمعنىٰ صحيح: رواه الطبري (٦/ ٢٨٨)، والإسناد منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢].

فكُلُّ مَن رَضِيَ بولاية الله ورسوله والمُؤمِنِينَ فهو مفلحٌ في الدُّنيا والآخرة ومنصورٌ في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾[٢]

وهذا تنفير مِن موالاة أعداء الإسلام وأهله، مِن الكِتَابِيِّين والمشركين، الذين يَتَّخِذُون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهَّرة المحكمة المشتملة علىٰ كل خيرٍ دُنْيَوِيٍّ وأُخْرَوِيٍّ، يتخذونها ﴿هُزُوًا﴾ يستهزئون بها، ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنَّها نوعٌ مِن اللَّعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد كما قال القائل[٣]:

وَكَمْ [مِنْ][٤] عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ[٥]

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم ﴿وَالْكُفَّارِ﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنَّصب[٦] علىٰ أنه معمول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تقديره: ولا الكُفَّار أولياء؛ أي: لا تَتَّخِذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء.

والمراد بالكفَّار هاهنا: المشركون، وكذا وقع في قِراءةِ ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتَّقُوا الله أن تَتَّخِذُوا هؤلاء الأعداء لكم ولِدِينِكم أولياء ﴿إِن

---

(١) قال القاسمي رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ معناه: فإنهم هم الغالبون.
فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلىٰ (مَنْ) دلالة علىٰ علة الغلبة. وهو أنهم حزب الله. فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله. وحزب الله هم الغالبون. وتنويهًا بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم وتشريفًا لهم بهذا الاسم. وتعريضًا لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل (الحزب) القوم يجتمعون لأمر حزبهم. وقيل: الحزب جماعة فيهم شدة. فهو أخص من الجماعة والقوم.

(٢) قال القاسمي رحمه الله: دلت علىٰ أن الهُزْء بالدين كفر، وأن هَزْله كجِدِّه.
قال في «الإكليل»: الآية أصل في تكفير المستهزئ بشيء من الشريعة.

(٣) هو المتنبي. (٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٣٠٥ ب).

(٦) متواترة: قَرَأَ (وَالْكُفَّارِ) وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَالْكُفَّارَ).

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشَرْع الله الَّذِي اتَّخذه هؤلاء هزوًا ولعبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: وكذلك إذا أَذَّنتم داعين إلىٰ الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم مِن ذَوِي الألباب ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ أيضًا ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ مَعَانِي عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي «إِذَا سَمِعَ الأَذَانَ أَدْبَرَ وَلَهُ حُصَاصٌ»؛ أي: ضراط «حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ[(١)]، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ». متفق عليه.

وقال الزهري: قد ذكر الله تعالىٰ التَّأْذِين في كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال أسباط، عن السُّدِّي، في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قال: كان رجلٌ من النَّصارىٰ بالمدينة إذا سَمِع المنادي ينادي: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» قال: حُرِّق الكاذب! فدخلت خادمة ليلة من الليالي بنارٍ وهو نائمٌ وأهله نيام، فسقطت شرارةٌ فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله[(٢)]. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وذكر محمَّد بن إسحاق بن يَسار في[(٣)] «السيرة»: أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يُؤَذِّن، وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة[(٤)]، فقال عتاب بن أَسِيد: لقد أكرم الله أَسيدًا ألا يكون سَمِع هذا فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنَّه مُحِقٌّ لاتَّبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمتُ لأخبرت عني هذه الحصىٰ. فخرج عليهم النَّبيُّ ﷺ فقال: «قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي قُلْتُمْ» ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتَّاب: نشهد أنَّك رسول الله، والله ما اطَّلَع علىٰ هذا أحدٌ كان معنا، فنقول أخبرك[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا رَوْح بن عبادة، حدَّثنا ابن جُرَيْج، أخبرنا عبد العزير بن عبد الملك بن أبي محذورة؛ أن عبد الله بن مُحَيريز أخبره -وكان يتيمًا في حجر أبي محذورة- قال: قلت لأبي محذورة: يا عَمِّ، إنِّي خارج إلىٰ الشام، وأخشىٰ أن أُسأل عن تأذينك. فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفرٍ، وكنا ببعض طريق حنين، مَقْفِل رسول الله ﷺ من حُنَيْن، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطَّريق، فأذَّن

---

(١) أي: لا يدري كم صلىٰ. (٢) رواه الطبري (٦/ ٢٩١)، وابن أبي حاتم (٦٥٥٧)، وإسناده منقطع.
(٣) لوحة (٣٠٦ أ).
(٤) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا النقل من ابن غسحاق فيه نظر؛ لأن إسلام أبي سفيان كان في الطريق قبل دخول الرسول ﷺ مكة ـ أي: قبل دخولها للفتح ـ وأما عتَّاب والحارث فقد أسلما بعد دخول الرسول ﷺ مكة.
(٥) مرسل: رواه ابن هشام في «السيرة» (٤/ ٨٧١).

مؤذن رسول الله ﷺ بالصَّلاة عند رسول الله ﷺ، فسَمِعْنَا صوت المؤذن ونحن مُتَكِئُون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ [الصوت،][1] فأرسل إلينا إلىٰ أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمُ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ قَدِ ارْتَفَعَ؟» فأشار القوم كلهم إليَّ، وصدقوا، فأرسل كلَّهم وحبسني. وقال: «قُمْ فَأَذِّنْ [بِالصَّلاةِ][2]». فقمت ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقىٰ عليَّ رسول الله ﷺ التَّأذين هو بنفسه، قال: «قُلْ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» [ثم قال لي: «ارْجِعْ فَامْدُدْ مِنْ صَوْتِكَ». ثم قال: «أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ][3] حَيَّ عَلَىٰ الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الفَلاحِ، حَيَّ عَلَىٰ الفَلاحِ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». ثم دعاني حين قضيت التَّأذين، فأعطاني صُرَّةً فيها شيءٌ مِن فضَّةٍ، ثم وضع يده علىٰ ناصيةِ أبي محذورة، ثم أمرَّها علىٰ وجهه، ثم بين ثَدْيَيْه ثم علىٰ كبده حتىٰ بلغت[4] يد رسول الله سُرَّة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ فِيكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ». فقلت: يا رسول الله، مُرْني بالتَّأذين بمكة. فقال: «قَدْ أَمَرْتُكَ بِهِ». وذهب كلُّ شيءٍ كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ. فقدمت علىٰ عتَّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ [بمكَّة][5] فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرني ذلك مَن أدركت مِن أهلي ممَّن أدرك أبا محذورة، علىٰ نحو ما أخبرني عبد الله بن مُحَيريز[6].

هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في «صحيحه»، وأهل السُّنَن الأربعة مِن طرق عن عبد الله بن محيريز، عن أبي محذورة -واسمه: سَمُرة بن مِعْيَرَ بن لَوْذان- أحد مُؤَذِّني رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مُؤَذِّن أهل مكَّة، وامتدت أيامه رضي الله عنه وأرضاه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

---

(١) زيادة من «المسند». (٢) زيادة من «المسند».
(٣) زيادة من «المسند». (٤) لوحة (٣٠٦ ب). (٥) زيادة من «المسند».
(٦) حسن: رواه أبو داود (٥٠٣)، والترمذي (١٩٢)، والنسائي (٢/ ٥)، وابن ماجة (٧٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٠٩). ورواه مسلم في الصلاة باب صفة الأذان (٣٧٩) مختصرًا.

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد، لهؤلاء الَّذين اتَّخذوا دينهم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل لكم علينا مَطْعَنٌ أو عَيْبٌ إلا هذا؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمَّةٍ، فيكون الاستثناء منقطعًا كما في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وكقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة:٧٤]، وفي الحديث المتَّفق عليه: «**مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ**»[١].

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ معطوف علىٰ ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمنَّا بأنَّ أكثركم فاسقون؛ أي: خَارِجُون عن الطَّريق المُسْتَقِيم.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل أخبركم بشرٍّ جزاءً عند الله يوم القيامة مما تظنُّونه بنا؟ وهم أنتم الَّذين هم مُتَّصِفُون بهذه الصِّفات القصيرة، فقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده مِن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضبًا لا يَرْضَىٰ بعده[٢] أبدًا، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ كما تقدَّم بيانه في سوره البقرة، وكما سيأتي إيضاحُه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالىٰ.

وقد قال سفيان الثوري: عن عَلْقَمَة بن مَرْثَد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعرور بن سُوَيْد، عن ابن مسعود قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله تعالىٰ؟ فقال: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا -أو قال: لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا- فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلا عَقِبًا**[٣] **وَإِنَّ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ**»[٤].

وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومِسْعَر كلاهما، عن مُغِيرة بن عبد الله اليشكري به.

وقال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا داود بن أبي الفرات، عن محمَّد بن زيد، عن أبي الأعين العبدي، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: سألنا رسولَ الله ﷺ عن القردة والخنازير، أَهِيَ مِن نسل اليهود؟ فقال: «**لا، إِنَّ اللهَ لَمْ يَلْعَنْ قَوْمًا قَطُّ فَيَمْسَخْهُمْ فَكَانَ لَهُمْ نَسْلٌ، وَلَكِنَّ هَذَا خَلْقٌ كَانَ، فَلَمَّا غَضِبَ اللهُ عَلَىٰ اليَهُودِ فَمَسَخَهُمْ، جَعَلَهُم مِثْلَهُمْ**»[٥].

ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به.

وقال ابن مردويه: حدَّثنا عبد الباقي، حدَّثنا أحمد بن صالح، حدَّثنا الحسن بن محبوب، حدَّثنا عبد العزيز بن المختار، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحَيَّاتُ مَسْخُ الجِنِّ، كَمَا مُسِخَتِ القِرَدَةُ وَالخَنَازِيرُ**»[٦]. هذا حديث غريب جدًّا.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقرئ ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ علىٰ أنه فعل ماض، «والطَّاغوت» منصوب به؛

---

(١) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائي (٥/ ٣٣).

(٢) لوحة (٣٠٧ أ). (٣) في (ز): عاقبة. (٤) مسلم (٢٦٦٣).

(٥) رواه الطيالسي (٣٠٧)، وفي إسناده داود بن أبي الفرات: ضعيف: لكن يشهد له رواية مسلم السابقة.

(٦) صحيح: رواه ابن حبان (٥٦٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٤)، والشيخ شعيب في تعليقه علىٰ ابن حبان.

أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: ﴿وعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بالإضافة على أن المعنىٰ: وجعل منهم خدم الطاغوت؛ أي: خدامه وعبيده. وقرئ ﴿وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ علىٰ أنَّه جمع الجمع: عَبْد وعَبيد وعُبُد، مثل ثمار وثُمُر. حكاها ابن جرير عن الأعمش. وحكي عن بُرَيْدَةَ الأسلمي أنَّه كان يقرؤها: «وعَابِدِ الطَّاغوت»، وعن أبي، وابن مسعود: «وعَبَدُوا»، وحكىٰ ابن جرير عن أبي جعفر القارئ أنَّه كان يقرؤها: ﴿وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ﴾[1] علىٰ أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها. والظَّاهر أنَّه لا بعد في ذلك؛ لأنَّ هذا من باب التعريض بهم؛ أي: وقد عُبِدَت الطَّاغوت فيكم، وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك.

وكلُّ هذه القراءات يرجع معناها إلىٰ أنَّكم يا أهل الكتاب الطَّاعنين في ديننا، والذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يَصْدُر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذُكِرَ؟ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مما تَظُنُّون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطَّرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟[2] ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، أنَّهم يُصَانِعُون المؤمنين في الظَّاهر وقلوبهم مُنْطَوِيَةٌ علىٰ الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟﴾ أي: إلىٰ عندك يا محمَّد ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ أي: مُسْتَصْحِبِين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كَامِنٌ فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نَجَعَتْ فيهم المواعظ ولا الزَّواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ فخَصَّهُم به دون غيرهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أي: والله عالمٌ بسرائرهم[3] وما تَنْطَوِي عليه ضمائرهم[4]، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشَّهادة أعلم بهم مِنْهُم، وسَيَجْزِيهم علىٰ ذلك أتَمَّ الجزاء.

وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: يُبَادِرُون إلىٰ ذلك من تعاطِي المآثم والمَحَارِم والاعتداء علىٰ النَّاس، وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لَبِئْسَ العمل كان عملهم وبِئْسَ الاعتداء[5] اعتداؤهم.

قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ يعني: هلا كان يَنْهَاهُم الرَّبَّانِيُّون والأحبار عن تعاطي ذلك؟ والرَّبَّانِيُّون وهم: العلماء العمال أرباب الوِلايَات عليهم، والأحبار: وهم العلماء فقط.

---

(١) متواترة: قَرَأَ (وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ) حَمْزَةُ وَوَافَقَهُ الْمُطَّوِّعِيُّ، وَقَرَأَ (وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ (وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ) الشَّنَبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ).

(٢) لوحة (٣٠٧ ب).

(٣) في (ز): بسرائركم.

(٤) في (ز): ضمائركم.

(٥) في (ز): الاعتماد.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني الرَّبَّانِيِّين، أنهم: بئس ما كانوا يَصْنَعُون؛ يعني: في تركهم ذلك.

وقال[١] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم يَنْهَوْا، ولهؤلاء حين علموا. قال: وذلك الأركان. قال: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ و﴿يَصْنَعُونَ﴾ واحد. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا ابن عطية، حدَّثنا قَيْس، عن العلاء بن المسيب، عن خالد بن دينار عن ابن عبَّاس قال: ما في القرآن آيةٌ أشدَّ توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٢] قال: كذا قرأ[٣].

وكذا قال الضَّحَّاك: ما في القرآن آيةٌ أخوفُ عندي منها: إنَّا لا ننهىٰ. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: ذكره يونس بن حبيب، حدَّثنا أبو داود، حدَّثنا [محمَّد بن][٤] مسلم بن أبي الوضاح، حدَّثنا ثابت أبو سعيد الهَمَذاني، قال: رأيته بالرَّيِّ، فحدث عن يحيىٰ بن يَعْمَر قال: خطب علي بن أبي طالب فحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: أيُّها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بِرُكُوبِهِمُ المعاصي، ولم يَنْهَهُمُ الرَّبَّانيون والأحبار، [فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الرَّبَّانيون والأحبار][٥] أخذتهم العقوبات. فَمُرُوا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكر، قبل أن ينزل[٦] بِكُم مِثْل الَّذِي نزل بهم، واعلموا أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا يَقْطَع رزقًا ولا يُقَرِّب أجلًا[٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شَريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، لَمْ يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ»**[٨].

تفرَّد به أحمد مِن هذا الوجه.

ورواه أبو داود، عن مَسَدَّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ أَنْ [يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا]**[٩] **يُغَيِّرُونَ إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»**[١٠].

وقد رواه ابن ماجة عن عليٰ بن محمَّد، عن وَكِيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبَيد الله بن

---

(١) في (ز): وقوله.

(٢) قراءة: قَرَأَ (يَصْنَعُونَ) ابْنُ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (يَعْمَلُونَ).

(٣) رواه الطبري (٦/ ٢٩٨). (٤) سقط من (ز).

(٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٣٠٨ أ).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (٦٥٧١)، وفيه ثابت أبو سعيد الهمذاني: مجهول.

(٨) رواه أحمد (٧/ ٣٦١، ٣٦٣)، ورواه أبو داود (٤٣٣٩) نحوه كلاهما من طريق المنذر بن جرير: وهو مقبول، لكنه توبع في الرواية التي أوردها ابن كثير بعدها فقد رواه ابن ماجة (٤٠٠٩) من طريق أبي إسحاق عن عبيد الله بن جرير عن جرير به، وإسناده حسن.

(٩) سقط من (ز). (١٠) انظر التعليق السابق.

جرير، عن أبيه به [١].

قال الحافظ المِزِّي: وهكذا رواه شعبة، عن أبي إسحاق به.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة- بأنَّهم وصفوا الله -عز وجل وتعالىٰ عن قولهم علوًّا كبيرًا- بأنَّه بخيل. كما وصفوه بأنَّه فقير وهم أغنياء، وعبَّروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو عبد الله الطهراني، حدَّثنا حفص بن عمر العَدَنِيّ، حدَّثنا الحكم بن أبان، عن عِكْرِمَة قال: قال ابن عبَّاس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أي: بخيلة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال: لا يَعْنُونَ بذلك أنَّ يد الله مُوثَقَة ولكن يقولون: بَخِيلٌ أمسك ما عنده، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وكذا روي عن عِكْرِمَة، وقتادة، والسُّدِّي، ومجاهد، والضَّحَّاك وقرأ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [٢][الإسراء:٢٩]. يعني: أنَّه ينهىٰ عن البخل وعن التَّبْذِير، وهو الزِّيادة في الإنْفَاق في غير محله، وعبَّر عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

وهذا هو الذي أراد هؤلاءِ اليَهودُ عليهم لعائن الله. وقد قال عكرمة: إنَّها نزلت في فنْحاص اليهودي، عليه لعنة الله [٣]. وقد تقدَّم أنَّه الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [٤][آل عمران:١٨١] فضربه أبو بكر الصديق ﷺ [٥].

---

(١) إسناده حسن: رواه ابن ماجة (٤٠٠٩). (٢) لوحة (٣٠٨ ب).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٦/ ٣٠٠)، وإسناده مرسل.

(٤) قال القاسمي رحمه الله: أخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه: نزلت في فنحاص، رأس يهود قينقاع، وتقدم أنه الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء. فضربه أبو بكر الصديق ﷺ.

فيكون أريد بالآية هنا، ما حكىٰ عنه بقوله المذكور. والله أعلم.

ولما لم ينكر علىٰ القائل قومه ورضوا به، نسبت تلك العظيمة إلىٰ الكل، كما يقال: بنو فلانٍ قتلوا فلانًا. وإنما القاتل واحدٌ منهم.

(٥) انظر الآية (١٨١) من سورة آل عمران.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي محمَّد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رجلٌ من اليهود، يقال له: شاس بن قيس: إنَّ رَبَّك بخيلٌ لا يُنفِق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(١).

وقد ردَّ الله ﷻ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾(٢) وهكذا وقع لهم، فإنَّ عندهم مِن البخل والحسد والجُبْن والذِّلَّة أمر عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٣-٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران:١١٢].

ثم قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما مِن شيءٍ إلا عنده خزائنه، وهو الَّذي ما بخلقه مِن نِعْمَةٍ فمنه وحده لا شريك له، الَّذي خلق لنا كلَّ شيءٍ ممَّا نحتاج إليه، في لَيْلنَا ونهارنا، وحضَرنا وسَفَرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤]. والآيات في هذا كثيرةٌ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل:

حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنبه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَىٰ لا يَغِيضُهَا نفقةٌ، سَحَّاءُ**(٣) **اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خلقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**» قال: «**وَعَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَفِي يَدِهِ الأُخْرَىٰ القَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**» قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**» أخرجاه في «الصحيحين»، البخاري في «التوحيد» عن علي بن المديني، ومسلم فيه، عن(٤) محمَّد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق به(٥).

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يكون ما أتاك الله يا محمَّد من النِّعمة نقمة في حقِّ أعدائك منَ اليهود وأشباهِهِم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملًا صالحًا وعلمًا نافعًا، يزداد به الكفرة الحاسدون لكَ ولأُمَّتك ﴿طُغْيَٰنًا﴾ وهو: المبالغة والمجاوزة للحدِّ في الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: تكذيبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤] وقال تعالىٰ:

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٦٧)، وفي إسناده محمَّد بن أبي محمَّد: مجهول.

(٢) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم. فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم، بالبخل وعدم الإحسان. فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقًا عليهم، فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانًا، وأسوأهم ظنًا بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي.

(٣) لا يغيضها: لا ينقصها، وسحاء: دائمة الصب والهطل بالعطاء.

(٤) لوحة (٣٠٩أ). (٥) البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣١٣).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: أنَّه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعةٌ بين فِرَقِهِم بعضهم في بعض؛ دائمًا لأنَّهم لا يجتمعون على حقٍّ، وقد خالفوك وكذَّبُوك.

وقال إبراهيم النَّخَعي: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ﴾ قال: الخُصُومات والجدال في الدِّين. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: كلَّما عقدوا أسبابًا يَكِيدُونك بها، وكُلَّما أبرموا أمورًا يُحَارِبُونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويَحِيق مكرهم السيئ بهم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: مِن سَجِيَّتِهِم أنهم دائمًا يسعوْن في الإفساد في الأرض، والله لا يُحِبُّ مَن هذه صفته.

ثم قال جلَّ وعلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ﴾ أي: لو أنَّهم آمنوا بالله ورسوله، واتَّقوا ما كانوا يتعاطَونَه من المحارم والمآثم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور ولحصَّلْنا لهم المقصود.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عبَّاس، وغيره: يعني القرآن.

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لأنَّهم عمِلُوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، مِن غير تحريفٍ ولا تغييرٍ ولا تبديل، لقادهم ذلك إلى اتِّباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمَّدًا ﷺ؛ فإنَّ كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتِّباعه حتمًا لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني بذلك: كثرة الرِّزْق النَّازل عليهم من السَّماء والنَّابت لهم من الأرض.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [(١)] يعني: لأرسل السماء عليهم مدرارًا، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها.

وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسُّدِّي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

وقال بعضهم: معناه ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: من غير كَدٍّ ولا تعبٍ، ولا شقاءٍ ولا عناءٍ.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: لكانوا في الخَيْر، كما يقول القائل: «هُو في الخَيْر مِن قرنه [(٢)] إلىٰ قَدَمه». ثم رد هذا القول لمخالفة أقوال السلف.

---

(١) لوحة (٣٠٩ ب).

(٢) القرن: حد الرأس وجانبها.

وقد ذكر ابن أبي حاتم، عند قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ حديث علقمة، عن صفوان ابن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ**». فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟! قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ لَبِيدٍ! إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ المَدِينَةِ، أَوَلَيْسَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ بِأَيْدِي اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ حِينَ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ**» ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[(١)].

هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثًا معلقًا من أول إسناده، مرسلًا في آخره. وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلًا موصولًا فقال:

حدَّثنا وَكيعٌ، حدَّثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن زياد بن لَبيد قال: ذكر النَّبيُّ ﷺ شيئًا فقال: «**وَذَاكَ عِنْدَ ذَهَابِ العِلْمِ**». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرِئُه أبناءنا، ويُقْرِئُه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ [مِنْ]**[(٢)] **أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا فِيهِمَا بِشَيْءٍ**»[(٣)].

وكذا رواه ابن ماجة، عن أبىٰ بكر بن أبي شيبة، عن وكيع بإسناده نحوه وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسىٰ: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧]. فجعل أعلىٰ[(٤)] مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأُمَّة، وفوق ذلك رُتْبَة السَّابِقِينَ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر:٣٢، ٣٣]. والصَّحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأُمَّة يَدْخُلون الجنة.

وقد قال أبو بكر بن مَرْدويه: حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا أحمد بن يونس الضَّبِّي، حدَّثنا عاصم بن علي، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن يعقوب بن يزيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «**تَفَرَّقَتْ أُمَّةُ مُوسَىٰ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، سَبْعُونَ مِنْهَا فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّةُ عِيسَىٰ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَاحِدَةٌ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ وَإِحْدَىٰ وَسَبْعُونَ مِنْهَا فِي النَّارِ، وَتَعْلُو أُمَّتِي عَلَىٰ الفِرْقَتَيْنِ جَمِيعًا. وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الجَمَاعَاتُ الجَمَاعَاتُ**».

---

(١) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٦٥٩٥) معلقًا من أوله مرسلًا من آخره لكنه ثبت موصولًا صحيحًا، فقد رواه أحمد (٦/ ٢٦)، وابن حبان (٤٥٧٢)، وانظر ما بعده.

(٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٦)، وابن ماجة (٥٢٩٠).

(٤) لوحة (٣١٠ أ).

قال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدَّث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ، تلا فيه قرآنًا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وتلا أيضًا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] يعني: أمة محمد ﷺ[١].

وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا مِن هذا الوجه وبهذا السياق. وحديثُ افتراق الأمم إلىٰ بضعٍ وسبعين مَرْوِيٌّ من طرقٍ عديدةٍ، وقد ذكرناه في موضع آخر. ولله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ باسم الرِّسالة، وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امْتَثَل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتمَّ القيام.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حَدَّثك أن محمَّدًا ﷺ كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كَذَب، الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ[٢] بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية[٣].

هكذا رواه هاهنا مختصرًا، وقد أخرجه في مواضع من «صحيحه» مطولًا. وكذا رواه مسلم في «كتاب الإيمان»، والتِّرمذي والنسائي في «كتاب التفسير» من «سننهما» من طرق، عن عامر الشعبي، عن مسروق بن الأجدع عنها رضي الله عنها.

وفي «الصحيحين» أيضًا عنها أنها قالت: لو كان محمَّدٌ ﷺ كاتمًا من القرآن شيئًا لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧][٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدَّثنا سعيد بن سليمان، حدَّثنا عباد، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عبَّاس فجاء رجلٌ فقال له: إنَّ ناسًا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئًا لم يُبْدِه رسولُ الله ﷺ للنَّاس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالىٰ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟ والله ما وَرَّثَنا رسول الله ﷺ سوداءَ في بيضاءَ[٥].

وهذا إسنادٌ جيدٌ، وهكذا في «صحيح البخاري» من رواية أبي جُحَيفَة وهب بن عبد الله السُّوائي

---

(١) صحيح لغيره: واللفظ الذي أورده ابن كثير فيه أبو معشر: اختلط، لكن أصل الحديث ثابت وقد تقدم. انظر أوائل سورة آل عمران.

(٢) لوحة (٣١٠ ب).

(٣) البخاري (٤٦١٢)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٦٨)، والنسائي (١١١٤٧).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨) من «كتاب الإيمان»، ولم أقف عليها في «صحيح البخاري».

(٥) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٢/ ٦٦١١).

قال: قلت لعلي بن أبي طالب ﷺ: هل عندكم شيءٌ مِن الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والَّذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة، إلا فَهْمًا يُعْطِيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصَّحِيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْل، وفِكَاك الأسير، وألا يُقْتَل مسلمٌ بِكَافِرٍ(١).

وقال البخاري: قال الزهري: مِن الله الرِّسالة، وعلىٰ الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّسليم.

وقد شهدت له أُمَّتُه ببلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من الصحابه نحوٌ مِن أربعين ألفًا كما ثبت في «صحيح مسلم»، عن جابر بن عبد الله؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت وأدَّيتَ ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلىٰ السماء ويَقلبها إليهم ويقول: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمير، حدَّثنا فضيل -يعني ابن غَزْوان- عن عِكْرمَة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قالوا: يوم حرام. قال: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**» قالوا: بلد حرام. قال: «**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**(٣)» قالوا: شهرٌ حرام. قال: «**فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**». ثم أعادها مرارًا. ثم رفع إصبعه إلىٰ السماء فقال: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ!**» مرارًا -قال: يقول ابن عبَّاس: والله لَوصِيَّةٌ إلىٰ ربه ﷻ- ثمَّ قال: «**أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(٤).

وقد روىٰ البخاريُّ عن علي بن المَديني، عن يحيىٰ بن سعيد، عن فضيل بن غزوان به نحوه.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني: وإِن لم تُؤَدِّ إلىٰ النَّاس ما أرسلتك به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: وقد عَلِم مَا يَتَرَتَّب علىٰ ذلك لو وَقَع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني: إن كتمت آية ممَّا أنزل إليك مِن رَبِّك لم تبلغ رسالته.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي: حدَّثنا قَبِيصة بن عُقْبَةَ، حدَّثنا سفيان، عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قال: «**يَا رَبِّ، كَيْفَ أَصْنَعُ وَأَنَا وَحْدِي؟ يَجْتَمِعُونَ عَلَيَّ**». فنزلت ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾(٥).

ورواه ابن جرير، من طريق سفيان -وهو الثوري- به.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بلغ أَنْت رِسَالَتِي، وأنا حافظك وناصرك ومُؤَيِّدك علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١١١)، والترمذي (١٤١٢)، والنسائي (٨/ ٢٣)، وابن ماجة (٢٦٥٨).

(٢) مسلم (١٢١٨)، وهو حديث طويل في وصف حجته ﷺ.

(٣) لوحة (٣١١ أ).

(٤) أحمد (١/ ٢٣٠)، والبخاري (١٧٣٩) نحوه.

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٣)، والطبري (٦/ ٣٠٧)، وإسناده مرسل وفيه رجل مبهم.

أَعْدَائِكَ ومُظْفِرُكَ بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يَصِلَ أحدٌ مِنهُم إليك بسوءٍ يُؤْذِيك.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَس كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيد، حدَّثنا يحيىٰ، قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يُحَدِّث: أنَّ عائشة كانت تُحدِّث: أنَّ رسول الله ﷺ سَهِرَ ذات ليلةٍ، وهي إلىٰ جَنْبِهِ، قالت: فقلتُ: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ؟» قالت: فبينا أنا علىٰ ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال: «مَنْ هَذَا؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسَمِعْتُ غطيط رسول الله ﷺ في نومه. أخرجاه في «الصَّحِيحَيْن» من طريق يحيىٰ بن سعيد الأنصاري به(١).

وفي لفظ: سَهِرَ رسول الله ﷺ ذات ليلة مَقْدَمِه المدينة؛ يعني: علىٰ أَثَرِ هجرته إليها بعد دخوله بعائشة ﵂، وكان ذلك في سَنَةِ ثنتين منها(٢).

وقال ابن(٣) أبي حاتم: حدَّثنا إبراهيم بن مرزوق البصري نَزِيلُ مصر، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا الحارث بن عُبَيد -يعني أبا قدامة- عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة ﵂ قالت: كان النَّبيُّ ﷺ يُحْرَس حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النَّبيُّ ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ ﷻ»(٤).

وهكذا رواه التِّرمذي، عن عبد بن حُمَيد وعن نصر بن علي الجَهْضمي، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به. ثم قال: وهذا حديثٌ غريبٌ.

وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في «مستدركه»، من طريق مسلم بن إبراهيم به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجَاه. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن الحارث بن عُبَيد أبي قدامة [الإيادي](٥) عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة به.

ثم قال التِّرمِذي: وقد روىٰ بعضهم هذا عن الجُرَيري، عن ابن شقيق قال: كان النَّبيُّ ﷺ [يُحْرَسُ](٦)...ولم يذكر عائشة.

قلت: هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن عُلَيَّةَ، وابن مردويه من طريق وُهَيْب كلاهما عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شقيق مرسلًا وقد روىٰ هذا مرسلًا عن سعيد بن جبَيْر ومحمَّد بن كعب القُرَظي، رواهما ابن جرير والربيع بن أنس رواه ابن مردويه، ثم قال:

حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا أحمد بن رِشدِين المصري، حدَّثنا خالد بن عبد السلام الصَّدفي،

---

(١) البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذي (٣٧٥٦) وأحمد (٦/ ١٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٠). (٣) لوحة (٣١١ ب).

(٤) حسنه الألباني. رواه الترمذي (٣٠٤٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٣).

(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).

حدَّثنا الفضل بن المختار، عن عبد الله بن مَوْهَب، عن عصمة بن مالك الخطمي قال: كُنَّا نَحْرُس رسول الله ﷺ بالليل حتىٰ نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فترك الحرس(١).

حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا حمد بن محمَّد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي، حدَّثنا كُرْدُوس بن محمَّد الواسطي، حدَّثنا معلىٰ بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: كان العبَّاس عَمُّ رسول الله ﷺ فيمن يَحْرُسُه، فلمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحَرَسَ(٢).

حدَّثنا علي بن أبي حامد المديني، حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن سعيد، حدَّثنا محمَّد بن مُفَضَّل بن إبراهيم الأشعري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن معاوية بن عمار، حدَّثنا أبي قال: سمعتُ أبا الزبير المكي يُحَدِّث، عن جابر بن عبد الله(٣) قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب مَن يَكْلَؤُهُ، حتىٰ نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فذهب ليبعث معه، فقال: «يَا عَمِّ، إِنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَنِي، لَا حَاجَةَ لِي إِلَىٰ مَنْ تَبْعَثُ»(٤).

وهذا حديثٌ غريبٌ وفيه نكارة فإن هذه الآية مدنيةٌ، وهذا الحديث يَقْتَضِي أنَّها مكيَّةٌ.

ثم قال: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ، حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عبد الحميد الحِمَّاني، عن النَّضْر، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ يُحْرَس، فكان يُرْسِل معه أبو طالب كُلَّ يَوْم رجالًا مِن بني هاشم يَحْرُسُونه، حتىٰ نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ»(٥).

ورواه الطَّبَرَانِيُّ عن يعقوب بن غَيْلان العماني، عن أبي كريب به.

وهذا أيضًا غريب. والصحيح أن هذه الآية مدنية، بل هي مِن أواخر ما نزل بها، والله أعلم.

ومن عصمة الله ﷻ لرسوله حفظُه له من أَهْل مكَّة وصنَادِيدِها وحسادها ومُعَانديها ومُتْرَفِيها، مع شدَّة العداوة والبِغْضَة ونَصْب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالىٰ من الأسباب العظيمة بقَدَره وحِكْمَتِه العظيمة. فصَانَهُ في ابتداء الرِّسالة بعمِّه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبةً طبيعيَّةً لرسول الله ﷺ لا شرعيَّة، ولو كان أسلم لَاجْتَرَأَ عليه كفَّارها

---

(١) ضعيف جدًّا: فيه أحمد بن محمَّد بن رشدين: ضعيف وقد كُذِّب، والفضل بن المختار: منكر الحديث ضعيف جدًّا، ويكفي في الاستدلال ما تقدم من حديث عائشة ﵂.

(٢) في إسناده عطية العوفي: شيعي مدلِّس، ومعلىٰ بن عبد الرحمن: متهم بالوضع.

(٣) لوحة (٣١٢ أ).

(٤) منكر: وفيه أبو الزبير: مدلس، وعلة نكارته كما قال ابن كثير: أن الآية مدنية، وما ورد في الحديث يقتضي أنها مكية.

(٥) منكر: فيه النضر بن عبد الرحمن: متروك الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وانظر ما تقدم.

وكبَارُها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدرٌ مشتركٌ في الكفر هابوه واحترَمُوهُ، فلمَّا مات أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيرًا، ثم قيَّض الله ﷻ له الأنصار فبَايَعُوهُ علىٰ الإسلام، وعلىٰ أن يَتحَوَّل إلىٰ دارهم -وهي المدينة- فلما صار إليها حَمَوه من الأحمر والأسود، فكُلَّما همَّ أحدٌ من المشركين وأَهْل الكتاب بسوءٍ كاده الله ورد كَيْدَه عليه، لما كاده اليهود بالسِّحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الدَّاء، ولما سمَّ اليهود في ذراعِ تلك الشَّاة بخَيْبَر، أعلمه الله به وحمَاه الله منه؛ ولهذا أشباهٌ كثيرةٌ جدًّا يطول ذكرها، فمِن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

فقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا أبو مَعْشَرٍ، عن محمَّد بن كعب القُرَظِي وغيره قال: كان رسول الله ﷺ[١] إذا نزل منزلًا اختار له أصحابه شجرةً ظليلةً فيَقِيلُ تحتها، فأتاه أعرابيٌّ فاخترط سيفه[٢] ثم قال: مَن يمنعك مني؟ فقال: «اللهُ ﷻ» فَرُعِدَت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برَأسِه الشجرة حتىٰ انتثر دماغه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد أحمد بن محمَّد بن يحيىٰ بن سعيد القَطَّان، حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، حدَّثنا موسىٰ بن عبيدة، حدَّثني زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار، نزل ذات الرِّقاع بأعلىٰ نخل، فبَيْنَا هو جالسٌ علىٰ رأس بئرٍ قد دلَّىٰ رجليه، فقال [غَوْرَث بن الحارث][٤] من بني النجار: لأقتلن محمَّدًا. فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك. فإذا أعطانيه قتلته به، قال: فأتاه فقال: يا محمَّد، أعطني سيفك أشيمُه[٥]. فأعطاه إياه، فَرُعدت يده حتىٰ سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ: «حَالَ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَا تُرِيدُ» فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٦].

وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجه، وقصة غَوْرَث بن الحارث مشهورةٌ في الصحيح.

وقال أبو بكر بن مَرْدويه: حدَّثنا أبو عمرو أحمد بن محمَّد بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن عبد الوهاب، حدَّثنا آدم، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال:

---

(١) لوحة (٣١٢ ب).

(٢) اخْتَرط سَيفَه: سَلَّه من غِمدِه. «النهاية».

(٣) مرسل: وفي الإسناد أبو معشر: ضعيف، ولكن القصة صحيحة. انظر ما بعده.

(٤) في (ز): فقال الوارث.

(٥) شام السيف: استله وأغمده، من الأضداد، وشامه أيضًا: نظر إليه.

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧/ ١١٧٣) وفيه موسىٰ بن عبيدة الربذي ضعيف.

كنَّا إذا صَحِبْنا رسول الله ﷺ في سفرٍ تركنا له أَعْظَم شجرةٍ وأظلها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرةٍ وعلَّق سيفه فيها، فجاء رجلٌ فأخذه فقال: يا محمَّد، مَن يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ، ضَعِ السَّيْفَ». فوضعه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (١).

وكذا رواه أبو حاتم بن حِبَّان في «صحيحه»، عن عبد الله بن محمَّد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، سمعت أبا إسرائيل -يعني الجُشَمي- سمعت جَعْدَة -هو ابن خالد بن الصِّمَّة الجشمي- ﷺ، قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ ورأى رجلًا سمينًا، فجعل النَّبيُّ ﷺ يومئ إلىٰ بطنه بيده ويقول: «لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا لَكَانَ خَيْرًا لَكَ». قال: وأُتِي النَّبيُّ ﷺ برجل فقال: هذا أراد أن (٢) يقتلك. فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لَمْ تُرَعْ، [لَمْ تُرَعْ،] (٣) وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَمْ يُسَلِّطْكَ اللهُ عَلَيَّ» (٤).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بلغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما قال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾

يقول تعالىٰ: قل يا محمَّد: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: حتىٰ تُؤْمِنُوا بجميع ما بأَيْديكم مِن الكتب المنزَّلة مِن الله علىٰ الأنبياء، وتعملوا بما فيها: ومما فيها الأمر باتِّباع محمَّدٍ ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته؛ ولهذا قال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ تقدَّم تفسيره ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى

---

(١) حسن: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١١٩) إلىٰ ابن مردويه وابن حبان، وهو عنده برقم (١٧٣٩ - موارد).

(٢) لوحة (٣١٣ أ).

(٣) زيادة من «المسند».

(٤) ضعفه الألباني: انظر: «السلسلة الضعيفة»، وأعله بأبي إسرائيل الجشمي: لم يوثقه غير ابن حبان وهو متساهل في توثيق المجاهيل.

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن عليهم ولا يَهيدنَّك[1] ذلك منهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم: المسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم: حملة التوراة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ لما طال الفصل حَسُن العطف بالرَّفع. والصَّابئُون: طائفةٌ بين النَّصارىٰ والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين[2] اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: بين[3] اليهود والنصارىٰ، وعن الحسن إنهم كالمجوس. وقال قتادة: هُم قومٌ يعبدون الملائكة، ويُصَلُّون إلىٰ غير القبلة، ويَقْرءُون الزَّبور. وقال وَهْب ابن مُنَبِّه: هم قومٌ يعرفون الله وحْدَهُ، وليست لهم شريعةٌ يَعْمَلُون بها، ولم يُحْدِثُوا كفرًا.

وقال ابن وَهْب: أخبرني ابن أبي الزِّنَاد، عن أبيه قال: الصَّابِئُونَ هم[4]: قوم مما يلي العراق، وهم بكُوثىٰ، وهم يؤمنون بالنَّبيِّين كلهم، ويصومون كل سَنَةٍ ثلاثين يومًا، ويُصَلُّون إلىٰ اليمن كل يومٍ خمس صلوات. وقيل غير ذلك.

وأما النَّصارىٰ فمَعْروفُون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصود: أنَّ كلَّ فرقةٍ آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المَعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملًا صالحًا، ولا يكون ذلك كذلك حتىٰ يكون موافقًا للشَّريعة المحمَّدية[5] بعد إرسال صاحبها المبعوث إلىٰ جميع الثَّقَلَيْن، فمن اتَّصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يَسْتَقْبِلُونَه ولا علىٰ ما تركوا وراء ظهورهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد تقدَّم الكلام علىٰ نَظِيرَاتِهَا في سورة البقرة، بما أغنىٰ عن إعادته.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

يذكر تعالىٰ أنَّه أخذ العهود والمواثيق علىٰ بني إسرائيل، علىٰ السَّمع والطَّاعة لله ولرسوله، فنَقَضُوا تلك العهود والمواثيق، واتَّبعوا آراءهم وأهواءَهُم وقدَّمُوها علىٰ الشَّرائع، فما وافقهم منها قَبلُوه، وما خالفهم رَدُّوه؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: وحسبوا ألا يترتب لهم شَرٌّ علىٰ ما صنعوا، فترتب، وهو أنَّهم عَمُوا عن الحق وصَمُّوا، فلا يسمعون حقًّا ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ أي: بعد ذلك ﴿وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مُطَّلِعٌ عليهم وعليمٌ بمَن يَسْتَحِقُّ الهداية ممن يستحق الغواية.

---

(١) أي: لا تنزعج. (٢) في (ز): من. (٣) في (ز): من.

(٤) ليست في (ز). (٥) لوحة (٣١٣ ب).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا
اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ
يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾

يقول تعالىٰ حاكمًا بتكْفِير فِرَق النَّصارىٰ، من الملكيَّة واليعقوبيَّة والنُّسْطُوريَّة، ممن قال منهم بأنَّ المسيح هو الله، تعالىٰ الله عَن قولهم وتنزَّه وتقدَّس علوًّا كبيرًا.

هذا وقد تقدَّم إليهم المسيح بأنَّه عبد الله ورسوله، وكان أوَّل كلمةٍ نطق بها وهو صغير في المَهْدِ أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:٣٠-٣٦].

وكذلك قال لهم في حَالِ كُهُولَتِهِ ونُبوَّتِهِ، آمرًا لهم بعبادة الله ربِّه وربِّهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ [(١)] يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: فيعبد [معه][(٢)] غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النَّار، وحرَّم عليه الجنَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

وفي «الصَّحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ بعث مناديًا ينادي في الناس: «**إِنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُها إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ**»، وفي لفظ: «**مُؤْمِنَةٌ**»[(٣)].

وتقدَّم في أوَّل سورة النِّساء عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ حديث يزيد بن بابَنُوس عن عائشة: الدَّواوِين ثلاثة فذكر منهم ديوانًا لا يَغْفِرُه الله، وهو الشِّرْكُ بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ الحديث في «مسند أحمد»[(٤)].

ولهذا قال الله تعالىٰ إخبارًا عن المسيح أنَّه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) لوحة (٣١٤ أ). (٢) سقط من (ز).

(٣) البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١)، وتقدم أصل الحديث في سورة آل عمران (الآية ١١٠).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٢٤٠) من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسىٰ: ضعيف لسوء حفظه، ويزيد بن بابنوس، قال الحافظ: مقبول.

﴿ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَنٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصرٌ ولا مُعِينٌ ولا مُنْقِذٌ مما هو فيه.

وقوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسن الهِسْتَجاني، حدَّثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم، حدَّثنا الفضل، حدَّثني أبو صخر في قول الله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقول النصارىٰ: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] فجعلوا الله ثالث ثلاثة.

وهذا قولٌ غريبٌ في تفسير الآية: أنَّ المراد بذلك: طائفتا اليهود والنَّصارىٰ [والصحيح: أنها أنزلت في النَّصارىٰ][(١)] خاصَّة، قاله مجاهد وغير واحد.

ثم اختلفوا في ذلك فقيل: المراد بذلك كُفَّارُهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلىٰ الابن، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، قال ابن جرير وغيره: والطَّوائف الثَّلاث من الملكيَّة واليعقوبية والنُّسطُوريَّة تقول بهذه الأقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافًا متباينًا ليس هذا موضع بَسْطِهِ، وكل فرقةٍ منهم تُكفِّر الأخرىٰ، والحقُّ أنَّ الثَّلاث كافرة.

وقال السُّدِّي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السُّدِّي: وهي كقوله تعالىٰ في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ الآية [المائدة:١١٦].

وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ليس متعددًا، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات[(٢)] وسائر المَوْجُودات.

ثم قال تعالىٰ مُتوَعِّدًا لهم ومتهدِّدًا: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: من هذا الافتراء والكَذِبِ ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة مِن الأغلال والنَّكال.

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من كرمه تعالىٰ وجُوده ولُطفِه ورحمته بخلقه، مع هذا الذَّنْب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يَدْعُوهُم إلىٰ التَّوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، ثم قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: له سَوِيَّة[(٣)] أمثاله مِن سائر المُرْسَلِينَ المُتقَدِّمين عليه، وأنَّه عَبْدٌ مِن عباد الله ورسولٌ من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩].

وقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنةٌ به مُصَدِّقةٌ له. وهذا أعلىٰ مقاماتها فدلَّ علىٰ أنَّها ليست بنَبِيَّة، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلىٰ نبوَّة سارة أم إسحاق، ونبوَّة أم موسىٰ، ونبوَّة أمِّ عيسىٰ استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، قالوا: وهذا معنىٰ النبوَّة، والذي عليه الجمهور أنَّ الله لم يبعث نبيًّا إلا مِنَ الرِّجال، قال الله تعالىٰ:

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣١٤ ب). (٣) يقال: هم علىٰ سوية، أي: استواء.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكىٰ الشيخ أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع علىٰ ذلك.

وقوله: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلىٰ التَّغْذِيَة به، وإلىٰ خروجه منهما، فهما عبدان كسائر النَّاس وليسا بإلَهَيْن كما زعمت فرق النَّصارىٰ الجهلة، عليهم لعائن الله المتابعة إلىٰ يوم القيامة[1].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نُوضِحُها ونُظْهِرُها، ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: ثمَّ انظُر بعد هذا البيان والوُضُوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأيِّ قولٍ يتمسَّكون؟ وإلىٰ أيِّ مذهب مِن الضَّلال يذهبون؟

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من عبَدَ غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومُبَيِّنًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية. ﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمَّد لهؤلاء العابدين غيرَ اللهِ مِن سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النَّصارىٰ وغيرهم: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾[2] أي: لا يقدر علىٰ إيصال ضرر إليكم، ولا إيجادِ نفع ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: فلِمَ عدلتم عَن إفراد السَّميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلىٰ عبادة جَمَاد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه؟

ثم قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا تُجاوَزُوا الحد في اتِّباع الحق، ولا تُطْرُوا من أُمِرْتُم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتىٰ تُخْرِجُوه عن حَيِّز النُّبُوَّة إلىٰ مقام الإلهيَّة، كما صنعتم في المسيح، وهو نبيٌّ من الأنبياء، فجعلتموه إلهًا مِن دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشُيُوخ الضَّلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلىٰ طريق الغواية والضَّلال.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدَّثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الرَّبيع بن أنس قال: وقد كان قائمٌ قام عليهم، فأخذ بالكتاب والسُّنَّة زمانًا، فأتاه الشَّيطَان فقال: إنَّما

---

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما أخر في الاستدلال علىٰ بطلان مذهب النصارىٰ، حاجتهما للطعام عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام، ترقيًا في باب الاستدلال من الجلي للأجلىٰ، علىٰ ما هو القاعدة في سوق البراهين لإلزام الخصم، حتىٰ إذا لم يسلم في الجلي لِغموضه عليه، يورد له الأجلىٰ تعريضا بغباوته. فيضطر للتسليم، إن لم يكن معاندًا ولا مكابرًا. هذا ما ظهر لي في سر التقديم والتأخير.

(٢) لوحة (٣١٥ أ).

تَرْكَب أثرًا أو أمرًا قد عُمِل قبلك، فلا تَجمُد عليه، ولكن ابْتَدِع أمرًا من قِبَل نفسك وادعُ إليه وأَجْبر الناس عليه، ففعل، ثم ادكَر بعد فعله زمانًا فأراد أن يتُوب فخلع مُلْكه، وسلطانه وأراد أن يَتَعَبَّد فلَبِثَ في عبادته أيَّامًا، فأُتِيَ فقيل له: لو أنَّك تُبْتَ مِن خطيئةٍ عملتها فيما بينك وبين ربِّك عسىٰ أن يُتَابَ عليْكَ، ولكن ضلَّ فلان وفلان وفلان في سَبَبِكَ حتىٰ فارقوا الدُّنيا وهم علىٰ الضَّلالة، فكيف لك بهداهم، فلا توبة لك أبدًا. ففيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه لَعَن الكافرين من بني إسرائيل مِن دهرٍ طويلٍ، فيما أنزل علىٰ داود نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم بسبب عِصْيَانِهم لله واعتدائهم علىٰ خلقه.

قال العَوْفِيُّ، عن ابن عبَّاس: لعنوا[2] في التَّوراة[3] [وفي الإنجيل][4] وفي الزَّبور، وفي الفُرْقَان.

ثم بيَّن حالهم فيما كانوا يَعْتَمِدُونَه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: كان لا ينهىٰ أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمَّهُم علىٰ ذلك ليُحَذِّر أن يُرْكَبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا شَريك بن عبد الله، عن علي بن بَذيمة عن أبي عُبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي المَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ** -قال يزيد: وأحسبه قال: **وَأَسْوَاقِهِمْ**- **وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**»، وكان رسول الله ﷺ مُتَّكِئًا فجلس فقال: «**لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ تَأْطُرُوهُمْ عَلَىٰ**

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٦٥٧) ولكن لا يقبل مثل هذه الأخبار لعدم رفعها إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأحسن ما يقال فيها أنها حكايات عن بني إسرائيل مما لا تصدق ولا تكذب.

(٢) في (ز): أحنوا.

(٣) لوحة (٣١٥ ب).

(٤) سقط من (ز).

الحَقِّ(١) أَطْرًا(٢)»(٣).

وقال أبو داود: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد النُّفَيْلي، حدَّثنا يونس بن راشد، عن علي بن بَذِيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثم قال: «﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾»، ثم قال: «كَلَّا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ أَطْرًا -أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ قَصْرًا»(٤).

وكذا رواه التِّرمذي وابن ماجة، من طريق علي بن بَذيمة به، وقال الترمذي: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجة، عن بُنْدار، عن ابن مَهْديٍّ، عن سفيان، عن علي بن بَذيمة، عن أبي عبيدة مرسلًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمداني، قالا: حدَّثنا عبد الرحمن ابن محمَّد المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَىٰ أَخَاهُ عَلَىٰ الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَىٰ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ(٥) أَكِيلَهُ وَخَلِيطَهُ وَشَرِيكَهُ» وفي حديث هارون: «وَشَرِيبَهُ»، ثم اتفقا في المتن «فَلَمَّا رَأَىٰ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ». ثم قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ المُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ أَطْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، أَوْ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»، والسياق لأبي سعيد. كذا قال في رواية هذا الحديث(٦).

---

(١) تَأْطُرُوهم علىٰ الحق: تَعْطِفوهم وتميلوهم وتحملوهم عليه.

(٢) في (ز): أطراهم.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٩١)، وأبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجة (٤٠٠٦)، ومدار الحديث علىٰ أبي عبيدة، وهو لم يسمع من ابن مسعود فالإسناد منقطع.

(٤) ضعيف: رواه أبو داود (٤٣٣٦)، وإسناده منقطع كما تقدم في الرواية السابقة.

(٥) لوحة (٣١٦أ).

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٦٦١)، وإسناده منقطع كما تقدم في الرواية السابقة.

وقد رواه أبو داود أيضًا، عن خَلَف بن هشام، عن أبي شهاب الخياط، [عن العلاء][١] بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم -وهو ابن عجْلان الأفطس- عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النَّبيِّ ﷺ، بنحوه. ثم قال أبو داود: وكذا رواه خالد، عن العلاء، عن عمرو بن مُرَّة به. ورواه المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة، عن عبد الله.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزّي: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي، عن العلاء، عن عمرو بن مرة، عن أبي موسىٰ.

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرةٌ جدًّا، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام، وقد تقدم حديث جرير عند قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣]، وسيأتي عند قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديثُ أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخُشَنِي رضي الله عنهما -فقال الإمام أحمد:

حدَّثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان؛ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ**»[٢].

ورواه التِّرمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر به. وقال: هذا حديث حسن.

وقال أبو عبد الله محمَّد بن يزيد بن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدَّثنا معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن عمرو بن عثمان، عن عاصم بن عمر بن عثمان، عن عروَة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مُرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابُ[٣] لَكُمْ**»[٤]. تفرَّد به، وعاصم هذا مجهول.

وفي «الصَّحيح» مِن طريق الأعمش، عن إسماعيل بن رَجاء، عن أبيه، عن سعيد -وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**» رواه مسلم[٥].

---

(١) في (ز): عن علي.

(٢) رواه الترمذي (٢١٧٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وحسنه الترمذي.

قلت: في الإسناد: عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول. لكن يشهد للحديث الروايات الأخرىٰ المذكورة في الباب، لذا فقد حسنه الشيخ الألباني كما في «صحيح الجامع».

(٣) لوحة (٣١٦ ب).

(٤) حسن لغيره: رواه ابن ماجة (٤٠٠٤)، وفيه عاصم بن عمر: مجهول، وعمرو بن عثمان: مستور، لكن يشهد له حديث حذيفة السابق.

(٥) رواه مسلم (٤٩).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمَيْر، حدَّثنا سَيْف -هو ابن أبي سليمان- سمعت عَدِيَّ بن عدي الكندي، يحدث عن مجاهد قال: حدَّثني مولىً لنا أنه سمع جدي -يعني: عدي بن عميرة رضي الله عنه- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ، حَتَّىٰ يَرَوُا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يُنْكِرُوهُ. فَلا يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ العَامَّةَ وَالخَاصَّةَ**» (١).

ثم رواه أحمد، عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عدي (٢) بن عدي [الكندي] (٣)، حدَّثني مولىً لنا، أنه سمع جدي يقول: [سمعت] (٤) رسول الله ﷺ [يقول] (٥)، فذكره. هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين.

وقال أبو داود: حدَّثنا [محمَّد بن العلاء،] (٦) حدَّثنا أبو بكر، حدَّثنا مُغِيرة بن زياد الموصلي، عن عَدِيِّ بن عدي، عن العُرْس -يعني ابن عَميرة- عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا** -وقال مرة: **فَأَنْكَرَهَا**- **كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**» (٧).

تفرَّد به أبو داود، ثمَّ رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدي بن عدي مرسلًا.

وقال أبو داود: حدَّثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر، قالا: حدَّثنا شعبة -وهذا لفظه- عن عمرو ابن مرة، عن أبي البَخْتَري قال: أخبرني من سمع النَّبيَّ ﷺ -وقال سليمان: حدَّثني رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ؛ أن النَّبيَّ ﷺ- قال: «**لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يَعْذُرُوا** - أو: **يُعْذِرُوا**- **مِنْ أَنْفُسِهِمْ**» (٨).

وقال ابن ماجة: حدَّثنا عمران بن موسىٰ، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا علي بن زيد بن جُدْعان، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «**أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ**». قال: فبكىٰ أبو سعيد وقال: قد -والله- رَأَيْنا أَشْياءَ، فَهِبْنا (٩).

وفي حديث إسرائيل: عن محمَّد بن جُحَادة، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» (١٠) (١١).

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٩٢)، وفيه رجل لم يسم، والحديث ضعفه الألباني. انظر: «ضعيف الجامع» (١٦٧٥).
(٢) في (ز): عيسىٰ وهو خطأ.
(٣) زيادة من «المسند».
(٤) زيادة من «المسند».
(٥) زيادة من «المسند».
(٦) في (ز): حدَّثنا أبو العلاء.
(٧) حسن: رواه أبو داود (٤٣٤٦).
(٨) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٤٧).
(٩) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو يعلىٰ (١٤١١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٨).
(١٠) لوحة (٣١٧ أ).
(١١) صححه الألباني: رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجة (٤٠١١)، وفيه عطية العوفي: وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد استوفاها شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٩١).

رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

وقال ابن ماجة: حدَّثنا راشد بن سعيد الرملي، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن أبي غالب، عن أبي أُمَامَة قال: عَرَض لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجَمْرة الأولىٰ فقال: يا رسول الله، أيُّ الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رَمَىٰ الجمرَة الثانية سأله، فسكت عنه. فلما رمىٰ جمرة العَقَبة، ووضع رجله في الغَرْز[١] ليركب، قال: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**» قال: أنا يا رسول الله، قال: «**كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ**». تفرَّد به[٢].

وقال ابن ماجة: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عبد الله بن نُمَيْر وأبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو ابن مُرَّة، عن أبي البَخْتَري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**». قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يَرَىٰ أَمْرًا للهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لا يَقُولُ فِيهِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيَّ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَىٰ**». تفرَّد به[٣].

وقال أيضًا: حدَّثنا علي بن محمَّد، حدَّثنا محمَّد بن فُضَيل، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طُوَالة، حدَّثنا نَهَارُ العَبْدِيُّ؛ أنَّه سَمِع أبا سعيدٍ الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّىٰ يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وَفَرِقْتُ [مِنَ][٤] النَّاسِ**». تفرَّد به أيضًا ابن ماجة، وإسناده لا بأس به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عمرو بن عاصم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن جُنْدُب، عن حذيفة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**». قيل: وكيف يُذِلُّ نفسه؟ قال: «**يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ**»[٦].

وكذا رواه التِّرمذي وابن ماجة جميعًا، عن محمَّد بن بَشَّار، عن عمرو بن عاصم به. وقال التِّرمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

---

(١) الغرز: ركاب الإبل.

(٢) صحيح لغيره: رواه ابن ماجة (٤٠١٢)، انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٤٩١).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٧٣)، وابن ماجة (٤٠٠٨)، وإسناده منقطع بين أبي البختري وأبي سعيد.

(٤) زيادة من «سنن ابن ماجة».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٢٧)، وابن ماجة (٤٠١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٩).

(٦) حسن لغيره: رواه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجة (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)، وفي إسناده علي بن زيد: ضعيف، والحسن البصري: مدلس، لكن للحديث شاهد من حديث ابن عمر، رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٣٥٧) ورجاله ثقات عدا زكريا بن يحيىٰ، لم أر فيه جرحًا ولا تعديلًا.
وبالجملة فالحديث أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦١٣).

وقال ابن ماجة: حدَّثنا العبَّاس بن الوليد الدمشقي، حدَّثنا زيد بن يحيىٰ بن عُبَيد الخُزاعي، حدَّثنا الهيثم بن حميد، حدَّثنا أبو مَعبد حفص بن غَيْلان الرُّعَيني، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متىٰ يُترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؟ قال: «**إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ**». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأُمَم قبلنا؟ قال: «**المُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ**». قال زيد: تفسير معنىٰ قول[١] النَّبيِّ ﷺ: «**وَالعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ**»: إذا كان العلم في الفُسَّاق[٢].

تفرَّد به ابن ماجة، وسيأتي في حديث أبي ثَعْلَبة، عند قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقة.

وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني بذلك: موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقًا في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًّا إلىٰ يوم معادهم؛ ولهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فسر بذلك ما ذمهم به، ثم أخبر أنهم ﴿فِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا [مسلمة][٣] بن علي، عن الأعمش بإسناد ذكره قال: «**يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، إِيَّاكُمْ وَالزِّنَا، فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ، ثَلَاثَةٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثَةٌ فِي الآخِرَةِ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّهُ يُذْهِبُ البَهَاءَ، وَيُورِثُ الفَقْرَ، وَيُنْقِصُ العُمْرَ. وَأَمَّا الَّتِي فِي الآخِرَةِ: فَإِنَّهُ يُوجِبُ سَخَطَ الرَّبِّ، وَسُوءَ الحِسَابِ، وَالخُلُودَ فِي النَّارِ**». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[٤].

هكذا ذكره ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مَرْدويه عن طريق هشام بن عمار، عن [مسلمة][٥] عن الأعمش، عن شَقِيق، عن حذيفة، عن النَّبيِّ ﷺ - فذكره. وساقه أيضًا من طريق سعيد بن عُفَير، عن [مسلمة][٦]، عن أبي عبد الرحمن الكوفي، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النَّبيِّ ﷺ فذكر مثله. وهذا حديث ضعيف علىٰ كلِّ حال والله أعلم. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسل والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه مِن موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنَّبيِّ وما أنزل إليه ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وَحْيِهِ وتنزيله.

---

(١) لوحة (٣١٧ ب). (٢) ضعيف: ابن ماجة (٤٠١٥)، وفيه مكحول: مدلس وقد عنعن.

(٣) في (ز): (مسلم). وهو خطأ.

(٤) ضعيف جدًّا: ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٣/ ٦٦٦٨)، وفيه مسلمة بن علي الخشني. قال الحافظ: متروك.

(٥) في (ز): (مسلم). وهو خطأ. (٦) في (ز): (مسلم). وهو خطأ.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ[1] تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ
ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: نزلت هَذِهِ الآيات في النَّجاشِيِّ وأصحابه، الَّذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتىٰ أخضلوا لِحَاهُم[2]. وهذا القول فيه نظر؛ لأنَّ هذه الآية مدنيَّةٌ، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة[3].

وقال سعيد بن جُبَير والسُّدِّي وغيرهما: نزلت في وَفْدٍ بعثهم النَّجاشي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النَّبيُّ ﷺ القرآن أسلموا وبكَوا وخَشَعوا، ثم رجعوا إلىٰ النَّجاشي فأخبروه.

قال السُّدِّي: فهاجر النجاشي فمات في الطريق[4].

وهذا من أفراد السُّدِّي؛ فإن النجاشي مات وهو ملك الحَبَشَةِ، وصلَّىٰ عليه النَّبيُّ ﷺ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنَّه مات بأرض الحبشة.

ثم اختلف في عِدةِ هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر، سبعة قساوسة[5] وخمسة رَهَابين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلًا. فالله أعلم.

وقال عَطاء بن أبي رَباح: هم قوم من أهل الحبشة، أسلموا حين قَدِمَ عليهم مُهَاجِرَة الحبشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قومٌ كانوا علىٰ دين عيسىٰ ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يَتَلَعْثَمُوا. واختار ابن جرير أنَّ هذه الآية نزلت في صفةِ أقوامٍ بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهتةٌ للحقِّ، وغَمْطٌ[6] للناس وتَنَقصٌ بحَمَلَةِ العلم. ولهذا قتلوا كثيرًا من

---

(١) لوحة (٣١٨ أ).
(٢) أي: بلَّوها.
(٣) رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٤)، وإسناده منقطع؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عبَّاس.
(٤) هذه الرواية والتي بعدها عن عطاء وعن قتادة مرسلة، ولذا فقد أحسن ابن جرير في اختياره أن هذه الآيات نزلت في صفة قوم بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أم غيره، ولكن انظر الروايات الآتية.
(٥) في (ز): قساقسة.
(٦) في (ز): وغيظ.

الأنبياء حتىٰ همُّوا بقتل رسول الله ﷺ غير مرَّة وسحروهُ، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين -عليهم لعائن الله المتتابعة[١] إلىٰ يوم القيامة.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويَه عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن السُّرِّي: حدَّثنا محمَّد ابن علي بن حبيب الرَّقي، حدَّثنا علي بن سعيد العلاف، حدَّثنا أبو النَّضْر، عن الأشجعي، عن سفيان، عن يحيىٰ بن عبيد الله[٢]، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا خَلَا يَهُودِيٌّ قَطُّ بِمُسْلِمٍ إِلَّا**[٣] **هَمَّ بِقَتْلِهِ**». ثم رواه عن محمَّد بن أحمد بن إسحاق اليَشْكُري، حدَّثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدَّثنا فرج بن عبيد، حدَّثنا عباد بن العوام، عن يحيىٰ بن عُبَيد الله، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا خَلَا يَهُودِيٌّ بِمُسْلِمٍ إِلَّا حَدَّثَتْ نَفْسُهُ بِقَتْلِهِ**»[٤]. وهذا حديث غريب جدًّا.

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ أي: الذين زعموا أنَّهم نصارىٰ مِن أتباع المسيح وعلىٰ منهاج إِنْجِيلِه، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا علىٰ دين المسيح من الرِّقَّة والرَّأفة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] وفي كتابهم: مَن ضربك علىٰ خدِّك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر. وليس القتال مشروعًا في مِلَّتِهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون -وهم خطباؤهم وعُلماؤهم، واحدهم: قسيس وقَس أيضًا، وقد يجمع علىٰ قُسُوس- والرُّهبان: جمع راهب، وهو: العابد. مشتق من الرهبة، وهي الخوف كراكب وركبان، وفارس وفرسان.

وقال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحدًا وجَمْعُه رهابين، مثل قربان وقرابين، وجُرْدان وجَرَادين[٥]، وقد يجمع علىٰ رهابنة. ومن الدليل علىٰ أنه يكون عند العرب واحدًا قول الشاعر:

لَوْ عَايَنَتْ رُهْبَانَ دَيْرٍ فِي القُلَلِ ... لَانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمْشِي وَنَزَلْ[٦]

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدَّثنا بِشْر بن آدم، حدَّثنا نُصَير بن أبي الأشعث، حدَّثني الصلت الدهان، عن حامية[٧] بن رِئَاب قال: سألت سلمان عن قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فقال: دَعِ القِسِّيسين في البِيَعِ والخِرَبِ، أقرأني رسول الله ﷺ: «**ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا**»[٨].

---

(١) في (ز): التابعة.

(٢) في (ز): (يحيىٰ بن عبد الله)، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو: يحيىٰ بن عبيد الله بن عبد الله بن موهب.

(٣) لوحة (٣١٨ ب).

(٤) ضعيف جدًّا: أخرجه الديلمي (٤/ ١٠٨)، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ٣١٦) وقال: غريبٌ جدًّا، وابن حبان في «الضعفاء» (٣/ ١١٢)، والحديث ضعفه السيوطي في «الجامع الصغير»، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٣٩)، فيه يحيىٰ بن عبيد الله، قال الحافظ: متروك، وقال ابن حبان: يروي عن أبيه ما لا أصل له.

(٥) في (ز): وجوذان وجواذين. (٦) **عاين الشيء**: نظر إليه بعينه مواجهةً، والقلل: جمع قلة، وهي رأس الجبل.

(٧) في (ز): حائمة.

(٨) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٣)، وفيه الصلت بن عمر الدهان أورده ابن أبي حاتم (٤/ ٤٣٦) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وكذلك حامية بن رئاب أورده في «الجرح والتعديل» (٣/ ٣١٤)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيىٰ بن عبد [الحميد][١] الحِمَّاني، عن نُصير بن زياد الطائي، عن صَلْت الدهان، عن حامية بن رِئَاب، عن سلمان به.

وقال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحمَّاني، حدَّثنا نُصَير بن زياد الطائي، حدَّثنا صلت الدهان، عن حامية بن رِئَاب قال: سمعت سلمان، وسئل عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ قال: هم الرُّهبان الذين هم في الصوامع والخرَب، فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت علىٰ النَّبيِّ ﷺ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ[٢] وَرُهْبَانًا﴾ فأقرأني: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا»[٣].

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمَّن وصفهم بأنَّ فيهم العلم والعبادة والتَّواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحقِّ واتِّباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ممَّا عِندَهُم مِن البِشَارةِ ببعثة محمَّد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع مَن يشهد بصحَّة هذا ويُؤْمِن به.

وقد روىٰ النَّسائي عن عمرو بن علي الفَلَّاس، عن عمرو بن علي بن مُقَدَّم، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في النَّجاشِيِّ وفي أصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٤].

وقال الطبراني: حدَّثنا أبو شُبَيْل عُبَيد الله بن [عبد الرحمن][٥] بن واقد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا العبَّاس بن الفضل، عن عبد الجبار بن نافع الضبي، عن قتادة وجعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قول الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم [كانوا كَرَابِين -يعني: فلَّاحين-][٦] قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: «وَلَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَىٰ أَرْضِكُمْ انْتَقَلْتُمْ إِلَىٰ دِينِكُمْ». فقالوا: لن ننتقل عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم[٧].

وروىٰ ابن أبي حاتم، وابن مَرْدويه، والحاكم في «مستدركه»، من طريق سِماك عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع محمَّد ﷺ، وأُمَّتِه هم الشاهدون، يشهدون لنَبيِّهم أنه قد بلغ، وللرُّسل أنهم قد بلغوا. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٨].

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٣١٩ أ). (٣) انظر التعليق السابق.

(٤) صحيح: رواه ابن جرير (٧/ ٥) وابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٥/ ٦٦٨٠).

(٥) في (ز): عبد الله. (٦) في «المعجم»: [كانوا نواتين: يعني: ملَّاحين].

(٧) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (١٢/ ٥٥)، وفيه العبَّاس بن الفضل الأنصاري. قال الحافظ: متروك.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (٦٦٨١)، والطبري (٧/ ٦)، والحاكم (٢/ ٣١٣) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: رواية سماك عن عكرمة خاصة مضطربة، لذا فالإسناد لا يصح، وإن كان المعنىٰ الوارد في الحديث صحيح؛ لأن أمة النَّبيِّ ﷺ شاهدة علىٰ الأمم كما تقدم ذلك في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾ الآية.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا الصنف من النصارىٰ هم المذكورون في قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا (١) اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٢-٥٥]؛ ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي: فجازاهم علىٰ إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ساكنين فيها أبدًا، لا يُحوَّلون ولا يَزُولُون، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتِّباعهم الحَقَّ وانْقِيادِهِم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي: جحدوا بها وخَالَفُوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: هم أهلُها والداخلون إليها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٢) ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ (٣) حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

---

(١) لوحة (٣١٩ ب).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: تحريم ما أحل الله ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: خبر، وإنشاء، وامتناع.
فالخبر: أن يقول: الضأن، حرام هذا نقول له: إنك كاذب؛ لأن الضأن حلال، وهو قال: إنه حرامٌ كذبًا.
والإنشاء: أن يحرم ما أحل الله كما فعل أهل الجاهلية في السائبة والوصيلة والحام، وقالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٩] هذا التحريم إنشاء؛ يعني: أراد أن يحكم بأن هذا الشيء حرام علىٰ جميع الناس، هذا هو الذي يراد بالآية الكريمة.
والثالث: الامتناع؛ يعني: أن يقصد الامتناع لا يقصد أنه حرام ولا قصد بذلك إنشاء الحكم عليه بالتحريم ولا قَصَدَ الخبر وإنما قصد الامتناع، فهذا حكمه حكم اليمين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]. إذا قال: هذا الخبز عليَّ حرام يريد الامتناع، ما قصد أن الحكم حرام في شرع الله ولا أن يخبر أنها حرام، لكن أراد أن يمتنع، فهذا حكمه حكم اليمين.
الدليل: قوله تعالىٰ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم].
هذه ثلاثة أقسام في التحريم: إخبار، وإنشاء، وامتناع.
والمراد في الآية هنا الإنشاء، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأنه طيب، ولأنه حلال فكيف تحرمونه؟!
الجملة الثانية قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا تجاوزوا حدودكم؛ لأن الإنسان له حد فكونه يحرم ويحلل، هذا اعتداءٌ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦].

(٣) قال القاسمي رحمه الله: قال الرازي: لم يقل تعالىٰ: كلوا ما رزقكم، ولكن قال: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وكلمة: «من» للتبعيض. فكأنه قال: اقتصروا في الأكل علىٰ البعض واصرفوا البقية إلىٰ الصدقات والخيرات؛ لأنه إرشاد إلىٰ ترك الإسراف كما قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: نزلت هذه الآية في رَهْطٍ مِن أصحاب النَّبيِّ ﷺ قالوا: نقطع مَذَاكِيرَنا، ونترك شهوات الدُّنيا، ونَسِيح في الأرض كما يفعل الرهبان. فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك: فقالوا: نعم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١). رواه ابن أبي حاتم.

وروىٰ ابن مردويه من طريق العَوْفي، عن ابن عبَّاس نحو ذلك.

وفي «الصحيحين» عن عائشة ؓ أنَّ ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النَّبيِّ ﷺ عن عملِهِ في السِّرِّ، فقال بعضهم: لا آكل اللَّحم. وقال بعضهم: لا أتزوَّج النساء. وقال بعضهم: لا أنام علىٰ فراشٍ. فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ فقال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ، وَآكُلُ اللَّحمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدَّثنا أبو عاصم الضَّحَّاك بن مَخْلَد، عن عثمان -يعني ابن سعد- أخبرني عكرمة، عن ابن عبَّاس؛ أن رجلًا أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي إذا أكلت اللَّحم انتشرتُ للنساء، وإني حَرَّمْتُ عليَّ اللَّحم، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٣).

وكذا رواه الترمذي وابن جرير جميعًا، عن عمرو بن علي الفَلاس، عن أبي عاصم النَّبيل به، وقال: حسن غريب وقد رُوِيَ مِن وجهٍ آخر مرسلًا، ورُوِيَ موقوفًا علىٰ ابن عبَّاس(٤)، فالله أعلم.

وقال سفيان الثَّوري ووَكِيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قَيْس بن أبي حازم، عن عبد الله بن مسعود قال: كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساءٌ، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثَّوب إلىٰ أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٥). أخرجاه من حديث إسماعيل. وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وقال الأعمش: عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شُرحبيل قال: جاء مَعْقل بن مقرِّن إلىٰ عبد الله بن مسعود فقال: إني حرمت فراشي. فتلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٧/ ٧٧٨٩) من حديث ابن عبَّاس يرويه عنه علي بن أبي طلحة وهي رواية منقطعة، ولكن الرواية الصحيحة رواية أنس الآتية وليس فيها ذكر سبب النزول.

(٢) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٦٠)، وقد وهم ابن كثير في جعل الحديث عن عائشة، والصحيح أنه عن أنس.

(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم (٧/ ١١٨٦)، والترمذي (٣٠٥٤) والطبري (٧/ ١١)، وفيه عثمان بن سعد الكاتب. قال الحافظ: ضعيف.

(٤) لوحة (٣٢٠ أ).

(٥) البخاري (٤٦١٥)، ومسلم (١٤٠٤).

طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[١].

وقال الثَّوْرِيُّ، عن مَنصُور، عن أبي الضحىٰ، عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجيء بضَرْع، فتنَحَّىٰ رجلٌ، فقال له عبد الله: ادْنُ. فقال: إنِّي حرمت أن آكله. فقال عبد الله: ادْنُ فاطعَم، وكفِّر عن يَمينِك وتلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية[٢].

رواهُنَّ ابن أبي حاتم. وروىٰ الحاكم هذا الأثر الأخير في «مستدركه»، من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن[٣] منصور به. ثم قال: علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وَهْبٍ، أخبرني هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه: أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف[٤] من أهله[٥]، وهو عند النَّبيِّ ﷺ، ثم رجع إلىٰ أهله فوجدهم لم يُطْعِموا ضَيفَهم انتظارًا له، فقال لامرأته: حبست ضيفي مِن أجلي، هو عليَّ حرام. فقالت امرأته: هو عليَّ حرام. وقال الضيف: هو عليَّ حرام. فلما رأىٰ ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله، ثم ذهب إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثمَّ أنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وهذا أثرٌ منقطع[٦].

وفي «صحيح البخاري» في قصة الصديق ﵁ مع أضيافه شبيه بهذا. وفيه، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلىٰ أن من حرَّم مأكلًا أو ملبسًا أو شيئًا ما عدا النِّساءَ أنَّه لا يحرم عليه، ولا كفَّارة عليه أيضًا؛ ولقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ ولأنَّ الذي حَرَّم اللَّحم علىٰ نفسه -كما في الحديث المتقدم- لم يأمره النَّبيُّ[٧] ﷺ بكفَّارةٍ. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلىٰ أنَّ مَن حرَّم مأكلًا أو مشربًا أو شيئًا من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفَّارة يمينٍ، كما إذا التزم تركه باليَمِين فكذلك يُؤاخذ بمجرَّد تحريمه علىٰ نفسه إلزامًا له بما الْتَزَمَه، كما أفتىٰ بذلك ابن عبَّاس، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم:١] ثُمَّ قَالَ ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الآية [التحريم:٢]. وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبيِّنة لتكفير اليمين، فدلَّ علىٰ أن هذا مُنَزَّل مَنْزِلَةَ اليمين في اقتضاء التَّكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يَتَبَتَّلوا ويخصُوا أنفسهم ويلبسوا المسُوح[٨]، فنزلت

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٦٩٠)، وإسناده صحيح.
(٢) رواه ابن أبي حاتم (٦٦٩١)، والحاكم (٢/ ٣١٤)، وإسناده صحيح.
(٣) في (ز): عن جرير بن منصور. (٤) في (ز): أضافه ضيفًا. (٥) أي: نزل ضيفًا عليه.
(٦) منقطع: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٧)، هو منقطع بين زيد بن أسلم وعبد الله بن رواحة.
(٧) لوحة (٣٢٠ ب).
(٨) التبتل: الانقطاع عن النساء وتَرْك النكاح، والخِصَاء: قطع الذكر أو سل الأنثيين لقطع الشهوة، والمُسوح: ثياب من شعر تلبسه الرهبان.

هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن جريج، عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالمًا مولىٰ أبي حذيفة في أصحاب تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المُسُوح، وحرَّموا [طيبات] [١] الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سُنَّة المسلمين. يريد ما حرَّموا من النِّساء والطَّعام واللِّباس، وما أجمعوا عليه من قيام اللَّيل وصيام النَّهار، وما همُّوا به من الإخصاء، فلما نزلت فيهم بعث [إليهم] [٢] رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّ لِأَنْفُسِكُمْ حقًّا، وَإِنَّ لأَعْيُنِكُمْ حقًّا، صُومُوا وَأَفْطِرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا**». فقالوا: اللهم سلَّمْنا واتَّبعنا ما أنزلت [٣].

وقد ذكر هذه القصة غير واحدٍ من التابعين مرسلةً، ولها شاهد في «الصحيحين» من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك [٤]، ولله الحمد والمنة.

وقال أسباط، عن السُّدِّي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ جلس يومًا فذكَّر النَّاس، ثم قام ولم يَزِدْهُم علىٰ التَّخويف، فقال ناس من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، كانوا عشرة [٥] منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نُحْدِث عملًا، فإن النَّصارىٰ قد حرَّموا علىٰ أنفسهم، فنحن نحرم. فحرَّم بعضهم أن يأكل اللَّحم والودَك [٦]، وأن يأكل بنَهار، وحَرَّم بعضهم النَّوم، وحَرَّم بعضهم النِّساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حَرَّم النِّساء، وكان لا يدنو مِن أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأتُه عائشةَ ﵂، وكان يقال لها: الحولاء، فقالت لها عائشة ومَن عندها من أزواج النَّبيِّ ﷺ: ما بالكِ يا حولاء مُتغيِّرة اللون، لا تَمْتَشِطِين، لا تَتَطَيَّبين؟ قالت: وكيف أَمْتَشِط وأَتطيَّب، وما وقع عليَّ زوجي وما رفع عني ثوبًا منذ كذا وكذا؟! قال: فجعلن يَضْحَكْنَ مِن كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يَضْحَكْن، فقال: «**مَا يُضْحِكُكُنَّ؟**» قالت: يا رسول الله، إنَّ الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عنِّي زوجي ثوبًا منذ كذا وكذا، فأرسل إليه فدعاه، فقال: «**مَا لَكَ يَا عُثْمَانُ؟**» قال: إنِّي تركته لله، لكي أتخلىٰ للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان [قد] [٧] أراد أن يَجُبَّ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَقْسَمْتُ [عَلَيْكَ] [٨] إِلَّا رَجَعْتَ فَوَاقَعْتَ أَهْلَكَ**». فقال: يا رسول الله، إني

---

(١) زيادة من «تفسير الطبري».

(٢) زيادة من «تفسير الطبري».

(٣) مرسل: رواه الطبري (٧/ ١١) عن مجاهد هكذا مرسلًا، والمرسل من أقسام الضعيف.
وكذلك الرواية الثانية عن عكرمة مرسلة كذلك.

(٤) ثبت الحديث من رواية أنس، رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٦٠)، وقد وهم ابن كثير في نسبة الحديث إلىٰ عائشة ﵂.

(٥) لوحة (٣٢١ أ).

(٦) الوَدَك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٧) زيادة من «تفسير الطبري».

(٨) زيادة من «تفسير الطبري».

صائمٌ. فقال: «أَفْطِرْ». فأفطر وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة [زوج رسول الله ﷺ](١) وقد امتشطت واكتحلت وتَطَيَّبت، فضحكت عائشة وقالت: ما لك يا حولاء؟ فقالت: إنَّه آتاها أمس، وقال رسول الله ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ حَرَّمُوا النِّسَاءَ وَالطَّعَامَ وَالنَّوْمَ؟ أَلَا إِنِّي أَنَامُ وَأَقُومُ، وَأُفْطِرُ وَأَصُومُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي». فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ يقول لعثمان: «لَا تَجُبَّ نَفْسَكَ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الِاعْتِدَاءُ». وأمرهم أن يُكَفِّروا عن أيمانهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ رواه ابن جرير(٢).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ يُحتَمَلُ أن يكون المراد منه: ولا تُبالغوا في التَّضْيِيق على أنفسكم في تَحْرِيم المباحات عليكم، كما قاله مَن قاله من السَّلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تُحَرِّموا الحلال فلا تَعْتَدُوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقَدْر كِفَايَتِكُم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فشَرعُ الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا (٣)تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا﴾ أي: في حال كونه حلالًا طيبًا، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أُمُوركم، واتَّبعوا طاعته ورِضْوانِهِ، واتركوا مخالَفَتَهُ وعصيانه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ (٤) مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قد تقدَّم في سورة البَقَرَة الكلام على لغو اليمين، وأنَّه قول الرَّجل في الكلام من غير قصدٍ: لا والله، بلى والله، وهذا مذهب [الشافعي](٥) وقيل: هو في الهَزْل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النِّسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾.

والصحيح أنَّه اليمين مِن غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي: بما

---

(١) زيادة من «تفسير الطبري». (٢) مرسل: رواه الطبري (٧/ ٩) والإسناد مرسل.

(٣) لوحة (٣٢١ ب).

(٤) قال ابن عثيمين رحمه الله: من فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا بد من إطعام هذا العدد؛ أي: عشرة وكسوتهم، فلو كرر الطعام على واحد عشرة أيام لم يجزئ؛ لأنه نص على العدد فيجب اتباع ما نص الله عليه.

(٥) في (ز): وهذا مذهب ثاني.

صَمَّمْتُم عليه من الأيمان وقصدتموها، فكفَّارته إطعام عشرة مساكين: يعني: محاويج من الفقراء، ومَن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وعكرمة: أي من أعدل ما تُطْعِمُون أَهْلِيكُم.

[وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أَهْلِيكُم][1]. قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن أبي إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث، عن علي قال: خُبْزٌ ولَبَنٌ، خبز وسَمْنٌ[2].

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءةً، حدَّثنا سفيان بن عيينَة، عن سليمان -يعني: ابن أبي المغيرة- عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كان الرجل يَقُوت [بعضَ][3] أَهْلِهِ قوتَ دونٍ، وبعضَهُم قوتًا فيه سعَة، فقال الله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: مِن الخُبز والزَّيت[4].

وحدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عامر، عن ابن عبَّاس: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عُسْرِهم ويُسْرِهم[5].

وحدَّثنا عبد الرحمن بن خَلَف الحِمْصِي، حدَّثنا محمَّد بن شُعَيب -يعني ابن شابور- حدَّثنا شَيْبان ابن عبد الرحمن التَّميمي، عن لَيْث بن أبي سُلَيم، عن عاصم الأحول، عن رجل يقال له: عبد الرحمن، عن ابن عمر أنَّه قال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز واللحم، [والخبز والسمن][6]، والخبز واللَّبن، والخبز والزيت، والخبز[7] والخَل[8].

وحدَّثنا علي بن حرب الموصلي، حدَّثنا أبو معاوية، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن ابن عمر في قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز والتَّمر، ومِن أفضل ما تطعمون أهليكم: الخبز واللَّحم[9].

ورواه ابن جرير عن هَنَّاد وابن وَكِيع كلاهما عن أبي معاوية. ثم روىٰ ابن جرير عن عُبَيدة والأسود، وشُرَيح القاضي، ومحمَّد بن سِيرِين، والحسن، والضَّحَّاك، وأبي رَزِين: أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحولٍ أيضًا.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٦٧١٩)، ورواه الطبري (٧/ ١٨) نحوه، وفيه الحارث الأعور: ضعيف.

(٣) زيادة من «تفسير ابن أبي حاتم». (٤) **صححه الألباني**: ابن أبي حاتم (٦٧٢٢)، والطبري (٧/ ٢٢).

(٥) **ضعيف**: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٢٤)، والطبري (٧/ ٢١)، وفي الإسناد جابر بن يزيد الجعفي: ضعيف.

(٦) سقط من (ز). (٧) لوحة (٣٢٢ أ).

(٨) **حسن لغيره**: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٢٠)، والطبري (٧/ ١٧)، وفيه ليث بن أبي سليم: أدخل في حديثه ما ليس منه ولم تتميز فترك، ولكن يشهد لصحته الرواية الآتية.

(٩) **حسن**: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٢١)، والطبري (٧/ ١٧).

واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ أي: في القِلَّة والكثرة.

ثم اختلف العلماء في مِقْدَار ما يُطْعِمُهُم، فقال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن حُصَيْن الحارثي، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي ﷺ في قوله: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ قال: يُغَذِّيهم ويُعَشِّيهم [(١)].

وقال الحسن ومحمَّد بن سيرين: يكفيه أن [(٢)] يُطْعِم عشرة مساكين أكلةً واحدةً خبزًا ولحمًا، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزًا وسمنًا ولبنًا، فإن لم يجد فخبزًا وزيتًا وخلًّا حتىٰ يشبعوا.

وقال آخرون: يطعم كل واحدٍ من العشرة نصف صاعٍ من بُرٍّ أو تمرٍ، ونحوهما. هذا قول عمر، وعلي، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعي، وميمون بن مِهْران، وأبي مالك، والضَّحَّاك، والحَكَم، ومكحول، وأبي قلابة، ومُقَاتِل بن حَيَّان.

وقال أبو حنيفة: نِصف صاعٍ من بُرٍّ، وصاعٍ مما عداه.

وقد قال أبو بكر بن مَرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن الحسن الثقفي، حدَّثنا عبيد بن الحسن بن يوسف، حدَّثنا محمَّد بن معاوية، حدَّثنا زياد بن عبد الله بن الطُّفَيل بن سَخْبَرَة بن أخي عائشة لأُمِّه، حدَّثنا عمر بن يعلىٰ، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كفَّر رسولُ الله ﷺ بصاعٍ مِن تمرٍ، وأمر النَّاس به، ومَن لم يجد فنصف صاعٍ من بُرٍّ [(٣)].

ورواه ابن ماجة، عن العبَّاس بن يزيد، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عُمر بن عبد الله بن يعلىٰ الثقفي، عن المنهال بن عمرو به.

لا يَصِحُّ هذا الحديث لحال عُمر بن عبد الله هذا؛ فإنَّه مجمع علىٰ ضعفه، وذكروا أنَّه كان يَشْرَبُ الخمر. وقال الدارقطني: متروك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا ابن إدريس، [عن] [(٤)] داود -يعني ابن أبي هند- عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: مُدٌّ من بُرٍّ -يعني لكل مسكين- ومعه إدامه [(٥)].

ثم قال: ورُوِي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت [(٦)]، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي الشَّعْثَاء، والقاسم [(٧)]، وسالم، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، والحسن، ومحمَّد بن سيرين، والزهري، نحو ذلك.

وقال الشافعي: الوَاجِب في كفَّارة اليمين مُدٌّ بمُدِّ النَّبيِّ ﷺ لكُلِّ مسكينٍ. ولم يتعرَّض للأُدُم،

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ١٨)، وفيه الحارث الأعور: ضعيف.

(٢) في (ز): يكفيه الله.

(٣) ضعيف: رواه ابن ماجة (٢١١٢)، وفيه عمر بن عبد الله بن يعلىٰ: ضعيف، وقال الدارقطني: متروك.

(٤) في (ز): هو.

(٥) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٦٧١٦) والطبري (٧/ ١٧) وابن أبي شيبة (٣/ ٤٧٤).

(٦) لوحة (٣٢٢ ب).

(٧) في (ز): وأبي القاسم.

واحتج بأمر النَّبيِّ ﷺ للَّذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكينًا من مكيل يسع خمسة عشر صاعًا لكلِّ واحدٍ منهم مُدٌّ.

وقد ورد حديثٌ آخرُ صريحٌ في ذلك، فقال أبو بكر بن مردويه: حدَّثنا أحمد بن علي بن الحسن المقري، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق السراج، حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا النضر بن زُرارة الكوفي، عن عبد الله بن عُمَر العُمَري، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقِيمُ كفَّارة اليمين مدًّا مِن حِنْطَةٍ بالمُدِّ الأوَّل[(١)].

إسناده ضعيف؛ لحال النضر بن زرارة بن عبد الأكرم الذهلي الكوفي نزيل بَلْخ، قال فيه أبو حاتم الرازي: هو مجهولٌ مع أنَّه قد روىٰ عنه غيرُ واحدٍ. وذكره ابن حبان في «الثِّقات» وقال: روىٰ عنه قتيبة ابن سعيد أشياءَ مستقيمةً، فالله أعلم. ثمَّ إنَّ شيخه العُمَري ضعيفٌ أيضًا.

وقال أحمد بن حنبل: الواجب مُدٌّ مِن بُرٍّ، أو مدان من غيره. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لو دفع إلىٰ كُلِّ واحدٍ من العشرة ما يصدق عليه اسم الكِسْوَة مِن قميص أو سراويلَ أو إزارٍ أو عمامةٍ أو مِقْنَعَةٍ[(٢)] أجزأه ذلك. واختلف أصحابه في القلنسوة: هل تجزئ أم لا؟ علىٰ وجهين، فمنهم مَن ذهب إلىٰ الجواز، احتجاجًا بما رواه ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو سعيد الأشج، وعمار بن خالد الواسطي قالا: حدَّثنا القاسم بن مالك، عن محمَّد بن الزبير، عن أبيه قال: سألت عمران بن حصين عن قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال: لو أن وفدًا قَدِمُوا علىٰ أميركم وكساهم قلنسوة قلنسوة، قلتم: قد كُسُوا[(٣)].

ولكن هذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لحال محمَّد بن الزبير هذا، والله أعلم. وهكذا حكىٰ الشيخ أبو حامد الإسْفَرايني في الخُفِّ وجهين أيضًا، والصَّحيح عدم الإجْزاء.

وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بُدَّ أن يدفع إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم من الكسوة ما يَصِحُّ أن يُصَلِّي فيه، إن كان رجلًا أو امرأةً، كلٌّ بحَسَبِهِ. والله أعلم.

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس: عباءةٌ لكل مسكينٍ، أو شَمْلَةٌ[(٤)].

وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعلاه ما شِئْت.

وقال لَيْث، عن[(٥)] مجاهد: يُجْزِئُ في كفَّارة اليمين كلُّ شيءٍ إلا التُّبَّان[(٦)].

---

(١) ضعيف: فيه عبد الله بن عمر العمري (المُكبَّر): وهو ضعيف، والنضر بن زرارة قال أبو حاتم: مجهول.

(٢) المِقنعة: ماتقنع به المرأة رأسها.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٢٥)، وفيه محمَّد بن الزبير الحنظلي، قال الحافظ: متروك.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٢٤)، وابن أبي حاتم (٦٧٢٧)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٥) لوحة (٣٢٣ أ).

(٦) التُّبَّان: سراويل قصيرة إلىٰ الركبة أو ما فوقها، تستر العورة المغلظة فقط، وقد يلبس في البحر. (ج): تبابين. ينظر: «المعجم الوسيط»: (ص/ ٨٢).

وقال الحسن، وأبو جعفر الباقر، وعطاء، وطاوس، وإبراهيم النَّخَعي، وحماد بن أبىٰ سليمان، وأبو مالك: ثوب ثوب.

وعن إبراهيم النخعي أيضًا: ثوب جَامِع كالمِلْحَفَة والرِّدَاء، ولا [يرىٰ][1] الدرعَ والقَمِيصَ والخِمَارَ ونَحْوه جامعًا.

وقال الأنصاري، عن أشعث، عن ابن سيرين، والحسن: ثوبان.

وقال الثوري، عن داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب: عمامة يَلُفُّ بها رأسه، وعباءة يَلْتَحِفُ بها.

وقال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن ابن سيرين، عن أبي موسىٰ؛ أنَّه حلف علىٰ يمينٍ، فكسا ثَوْبَيْن من مُعقَّدة البحرين[2][3].

وقال ابن مردويه: حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا أحمد بن المُعَلَّىٰ، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن مقاتل بن سليمان، عن أبي عثمان، عن أبي عياض، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال: «عَبَاءَةٌ لِكُلِّ مِسْكِينٍ». حديثٌ غريبٌ[4].

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تُجْزِئ الكافِرة كما تجزئ المُؤْمِنة. وقال الشَّافعي وآخرون: لا بدَّ أن تكون مؤمنةً. وأخذ تَقْييدها بالأيمان من كفَّارة القتل؛ لاتِّحاد الموجب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو في «موطأ مالك» و«مسند الشافعي» و«صَحيح مسلم»: أنه ذكر أنَّ عليه عتق رقبة، وجاء معه بجاريةٍ سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء. قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». الحديث بطوله[5].

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيُّها فَعَلَ الحانثُ أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أنَّ الكسوة أيسر من العتق، فَرُقِّيَ فيها من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ. فإن لم يقدر المكلف علىٰ واحدةٍ مِن هذه الخِصَال الثلاث كفَّر بصيام ثلاثةِ أيَّام، كما [قال تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾][6].

وروىٰ ابن جرير، عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالا: مَن وجد ثلاثة دراهِمَ لَزِمَه الإطعام وإلَّا صام.

وقال ابن جرير، حاكيًا عن بعض متأخري متفقِّهَةِ زَمَانِهِ أنَّه قال: جائزٌ لِمَن لم يكن لَه فضلٌ عن رأسِ مالٍ يتصرَّف به لمعاشه [ما يكفر به بالإِطْعَام، أَن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومِن المال ما يَتَصَرَّف به لمعاشه،][7] ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) **المعقد**: نوع من برود هجر.
(٣) **حسن**: رواه الطبري (٧/ ٢٥).
(٤) موضوع: فيه مقاتل بن سليمان: قال الحافظ: كذبوه وهمزوه ورُمِيَ بالتجسيم.
(٥) مسلم (٥٣٧)، ومالك (٢/ ٥٩٥).
(٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز).

ثم اختار ابن جرير: أنَّه الذي لا يفضل عن قوتِهِ وقوت[١] عِيالِهِ فِي يومه ذلك ما يخرج به كفَّارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يَجِب فيها التَّتابع، أو يُسْتَحَبُّ ولا يجب ويجزئ التَّفريق؟ علىٰ قولين: أحدهما: أنَّه لا يجب التتابع، هذا منصوص الشَّافعي في كتاب الأيمان، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادقٌ علىٰ المجموعةِ والمفرَّقةِ، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ونصَّ الشافعي في موضع آخر في «الأم» علىٰ وجوب التَّتابع، كما هو قول الحنفيَّة والحنابلة؛ لأنَّه قد روي عن أُبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها: «فَصِيَام ثلاثةِ أَيَّام مُتَتابِعَات».

قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنَّه كان يقرؤها: «فصيامُ ثلاثة أيَّامٍ متتابِعَات»[٢].

وحكاها مجاهد، والشَّعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود[٣].

وقال إبراهيم: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فصيامُ [ثلاثةِ أيَّام][٤] متتابعاتٍ»[٥].

وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك[٦].

وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنًا متواترًا، فلا أقل أن يكون خبرًا واحدًا أو تفسيرًا من الصحابي، وهو في حكم المرفوع.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدَّثنا محمَّد بن علي، حدَّثنا محمَّد بن جعفر الأشعري، حدَّثنا الهيثم ابن خالد القرشي، حدَّثنا يزيد بن قيس، عن إسماعيل بن يحيىٰ، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله، نحن بالخيار؟ قال: «**أَنْتَ بِالخِيَارِ، إِنْ شِئْتَ أَعْتَقْتَ، وَإِنْ شِئْتَ كَسَوْتَ، وَإِنْ شِئْتَ أَطْعَمْتَ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ**».

وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا[٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكْفِيرٍ. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يُوضِّحها ويَنْشُرها[٨] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) لوحة (٣٢٣ ب).

(٢) رواه الطبري (٧/ ٣٠)، وإسناده ضعيف؛ لأنه من طريق أبي جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ.

(٣) رواه البيهقي (١٠/ ٦٠)، وعبد الرزاق (٨/ ٥١٤)، والطبري (٧/ ٣٠) وإسناده منقطع، فالإسناد ضعيف.

(٤) سقط من (ز).

(٥) ضعيف: رواه البيهقي (١٠/ ٦٠)، والطبري (٧/ ٣٠)، وإسناده منقطع بين إبراهيم النخعي وابن مسعود وبهذه العلة أعله البيهقي في «سننه».

(٦) رواه الطبري (٧/ ٣٠) من طريق ابن وكيع: وهو ضعيف.

(٧) ضعيف: منقطع. قال ابن كثير: هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا.

(٨) ينشرها: يظهرها ويكشفها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ
٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ
ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾

يقول تعالىٰ ناهيًا عباده المُؤْمنين(١) عن تعاطي الخَمر(٢) والمَيْسِر، وهو القمار.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنَّه قال: الشِّطْرَنج من المَيْسِر. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عُبَيس بن مرحوم، عن حاتم، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن علي به(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل الأَحْمَسي، حدَّثنا وَكِيعٌ، عن سفيان، عن لَيْث، عن عطاء ومجاهد وطاوس -قال سفيان: أو اثنين منهم- قالوا: كلُّ شيءٍ مِن القمار فهو من المَيْسِر، حتىٰ لعبُ الصِّبيان بالجَوْز(٤).

ورُوِيَ عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب وقالا: حتىٰ الكِعاب(٥)، والجَوْز، والبيض التي تلعب بها الصبيان، وقال موسىٰ بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: المَيْسِر هو القمار(٦).

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس قال: الميسر هو القمار، كانوا يتَقَامَرُون في الجاهليَّة إلىٰ مجيء الإِسْلَام، فنهاهم الله عَن هذه الأخلاق القبيحة(٧).

وقال مالك، عن داود بن الحُصَيْن: أنَّه سَمِعَ سعيد بن المسيب يقول: كان ميسر أهل الجاهليَّة بَيع اللَّحم بالشَّاة والشَّاتين(٨).

وقال الزُّهري، عن الأعرج قال: المَيْسِر والضَّرب بالقِدَاح علىٰ الأموال والثِّمار(٩).

---

(١) لوحة (٣٢٤ أ).

(٢) قال ابن عثيمين رحمه الله: كل ما أسكر فهو خمر، ولا نقول: كل ما أذهب العقل فهو خمر، أو كل ما أذهب الإحساس فهو خمر، بل نقول: الخمر ما غطىٰ العقل علىٰ وجه اللذة والطرب؛ لأن الذين يشربون الخمر يجدون راحةً ونشوةً وطربًا؛ وعلىٰ هذا فالبنج ليس بخمر وإن كان يفقد الإحساس؛ لكنه لا يجد فيه الإنسان النشوة والطرب، ومع ذلك لا يستعمل البنج إلا للحاجة والضرورة.

(٣) منقطع: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٥١)، ورجاله ثقات إلا أن الإسناد منقطع بين محمَّد بن علي بن الحسين وبين علي ابن أبي طالب.

(٤) ضعيف: رواه عبد الرزاق (١٠/ ٤٦٧)، وابن أبي حاتم (٢٧٤٩)، وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق أُدْخِل في حديثه ما ليس منه فلم تتميز فتُرِك.

(٥) الكِعاب: جمع كَعْب وكَعْبة، وهي فصوص النرد.

(٦) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٤٧).

(٧) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٧٤٨)، وإسناده منقطع بين الضَّحَّاك وابن عبَّاس، وبشر بن عمارة: ضعيف.

(٨) رواه ابن أبي حاتم (٦٧٥٣).

(٩) رواه ابن أبي حاتم (٦٧٥٢).

وقال القاسم بن محمَّد: كل مَا أَلْهَىٰ عن ذكر الله وعَن الصَّلاة، فهو من الميسر[١].

روَاهُنَّ ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا صَدَقة، حدَّثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي موسىٰ الأشعري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا هَذِهِ الكِعَابَ المَوْسُومَةَ الَّتِي يُزْجَرُ بِهَا زَجْرًا فَإِنَّهَا مِنَ المَيْسِرِ»[٢]. حديث غريب.

وكأَنَّ المراد بهذا هو النَّرد، الَّذي ورد الحديث به في «صحيح مسلم»، عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ»[٣]. وفي «موطإ مالك» و«مسند أحمد»، و«سنني أبي داود وابن ماجة»، عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ»[٤]. وروي موقوفًا عن أبي موسىٰ مِن قولِهِ، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا مكي[٥] بن إبراهيم، حدَّثنا الجُعَيْد، عن موسىٰ بن عبد الرحمن الخطمي، أنَّه سمع محمَّد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول: أخبرني، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ؟ فقال عبد الرحمن: سمعت أبي يقول[٦]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الَّذِي يَلْعَبُ بِالنَّرْدِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي، مَثَلُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالقَيْحِ وَدَمِ الخِنْزِيرِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي»[٧].

وأما الشِّطْرَنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شرٌّ مِن النَّرْد. وتقدَّم عن عَلِيٍّ أنَّه قال: هو من الميسر، ونَصَّ علىٰ تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالىٰ.

وأما الأنصاب، فقال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وغير واحد: هي حِجَارَة كانوا يذبحون قرابينهم عندها.

وأما الأزلام فقالوا أيضًا: هي قداح كانوا يَسْتَقْسِمُون بها.

وقوله: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي سَخَطٌ من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبير: إثمٌ. وقال زيد بن أسلم: أي شَرٌّ مِن عمل الشَّيطان.

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد علىٰ الرِّجس؛ أي: اتْرُكُوه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهذا تهديدٌ وترهيبٌ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٧٥٠).

(٢) حسن لغيره: ابن أبي حاتم (١٤/ ١١٩٦)، وفيه هشام بن عمار: صدوق يخطئ، وعلي بن يزيد: ضعيف، وله شاهد سيأتي في آخر تفسير الآية من حديث ابن مسعود. وانظر كتاب «الحجاب» للألباني (ص١١٠ - ١٠٢).

(٣) مسلم (٢٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٣٩)، وابن ماجة (٣٧٦٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦١).

(٤) حسنه الألباني: مالك (٢/ ٧٢٩)، وأبو داود (٤٩٣٩)، وابن ماجة (٣٧٦٢)، وانظر: «إرواء الغليل» (٢٦٧٠).

(٥) في (ز): علي بن إبراهيم. (٦) لوحة (٣٢٤ ب).

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٧٠)، وفيه موسىٰ بن عبد الرحمن، قال الحافظ: مجهول.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا سُرَيج، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن أبي وَهْب مولىٰ أبي هريرة، عن أبي هريرة قال: حُرِّمَت الخمر ثلاث مرات، قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة، وهم يَشْرَبُون الخمر ويأكُلُون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلىٰ آخر الآية [البقرة:٢١٩]. فقال الناس: ما حُرِّم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يَشْرَبُون الخمر، حتَّىٰ كان يومًا من الأيام صلَّىٰ رجلٌ من المهاجرين، أَمَّ أصحابه في المغرب، خَلَطَ في قراءته، فأنزل الله ﷻ آيةً أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتىٰ يأتي أحدهم الصلاة وهو مُفِيقٌ. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربَّنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قُتِلُوا في سبيل الله، وناسٌ ماتوا علىٰ سَرَفِهِم كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ إلىٰ آخر الآية، وقال النبيُّ ﷺ: «**لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ**». انفرد به أحمد(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا خَلَف بن الوليد، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي مَيْسَرة، عن عمر بن الخطاب ﵁ أنَّه قال: لمَّا نزل تحريم الخمر قال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فَدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادىٰ: ألَّا يقربن(٢) الصلاة سكران. فدُعِيَ عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا(٣).

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عَمْرو بن عبد الله السَّبِيعي وعن أبي ميسرة -واسمه عمرو بن شُرَحبيل الهمداني- عن عُمَر به. وليس له عنه سواه، قال أبو زُرْعَة: ولم يسمع منه. وصحح هذا الحديث علي بن المديني والتِّرمذي.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن عمر بن الخطاب أنَّه قال في خطبته علىٰ منبر رسول الله ﷺ: أيُّها

---

(١) حسن لغيره: أحمد (٢/ ٣٥١)، وفيه أبو معشر: تقدم أنه ضعيف وقد اختلط، وفيه أبو وهب قال ابن سعد: كان قليل الحديث (انظر تعجيل المنفعة ترجمة ١٤٢٥)؛ لكن للحديث شاهد من حديث ابن عمر سيأتي بعد حديثين دون سؤالهم عن الذين قتلوا في سبيل الله إلىٰ آخر الحديث، لكن سيأتي له شاهد آخر من حديث أنس، رواه الطبري (٧/ ٣٧) بسندٍ حسن.

(٢) في (ز): لا يقربن.

(٣) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩) وصححه، والنسائي (٨/ ٢٨٦)، وأحمد (١/ ٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣١١٧).

النَّاس، إنَّه نزل تحريم الخمر وهي من خمسةٍ: من العنب، والتَّمر، والعسل، والحِنْطَة، والشعير، والخَمْر ما خامر العقل(١).

وقال البخاري: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن بِشْر، حدَّثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، حدَّثني نافع، عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخَمْر وإنَّ بالمدينة يومئذٍ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب(٢).

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا محمَّد بن أبي حميد، عن المصري -يعني أبا طعمة قارئ مصر- قال: سمعت ابن عمر يقول: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] فقيل: حُرِّمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، ننتفع بها كما قال الله تعالىٰ. قال: فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتِ الخَمْرُ»(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن القعقاع بن حكيم؛ أن عبد الرحمن بن وَعْلَة قال: سألت ابن عبَّاس عن بيع الخمر(٤)، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديقٌ مِن ثقيف -أو: من دوس- فلقيه يوم الفتح براوية [خمر](٥) يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يَا فُلَانُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَهَا؟» فأقبل الرجل علىٰ غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يَا فُلَانُ، بِمَاذَا أَمَرْتَهُ؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا». فأمر بها فأفرغت في البطحاء(٦).

رواه مسلم من طريق ابن وَهْب، عن مالك، عن زيد بن أسلم. ومن طريق ابن وهب أيضًا، عن سليمان بن بلال، عن يحيىٰ بن سعيد كلاهما -عن عبد الرحمن بن وَعْلَة، عن ابن عبَّاس به. ورواه النسائي، عن قتيبة، عن مالك، به.

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر المقدمي، حدَّثنا أبو بكر الحنفي، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن تميم الداري أنَّه كان يهدي لرسول الله ﷺ كلَّ عام راويةً من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدَكَ». قال: يا رسول الله، فأبيعها وأنتفع بثمنها؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) البخاري (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢)، وما بعده عن ابن عمر نحوه، رواه البخاري (٤٦١٦).

(٢) رواه البخاري (٤٦١٦).

(٣) حسن لغيره: رواه الطيالسي، وفيه محمَّد بن أبي حميد: وهو ضعيف، وتقدم نحوه من حديث أبي هريرة.

(٤) لوحة (٣٢٥ ب). (٥) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) مسلم (١٥٧٩)، وأحمد (١/ ٢٣٠)، والدارمي (٢/ ١١٥).

«لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَ البَقَرِ وَالغَنَمِ، فَأَذَابُوهُ، وَبَاعُوهُ، وَاللهُ حَرَّمَ الخَمْرَ وَثَمَنَهَا»(١).

وقد رواه أيضًا الإمام أحمد فقال: حدَّثنا رَوْح، حدَّثنا عبد الحميد بن بَهْرام، قال: سمعت شهر بن حوشب قال: حدَّثني عبد الرحمن بن غَنْم: أنَّ الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راويةً من خمر، فلما كان عامَ حُرِّمت جاء براويةٍ، فلما نظر إليه ضحك فقال: «أَشَعَرْتَ أَنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدَكَ؟» فقال: يا رسول الله، ألا أبيعها وأنتفع بثمنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ، انْطَلَقُوا إِلَىٰ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَحْمِ البَقَرِ وَالغَنَمِ فَأَذَابُوهُ، فَبَاعُوا بِهِ مَا يَأْكُلُونَ، وَإِنَّ الخَمْرَ حَرَامٌ وَثَمَنُهَا حَرَامٌ، وَإِنَّ الخَمْرَ حَرَامٌ وَثَمَنُهَا حَرَامٌ، وَإِنَّ الخَمْرَ حَرَامٌ وَثَمَنُهَا حَرَامٌ»(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كَيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنَّه أقبل من الشَّام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التِّجارة، فأتىٰ بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئتك بشرابٍ طيبٍ(٣) فقال رسول الله ﷺ: «يَا كَيْسَانُ، إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدَكَ». قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ وَحُرِّمَ ثَمَنُهَا». فانطلق كيسان إلىٰ الزقاق، فأخذ بأرجلها ثمَّ هراقها(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيي بن سعيد، عن حميد، عن أنس قال: كنت أَسْقِي أبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كَعْب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونفرًا من أصحابه عند أبي طلحة وأَنَا أَسْقِيهِم، حتىٰ كاد الشَّراب يأخذ منهم، فأتىٰ آتٍ من المسلمين فقال: أما شعرتم أنَّ الخمر قد حُرِّمَت؟ فما قالوا: حتىٰ ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس [أَكْفِئْ](٥) ما [بقي](٦) في إِنَائِكَ، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التَّمر والبُسْر، وهي خمرهم يومئذٍ. أخرجاه في «الصحيحين» -من غير وجهٍ- عن أنس. وفي رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفَضيخ البسرُ(٧) والتمرُ، فإذا منادٍ ينادي، قال: اخرج فانظر. فإذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت، فَجرت في سِكَكِ المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فَأَهْرِقها. فهرقتها، فقالوا -أو: قال بعضهم-: قُتِل فلانٌ وفلانٌ وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآية(٨).

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد (٤/ ٢٢٧)، ولم أجده في «مسند أبي يعلىٰ». والروايتان من طريق شهر بن حوشب وهو كثير الإرسال والأوهام، لكن يشهد لأوله الحديث السابق. كما يشهد لآخره الرواية الآتية.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٢٧)، وهو نفس الحديث السابق.

(٣) لوحة (٣٢٦ أ).

(٤) حسن لغيره: أحمد (٤/ ٣٣٥)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، لكن يشهد لأصله ما تقدم.

(٥) في (ز): (اكف)، والمثبت كما في «المسند».

(٦) زيادة من «المسند».

(٧) الفضيخ: شراب يتخذ من البسر المفضوخ؛ أي: المشدوخ، والبُسْر: التمر قبل أن يرطب.

(٨) البخاري (٢٤٦٤)، ومسلم (١٩٨٠)، وأحمد (٣/ ٨١).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، حدَّثني عبد الكبير بن عبد المجيد[١]، حدَّثنا عباد بن راشد، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس علىٰ أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دُجَانة، حتىٰ مالت رءوسهم من خَليط بُسْر وتَمْر. فسمعت مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت! قال: فما دخل علينا داخلٌ ولا خرج منا خارجٌ، حتىٰ أهرقنا الشراب، وكسرنا القِلَال[٢]، وتوضأ بَعْضُنا واغتسل بَعْضُنا، وأصبنا مِن طيب أمِّ سليم، ثم خرجنا إلىٰ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة مَن مات وهو يَشْرَبُها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، فقال رجلٌ لقتادة: أَنت سَمعتَه من أنس بن مالك؟ قال: نعم. وقال رجلٌ لأنس بن مالك: أنت[٣] سمعته مِن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم-أو: حدَّثني مَن لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندري ما الكذب[٤].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن إسحاق، أخبرني يحيىٰ بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحر، عن بكر بن سوادة، عن قيس بن سعد بن عبادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَرَّمَ عَلَيَّ الخَمْرَ، وَالكُوبَةَ، وَالقِنِّينَ. وَإِيَّاكُمْ وَالغُبَيْرَاءَ فَإِنَّهَا ثُلُثُ خَمْرِ العَالَمِ**[٥]»[٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، حدَّثنا فرج بن فضالة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ أُمَّتِي الخَمْرَ وَالمَيْسِرَ وَالمِزْرَ، وَالكُوبَةَ، وَالقِنِّينَ، وَزَادَنِي صَلَاةَ الوِتْرِ**»[٧]. قال يزيد: القِنِّين: البَرَابِط[٨]. تفرد به أحمد.

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا أبو عاصم -وهو النَّبيل- أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، حدَّثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ جَهَنَّمَ**». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ الخَمْرَ وَالمَيْسِرَ وَالكُوبَةَ وَالغُبَيْرَاءَ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**»[٩]. تفرَّد به أحمد أيضًا.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن أبي

---

(١) في (ز): [عبد الحميد] وهو خطأ.
(٢) القلال: جمع قُلة، وهي: الجرة الكبيرة.
(٣) لوحة (٣٢٦ ب).
(٤) حسن: رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٧)، وأصله في «الصحيحين» مختصر كما تقدم.
(٥) الكُوبة: النرد، وقيل: الطبل، والقِنِّين: لعبة للروم يقامرون بها، وقيل: هو الطنبور بالحبشة، والتقنين: الضرب بها، والغُبَيراء: ضرب من الشراب يتخذه الحبش من الذرة، وهي تسكر، وتسمىٰ: السكركة.
(٦) صحيح لغيره: أحمد (٣/ ٤٣٢)، وفيه عبيد الله بن زحر: ضعيف. وقال الحافظ: صدوق يخطئ، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، لكن للحديث شواهد أخرىٰ استوفاها الشيخ الألباني وأودعها في «الصحيحة» (١٧٠٨).
(٧) حسن: رواه أحمد (٢/ ١٦٥)، وأشار الألباني إلىٰ تحسينه في «تحريم آلات الطرب» (ص٥٨).
(٨) البرابط: جمع بربط، وهو: ملهاة تشبه العود، فارسي معرب.
(٩) انظر التعليقات السابقة.

طعمة -مولاهم- وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لُعِنَتِ الخَمْرُ عَلَىٰ عَشَرَةِ وُجُوهٍ: لُعِنَتِ الخَمْرُ بِعَيْنِهَا وَشَارِبِهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعِهَا، وَمُبْتَاعِهَا، وَعَاصِرِهَا، وَمُعْتَصِرِهَا، وَحَامِلِهَا، وَالمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ، وَآكِلِ ثَمَنِهَا**»(١).

ورواه أبو داود وابن ماجة، من حديث وكيع به.

وقال أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعة، حدَّثنا أبو طُعْمة، سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلىٰ المِرْبد، فخرجتُ معه فكنت عن يَمِينِه، وأقبل أبو بكر فتَأَخَّرتُ عنه، فكان عن يمينه وكنت عن يَساره. ثم أقبل عمر فتَنَحَّيت له، فكان عن يَسَارِه. فأتىٰ رسول الله ﷺ المربد، فإذا بزقاق علىٰ المِرْبد فيها خمر -قال ابن عمر-: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدية(٢) -قال ابن عمر: وما عرفت المدية إلا يومئذٍ -فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: «**لُعِنَتِ الخَمْرُ وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَآكِلُ ثَمَنِهَا**»(٣).

وقال أحمد: حدَّثنا الحكم بن نافع، حدَّثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضَمْرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمُدْيَةٍ وهي الشَّفرة، فأتيته بها فأرسل بها فأُرْهِفَت ثم أعطانيها وقال: «**اغْدُ عَلَيَّ بِهَا**». ففعلت فخرج بأصحابه إلىٰ أسواق المدينة، وفيها زِقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك في أسواقها زِقًّا إلا شققته(٤).

حديث آخر: قال عبد الله بن وَهب: أخبرني عبد الرحمن بن شُرَيْح، وابن لَهِيعة، والليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره: أنَّه كان له عمٌّ يبيع الخمر، وكان يتصدق، فنهيته عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فتلقيت ابن عبَّاس، فسألته عن الخمر وثمنها، فقال: هي حرامٌ وثمنها حرامٌ. ثم قال ابن عبَّاس ﵄: يا معشر أمة محمَّد، إنه لو كان كتابٌ بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن أخر ذلك مِن أمركم إلىٰ يوم القيامة، ولَعمري لهو أشدُّ عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمَنِ الخمر، فقال: سأخبرك عن الخمر، إني كنت عند رسول الله ﷺ في المسجد، فبينما هو محتب حَلَّ(٥) حُبْوَته(٦) ثم

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجة (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٥).

(٢) **المُدْيَة**: السكين والشفرة.

(٣) حسن لغيره: رواه أحمد (٢/ ٧١)، وفيه ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه، لكن يشهد له ما تقدم في لعن الخمر، كما يشهد له أيضًا الطريق الأخرىٰ الآتية عن ابن عمر.

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد (٢/ ١٣٢)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف اختلط، لكن يشهد له الرواية السابقة دون ذكر ذهابه إلىٰ الأسواق.

(٥) في (ز): [علي]. والمثبت من «سنن البيهقي».

(٦) **الاحْتِبَاء**: أن يَضُم الإنسان رجلَيْه إلىٰ بَطْنه بثَوْبٍ يَجْمَعُهُما به مع ظَهْره ويَشُدُّه عليها، وقد يكون الاحتباء باليَدَيْن عوَض الثَّوب. «النهاية»: (١/ ٣٣٥).

قال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرِ فَلْيَأْتِنَا بِهَا». فجعلوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راويةٌ. ويقول الآخر: عندي زقٌّ أو: ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوهُ بِبَقِيعِ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ آذِنُونِي». ففعلوا، ثم آذنوه فقام وقمت معه، فمشيت عن يمينه وهو متكئٌ عليَّ، فألحقنا أبو بكر رضي الله عنه، فأخَّرني رسول الله ﷺ، فجعلني عن شماله، وجعل أبا بكر في مكاني. ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخرني، وجعله عن يساره، فمشىٰ بينهما. حتىٰ إذا وقف علىٰ الخمر قال للناس: «أَتَعْرِفُونَ هَذِهِ؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صَدَقْتُمْ». قال: «فَإِنَّ اللهَ لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا، وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا». ثم دعا بسكينٍ فقال: «اشْحَذُوهَا». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزِّقاق، قال: فقال الناس: في هذه الزقاق[1] منفعة، قال: «أَجَلْ، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ غَضَبًا للهِ ﷻ لِمَا فِيهَا مِنْ سَخَطِهِ». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله؟ قال: «لَا»[2].

قال ابن وَهْب: وبعضهم يزيد علىٰ بعض في قصَّة الحديث. رواه البيهقي.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو الحسين بن بِشْران، أنبأنا إسماعيل بن محمَّد الصفار، حدَّثنا محمَّد بن[3] عبيد الله المنادي، حدَّثنا وهب بن جرير، حدَّثنا شُعْبَة، عن سِماك، عن مصعب بن سعد، [عن سعد][4]، قال: أُنْزِلَت في الخَمْر أربعُ آياتٍ، فذكر الحديث. قال: وَضَع رجلٌ مِن الأنصار طعامًا، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تُحَرَّم حتىٰ انْتَشَيْنَا، فتَفَاخَرْنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل. فأخذ رجلٌ من الأنصار لَحْي جَزُورٍ، فضرب به أنف سعد ففزره، [وكان أنف سعد مفزورًا][5]. فنزلت آية الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[6] أخرجه مسلم من حديث شعبة.

حديث آخر: قال البيهقي: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، أنبأنا أبو علي الرفاء، حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا حجاج بن مِنْهال، حدَّثنا ربيعة بن كلثوم، حدَّثني أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: إنَّما نزل تحريم الخمر في قَبِيلَتَيْن من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن ثَمِلَ القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صَحُوا جعل الرجل يرىٰ الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع هذا بي أخي فلان؟! وكانوا إخوةً ليس في قلوبهم ضغائن [والله لو كان بي رءوفًا رحيمًا ما صنع هذا بي، حتىٰ

---

(١) لوحة (٣٢٧ ب).

(٢) رواه البيهقي (٨/ ٢٨٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٢٣)، والحاكم (٤/ ٢٦٠)، وصححه ووافقه الذهبي، ورجاله ثقات عدا ثابت بن يزيد الخولاني: لم يوثقه غير ابن حبان (الثقات ١/ ٦-٧) وقال ابن حزم: مجهول لا يدرىٰ من هو، وتبعه عبد الحق (انظر «لسان الميزان» ترجمة ٣١٦)، لكن يشهد للحديث ما تقدم عدا الزيادة الأخيرة (فقال الناس: في هذه منفعة، فقال: أجل...إلخ).

(٣) في (ز): محمَّد بن محمَّد. (٤) زيادة من «السنن الكبرىٰ». (٥) زيادة من «السنن الكبرىٰ».

(٦) مسلم (١٧٤٨)، وأبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والبيهقي (٨/ ٢٨٥).

وقعت الضغائن في قلوبهم][١] فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رِجْسٌ، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

ورواه النسائي في «التفسير» عن محمَّد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهال.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن خَلَف، حدَّثنا سعيد بن محمَّد الجرْمي، عن أبي تُمَيْلَة، عن سلام مولىٰ حفص أبي القاسم، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا نحن قُعُودٌ علىٰ شراب لنا، ونحن علىٰ رَمْلة[٣]، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا بَاطِية[٤] لنا[٥]، ونحن نشرب الخمر حلًّا[٦] إذ قمت حتىٰ آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلىٰ آخر الآيتين ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ فجئت إلىٰ أصحابي فقرأتها إلىٰ قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ قال: وبعض القوم شَرْبَتُهُ في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء[٧] تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا[٨].

حديث آخر: قال البخاري: حدَّثنا صَدَقة بن الفضل، أخبرنا ابن عُيينة، عن عمرو، عن جابر قال: صَبَّح ناسٌ غَدَاة أُحُدٍ الخمر، فقُتلوا من يومهم جميعًا شهداء، وذلك قبل تحريمها[٩].

هكذا رواه البخاري في «تفسيره» من «صحيحه» وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدَّثنا أحمد بن عَبْدة، حدَّثنا سفيان، عن[١٠] عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: اصطبح ناسٌ الخمر من أصحاب النبيِّ ﷺ ثم قُتِلُوا شهداء يوم أُحُدٍ، فقالت اليهود: فقد مات بعض الَّذِين قُتِلُوا وهي في بطونهم. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ ثم قال: وهذا إسنادٌ صحيحٌ. وهو كما قال، ولكن في سياقته غرابة[١١].

---

(١) زيادة من «السنن الكبرىٰ».

(٢) حسن لغيره: رواه البيهقي (٨/ ٢٨٥)، والطبري (٧/ ٣٤)، والحاكم (٤/ ١٤١)، ويشهد له الرواية السابقة.

(٣) أي: علىٰ رملة منبتة. (٤) لوحة (٣٢٨أ).

(٥) الباطية: إناء عظيم من زجاج، تملأ من الشراب وتوضع بينهم يغرفون منها ويشربون.

(٦) في (ز): أحلا.

(٧) أي: أماله ثم نزعه.

(٨) حسن لغيره: رواه الطبري (٧/ ٣٣)، ورجاله ثقات عدا سلام مولىٰ حفص، أورده البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، ويشهد لصحته ما تقدم.

(٩) البخاري (٤٦١٨)، والرواية الأخرىٰ التي عزاها إلىٰ البزار إسنادها صحيح.

(١٠) في (ز): ابن عمرو.

(١١) صحيح: ويشهد له رواية ابن عبَّاس السابقة في سبب نزول الآية ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ...﴾ الآية، ورواية البراء الآتية.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تُحَرَّم؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية.

ورواه التِّرمِذِيُّ، عن بُنْدار، عن غُنْدَر عن شعبة به نحوه. وقال: حسن صحيح[(١)].

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا جعفر بن حميد الكوفي، حدَّثنا يعقوب القُمِّي، عن عيسىٰ بن جارية، عن جابر بن عبد الله قال: كان رجلٌ يحمل الخمر مِن خيبر إلىٰ المدينة فيَبيعها من المسلمين، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة، فلَقِيَه رجلٌ من المسلمين فقال: يا فلان، إنَّ الخمر قد حُرِّمت فوضعها حيث انتهىٰ علىٰ تَلٍّ، وسجىٰ عليها بأكسية، ثم أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أن الخمر قد حُرِّمت؟ قال: «أَجَلْ» قال: لي أن أردها علىٰ من ابتعتها منه؟ قال: «لا يَصْلُحُ رَدُّهَا». قال: لي أن أهديها إلىٰ من يكافئني منها؟ قال: «لا». قال: فإن فيها مالًا ليتامىٰ في حجري؟ قال: «إِذَا أَتَانَا مَالُ البَحْرَيْنِ فَأْتِنَا نُعَوِّضُ أَيْتَامَكَ مِنْ مَالِهِمْ». ثم نادىٰ بالمدينة، فقال[(٢)] رجلٌ: يا رسول الله، الأوعية ننتفع بها؟ قال: «فَحُلُّوا أَوْكِيَتَهَا»[(٣)]. فانصبت حتىٰ استقرت في بطن الوادي. هذا حديث غريب[(٤)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا سفيان، عن السُّدِّي، عن أبي هُبيرة -وهو يحيىٰ بن عَبَّاد الأنصاري- عن أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة سأل النَّبيَّ ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا فقال: «أَهْرِقْهَا». قال: أفلا نجعلها خلًّا؟ قال: «لا»[(٥)].

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، من حديث الثوري به نحوه.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن رَجاء، حدَّثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، حدَّثنا هلال بن أبي هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قال: هي في التوراة: «إنَّ الله أنزل الحقَّ لِيُذْهِب به الباطل، ويبطل به اللعب، والمَزَامِير، والزَّفْن، والكِبَارات -يعني البَرَابط- والزمارات -يعني به الدُّف- والطنابير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها، أَقْسَم اللهُ بيمينه وعزة حَيْله مَن شربها بعد ما حرَّمتُها لأعطشنه يوم القيامة، ومَن تركها بعد ما حرَّمتها لأُسْقِينه إيَّاها في حظيرة القدس»[(٦)]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

---

(١) حسن لغيره: رواه الطيالسي (٧١٥)، والترمذي (٣٠٥١)، وابن أبي حاتم (٦٧٧٥)، وفيه أبو إسحاق يرسل وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، لكن يشهد له رواية ابن عبَّاس السابقة، ورواية جابر كذلك، وتقدم نحوه من رواية أنس وأبي هريرة.

(٢) لوحة (٣٢٨ ب). (٣) الأوكية: جمع وكاء، وهو خيط يشد به فم الوعاء.

(٤) ضعيف: أبو يعلىٰ (١٨٨٤)، وفيه عيسىٰ بن جارية. قال الحافظ: فيه لين.

(٥) مسلم (١٩٨٣)، وأبو داود (٣٦٧٥)، والترمذي (١٢٩٤)، وأحمد (٣/ ١١٩).

(٦) صحيح موقوف: عن عبد الله بن عمرو، وهذا مما لا يقال بالرأي إلا أنه -أعني: عبد الله بن عمرو- ممَّن قرءوا في كتب بني إسرائيل، وعليه فلا تُعتمد أقوالهم لاحتمال أنه مما أخذ منها.

حديث آخر: قال عبد الله بن وَهْب: أخبرني عمرو بن الحارث؛ أن عمرو بن شُعَيب حدثهم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ»(١).

ورواه أحمد، من طريق عمرو بن شعيب.

حديث آخر: قال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن رافع، حدَّثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني، قال: سمعت النعمان -هو ابن أبي شيبة الجَنَدي- يقول عن طاوس، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كُلُّ مَخمَّرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ». قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لا يَعْرِفُ حَلَالَهُ مِنْ حَرَامِهِ، كَانَ(٢) حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ»(٣). تفرَّد به أبو داود.

حديث آخر: قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ»(٤).

أخرجه البخاري ومسلم، من حديث مالك به.

وروى مسلم عن أبي الربيع، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ»(٥).

حديث آخر: قال ابن وَهْب: أخبرني عمر بن محمَّد، عن عبد الله بن يَسار؛ أنه سمع سالم بن عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمُدْمِنُ الخَمْرَ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى»(٦).

ورواه النسائي، عن عمر بن علي، عن يزيد بن زُرَيْع، عن عمر بن محمَّد العُمَري به.

وروى أحمد، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنَّانٌ وَلا عَاقٌّ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ»(٧).

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ١٧٨)، ويشهد له الرواية الآتية.
(٢) لوحة (٣٢٩ أ).
(٣) صحيح: أبو داود (٣٦٨٠)، ويشهد له ما تقدم.
(٤) البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
(٥) مسلم (٢٠٠٣)، وأبو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٨٦١).
(٦) صحيح: رواه النسائي (٥/ ٨٠)، وأحمد (٢/ ١٣٤)، وابن حبان (٧٣٤٠)، والحاكم (٤/ ١٤٦) وصححه ووافقه الذهبي.
قلت: فيه عبد الله بن يسار: مقبول، لكنه توبع كما في رواية البزار (١٨٧٥)، والطبراني (١٣٤٤٢)، ويشهد له الأحاديث المذكورة في الباب.
(٧) حسن لغيره: أحمد (٣/ ٤٤) من طريق يزيد بن أبي زياد: وهو ضعيف، ولكن يشهد لصحته الحديث السابق.

ورواه أحمد أيضًا، عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم [١] عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد به. وعن مروان بن شجاع، عن خُصَيف، عن مجاهد به، ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجُعْفِي، عن زائدة، عن ابن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلا مَنَّانٌ، وَلا وَلَدُ زَنْيَةٍ**» [٢].

وكذا رواه عن يزيد، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو به، وقد رواه أيضًا عن غُنْدر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نُبَيْط بن شُرَيط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلا عَاقٌّ وَالِدَيْه، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ**».

ورواه النسائي، من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم أحدًا تابع شعبة عن نبيط بن شريط.

وقال البخاري: لا [٣] يعرف لجابان سماع من عبد الله، ولا لسالم من جابان ولا نبيط.

وقد روي هذا الحديث من طريق مجاهد، عن ابن عبَّاس، ومن طريقه أيضًا، عن أبي هريرة، فالله أعلم.

وقال الزهري: حدَّثني أبو بكر بن عبد الرحمن [٤] بن الحارث بن هشام، أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر، فإنها أُمُّ الخبائث، إنَّه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبَّد ويعتزل النَّاس، فَعَلِقَتْه امرأة غَوِيَّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنَّا ندعوك لشهادةٍ. فدخل معها، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتىٰ أفضىٰ إلىٰ امرأةٍ وضيئةٍ عندها غلامٌ وبَاطِية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشَهَادةٍ ولكن دعوتك لتقع عَلَيَّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر. فسقته كأسًا، فقال: زِيدُوني، فلم يَرِم حتىٰ وقع عليها، وقتل النَّفس، فاجتنبوا الخمر فإنَّها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يُخرج صاحبه [٥].

رواه البيهقي، وهذا إسنادٌ صحيحٌ. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» عن محمَّد بن عبد الله بن بَزِيع، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري به مرفوعًا [٦]، والموقوف أصح، والله أعلم.

---

(١) في (ز): بن أسلم. المثبت من «المسند».

(٢) ضعيف بهذا السياق: فإنه من رواية جابان عن عبد الله بن عمرو وهو لم يسمع منه، وسالم لم يسمع من جابان، والحديث له شواهد سابقة عدا قوله: «ولا ولد زنية».

(٣) لوحة (٣٢٩ ب).

(٤) في (ز): أبو بكر بن عبد الكريم.

(٥) صحيح موقوف: رواه البيهقي (٨/ ٢٨٧)، والنسائي (٨/ ٣١٥)، وقد روي مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ وهو الحديث الآتي.

(٦) ضعيف، والصحيح أنه موقوف: رواه ابن أبي الدنيا في «ذم المسكر» (١)، وفي إسناده عمر بن سعيد بن شريح، وقال ابن عدي: أحاديثه ليست مستقيمة.

وله شاهد في «الصحيحين»، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ سَرِقَةً حِينَ يَسْرِقُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

وقال أحمد بن حنبل: حدَّثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل، عن سِماك، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس قال: لما حُرِّمَت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الَّذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. قال: ولما حُوِّلت القبلة قال أناسٌ: يا رسول الله، أصحابنا الَّذين ماتوا وهم يصلون إلىٰ بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣](٢).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا داود بن مِهْران الدباغ، حدَّثنا داود -يعني العطار- عن ابن خُثَيْم، عن شَهْرِ بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ لَمْ يَرْضَ اللهُ عَنْهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، إِنْ مَاتَ مَاتَ كَافِرًا، وَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ»(٣). قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ»(٤).

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أن النَّبيَّ ﷺ قال لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا [طَعِمُوا إِذَا مَا](٥) اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ». وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريقه(٦).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: قرأت علىٰ أبي، حدَّثنا علي بن عاصم، حدَّثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الكَعْبَتَانِ(٧) [المَوْسُومَتَانِ](٨)، اللَّتَانِ تُزْجَرَانِ زَجْرًا، فَإِنَّهُمَا

---

(١) البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) حسن لغيره: أحمد (١/ ٢٩٥)، والترمذي (٣٠٥٢) من طريق سماك عن عكرمة وروايته عنه مضطربة، لكن يشهد لها الروايات السابقة في سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ...﴾ الآية، وقد تقدم ذلك عن أبي هريرة، وأنس، وابن عبَّاس ﷺ، وأما سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ فقد تقدم في سورة البقرة عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) لوحة (٣٣٠ أ).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٤٦٠)، وعلته شهر بن حوشب: صدوق، لكنَّه كثير الإرسال والأوهام، ولكن صحح نحوه كما تقدم.

(٥) سقط من (ز). (٦) مسلم (٢٤٥٩)، والترمذي (٣٠٥٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٥٣).

(٧) مثنىٰ كعبة، وهي فص النرد الذي يلعب به.

(٨) في (ز): (الموسمتان)، والمثبت موافق لما في «المسند».

وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط رحمه الله في تعليقه علىٰ «المسند»: (وأما الألف في «هاتان» وما بعده، فأخرجه ابن مالك علىٰ لغة بني الحارث، فإنهم يجعلون المثنىٰ بالألف في الأحوال كلها. وقال أبو البقاء: وقع في هذه الرواية: «هاتان» وما بعده بالرفع، والقياس النصب عطفًا علىٰ إياكم، كما تقول: إياك والشرَّ؛ أي: جنِّب نفسك الشر، والمعنىٰ: تجنبوا هاتين، وأما الرفع فيحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: العطف علىٰ الضمير في عامل إياكم؛ أي: إياكم أنتم وهاتان.

مَيْسِرُ العَجَمِ»[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

قال الوالبي، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضَّعيف من الصَّيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتىٰ لو شاءوا يتناولونه بِأَيْدِيهِم. فنهاهم الله أن يَقْرَبُوه.

وقال مجاهد: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني: صغار الصَّيد وفِراخُه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: كباره.

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان: أنزلت هذه الآية في عُمْرة الحُدَيْبِية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رِحَالِهِم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم مُحْرِمُون.

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني: أنَّه تعالىٰ يَبْتَلِيهِم بالصَّيد يغشاهم في رحالهم، يتمكَّنون مِن أخذه بالأيدي والرِّماح سرًّا وجهرًا ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

وقوله هاهنا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال السُّدِّي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتَّقدم ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمخالفته أمر الله وشَرْعِهِ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وهذا تحريمٌ منه تعالىٰ لقتل الصيد في حَالِ الإِحْرَام[٢]، ونهيٌ عَن تعاطيه فيه. وهذا إنَّما يتناول مِن حيث المعنىٰ المأكول وما يتولَّد مِنهُ ومن غيره، فأمَّا غير المأكول من حيوانات البَرِّ، فعند الشَّافعي يجوز للمُحْرِم قتلها. والجمهور علىٰ تحريم قتلها أيضًا، ولا يُسْتَثْنَىٰ مِن ذلك إلا ما ثبت في «الصحيحين» من طريق الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة أم المؤمنين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ: الغُرَابُ، وَالحِدَأَةُ، وَالعَقْرَبُ، وَالفَأْرَةُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ**»[٣].

= والثاني: أن يكون مرفوعًا بفعل محذوف، تقديره: لتتجنب هاتان.
والثالث: أن يكون منصوبًا علىٰ لغة بني الحارث.

(١) حسن لغيره: أحمد (١/٤٤٦)، وفيه إبراهيم الهجري: ضعيف، وذكر الشيخ الألباني أن للحديث شواهد وقال: وبالجملة؛ فالحديث حسن أو صحيح، انظر: «الحجاب» له (ص١٠١- ١٠٢).

(٢) لوحة (٣٣٠ ب).

(٣) البخاري (٣٣١٤) (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨)، والترمذي (٨٣٧)، والنسائي (٥/٢٠٨)، وابن ماجة (٣٠٨٧) ومالك في «الموطأ» (٨٨) (٨٩).

وقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَىٰ المُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الغُرَابُ، وَالحِدَأَةُ، وَالعَقْرَبُ، وَالفَأْرَةُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ**». أخرجاه[١].

ورواه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال أيوب، قلت لنافع: فالحيَّة؟ قال: الحية لا شكَّ فيها، ولا يختلف في قتلها.

ومن العلماء -كمالك وأحمد- من ألحق بالكلب العقور الذِّئب، والسبع، والنمر، والفهد؛ لأنها أشد ضررًا منه، فالله أعلم. وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادِيَةَ كلَّها. واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا علىٰ عتبة بن أبي لهب قال: «**اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ بِالشَّامِ**»[٢] فأكله السبع بالزَّرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن فَدَاها كالضبع والثعلب وهِرِّ البرِّ ونحو ذلك.

قال مالك: وكذا يستثنىٰ من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي.

وقال الشافعي: يجوز للمُحْرِم قتل كل ما لا يُؤكَل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره. وجعل العِلَّة الجامعة كونها لا تؤكل.

وقال أبو حنيفة: يَقْتُل المحرم الكلب العقور والذِّئب؛ لأنَّه كلبٌ بَرِّيٌّ، فإن قتل غيرهما فَدَاه، إلا أن يَصُول عليه سبع غيرُهُمَا فيقتله فلا فداء عليه. وهذا قول الأوزاعي، والحسن بن صالح بن حيي.

وقال زُفَر بن الهذيل: يفدي ما سوىٰ ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المُرادُ بالغراب هاهنا الأبقع[٣]، وهو الَّذِي في بطنه وظهره بياض، دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض؛ لما رواه النسائي عن عمرو بن علي الفَلاس، عن يحيىٰ القَطَّان، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ المُحْرِمُ: الحَيَّةُ، وَالفَأْرَةُ، وَالحِدَأَةُ، وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ**»[٤].

والجمهور علىٰ أنَّ المراد[٥] به أعم من ذلك؛ لما ثبت في «الصحيحين» من إطلاق لفظه.

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يقتل المحرم الغراب إلَّا إذا صال عليه وآذاه.

وقال مجاهد بن جَبْر وطائفة: لا يقتله بل يرميه. ويروىٰ مثله عن علي.

وقد روىٰ هُشَيْم: حدَّثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، عن أبي سعيد، عن النَّبِيِّ

---

(١) البخاري (١٨٢٦)، ومسلم (١١٩٩).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٥٣٩)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٣٨٩)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في «الفتح» (٤/ ٣٩).

(٣) في (ز): المراد بالأبقع هاهنا الغراب.

(٤) صحيح: رواه النسائي (٥/ ١٨٨).

(٥) لوحة (٣٣١ أ).

ﷺ؛ أنَّه سُئِلَ عما يقتل المحرم، فقال: «**الحَيَّةَ، وَالعَقْرَبَ، وَالفُوَيْسِقَةَ، وَيَرْمِي الغُرَابَ وَلَا يَقْتُلُهُ، وَالكَلْبَ العَقُورَ، وَالحِدَأَةَ، وَالسَّبُعَ العَادِي**»(١).

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل، والتِّرمذي عن أحمد بن منيع، كلاهما عن هشيم. وابن ماجة، عن أبي كريب عن محمَّد بن فضيل، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد -وهو ضعيف- به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا ابن عُلَيَّةَ، عن أيوب قال: نُبِّئْت عن طاوس قال: لا يحكم علىٰ من أصاب صيدًا خطأً، إنما يحكم علىٰ من أصابه متعمدًا.

وهذا مذهبٌ غريبٌ عن طاوس، وهو متمسكٌ بظاهر الآية.

وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلىٰ قتل الصيد، النَّاسي لإحرامه. فأما المتعمد لقَتْلِ الصَّيْدِ مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أَعْظَم مِن أن يكفر، وقد بطل إحرامه.

رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نَجِيح وليث بن أبي سليم وغيرهما، عنه. وهو قولٌ غريبٌ أيضًا. والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. قال الزهري: دلَّ الكتاب علىٰ العامد، وجرت السُّنَّة علىٰ الناسي، ومعنىٰ هذا أن القرآن دلَّ علىٰ وجوب الجزاء علىٰ المتعمد وعلىٰ تأثيمه بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ وجاءت السُّنَّة من أحكام النَّبيِّ ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطإ، كما دلَّ الكتاب عليه في العَمْد، وأيضًا فإن قتل الصيد إتلافٌ، والإتلاف مضمونٌ في العمد وفي النِّسيان، لكن المتعمِّد مأثومٌ، والمخطئ غير مَلُوم.

وقوله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وحكىٰ ابن جرير أن ابن مسعود قرأها: «فجزَاؤُه مثل ما قتل مِن النعم»(٢).

وفي قوله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ علىٰ كلٍّ مِن القراءتين دليلٌ لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافًا لأبي حنيفة(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث أوجب القِيمَة سواء كان الصيد المقتول مثليًّا أو غير مثليٍّ، قال: وهو مخيرٌ إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترىٰ به هديًا. والذي حكم به الصحابة في المِثْلِ أولىٰ بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببدنةٍ، وفي بقرة الوحش ببقرةٍ، وفي الغزال بعنزٍ، وذكْرُ قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (١٨٤٨)، والترمذي (٨٣٨)، وأحمد (٣/ ٣)، فيه يزيد بن أبي زياد: وهو ضعيف.

(٢) قراءة: قَرَأَ (فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ) ابْنُ مَسْعُودٍ، وَفِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ قَرَأَ (فَجَزَاءٌ مِثْلُ) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَجَزَاءُ مِثْلِ).

(٣) لوحة (٣٣١ ب).

«الأحكام»، وأما إذا لم يكن الصيد مثليًّا فقد حكم ابن عبَّاس فيه بثمنه، يحمل إلىٰ مكَّة.

رواه البيهقي. وقوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو بالقيمة في غير المِثْل، عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ علىٰ قولين:

أحدهما: لا؛ لأنَّه قد يُتَّهم في حكمه علىٰ نفسه، وهذا مذهب مالك.

والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد.

واحتجَّ الأوَّلون بأنَّ الحاكم لا يكون محكومًا عليه في صورةٍ واحدةٍ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن، حدَّثنا جعفر -هو ابن بُرْقَان- عن ميمون بن مِهْران؛ أنَّ أعرابيًّا أتىٰ أبا بكر قال: قتلت صيدًا وأنا محرمٌ، فما ترىٰ عليَّ مِن الجَزَاء؟ فقال أبو بكر ﷺ لأُبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترىٰ فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ فشاورت صاحبي حتىٰ إذا اتَّفَقْنا علىٰ أمر أمرناك به[(١)].

وهذا إسنادٌ جيدٌ، لكنَّه منقطعٌ بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل هاهنا. فبَيَّنَ له الصديق الحكم برفقٍ وتُؤدةٍ لمَّا رآه أعرابيًّا جاهلًا وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعترض منسوبًا إلىٰ العلم، فقد قال ابن جرير:

حدَّثنا هَنَّاد وأبو هشام الرفاعي قالا: حدَّثنا وَكِيع بن الجراح، عن المسعودي، عن عبد الملك بن عمير، عن قَبِيصة بن جابر قال: خرجنا حُجَّاجًا، فكنا إذا صَلَّينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشىٰ نتحدث، قال: فبينما نحن ذات غداةٍ إذ سنح لَنَا ظَبْيٌ[(٢)] -أو: برح- فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه[(٣)] فركب رَدْعه ميتًا، قال: فَعَظَّمْنا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتىٰ أتينا عمر ﷺ، قال: فقَصَّ عليه القصة قال: وإلىٰ جنبه رجلٌ كأن وجهه قُلْب فضة[(٤)] -يعني عبد الرحمن بن عوف- فالتفت عمر إلىٰ صاحبه فكلمه قال: ثم[(٥)] أقبل علىٰ الرجل فقال: أعمدًا قتلته أم خطأً؟ قال الرجل: لقد تَعَمَّدت رميه، وما أردت قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلىٰ شاةٍ فاذبحها وتصدق بلحمها واستبقِ إهابها. قال: فقُمْنَا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عَظِّم شعائر الله، فما درىٰ أمير المؤمنين ما يفتيك حتىٰ سأل صاحبه: اعمد إلىٰ ناقتك فانحرها، ففعل ذاك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٨٠٥)، ورجاله ثقات لكنه منقطع بين ميمون بن مهران وأبي بكر.

(٢) **سنح الظبي**: أتاك عن يسارك، وبرح: أتاك عن يمينك.

(٣) **الخُشَّاء**: العظم الدقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأذن، وركب ردعه: خر لوجهه علىٰ دمه، وأصل الردع: ما تلطخ به الشئ من زعفران أو غيره، ومعنىٰ ركوبه عليه: أن الدم يسيل ثم يخر عليه صريعًا.

(٤) القلب: سوار يكون ليًّا واحدًا، وقد كان وجه عبد الرحمن بن عوف أبيض مشربًا حمرةً.

(٥) لوحة (٣٣٢ أ).

يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرَّة. قال: فَعَلَا صاحبِي ضربًا بالدِّرَّة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم وسفَّهت الحكم؟ قال: ثم أقبل عليَّ فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحل لك اليوم شيئًا يحْرُم عليك مني[١]، قال: يا قبيصة بن جابر، إني أراك شابَّ السن، فسيح الصدر، بيِّن اللِّسان، وإنَّ الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلقُ السيئ الأخلاقَ الحسنة، فإياك وعثرات الشباب[٢].

وقد روىٰ هُشَيْم هذه القصة، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة، بنحوه. ورواها أيضًا عن حُصَيْن، عن الشعبي، عن قبيصة، بنحوه. وذكرها مرسلةً عن عُمَر: ابن بكر بن عبد الله المزني، ومحمَّد بن سِيرين.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، أخبرني أبو[٣] جرير البجلي، قال: أصبت ظبيًا وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين مِن إخوانك فليحكما عليك. فأتيت عبد الرحمن وسعدًا فحكما علي بِتَيْسٍ أعفر[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا ابن عُيَيْنَة، عن مُخارق، عن طارق قال: أوطأ أربد[٥] ظبيًا فقتله وهو محرم، فأتىٰ عمر ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي، فحكما فيه جَدْيًا، قد جمع الماء والشجر[٦]. ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٧].

وفي هذا دلالة علىٰ جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما الله.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة، أو يكتفي بأحكام الصحابة المتقدمة؟ علىٰ قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعًا مقررًا لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلىٰ عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا ... أَوْ عَدْلُ[٨] ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلًا إلىٰ الكعبة، والمراد: وصوله إلىٰ الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه علىٰ مساكين الحرم. وهذا أمر مُتَّفق عليه في هذه الصورة.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو

---

(١) يعني: لن يحله من ضرب بشرة هي عليه حرام إلا بحقها.

(٢) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٤٥، ٤٨)، والبيهقي (٥/ ١٨١)، وابن أبي حاتم (٦٨٠٤)، والحاكم (٣/ ٣١٠) من طرق عن عبد الله بن عمير به بألفاظ مختلفة.

(٣) في (ز): ابن جرير. والمثبت من «الطبري».

(٤) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٤٩).

(٥) **أوطأ**: حمل دابته حتىٰ وطئت الظبي؛ أي: داسته، وأربد: هو ابن عبد الله البجلي.

(٦) يعني: فُطم، ورعىٰ الماء والشجر.

(٧) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٤٩)، وعبد الرزاق (٤/ ٤٠٢/ ٨٢٢١)، والبيهقي (٥/ ١٨٢) كلهم من طريق ابن عيينة به.

(٨) لوحة (٣٣٢ ب).

لم يكن الصَّيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتَّخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصِّيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمَّد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رَحِمَهُمُاللهُ، لظاهر الآية ﴿أَوۡ﴾ فإنَّها للتَّخيير. والقول الآخر: أنها علىٰ الترتيب.

فصورة ذلك أن يَعدِل إلىٰ القيمة، فيُقوَّم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النَّعم لو كان موجودًا، ثم يُشْتَرىٰ به طعامٌ ويُتَصدَّق به، فيصرف لكل مسكينٍ مُدٌّ منه عند الشَّافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعِم كلَّ مِسْكينٍ مُدَّيْن، وهو قول مجاهد.

وقال أحمد: مُدٌّ مِن حنطةٍ، أو مُدَّان من غيره. فإن لم يجد -أو قلنا بالتَّخْيير- صام عن إطعام كلِّ مسكينٍ يومًا.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يومًا. كما في جزاء المُتَرفِّه بالحلق ونحوه، فإنَّ الشَّارع أمر كعب بن عُجْرَة أن يطعم فَرَقًا بين سِتَّة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفَرَقُ ثلاثة آصع.

واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحَرَم، وهو قول عطاء. وقال مالك[(١)]: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحَرَمِ، وإن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن المغيرة، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ قال: إذا أصاب المحرمُ الصيدَ حُكِمَ عليه جزاؤه من النعم، فإن [وجد جزاءه، ذبحَه فتصَدَّق به. وإن][(٢)] لم يجد نظر كم ثمنه، ثم قُوِّم ثمنه طعامًا، فصام مكان كل نصف صاع يومًا، قال: ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ قال: إنما أريد بالطَّعام الصيام، أنَّه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه[(٣)].

ورواه ابن جرير، من طريق جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ إذا قتل المحرم شيئًا من الصيد، حكم عليه فيه. فإن قتَل ظبيًا أو نحوه، فعليه شاةٌ تذبح[(٤)] بمكَّة.

---

(١) في (ز): مجاهد. (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير الطبري (٧/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٦٨١١)، والبيهقي (٥/ ١٨٦)، وابن حزم في «المحلىٰ» (٧/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم (٦٨١١)، وعبد الرزاق (٤/ ٣٩٧)، والحكم هو ابن عتيبة: ثقة إلا أنه ربما دلس، وقد عنعن هنا، ثم إنه يروي عن مقسم ولم يسمع منه سوىٰ خمسة أحاديث، فالإسناد ضعيف.

(٤) لوحة (٣٣٣ أ).

فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصِيام ثلاثة أيام. فإن قتل إبلًا أو نحوه، فعليه بَقَرَة. فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينًا. فإن لم يَجِدْ صام عشرين يومًا. وإن قتل نعامة أو حمارَ وَحْشٍ أو نحوه، فعليه بدنةٌ من الإبل. فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا. فإن لم يجد صامَ ثلاثين يومًا[1].

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وزاد: والطعام مُدٌّ مُدٌّ تشبعهم.

وقال جابر الجُعْفي، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي. رواه ابن جرير.

وكذا روىٰ ابن جُرَيْج عن مجاهد، وأسباط عن السُّدِّي أنها علىٰ الترتيب.

وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد -في رواية الضَّحَّاك- وإبراهيم النَّخَعِي: هي علىٰ الخيار. وهو رواية اللَّيث، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس. واختار ذلك ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة لِيَذُوق عقوبة فِعْلِهِ الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتَّبع شرع الله، ولم يَرْتَكِب المعصية.

ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه، فينتقم الله منه، وَالله عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام.

قال ابن جُرَيْج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؟! قال: عمَّا كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾؟ [قال: ومن عاد في الإسلام، فيَنْتَقِمُ الله منه،][2] وعليه مع ذلك الكفَّارة قال: قلت: فهل في العود حَدٌّ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترىٰ حقًّا علىٰ الإمام أن يُعَاقِبَه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ ولكن يفتدي. رواه ابن جرير.

وقيل معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبير، وعطاء.

ثم الجمهور من السَّلف والخلف، علىٰ أنه متىٰ قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولىٰ والثانية وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: مَن قتل شيئًا مِن الصَّيد خطأً، وهو محرمٌ، يحكم عليه فيه كُلَّما قتله، وإن قتله عمدًا يحكم عليه فيه مَرَّة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك كما قال الله عَزَّوَجَلَّ[3].

وقال ابن جرير: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد وابن أبي عدي جميعًا، عن هشام -هو ابن حسان- عن عِكْرِمَة، عن ابن عبَّاس فيمن أصاب صيدًا فحُكم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٦٨١٤)، وإسناده منقطع.

(٢) سقط من (ز).

(٣) حسن لغيره: رواه الطبري (٧/ ٦٠) ثم رواه نحوه من طريق أخرىٰ (٧/ ٦٠) وفيه يحيىٰ بن طلحة اليربوعي: لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

عليه، ينتقم الله منه [(١)(٢)].

وهكذا قال شُرَيْح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النَّخَعِي. رواهن ابن جرير، ثم اختار القول الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا العبَّاس بن يزيد العبدي، حدَّثنا المُعْتَمِر بن سليمان، عن زيد أبي المعلىٰ، عن الحسن البصري؛ أن رجلًا أصاب صيدًا، فتُجُوِّز عنه، ثم عاد فأصاب صيدًا آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة مَن أراد عقوبته مانعٌ؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزَّة والمنعة.

وأما قوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبةٍ لمن عصاه عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ إيَّاه [(٣)].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قال [ابن أبي طلحة، عن] [(٤)] ابن عبَّاس -في رواية عنه- وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وغيرهم في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طريًّا ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما يتزود منه مملَّحًا يابسًا.

وقال ابن عبَّاس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حيًّا ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما لفظه ميتًا.

وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو، وأبي أيوب الأنصاري ﷺ. وعكرمة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري.

قال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي بكر الصديق أنه قال: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ كل ما فيه. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير، عن مغيرة، عن سِمَاك قال: حُدِّثْتُ عن ابن عبَّاس

---

(١) لوحة (٣٣٣ ب). (٢) رواه الطبري (٧/ ٦١)، وانظر التعليق السابق.

(٣) في (ز): بعد هذه الكلمة: آخر الجزء الثاني من «تفسير القرآن العظيم» يتلوه في الثالث قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ والحمد لله، وصلىٰ الله علي سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كبيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل. [لوحة (٣٣٤ أ)، [لوحة (٣٣٤ ب)]. [الجزء الثاني] [لوحة (١ أ)]، [لوحة (١ ب)].

(٤) سقط من (ز).

قال: خطب أبو بكر الناس فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ وطعامه ما قَذَفَ[١].

قال: وحدَّثنا يعقوب، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلَز، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ قال: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قَذَفَ[٢].

وقال عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما لَفَظَ مِن ميتة. ورواه ابن جرير أيضًا.

وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لَفَظَه حيًّا، أو حَسَر عنه فمات. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بَشَّار، حدَّثنا عبد الوهاب، حدَّثنا أيوب، عن نافع؛ أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إنَّ البحر قد قَذَف حيتانًا كثيرًا مَيْتًا أفنأكله؟ فقال: لا تأكلوه. فلما رجع عبد الله إلىٰ أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتىٰ هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنَّه طعامه[٣].

وهكذا اختار ابن جرير أنَّ المراد بطعامه: ما مات فيه، قال: وقد رُوِي في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفًا.

حدَّثنا هَنَّاد بن السَّري قال: حدَّثنا عبدة بن سليمان، عن محمَّد بن عمرو، حدَّثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾[٤] قال: «طَعَامُهُ مَا لَفَظَهُ مَيْتًا»[٥].

ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث علىٰ أبي هريرة:

حدَّثنا هناد، حدَّثنا ابن أبي زائدة، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ قال: طعامه: ما لَفَظَهُ ميتًا[٦].

وقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: منفعةً وقُوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وهو جمع سيَّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر و[للسيارة:][٧] السَّفْر.

وقال غيره: الطَّرِيُّ منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، و﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِّح وَقُدِّدَ زادًا للمسافرين والنَّائين عن البحر.

وقد روي نحوه عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والسُّدِّي وغيرهم. وقد استدلَّ جمهور العلماء علىٰ حِلِّ ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك بن أنس، عن وَهْبِ بن كَيْسان، عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسولُ الله ﷺ بعثًا قِبَل الساحل، فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتىٰ إذا كنا ببعض الطريق فَنِي الزَّاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك

---

(١) رواه الطبري (٧/ ٦٥)، وفيه انقطاع لكنه رواه (٧/ ٦٦) بإسناد متصل.

(٢) رواه الطبري (٧/ ٦٥)، والبيهقي (٥/ ٢٠٨) (٩/ ٢٥٥) من طرق عن ابن عبَّاس، والأثر صحيح.

(٣) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٦٦). (٤) لوحة (٢ أ).

(٥) رواه ابن جرير (٧/ ٦٨ - ٦٩)، وفيه محمَّد بن عمرو بن علقمة؛ قال الحافظ: صدوق له أوهام.

قلت: وقد اضطرب في روايه هذه، فمرة يرويه مرفوعًا، ومرة يرويه موقوفًا كما في الرواية الآتية.

(٦) رواه الطبري (٧/ ٦٩)، وانظر التعليق السابق. (٧) زيادة من «الطبري».

الجيش، فجُمع ذلك كله، فكان مِزْوَدَيْ تمر، قال: فكان يُقوتُنَا كل يومٍ قليلًا قليلًا حتىٰ فَنِيَ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة. [فقلت: وما تغني تمرة؟][١] فقال: فقد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلىٰ البحر، فإذا حوت مثل الظَّرِب[٢]، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين مِن أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلةٍ فرحلت، ومرت تحتهما فلم تصبهما[٣].

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» وله طرق عن جابر.

وفي «صحيح مسلم» من رواية أبي الزبير، عن جابر: فإذَا علىٰ ساحل البحر مثل الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابةٍ يقال لها: العنبر. قال: قال أبو عبيدة: مَيْتة، ثم قال: لا نحن رسل رسول الله ﷺ [وفي سبيل الله،][٤] وقد اضطررتم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاثمائة حتىٰ سَمِنَّا. ولقد رأيْتُنا نغترف من وَقْب[٥] عينه بالقِلَال الدُّهْن، ونقتطع منه الفِدَر[٦] كالثور، [أو: كقَدْر الثور،][٧] قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وَقْب عينه، وأخذ ضِلعًا من أضلاعه فأقامها، ثم رُحِّل أعظم بعير معنا فمرَّ من تحتها، وتزودنا مِن لحمه وشائقَ[٨]. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ. فذكرنا ذلك له، فقال: «**هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟**» قال: فأرسلنا إلىٰ رسول الله ﷺ[٩] منه فأكله[١٠]. وفي بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النَّبيِّ ﷺ حين وجدوا هذه السَّمكة. فقال بعضهم: هي واقعة أخرىٰ، وقال بعضهم: بل هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولًا مع النَّبيِّ ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة، فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة، والله أعلم.

وقال مالك، عن صفوان بن سُلَيم، عن سعيد بن سَلَمة -من آل ابن الأزرق-: أن المغيرة بن أبي بردة -وهو من بني عبد الدار- أخبره، أنه سمع أبا هريرة يقول: سأل رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّا نركب البحر، ونحمل معنا القَلِيلَ من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أَفَنَتَوَضَّأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[١١].

وقد روىٰ هذا الحديث الإمامان الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن حِبَّان، وغيرهم. وقد روي عن جماعة من الصحابة عن

---

(١) زيادة من «الموطأ». (٢) **الظرب**: الجبيل.
(٣) مالك (٢/ ٧٠٩)، ومن طريقه رواه البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٩٣٥).
(٤) سقط من (ز).
(٥) **الوَقْب**: هو داخل عينه ونُقْرتها، والقلال: جمع قُلَّة، وهي الجَرَّة الكبيرة.
(٦) **الفِدَر**: جمع فِدْرة، وهي القطعة من كل شئ.
(٧) سقط من (ز).
(٨) **الوشائق**: جمع وشيقة، وهي أن يؤخذ اللحم فيغلىٰ قليلًا ولا ينضج، ويحمل في الأسفار، وقيل: هي القديد.
(٩) لوحة (٢ ب). (١٠) مسلم (١٩٣٥).
(١١) **صحيح**: رواه أبو داود (٨٣)، وابن ماجة (٣٨٦)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١/ ٥٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٩٤).

النَّبيِّ ﷺ بنحوه.

وقد روىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من طرق، عن حماد بن سلمة: حدَّثنا أبو المُهَزِّم -هو يزيد بن سفيان- سمعت أبا هريرة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في حج -أو عمرة- فاستقبلنا رِجْل جَراد، فجعلنا نضربهن بعِصِيِّنا وسياطنا فنقتلهن، فأُسْقِط في أيدينا، فقلنا: ما نصنع ونحن محرِمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ فقال: «**لا بأْسَ بِصَيْدِ البَحْرِ**»(١).

أبو المُهَزِّم ضعيف، والله أعلم.

وقال ابن ماجة: حدَّثنا هارون بن عبد الله الحَمَّال، حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا زياد بن عبد الله، عن عُلاثة، عن موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك، أن النَّبيَّ ﷺ كان إذا دعا علىٰ الجراد قال: «**اللَّهُمَّ أَهْلِكْ كِبَارَهُ، وَاقْتُلْ صِغَارَهُ، وَأَفْسِدْ بَيْضَهُ، وَاقْطَعْ دَابِرَهُ، وَخُذْ بِأَفْوَاهِهِ عَنْ مَعَايِشِنَا وَأَرْزَاقِنَا، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**». فقال خالد: يا رسول الله، كيف تدعو علىٰ جند(٢) من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «**إِنَّ الجَرَادَ نَثْرَةُ الحُوتِ فِي البَحْرِ**». قال هاشم: قال زياد: فحدَّثني مَن رأىٰ الحوت ينثره(٣). تفرد به ابن ماجة.

وقد روىٰ الشافعي، عن سعيد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: أنه أنكر علىٰ من يصيد الجراد في الحرم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلىٰ أنَّه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئًا. وقد تقدَّم عن(٤) الصديق أنه قال: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ كُلُّ ما فيه(٥).

وقد استثنىٰ بعضهم الضَّفَادِع وأباح ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود والنسائي من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي؛ أن رسول الله ﷺ «**نَهىٰ عَنْ قَتْلِ الضِّفْدَعِ**»(٦).

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن قتلِ الضِّفْدَع، وقال: «**نَقِيقُهَا تَسْبِيحٌ**»(٧).

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه أبو داود (١٨٥٤)، والترمذي (٨٥٠)، وابن ماجة (٣٢٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٦، ٣٦٤، ٤٠٧) وفيه أبو المهزم يزيد بن سفيان، قال الحافظ: متروك.

(٢) في (ز): [أجناد].

(٣) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجة (٣٢٢١)، فيه موسىٰ بن محمَّد، قال الحافظ: منكر الحديث.

(٤) لوحة (٣ أ).

(٥) قال ابن عثيمين رحمه الله: ومن فوائد الآية الكريمة: أن جميع حيوان البحر حلال يؤخذ من الإضافة إلىٰ قوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾، والإضافة تقتضي العموم، فيشمل كل ما في البحر من سمك وحيتان، صغير وكبير، مشابه للإنسان أو مشابه للذئاب، مشابه للخنزير أو أي شيء؛ لأنه عام ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾.

(٦) صحيح: أبو داود (٣٨٧١)، والنسائي (٧/ ٢١٠) وأحمد (٣/ ٤٥٣، ٤٩٩).

(٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٤): (رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» (٣٧١٦) وفيه المسيب بن واضح: وفيه كلام وقد وُثِّق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وقال آخرون: يُؤْكَل مِن صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضِّفْدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البرِّ أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر؛ لعموم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مردويه:

حدَّثنا عبد الباقي -هو ابن قانع- حدَّثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ وعبد الله بن موسىٰ بن أبي عثمان قالا: حدَّثنا الحسين بن يزيد[1] الطحان، حدَّثنا حفص بن غِياث، عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا صِدْتُمُوهُ وَهُوَ حَيٌّ فَمَاتَ فَكُلُوهُ، وَمَا أَلْقَىٰ البَحْرُ مَيِّتًا طَافِيًا فَلَا تَأْكُلُوهُ**»[2].

ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية، ويحيىٰ بن أبي أُنَيْسَة، عن أبي الزبير عن جابر به. وهو منكر.

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العَنْبَر» المتقدم ذكره، وبحديث: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»، وقد تقدم أيضًا.

وروىٰ الإمام أبو عبد الله الشافعي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا المَيْتَتَانِ فَالحُوتُ وَالجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»[3].

ورواه أحمد وابن ماجة، والدارقطني والبيهقي. وله شواهد، وروي موقوفًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد. ففيه دلالة علىٰ تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدًا أَثِمَ وغَرِم، أو مخطئًا غَرِم وحرم عليه أكله؛ لأنه في حقِّه كالميتة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمُحِلِّين عند مالك والشافعي[4] -في أحد قوليه- وبه يقول عطاء، والقاسم، وسالم، وأبو يوسف، ومحمَّد بن الحسن، وغيرهم. فإنْ أكله أو شيئًا منه، فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: نعم، قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، قال: إن ذَبَحَه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة.

والثاني: لا جزاء عليه بأَكْلِهِ. نصَّ عليه مالك بن أنس.

---

(١) في (ز): (زيد)، والصواب ما أثبتناه.

(٢) ضعيف: في إسناده الحسين بن يزيد الطحان: قال الحافظ: لين الحديث، وأبو الزبير: مدلس.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة (٣٣١٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١١٨).

(٤) لوحة (٣ ب).

قال أبو عمر بن عبد البر: وعلىٰ هذا مذاهب فقهاء الأمصار، وجمهور العلماء. ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يُحَدَّ، فإنَّما عليه حدٌّ واحدٌ.

وقال أبو حنيفة: عليه قيمةُ ما أكل.

وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه، وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله، للخبر عن رسول الله ﷺ: «**صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ، مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ**»(١).

وهذا الحديث سيأتي بيانه. وقوله بإباحته للقاتل غريب، وأمَّا لِغَيْرِه ففيه خلاف. قد ذكرنا المنع عمَّن تقدَّم. وقال آخرون بإباحته لغير القاتل، سواء المُحْرِمُون والمحلُّون؛ لهذا الحديث. والله أعلم.

وأما إذا صاد حَلالٌ(٢) صيدًا فأهداه إلىٰ محرمٍ، فقد ذهب ذاهبون إلىٰ إباحته مطلقًا، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا. حكىٰ هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب، وأبي هريرة، والزبير بن العوام، وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء -في رواية- وسعيد بن جبير، قال: وبه قال الكوفيون.

قال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن بَزِيع، حدَّثنا بِشْر بن المفضل، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، أن سعيد بن المسيب حدثه، عن أبىٰ هريرة؛ أنَّه سُئِل عن لحم صيدٍ صاده حَلال، أيأكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله. ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسك(٣).

وقال آخرون: لا يَجُوزُ أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقًا؛ لعموم هذه الآية الكريمة.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبي أميَّة، عن طاوس، عن ابن عبَّاس؛ أنَّه كَرِهَ أكل لحم الصيد للمحرم. وقال: هي مبهمة؛ يعني قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(٤).

قال: وأخبرني معمر، عن الزهري، عن ابن عمر؛ أنَّه كان يكره للمُحْرِمِ أن يأكل من لحم الصيد علىٰ كل حال.

قال معمر: وأخبرني أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مثله.

قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس، وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري، وإسحاق بن راهويه -في رواية- وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير من(٥) طريق سعيد بن أبي عَرُوبة، عن

---

(١) ضعيف: أبو داود (١٨٥١)، والترمذي (٨٤٦)، والنسائي (٥/ ١٨٧)، وأحمد (٣/ ٣٦٢)، وفيه انقطاع فإن المطلب ابن عبد الله لم يسمع من جابر.

(٢) شخص حلال: أي غير محرم، يقال: هو حلال.

(٣) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٧٢، ٧٣)، والبيهقي (٥/ ١٨٩) (٩/ ٢٥٤).

(٤) صحيح: رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ٤٢٥/ ٨٣١٤).

(٥) لوحة (٤ أ).

قتادة، عن سعيد بن المسيب: أنَّ عليًّا كَرِهَ لحم الصَّيْد للمحرم علىٰ كل حال.

وقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه -في رواية- والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله؛ لحديث الصَّعْب بن جَثَّامة: أنه أهدىٰ للنبي ﷺ حمارًا وحشيًّا، وهو بالأَبْواء -أو: بوَدَّان[(١)]- فرده عليه، فلما رأىٰ ما في وجهه قال: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ**»[(٢)].

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين»، وله ألفاظ كثيرة قالوا: فوجهه أنَّ النَّبيَّ ﷺ ظنَّ أن هذا إنَّما صاده مِن أجله، فردَّه لذلك. فأمَّا إذا لم يقصده بالاصطياد فإنَّه يجوز له الأكل منه؛ لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وَحْشٍ، كان حلالًا لم يُحْرِمْ، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله. ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «**هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا؟**» قالوا: لا. قال: «**فَكُلُوا**». وأكل منها رسول الله ﷺ[(٣)].

وهذه القصة ثابتة أيضًا في «الصحيحين» بألفاظٍ كثيرةٍ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالا: حدَّثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله بن حَنْطَب، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ -وقال قتيبة في حديثه: سمعت رسول الله ﷺ- يقول: «**صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ** -قال سعيد: **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**- **مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ**»[(٤)].

وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعًا، عن قتيبة. وقال الترمذي: لا نعرف للمطلب سماعًا من جابر.

ورواه الإمام محمَّد بن إدريس الشافعي، من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن مولاه المطلب، عن جابر ثم قال: وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس.

وقال مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعَرْج[(٥)]، وهو مُحرِمٌ في يومٍ صائفٍ، قد غطَّىٰ وجهه بقَطِيفَة أرجوان[(٦)]، ثم أتي بلحم صيد فقال

---

(١) الأبواء: جبل في منطقة الفرع، «فتح الباري» (٤/ ٣٣). والفرع تقع جنوب المدينة.
ودَّان: موضع بقرب الجُحفة.

(٢) البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٩٣).

(٣) البخاري (١٨٢١)، ومسلم (١١٩٦).

(٤) ضعيف: رواه أبو داود (١٨٥١)، والترمذي (٨٤٦)، والنسائي (٥/ ١٨٧)، وأحمد (٣/ ٣٦٢)، وفيه انقطاع بين المطلب بن عبد الله وبين جابر.

(٥) منزل بطريق مكة «حاشية الموطأ».

(٦) أي: صوف أحمر، «حاشية الموطأ».

لأصحابه: كُلُوا، فقالوا: أوَلا تأكل أنت؟ فقال: إنِّي لست كهَيْئَتِكُم، إنَّما صِيدَ مِن أجلي(١)(٢).

---

(١) صحيح: رواه مالك (١/ ٣٥٤/ ٨٤)، والطبري (٧/ ٧٣)، والبيهقي (٥/ ١٩١).

(٢) لم يرد في أي نسخة خطية إتمام تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله للآيات من (٩٦) إلىٰ (٩٩) من سورة المائدة، وإنما فسر منها بعض الآية (٩٦) وهو قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، وأما بقية الآية (٩٦)، والآيات (٩٧، ٩٨، ٩٩) فلم يقم الحافظ ابن كثير رحمه الله بتفسيرها هاهنا، وهذا أمرٌ واضحٌ مقطوعٌ به لعدم ورود تفسيرها في أي نسخة خطية، وقد أرجع العلامة الشيخ أحمد شاكر ذلك إلىٰ السهو بقوله: (ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات، هي: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩. ثم فسَّر أكثر الآية الأولىٰ منها فقط إلىٰ هذا الموضع، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها. وهذا هو الثابت في كل الأصول المخطوطة والمطبوعة. والظاهر أنه سها عن ذلك، رحمه الله. فمن البعيد جدًّا أن يكون ذلك سهوًا من الناسخين يتفقون عليه في جميع النسخ علىٰ اختلاف مصادرها...) [«زبدة التفسير» (١/ ٦٥١)] ثم أكمل الشيخ شاكر رحمه الله تفسيرها من تفسير الطبري باختصار وتصرف.

* وأما الشيخ سامي السلامة محقق طبعة طيبة فقد أرجع السبب في ذلك لدىٰ الحافظ ابن كثير رحمه الله إلىٰ اكتفائه بالتطرق لتفسير متشابهها في سورة البقرة، فقال: (لم يتعرض الحافظ ابن كثير رحمه الله لتفسير بقية الآيات، كما في جميع النسخ المخطوطة، ولعل ذلك -والله أعلم- لأنه قد تطرق إلىٰ تفسير معانيها في متشابهتها في سورة البقرة) [تفسير ابن كثير ط.طية (٣/ ٢٠٣)].

* وزاد محققو طبعة «الشعب» في هذا الموطن كلامًا أوردوه تفسيرًا لهذه الآيات من تفسير الطبري وجعلوه في أصل الكتاب، وتبعهم علىٰ ذلك القائمون علىٰ طبعة «أولاد الشيخ»، ونرىٰ أن هذا فيه مجانبة للصواب كما نص علىٰ ذلك د/ حكمت بشير في طبعة ابن الجوزي بقوله: (لم يشرح الحافظ ابن كثير الآيات الثلاثة رقم ٩٧-٩٩ في النسخ الثلاث وكذا النسخة الأزهرية ودار الكتب حسب ما نبه محققو طبعة الشعب. وقد قاموا بالاستدراك نقلًا من «تفسير الطبري»، وهو نقلٌ مقيدٌ لكن لو وضعوه في الحاشية لكان أفضل؛ لأن بعض الطبعات ظن أصحابها أنه سقط، وقد ورد فيها هذه الزيادة منقولة من طبعة الشعب).اهـ. [«تفسير ابن كثير» ط: ابن الجوزي (٣/ ٤٨٥)].

* وعلىٰ الرغم من نص الدكتور حكمت بشير علىٰ فائدتها فإنه لم يذكرها لا في الأصل، ولا في الحاشية!.

* هذا، وقد ذكر بعض المحققين أنه وقف علىٰ تفسير لهذه الآيات في مخطوط «البدر المنير» للكازروني، وهو اختصار لتفسير ابن كثير، والكازروني تلميذ لابن كثير، وبنىٰ علىٰ ذلك أن الحافظ رحمه الله قام بتفسيرها خاصة والكازروني قد مات قبل شيخه، وهذا استدلال غير ناهض، إذ من الممكن أن يكون هذا من إضافة الكازروني نفسه أو بعض النسخ، لا سيما مع خلو كافة النسخ الخطية لتفسير ابن كثير منها.

* وإتمامًا للفائدة هنا نذكر ما زاده محققو «طبعة الشعب» من «تفسير الطبري» في هذا الموطن - ولكن في الحاشية لا الأصل لما تقدم وهو قولهم: (وقد نقل ابن جرير خلافًا في صفة الصيد الذىٰ حرمه الله تعالىٰ علىٰ المحرم، فقال بعضهم: صيد البر كل ما كان يعيش في البر والبحر، وإنما صيد البحر ما كان يعيش في الماء دون البر ويأوي إليه. روىٰ عمران بن حُدَير، عن أبي مجلز أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، قال: ما كان يعيش في البر والبحر فلا تصده، وما كان حياته في الماء فذاك. وعن عطاء قال: ما كان يعيش في البر فأصابه المحرم فعليه جزاؤه، نحو السُّلَحْفاء، والسرطان، والضفادع. وقال بعضهم: صيد البر ما كان كونُهُ في البر أكثَرَ من كونِه في البحر. روي عن ابن جريج قال: سألت عطاء عن ابن الماء، أصيد بر أم بحر؟ وعن أشباهه. فقال: حيث يكون أكثر، فهو صيده. وعن عطاء بن أبي رباح قال: أكثر ما يكون حيث يفرخ، فهو منه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. قال ابن جرير: «يقول تعالىٰ ذكره: واخشوا الله، أيها الناس، واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها علىٰ نبيكم ﷺ، من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم وفي غيرها، فإن لله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم علىٰ طاعتكم له». وقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾. «يقول تعالىٰ ذكره: صير الله الكعبة البيت الحرام قِوَامًا للناس الذين لا قوام لهم، من رئيس يحجز قويهم عن

=

= ضعيفهم، ومسيئهم عن محسنهم، و ظالمهم عن مظلومهم - والشهر الحرام والهدي والقلائد، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قيام غيرهم، وجعلها معالم لدينهم، ومصالح أمورهم».

وقد روي عن مجاهد قال: إنما سميت الكعبة؛ لأنها مربعة. وروي مثله عن عكرمة.

قال ابن جرير: وأما الكعبة فالحرم كله وسماها الله تعالىٰ «حرامًا» لتحريمه إياها أن يصيد صيدها أو يختلىٰ خلالها، أو يعضد شجرها.

وقد فسر ابن جرير ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ بالقوام. وروىٰ في ذلك آثارًا منها:

حدَّثنا هناد، حدَّثنا ابن أبي زائدة قال، أخبرنا من سمع خُصَيفًا يحدث، عن مجاهد في: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قال: قوامًا للناس.

وقال سعيد بن جبير: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قال: صلاحًا لدينهم. وعنه أيضًا: «**شدة لدينهم**».

وعن ابن عبَّاس قال: «**قيامها: أن يأمن من توجه إليها**»، وعنه أيضًا: «**قيامًا لدينهم ومعالم لحجهم**».

وقال السُّدِّي: «**جعل الله هذه الأربعة قيامًا للناس، هو قوام أمرهم**».

قال ابن جرير: وهذه الأقوال وإن اختلفت من ألفاظ قائليها ألفاظها، فإن معانيها آيلة إلىٰ ما قلنا من ذلك، من أن «القِوام» للشيء، هو الذي به صلاحه، كما أن الملك أعظم قوام رعيته ومَنْ في سلطانه؛ لأنه مدبر أمرهم، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم. وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد، قوام أمر العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية، وهي في الإسلام لأهله معالم حجهم ومناسكهم ومُتَوَجَّهُهُم لصلاتهم، وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم».

ثم قال ابن جرير: وبنحو الذي قلنا في ذلك قالت جماعة أهل التأويل.

حدَّثنا بشر بن معاذ قال: حدَّثنا جامع بن حماد، حدَّثنا يزيد بن زريع قال: حدَّثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية، فكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلىٰ الحرم لم يُتَناوَل ولم يُقْرَب. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في أشهر الحرام لم يعرض له ولم يقرب، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلَّد قلادةً من شعر فأحمته ومنعته من الناس، حتىٰ يأتي أهله، حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية.

وروي نحوه عن ابن يزيد وابن عبَّاس وقد مضىٰ في أول السورة ذكر «الشهر الحرام» و«الهدىٰ» و«القلائد».

وقوله تعالي: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال ابن جرير: «يقول الله تعالىٰ ذكره: اعلموا، أيها الناس، أن ربكم الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض وما يخفىٰ عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها، وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها - شديد عقابه مَنْ عصاه وتمرد عليه، علىٰ معصيته إياه، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه، فساتر عليه وتاركٌ فضيحتَهُ بها، رحيم به أن يعاقبه علىٰ ما سلف من ذنوبه، بعد إنابته وتوبته منها.

قوله: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

هذا من الله تعالىٰ ذكره، تهديد لعباده ووعيد، يقول تعالىٰ ذكره: ليس علىٰ رسولنا الذي أرسلناه إليكم، أيها الناس، بإنذاركم عقابنا بين يدىٰ عذاب شديد، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حجاجكم إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثواب علىٰ الطاعة، وعلينا العقاب علىٰ المعصية.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

يقول: وغير خفي علينا المطيع منكم، القابل رسالتنا العامل بما أمرته بالعمل به، من العاصي الآبي رسالتنا، التارك العمل بما أمرته بالعمل به؛ لأنا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به لسانه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني: وما تخفون في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق.

يقول تعالىٰ ذكره: فمن كان كذلك، لا يخفىٰ عليه شيء من ضمائر الصدور وظواهر أعمال النفوس، مما في السموات وما في الأرض، وبيده الثواب والعقاب -فحقيق أن يُتَّقَىٰ، وأن يطاع فلا يعصىٰ).

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ(١): ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: يا أَيُّها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعني: أنَّ القليل الحلال النَّافع خيرٌ من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: «مَا قَلَّ وَكَفَىٰ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ»(٢).

وقال أبو القاسم البَغَوِيُّ في «معجمه»: حدَّثنا أحمد بن زُهَيْر، حدَّثنا الحَوْطِي، حدَّثنا محمَّد بن شعيب، حدَّثنا مُعان بن رِفاعة، عن أبي عبد الملك علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال: [يا رسول الله، ادع الله أن](٣) يرزقني مالًا. فقال النَّبيُّ ﷺ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ»(٤).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقْنَعُوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ هذا تأديبٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين، ونهيٌ لهم عن أن يسألوا [﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾](٥) مما لا فائدة لهم في السؤال والتَّنقِيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور رُبَّما ساءتهم وشق عليهم سماعها(٦)، كما جاء في الحديث: أن

---

(١) لوحة (٤ ب).

(٢) صححه الألباني: رواه أبو يعلىٰ (١٠٥٣)، عن أبي سعيد، ورجاله ثقات عدا صَدَقَة، أورده ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، لكن للحديث شواهد استوفاها الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، انظر: «الصحيحة» (٩٤٧).

(٣) هذه الجملة كررت في (ز).

(٤) منكر: رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ٢٧١ - بتحقيقي)، وفيه علي بن يزيد الألهاني. قال الحافظ: ضعيف، وقال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال فيه الدارقطني: متروك، وفيه معان بن رفاعة: لين الحديث، والقاسم قال فيه ابن حبان: كان ممن يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات، ويأتي عن الثقات بالمعضلات.

(٥) سقط من (ز).

(٦) قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل. إما علىٰ سبيل الاستهزاء أو الامتحان، وإما علىٰ سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان علىٰ الإباحة....

قال الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين»: لم ينقطع حكم هذه الآية. بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه. بل يستعفي ما أمكنه، ويأخذ بعفو الله. ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا صاحب الميزاب! لا تخبرنا. لما سأله رفيقه عن مائه: أطاهر أم لا؟

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره فلعله يسوءه إن أبدي له. فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله. فإنه سبحانه يكره إبداءها، ولذلك سكت عنها.

=

رسول الله ﷺ قال: «لا يُبَلِّغني أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[١].

وقال البخاري: حدَّثنا مُنْذِر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي، حدَّثنا أبي، حدَّثنا شعبة، عن موسىٰ بن أنس، عن أنس بن مالك قال: خطب النَّبيُّ ﷺ خُطبةً ما سمعت مثلها قط، قال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قال: فغطَّىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حَنِين[٢]. فقال رجلٌ: مَنْ أبي؟ قال: «فُلانٌ»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾[٣].

رواه النَّضر وروح بن عبادة، عن شعبة وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنَّسائي من طرق عن شعبة بن الحجاج به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بِشْر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، قال: فحدَّثنا أن أنس بن مالك حدثه: أنَّ رسول الله ﷺ سألوه حتىٰ أَحْفَوْه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تَسْأَلُوا اليَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ». فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حَضَر، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وجدت كلًّا لافًّا رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجلٌ كان يُلاحي فيُدْعَىٰ[٤] إلىٰ غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ». قال: ثم قام عمر -أو قال: فأنشأ عمر- فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّد رسولًا عائذًا بالله -أو قال: أعوذ بالله- من شر الفتن قال: وقال رسول الله ﷺ: «لَمْ أَرَ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَاليَوْمِ قَطُّ، صُوِّرَتْ لِيَ الجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُمَا دُونَ الحَائِطِ»[٥]. أخرجاه من طريق سعيد.

ورواه مَعْمَر، عن الزهري، عن أنس بنحو ذلك -أو قريبًا منه- قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدًا أعق منك [قط،][٦] أكنت تأمَن أن [تكون][٧] أمك قد قارفَتْ ما قارفَ أهلُ الجاهلية فتَفْضَحَهَا علىٰ رءوس النَّاس، فقال: والله لو ألحقني بعبدٍ أسوَدَ لَلَحِقْتُهُ[٨].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا قَيْس، عن أبي حَصِين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمارٌّ وجهه حتىٰ جلس علىٰ المنبر،

= وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها. وأما المقصود أولا وبالذات -كما يفيده تتمتها- فهو النهي عن السؤال بما يسوء إبداؤه في زمن الوحي.

(١) ضعفه الألباني: أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (١/ ٣٩٥).

(٢) ويروىٰ: خَنين، وهو ضربٌ من البُكاء دُون الانتحاب. وأصلُ الخَنين: خُرُوجُ الصَّوتِ من الأنفِ، كَالحنين من الفم. «النهاية».

(٣) البخاري (٩٣) (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٨٩)، والترمذي (٣٠٥٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٥٤).

(٤) لوحة (٥ أ).

(٥) البخاري (٧٠٩٠) (٧٢٩٤)، ومسلم (٢٣٥٩)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، وابن حبان (١٠٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٩).

(٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز).

(٨) البخاري (٧٢٩٤)، ومسلم (٢٣٥٩).

فقام إليه رجلٌ فقال: أين أبي ؟ فقال: «فِي النَّارِ» فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ»، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا، وبالقرآن إمامًا، إنا يا رسول الله حَدِيثو عهدٍ بجاهليَّةٍ وشِرْكٍ، والله أعلم من آباؤنا. قال: فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾(١) إسناده جيد.

وقد ذكر هذه القصة مُرْسَلَة غير واحدٍ من السلف، منهم أسباط عن السُّدِّي أنه قال في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يومًا من الأيام، فقام خطيبًا فقال: «سَلُونِي، فَإِنَّكُمْ لا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ». فقام إليه رجل مِن قريش، من بني سهم، يقال له: عبد الله بن حُذَافة، وكان يُطْعَن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «أَبُوكَ فُلَانٌ»، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقبَّل رِجْلَهُ، وقال: يا رسول الله، رضينا بالله ربًّا، وبك نبيًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتىٰ رضي، فيومئذ قال: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»(٢).

ثم قال البخاري: حدَّثنا الفَضْل بن سَهْل، حدَّثنا أبو النَّضْر، حدَّثنا أبو خَيْثَمَة، حدَّثنا أبو الجُويرية، عن ابن عبَّاس قال: كان قومٌ يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تَضِل ناقتُه: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ حتىٰ فرغ من الآية كلها. تفرَّد به البخاري(٣).

وقال الإمام أحمد(٤): حدَّثنا منصور بن وَرْدَان الأسدي، حدَّثنا عليُّ بن عبد الأعلىٰ، عن أبيه، عن أبي البَخْتَرِيِّ -وهو سعيد بن فيروز- عن علي قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، أَفِي كل عامٍ؟ فسَكَت. فقالوا: أَفِي كل عام؟ فسَكَت، قال: ثم قالوا: أَفِي كل عام؟ فقال: «لا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ»، فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ إلىٰ آخر الآية(٥).

وكذا رواه الترمذي وابن ماجة، من طريق منصور بن وردان به، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخاري يقول: أبو البختري لم يدرك عليًّا.

---

(١) ضعيف بهذا السياق: ويكفي في ذلك ما تقدم من حديث أنس، أما هذه الرواية فإنها من طريق عبد العزيز بن أبان وهو متروك كما في «التقريب». رواه الطبري (٧/ ٢٠٨١).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٨١)، وابن أبي حاتم (٦٨٨٢) وإسناده مرسل.

(٣) البخاري (٤٦٢٢)، والطبري (٧/ ٨٠) وابن أبي حاتم (٦٨٧٧).

(٤) لوحة (٥ ب).

(٥) حسن لغيره: تقدم تخريجه. انظر (الآية: ٩٧) من سورة آل عمران.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إبراهيم بن مسلم الهَجَرِيّ، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ» فقال رجلٌ: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتىٰ عاد مرتين أو ثلاثًا، فقال: «مَنِ السَّائِلُ؟» فقال: فلان. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ»، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حتىٰ ختم الآية(١).

ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد، عن محمَّد بن زياد، عن أبي هريرة -وقال: فقام مِحْصَن الأسدي- وفي رواية من هذه الطريق: عُكَاشة بن محْصن -وهو أشبه.

وإبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف.

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثني زكريا بن يحيىٰ [بن أبان المصري قال: حدَّثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغمر، حدَّثنا أبو مطيع معاوية بن يحيىٰ،](٢) عن صفوان بن عمرو، حدَّثني سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: قام رسول الله ﷺ في الناس فقال: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الحَجُّ». فقام رجلٌ من الأعراب فقال: أفي كل عام؟ قال: فَغَلِقَ(٣) كلام رسول الله ﷺ، وأسكت واستغضب، ومكث طويلًا ثم تكلم فقال: «مَنِ السَّائِلُ؟» فقال الأعرابي: أنا ذا، فقال: «وَيْحَكَ، مَاذَا يُؤَمِّنُكَ أَنْ أَقُولَ: نَعَمْ، وَاللهِ لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَكَفَرْتُمْ، أَلَا إِنَّهُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَئِمَّةُ الحَرَجِ، وَاللهِ لَوْ أَنِّي أَحْلَلْتُ لَكُمْ جَمِيعَ مَا فِي الأَرْضِ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا مَوْضِعَ خُفٍّ، لَوَقَعْتُمْ فِيهِ» قال: فأنزل الله عند ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية(٤). في إسناده ضعف.

وظاهر الآية النَّهي عن السُّؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولىٰ الإعراض عنها وتركها، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد(٥) حيث قال:

حدَّثنا حَجَّاج قال: سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولىٰ الهمداني، عن زيد ابن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛

---

(١) تقدم تخريجه عند (الآية: ١٠٨) من سورة البقرة وليس له الروايات المذكورة في الباب في سبب نزول الآية، وأما هذه الرواية ففي إسنادها إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف.

(٢) زيادة من «الطبري».

(٣) يقال: غلِق فلان في حدته؛ أي: نَشِبَ، ويقال لكل شيء نشب في شيء فلزِقَ: قد غلق، ومنه: استغلق الرجل، إذا أُرْتِجَ عليه ولم يتكلم وانقطع كلامه.

(٤) حسن: رواه ابن جرير (٧/ ٨٢-٨٣)، والطبراني (٨/ ١٨٦) وفي «مسند الشاميين» (٩٥٥) من طرق عن أبي زيد عبد الرحمن به، وقال الهيثمي (٤/ ٢٠٧): إسناده حسن جيد.
قال الشيخ أحمد شاكر تعليقًا علىٰ تضعيف ابن كثير: (وكأن علة ضعفه عنده هو زكريا بن يحيىٰ بن أبان المصري، قلت -يعني أحمد شاكر-: زكريا بن يحيىٰ لم ينفرد به، إنما تابعه روح بن الفرج عند الطبراني، وروح أبو الزِّنْباع: ثقة كما قال الحافظ في «التقريب»، فالحديث حسن جيد كما قال الهيثمي).

(٥) لوحة (٦ أ).

فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» الحديث(١) .

وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث إسرائيل -قال أبو داود: عن الوليد، وقال الترمذي: عن إسرائيل -عن السُّدِّي، عن الوليد بن أبي هاشم به. ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقوله:﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نُهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول تُبيَّن لكم، وذلك على الله يسير.

ثم قال﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السُّؤال عنها، فلعلَّه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»(٢) ، ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها حينئذٍ، تبيَّنت لكم لاحتياجكم إليها.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها. وفي الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذَرُونِي مَا [تَرَكْتُكُمْ](٣) ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(٤) .

وفي الحديث الصحيح أيضًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا»(٥) .

ثم قال:﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ مِن قبلكم، فأُجِيبُوا عنها ثم لم يُؤمِنُوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بُيِّنت لهم ولم ينتفعوا بها؛ لأنهم لم يسألوا على وجهِ الاسترشاد، وإنَّما سألوا على وجه التَّعنُّت والعناد.

قال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ أذَّن في الناس فقال: «يَا قَوْمِ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ». فقام رجلٌ من بني أسد فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فأغضبَ رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذًا لَكَفَرْتُمْ، فَاتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ

---

(١) ضعفه الألباني: رواه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (١/ ٣٩٥).

(٢) البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨)، وأحمد (٦/ ١٧٩). (٣) في (ز): (تركتم).

(٤) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، والترمذي (٢٦٧٩)، وابن ماجة (١، ٢)، والنسائي (٥/ ١١) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦١٨).

(٥) حسن لغيره: رواه الدارقطني (٤/ ١٨٣- ١٨٤)، والبيهقي في «السنن» (١/ ١٢- ١٣)، والطبري في «الكبير» (٢٢/ ٥٨٩، ٢٢١، ٢٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٧) وإسناده منقطع؛ لأن مكحولًا لم يسمع من أبي ثعلبة.

لكن للحديث شاهد رواه الحاكم (٢/ ٣٧٥)، والبزار (١٢٣)، والبيهقي (٩/ ١٢) من حديث أبي الدرداء نحوه، وبهذا فالحديث حسن لغيره؛ ولذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (إسناده حسن) وانظر تحقيقي لـ«الفقيه والمتفقه» (٦٣٠).

فافعلوا، وإذا نهيتُكم عنْ شيءٍ فانتهوا عنهُ». فأنزل الله[1] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ نهاهم أن يَسْألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين. فنهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظٍ ساءَكُم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيءٍ إلا وجدتم تبيانه[2] رواه ابن جرير.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبيّ ﷺ في الناس فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ الله قدْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحجَّ فحُجُّوا». فقالوا: يا رسول الله، أعامًا واحدًا أم كل عام؟ فقال: «لا بَلْ عامًا واحِدًا، ولَوْ قُلْتُ: كُلَّ عامٍ لوَجبَتْ، ولَوْ وَجبَتْ لكَفرْتُمْ». ثم قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾[3] رواه ابن جرير.

وقال خُصيف، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ قال: هي البَحِيرة والوَصِيلَة والسَّائِبَة والحَامِ، ألا ترى أنَّه يقول بعد ذلك: «ما جعل الله من بحيرةٍ ولا كذا ولا كذا»، قال: وأمَّا عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾[4] رواه ابن جرير.

يعني عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش: أن يُجْرِي لهم أنهارًا، وأن يجعل لهم الصَّفَا ذهبًا وغير ذلك[5]، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الأسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

---

(١) لوحة (٦ ب).

(٢) حسن لغيره: رواه الطبري (٧/ ٨٣)، ضعيف من هذا الطريق فإنه من طريق عطية العوفي: وهو ضعيف مدلس، وأصل الحديث صحيح كما تقدم في الروايات السابقة، لكن تابعه علي بن أبي طلحة في الرواية التي بعده، وفيها انقطاع. ويشهد له رواية أبي هريرة، وأبي أمامة السابقتان، وقد تقدم نحوه عن ابن عبَّاس عند (الآية: ٩٧) من سورة آل عمران.

(٣) الطبري (٧/ ٨٣)، وانظر التعليق السابق.

(٤) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٧/ ٨٤)، وسعيد بن منصور في «تفسيره» (٨٣٩)، وفيه خصيف بن عبد الرحمن: قال الحافظ ابن حجر: صدوق سيئ الحفظ خلط بآخرة، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٧). وعتاب بن بشير: لا بأس به إلا في روايته عن خصيف فإنها منكرة.

(٥) صحيح: تقدم عن تفسير سورة الإسراء (الآية ٥٩).

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قال البخاري: حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كَيْسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب قال: «البحيرة»: التي يُمْنَعُ درُّها للطَّواغيت[1]، فلا يَحْلبها أحدٌ من النَّاس. و«السائبة»: كانوا يُسَيِّبونَها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء -قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ**[2] **فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**» -و«الوصيلة»: النَّاقة البكر، تُبَكِّر في أوَّل نتاج الإبل، ثم تُثَنِّي بعدُ بأنثىٰ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحْدَاهما بالأخرىٰ ليس بينهما ذكَر. و«الحَام»: فحل الإبل يَضربُ الضرابَ المعدود، فإذا قضىٰ ضِرَابَهُ[3] وَدَعُوه للطواغيت، وأعفوه عن الحَمْل، فلم يُحْمَل عليه شيء، وسَمَّوه الحامي[4].

وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث إبراهيم بن سعد به.

ثم قال البخاري: وقال لي أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: سمعت سعيدًا يخبر بهذا. وقال أبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ نحوه. ورواه ابن الهاد، عن ابن شهاب، عن سعيد، عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ.

قال الحاكم: أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بُخْت، عن الزهري. كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في «الأطراف» وسكت ولم ينبه عليه. وفيما قاله الحاكم نظر، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه مِن حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن الزهري نفسه. والله أعلم.

ثم قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكِرْماني، حدَّثنا حسان بن إبراهيم، حدَّثنا يونس، عن الزهري، عن عُرْوَة؛ أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرًا يَجُرُّ قُصْبَهُ**[5]، **وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**»[6]. تفرَّد به البخاري.

وقال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّادٌ، حدَّثنا يونس بن بُكَير، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، حدَّثني محمَّد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجَوْن: «**يَا أَكْثَمُ، رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ**

---

(١) لوحة (٧ أ). (٢) القُصْب: الأمعاء.

(٣) أي: قضىٰ وطره من الناقة. (٤) البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٥٦).

(٥) القُصْب، بالضم: المِعَي، «القاموس المحيط» (ص١٤١١).

(٦) البخاري (٤٦٢٤).

بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلا بِهِ مِنْكَ». فقال أكثم: تخشىٰ أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا إِنَّكَ مُؤْمِنٌ [وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَبَحَّرَ البَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَحَمَىٰ الحَامِي». ثم رواه عن][1] هناد، عن عبدة، عن محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، بنحوه أو مثله[2].

ليس هذان الطريقان في الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عمرو بن مُجمِّع، حدَّثنا إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَعَبَدَ الأَصْنَامَ، أَبُو خُزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ[3] عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ»[4]. تفرَّد به أحمد من هذا الوجه.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَأَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ أَخُو بَنِي كَعْبٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، يُؤْذِي رِيحُهُ أَهْلَ النَّارِ، وَإِنِّي لأَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ بَحَّرَ البَحَائِرَ». قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ، فَجَدَعَ آذَانَهُمَا، وَحَرَّمَ أَلْبَانَهُمَا، ثُمَّ شَرِبَ أَلْبَانَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ وَهُمَا يَعَضَّانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا وَيَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا»[5].

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَة، أحد رؤساء خزاعة، الذين ولُوا البيت بعد جُرْهم. وكان أوَّل مَن غَيَّر دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلىٰ الحجاز، ودعا الرَّعَاع من النَّاس إلىٰ عبادتها والتَّقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهليَّة في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالىٰ في سورة الأنعام، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلىٰ آخر الآيات في ذلك.

فأمَّا البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هي النَّاقة إذا نُتِجَت خمسة أبطُن نظروا إلىٰ الخامس، فإن كان ذكرًا ذبحوه، فأكله الرِّجال دونَ النِّساء. وإن كان أنثىٰ جَدَعُوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرةٌ.

وذكر السُّدِّي وغيره قريبًا من هذا.

وأما السَّائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فُسِّر من البحيرة، إلا أنَّها ما ولدت من ولد [كان][6] بينها وبينه ستة أولاد كانت علىٰ هَيْئَتِهَا، فإذا ولدت السَّابع ذكرًا أو ذكرين، ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسائهم.

وقال محمَّد بن إسحاق: السَّائبة: هي النَّاقة إذا وَلَدَتْ عشر إناثٍ من الولد ليس بينهنَّ ذكر، سُيِّبت

---

(١) زيادة من «الطبري». (٢) حسن: رواه ابن جرير (٧/ ٨٦). (٣) لوحة (٧ ب).

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد (١/ ٤٤٦)، وفيه إبراهيم الهجري: وهو ضعيف، لكن يشهد للحديث ما تقدم من الروايات السابقة.

(٥) مرسل: رواه عبد الرزاق (١/ ١٩٧)، وابن جرير (٧/ ٨٦، ٨٧)، وإسناده مرسل.

(٦) سقط من (ز).

فلم تركب، ولم يُجزَّ وبرها، ولم يَحْلِب لبنها إلا الضيف.

وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فَقُضِيت حاجته، سَيَّب من ماله ناقة أو غيرها، فجَعَلَها للطَّوَاغِيت. فما ولدت من شيء كان لها.

وقال السُّدِّي: كان الرجل منهم إذا قُضِيَت حاجته أو عُوفِيَ مِن مرض أو كثر ماله سَيَّب شيئًا مِن ماله للأوثان، فمَن عرض لَهُ مِن النَّاس عُوقب بعقوبةٍ في الدنيا.

وأمَّا الوصيلة، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا [إلىٰ][(١)] السَّابع، فإن كان ذكرًا أو أنثىٰ وهو مَيِّت اشترك فيه الرِّجال دون النساء، وإن كان أنثىٰ استحيَوْها، وإن كان ذكرًا وأنثىٰ في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته[(٢)] أخته فحرمته علينا. رواه ابن أبي حاتم[(٣)].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ قال: فالوَصِيلَة من الإبل، كانت الناقة تَبْتَكِر بأنثىٰ، ثم تثنىٰ[(٤)] بأنثىٰ، فسموها الوصيلة، ويقولون: وَصَلَت أُنْثَيَيْن ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم.

وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال محمَّد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم: إذا وَلَدَت عشر إناثٍ في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كُلِّ بطنٍ، سُمِّيت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك مِن ذكر أو أنثىٰ، جعلت للذُّكُور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأمَّا الحام، فقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس قال: كان الرَّجل إذا لَقَّح فَحْله عشرًا، قيل: حام، فاتْرُكُوه.

وكذا قال أبو روق، وقتادة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: وأمَّا الحام فالفَحْلُ مِن الإبل، إذا وُلد لِوَلَدِه قالوا: حَمىٰ هذا ظهره، فلَا يحملون عليه شيئًا، ولا يَجُزُّون له وبرًا، ولا يمنعونه مِن حِمَىٰ رَعْي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لِغَيْرِ صاحبه.

وقال ابن وَهْب: سمعت مالكًا يقول: أمَّا الحام فمِنَ الإِبِلِ كان يضرب في الإبل، فإذا انقضىٰ ضِرابه جعلوا عليه رِيش الطواويس وسيَّبوه.

وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديثٌ رواه ابن أبي حاتم[(٥)]، من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي، عن أبي الأحوص الجُشَمي، عن أبيه مالك بن نَضْلَة قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ في خُلْقان[(٦)]

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٨ أ).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٦٨٨٧) وإسناده منقطع، فعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عبَّاس.

(٤) في (ز): ثم ثنت.

(٥) صحيح: رواه أبو حاتم (٤/ ١٢٢٠)، وابن جرير (٧/ ٨٨)، ورواه أبو داود مختصرًا (٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ١٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

(٦) **الخُلْقان**: جمع خَلَق، وهو البالي.

من الثياب، فقال لي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟» قلت نعم. قال: «مِنْ أَيِّ المَالِ؟» قال: فقلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: «فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ[١] عَلَيْكَ». ثم قال: «تُنْتَجُ إِبِلُكَ وَافِيَةً آذَانُهَا؟» قال: قلت: نعم. قال: «وَهَلْ تُنْتَجُ الإِبِلُ إِلَّا كَذَلِكَ؟» قال: «فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ المُوسَىٰ فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ بَحِيرٌ، وَتَشُقُّ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا، وَتَقُولُ: هَذِهِ حَرَمٌ؟» قلت: نعم. قال: «فَلَا تَفْعَلْ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللهُ لَكَ حِلٌّ»، ثم قال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ أَمَّا البحيرة: فهي التي يَجْدَعُون آذانها، فلا تنتفع امرأتُه ولا بناتُه ولا أحدٌ مِن أهل بيته بصوفها ولا أَوْبَارِها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها، وأما السَّائبة: فهي التي يُسَيِّبُون لآلهتهم، ويذهبون إلىٰ آلهتهم فيُسَيِّبُونها، وأما الوصيلة: فالشَّاة تَلِد ستَّة أبطن، فإذا ولدت السَّابع جُدِعَت وقُطِعَ قَرْنُها، فيقولون: قد وصلت، فلا يَذْبَحُونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت علىٰ حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجًا في الحديث. وقد[٢] روي من وجهٍ آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه.

وقد روىٰ هذا الحديث الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزَّعْراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه به. وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم[٣].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افْتَرَوْا ذلك وجعلوه شرعًا لهم وقُرْبَةً يتقرَّبون بها إليه. وليس ذلك بحاصلٍ لهم، بل هو وبالٌ عليهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: إذا دُعُوا إلىٰ دِينِ الله وشَرْعِهِ وما أوجبه وتَرْك ما حرَّمه، قالوا: يَكْفِينا ما وجدنا عليه الآباءَ والأجداد مِن الطَّرائق والمسالك، قال الله تعالىٰ ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يفهمون حقًّا، ولا يَعْرِفُونَه، ولا يهتدون إليه، فكيف يَتَّبِعُونَهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾

يقول تعالىٰ آمِرًا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويَفْعَلُوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنَّه مَن أصلح أَمْرَه لا يضرُّه فساد مَن فسد مِن النَّاس، سواء كان قريبًا منه أو بعيدًا.

قال العَوْفي عن ابن عبَّاس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالىٰ: إذَا ما العبد أَطَاعَنِي فيما أمرته به مِن الحلال والحرام، فلا يضره من ضَلَّ بعده، إذا عَمِل بما أمرته به.

---

(١) في (ز): فكثر عليك. (٢) لوحة (٨ ب).

(٣) هذا الحديث صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٧٣)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٧)، والنسائي (٨/ ١٨٠)، وسيأتي في تفسير سورة يونس عند الآية (٦٠).

وكذا روى الوالبي عنه، وهكذا قال مُقَاتِل بن حَيان. فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ نصب على الإغراء[1] ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وليس في الآية مستَدَلٌّ على ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكنًا، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا زُهَيْر -يعني ابن معاوية- حدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدَّثنا قَيْس قال: قام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيُّها النَّاس، إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا المُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ**». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها النَّاس، إيَّاكم والكَذِب، فإنَّ الكذب مُجَانِب[2] الإيمان[3].

وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حِبَّان في «صحيحه»، وغيرهم من طرقٍ كثيرةٍ عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن [أبي][4] خالد به متصلًا مرفوعًا، ومنهم من رواه عنه به موقوفًا على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولًا في «مسند الصديق رضي الله عنه».

وقال أبو عيسى الترمذي: حدَّثنا سعيد بن يعقوب الطَّالَقَاني، وحدَّثنا عبد الله بن المبارك، حدَّثنا عتبة بن أبي حكيم، حدَّثنا عمرو بن جارية اللخمي، عن أبي أمية الشَّعْباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخُشَني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ فقال: أيَّة آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بَلِ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ**» -قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منهم أو منَّا؟ قال: «**لَا، بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[5].

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ورواه ابن ماجة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عتبة بن أبي حكيم.

---

(١) ينظر: «الكشاف»: (٢/ ٣٠٦)، و«إعراب القرآن» لأبي البقاء للعُكبري: (١/ ٤٦٥)، و«البحر المحيط»: (٤/ ٤١).
(٢) لوحة (٩ أ).
(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن حبان (٣٠٤)، وابن ماجة (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧).
(٤) سقط من (ز).
(٥) ضعيف: رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجة (٤٠١٤)، وفيه عمرو بن جارية اللخمي، قال الحافظ: مقبول؛ ولذا ضعفه الألباني، وقال: ولبعضه شواهد في تخريج «المشكاة» (٥١٤٤).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ فقال: إنَّ هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولةٌ [١]. ولكنَّه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيُصْنَعُ بكم كذا وكذا -أو قال: فلا يقبل منكم- فحينئذٍ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ [٢].

ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا، فكان بَين رَجُلَيْن بعض ما يكون بين النَّاس، حتىٰ قام كلُّ واحدٍ منهما إلىٰ صاحبه، فقال رجلٌ مِن جلساء عبد الله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلىٰ جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾. قال: فسمعها ابن مسعود فقال: مَهْ، لم يجئ تأويل هذه بعد، إنَّ القرآن أُنْزِل [٣] حيث أنزل ومنه آيٌ قد مضىٰ تأويلهُنَّ قبل أن ينزلن، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن بعد النَّبيِّ ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن [بعد اليوم، ومنه آي تأويلهن عند السَّاعة علىٰ ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن] [٤] يوم الحساب علىٰ ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلْبِسوا شِيعًا، ولم يَذُق بعضكم بأس بعض [فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبسْتُم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض] [٥] فامْرُؤٌ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير [٦].

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن عَرفة، حدَّثنا شَبَابة بن سَوَّار، حدَّثنا الربيع بن صَبِيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فَلَمْ تأمُر ولم تَنْهَ، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي إنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ». فكنَّا نحن الشهود وأنتم الغُيَّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم [٧].

وقال أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر وأبو عاصم قالا: حدَّثنا عَوْف، عن سوَّار ابن شَبِيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجلٌ جَليد في العين، شديد اللِّسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن،

---

(١) أي: كلمة الحق، أو دعوة الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٩٤- ٩٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١٩٩)، وسعيد بن منصور (٨٤٣) من طريق الحسن عن ابن مسعود، والحسن لم يسمع ابن مسعود فهو منقطع.
وقد رواه الطبري (٧/ ٩٦) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، وإسناده ضعيف، فأبو جعفر سيئ الحفظ، وأبو العالية كثير الإرسال.

(٣) لوحة (٩ ب).

(٤) زيادة من «الطبري».

(٥) زيادة من «الطبري».

(٦) انظر التعليق السابق.

(٧) ضعيف: الربيع بن صبيح، قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ، وفيه سفيان بن عقال أورده ابن أبي حاتم (٤/ ٢١٩) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلُّهم مجتهد لا يألو، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دَناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم علىٰ بعض بالشِّرك. فقال [رجل من القوم: وأيُّ دناءة تريد أكثرَ من أن يشهد بعضهم علىٰ بعض بالشِّرك؟] (١).

فقال الرجل: إني لست إيَّاكَ أسأل، إنما أسأل الشَّيخ. فأعاد علىٰ عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترىٰ -لا أبا لك- أني سآمرك أن تذهب فتقتُلَهُم! عِظْهم وانهَهُم، فإن عصوك فعليك نَفْسك فإن الله عَلَّل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ الآية (٢).

وقال أيضًا: حدَّثني أحمد بن المقدام، حدَّثنا المعتَمِر بن سليمان، سمعت أبي، حدَّثنا قتادة، عن أبي مازن قال: انطلقتُ علىٰ عهد عثمان إلىٰ المدينة، فإذا قومٌ من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ فقال أكْبَرهم: لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم (٣).

وقال: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحُسَين، حدَّثنا ابن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن جُبَير بن نُفير قال: كُنتُ في حلقةٍ فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغرُ القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾؟ فأقبلوا عليَّ بلسانٍ (٤) واحدٍ وقالوا: تنزع آيةً من القرآن ولا تعرفها (٥)، ولا تدري ما تأويلها؟! حتىٰ تمنَّيت أنِّي لم أكن تكلمتُ، وأقبلوا يتحدَّثون، فلما حضر قِيامُهُم قالوا: إنك غلامٌ حَدَثُ السن، وإنَّك نزعت بآية ولا تدري ما هي، وعسىٰ أن تُدْرِك ذلك الزَّمان، إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهَوًىٰ متبعًا، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضَلَّ إذا اهتديت (٦).

وقال ابن جرير: حدَّثنا علي بن سَهْل، حدَّثنا ضَمْرَة بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمنٌ فيما مضىٰ، ولا مؤمن فيما بقي، إلا وإلىٰ جانبه منافقٌ يكره عمله.

وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك مَن ضَلَّ إذا اهتديت.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٩٥)، وإسناده صحيح، وسوار بن شيب قال عنه ابن معين: ثقة كما في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٩٥)، وفيه أبو مازن، أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ٤٤)، وقال: كان من علماء الأزد، فقد أثنىٰ عليه بالصلاح في دينه فقط، ولم يتكلم عن ضبطه فيظل مجهولًا من هذه الجهة.

(٤) لوحة (١٠ أ).

(٥) يعني: أتجيء بآيةٍ من القرآن وأنت لا تعرفها؟

(٦) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٩٦)، وفي إسناده الفرج بن فضالة: قال أحمد: يحدِّث عن الثقات أحاديث منكرة، وقال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال أيضًا: ليس به بأس، وقال ابن المديني: ليس بالقوي، وقال البخاري ومسلم: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: صدوق يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال ابن عدي: وهو مع ضعفه يكتب حديثه، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٣/ ١٦٠)، وقال الحافظ: ضعيف.

رواه ابن جرير، وكذا روي من طريق سفيان الثوري، عن أبي العُمَيْس، عن أبي البَخْتَري، عن حذيفة مثله، وكذا قال غير واحدٍ من السلف.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدَّثنا الوليد، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن كعب في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: إذا هدمت كنيسة [مسجد] [1] دمشق، فجعلت مسجدًا، وظهر لبس العَصْب [2]، فحينئذٍ تأويل هذه الآية [3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾

اشتملتْ هذه الآية الكريمة علىٰ حكم عزيز، قيل: إنَّه منسوخ رواه العَوْفي عن ابن عبَّاس. وقال حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون -وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير: بل هو مُحْكَمٌ؛ ومَن ادَّعىٰ النَّسخ فعليه البيان.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ [4] آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ فقيل تقديره: «شهادة اثْنَيْن»، حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مَقامه. وقيل: دَلَّ الكلام علىٰ تقدير: أَن يشهد اثنان.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأَن يكونا عَدْلَيْنِ.

وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: مِن المسلمين. قاله الجمهور. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: رُوي عن عَبِيدة، وسعيد بن

---

(١) كذا في (ز): كنيسة مسجد دمشق. والذي في المطبوعات: كنيسة دمشق. فإنهم استشكلوا هذا اللفظ فحذفوا كلمة (مسجد) والذي في المخطوطة هو الصواب فإن مسجد دمشق (المسجد الأموي) كان كنيسةً حين فتح المسلمون دمشق، فأخذوا نصفه عنوة ونصفه صلحًا، فصار نصفه مسجدًا ثم كله وبقي علىٰ هيئته حتىٰ هدمه الوليد بن عبد الملك وبناه مسجدًا.

(٢) العَصْب: ضرب من برود اليمن، سمي عصبًا؛ لأن غزله يعصب؛ أي: يدرج، ثم يصبغ، ثم يحاك. ولا يجمع، إنما يقال: برد عصب، وبرود عصب.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٩٢٤)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه.

(٤) لوحة (١٠ ب).

المسيب، والحسن، ومجاهد، ويحيىٰ بن يَعْمُر، والسُّدِّي، وقتادة، ومُقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عنىٰ: ذلك ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن حَي الموصي. وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدَّة غيرهما.

وقوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا سعيد بن عَوْن، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدَّثنا حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عبَّاس في قوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب[١].

ثم قال: وروي عن عَبِيدة، وشُرَيْح، وسعيد بن المسيب، ومحمَّد بن سيرين، ويحيىٰ بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، وإبراهيم النَّخَعِي، وقتادة، وأبي مِجْلَز، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وعلىٰ ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: المراد من قبيلة الموصي، يكون المراد هاهنا: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: مِن غير قبيلة الموصي. وقد روي عن ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري، والزهري رحمهما الله.

وقوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافرتم، ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ وهذان شرطان لجواز اسْتِشْهَاد الذِّمِّيِّين عند فقد المؤمنين، أن يكون ذلك في سفرٍ، وأن يكون في وصيةٍ، كما صرَّح بذلك شريح القاضي.

قال ابن جرير: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا أبو معاوية ووَكِيع قالا: حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنَّصْرَانِيِّ إلا في سفرٍ، ولا تجوز في سفرٍ إلا في وصيَّةٍ[٢].

ثم رواه عن أبي كُرَيْب، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: قال شريح فذكر مثله.

وقد روي مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذِّمَّة علىٰ المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضًا[٣].

وقال ابن[٤] جرير: حدَّثنا عمرو بن علي، حدَّثنا أبو داود، حدَّثنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري قال: مضت السُّنَّة أنَّه لا تجوز شهادةُ كافرٍ في حضرٍ ولا سفرٍ، إنَّما هي في المُسْلِمِين. وقال ابن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٩٣٤).

(٢) صحيح: رواه الطبري (٧/ ١٠٤)، والبيهقي (١٠/ ١٦٦)، ووكيع في «أخبار القضاة» (٢/ ٢٨١) وابن أبي شيبة (٧/ ٩١)، وسعيد بن منصور في «تفسيره» (٨٥١).

(٣) قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلمة ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ تشمل كل مِلَل الكفر، وإن كانت القضية وردت في اثنين من كتب أهل الكتاب لكن العبرة بعموم اللفظ، ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾؛ يعني: سواءً كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم.

(٤) لوحة (١١ أ).

زيد: نزلت هذه الآية في رجل تُوُفِّي وليس عنده أحدٌ من أهل الإسلام، وذلك في أوَّل الإسلام، والأرض حرب، والنَّاس كفَّار، وكان النَّاس يتوارثون بالوصيَّة، ثم نُسِخَت الوصيَّة وفُرِضَت الفرائض، وعَمِل النَّاس بها.

رواه ابن جرير، وفي هذا نظر[(١)]، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ هل المراد به أن يُوصِي إليهما، أو يشهدهما؟ علىٰ قولين:

أحدهما: أَن يوصي إليهما، كما قال [محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط قال: سئل ابن مسعود ﷺ عن هذه الآية قال:][(٢)] هذا رجلٌ سافَر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين[(٣)].

رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنَّهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجْتَمَع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تَمِيم الداري، وعَدِيِّ بن بَدَّاء، كما سيأتي ذكرها آنفًا، إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابنُ جرير كونهما شاهدين، قال: لأنا لا نعلم حُكْمًا يَحْلِفُ فيه الشاهد. وهذا لا يَمْنَع الحكم الذي تَضَمَّنته هذه الآية الكريمة، وهو حكمٌ مستقلٌّ بنفسه، لا يلزم أن يكون جاريًا علىٰ قياس جميع الأحكام، علىٰ أن هذا حكمٌ خاصٌّ بشهادةٍ خاصَّةٍ في محلٍّ خاصٍّ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قَرَائِن الرِّيبة حلف هذا الشاهد بمُقْتَضَىٰ ما دلَّت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال [العوفي، عن][(٤)] ابن عبَّاس: يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، وقتادة، وعِكْرِمة، ومحمَّد بن سيرين. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السُّدِّي، عن ابن عبَّاس: يعني صلاة أهل دينهما.

والمقصود: أن يُقَام هذان الشَّاهِدَان بعد صلاةٍ اجتمع النَّاس فيها بحضرتهم، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [أي: فيَحْلِفَان بالله][(٥)] ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: إن ظهرت لَكُم منهما ريبة، أنَّهما قد خانا أو غلَّا فيَحْلِفَان حينئذٍ بالله ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ أي: بأيماننا. قاله مُقاتِل بن حيَّان. ﴿ثَمَنٗا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوضٍ قليل من الدُّنيا الفانية الزائلة، ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريبًا إلينا لا نُحابِيه، ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾[(٦)] أضافها إلىٰ الله تشريفًا لها، وتعظيمًا لأمرها.

---

(١) لأن سورة المائدة مدنية. (٢) سقط من (ز).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٦٩٣١) وإسناده منقطع، وفيه أيضًا محمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (١١ ب).

وقرأ بعضهم: «وَلَا نكتُم شهادةً آللهِ» مجرورًا علىٰ القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي وحُكي عن بعضهم أنَّه قرأ: «ولا نكتُمُ شهادةً الله»، والقراءة الأولىٰ هي المشهورة[١].

﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي: إن فعلنا شيئًا من ذلك، مِن تحريف الشَّهادة، أو تبديلها، أو تغييرها أو كَتْمِهَا بالكليَّة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ أي: فإنِ اشتهَر وظهَرَ وتحقَّق من الشَّاهدين الوَصِيَّين، أنَّهما خَانَا أو غلا شيئًا من المال الموصىٰ به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ [هذه قراءة الجمهور: «اسْتُحِقَّ عليهم الأَوْلَيان». ورُوي عن عليٍّ، وأُبيٍّ، والحسن البصري أنهم قرءوها: ﴿ٱسۡتَحَقَّ[٢] عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ[٣]﴾][٤].

وقد رَوىٰ الحاكم في «المستدرك» من طريق إسحاق بن محمَّد الفَرْوِي، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب؛ أن النَّبيَّ ﷺ قرأ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ [ثم قال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه[٥].

وقرأ بعضهم، ومنهم ابن عبَّاس: «مِنَ الذين اسْتَحَقَّ عليهم الأَوَّلِين»][٦]. وقرأ الحسن: «مِنَ الذين اسْتَحَقَّ عليهم الأَوَّلان»[٧]، حكاه ابنُ جرير[٨].

فعلىٰ قراءة الجمهور يكون المعنىٰ بذلك: أي متىٰ تحقَّق ذلك بالخبر الصحيح علىٰ خيانتهما، فليقم اثْنَان من الوَرَثَةِ المستحقين للتركة، وليكونا مِن أَوْلىٰ مَن يَرِثُ ذَلِكَ المال، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: لَقَوْلُنا: إنَّهما خانا- أحقُّ وأصحُّ وأثبتُ من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما.

وهذا التَّحليف للوَرَثَةِ، والرُّجوع إلىٰ قولهما والحالَة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوْث[٩] في جانب القاتل، فيُقْسِم المُسْتَحِقُّون علىٰ القاتل فيُدْفَع بِرُمَّتِه إليهم، كما هو مقررٌ في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السُّنَّة بمثل ما دَلَّت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا

---

(١) قراءة: قَرَأَ (شَهَادَةً اللهِ) عَلِيٌّ وَنُعَيْمُ بْنُ مَيْسَرَةَ وَالشَّعْبِيُّ بِخِلَافٍ عَنْهُ، وَرُوِيَ (شَهَادَةً آللهِ) عَنْ عَلِيٍّ وَالسُّلَمِيِّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (شَهَادَةَ اللهِ).

(٢) متواترة: قَرَأَ (اسْتَحَقَّ) حفصٌ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (اسْتُحِقَّ).

(٣) متواترة: قَرَأَ (الْأَوَّلِينَ) شُعْبَةُ وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ (الْأَوَّلَانِ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (الْأَوْلَيَانِ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) «مستدرك الحاكم» (٢/ ٢٣٧)، وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٦) سقط من (ز).

(٧) شاذة: سبق التعليق عليها (ص ٢٩٥).

(٨) انظر الطبري (٧/ ١٢١).

(٩) اللوث عند الشافعي: شبه الدلالة، ولا يكون بينةً تامةً. وفي حديث القسامة ذكرُ اللوثِ، وهو: أن يشهد شاهدٌ واحدٌ علىٰ إقرار المقتول قبل أنْ يموت أن فلانًا قتلني، أو يشهد شاهدان علىٰ عداوةٍ بينهما أو تهديد منه له أو نحو ذلك. «اللسان»: لوث.

الحسين بن زياد، حدَّثنا محمَّد بن سلمة، عن محمَّد بن إسحاق، عن أبي النضر، عن باذام -يعني: أبا صالح مولىٰ أم هانئ بنت أبي طالب- عن ابن عبَّاس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ قال: بَرئ الناس منها غيري وغير عَديٍّ بن بَدَّاء. وكانا نصرانيين، يختلفان إلىٰ الشَّام قبل الإسلام، فأتيا الشام لِتجَارَتِهِمَا وقدم عليهما مولىٰ لبني سهم، يقال له: بُدَيْل بن أبي مريم، بتجارة ومعه جام من فضة[1] يريد به الملك، وهو عُظْم تجارته. فمرض فأوصىٰ إليهما، وأَمَرَهُما أن يبلِّغا ما ترك أهله -قال تميم: فلمَّا مات أخذنا ذلك الجام، فبِعْنَاه بألف درهم، ثُمَّ اقْتَسَمْنَاه أنا وعدي بن بدَّاء. فلما قَدِمْنَا إلىٰ أهله دَفَعْنَا إليهم ما[2] كان معنا. وفقدوا الجَامَ فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره- قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النَّبيِّ ﷺ المدينة تأثَّمْت من ذلك، فأَتَيْتُ أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة دِرْهَم، وأخبرتهم أنَّ عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه فأمرهم أن يَسْتَحْلِفُوه بما يعظم به علىٰ أَهْل دينه، فحلف فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العَاصِ ورجلٌ آخر منهم فحلفا، فنزعَتِ الخمسمائة مِن عَدي بن بَدَّاء[3].

وهكذا رواه أبو عيسىٰ الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحَرَّاني، عن محمَّد بن سلمة، عن محمَّد بن إسحاق به فذكره -وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيِّنَة فلم يجدوا، فأمرهم أن يَسْتَحْلِفُوه بما يُعَظَّم به علىٰ أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخرٌ، فحَلَفَا. فَنزعَتِ الخمسمائة من عدي بن بَدَّاء.

ثم قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وليس إسناده بصحيح، وأبو النَّضر الَّذي روىٰ عنه محمَّد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمَّد بن السَّائب الكلبي[4]، يكنىٰ أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث، وهو صاحب التَّفسير، سمعت محمَّد بن إسماعيل يقول: محمَّد بن السائب الكلبي، يكنىٰ أبا النضر، ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النَّضر رواية عن أبي صالح مولىٰ أم هانئ، وقد رُوي عن ابن عبَّاس شيءٌ من هذا علىٰ الاختصار مِن غير هذا الوجه.

حدَّثنا سفيان بن وَكِيع، حدَّثنا يحيىٰ بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن محمَّد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبَير، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريِّ

---

(١) الجام: إناء، وعُظْم؛ أي: معظم أموال تجارته هذا الإناء؛ يعني: أنه كان أنفسها.

(٢) لوحة (١٢ أ).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٣٠)، والترمذي (٣٠٥٩) من طريق أبي النضر وهو محمَّد بن السائب الكلبي: متروك. وشيخه باذام: ضعيف كما في «التقريب»، ومحمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، وكذا ضعفه الترمذي.

(٤) في (ز): الكندي. وهو خطأ.

وعديٍّ بن بَدَّاء، فمات السَّهمي بأرضٍ ليس فيها مسلم، فلما قدما بتَرِكَتِهِ فقدوا جامًا مِن فضة مُخَوَّصًا بالذهب[(١)]، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووَجُدوا الجَامَ بمكَّة، فقيل: اشتريناه مِن تميم وعديٍّ. فقام رجلان مِن أولياء السَّهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحقُّ مِن شهادتهما، وأنَّ الجام لِصَاحبهم. وفيهم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾[(٢)].

وكذا رواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن[(٣)] يحيىٰ بن آدم به. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وهو حديث ابن أبي زائدة.

ومحمَّد بن أبي القاسم، كوفي، قيل: إنه صالح الحديث، وقد ذكر هذه القصة مرسلةً غيرُ واحدٍ من التَّابعين[(٤)] منهم: عكرمة، ومحمَّد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسلةً: مجاهد، والحسن، والضَّحَّاك. وهذا يدل علىٰ اشتهارها في السلف وصحتها.

ومِن الشَّواهد لِصِحَّة هذه القصة أيضًا ما رواه أبو جعفر بن جرير:

حدَّثني يعقوب، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا زكريا، عن الشعبي؛ أنَّ رجلًا من المسلمين حضرَتْهُ الوفاة[(٥)] بدَقُوقَا[(٦)]، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المُسْلِمِين يشهده علىٰ وَصِيَّتِهِ، فأشهد رَجُلَين مِن أهل الكتاب. قال: فقَدِمَا الكوفة، فأتيا الأشعري -يعني: أبا موسىٰ الأشعري ﷺ- فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمرٌ لم يكُن بعد الذي كان في عهد النَّبيِّ ﷺ قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خَانا ولا كَذَبا ولا بَدَّلا ولا كَتَما ولا غيَّرا، وإنَّها لوصيةُ الرَّجل وتركته قال: فأمضىٰ شهادتهما[(٧)].

ثم رواه عن عمرو بن علي الفَلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي؛ أنَّ أبا موسىٰ قضىٰ بِدقُوقَا.

وهذان إسنادان صحيحان إلىٰ الشَّعْبِيِّ، عن أبي موسىٰ الأشعري.

فقوله: هذا أمرٌ لم يكُن بعد الَّذي كان في عهد رسول الله ﷺ: الظَّاهر -والله أعلم- أنه إنما أراد بذلك قصة تَمِيم وعديٍّ بن بَدَّاء، قد ذكروا أنَّ إسلام تَمِيم بن أوْسٍ الدَّاري ﷺ كان في سنةِ تسعٍ مِن الهجرة فعلىٰ هذا يكون هذا الحكم متأخرًا، يَحْتَاج مُدَّعِي نسخه إلىٰ دليلٍ فاصلٍ في هذا المقام، والله أعلم.

---

(١) أي: منقوشًا فيه خطوط دقاق طوال كالخوص.

(٢) الترمذي (٣٠٦٠)، ورواها البخاري (٢٧٨٠)، وأبو داود (٣٦٠٦) وفيها سبب نزول الآية.

(٣) في (ز): الحسن بن علي بن يحيىٰ. (٤) لوحة (١٢ ب).

(٥) في (ز): الصلاة والمثبت من «الطبري». (٦) دقوقًا، ودقوقاء: مدينة بين إربل وبغداد.

(٧) صحيح: رواه الطبري (٧/ ٧١ برقم ١٢٩٤٨) والبيهقي (١٠/ ١٧٧)، وابن حزم في «المحلىٰ» (١٠/ ٥٨٩) وعبد الرزاق في «المصنف» (٨/ ٣٦٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٩١)، والحاكم (٢/ ٣١٤) وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وقال أسباط عن السُّدِّي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يُوصِي ويُشهد رجلين من المسلمين علىٰ ما له وما عليه، قال: هذا في الحضر، ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ في السَّفَرِ، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ هذا الرَّجُل يُدْرِكُه الموت في سَفَرِه، وليس بحضرته أحدٌ من المسلمين، فيَدْعُو رجلين من اليهود والنَّصارىٰ والمجوس، فيوصي إليهما، ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعَرَفُوا مال صاحبهم تَركوا الرَّجلين، وإن ارتابوا رفعوهما إلىٰ السُّلطان. فذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾.

قال عبد الله بن عبَّاس: كأني أنظر إلىٰ العلْجين[1] حين انتُهي بِهِمَا إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري في دَارِه، ففتح الصَّحِيفَة، فأنكر أهل الميت وخَوَّنوهما، فأراد أبو موسىٰ أن يستحلفهما[2] بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دِينِهما، فيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دِينِهما، فيحلفان بالله لا نشتري به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قربىٰ، ولا نكتم شهادة الله إنَّا إذًا لمن الآثمين: إنَّ صاحبهم لَبِهَذَا أوصىٰ، وإن هذه لتركته. فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنَّكما إن كَتَمْتُمَا أو خُنْتُما فَضَحْتُكُما في قومكما، ولم تجز لكما شَهادَةٌ، وعَاقَبْتُكُمَا. فإذا قال لهما ذلك، فإن ذلك أدنىٰ أن يأتوا بالشهادة علىٰ وجهها. رواه ابن جرير[3].

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم وسعيد ابن جبير، أنهما قالا في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ الآية، قالا: إذا حضر الرجل الوَفَاة في سفرٍ، فليُشهِد رجلينِ من المسلمين، فإن لم يَجِد رجلين من المسلمين فرَجُلَيْن مِن أهل الكتاب، فإذا قَدِمَا بتَرِكَتِهِ فإنْ صدقهما الورثة قُبل قولهما، وإن اتَّهَمُوهُما أحلفا بعد صلاة العصر بالله ما كتمنا ولا كَذَبْنا ولا خُنَّا ولا غَيَّرنا[4].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية: فإنِ ارتيب في شهادتهما اسْتُحْلِفَا بعد الصلاة بالله ما اشترينا بشَهَادَتِنَا ثمنًا قليلًا. فإنِ اطَّلَع الأولياء علىٰ أنَّ الكافرَيْنِ كذَبَا في شهادتهما، قامَ رجلان مِن الأولياء فحلفا بالله: أنَّ شهادة الكَافِرَيْنِ باطلةٌ، وإنا لم نعتدِ، فذلك قوله: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ يقول: إنِ اطَّلع علىٰ أن الكافرين كذَبَا، ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحَلَفَا بالله: أنَّ شهادة الكافرين باطلةٌ، وإنَّا لم نَعْتَدِ، فترد شهادة الكافرَيْن، وتجوز شهادةُ الأولياء[5].

وهكذا روىٰ العَوْفي، عن ابن عبَّاس. رواهما ابن جرير.

---

(١) العِلْج: الرجل من كفار العجم.
(٢) لوحة (١٣ أ).
(٣) انظر الطبري (٧/ ١٠٨)، (٧/ ١١٠).
(٤) انظر الطبري (٧/ ١٠٨)، (٧/ ١١٠).
(٥) انظر الطبري (٧/ ١٠٩)، وإسناده منقطع.

وهكذا قرَّر هذا الحكم علىٰ مقتضىٰ هذه الآية غيرُ واحدٍ من أئمَّة التَّابعين والسَّلف ﷺ، وهو مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: شرعية هذا الحكم علىٰ هذا الوجه المرضي [مِن تحليف الشاهدين الذِّمِّيَّين وقد اسْتُريب بهما- أقرب إلىٰ إقامتهما الشهادة علىٰ الوَجْه المرضي] (١).

وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: يكون الحَامِل لهم علىٰ الإتيان بالشَّهادة علىٰ وَجْهِهَا، هو تعظيم الحَلِف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوفِ مِن الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمين علىٰ الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدَّعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: وأَطِيعُوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ (٢) أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ (٣)

وهذا إخبارٌ عما يُخاطِب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أُجِيبُوا به من أُمَمِهِم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ قال مجاهد، والحسن البصري، والسُّدِّي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فيفْزَعُون فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حُمَيْد، حدَّثنا حَكَّام، حدَّثنا عَنْبَسَة قال: سَمِعْتُ شيخًا يقول: سمعت الحسن يقول في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآية، قال: مِن هولِ ذلك اليوم.

وقال أسباط، عن السُّدِّي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ذلك: أنهم نزلوا منزلًا ذَهِلَت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ثم نزلوا منزلًا آخر، فشهدوا علىٰ قومهم. رواه ابن جرير.

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا الحجاج، عن ابن جُرَيْج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أَحْدَثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٣ ب).

(٣) قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الرازي: اعلم أن عادة الله تعالىٰ جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعًا كثيرةً من الشرائع والتكاليف والأحكام، أتبعها إما بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال القيامة؛ ليصير ذلك مؤكدًا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع. فلا جرم، لما ذَكَرَ -فيما تقدم- أنواعًا كثيرةً من الشرائع، أتبعها بوصف أحوال القيامة.

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ يقولون للرَّب عَجَّلِكَ: لا عِلْم لنا، إلا عِلْم أنت أعلم به منا.

رواه ابن جرير. ثم اختاره علىٰ هذه الأقوال الثلاثة، ولا شَكَّ أنَّه قولٌ حسنٌ، وهو من باب التأدب مع الرب عَجَّلِكَ؛ أي: لا علم لنا بالنسبة إلىٰ علمك المحيط بِكُلِّ شيءٍ، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرفنا مَن أجابنا، ولكن منهم من كنا إنَّما نطلع علىٰ ظَاهِرِه، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيءٍ، المُطَّلِع علىٰ كلِّ شيءٍ. فعلمُنا بالنِّسبة إلىٰ عِلْمِكَ كَلَا عِلْم، فإنك ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يذكر تعالىٰ [1] ما امْتَنَّ به علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما أجراه علىٰ يديه من المُعْجِزات وخوارق العادات، فقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ أي: في خَلْقِي إيَّاك من أمٍّ بلا ذكرٍ، وجعلي إيَّاك آيةً ودلالةً قاطعةً علىٰ كمال قُدْرَتي علىٰ الأشياء، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جَعلتُكَ لها برهانًا علىٰ بَرَاءَتِها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها مِن الفاحشة، ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعلتك نبيًّا داعيًا إلىٰ الله في صِغَرِكَ وكِبَرِك، فأنطقتك في المهد صغيرًا، فشهدتَ ببراءة أُمِّك مِن كلِّ عيبٍ، واعترفتَ لي بالعبودية، وأخبرتَ عن رسالتي إياك ودعوتك إلىٰ عِبَادَتِي؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ أي: تدعو إلىٰ الله النَّاس في صِغَرِك وكِبَرِك. وضمن ﴿تُكَلِّمُ﴾ تدعو؛ لأنَّ كلامه الناسَ في كهولته ليس بأمرٍ عجيبٍ.

وقوله: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: الخطَّ والفهم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ وهي المنزلة علىٰ موسىٰ بن عمران الكليم، وقد يَرِدُ لفظ التوراة في الحديث ويُرَاد به ما هو أعم من ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ أي: تُصَوِّرُه وتُشَكِّله علىٰ هيئة الطائر بإذني لك في ذلك فيكون طائرًا بإذني؛ أي: فتنفخ في تلك الصُّورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيرًا ذا روحٍ بإذن الله وخلقه.

---

(١) لوحة (١٤ أ).

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدَّم الكلام علىٰ ذلك في سورة آل عمران بما أغنىٰ عن إعادته.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي: تدعوهم فيقومُون مِن قبورهم بإذن الله وقُدْرَتِه، وإرادته ومَشِيئَتِه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مالك بن إسماعيل، حدَّثنا محمَّد بن طلحة -يعني ابن مُصَرِّف- عن أبي بِشْر، عن أبي الهذيل قال: كَان عِيسَىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أراد أن يُحْيِي الموتىٰ صلَّىٰ ركعتين، يقرأ في الأولىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ سورة الملك، وفي الثانية: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [سورة السجدة]. فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنىٰ عليه، ثم دعا بسبعة أسماءَ: يا قديم، يا خفيُّ، يا دائم، يا فرد، يا وتر، يا أحد، يا صمد -وكان إذا أصابته شدة دعا بسبعةٍ أُخَر: يا حيُّ، يا قيُّوم، يا الله، يا رحمَن، يا ذا الجلال والإكرام، يا نُور السَّموات والأرضِ وما بينهما ورب العرش العظيم، يا رب.

وهذا أثرٌ عجيبٌ جدًّا(١)(٢).

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واذْكُر نعمتي عليك في كفِّي إيَّاهم عنك حين جِئْتَهُم بالبراهين والحُجَج القاطعة علىٰ نُبُوَّتِك ورِسَالَتِك من الله إليهم، فكَذَّبوك واتَّهموك بأنَّك ساحرٌ، وسَعَوْا في قتلِك وصَلْبِك، فنَجَّيْتُك منهم، ورفعتك إليَّ، وطَهَّرْتُك مِن دَنَسِهِم، وكَفَيْتُك شرَّهم. وهذا يدل علىٰ أنَّ هذا الامتنان كان من الله إليه بعد أن رفعه إلىٰ السَّماء الدُّنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعًا يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالةً علىٰ وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التي أَطْلَع الله عليها رسوله محمَّدًا ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وهذا أيضًا مِن الامتنان عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا. ثم قيل: المراد بهذا الوحي: وحي إلهامٍ، كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص:٧]، وهذا وحيُ إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآية [النحل:٦٨، ٦٩]. وهكذا قال بعضُ السَّلف في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي: بالله وبرسول الله ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أُلهموا ذلك فامتثلوا ما أُلهموا.

قال الحسن البصري: ألهمهم الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك، وقال السُّدِّي: قَذَفَ في قلوبهم ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك، فدعَوْتَهم إلىٰ الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانْقَادُوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

---

(١) لوحة (١٤ ب).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤١/ ٧٠٠٣)، وإسناده مرسل.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ (١) وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

هذه قصَّة المائدة، وإليها تُنْسب السُّورة فيقال: «سورة المائدة». وهي ممَّا امْتَنَّ الله به علىٰ عبدِهِ ورسولِهِ عيسىٰ عليه السلام لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آيةً ودلالةً معجزةً باهرةً وحُجَّةً قاطعةً.

وقد ذكر بعض الأئمَّة أن قصة المائدة ليست مذكورةً في الإنجيل، ولا يعرفها النصارىٰ إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسىٰ عليه السلام: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذِهِ قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: [«هل تَسْتَطيعُ رَبَّكَ»(٢) أي:](٣) هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

والمائدة هي: الخِوَان عليه طعام. وذكر بعضهم أنَّهم إنما سألوا ذلك لِحَاجَتِهِم وفقرهم، فسألوا أن يُنَزِّلَ عليهم مائدةً كل يوم يَقْتَاتُون منها، ويَتَقَوَّون بها علىٰ العبادة(٤).

قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فأجابهم المسيح عليه السلام قائلًا لهم: اتَّقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعسَاه أن يكون فتنة لكم، وتوكَّلوا علىٰ الله في طلبِ الرِّزق إن كنتم مؤمنين.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي: نحن محتاجون إلىٰ الأَكْلِ منها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السَّماء، ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك، ﴿وَنَكُونَ

---

(١) لوحة (١٥ أ).

(٢) متواترة: قَرَأَ (هَل تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) الْكِسَائِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ).

(٣) سقط من (ز).

(٤) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وهذا ليس منهم عن شكٍّ في قدرة الله، واستطاعته علىٰ ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسىٰ عليه السلام فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ... واعلم أن الله تعالىٰ وعد أنه سينزلها، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل علىٰ ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارىٰ، ولا له وجود. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذُكِّروا به فنسُوهُ، أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلًا وإنما ذلك كان متوارثًا بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفىٰ الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: ونشهد أنَّها آيةٌ مِن عند الله، ودلالةٌ وحُجَّةٌ علىٰ نُبُوَّتِك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ قال السُّدِّي: أي نتخذ ذَٰلِكَ اليوم الَّذِي نزلت فيه عيدًا نُعَظِّمُه نحن ومَنْ بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني: يومًا نُصَلِّي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لِعَقِبِهِم مِن بعدهم، وعن سلمان الفَارِسي: عظة لَنَا ولِمَنْ بَعْدَنا. وقيل: كافية لأَوَّلِنا وآخِرِنَا.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: دليلًا تنصبه علىٰ قدرتك علىٰ الأشياء، وعلىٰ إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: من عندك رزقًا هنيئًا بلا كُلْفَةٍ ولا تعب ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي: فمن كَذَّب بها مِن أُمَّتِكَ يا عيسىٰ وعاندها ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من عَالَمِي زمانكم، كقوله: ﴿وَيَوْمَ[1] تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد روىٰ ابن جرير، من طريق عَوْف الأعرابي، عن أبي المغيرة القوَّاس، عن عبد الله بن عمرو قال: إنَّ أشدَّ النَّاس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومَن كَفَر مِن أصحاب المائدة، وآل فرعون[2].

ذكر أخبار رُوِيَت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

قال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثني حجَّاج، عن لَيْث، عن عقيل، عن ابن عبَّاس: أنَّه كان يحدِّث عن عيسىٰ ابن مَرْيَم أنَّه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصُومُوا لله ثلاثين يومًا، ثم تسألُوهُ فيُعطِيكُم ما سألتم؟ فإنَّ أجْرَ العامل علىٰ مَن عَمِل له، ففعلوا، ثم قالوا: يا مُعَلِّم الخير، قلتَ لنا: إنَّ أجر العامل علىٰ مَن عَمِلَ له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يومًا، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحدٍ ثلاثينَ يومًا إلا أَطْعَمَنا حين نَفْرُغ طعامًا، فهل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّل علينا مائدةً من السَّماء؟ قال عيسىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال: فأَقْبَلَتِ الملائكةُ تَطِيرُ بمائِدةٍ مِن السَّماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتىٰ وَضَعَتْها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل مِنها أوَّلهم[3].

---

(١) لوحة (١٥ ب).

(٢) رجاله ثقات عدا أبا المغيرة القواس فَمُخْتَلَفٌ فيه، رواه الطبري (٧/ ١٣٦).

(٣) رواه ابن جرير (٧/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٧٠)، وفيه ليث بن أبي سليم: اختلط، ولم تتميز أحاديثه فترك. فهذا أثرٌ ضعيفٌ، وأيضًا فأخبار بني إسرائيل عن ابن عبَّاس: لا تصح؛ لأنه ممن أخذ من كتب أهل الكتاب.

كذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وَهْبٍ، عن الليث، عن عُقَيْل، عن ابن شِهاب، قال: كان ابن عبَّاسٍ يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدَّثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدَّثنا أبو زُرْعَة وهب الله بن راشد، حدَّثنا عُقَيْل بن خالد، أن ابن شهابٍ أخبره عن ابن عبَّاس؛ أن عيسىٰ ابن مريم قالوا له: ادْعُ اللَّهَ أَن يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السَّماء، قال: فنزلت الملائكة بمائدةٍ يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أَرْغِفَةٍ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسن بن قَزعَة الباهلي، حدَّثنا سفيان بن حبيب، حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن خِلاس، عن عمار بن ياسر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**نَزَلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَيْهَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ، وَأُمِرُوا أَنْ لا يَخُونُوا وَلا يَرْفَعُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ**»[2].

وكذا رواه ابن جرير، عن[3] الحسن بن قَزَعَة، ثم رواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن ابن أبي عَدِيّ، عن سعيد، عن قتادة، عن خِلاس، عن عمار، قال: نزلت المائدة وعليها ثَمَرٌ مِن ثمار الجنَّة، فأُمِرُوا ألا يخونوا ولا يُخَبِّئُوا ولا يَدَّخِروا. قال: فخان القوم وخَبَّئُوا وادَّخروا، فمسخهم الله قردةً وخنازيرَ[4].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا عبد الأعلىٰ، حدَّثنا داود، عن سِمَاك بن حرب، عن رجلٍ من بني عجل، قال: صَلَّيْت إلىٰ جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدةِ بني إسرائيل؟ قال: قلت: لا. قال: إنَّهم سألوا عيسىٰ ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفَدُ، قال: فقيل لهم: فإنَّها مقيمة لكم ما لم تَخْبَئوا، أو تخونوا، أو ترفعوا، فإن فعلتم فإنِّي معذبكم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، قال: فما مضىٰ يومهم حتىٰ خبَّئوا ورَفَعُوا وخانوا، فعُذِّبُوا عذابًا لم يُعَذَّبه أحد من العالمين. وإنكم -معشر العرب- كنتم تَتَّبِعون أذناب الإبل والشاء، فبعث الله فيكم رسولًا مِن أنفسكم، تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم أنَّكم ستظهرون علىٰ العجم، ونهاكم أن تَكْتَنِزُوا الذهب والفضة. وايم الله، لا يذهب اللَّيل والنَّهار حتىٰ تكنزوهما ويعذبكم الله عذابًا أليمًا[5].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧٠٢٤).

(٢) الترمذي (٣٠٦١)، وابن أبي حاتم (٧٠٢٢)، وابن جرير (٧/ ١٣٤)، ورجح الترمذي وقفه.

قلت: وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنه لا مجال فيه للرأي والاجتهاد.

تنبيه: الآثار الواردة في كيفية نزول واجتماع الناس عليها من طريق وهب بن منبه إنما هي من الإسرائيليات، ويحتاج العلم بصدقها إلىٰ ثبوتها عن النَّبيِّ ﷺ، وقد استغربه الحافظ ابن كثير بعد إيراده.

(٣) لوحة (١٦ أ).

(٤) رجاله ثقات: رواه الطبري (٧/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (٧٠٢٣) موقوفًا علىٰ عمار، ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ١٣٤)، وفيه رجل لم يسم.

وقال: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا حسين، حدَّثني حجاج، عن أبي مَعْشَر، عن إسحاق بن عبد الله، أن المائدة نزلت علىٰ عيسىٰ ابن مريم، عليها سبعة أَرْغِفَةٍ وسَبْعَة أَحْوَاتٍ، يأكلون منها ما شاءوا. قال: فسرق بعضهم منها وقال: «لعلَّها لا تنزل غدًا». فرُفِعت.

وقال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس: نزلت علىٰ عيسىٰ ابن مريم والحواريين، خِوَانٌ عليه خبز وسمك، يأكلون مِنْه أينما نزلوا إذا شَاءوا. وقال خُصَيْف، عن عكرمة ومِقْسَم، عن ابن عبَّاس: كانت المائدة سَمَكَة وأرغفة. وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عَلَيْهِم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة خبزًا وسمكًا. وقال عطية العَوْفِي: المائدة سَمَكٌ فيه طَعْمُ كل شيءٍ.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: أنزلها من السماء علىٰ بني إسرائيل، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثِمَار الجنَّة، فأكلوا ما شاؤوا من ضروبٍ شتَّىٰ، فكان يَقْعُدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم. فلبثوا علىٰ ذلك ما شاء الله ﷻ.

وقال وهب[1] بن مُنَبِّه: نزل عليهم قُرْصةٌ مِن شعير وأحوات، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكَان قومٌ يأكلون ثم يخرجون، ثم يَجِيءُ آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتىٰ أَكَلَ جَمِيعُهُم وأفضلوا.

وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبير: أنزل عليها كلَّ شيءٍ إلا اللَّحم.

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن زاذان ومَيْسَرَة، وجرير، عن عطاء، عن ميسرة قال: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكلِّ طعامٍ إلا اللحم.

وعن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إليَّ، حدَّثنا إسماعيل بن أبي أُوَيْس، حدَّثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مِرْدَاس العبدري -مولىٰ بني عبد الدار- عن إبراهيم بن عمر، عن وهب بن منبه، عن أبي عثمان النَّهْدِي، عن سلمان الخير؛ أنه قال: لما سأل الحواريون عيسىٰ ابن مريم المائدة، كَرِهَ ذلك جدًّا وقال: اقْنَعُوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السَّماء، فإنَّها إن نزلت عليكم كانت آيةً من ربكم، وإنَّما هلكت ثمود حين سألوا نَبِيَّهم آيةً، فابتُلُوا بها حتىٰ كان بَوَارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ الآية.

فلما رأىٰ عيسىٰ أن قد أَبَوْا إلا أن يدعُوَ لهم بها، قام فألقىٰ عنه الصُّوف، ولبس الشعر الأسود، وجُبَّة من شعر، وعباءة من شَعر، ثم توضَّأ واغتسل، ودخل مُصَلَّاه فصَلَّىٰ ما شاء الله، فلما قضىٰ صَلَاتَه قام قائمًا مستقبل القبلة وصَفَّ قَدَمَيْه حتىٰ استويا، فألصق الكعب [بالكعب][2] وحاذىٰ الأصابع، ووضع يده اليُمْنَىٰ علىٰ اليُسْرَىٰ فوق صدره، وغضَّ بصره، وطأطأ رأسه خشوعًا، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تَسِيل علىٰ خَدَّيْه وتقطر من أطراف لِحْيَتِهِ حتىٰ ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأىٰ

---

(١) لوحة (١٦ ب).
(٢) سقط من (ز).

ذلك دعا الله فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأنزل الله عليهم سُفْرَةً حمراء بيْنَ غمامَتيْن: غمامة فوقها وغمامة تحتها، وهم يَنْظُرون إليها في الهواء منقضة مِن فلك السماء تهوي إليهم، وعيسىٰ يبكي خوفًا للشروط التي اتخذها الله عليهم -فيها: أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين- وهو يدعو الله مِن مكانه ويقول: اللَّهمَّ اجعلها رحمةً، إلهي لا تجعلها عذابًا، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا[١] لك شَكَّارين، إلهي أعوذ بك أن تكون أَنْزَلْتَهَا غضبًا وجزاءً، إلهي اجعلها سلامةً وعافيةً، ولا تجعلها فتنةً ومُثْلَةً.

فما زال يدعو حتىٰ استقرت السُّفْرة بين يدي عيسىٰ والحواريين وأصحابه حوله، يَجدون رائحةً طيبةً لم يجدوا فيما مضىٰ رائحة مثلها قط، وخَرَّ عيسىٰ والحواريون لله سجدًا شكرًا بما رزقهم مِن حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آيةً عظيمةً ذاتَ عَجَبٍ وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرًا عجيبًا أورثهم كمدًا وغمًّا، ثم انصرفوا بغَيْظٍ شديدٍ وأقبل عيسىٰ والحواريون وأصحابه حتىٰ جلسوا حول السفرة، فإذا عليها مِنْدِيل مغطًّى. قال عيسىٰ: من أجرؤنا علىٰ كَشْف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وأحسننا بلاءً عند ربه؟ فليكشف عن هذه الآية حتىٰ نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونَأْكُل مِن رزقه الذي رزقنا. فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأَحَقُّنا بالكشف عنها. فقام عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستأنف وضوءًا جديدًا، ثم دخل مصلَّاه فصلَّىٰ كذلك ركعات، ثم بكىٰ بكاءً طويلًا ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولِقَوْمِهِ فيها بركةً ورزقًا، ثم انصرف فجلس إلىٰ السُّفرة وتناول المنديل، وقال: «بِاسْم اللهِ خيرِ الرَّازقين»، وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها سَمَكَةٌ ضخمةٌ مشويةٌ، ليس عليها بواسير، ولَيْس في جوفها شوكٌ، يسيل السَّمْن منها سيلًا قد نُضِّدَ حولها بُقُولٌ من كل صِنف غير الكُرَّاث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها مِلْح، وحول البقول خمسة أرغفة، علىٰ واحد منها زيتون، وعلىٰ الآخر ثمرات، وعلىٰ الآخر خمس رمانات.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسىٰ: يا روح الله وكلمته، أَمِن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال: أمَا آنَ لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتَنْتَهُوا عن تنقير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تُعَاقَبوا في سبب نزول هذه الآية! فقال شمعون: وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالًا يا ابن الصِّدِّيقة. فقال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ليس شيء مما ترون مِن طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنَّما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقُدْرَة العالية القاهرة، فقال له: كن؛ فكان أسرع مِن طرفة عين، فكلوا مما سألتم باسم الله، واحمدوا عليه ربكم يُمدَّكم منه ويَزِدْكم، فإنه بديع قادر شاكر.

فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنَّا نحب أن تُرِينا آيةً في هذه الآية. فقال عيسىٰ: سبحان الله! أما اكتفيتم بما[٢] رأيتم في هذه الآية حتىٰ تسألوا فيها آية أخرىٰ؟ ثم أقبل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ السمكة، فقال: يا سمكة،

عودي بإذن الله حيَّةً كما كنتِ. فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادَتْ بإذن الله حيَّةً طريَّةً، تَلَمَّظ كما يتلمَّظ الأسد، تدُورُ عيناها لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها. ففزع القوم منها وانحازوا. فلما رأىٰ عيسىٰ ذلك منهم قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أَرَاكُمُوها ربُّكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة، عُودِي بإذن الله كما كنت. فعادت بإذن الله مشويَّةً كما كانت في خلقها الأول.

فقالوا لعيسىٰ: كُن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد، فقال عيسىٰ: معاذ الله من ذلك! يَبْدَأ بِالأَكْلِ مَن طلبها. فلما رأىٰ الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها، خافوا أن يكون نزولها سَخْطة وفِي أكلها مُثْلَةٌ، فتحاموها. فلما رأىٰ ذلك عيسىٰ دعا لها الفقراء والزَّمْنىٰ[1]، وقال: كلوا مِن رزق ربكم، ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم، فيكون مَهْنَؤُها لكم، وعقوبتها علىٰ غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله، واخْتِمُوه بحمد الله، ففعلوا، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجلٍ وامرأةٍ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسىٰ والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت مِن السَّماء، لم ينتقص منها شيء، ثم إنَّها رُفِعَت إلىٰ السماء وهم ينظرون، فاستغنىٰ كل فقيرٍ أَكَلَ منها، وبرئ كل زَمِنٍ أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صِحَاحًا حتىٰ خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريون وأَصْحَابُهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامةً، سالت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها في قُلُوبِهِم إلىٰ يوم الممات، قال: فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها مِن كلِّ مكانٍ يسعون يزاحم بعضهم بعضًا: الأغنياء والفقراء، والصغار والكبار، والأصحاء والمرضىٰ، يركب بعضهم بعضًا. فلما رأىٰ ذلك جعلها نوائب، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا. فلبثوا في ذلك أربعين يومًا، تنزل عليهم غِبًّا[2] عِنْدَ ارْتِفَاع الضُحَىٰ فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتىٰ إذا قاموا ارتفعت عنهم. بإذن الله إلىٰ جَوِّ السَّماء، وهم ينظرون إلىٰ ظِلِّهَا في الأرضِ حتىٰ توارىٰ عنهم.

قال: فأوحىٰ الله إلىٰ نبيه عيسىٰ عليه السلام أن اجعل رزقي المائدةَ لليَتَامَىٰ والفقراء والزَّمنَىٰ دون الأغنياء مِن النَّاس، فلمَّا فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من النَّاس، وغَمطُوا[3] ذلك، حتىٰ شَكُّوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها[4] الناس، وأذاعوا في أَمْرِها القبيحَ والمنكرَ، وأدرك الشيطان منهم حَاجَتَه، وقذف وسواسه في قلوب المُرْتَابِين حتىٰ قالوا لعيسىٰ: أخبرنا عن المائدة، ونزولها مِن السماء أحقٌّ، فإنه قد ارتاب بها بشرٌ منا كثير؟ فقال عيسىٰ عليه السلام: هلكتم وإله المسيح! طلبتم المائدةَ إلىٰ نبيكم أن يطلبها لكم إلىٰ ربكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمةً ورزقًا، وأراكم فيها الآيات والعبَر كذَّبْتم بها، وشككتم فيها، فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله.

---

(١) أي: المرضىٰ أصحاب العاهات. (٢) الغب: المرة بعد المرة، وليس متواليًا. ينظر: «اللسان»: غبب.

(٣) غمط النعمة -كسمع وضرب-: بطرها ولم يشكرها وحقرها.

(٤) لوحة (١٨ أ).

وأوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ: إنِّي آخذ المكذبين بشرطي، فإنِّي معذب منهم مَن كفر بالمائدة بعد نزولها عذابًا لا أُعَذِّبُه أحدًا من العالمين. قال: فلما أمسىٰ المُرْتَابُون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورةٍ مَعَ نِسَائِهِم آمنين، فلما كان في آخر الليل مَسَخَهُم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكُنَاسَات[١].

هذا أثرٌ غريبٌ جدًّا. قَطَّعَه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتمَّ وأكملَ، والله ﷻ أعلم.

وكل هذه الآثار دالَّةٌ علىٰ أنَّ المائدة نزلت علىٰ بني إسرائيل أيَّام عيسىٰ ابن مريم إجابةً من الله لدعوته، وكما دلَّ علىٰ ذلك ظاهر هذا السِّياق مِن القرآن العظيم: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية.

وقد قال قائلون: إنَّها لم تنزل. فروىٰ لَيْث بن أبي سليم، عن مجاهد في قوله: ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: هُو مَثَلٌ ضُرِب، ولم ينزل شيء.

رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. ثم قال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا القاسم -هو ابن سلام- حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد قال: مائدةٌ عليها طعام، أَبَوْها حين عرض عليهم العذاب إِن كفروا، فأبوا أن تَنزل عليهم.

وقال أيضًا: حدَّثنا ابن المثنىٰ، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن؛ أنه قال في المائدة: لَمْ تَنْزِلْ.

وحدَّثنا بِشْر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل.

وهذه أسانيد صحيحة إلىٰ مجاهد والحسن، وقد يتقوىٰ ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارىٰ وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي علىٰ نقله، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم. ولكن [الذي عليه][٢] الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالىٰ أخبر بنزولها بقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا[٣] عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا القول هو -والله أعلم- الصواب، كما دلَّت عليه الأخبار والآثار عن السَّلف وغيرهم. وقد ذكر أهلُ التَّاريخ أنَّ موسىٰ بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المَائِدة هنالك مُرَصَّعةً باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلىٰ أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلىٰ أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها النَّاس وتعجَّبُوا منها

---

(١) رواه ابن أبي حاتم مقطعًا (٧٠١٩، ٧٠٢٠، ٧٠٢٩، ٧٠٣٤، ٧٠٣٩، ٧٠٤٢، ٧٠٥٩). ورجاله ثقات عدا عبد القدوس لم أعرفه.

(٢) سقط من (ز).

(٣) لوحة (١٨ ب).

كثيرًا لما فيها مِن اليواقيت النفيسة والجواهر اليَتِيمَة. ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن سلمة بن كُهَيْل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عبَّاس قال: قالت قريش للنَّبيِّ ﷺ: ادعُ لنا ربَّك أَن يجعل لنا الصَّفا ذهبًا ونُؤْمِن بك قال: «وَتَفْعَلُونَ؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إنَّ ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصَّفا ذهبًا، فمَن كفر مِنهُم بعد ذلك عذَّبْتُه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التَّوبة والرحمة. قال: «بَلْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»[(١)].

ثم رواه أحمد، وابن مردويه، والحاكم في «مستدركه»، من حديث سفيان الثوري به.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ[(٢)] ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

هذا أيضًا مما يُخَاطِب الله تعالىٰ به عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضْرَةِ مَن اتَّخذه وأُمَّه إلهين مِن دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ وهذا تهديدٌ للنَّصارىٰ وتوبيخٌ وتقريعٌ علىٰ رُءُوس الأشْهَاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وقال السُّدِّي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا.

قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رَفَعَه الله إلىٰ سماء الدُّنْيا[(٣)]. واحتج ابن جرير علىٰ ذلك بمعنيين:

أحدهما: أنَّ لفظ الكلام لفظ المضي.

والثاني: قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ و﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وهذان الدَّليلان فيهما نظر؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذُكِر بلفظ المضي؛ ليدل علىٰ الوقوع والثبوت. ومعنىٰ قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: التبري منهم وردُّ

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٤٢)، والحاكم (٢/ ٣١٤)، وانظر سورة الإسراء الآية (٥٩).
(٢) قال القاسمي رحمه الله: دلت الآية علىٰ أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوي، ونقلهم إلىٰ البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم.
(٣) لوحة (١٩ أ).

المَشِيئَة فيهم إلىٰ الله، وتعليق ذلك علىٰ الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات.

والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائنٌ يوم القيامة؛ ليدل علىٰ تهديد النَّصارىٰ وتقريعهم وتوبيخهم علىٰ رءُوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله، مولىٰ عمر بن عبد العزيز، وكان ثقةً، قال: سَمِعْتُ أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دُعِيَ بِالأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ، ثُمَّ يُدْعَىٰ بِعِيسَىٰ فَيُذَكِّرُهُ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، فَيُقِرُّ بِهَا، فَيَقُولُ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠] ثُمَّ يَقُولُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ فَيُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ، فَيُؤْتَىٰ بِالنَّصَارَىٰ فَيُسْأَلُونَ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هُوَ أَمَرَنَا بِذَلِكَ، قَالَ: فَيُطَوَّلُ شَعْرُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَأْخُذُ كُلُّ مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ بِشَعْرَةٍ مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ وَجَسَدِهِ. فَيُجَاثِيهِمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِقْدَارَ أَلْفِ عَامٍ، حَتَّىٰ تُرْفَعَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيُرْفَعَ لَهُمُ الصَّلِيبُ، وَيُنْطَلَقَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ»(١)، وهذا حديث غريب عزيز.

وقوله: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتَّأدُّب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن عمرو، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: يُلَقَّىٰ عيسىٰ حجته، ولقَّاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ قال أبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ: «فَلَقَّاهُ الله(٢): ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾» إلىٰ آخر الآية(٣).

وقد رواه الثوري، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن طاوس بنحوه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ أي: إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفىٰ عليك شيءٌ مما قلته ولا أردته في نفسي [ولا أضمرته؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾](٤) ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟(٥) ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: [ما دعوتهم إلا إلىٰ الَّذِي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي:](٦) هذا هو الذي قُلتُ لهم، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [أي: كُنتُ أشهد علىٰ أعمالهم حين كنت بين

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٣٦)، فيه مولىٰ لعمر مجهول، والوليد بن مسلم: مدلس تدليس تسوية، وروح ابن جناح: ضعيف.

(٢) لقاه الشيء: ألقاه إليه، والمعنىٰ: أن الله تعالىٰ أقدره علىٰ أن يجيب بما أجاب به.

(٣) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٧٠٥٢)، ورواه الترمذي (٣٠٦٢)، ورجاله ثقات.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (١٩ ب). (٦) سقط من (ز).

أظهرهم،] (١) ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا شُعْبَة، قال: انطلقت أنا وسفيان الثوري إلىٰ المغيرة بن النعمان فأَمْلَاهُ علي سفيان وأنا معه، فلما قام انْتَسَخْتُ مِن سفيان، فحدَّثنا قال: سمعت سعيد بن جبير يُحَدِّث عن ابن عبَّاس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعِظَةٍ، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلَائِقِ يُكْسَىٰ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا وَإِنَّه يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ: أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ» (٢).

ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد، عن شعبة، وعن محمَّد بن كثير، عن سفيان الثوري، كلاهما عن المغيرة بن النعمان به.

وقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمَّن رد المشيئة إلىٰ الله ﷻ، فإنَّه الفعَّال لما يشاء، الذي لا يُسْأَل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التَّبرِّي من النَّصارىٰ الذين كذبوا علىٰ الله، وعلىٰ رسوله، وجَعَلُوا لله ندًّا وصاحبةً وولدًا، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وهذه الآية لها شأنٌ عظيمٌ ونبأٌ عجيبٌ، وقد ورد في الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ قام بها ليلةً حتىٰ الصباح يرددها.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن فُضَيْل، حدَّثني فُلَيت العامري، عن جَسْرة العامرية، عن أبي ذر ﷺ قال: صلىٰ رسول الله ﷺ ليلةً فقرأ بآيةٍ حتَّىٰ أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلمَّا أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتىٰ أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي، فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» (٣).

[طريق أخرىٰ وسياق آخر:] (٤) قال أحمد: حدَّثنا يحيىٰ، حدَّثنا قُدَامة بن عبد الله، حدثتني

---

(١) سقط من (ز).

(٢) البخاري (٤٦٢٥)، وأبو داود الطيالسي (٢٦٣٨).

(٣) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ١٤٩)، والنسائي (٢/ ١٧٧)، وابن ماجة (١٣٥٠)، وفيه جسرة بنت دجاجة، قال الحافظ: مقبولة - يعني: إذا توبعت-، وقال البخاري: عندها عجائب.

(٤) في (ز): وقال أخرىٰ.

جَسْرة بنت دجاجة: أنَّها انطلقت معتمرةً، فانتهت إلىٰ الربذة، فسمعت أبا ذرٍّ يقول: قام رسول الله ﷺ ليلةً من الليالي في صلاة العشاء، فصلَّىٰ بالقوم، ثم تخلف أصحابٌ له يُصلُّون، فلما رأىٰ قيامهم وتخلفهم انصرف إلىٰ رَحْلِهِ، فلما رأىٰ القوم قد أخلوا المكان رجع إلىٰ مكانه(١) فصلَّىٰ، فجئْتُ فقُمْتُ خلفَهُ، فأَوْمَأَ إليَّ بيمينه، فقمت عن يَمِينِهِ. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه، فأومأ إليه بشِمَالِهِ، فقام عن شماله، فقُمْنَا ثلاثتنا يُصَلِّي كل واحدٍ منَّا بنفسه، ويتلُو مِن القرآن مَا شاء الله أن يتلو. وقام بآيةٍ مِن القرآن يرددها حتىٰ صَلَّىٰ الغداة، فلما أصبحنا أومأت إلىٰ عبد الله بن مسعود أَن سَلْهُ ما أراد إلىٰ ما صنع البَارِحَة؟ فقال ابن مسعود بِيَدِه(٢)(٣) لا أسأله عن شيءٍ حتىٰ يحدث إليَّ، فقلت: بأبي أنت وأُمِّي، قمت بآيةٍ من القُرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه، قال: «**دَعَوْتُ لِأُمَّتِي**». قلت: فماذا أُجِبْتَ؟ -أو ماذا رُدَّ عليك؟- قال: «**أُجِبْتُ بِالَّذِي لَوِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ طَلْعَةً تَرَكُوا الصَّلَاةَ**». قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «**بَلَىٰ**». فانطلقتُ مُعْنِقًا(٤) قريبًا من قَذْفةٍ بحجرٍ. فقال عمر: يا رسول الله، إنَّك إن تبعث إلىٰ النَّاس بهذا نَكَلوا عن العبادة. فناداه أن ارجع فرجع، وتلك الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر ابن سوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النَّبيَّ ﷺ تلا قول عيسىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه فقال: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي**». وبكىٰ، فقال الله: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَاسْأَلْهُ: مَا يُبْكِيهِ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»(٦).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثنا ابن هُبَيْرة أنَّه سمع أبا تميم الجَيْشاني يقول: حدَّثني سعيد بن المسيب، سمعت حذيفة بن اليمان يقول: غاب عنا رسول الله ﷺ يومًا فلم يخرج، حتىٰ ظَنَنَّا أن لَن يخرج، فلمَّا خرج سجد سجدةً ظَنَنَّا أن نَفْسه قد قُبِضَتْ فيها، فلما رفع رأسه قال: «**إِنَّ رَبِّي ﷻ اسْتَشَارَنِي فِي أُمَّتِي: مَاذَا أَفْعَلُ بِهِمْ؟ فَقُلْتُ: مَا شِئْتَ أَيْ رَبِّ هُمْ خَلْقُكَ**

---

(١) لوحة (٢٠ أ). (٢) أي: أشار.

(٣) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «المسند».

(٤) معنقًا: مسرعا.

(٥) أحمد (٥/ ١٧٠)، وفيه جسرة بنت دجاجة: مقبولة.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٧٠٥٨)، ورواه مسلم (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٦٩).

وَعِبَادُكَ. فَاسْتَشَارَنِي الثَّانِيَةَ، فَقُلْتُ لَهُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: لا أُخْزِيكَ فِي أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَبَشَّرَنِي [أَنَّ](١) أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ [الجَنَّةَ](٢) مِنْ أُمَّتِي مَعِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَقَالَ: ادْعُ تُجَبْ، وَسَلْ تُعْطَ». فقلت لرسوله: «أَوَمُعْطِيَّ رَبِّي سُؤْلِي؟» قال: «مَا أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ إِلَّا لِيُعْطِيَكَ، وَلَقَدْ أَعْطَانِي(٣) رَبِّي وَلا فَخْرَ، وَغَفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ، وَأَنَا أَمْشِي [حَيًّا](٤) صَحِيحًا، وَأَعْطَانِي أَلَّا تَجُوعَ أُمَّتِي وَلا تُغْلَبَ، وَأَعْطَانِي الكَوْثَرَ، وَهُوَ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ يَسِيلُ فِي حَوْضِي، وَأَعْطَانِي العِزَّ وَالنَّصْرَ وَالرُّعْبَ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْ أُمَّتِي شَهْرًا، وَأَعْطَانِي [أَنِّي](٥) أَوَّلُ الأَنْبِيَاءِ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَطَيَّبَ لِي وَلِأُمَّتِي الغَنِيمَةَ، وَأَحَلَّ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شُدِّدَ عَلَىٰ مَنْ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»(٦).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾

يقول تعالىٰ مجيبًا لعبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم فيما أنهاه إليه من التَّبَرِّي من النصارىٰ الملحدين، الكاذبين علىٰ الله وعلىٰ رسوله، ومِن رَدِّ المشيئة فيهم إلىٰ ربه ﷻ، فعِند ذلك يقول تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس يقول: [يوم](٧) ينفع المُوحِّدين تَوْحِيدُهم.

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أي: ماكثين فيها لا يَحُولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وسيأتي ما يَتعلَّق بتلك الآية من الحديث.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا فقال: حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشَجُّ، حدَّثنا المحاربي، عن لَيْث، عن عثمان -يعني: ابن عُمَيْر أبا اليقظان- عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ يَتَجَلَّىٰ لَهُمُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ فَيَقُولُ: سَلُونِي سَلُونِي أُعْطِكُمْ». قال: «فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ: رِضَايَ أَحِلُّكُمْ دَارِي، وَأَنَالُكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ. فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا»، قال: «فَيُشْهِدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ»(٨).

---

(١) زيادة من «المسند».
(٢) زيادة من «المسند».
(٣) لوحة (٢٠ ب).
(٤) زيادة من «المسند».
(٥) زيادة من «المسند».
(٦) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٩٣)، وفي إسناده ابن لهيعة: اختلط بآخره.
(٧) سقط من (ز).
(٨) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٥٦)، وفي ليث بن أبي سليم: لم تتميز أحاديثه فترك، وأبو اليقظان قال الحافظ: ضعيف واختلط، وكان يدلس ويغلو في التشيع.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أَعْظَمَ منه، كما قال تعالىٰ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ أي: هو الخَالِقُ للأشياءِ، المالك لها، المتصرِّف فيها القادر عليها، فالجميع مِلْكه وتحت قَهْرِه وقدرَتِهِ وفِي مشيئَتِهِ، فلا نظير له ولا وَزِير، ولا عديل، ولا والدَ ولا ولدَ ولا صاحبة، فلا إله غيرُه ولا ربَّ سواهُ.

قال ابن وَهْب: سمعت حُيَيَّ بن عبد الله يحدِّث، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمْرٍو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة[١].

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٠٦٣)، والحاكم (٢/ ٣١١) وصححه ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني.

قلت: وعلته حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال ابن عدي (٢/ ٨٥٥): وله خمس وعشرون حديثًا عامتها لا يتابع عليها، قلت: وحديثه هذا يخالف حديث ابن عبَّاس: «آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾» رواه مسلم (٣٠٢٤).

سورة الأنعام

تفسير سورة الأنعام[1] وهي مكية

قال العَوْفيُّ وعِكْرمة وعَطاء، عن ابن عبَّاس: أُنْزِلَت سورة الأنعام بمكَّة.

وقال الطبراني: حدَّثنا علي بن عبد العزيز، حدَّثنا حجَّاج بن مِنْهال، حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن علي ابن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاس، قال: نزلت سورة الأنعام بمَكَّةَ ليلًا جملةً، حولها سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجْأَرُونَ حَوْلَهَا بالتَّسْبِيحِ[2][3].

وقال سفيان الثوري، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام علىٰ النَّبيِّ ﷺ [جملةً واحدةً وأنا آخِذَةٌ بزِمَامِ ناقةِ النَّبيِّ ﷺ، إن كادت مِن ثِقَلِهَا لتكْسِرُ عِظَام النَّاقَة[4].

وقال شريك: عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام علىٰ رسول الله ﷺ][5]-وهو في مَسِيرٍ في زجل[6] من الملائكة، وقد نَظَمُوا[7] ما بين السَّماء والأَرْضِ[8].

وقال السُّدِّيّ: عن مُرَّةَ، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يُشَيِّعُهَا سبعون ألفًا مِن الملائكة[9].

ورُوِيَ نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود.

وقال الحاكم في «مستدركه»: حدَّثنا أبو عبد الله محمَّد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا: حدَّثنا محمَّد بن عبد الوهاب العبدي، أخبرنا جعفر بن عَوْن، حدَّثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي، حدَّثنا محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّح رسول الله

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: اعلم أن هذه السورة الكريمة، قد اشتملت علىٰ تقرير التوحيد، بكل دليلٍ عقليٍّ ونقليٍّ، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله.

(٢) لوحة (٢١أ).

(٣) حسن لغيره: الطبراني (١٢/ ١٢٩٣٠) من حديث ابن عبَّاس، وفيه علي بن زيد: لين الحديث.

وحديث أسماء الآتي بعده رواه الطبراني (٢٤/ ٤٤٩)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام، وليث ابن أبي سليم: اختلط ولم يتميز حديثه، وبه يتقوىٰ الحديث دون قولها (إن كادت من ثقلها لتكْسِرُ عظام الناقة).

قلت: ومما يشهد لنزول السورة جملة وتشييع الملائكة رواية جابر وأنس الآتيتين.

ويشهد له حديث ابن عمر الآتي أيضًا، لكن إسناده ضعيف جدًّا، فيه يوسف بن عطية: متروك.

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٦) الزجل: صوت رفيع عال.

(٧) في (ز): نطقوا. وفي بعض النسخ (طبقوا).

(٨) انظر التعليق السابق.

(٩) رجاله ثقات: عدا السُّدِّي فإنه صدوق يهم، ويشهد له ما تقدم.

ﷺ، ثم قال: «لَقَدْ شَيَّعَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنَ المَلَائِكَةِ مَا سَدَّ الأُفُقَ»[(١)]. ثم قال: صحيح على شرط مسلم.

وقال أبو بكر بن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمَّد بن معمر، حدَّثنا إبراهيم بن دُرُسْتُويه الفارسي، حدَّثنا أبو بكر ابن أحمد بن محمَّد بن سالم، حدَّثنا ابن أبي فديك، حدَّثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع بن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَلَتْ سُورَةُ الأَنْعَامِ مَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، سَدَّ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالأَرْضُ بِهِمْ تَرْتَجُّ»، ورسول الله ﷺ يقول: «سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[(٢)].

ثم روى ابن مَرْدوَيه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نَائِلَةَ، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف بن عطيَّة، عن ابن عَوْن، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَلَتْ عَلَيَّ سُورَةُ الأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ، لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ».

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٣١٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي بأن جعفر بن عون لم يدرك السُّدِّي، قلت: وذكر ابن حجر أن مولد جعفر بن عون سنة مائة وعشرين أو مائة وثلاثين، وأن السُّدِّي توفي سنة مائة وسبع وعشرين، فعلى التقدير الأول يحتمل إدراكه لابن عمر رضي الله عنهما يكون ما زال سبع سنوات، وعلى التقدير الثاني يصح تعقب الذهبي، ويشهد للحديث ما تقدم.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٤٣٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٦٤٤٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٣): رواه الطبراني عن شيخه محمَّد بن عبد الله بن عرس، عن أحمد بن محمَّد بن أبي بكر السالمي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ(١) وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

يقولُ الله تعالىٰ مادحًا نفسه الكريمة، وحامدًا لها علىٰ خَلْقِهِ السَّمٰوات والأرض قرارًا لعبادِهِ، وجعل الظُّلُماتِ والنُّورَ منفعةً لِعِبادِهِ في لَيْلِهم ونَهارِهم، فجمع لفظ «الظُّلُمات» ووحَّد لفظ «النُّور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكمَا قال في آخر هذه السُّورة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هَذَا كُلِّه كفَرَ به بعض عباده، وجعلوا مَعَهُ شَرِيكًا وعدلًا، واتَّخذوا له صَاحبةً ووَلَدًا، تعالىٰ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي(٢) خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني: أباهم آدم الَّذي هو أَصْلُهُم، ومنه خرجوا، فَانْتَشَرُوا في المشارق والمغارب.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ قال سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني: الآخرة(٣). وهكذا رُوي عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة، والضَّحَّاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان، وغيرهم.

وقول [الحسن](٤) -في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ قال: مَا بين أَن يُخْلَقَ إِلىٰ أن يَموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ ما بين أن يَموتَ إِلىٰ أَن يُبْعَث- هُو يَرْجِعُ إِلىٰ ما تقدَّم، وهو تَقْدِير الأجل الخاصِّ، وهو عُمُرُ كُلِّ إنسانٍ، وتقدير الأجل العام، وهو عُمْرُ الدُّنيا بِكَمَالِهَا، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانْتِقَالِهَا والمصير إِلىٰ الدَّار الآخرة.

وعن ابن عبَّاس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: مدَّة الدُّنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني: عُمُرَ الإنسانِ إِلىٰ حين مَوْتِهِ، وكأنَّه مأخوذٌ مِن قوله تعالىٰ بعد هذا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠]. وقال عطيَّة: عن ابن عبَّاس ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: النوم، يَقْبِضُ فيه الروح، ثم يَرْجِعُ إِلىٰ صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلٌ

---

(١) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلىٰ الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(٢) لوحة (٢١ ب).

(٣) صحيح: رواه الطبري (٧/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم (٧٠٩٠)، والحاكم (٢/ ٣١٥)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) سقط من (ز).

مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني: أجل موت الإنسان، وهذا قول غريب(١).

ومعنىٰ قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ -٤٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قال السُّدِّي وغيره: يعني تَشُكُّون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مُفَسِّرُو هذه الآية علىٰ أقوالٍ، بعد الاتِّفاق علىٰ تَخْطِئَةِ قول الجَهْمِيَّة الأوَّل القائلين بأنَّه -تعالىٰ عن قولهم علوًّا كبيرًا- في كلِّ مكانٍ؛ حيث حملوا الآيَةَ علىٰ ذلك، فأَصَحُّ الأقوال أنَّه المدعو الله في السَّمَوَات وفي الأرض؛ أي: يعبده ويُوَحِّدُه وَيُقِرُّ له بالإِلَهِيَّة مَن في السموات ومَن في الأرض، ويُسَمُّونه: الله، ويَدْعُونَه رَغَبًا ورَهَبًا، إلا مَن كَفَرَ مِن الجِنِّ والإِنْس، وهذه الآية علىٰ هذا القول كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إِلَهُ مَنْ في السماء وإلهُ مَنْ في الأرض، وعلىٰ هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبرًا أو حالًا.

والقول الثاني: أنَّ المراد أنَّ الله الَّذي يعلم ما في السَّموات وما في الأرض، مِن سِرٍّ وجَهْرٍ. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقديره: وهو الله يعلم سرَّكم وجهركم(٢) في السَّموات وفي الأرض ويعلم ما تَكْسِبُون.

والقول الثَّالث: أنَّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقفٌ تَامٌّ، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وهذا اختيارُ ابن جرير.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالهم خيرَها وشرَّها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مُخبِرًا عن المشركين المُكَذِّبين المُعَانِدِين: إنَّهم مهما أَتَتْهُم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: دلالةٍ ومعجزةٍ وحُجَّةٍ مِن الدَّلالات علىٰ وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ ﷻ وصِدْقِ رُسُلِه الكرام، فإنهم يُعْرِضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يُبَالُون(٣) بها.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا تهديدٌ لَهُم،

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم (٧٠٩٣)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.
(٢) لوحة (٢٢ أ). (٣) في (ز): ولا يتأولون. وما أثبتناه أوفق للسياق.

ووعيدٌ شديدٌ عَلَىٰ تكذيبِهم بالحقِّ، بأنَّه لا بد أن يَأْتِيهم خبر ما هم فيه من التَّكذيب، ولَيَجِدُنَّ غِبَّهُ، وليذوقُنَّ وَباله.

ثمَّ قال تعالىٰ واعظًا ومحذِّرًا لهم أن يُصِيبَهُم مِن العذاب والنَّكال الدُّنْيَوِيِّ ما حلَّ بأَشْبَاهِهِم ونُظَرَائِهِم من القرون السَّالفة الَّذين كانوا أشدَّ [منهم][1] قوَّةً، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأَمْوَال والأولاد والأَعْمَار، والجاهِ العَرِيض، والسَّعَة والجُنُود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئًا بعد شيءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أَكْثَرْنَا عليهم أمطار السَّماء، ويَنَابِيعَ الأرض؛ أي: استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بِخَطَايَاهُم وسَيِّئَاتِهِم التي اجْتَرَمُوهَا، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فذهب الأوَّلون كأَمْسِ الذَّاهِب، وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: جيلًا آخر لنَخْتَبِرَهُم، فعَمِلُوا مثل أعمالهم؛ فهَلَكُوا كهَلَاكِهِم. فاحْذَرُوا أَيُّها المخاطبون أَن يُصِيبَكُم [مثل][2] ما أصابهم، فما أَنْتُم بِأَعَزَّ علىٰ الله منهم، والرَّسول الذي كَذَّبْتُمُوه أكرم علىٰ الله مِن رَسُولِهِمْ، فأَنتُم أولىٰ بالعذاب ومُعَاجَلَة العقوبة منهم، لَوْلَا لُطْفه وإِحْسَانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا[3] أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[4] ﴿١١﴾﴾

يقول تعالىٰ مُخبِرًا عن كُفْرِ المشركين وعِنَادِهِم ومُكَابَرَتِهِم للحقِّ ومُبَاهَتَتِهِم ومنازَعَتِهِم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه، ورأَوْا نُزُولَه، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا كما قال تعالىٰ مخبرًا عن مُكَابَرَتِهِم للمحسوسَات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [أي: فيكون معه نذيرًا][5] قال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٢٢ب).

(٤) قال الشيخ السعدي رحمه الله: فإن شككتم في ذلك، أو ارتبتم، فسيروا في الأرض، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قومًا مهلكين، وأممًا في المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به، سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئًا.

(٥) سقط من (ز).

يُنظَرُونَ ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هُم عليه لجاءَهُم مِن الله العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيِّ ملكًا، أو: لو بعثنا إلىٰ البَشَر رسولًا ملكيًّا لكان علىٰ هَيْئَةِ رجل لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لَالْتَبس عليهم الأمر كما يُلَبِّسُون علىٰ أنفسهم في قَبُولِ رِسالَة البَشَرِيِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمِنْ رَحْمَة الله تعالىٰ بخلقه أنَّه يُرْسِل إلىٰ كل صِنْفٍ من الخلائق رُسُلًا منهم؛ ليدعو بعضهم بعضًا، وليُمَكِّن بعضهم أَن يَنْتَفع ببعضٍ في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾. يقول: لو أتاهم ملك ما أَتاهُم إلَّا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النَّظَر إلىٰ الملائكة من النُّور ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون. وقال الوالبي عنه: ولَشَبَّهْنَا عليهم.

[وقوله:](١) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذا تَسْلِيَةٌ لرسوله محمَّد ﷺ في تكذيبِ مَن كذَّبه من قومه، ووعدٌ له وللمؤمنين به بالنُّصرَة والعاقبة الحسَنَة في الدُّنيا والآخرة.

ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ (٢) عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: فكِّرُوا في أنفسكم، وانظُروا ما أَحَلَّ الله بالقرون الماضية الَّذين كذَّبوا رسلهم وعانَدُوهُم مِنَ العذاب والنَّكال، والعُقُوبَةِ في الدُّنيا، مع ما ادَّخر لهم من العَذاب الأَلِيم في الآخِرَة، وكيف نَجَّىٰ رُسُلَه وعِبادَه المُؤْمِنِينَ.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

يُخْبر تعالىٰ أنَّه مَالِكُ السَّموات والأرض ومَن فِيهِنَّ، وأنَّه قد كتب علىٰ نفسه المقدَّسة الرحمة، كما ثبت في «الصَّحِيحَيْن» مِن طريق الأعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النَّبيّ ﷺ:

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٣أ).

«إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»(١).

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللَّام هي الموطِّئة للقسم، فأقسم بنفْسِه الكريمة لَيَجْمَعَنَّ عباده لميقات يوم معلوم، وهو يوم القِيَامَةِ الَّذِي لا رَيْبَ فيه ولا شَكَّ [فيه] عند عبادِهِ المؤمنين، فأمَّا الجاحِدُون المُكَذِّبُون فهُم في رَيْبِهِم يَتَرَدَّدُونَ.

وقال ابن مَرْدوَيه عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا عبيد الله بن أحمد ابن عُقْبَة، حدَّثنا عبَّاس بن محمَّد، حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا مِحْصَن بن عقْبَة اليماني، عن الزبير ابن شَبِيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عبَّاس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الوقوف بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العالمين، هل فِيهِ مَاءٌ؟ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ فِيهِ لَمَاءً، إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَيَرِدُونَ حِيَاضَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَبْعَثُ اللهُ تَعَالَىٰ [سَبْعِينَ](٢) أَلْفَ مَلَكٍ فِي أَيْدِيهِمْ عِصِيٌّ مِنْ نَارٍ، يَذُودُونَ الكُفَّارَ عَنْ حِيَاضِ الأَنْبِيَاءِ»(٣). هذا حديث غريب، وفي الترمذي: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، [وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً](٤)، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»(٥).

ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [أي:] يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقُون بالمعاد، ولا يَخافون شرَّ ذلك اليوم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كلُّ دابَّة في السَّموات والأرض، الجميعُ عبادُهُ وخَلْقُهُ، وتحتَ قَهْرِهِ وتَصرُّفِهِ وتَدْبيرِهِ، ولا إِلَهَ إلَّا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السَّميع لأقوالِ عِبادِهِ، العليمُ بحَرَكَاتِهِم، وضَمَائِرِهم، وسَرَائِرِهم.

ثمَّ قال لعبده ورسولِهِ محمَّدٍ ﷺ، الَّذي بعثه بالتَّوحيد العظيم(٦)، والشَّرع القويم، وأمره أن يَدْعُوَ النَّاسَ إلىٰ صراطه المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والمعنىٰ: لا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إلَّا الله، وَحْدَه لا شَرِيكَ له، فإنَّه فَاطِرُ السَّموات والأَرْض؛ أي: خالقهما ومبدعهما علىٰ غير مثالٍ سَبَقَ.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزَّاق لخلْقِه مِن غير احتياج إِلَيْهِم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ -٥٨].

وقرأ بعضُهم هاهُنا: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾(٧) الآية؛ أي: لا يأكل.

---

(١) البخاري (٣١٩٤) (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، والترمذي (٣٥٣٧)، والنسائي، وابن ماجة (١٨٩) (٤٢٩٥).

(٢) سقط من (ز).

(٣) قال ابن كثير عقب الحديث: وهذا حديث غريب. قلت: وفيه الزبير بن شبيب والراوي عنه، لم أجد من ترجم لهما.

(٤) سقط من (ز). والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٥) الترمذي (٢٤٤٥)، والحديث أورده الألباني في «الصحيحة» (١٨٥٩)، وذكر له شواهد، ثم قال: وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح. والله أعلم.

(٦) لوحة (٢٣ب).

(٧) شاذة: قَرَأَ (وَلَا يَطْعَمُ) الْحَسَنُ وَالْمُطَّوِّعِيُّ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَلَا يُطْعَمُ).

وفي حديث سُهَيْل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ﵁ قال: دعا رجلٌ مِن الأنصار مِن أهل قُباء النَّبيَّ ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلمَّا طَعِمَ النَّبيُّ ﷺ وغسل يديه قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، ومَنَّ علَيْنا فهَدانا، وأَطْعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بَلاءٍ حَسَنٍ أبْلانا، الحَمْدُ للهِ غيرَ مُودَّعٍ(١)، ولا مُكافَإٍ، ولا مَكْفُورٍ، ولا مُسْتَغْنًى عنْهُ، الحَمْدُ للهِ الَّذي أطْعَمَنا مِنَ الطَّعامِ، وسَقانا مِنَ الشَّرابِ، وكَسانا مِنَ العُرْيِ، وهَدانا مِنَ الضَّلالِ، وبَصَّرَنا مِنَ العَمَىٰ، وفَضَّلَنا علَىٰ كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ»(٢).

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ يعني: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ يعني: فقد رَحِمَهُ الله ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والفوز: هو حصول الرِّبح ونفي الخسارة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا أنَّه مالك الضُّرِّ والنَّفع، وأنَّه المتصرِّف في خلقِهِ بما يشاء، لا مُعقِّب لحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لقضائه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا(٣) ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآية [فاطر: ٢]، وفي «الصَّحيح» أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ(٤)»(٥)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو الَّذي خضعَتْ له الرقاب، وذَلَّت له الجبابرة، وعَنَتْ له الوجوه، وقَهَرَ كُلَّ شيءٍ، ودَانَتْ له الخلائق، وتَواضعَتْ لعظمَةِ جلاله وكِبْرِيائه وعظمته وعُلُوِّه وقُدْرتِهِ الأشياء، واسْتكانَتْ وتَضاءَلَتْ بين يديه وتحت حُكْمِهِ وقَهْرِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومَحالِّها، فلا يُعْطِي إلَّا لمن يَسْتَحِقُّ، ولا يَمْنَعُ إلا مَن يَسْتَحِقُّ، ثم قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى

(١) أي: غير متروك الطاعة. «النهاية» (٥/ ١٦٨).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم (١/ ٥٤٦) وقال: علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) لوحة (٢٤ أ).

(٤) أي: لا ينفع ذا الغنىٰ عندك غناه، وإنما ينفعه العمل بطاعتك.

(٥) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، وأبو داود (١٥٠٥)، والنسائي (٣/ ٧٠).

﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: وهو نذيرٌ لِكلِّ مَنْ بَلَغه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسىٰ بن عبيدة، عن محمَّد بن كعب في قوله: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ قال: مَن بلغه القرآنُ فكأنَّما رأىٰ النَّبيَّ ﷺ، زاد أبو خالد: وكَلَّمه(١). ورواه ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمَّد بن كعب قال: من بَلَغَهُ القرآن فقد أَبْلَغَهُ محمَّدٌ ﷺ(٢).

وقال عبد الرزَّاق: عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِ اللهِ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُ اللهِ»(٣).

وقال الرَّبيع بن أنس: حقٌّ علىٰ مَن اتَّبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالَّذي دَعَا رسول الله ﷺ، وأن يُنْذِر كالَّذي أَنْذَر.

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أي: أيُّها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبِرًا عَن أهل الكِتَاب: إنَّهم يَعْرِفُون هذا الذي جِئْتَهُم به، كما يَعْرِفُون أبناءهم، بِمَا عِنْدَهُم من الأخبار والأنباء، [عن المرسلين المتقدِّمين والأنبياء](٤)، فإنَّ الرُّسل كلهم بَشَّروا بوجود محمَّدٍ ﷺ وبِبَعْثِهِ وصفته، وبلده ومُهَاجَرِه، وصفة أُمَّتِهِ؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خَسِرُوا كلَّ الخَسَارَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر، الذي بَشَّرَتْ به الأنبياء، ونَوَّهَتْ به في قَدِيم الزَّمان وحدِيثِهِ، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أَظْلَمَ ممَّن تَقَوَّل علىٰ الله، فادَّعىٰ أنَّ الله أرسله ولم يكن أَرْسَلَه، ثم لا أَظْلَمَ ممن كذَّب](٥) بآيات الله، وحُجَجِهِ وبَرَاهِينِهِ ودَلَالَاتِهِ، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح(٦) هذا ولا هذا، لا المفتري، ولا المُكَذِّب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧١٦٥)، والطبري (٧/ ١٦٢)، وفيه موسىٰ بن عبيدة: ضعيف.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ١٦٢)، وفيه أبو معشر، واسمه نجيح بن عبد الرحمن: ضعيف.

(٣) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٦)، وابن جرير (٧/ ١٦٢).

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٢٤ب).

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يَعْبُدُونَهَا مِن دُونِهِ قائلًا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حُجَّتُهُم. وقال عطاء الخراساني: عن ابن عبَّاس: أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جريج: عن ابن عبَّاس: أي قيلهم. وكذا قال الضَّحَّاك. وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكُن بَلِيَّتُهُم حين ابْتُلُوا ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقال ابن جرير: والصَّواب ثمَّ لَمْ يَكُن قِيلُهم عند فِتْنَتِنَا إيَّاهم اعتذارًا مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو يحيىٰ الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرِّف، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: أتاهُ رَجُلٌ فقال: يا ابن عبَّاس، سَمِعْتُ الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رَأَوْا أنَّه لا يدخل الجنَّةَ إلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ، فقالوا: تعالَوْا فلنَجْحدْ فيَجحَدُون، فيَخْتِمُ الله علىٰ أفْوَاهِهِم، وتَشْهَدُ أيديهم وأَرْجُلِهِم، ولا يكتمون الله حديثًا، فهل فِي قلبك الآنَ شيءٌ؟ إنَّه ليس مِن القُرْآن شيءٌ إلَّا قد نَزَل فيه شيءٌ، ولكن لا تعلمون وجهه[1].

وقال الضَّحَّاك: عن ابن عبَّاس: هذه في المنافقين. وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مَكِّيَّة، والمنافقون إنَّما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وهكذا قال في حقِّ هؤلاء: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ كما قال ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ[2]﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ[3] قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ أي: يَجِيئُوكَ لِيَسْمَعُوا قِرَاءَتَك، ولا تَجْزِي عنهم شيئًا؛ لأنَّ الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً؛ لئلَّا يَفْقَهُوا القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صممًا عن السَّماع النَّافع، فهُم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ أي: مهما رَأَوْا من الآيات والدَّلالاتِ والحُجج البيِّنات لا يُؤْمِنُوا بها. فلا فَهْمَ عِنْدَهُم ولا إنْصاف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

---

(١) حسن: رواه البخاري تعليقًا (٨/ ٥٥٥-٥٥٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٩)، والطبري (٤/ ٩٩)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٠٨ - بتحقيقي).

(٢) في (ز): (الظالمين). وهو خطأ.

(٣) لوحة (٢٥أ).

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي: يُحاجُّونك ويُناظِرونكَ في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الَّذي جئتَ به إلَّا مأخوذٌ مِن كُتُبِ الأوائل، ومَنْقولٌ عنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وفي معنىٰ ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان، أحدهما: أنَّ المراد أنَّهم يَنْهَوْنَ النَّاس عن اتِّباع الحقِّ، وتصديق الرسول، والانقياد للقُرآنِ، [ويَنْأَوْنَ عنه؛ أي: ويَبْتَعِدُون هم عنه، فيَجْمَعُونَ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ القَبِيحَيْن: لا ينتفعون][١]، ولا يتركون أحدًا ينتفع، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: يَنْهَوْن النَّاس عن محمَّد ﷺ أن يُؤْمِنُوا به. وقال محمَّد بن الحنفيَّة: كان كفَّار قريش لا يأتون النَّبيَّ ﷺ ويَنْهَوْن عنه. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، وغير واحدٍ.

وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عمن سمع ابن عبَّاس يقول في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أَبِي طالبٍ كان ينهىٰ الناس عن النَّبيِّ ﷺ أن يُؤذَىٰ[٢].

وكذا قال القاسم بن مُخَيْمِرَة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار: إنَّها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال[٣]: نزلت في عمومة النَّبيِّ ﷺ وكانوا عشرَةً، فكانوا أشد الناس معه في العَلَانِيَة، وأشد الناس عليه في السِّرِّ[٤]. رواه ابن أبي حاتم.

وقال محمَّد بن كعب القرظي: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يَنْهَوْن النَّاس عن قَتْلِهِ.

وقوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعَدُونَ منه.

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يُهْلِكُون بهذا الصَّنِيعِ ولا يَعودُ وَبالُهُ إلَّا عليهم، وما يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٥] (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾

يَذْكُر تعالىٰ حالَ الكُفَّار إذا وقفُوا يوم القيامة علىٰ النَّار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بِأَعْيُنِهِم تلك الأُمور العظام والأهوال، فعِنْدَ ذَلِكَ قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (٧/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٩٩)، وفيه رجل لم يسم، وفيه حبيب بن أبي ثابت، ثقة إلا أنه كثير الإرسال والتدليس. وقد رواه الحاكم (٢/ ٣٤٠)، وسمىٰ الرجل (سعيد بن جبير)، لكن بقيت علة تدليس حبيب، فمدار الحديث عليه.

(٣) في (ز): (سعيد بن جبير بن أبي هلال)، وهو خطأ.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٢٠٤)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، والإسناد مرسل.

(٥) لوحة (٢٥ب).

رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أن يُرَدُّوا إلىٰ الدَّار الدُّنيا، لِيَعْمَلُوا عملًا صالحًا، ولا يُكَذِّبوا بآيَاتِ رَبِّهِم، ويكونوا من المؤمنين.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ [مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لَهُم -حينئذٍ- ما كانوا يُخْفُونَ][١] في أنفسهم مِن الكُفْر والتَّكْذِيب والمُعَانَدَة، وإن أَنْكَرُوهَا في الدُّنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾

ويُحْتَمَل أَنَّهم ظهر لهم ما كانوا يَعْلَمُونَهُ مِن أَنْفُسِهِم مِن صدق ما جاءت به الرُّسُل في الدُّنيا، وإن كانوا يُظْهِرُون لِأَتْبَاعِهِم خلافه، كما قال تعالىٰ مُخْبِرًا عن موسىٰ أنَّه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢]. قال تعالىٰ مُخْبِرًا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ويُحْتَمَل أَن يكون المُرَاد بهؤلاء المُنَافِقِينَ الَّذِين كانوا يُظْهِرُون للنَّاس الإيمان، ويُبْطِنُون الكُفْر، ويكون هذا إخبارًا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفةٍ من الكفَّار، ولا يُنَافِي هذا كون هذه السورة مكيَّة، والنِّفَاق إنَّما كان مِن بعض أهل المَدِينَةِ ومَن حولها مِن الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النِّفَاق في سورةٍ مَكِّيَّةٍ -وهي العنكبوت- فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلىٰ هذا فيكون إخبارًا عن حال المنافقين في الدَّارِ الآخِرَة، حين يُعَايِنُونَ العذاب يَظْهَر لهم -حينئذٍ- غِبُّ ما كانوا يُبْطِنُون من الكفر، والشقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنىٰ الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فَهُم مَا طَلَبُوا العود إلىٰ الدُّنيا رغبةً ومحبَّةً في الإيمان، بل خوفًا من العذاب الذي عَايَنُوهُ جزاءً علىٰ ما كانوا عليه مِن الكُفْرِ، فسألوا الرَّجْعَةَ إلىٰ الدُّنيا لِيَتَخَلَّصُوا مما شاهدوا من النَّار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا[٢] عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في تَمَنِّيهم الرَّجعة رغبةً ومحبَّةً في الإيمان.

ثمَّ قال مُخْبِرًا عنهم: إنَّهم لو رُدُّوا إلىٰ الدَّار الدُّنيا، لعادوا لما نُهُوا عنه [مِن الكفر والمخالفة][٣]، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: لَعَادُوا لما نُهُوا عنه إنَّهم لكاذبون، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أي: مَا هِي إِلَّا هذه الحياة الدُّنيا، ثمَّ لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أُوقِفُوا بين يديه قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أَلَيْس هذا المعاد بحقٍّ وليس بباطل كما كنتم تظُنُّون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تُكَذِّبُون به، فذُوقوا اليوم مَسَّه ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (١٢٦أ). (٣) سقط من (ز).

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾

يقول تعالىٰ مُخْبِرًا عن خَسَارة مَن كذَّب بِلِقَاءِ الله، وعَن خَيْبَتِهِ إذا جاءته السَّاعة بغتةً، [وعن نَدَامَتِهِ علىٰ ما فرَّط مِن العمل، وما أَسْلَف من قبيح الفِعَال؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً][1] قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عَوْدُه علىٰ الحياة الدُّنيا، وعلىٰ الأعمال، وعلىٰ الدَّار الآخرة؛ أي: في أمرها.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: يَحْمِلُون. وقال قتادة: يَعْمَلُون.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو خالد، عن عمرو[2] بن قيس، عن أبي مرزوق قال: ويستقبل الكافر -أو: الفاجر- عند خروجه مِن قبره كأَقْبَحِ صورةٍ رآها وأَنْتَنِ ريحًا، فيقول: مَن أنت؟ فيقول: أَوَمَا تَعرِفُنِي؟ فيقول: لا والله، إلَّا أنَّ الله قد قَبَّحَ وجهك ونَتَّن ريحك. فيقول: أنا عملُك الخبيثُ، هكذا كُنتَ في الدُّنيا خبيثَ العمل مُنْتِنَه، طالما رَكِبْتَنِي في الدُّنيا، هَلُمَّ أَرْكَبكَ، فهو قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[3] وقال أسباط: عن السُّدِّي أنه قال: لَيْسَ من رجلٍ ظالمٍ يموت فيدخلُ قبره إلَّا جاءه رجلٌ قبيحُ الوَجْهِ، أَسْوَدُ اللَّون، مُنْتِنُ الرَّائحة، عليه ثياب دَنِسَة، حتىٰ يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أَقْبَحَ وَجْهَكَ! قال: كذلك كان عَمَلُك قبيحًا، قال: ما أَنْتَنَ رِيحك! قال: كذلك كان عملك مُنْتِنًا! قال: ما أَدْنَس ثيابك، قال: فيقول: إنَّ عملك كان[4] دَنِسًا. قال له: مَن أنت؟ قال: أنا عَمَلُكَ! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إنِّي كُنْتُ أَحْمِلُكَ في الدُّنيا باللَّذَّات والشَّهوات، وأَنت اليَوْمَ تَحْمِلُنِي. قال: فيَرْكَبُ علىٰ ظهره فيَسُوقُه حتىٰ يُدْخِلَهُ النَّارَ، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[5].

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنَّما غالبها كذلك ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) العبارة ما بين المعقوفتين كررت في (ز).

(٢) في (ز): معمر بن قيس، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٧٢٢٨)، وهذا مقطوع من قول أبي مرزوق، ليس موقوفًا علىٰ الصحابة، ومثل هذا الكلام يحتاج إلىٰ ثبوته عن النَّبيِّ ﷺ، وأحسن أحواله أن يقال: مرسل له حكم الرفع، ومعلوم أن المرسل من أقسام الضعيف.

(٤) لوحة (٢٦ب).

(٥) رواه الطبري (٧/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم (٧٢٢٩)، وانظر التعليق السابق.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ
مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا
فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا
يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالىٰ مُسَلِّيًا لِنبيِّه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أي: قد أَحطْنَا علمًا بتكذيبِ قَوْمِك لك، وحزنكِ وتَأَسُّفِكَ عليهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٧].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يَتَّهِمُونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنَّهم يُعانِدُون الحقَّ، ويَدْفَعُونَه بصُدُورِهم، كما قال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن عليٍّ ؓ [قال:] قال أبو جهل للنبيِّ ﷺ: إِنَّا لا نُكَذِّبُك، ولكن نُكَذِّبُ ما جِئْتَ به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (١) ورواه الحاكم مِن طَرِيقِ إسرائيل، عن أبي إسحاق، ثم قال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن الوزير الواسطي بمَكَّة، حدَّثنا بِشْر بن المُبَشِّر الواسطي، عن سلام بن مسكين، عن أبي يزيد المدني؛ أن النَّبيَّ ﷺ لَقِيَ أبا جهلٍ فصافحه، قال له رَجُلٌ: ألا أراك تُصافِح هذا الصَّابِئَ؟! فقال: والله إنِّي أعلم أنَّه لَنبيٌّ، ولكن متىٰ كنَّا لِبَنِي عبد مناف تبعًا؟! وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢).

قال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنَّك رسول الله ويَجْحَدُون.

وذكر محمَّد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جَهْل (٣) حين جاء يَسْتَمِع قراءة النَّبيِّ ﷺ من اللَّيْل، هو وأبو سفيان صَخْر بنِ حَرْب، والأَخْنَس بن شريق، ولا يَشْعُرُ واحدٌ منهم بالآخر. فَاسْتَمَعُوها إلىٰ الصباح، فلما هَجَم الصبح تفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثمَّ تعاهَدُوا ألَّا يَعُودُوا؛ لما يخافون مِن عِلْمِ شَبَاب قريشٍ بهم؛ لئلَّا يَفْتَتِنُوا بمَجِيئِهم، فلما كانت

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٦٦)، والحاكم (٢/ ٣١٥)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: ما خرجا لناجية شيئًا؛ يعني: أنه ليس علىٰ شرط الشيخين.

قلت: وقد رواه بعده مرسلًا. قال الترمذي (٣٠٦٦): وهذا أصح؛ يعني: المرسل.

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٢٣٩)، وإسناده مرسل، وهو من أقسام الضعيف.

(٣) لوحة (٢٧أ).

اللَّيلة الثَّانية جاء كلٌّ مِنهم ظَنًّا أنَّ صَاحِبَيْهِ لا يَجِيئَان؛ لما تقدَّم مِن العُهُود، فلمَّا أجمعوا جَمَعَتْهُم الطَّرِيق فتَلَاوَمُوا، ثم تعاهدوا ألا يَعُودُوا. فلما كانت اللَّيلَة الثَّالثة جاءُوا أيضًا، فلما أَصْبَحُوا تعاهدوا أَلَّا يَعُودُوا لمثلها [ثم تفرَّقوا](١).

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان بن حرب في بَيْتِهِ، فقال: أَخْبِرْنِي يا أبا حَنْظَلَة عَن رَأْيِكَ فيما سَمِعْتَ من محمَّد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أَعْرِفُها، وأَعْرِف ما يُراد بها، وسَمِعْتُ أَشْيَاء ما عَرَفْتُ معناها، ولا ما يُرَاد بها. قال الأخنس: وأنَا والَّذي حَلَفْتَ بِهِ.

ثم خرج مِن عنده حتَّىٰ أتىٰ أبا جهل، فدخل عليه في بَيْتِه، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سَمِعْتَ مِن محمَّد؟ قال: ماذا سمعتُ؟ تنَازَعْنَا نحن وبنو عبد مناف الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فأَطْعَمْنَا، وحَمَلُوا فحَمَلْنَا، وأَعْطوا فأَعْطَيْنَا، حتىٰ إذا تَجاثَيْنَا علىٰ الرُّكَب، وكنا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قالوا: منَّا نَبِيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء! فمتىٰ نُدْرِكُ هذه؟ والله لا نُؤْمِنُ به أبدًا ولا نُصَدِّقُه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه(٢).

وروىٰ ابن جرير، من طريق أسباط، عن السُّدِّي في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شَرِيق لبني زهرة: يا بني زهرة، إنَّ محمَّدًا ابن أُخْتِكُم، فأنتم أحقُّ مَن كَفَّ عَنْهُ. فإنَّه إن كان نَبِيًّا لم تُقَاتِلُوه اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أَحَقَّ مَن كفَّ عن ابن أخته(٣)، قِفُوا هاهنا حتىٰ أَلْقَىٰ أبا الحكم، فإن غُلِبَ محمَّد رجعتم سالمين، وإن غَلَبَ محمَّد فإنَّ قومكم لم يَصْنَعُوا بكم شيئًا. فيَوْمَئِذٍ سُمِّي الأخنس: وكان اسمه «أُبَيًّا» فالتقىٰ الأخنس وأبو جهل، فخَلَا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمَّد: أَصَادِقٌ هو أَمْ كَاذِبٌ؟ فإنَّه ليس هَاهُنَا مِن قريش غيري وغيرُك يسمع كَلَامَنَا. فقال أبو جهل: وَيْحَكَ! والله إن محمَّدًا لصادقٌ، وما كذب محمَّد قَطُّ، ولكن إذا ذهبت بنو قُصيٍّ باللِّواء والسِّقاية والحجابة والنُّبُوَّة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فآيات الله: محمَّد ﷺ(٤)(٥).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وتعزية له فيمن كذبه مِن قومه، وأمر له بالصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظَّفر حتىٰ(٦) كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم مِن التَّكْذِيب مِن قومهم والأذىٰ البليغ، ثم

---

(١) سقط من (ز).

(٢) هي قصة مشهورة لأصحاب السير، ولكن إسنادها منقطع، انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) في (ز): ابن أختكم. والمثبت من «الطبري».

(٤) لوحة (٢٧ب).

(٥) ضعيف: رواها ابن جرير (٧/ ١٨١، ١٨٢)، وهي مرسلة ضعيفة.

(٦) في (ز): كما.

جاءهم النَّصرُ في الدُّنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنَّصر في الدُّنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ -١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: مِن خبرهم كيف نُصِروا، وأُيِّدُوا علىٰ مَن كذَّبهم مِن قومهم، فلكَ فيهم أُسْوَةٌ، وبهم قدوةٌ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إن كان شقَّ عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: النَّفقُ: السَّرْب، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، أو تجعل لك سُلَّمًا في السَّماء فتَصْعَد فيه فتأْتِيَهُم بآيةٍ أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسُّدِّي، وغيرهما.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ قال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يَحْرِصُ أن يُؤْمِن جميع الناس، ويُتابِعُوه علىٰ الهُدَىٰ، فأخبر الله أنَّه لا يُؤْمِن إلا مَن [قد] سَبَقَ له مِن الله السَّعادة في الذِّكر الأول[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنَّما يَسْتَجِيب لدُعَائك يا محمَّد مَن يسمع الكلام، ويَعِيه ويَفْهَمُهُ، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: بذلك الكفَّار؛ لأنَّهم مَوْتَىٰ القلوب، فشَبَّهَهُم الله بأموات الأجساد فقال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التَّهَكُّم بهم، والازْدِراء عليهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ[2] عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين أنَّهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: خارق علىٰ

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٢٥٠)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة، وابن عبَّاس.
(٢) لوحة (٢٨ أ).

مقتضىٰ ما كانوا يُريدُون، ومما يَتعَنتون كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالىٰ قادر علىٰ ذلك، ولكن حكمته تعالىٰ تَقْتَضِي تأخير ذلك؛ لأنَّه لو أنزلها وفْقَ ما طَلَبُوا ثمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأُمَم السَّالِفَة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد: أي: أصناف مُصنَّفة تُعرَف بِأَسْمَائِهَا. وقال قتادة: الطَّيْرُ أُمَّةٌ، والإِنس أُمَّةٌ، والجِنُّ أُمَّةٌ. وقال السُّدِّي: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: خلق أمثالكم.

وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: الجميع عِلْمُهُم عند الله، ولا يَنْسَىٰ واحدًا من جميعها، مِن رِزْقِهِ وتَدْبِيرِه، سواء كان بَرِّيًّا أو بحريًّا، كما قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، أي: مُفْصِحٌ بأَسْمَائِهَا، وأعدادها، ومظانِّها، وحاصر لِحَرَكَاتِها وسَكَنَاتِها، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقد قال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا محمَّد بن المثنىٰ، حدَّثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد، حدَّثني محمَّد بن عيسىٰ بن كيسان، حدَّثنا محمَّد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قَلَّ الجَرادُ في سَنَةٍ مِن سِنِيِّ عمر رضي الله عنه الَّتِي وَلِيَ فيها، فسَأَلَ عنه فلم يُخْبرْ بِشَيْءٍ، فاغْتَمَّ لذلك. فأَرْسَل راكبًا إلىٰ كذا، وآخرَ إلىٰ الشَّام، وآخرَ إلىٰ العراق يَسْأَل: هل رُؤِيَ من الجراد شيءٌ أم لا؟ فأَتَاهُ الرَّاكب الَّذي مِن قِبَل اليمن بقبضة جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبَّر ثلاثًا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَلَقَ اللهُ عز وجل أَلْفَ أُمَّةٍ، مِنْهَا سِتُّمِائَةٍ فِي البَحْرِ، وَأَرْبَعمِائَةٍ فِي البرِّ. وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلَكُ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ الجَرَادُ، فَإِذَا هَلَكَتْ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ**»(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا سفيان، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: حَشْرُها الموتُ(٢).

---

(١) موضوع: أورده الحافظ في «المطالب العالية» بسند أبي يعلىٰ (٢٣٩٩).
قلت: فيه محمَّد بن عيسىٰ بن كيسان، قال ابن حبان: يروي عن محمَّد بن المنكدر العجائب، وعن الثقات الأوابد، لا يجوز الاحتجاج به -ثم ساق حديثه هذا- ثم قال: وهذا شيء لا شك أنه موضوع، ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ . انظر: «المجروحين» (٢/ ٢٥٦).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (٧٢٦١).

وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد، عن[1] مسروق، عن عِكْرِمة[2]، عن ابن عبَّاس قال: موتُ البهائم حَشْرُها[3]. وكذا رواه العوفيُّ عنه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والضَّحَّاك مثله.

والقول الثاني: إنَّ حَشْرَهَا هُو بَعْثُهَا يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن سليمان، عن مُنْذِر الثوري، عن أشياخ لهم، عن أبي ذرٍّ؛ أن رسول الله ﷺ رأىٰ شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَان، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟**» قال: لا. قال «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا**»[4].

ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الأعمش، عمن ذكره عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عَنزان، فقال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ فِيمَ انْتَطَحَتَا؟**» قالوا: لا ندري. قال: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا**»[5]. رواه ابن جرير، ثم رواه من طريق منذر الثوري، عن أبي ذر، فذكره وزاد: قال أبو ذر: ولقد تَركَنا رسول الله ﷺ وما يُقَلِّب طائر بجناحيه في السَّماء إلا ذكرنا منه عِلمًا.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في «مسند أبيه»: حدَّثني عبَّاس بن محمَّد وأبو يحيىٰ البزار قالا: حدَّثنا حجاج بن نُصير، حدَّثنا شُعْبَة، عن العَوَّام بن مُرَاجم -من بني قيس بن ثعلبة- عن أبي عثمان النَّهْدي، عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الجَمَّاءَ[6] لَتَقْتَصُّ مِنَ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[7].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن جعفر بن بُرْقَان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: يُحْشَر الخلق كلهم يوم القيامة: البَهائم، والدَّوابُّ، والطير، وكل شيء، فيبلغ مِن عَدْلِ الله -يومئذٍ- أن يأخذ للجمَّاءِ من القَرْنَاء. قال: ثم يقول: كُونِي ترابًا. فلذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠][8]، وقد روي هذا مرفوعًا في حديث الصور[9].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: مثلهم فِي جَهْلِهِم، وقلَّة علمهم، وعَدَمِ فَهْمِهِم، كمثل أصم -وهو الذي لا يسمع- أبكم -وهو الذي لا يتكلَّم- وهو مع هذا في ظَلَام لا يُبْصِر، فكيف يَهْتَدِي مثل هذا إلىٰ الطَّرِيق، أو يخرج مما هو فيه؟ كما قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا

---

(١) في (ز): عن سعيد ومسروق. (٢) لوحة (٢٨ب). (٣) رواه ابن جرير (٧/ ١٨٨).

(٤) صححه الألباني؛ رواه أحمد (٥/ ١٦٢)، انظر: «الصحيحة» للألباني (١٥٨٨).

(٥) انظر التعليق السابق. (٦) الجماء والجلحاء: التي ليس لها قرن.

(٧) صحيح: وهذا الإسناد ضعيف. رواه أحمد (١/ ٧٢)، وفيه الحجاج بن نصير: ضعيف، لكن أصل الحديث صحيح يشهد له حديث أبي ذر السابق، ويشهد له حديث أبي هريرة: «لَتُرَدَّنَّ الحقوق إلىٰ أهلها، حتىٰ يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء» رواه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

(٨) صحيح: رواه عبد الرزاق والطبري (٧/ ١٨٨)، والحاكم (٢/ ٢١٧)، وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهذا الأثر موقوف، وهو في حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي.

(٩) ضعيف: رواه الطبري (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩) وهو حديث طويل مداره علىٰ إسماعيل بن رافع، وهو ضعيف الحفظ كما قال الحافظ (تقريب ـ ٤٤٢)، لكن لبعض جمله شواهد.

فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ (١٧) صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن(١) فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: هو المتصرف في خلقِهِ بما يشاء.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ (٤١) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾

يُخْبِر تعالىٰ أنَّه الفعَّال لما يُريدُ، المتصرِّف في خلقِهِ بما يشاء، وأنَّه لا مُعقِّب لحكمه، ولا يَقْدِر أحدٌ علىٰ صرف حُكْمِهِ عن خلقه، بل هو وحده لا شَريكَ له، الَّذي إذا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنَّه لا يَقْدِر أحدٌ علىٰ دَفْعِ ذلك سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في اتِّخاذِكُم آلهة معه.

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: في وقتِ الضَّرُورة لا تدعون أحدًا سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الآية [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ يعني: الفقر والضِّيق في العَيْشِ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يَدْعُون الله، ويَتَضَرَّعُونَ إليه، ويَخْشَعُون.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أي: فهلَّا إذِ ابْتَلَيْنَاهُم بذلك تضرَّعوا إلينا، وتَمَسْكَنُوا إلينا ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: ما رَقَّت ولا خَشَعَتْ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: أَعْرَضُوا عنه، وتَنَاسَوهُ، وجَعَلُوهُ وراء ظهورهم ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرِّزق مِن كلِّ ما يَخْتَارُون، وهذا اسْتِدْرَاجٌ منه تعالىٰ، وإملاءٌ لهم -عياذًا بالله مِن مَكْرِهِ- ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: من الأموال والأولاد

---

(١) لوحة (٢٩أ).

والأَرْزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: علىٰ غفلةٍ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[(١)] أي: آيِسُونَ مِن كلِّ خيرٍ.

قال الوالبي، عن ابن عبَّاس: المُبْلِس: الآيِس.

وقال الحسن البصري: مَن وسَّع الله عَلَيْهِ فلَمْ يرَ أنَّه يُمْكَرُ بِهِ، فلا رَأْيَ لَهُ. ومن قَتَر عليه فلم يَرَ أنَّه ينظرُ له، فلا رَأْيَ لَهُ، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قال الحسن: مُكِرَ بالقَوْمِ وربِّ الكعبة؛ أُعْطُوا حَاجَتَهُم ثمَّ أُخِذُوا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: بَغَتَ القَومَ أمرُ الله، وما أَخَذَ الله قومًا -قط- إلَّا عند سَكْرَتِهِم، وغِرَّتِهِم، ونَعِيمِهِم، فلا تَغْتَرُّوا بالله، إنَّه لا يَغْتَرُّ بالله إلا القوم الفَاسِقُون. رواه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقال مالك: عن الزُّهْرِيِّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قال: إِرْخاء الدُّنيا وسِتْرُهَا.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن غَيْلان، حدَّثنا رِشْدِين -يعني ابن سعد أبا الحجاج المهري- عن حَرْمَلَة بن عمران التُّجِيبي، عن عُقْبَة بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[(٢)].

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم مِن حديث حَرْمَلة وابن لَهِيعة، عن عُقْبَةَ بن مسلم، عن عقبة بن عامر به.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا عِرَاك بن خالد بن يزيد، حدَّثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَة، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ [بَقَاءً -أَوْ: نَمَاءً- رَزَقَهُمُ القَصْدَ وَالعَفَافَ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ]**[(٣)] **اقْتِطَاعًا فَتَحَ لَهُمْ -أَوْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ- بَابَ خِيَانَةٍ**»[(٤)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) لوحة (٢٩ب).

(٢) حسن لغيره: رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، وفي إسناده رشدين بن سعد: ضعيف، ورواه الطبري (٧/ ١٩٥)، وابن أبي حاتم (٧٢٨٨) وهي متابعات رشدين بن سعد، وللحديث متابعات أخرىٰ استوفاها شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤١٣)، وحكم علىٰ الحديث بالصحة.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٢٨٣)، وفيه عراك بن خالد: لين الحديث، وأبوه: ضعيف، والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٣٠٦).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ
إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول الله تعالىٰ لرسوله محمَّدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: سلبكم إيَّاها كما أعطاكموها فإنَّه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ(١) وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

ويُحتمَلُ أن يكون هذا عبارة عن مَنْع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: هل أحد غير الله يَقْدِرُ علىٰ رَدِّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يَقْدِر علىٰ ذلك أحدٌ سواه؛ ولهذا قال [عزَّ شأْنُهُ]: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نُبيِّنُها ونُوضِحُها ونُفسِّرُها دالَّة علىٰ أنَّه لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون مِن دونه باطلٌ وضلالٌ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ثم هُم -مع هذا البيان- يُعْرِضُون عن الحقِّ، ويَصُدُّون النَّاس عن اتِّباعِهِ.

قال العوفي: عن ابن عبَّاس ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي يعدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يُعْرِضُونَ، وقال السُّدِّي: يَصُدُّون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي: وأَنْتُمْ لا تَشْعُرون به حتىٰ بَغتكُم وفَجأكُم.

﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهرًا عيانًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: إنَّما كان يُحِيطُ بالظَّالِمين أنفسَهم بالشِّرك بالله ﷻ، ويَنْجُو الَّذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالىٰ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُبشِّرين عباد الله المؤمنين بالخيْرات، ومُنْذِرينَ مَن كَفر بالله النِّقْمات والعقوبات؛ ولهذا قال ﷻ ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمَن آمن قلبه بما جاءوا [به](٢)، وأصلح عَمَلَهُ باتِّباعه إيَّاهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنِّسبة إلىٰ ما يَسْتَقبِلُونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنِّسبة إلىٰ ما فاتهم، وتركوه وراءَ ظهورهم مِن أمر الدُّنيا وصَنيعِهَا، اللهُ وَلِيُّهُم فيما خلفوه، وحَافِظُهُمْ فِيمَا تركوه.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرُّسل، وخرجوا عَن أَوَامِرِ الله وطاعَتِهِ، وارتكبُوا محارمه ومَنَاهِيه، وانتهاك حرماته.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ (١) وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ (٢) أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي: لَسْتُ أَمْلِكُهَا، ولا التَّصرف فيها، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب، إِنَّما ذاكَ مِن عِلْمِ الله ﷻ، لا أَطَّلِعُ منه إلا علىٰ ما أطلعني عليه، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أي: ولا أَدَّعِي أَنِّي ملكٌ، إِنَّما أنا بَشَرٌ مِن البَشَرِ، يُوحىٰ إِلَيَّ من الله ﷻ، شَرَّفَنِي بذلك، وأنعم عليَّ به؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أي: لست أَخْرُجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ، ولا أَدْنَىٰ مِنْهُ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق وهُدِيَ إليه، ومَن ضَلَّ عنه ولَمْ يَنْقَدْ له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن -يا محمَّد- ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿لَيْسَ لَهُم ﴾ أي: يومئذٍ ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: لا قريب لهم، ولا شَفِيعَ فيهم مِن عذابه إن أراده بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيَعْمَلُون في هذه الدَّار عملًا يُنَجِّيهِم الله به يوم القيامة مِن

(١) لوحة (٣٠ ب).

(٢) قال القاسمي ﷺ: نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال: دلت الآية علىٰ وجوب تعظيم المؤمنين. ودلت علىٰ أنه ينبغي إنزال المسرة بالمؤمن؛ لأنه أمر بأن يقول لهم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ لتطيب قلوبهم.

عذابه، ويُضاعِفُ لهم به الجزيل مِن ثَوابِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصِّفَة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأَخِصَّاءَك، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يَعْبُدُونه ويَسْأَلُونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك: الصَّلَوات المكتوبات[١].

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي: أتقبل منكم.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يبتغون بذلك العمَلَ وجه الله الكريم، فهم مُخْلِصُون فيما هُم فيه مِن العِبَادَات والطَّاعات.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كما قال نوح عليه السلام في جواب الَّذين قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ قال: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢، ١١٣]، أي: إنما حسابهم علىٰ الله عز وجل، وليس عليَّ مِن حسابهم من شيء، كما أنَّه ليس عليهم مِن حسابي من شيءٍ.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أسباط -هو ابن محمَّد- حدَّثنا أشعث، عن كُرْدُوس، عن ابن مسعود قال: مرَّ الملأ من قريش علىٰ رسول الله ﷺ وعنده: خَبَّاب، وصُهَيْب، وبلال، وعمار. فقالوا: يا محمَّد، أَرَضِيتَ بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾[٢]﴾[٣].

ورواه ابن جرير، من طريق أشعث، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وغيرهم مِن ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمَّد، أَرَضِيتَ بِهَؤُلاءِ مِن قومك؟ أهؤلاء الَّذين منَّ الله عليهم مِن بَيْنِنَا؟ ونحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطْرُدْهُم عنك، فلعلَّك إن طَردتهم أَن نتَّبعك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا

---

(١) لوحة (٣١ أ).

(٢) كذا في (ز) وهي الآية (٥٨)، وفي معظم الطبعات المتداولة ومنها: «الشعب»، و«طيبة»، و«ابن الجوزي»، و«أولاد الشيخ»: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وهي الآية (٥٣)، وما أثبتناه موافق لما في «المسند»، وعند الطبري في «تفسيره» أنها الآية (٥٣).

(٣) حسن لغيره: رواه أحمد (١/ ٤٢٠)، والطبري (٧/ ٢٠٠) من طريق أشعث بن سوار: وهو ضعيف. لكن يشهد له رواية سعد الآتية قريبًا.

عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلىٰ آخر الآية[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد بن يحيىٰ بن[٢] سعيد القطان، حدَّثنا عمرو بن محمَّد العنقزي، حدَّثنا أسباط بن نصر، عن السُّدِّي، عن أبي سعيد الأزدي -وكان قارئ الأزد- عن أبي الكنود، عن خباب في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعُيَيْنَةُ ابن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صُهَيب وبلال وعمار وخبَّاب قاعدًا في ناسٍ مِن الضُّعَفَاء من المؤمنين، فلما رَأَوْهُم حول النَّبيِّ ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا[٣]: إنَّا نُرِيدُ أن تجعل لنا منك مجلسًا تَعْرِف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تَأْتِيكَ فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأَعْبُد، فإذا نحن جِئْنَاك فأَقِمْهُم عنَّا، فإذا نحن فَرَغْنَا فَاقْعُد مَعَهُم إن شئت. قال: «نَعَمْ». قالوا[٤]: فاكتب لنا عليك كتابًا، قال: فدعا بالصَّحِيفَة، ودَعَا عليًّا ليكتب، ونحن قعود في ناحيةٍ، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فرمىٰ رسول الله ﷺ بالصَّحِيفَةِ، ثم دعانا فأتيناه[٥].

ورواه ابن جرير، من حديث أسباط به.

وهذا حديثٌ غريبٌ، فإنَّ هذه الآية مكيَّة، والأقرع بن حابس وعيينة إنَّما أسلما بعد الهِجْرَةِ بدَهْرٍ.

وقال سفيان الثَّوْرِيُّ: عَن المقدام بن شريح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، منهم ابن مسعود قال: كنا نَسْبِقُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، ونَدْنُو منه، ونسمع منه، فقالت قريش: يُدْنِي هؤلاء دُونَنَا، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[٦].

رواه الحاكم في «مستدركه» مِن طريق سفيان، وقال: علىٰ شرط الشيخين[٧]. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» من طريق المقدام بن شريح به.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابْتَلَيْنَا واخْتَبَرْنَا، وامْتَحَنَّا بَعْضَهُم ببعضٍ ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان غَالبَ مَن اتَّبَعَه في أوَّل البعثة ضعفاؤ النَّاس مِن الرِّجَالِ والنِّساء، والعبيد والإِمَاءِ، ولم يَتَّبِعْه من الأشراف إلا قليل، كما قال قومُ نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ الآية [هود: ٢٧]، وكما قال هرقل ملك الروم

---

(١) انظر التعليق السابق.
(٢) في (ز): حدَّثنا سعيد القطان.
(٣) في (ز): قالا.
(٤) لوحة (٣١ ب).
(٥) صححه الألباني: رواه ابن ماجة (٤١٢٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧٣٣١)، وفي الحديث أبو سعيد الأزدي وأبو الكنود، قال عنهما الحافظ: مقبول؛ يعني: إذا توبعا، ولم أجد لهما متابعًا.
قلت: لكن يشهد له الروايات المذكورة في الباب، ولذا صححه البوصيري، والشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجة».
(٦) مسلم (٢٤١٣)، والحاكم (٣/ ٣١٩)، وابن حبان (٦٥٧٣).
(٧) بل رواه من هو أعلىٰ من الحاكم، وهو الإمام مسلم.

لأبي سفيان -حين سأله عن تلك المسائل- فقال له: فَهَلِ اتَّبعَه ضعفاءُ النَّاس أو أشرافهم؟ قال: بل ضُعَفَاؤُهم. فقال: هم أَتْبَاع الرُّسل[(١)].

والغرض: أنَّ مُشْرِكِي قريش كانوا يَسْخَرُون بمَنْ آمَنَ مِن ضُعَفَائِهِم، ويُعَذِّبُون مَن يَقْدِرُون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؟ أي: ما كان الله لِيَهْدِي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيرًا- ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال في جَوابِهِم حين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أَعْلَمُ بالشَّاكِرِينَ له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم[(٢)]، فيُوَفِّقُهُم ويَهْدِيهم سُبُلَ السَّلام، ويُخْرِجُهُم مِن الظلمات إلى النُّور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفي الحديث الصحيح: **«إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلا إِلَىٰ أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**[(٣)].

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم: حدَّثنا[(٤)] الحسين، حدَّثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، عن عِكْرِمة في قوله: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ الآية، قال: جاء عُتْبَة بن رَبيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، ومُطعِم بن عَدِيّ، والحارث بن نَوْفَل، وقَرَظَة بن عبد عمرو بن نوفل، في أَشْرَافٍ مِن بني عبد منافٍ مِن أهل الكُفْر إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، لو أنَّ ابن أخيك محمَّدًا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنَّما هم عبيدنا وعُسَفاؤُنا[(٥)]، كان أعظمَ في صدورنا، وأَطْوَع له عِندَنا، وأدنى لاتِّباعنا إيَّاه، وتَصْدِيقِنَا له. قال: فأتى أبو طالب النَّبيَّ ﷺ، فحدَّثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو فعلتَ ذلك حتَّى تَنظُر ما الذي يُرِيدُون، وإلى ما يَصِيرُون من قولهم؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قال: وكانوا بلالًا وعمار بن ياسر، وسالمًا مولى أبي حذيفة، وصبيحًا مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود ابن القاري، وواقد ابن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو، وذو الشِّمالين، ومَرْثَد بن أَبِي مَرْثَد[(٦)] -وأبو مرثد[(٧)] مِن غَنِيٍّ حليف حمزة بن عبد المطلب- وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ الآية. فلما نزلت أقبل

---

(١) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).
(٢) لوحة (٣٢ أ).
(٣) مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجة (٤١٤٣).
(٤) في (ز): القاسم بن الحسين.
(٥) العُسفاء: جمع عَسيف، وهو العبد والأجير.
(٦) في (ز): «ويزيد بن أبي يزيد».
(٧) وقع في بعض النسخ: أبو مرثد الغنوي، وما أثبتناه موافق لما في «الطبري».

عمر ﷺ فاعتذر مِن مقالته، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ﴾ الآية[١].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فَأَكْرِمْهُم بردِّ السَّلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أي: أوجبها علىٰ نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل مَن عصىٰ الله فهُو جاهلٌ.

وقال معتمر بن سليمان: عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة في قوله[٢]: ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال: الدُّنيا كلُّها جهالة. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأَقْلَعَ وعَزَمَ علىٰ ألَّا يعود، وأصلح العمل في المستقبل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن همَّام بن منبه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الخَلْقَ**[٣]**، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»[٤]. أخرجاه في «الصحيحين».

وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ورواه موسىٰ بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة. وكذا رواه الليث وغيره، عن محمَّد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ بذلك. وقد روىٰ ابن مَرْدويه، من طريق الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ الخَلْقِ، أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً أَوْ قَبْضَتَيْنِ فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ خَلْقًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا، مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: عُتَقَاءُ اللهِ**»[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن عاصم بن سليمان، عن أبي عثمان النَّهْدِي، عن سلمان في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ قال: إنَّا نجد في التَّوْرَاةِ عطفتين: أنَّ الله خلق السموات والأرض، وخلق مائةَ رحمة -أو: جعل مائة رحمة- قبل أَن يخلق الخَلْقَ، ثمَّ خلق الخَلْقَ، فوضع بَيْنَهُم رحمةً واحدةً، وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمةً. قال: فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبَاذَلُون، وبها يتَزَاوَرُون، وبها تحِنُّ النَّاقة، وبها تَثِجُّ[٦] البقرة، وبها [تُيْعر][٧] الشاة، وبها تَتَابعُ الطير، وبها تَتَابع الحيتان في البحر. فإذا كان يوم القيامة، جمع الله تلك الرحمة إلىٰ ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع[٨].

---

(١) مرسل: رواه ابن جرير (٢٠٢، ٢٠٣) عن عكرمة، وهو مرسل، والمرسل ضعيف.

(٢) لوحة (٣٢ ب). (٣) في (ز): «لما قضىٰ الله علىٰ الخلق».

(٤) البخاري (٣١٩٤) (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١)، والترمذي (٣٥٣٧) والنسائي، وابن ماجة (١٨٩) (٤٢٩٥).

(٥) عزاه لابن مردويه. ورجاله ثقات عدا الحكم بن أبان . قال الحافظ: صدوق له أوهام.

(٦) تثج؛ أي: تصب الدم صبًا.

(٧) في (ز): (تثغو)، والمثبت موافق لما في «المصنف» لعبد الرزاق، وابن جرير.

(٨) صحيح موقوف: رواه عبد الرزاق، والطبري (٧/ ١٥٥)، وثبت نحوه مرفوعًا كما أشار ابن كثير، وهو الآتي.

وقد روي هذا مرفوعًا من وجه آخر [(١)] وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ومما يناسب هذه الآية الكريمة من الأحاديث أيضًا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ لا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثم قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ» [(٢)] وقد رواه الإمام أحمد، من طريق كميل بن زياد، عن أبي هريرة رضي الله عنه [(٣)].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ [(٤)] قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما بيّنّا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل علىٰ طَريقِ الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلىٰ بيانها ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولِتَظْهَرَ طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقرئ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [(٥)] أي: ولِتَسْتَبِينَ يا محمّد -أو يا مخاطب- سبيل المجرمين.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: علىٰ بَصِيرَةٍ مِن شريعة اللهِ التي أَوْحَاهَا إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلىٰ الله، إن شاء عَجّل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أَنْظَرَكُمْ وأَجَّلَكُمْ؛ لما له في ذلك من الحِكْمَةِ العظيمة. ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ [(٦)] ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخَيْرُ الفاتحين الحاكمين بين عباده.

وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾ أي: لو كان مَرْجِعُ ما تَسْتَعْجِلُون به إليّ لأَوْقَعْتُ بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) مسلم (٢٧٥٣).

(٢) البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠)، والترمذي (٢٦٤٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٠/ ٢٣٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٠٩).

(٤) لوحة (١٣٣أ).

(٥) متواترة: قَرَأَ (وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ) شُعْبَةُ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَقَرَأَ (وَلْيَسْتَبِينَ سَبِيلُ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ).

(٦) في (ز): (يقض)، وهي قراءة متواترة: قَرَأَ (يَقُصُّ) نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَقْضِ).

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في «الصحيحين» مِن طريق ابن وَهْب، عن يونس، عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشدَّ مِن يوم أحد؟ فقال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُ يَوْمَ العَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ[١] ابْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[٢]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عليه السلام فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ، لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ»، فقال رسول الله ﷺ[٣]: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٤]، وهذا لفظ مسلم.

فقد عرض عليه عذابَهُم واسْتِئْصَالَهُمْ، فاستَأْنَىٰ بِهِم[٥][٦]، وسأل لهم التَّأْخِير، لعلَّ الله أن يُخْرِج من أصلابهم مَن لا يُشْرِك به شيئًا. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؟

فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دلَّت علىٰ أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذي يطلبونه حالَ طَلَبهم له لأوقعه بهم. وأمَّا الحديث فليس فيه أنَّهم سألوه وقوعَ العَذَاب بهم، بل عَرَض عليه مَلَك الجبال أنَّه إن شاء أطْبَق عليهم الأَخْشَبَيْن -وهما جبلا مكَّة اللَّذان يَكْتَنِفَانِهَا جنوبًا وشمالًا- فلهذا استأنىٰ بهم، وسأل الرفق لهم.

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قال البخاري: حدَّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾» [لقمان: ٣٤][٧].

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنَّ جبريل حين تبدَّىٰ [له] في صورةِ أعرابي فسأل عن الإِسْلَام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ﷺ فيما قال له: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ

---

(١) ابن عبد ياليل كان من أكابر ثقيف، واسمه كنانة.

(٢) قرن الثعالب: جبل مشرف علىٰ أسفل منىٰ، بينه وبين مسجد منىٰ ألف وخمسمائة ذراع، وقيل له: قرن الثعالب لكثرة ما كان يأوي إليه من الثعالب. «فتح الباري»: (٣/ ٣٨٥). وأخطأ محقق طبعة الشعب (٣/ ٢٥٩) حيث جعل قرن المنازل وقرن الثعالب واحدًا. والصحيح أنهما اثنان؛ فقرن المنازل: ميقات أهل نجد، ويسمىٰ الآن: السيل الكبير، وقرن الثعالب غيره. وانظر: «الشرح الممتع»: (٧/ ٤٥).

(٣) لوحة (٣٣ ب).

(٤) البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، وابن حبان (٦٥٦١).

(٥) في (ز): «فستأناهم».

(٦) استأنىٰ به؛ أي: انتظر به ولم يعجله.

(٧) البخاري (١٠٣٩) (٤٦٩٧) (٧٣٦٩)، وأحمد (٢/ ٨٥).

﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤][(١)].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يُحِيطُ علمه الكريم بجَمِيعِ الموجودات، بَرِّيها وبَحْرِيِّها، لا يخفىٰ عليه مِن ذلك شيء، ولا مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصَّرْصَرِيُّ:

فَــلَا يَخْفَــىٰ عَلَيْـــهِ الـــذَّرُّ إِمَّـــا تَـــرَاءَىٰ لِلنَّـــوَاظِرِ أَوْ تَـــوَارَىٰ

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: ويعلم الحركات حتىٰ من الجمادات، فما ظَنُّكَ بالحيوانات، ولا سِيَّما المُكَلَّفُون منهم من جنِّهم وإِنْسِهِم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا الحسن بن الرَّبيع، حدَّثنا أبو الأحْوَص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما مِن شجرةٍ في برٍّ ولا بَحْرٍ إلا ومَلَكٌ مَوَكَّلٌ بها، يَكْتُبُ مَا يَسْقُطُ منها[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ [(٣)] ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال محمَّد بن إسحاق: عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنَّ تَحْتَ الأرض الثَّالثة وفوق الرابعة من الجنِّ ما لو أنَّهم ظهروا -يعني لكم- لَمْ تَرَوْا معهم نورًا، علىٰ كلِّ زاويةٍ مِن زوايا الأرض خاتَمٌ مِن خَواتِيم الله ﷻ، علىٰ كل خاتَمٍ مَلَكٌ من الملائكة، يبعث الله ﷻ إليه في كلِّ يوم ملكًا مِن عنده: أَنِ احْتَفِظْ بِمَا عِنْدَكَ[(٤)].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن عبد الرحمن بن المِسوَر الزهري، حدَّثنا مالك بن سُعَيْر، حدَّثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحَارث قال: ما في الأرض مِن شجرةٍ ولا مغْرزِ إِبْرَةٍ إلا عليها ملكٌ مُوَكَّلٌ يَأْتِي الله بِعِلْمِهَا: رطوبتها إذا رطبت، ويَبَسها إذا يبست[(٥)].

وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير به.

ثم قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن أبي حذيفة، حدَّثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: خلق الله النُّونَ -وهي الدَّوَاة- وخلق الأَلْوَاح، فكَتَبَ فيها أَمْرَ الدُّنْيَا حتىٰ يَنْقَضِيَ ما كان مِن خلق مخلوقٍ، أو رزقٍ حلالٍ أو حرامٍ، أو عملٍ بِرٍّ أو فجورٍ، وقرأ هذه

---

(١) مسلم (٨)، وقد ثبت ذكر الآية في حديث أبي هريرة. رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٧٣٦٩)، وأخرجه مسدد كما في «المطالب العالية» (٣٦١٤)، وفيه حسان الفهري بدلًا من النميري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) لوحة (٣٤أ).

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٣٧٠)، وفيه محمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، والأثر يغلب عليه أنه من الإسرائيليات، ومعلوم أن عبد الله بن عمرو ممن أخذوا من كتب بني إسرائيل ورووا عنها.

(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٣٧١)، والطبري (٧/ ٢١٣)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

الآية: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ إلى آخر الآية[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

يُخْبر تعالىٰ أنَّه يتوفىٰ عباده في مَنَامِهم باللَّيل، وهذا هو التَّوَفِّي الأصغر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوَفَاتَيْن: الكبرىٰ والصُّغرىٰ، وهكذا ذكر في هذا المقام حُكْمَ الوَفَاتَيْنِ الصغرىٰ ثم الكبرىٰ، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملةٌ معترضةٌ دلَّت علىٰ إحاطة علمِهِ -تعالىٰ- بخلقه في لَيْلِهم ونَهَارِهم، في حال سكونهم[٢]، وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال -تعالىٰ-: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في اللَّيل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أي: في النَّهار، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ١٠، ١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم بالنَّهار ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي: في النَّهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي.

وقال ابن جريج: عن عبد الله بن كثير: أي في المنام. والأول أظهر. وقد روىٰ ابن مَرْدويه بسنده عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَع كُلِّ إِنْسانٍ مَلَكٌ إذَا نَامَ أَخَذَ نَفْسَهُ، وَيُرَدُّ إِلَيْه. فَإِنْ أَذِنَ اللهُ فِي قَبْضِ رُوحِهِ قَبَضَهُ، وَإِلَّا رُدَّ إِلَيْه»، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾[٣].

وقوله: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ يعني به: أجل كلِّ واحدٍ من النَّاس ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ويجزيكم علىٰ ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ، وخضع لجلاله وعَظَمَتِهِ وكِبْرِيَائِهِ كُلُّ شيءٍ.

﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٣٧٢)، وفيه انقطاع، وفيه أيضًا رجل مجهول.

(٢) لوحة (٣٤ ب).

(٣) ضعيف: فرواية الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس منقطعة، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٠) إلىٰ أبي الشيخ وابن مرْدَويه.

﴿بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظَةٌ يحفظون عمله، ويُحْصُونَهُ عليه[١]، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ -١٢]، وقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا احتضَرَ وحان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكةٌ مُوَكَّلُونَ بذلك.

قال ابن عبَّاس وغير واحد: لملك الموت أعوانٌ مِنَ الملائكة، يُخرِجُونَ الرُّوح مِن الجسد، فيَقْبِضُهَا مَلَكُ الموت إذا انتَهتْ إلىٰ الحُلْقوم.

وسيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ [فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ]﴾ [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلِّقة بذلك، الشَّاهدة لهذا المرويِّ عن ابن عبَّاسٍ وغيره بالصحة.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفىٰ، بل يحفظونها، وينزلونها حيث شاء الله ﷻ؛ إن كان مِنَ الأبْرَارِ فَفِي عِلِّيين، وإن كان من الفُجَّار فَفِي سِجِّين، عياذًا بالله مِن ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾][٢].

ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن [أبي هريرةَ في ذِكْرِ صُعُود الملائكة بالرُّوح مِن سماءٍ إلىٰ سماءٍ حتىٰ يَنْتَهِي بها إلىٰ السماء التي فيها الله ﷻ][٣] حيث قال: حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا ابن أبي ذئب، عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هريرة[٤] ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ[٥] كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. فَتُرْسَلُ**

---

(١) قال القاسمي ؒ: الحكمة في ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه، وتعرض علىٰ رءوس الأشهاد، كان أزجر عن المعاصي. وأن العبد إذا وثق بلطف سيده، واعتمد علىٰ عفوه وستره، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه - أفاده القاضي.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (٣٥أ).

(٥) في (ز): «المطمئنة». المثبت موافق لـ«المسند».

مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ القَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ ما قِيلَ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ». هذا حديثٌ غريبٌ[1].

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: الخلائق كلهم إلىٰ الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧ -٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مُمْتنًّا علىٰ عباده في إنجائِهِ المُضطَرِّين منهم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: الحائرين الواقعين في المَهامِهِ[2] البرِّيَّة، وفي اللُّجج البحْريَّة إذا هاجت الرِّيح العاصفة، فحينئذٍ يُفْرِدُونَ الدُّعاءَ له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ[3] طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ الآية [يونس: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهرًا وسرًّا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: مِن هذه الضَّائقةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: بعدها، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أي: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي: تَدْعُونَ معه في حالِ الرَّفاهيةِ آلهةً أُخْرىٰ.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عقبَهُ بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: بعد

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٦٤)، والنسائي (٤/ ٨)، وابن ماجة (٤٢٦٢)، وابن حبان (٣٠١٣).
(٢) المَهْمَهُ والمَهْمَهَةُ: المفازة البعيدة، والبلد المُقْفِرُ، والجمع مَهامِهُ «القاموس المحيط» (ص ١٦٦٤) مادة (مَهَهَ).
(٣) لوحة (٣٥ ب).

إنجائه إيَّاكم، كما قال في سورة سبحان: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦ -٦٩].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا هارون الأعور، عن جعفر بن سليمان، عن الحسن في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: هذه للمشركين.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ لأمَّة محمَّدٍ ﷺ فعفا عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار، وبالله المستعان، وعليه التكلان، وبه الثقة.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ يلبسكم: يَخْلِطكُم، من الالتباس، يَلْبِسوا: يَخْلطُوا. شيعًا: فرقًا.

حدَّثنا أبو النعمان، حدَّثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلۡ هُوَ[1] ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**». ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**». ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**هَذِهِ أَهْوَنُ -أَوْ قَالَ: هَذَا أَيْسَرُ**»[2].

وهكذا رواه أيضًا في «كتاب التوحيد» عن قتيبة، عن حماد به.

ورواه النسائي أيضًا في «التفسير» عن قتيبة، ومحمَّد بن النضر بن مساور، ويحيىٰ بن حبيب بن عربي[3] أربعتهم[4]، عن حماد بن زيد به.

وقد رواه الحميدي في «مسنده»، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمع جابرًا عن النَّبيِّ ﷺ به.

ورواه ابن حبان في «صحيحه» عن أبي يعلىٰ الموصلي، عن أبي خيثمة، عن سفيان بن عيينة به.

ورواه ابن جرير في «تفسيره» عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع، وسفيان بن وَكِيع، كلهم عن سفيان بن عيينة به.

ورواه أبو بكر بن مَرْدوَيه، من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيىٰ بن عبد الحميد، وعاصم بن علي،

---

(١) لوحة (٣٦أ).

(٢) البخاري (٤٦٢٨) (٧٤٠٦)، وابن حبان (٧٢٢)، وأبو يعلىٰ (١٩٦٧)، والنسائي في «الكبرىٰ»، والحميدي (١٢٥٩).

(٣) في (ز): عدي. والصواب ما أثبتناه.

(٤) كذا في (ز): أربعتهم. وهم ثلاثة، ولعل الرابع هو أبو النعمان، أو هو سهو من الناسخ.

عن سفيان بن عيينة به.

ورواه سعيد بن منصور، عن حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، كلاهما عن عمرو بن دينار به.

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره»: حدَّثنا سليمان بن أحمد، حدَّثنا مقدام بن داود، حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: «هَذَا أَيْسَرُ»، ولو استعاذه لأعاذه(١).

ويتعلَّق بهذه الآية الكريمة أحاديث كثيرة:

أحدها: قال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»: حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا أبو بكر -هو ابن أبي مريم- عن راشد -هو ابن سعد المقرئي- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «أَمَا إِنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ»(٢).

وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن أبي مريم به، ثم قال: هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يعلىٰ -هو ابن عبيد- حدَّثنا عثمان بن حكيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتىٰ مَرَرْنَا(٣) علىٰ مسجد بني معاوية، فدخل فصَلَّىٰ رَكْعَتَيْن، فصَلَّيْنا معه، فناجىٰ ربه عز وجل طويلًا، قال: سألتُ رَبِّي ثلاثًا «سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ(٤) فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»(٥).

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه في «كتاب الفتن» عن أبي بكر بن أبي شيبة، و(٦) محمَّد بن عبد الله بن نمير، كلاهما عن عبد الله بن نمير -وعن محمَّد بن يحيىٰ بن أبي عمر، عن مروان بن معاوية، كلاهما عن عثمان بن حكيم به.

حديثٌ آخر: قال الإمام أحمد: قرأت علىٰ عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن مالك، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عَتِيك أنَّه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية -قرية من قرىٰ الأنصار- فقال لي: هل تَدْرِي أَيْنَ صَلَّىٰ رسول الله ﷺ في مَسْجِدِكُم هذا؟ فقلت: نَعَم. فَأَشَرْتُ

---

(١) ضعيف بهذا الإسناد، وأصله صحيح كما تقدم، وهذه الطريق فيها ابن لهيعة: اختلط، وأبو الزبير: مدلس.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٠٦٨)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف اختلط.

(٣) لوحة (٣٦ب).

(٤) السنة: الجدب والقحط.

(٥) رواه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ٢٧٥).

(٦) في (ز): «عن محمَّد». والمثبت هو الصواب.

إِلَىٰ نَاحِيَةٍ منه، فقال: هل تَدْرِي ما الثَّلَاث التي دعا بِهِنَّ فيه؟ فقلت: نعم. فقال: أخبرني بهن، فقلتُ دعا أَلَّا يُظْهِر عليهم عدوًّا مِن غَيْرِهِم، ولا يُهْلِكَهُم بالسِّنِين، فَأُعْطِيَهُمَا، ودَعَا بِأَن لا يجعل بَأْسَهُم بَيْنَهُم، فَمُنِعَهَا. قال: صدقت، فلا يزال الهَرْجُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ[١].

ليس هو في شيءٍ من الكُتُبِ السِّتَّة، وإسناده جيِّدٌ قويٌّ، ولله الحمد والمنَّة.

حديثٌ آخر: قال محمَّد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد، عن حُنَيف، عن علي بن عبد الرحمن، أخبرني حذيفة بن اليمان قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إِلَىٰ حَرَّةِ بني معاوية، قال: فصلَّىٰ ثماني ركعات، فأطال فيهنَّ، ثمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فقال: «حَبَسْتُكَ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً؛ سَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَهُمْ بِغَرَقٍ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِي**»[٢]. رواه ابن مَرْدوَيه من حديث ابن إسحاق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبيدة بن حميد، حدَّثني سليمان الأعمش[٣]، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله بن شداد، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ أَطْلُبُه فقيل لي: خرج قَبْلُ. قال: فجعَلْتُ لا أَمُرُّ بأحدٍ إلا قال: مَرَّ قَبْلُ. حتىٰ مَرَرْتُ فوجدته قائمًا يصلِّي. قال: فجِئْتُ حتىٰ قُمْتُ خلفه، قال: فأطال الصَّلاة، فلما قضىٰ صلاته قلت: يا رسول الله، لقد صلَّيت صلاةً طويلةً؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي**[٤] **وَاحِدَةً. سَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي غَرَقًا فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا لَيْسَ مِنْهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّهَا عَلَيَّ**»[٥].

ورواه ابن ماجة في «الفتن[٦]» عن محمَّد بن عبد الله بن نمير، وعلي بن محمَّد، كلاهما عن أبي معاوية، عن الأعمش به.

ورواه ابن مَرْدوَيه من حديث أبي عَوَانة، عن عبد الله بن عُمَير[٧]، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن معاذ بن جبل عن النَّبيِّ ﷺ بمثله أو نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا هارون بن معروف، حدَّثنا عبد الله بن وَهْب، أخبرني عمرو بن

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٤٥)، وإسناده صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٧/ ٨٠، ٤٢٢)، وفيه محمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، فالإسناد ضعيف لكن يشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة في الباب، وبها يصح الحديث.

(٣) في (ز): «سليمان بن الأعمش». (٤) لوحة (٣٧ أ).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٢٤٠)، وابن ماجة (٣٩٥١)، وفيه رجاء الأنصاري: مقبول، ويشهد لصحته الرواية السابقة.

(٦) في (ز): «السنن».

(٧) كذا في (ز)، وصوابه: «عبد الملك بن عمير»؛ كما في بعض النسخ.

الحارث، عن بُكَيْر بن الأشج أنَّ الضَّحَّاك بن عبد الله القرشي حدثه، عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفرٍ صلىٰ سُبْحَةَ(١) الضُّحىٰ ثماني ركعات. فلما انصرف قال: «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَلَّا يَبْتَلِيَ أُمَّتِي بِالسِّنِينَ فَفَعَلَ. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَفَعَلَ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا فَأَبَىٰ عَلَيَّ»(٢).

رواه النسائيُّ في الصلاة، عن محمَّد بن سلمة، عن ابن وهب به.

حديثٌ آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة قال: قال الزُّهري: حدَّثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن خباب، عن أبيه خباب بن الأرت -مولىٰ بني زهرة، وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ- أنَّه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلةٍ صلَّاها كلها، حتىٰ كان مع الفجر فسَلَّم رسول الله ﷺ من صلاته، قلت: يا رسول الله، لقد صلَّيْتَ اللَّيْلَة صلاةً ما رأيتك صليتَ مثلها. فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلْ، إِنَّهَا صَلَاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَلَّا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَلَّا يَلْبِسَنَا شِيَعًا فَمَنَعَنِيهَا»(٣).

ورواه النَّسائي مِن حديث شعيب بن أبي حمزة به، ومِن وجهٍ آخر. وابن حبَّان في «صحيحه» بإسناديهما عن صالح بن كيسان -والترمذي في «الفتن» من حديث النعمان بن راشد- كلاهما عن الزهري به، وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو جعفر بن جرير في «تفسيره»(٤): حدَّثني زياد بن عبيد الله المزني، حدَّثنا مروان ابن معاوية الفزاري، حدَّثنا أبو مالك، حدَّثني نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه؛ أن النَّبيَّ ﷺ صلَّىٰ صلاةً خفيفةً تامَّةَ الركوع والسُّجود، فقال: «قَدْ كَانَتْ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللهَ ﷻ فِيهَا ثَلَاثًا، أَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يُصِيبَكُمْ بِعَذَابٍ أَصَابَ بِهِ مَنْ قَبْلَكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْكُمْ عَدُوًّا يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا». قال أبو مالك: فقلت له: أبوك سمع هذا مِن فِيِّ رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، سَمِعْتُهُ يُحَدِّث بها القوم أنَّه سَمِعَهَا مِن فِيِّ رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) السُّبحة: صلاة النفل.

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٤٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» كما في «التحفة»، وابن خزيمة (١٢٢٨)، والحاكم (١/ ٣١٤) وصححه، ووافقه الذهبي، ومع أن فيه الضَّحَّاك بن عبد الله القرشي: فيه جهالة، لكن للحديث طريق أخرىٰ رواها الطبراني في «الصغير» (١/ ٨)، وفيه جنادة بن مروان: ضعيف.

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٠٨)، وإسناده صحيح، والنسائي (٣/ ٢١٦)، وابن حبان (٧٢٣٦)، والترمذي (٢١٧٦).

(٤) لوحة (٣٧ ب).

(٥) رواه الطبري (٧/ ٢٢٣)، وفيه نافع بن خالد: ضعيف، لم يوثقه غير ابن حبان، قال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديثه انظر: «لسان الميزان» (٢/ ٢٨٨)، فالإسناد ضعيف، ولكن يشهد لصحته الروايات السابقة.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق قال: قال مَعْمَر، أخبرني أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أبي أسماء الرَّحْبي، عن شداد بن أَوْس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ(١) لِيَ الأَرْضَ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَإِنِّي أُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَبْيَضَ وَالأَحْمَرَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ(٢)، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا فَيُهْلِكَهُمْ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ. وَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ(٣) بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيُهْلِكَهُمْ بِعَامَّةٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا، وَبَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا». قال: وقال النَّبيُّ ﷺ «وَإِنِّي لا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي إِلَّا الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، فَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»(٤). ليس في شيءٍ من الكتب الستة، وإسناده جيدٌ قويٌّ.

وقد رواه ابن مَرْدوَيه مِن حديث حماد بن زيد، وعباد بن منصور، وقتادة، ثلاثتهم عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثَوْبان، عن رسول الله ﷺ بنحوه، فالله أعلم(٥).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه: حدَّثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفي قالا: حدَّثنا أحمد بن عبد الجبار، حدَّثنا محمَّد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه قال -وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ(٦)، وكان من أصحاب الشجرة-: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّىٰ والنَّاس حوله، صلَّىٰ صلاةً خفيفةً تامَّة الرُّكوع والسُّجود. قال: فجلس يومًا فأطال الجُلُوس حتىٰ أَوْمَأَ بعضُنَا إلىٰ بَعْضٍ: أنِ اسْكُتُوا، إنَّه ينزل عليه. فلمَّا فرغ قال لَهُ بعض القوم: يا رسول الله، لقد أَطَلْتَ الجلوس حتىٰ أَوْمَأَ بعضنا إلىٰ بعض: إنَّه ينزل عليك. قال: «لا، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ صَلاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللهَ فِيهَا ثَلاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يُعَذِّبَكُمْ بِعَذَابٍ عَذَّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِي عَدُوًّا يَسْتَبِيحُهَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»، قال: قلت له: أبوك سَمِعَهَا مِن رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَم، سمعته يقول: إنه سَمِعَهَا مِن رسولِ اللهِ -صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم- عددَ أَصَابِعِي هذه، عشر أصابع(٧).

---

(١) زوىٰ: ضم وجمع. (٢) أي: بقحطٍ عامٍّ يعم جميعهم.
(٣) في النسخ الخطية: «أهلكتهم»، و«يهلكهم»، والتصويب من «المسند» (٤/ ١٢٢).
(٤) رواه أحمد (٤/ ١٢٣)، وإسناده صحيح.
(٥) قال هاني الحاج: (وهذا وهمٌ من الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فقد أخرج الحديث مسلم في «الفتن» (٢٨٨٩) عبد الباقي، وأبو داود في «الفتن» (٤٢٥٢)، والترمذي في «الفتن» (٢١٧٦)، وابن ماجة في «الفتن» (٣٩٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه). اهـ «التحبير للأوهام في تفسير ابن كثير» (ص٤٨).
(٦) لوحة (١٣٨أ). (٧) تقدم قريبًا.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس -هو ابن محمَّد المؤدب- حدَّثنا ليث -هو ابن سعد، عن أبي وَهْب الخولاني- عن رَجُل قد سمَّاه، عن أبي بَصْرَة الغِفَاري صاحب رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَرْبَعًا، فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُ اللهَ أَلَّا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا أَهْلَكَ الأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُ اللهَ ﷻ أَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»(١). لم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر: قال الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا منجاب بن الحارث، حدَّثنا أبو حذيفة الثعلبي، عن زياد بن عِلاقة، عن جابر بن سَمُرَة السَّوائي، عن علي ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، لَا تُهْلِكْ أُمَّتِي جُوعًا فَقَالَ: هَذِهِ لَكَ. قُلْتُ: يَا رَبِّ، لَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ -يَعْنِي أَهْلَ الشِّرْكِ- فَيَجْتَاحُهُمْ. قَالَ ذَلِكَ لَكَ، قُلْتُ: يَا رَبِّ، لَا تَجْعَلْ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». قال: «فَمَنَعَنِي هَذِهِ»(٢).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، عن أحمد بن محمَّد بن عاصم، حدَّثنا أبو الدرداء المروزي، حدَّثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، حدَّثني أبي، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «دَعَوْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ يَرْفَعَ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعًا، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ(٣) اثْنَتَيْنِ، وَأَبَىٰ عَلَيَّ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ. دَعَوْتُ رَبِّي أَنْ يَرْفَعَ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالغَرَقَ مِنَ الأَرْضِ، [وَأَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ، وَالغَرَقَ مِنَ الأَرْضِ](٤)، وَأَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ اثْنَتَيْنِ: القَتْلَ، وَالهَرْجَ»(٥).

طريق أخرىٰ عن ابن عبَّاس أيضًا: قال ابن مَرْدوَيه: حدَّثني عبد الله بن محمَّد بن زيد، حدَّثني الوليد ابن أبان، حدَّثنا جعفر بن مُنِير، حدَّثنا أبو بَدْر شجاع بن الوليد، حدَّثنا عمرو بن قيس، عن رَجُل، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فقام النَّبيُّ ﷺ فتوضَّأ، ثم قال: «اللَّهُمَّ لا تُرْسِلْ عَلَىٰ أُمَّتِي عَذَابًا

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٩٦)، وفيه رجل مجهول فإسناده ضعيف بهذا اللفظ. ويشهد له ما تقدم من الروايات إلا قوله: «وسألت ربي ألا يجمع أمتي علىٰ ضلالة». وهي لفظة صحيحة في روايات أخرىٰ بدون طلب الدعاء، فقد ثبت قوله: «لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة». رواه الترمذي (٢١٦٧)، وابن ماجة (٢/ ١٣٠٣)، والحاكم (١/ ١١٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣/ ٣١٩).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٧٩)، ويشهد له ما تقدم.

(٣) لوحة (٣٨ ب).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٢٠٤٩)، وفي إسناده عبد الله بن كيسان، قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا، وفي الإسناد إسحاق بن عبد الله بن كيسان في «ميزان الاعتدال» لينه أبو أحمد الحاكم، وقال ابن حبان في «الثقات» في ترجمة أبيه: يتقىٰ حديثه من رواية ابن عبَّاس، وقد صرح البخاري أن أباه هذا: منكر الحديث. انظر: «تهذيب الكمال» (١٥/ ٤٨١).

مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلا مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، وَلا تَلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَلا تُذِقْ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» قال: فأتاه جبريل فقال: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَجَارَ أُمَّتَكَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ»(١).

حديث آخر: قال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن عبد الله البزَّار، حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن موسىٰ، حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا عمرو بن محمَّد العَنْقزي، حدَّثنا أسباط، عن السُّدِّي، عن أبي المِنْهال، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَرْبَعَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُهُ أَلَّا تَكْفُرَ أُمَّتِي وَاحِدَةً، فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»(٢).

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيىٰ بن سعيد القطَّان، عن عمرو بن محمَّد العنقزي، به نحوه.

طريق أخرىٰ: وقال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ، حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا زيد بن الحُباب، حدَّثنا كثير بن زيد الليثي المدني، حدَّثني الوليد بن رباح مولىٰ آل أبي ذُباب، سمع أبا هريرة يقول: قال النَّبيُّ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُهُ أَلَّا يُسَلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ فَأَعْطَانِي. وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا، وَأَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِي»(٣).

ثمَّ رواه ابن مَرْدوَيه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه. ورواه البزَّار من طريق عمر بن سلمة(٤)، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ(٥) ﷺ بنحوه.

أثر آخر: قال سفيان الثوري، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: أربعةٌ مِن هذه الأُمَّة: قد مَضتْ ثِنْتَان، وبقِيَتْ ثِنْتَانِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: الرجم. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: الخسف. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال سفيان: يعني: الرَّجْمَ والخَسْفَ.

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: فهي أربع خِلَالٍ، منها ثِنْتَان بعد وفاةِ رَسُولِ الله ﷺ بخمسٍ وعِشْرِينَ سنةً، أُلبِسوا شيعًا، وذاق بعضُهم بأس بَعْضٍ، وبقِيَتْ اثْنَتَانِ لا بدَّ مِنْهُمَا واقعتَان: الرجم، والخسف.

---

(١) ضعيف: فيه رجل مجهول.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٤١٥)، وإسناده حسن لغيره، ففي الإسناد أسباط بن نصر، والسُّدِّي وكلاهما فيه كلام. لكن يشهد للحديث ما تقدم، ويرقىٰ للتحسين.

(٣) إسناده لا بأس به: ويشهد له الرواية السابقة، والطرق الآتية بعده.

(٤) في (ز): «عمر بن أبي سلمة». (٥) لوحة (٣٩ أ).

ورواه أحمد، عن وَكِيع، عن أبي جعفر. ورواه ابن أبي حاتم[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا المنذر بن شاذان، حدَّثنا أحمد بن إسحاق، حدَّثنا أبو الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الآية، قال: حُبِسَتْ عُقُوبَتُهَا حتىٰ عُمِلَ ذَنْبُهَا، فلما عُمِلَ ذَنْبُهَا أُرْسِلت عُقُوبَتُهَا.

وهكذا قال سعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك، ومجاهد، والسُّدِّي، وابن زيد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الرجم. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود ﷺ يَصِيحُ وهو في المجلس -أو علىٰ المنبر- يقول: ألا أيُّها النَّاس، إنَّه قد نزل بكم، إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لو جاءكم عذابٌ مِن السَّمَاءِ، لم يُبقِ مِنْكُمْ أَحَدًا ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لَوْ خسف بكم الأرض أَهْلَكَكُمْ، لم يُبْقِ منكم أحدًا ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ألا إنَّه نَزَلَ بِكُمْ أَسْوَأُ الثَّلَاثِ[٢].

قول ثان: قال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وَهْب، سمعت خلاد بن سليمان يقول: سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول: إنَّ ابن عبَّاس كان يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [فأمَّا العذابُ مِنْ فَوْقِكُم][٣]، فأئمَّة السُّوءِ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ[٤]﴾ فخدَمُ السُّوءِ[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: أُمراءَكم. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم وسفلتكم[٦].

وحكىٰ ابن أبي حاتم، عن أبي سنان وعمير بن هانئ، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوىٰ.

وهو كما قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشهد له بالصِّحَّة قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ

---

(١) رواه الطبري (٧/ ٢٢٩)، وابن أبي حاتم (٧٣٩٨)، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق يخطئ.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٢٢٠)، وفيه انقطاع بين عبد الرحمن بن زيد وابن مسعود، وأيضًا فعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف، ومنهم من تركه.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وما أثبتناه موافق لما في «الطبري».

(٤) لوحة (٣٩ ب).

(٥) رواه الطبري (٧/ ٢٢٠)، وابن أبي حاتم (٧٤٠٧)، وعامر بن عبد الرحمن أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٤٤٩)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ١٨٨)، وهو متساهل في توثيق الرجال، وقد ورد من طريق أخرىٰ منقطعة، وهي الآتية بعده، فالأثر حسن لغيره.

(٦) رواه الطبري (٧/ ٢٢٠)، وابن أبي حاتم (٧٤٠٨)، وإسناده منقطع، لكن يشهد له الطريق السابقة.

﴿ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧]، وفي الحديث: «لَيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ»(١)، وذلك مذكورٌ مع نظائره في أمارات السَّاعة وأَشْرَاطها، وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يَجْعَلَكُم مُلْتَبِسِينَ شيعًا: فرقًا مُتخالِفِينَ. قال الوالبي: عن ابن عبَّاس: يعني: الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقد ورد في الحديث المَرْوِيِّ من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»(٢).

وقوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عبَّاس وغير واحد: يَعْنِي يُسَلِّطُ بَعْضَكُمْ علىٰ بَعضٍ بالعَذَاب والقَتْل.

وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [أي:] نُبَيِّنُهَا ونُوَضِّحُهَا ونُقَرِّرُهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يَفْهَمُون ويَتَدَبَّرُون عَن الله آياتِهِ وحُجَجَهُ وبَرَاهِينَهُ.

قال زيد بن أسلم: لما نزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ». قالوا: ونَحنُ نشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسول الله؟ قال: «نَعَمْ». فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبدًا، أن يقتل بعضنا بعضًا ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾(٣). رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ(٤) ۝٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن(٥) الذي جئتهم به، والهُدَىٰ والبَيَان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قُرَيْشًا،

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٥٢)، وابن ماجة (٤٠٦١)، وله شواهد أخرىٰ، انظر: «الصحيحة» للألباني (١٧٨٧، ٢٢٠٣).

(٢) ثبت من طرق، وقد تقدم تخريجه. انظر الآية (٧) من سورة آل عمران.

(٣) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٤١٨)، وابن جرير (٧/ ٢٢٥) عن زيد بن أسلم، وهذا مرسل.

(٤) قال القرطبي رحمه الله: في هذه الآية رد من كتاب الله ﷻ علىٰ من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين، ويصوبوا آراءهم تقية. وذكر الطبري عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله. قال ابن العربي: وهذا دليل علىٰ أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر، مؤمنًا كان أو كافرًا.

(٥) لوحة (٤٠ أ).

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الَّذي لَيْسَ وَرَاءَهُ حقٌّ؛ ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بمُوَكَّلٍ بِكُمْ، كقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: إنَّما عليَّ البَلَاغُ، وعليكُمُ السَّمْعُ والطَّاعة، فمن اتَّبعَني، سَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، ومَن خَالَفَني فقد شَقِيَ في الدُّنْيَا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

قال ابن عبَّاس وغير واحدٍ: أَيْ لِكُلِّ نبإٍ حقيقةٌ؛ أي: لكلِّ خبرٍ وقوعٌ ولو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨]، وقال ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧].

وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بالتَّكْذِيبِ والاسْتِهْزَاءِ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: حتَّىٰ يأخذوا في كلامٍ آخَرَ غيرِ ما كانوا فيه من التَّكْذِيبِ، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ والمراد بهذا: كلُّ فَرْدٍ فَرْدٍ من آحَادِ الأُمَّةِ، ألَّا يَجْلِسَ مع المُكَذِّبين الَّذين يُحَرِّفُون آيات الله، ويَضَعُونَها علىٰ غير مواضعها، فإن جلس أحدٌ مَعَهُم ناسيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [بعد التذكر][1] ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولهذا ورد في الحديث: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخطأُ وَالنِّسيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[2].

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك وسعيد بن جُبَيْر في قوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تَجْلِسْ معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان.

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأَقْرَرْتُمُوهُم علىٰ ذلك، فقد سَاوَيْتُمُوهُم في الَّذي هُمْ فيه.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: إذا تَجَنَّبُوهُم، فلم يَجْلِسُوا معهم في ذلك، فقد بَرِئُوا مِن عُهْدَتِهِم، وتخلَّصوا من إِثْمِهِم.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن أبي مالك وسعيد بن جُبَيْر قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك؛ أي: إذا تَجَنَّبْتَهُم وأَعْرَضْتَ عنهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فلَيْسَ عليهم مِن حسابهم مِن شيءٍ. وزعموا أن هذا منسوخٌ بآية النساء المدنية، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[3] [النساء: ١٤٠]. قاله مجاهد، والسُّدِّي، وابن جُرَيْج، وغيرهم. وعلىٰ قولهم يكون قوله: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن أَمَرْنَاكُم

---

(١) سقط من (ز).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩) من حديث ابن عبَّاس، وفي إسناد ابن ماجة ضعف، وعلته الانقطاع، وفيه الوليد بن مسلم: يدلس ويسوي، لكن إسناد ابن حبان موصول صحيح.

(٣) اللوحة (٤٠ ب).

بالإعراض عنهم -حينئذٍ- تذكيرًا لهم عمَّا هم فيه(١)؛ لعلَّهم يتَّقون ذلك، ولا يعودون إليه.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: دَعْهُم وأَعْرِض عَنْهُم وأَمْهِلْهُم قليلًا فإنَّهم صائِرُون إلىٰ عذابٍ عظيمٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: وذكِّر النَّاس بهذا القرآن، وحذِّرْهُم نِقْمَةَ الله وعذابه الأَلِيم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لئلَّا تُبْسَلَ. قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن، والسُّدِّي: تُبْسَل: تُسْلَم.

وقال الوالبي، عن ابن عبَّاس: تُفْضَح. وقال قتادة: تُحْبَس. وقال مُرَّة وابن زيد: تُؤَاخَذ. وقال الكلبي: تُجازَىٰ.

وكلُّ هذه العبارات مُتقارِبَةٌ في المعنىٰ، وحاصلها الإسلام للهَلَكَةِ، والحبس عن الخير، والارْتِهان عَن دركِ المَطْلُوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريبَ ولا أحدَ يُشَفَّعُ فيها، كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: ولو بذلت كلَّ مبذولٍ ما قُبِلَ منها، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ(٢) ﴿٧٣﴾﴾

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذا دليل علىٰ أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلىٰ حصول مقصود التقوىٰ. وفيه دليل علىٰ أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شرًّا إلىٰ شره، أن تركه هو الواجب؛ لأنه إذا ناقض المقصودَ كان تركُهُ مقصودًا.

(٢) لوحة (٤١ أ).

قال السُّدِّي: قال المشركون للمؤمنين: اتَّبِعُوا سبيلنا، واتركوا دين محمَّدٍ، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ أي: في الكُفْرِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فيكون مَثَلُنا مَثَل الذي ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ يقول: مَثَلُكُمْ -إن كفرتم بعد الإيمان- كَمَثَلِ رجل كان مع قوم علىٰ الطَّريق، فضَلَّ الطَّريق، فحيَّرَتْه الشَّياطِين، واسْتَهْوَتْهُ في الأرض، وأصحابه علىٰ الطَّريق، فجَعَلُوا يَدْعُونَه إليهم يقولون: «ائْتِنَا فإنَّا علىٰ الطَّريق»، فأبىٰ أن يأتيهم. فذلك مثل مَنْ يَتْبَعُهُم بعد المعرفة بمحمَّدٍ ﷺ، ومحمَّدٌ ﷺ هو الذي يَدْعُو إِلَىٰ الطَّرِيق، والطَّرِيقُ هو الإسلام[1]. رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَضَلَّتْهُ في الأرض؛ يَعْنِي: استهوته [سَيَّرَتْهُ][2] مثل قوله: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية. هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله للآلهة ومَن يدعو إليها، والدُّعاة الَّذِين يدعون إلىٰ الله ﷻ كمَثَل رَجُل ضَلَّ عَنْ طَرِيقٍ تائهًا[3] ضالًّا إذ ناداه مُنادٍ: «يَا فلان بن فُلانٍ، هَلُمَّ إلىٰ الطريق»، وله أصحاب يدعونه: «يَا فُلان، هَلُمَّ إلىٰ الطَّريق»، فإنِ اتَّبع الدَّاعي الأوَّل، انطلق به حتىٰ يُلْقِيَه إلىٰ الهلكة، وإن أجاب مَن يَدْعُوه إلىٰ الهدىٰ، اهتدىٰ إلىٰ الطريق. وهذه الدَّاعية التي تَدْعُو في البرِيَّة مِن الغِيلَان، يقول: مَثَلُ مَن يعبد هذه الآلهة مِن دون الله، فإنَّه يرىٰ أنَّه في شيءٍ حتىٰ يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والنَّدامة. وقوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هم «الغِيلَان» يدعونه باسمه واسْم أَبِيهِ وجَدِّه، فيتبعها وهو يرىٰ أنَّه في شيءٍ، فيُصْبِح وقد أَلْقَتْهُ في هلكةٍ، ورُبَّما أَكَلَتْهُ، أو تُلْقِيهِ في مَضَلَّةٍ مِنَ الأرض، يَهْلَك فيها عطشًا، فهذا مثل مَن أجاب الآلهة الَّتِي تُعْبَد مِن دون الله ﷻ، رواه ابن جرير[4].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ قال: رجل حيران يدعوه أصحابه إلىٰ الطريق، وذلك مثل من يَضِلُّ بعد أن هُدِيَ.

وقال العَوْفِيُّ: عن ابن عبَّاسٍ قوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ هو الذي لا يَسْتَجِيبُ لهدىٰ الله، وهو رَجُلٌ أطاع الشيطان، وعَمِلَ في الأَرْضِ بالمعصِيَة، وجَارَ[5] عن الحق، وضلَّ عنه، وله أصحابٌ يَدْعُونَه إلىٰ الهُدَىٰ، ويَزْعُمُون أنَّ الَّذِي يَأْمُرُونَه به هدىٰ، يقول الله ذلك لِأَوْلِيَائِهِم من الإنس، يقول الله: ﴿إِنَّ[6] هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ والضَّلال ما يَدْعُو إليه

---

(١) مرسل: رواه الطبري (٧/ ٢٣٦)، وابن أبي حاتم (٧٤٦٦، ٧٤٦٨، ٧٤٧٢، ٧٤٧٤)، وهو عن السُّدِّي لم يسنده إلىٰ أحدٍ من الصحابة، فلا يعتدُّ بمثل هذا في سبب النزول.

(٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): «تائهًا منا ضالًّا».

(٤) رواه الطبري (٧/ ٢٣٦)، وابن أبي حاتم (٧٤٧٣)، والإسناد منقطع.

(٥) كذا في (ز)، وفي بعض النسخ: حاد. ومعنىٰ «جار عن الحق» أي: ضلَّ ومال.

(٦) لوحة (٤١ ب).

الجن(١). رواه ابن جرير، ثمَّ قال: وهذا يقتضي أنَّ أصحابه يَدْعُونَه إلىٰ الضَّلَال، ويزْعُمُونَ أنَّه هدًىٰ. قال: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإنَّ الله أخبر أنَّ أصحابه يَدْعُونَه إلىٰ الهدىٰ، فغير جائزٍ أن يكون ضلَالًا، وقد أخبر اللهُ أنَّه هدًىٰ.

وهو كما قال ابن جرير، وكان سياق الآية يَقْتَضِي أنَّ هذا الذي استهوته الشياطين في الأَرْض حيران، وهو منصوب علىٰ الحال؛ أي: في حال حَيْرَتِهِ وضلاله وجهله وجه المَحَجَّة، وله أصحاب علىٰ المَحَجَّة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم، وإلىٰ الذَّهاب معهم علىٰ الطَّرِيقَة المُثلىٰ. وتقدير الكلام: فيَأْبَىٰ عليهم، ولا يَلْتَفِت إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولَرَدَّ به إلىٰ الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: نُخْلِص له العبادة وحده لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبر لهما ولمن فيهما.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: ﴿كُن﴾ فيكون عن أمره كلَمْحِ البَصَرِ، أو هو أقرب.

﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب إمَّا علىٰ العطف علىٰ قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ وتقديره: واتَّقُوا يوم يقول: كن فيكون، وإمَّا علىٰ قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: وخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ فَيَكُون. فذكر بدءَ الخَلْقِ وإعادته، وهذا مناسبٌ. وإما علىٰ إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون.

وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملتان محلهما الجر، علىٰ أنَّهُمَا صفتان لرَبِّ العالمين.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ ويُحْتَمَلُ أن يكون ظرفًا لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وما أشبه ذلك.

واختلف المُفَسِّرون في قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصُّور هاهنا جمع «صُورَة»؛ أي: يوم ينفخ فيها فتَحْيَا.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٣٣٧)، والإسناد فيه عطية العوفي: وهو شيعي مدلس.

قال ابن جرير: كما يقال: سُور لِسُور البلد، وهو جمع سورة.

والصَّحِيح أنَّ المراد بالصُّور[١]: «القَرْن» الذي يَنفُخُ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال ابن جرير: والصَّوَاب عِنْدنا مَا تظاهرت به الأخبار عَن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ إِسْرَافِيلَ[٢] قَدْ الْتَقَمَ الصُّورَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل، حدَّثنا سليمان التَّيْمِي، عن أسلم العِجْلي، عن بِشْر بن شَغَاف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[٤].

وقد رَوَيْنَا حديثَ الصُّور بطوله من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطِّوَالَات» قال: حدَّثنا أحمد بن الحسن المصري[٥] الأيْلي، حدَّثنا أبو عاصم النَّبيل، حدَّثنا إسماعيل بن رافع، عن محمَّد بن زياد، عن محمَّد بن كعب القُرَظي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ - وهو في طائفة من أصحابه- فقال: «إِنَّ اللهَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ، شَاخِصًا بَصَرَهُ إِلَىٰ العَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ». قلت: يا رسول الله، وما الصور؟ قال «القَرْنُ». قلت: كيف هو؟ قال: «عَظِيمٌ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ، إِنَّ عِظَمَ دَارَةٍ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. يَنْفُخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ: النَّفْخَةَ الأُولَىٰ: نَفْخَةَ الفَزَعِ، وَالثَّانِيَةَ: نَفْخَةَ الصَّعْقِ، وَالثَّالِثَةَ: نَفْخَةَ القِيَامِ لِرَبِّ العَالَمِينَ. يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الأُولَىٰ، فَيَقُولُ: انْفُخْ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الفَزَعِ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ. وَيَأْمُرُهُ فَيُدِيمُهَا وَيُطِيلُهَا وَلَا يَفْتُرُ، وَهِيَ كَقَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥]، فَيُسَيِّرُ اللهُ الجِبَالَ فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَتَكُونُ سَرَابًا، ثُمَّ تَرْتَجُّ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجَّةً فَتَكُونُ كَالسَّفِينَةِ المَرْمِيَّةِ فِي البَحْرِ، تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ، تَكْفَأُ بِأَهْلِهَا كَالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ بِالعَرْشِ، تُرَجْرِجُهُ الرِّيَاحُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ -٨]، فَيَمِيدُ النَّاسُ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، وَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ، وَتَشِيبُ الوِلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً مِنَ الفَزَعِ، حَتَّىٰ تَأْتِيَ الأَقْطَارَ، فَتَأْتِيهَا المَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا، فَتَرْجِعُ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ[٦] بَعْضًا، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، إِذِ انْصَدَعَتِ الأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلَىٰ قُطْرٍ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَأَخَذَهُمْ

---

(١) لوحة (٤٢ أ).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: (اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونقل فيه الحليمي الإجماع). اهـ «الفتح» (٨/ ٣٦٨).

(٣) صحيح: رواه ابن حبان (٨٢٢) بإسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين من حديث أبي سعيد، وله شاهد من حديث ابن عبَّاس، رواه أحمد (١/ ٣٣٦)، والحاكم (١/ ٥٥٩)، ورواه الطبري (١١/ ٤٦٣).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٦٢)، والترمذي (٢٤٣٢).

(٥) في (ز): البصري. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٦) لوحة (٤٢ ب).

لِذَلِكَ مِنَ الكَرْبِ وَالهَوْلِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِذَا هِيَ كَالمُهْلِ، ثُمَّ انْشَقَّتْ فَانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا، وَانْخَسَفَ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الأَمْوَاتُ لا يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ» قال أبو هريرة: يا رسول الله، من استثنىٰ الله ﷻ حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، قال: «أُولَئِكَ الشُّهَدَاءُ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الفَزَعُ إِلَىٰ الأَحْيَاءِ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ اللهِ يُرْزَقُونَ، وَقَاهُمُ اللهُ فَزَعَ ذَلِكَ اليَوْمِ، وَآمَنَهُمْ مِنْهُ، وَهُوَ عَذَابُ اللهِ يَبْعَثُهُ عَلَىٰ شِرَارِ خَلْقِهِ»، قال: «وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، فَيَكُونُونَ فِي ذَلِكَ البَلاءِ مَا شَاءَ اللهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَطُولُ.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ بِنَفْخَةِ الصَّعْقِ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الصَّعْقِ، فَيُصْعَقُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَ[أَهْلُ][1] الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، فَإِذَا هُمْ قَدْ خَمَدُوا، وَجَاءَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَىٰ الجَبَّارِ ﷻ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ. فَيَقُولُ اللهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ -: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَقِيتَ أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا تَمُوتُ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ العَرْشِ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، [وَبَقِيتُ أَنَا. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: لِيَمُتْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ][2]. فَيُنْطِقُ اللهُ العَرْشَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، يَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ!! فَيَقُولُ: اسْكُتْ، فَإِنِّي كَتَبْتُ المَوْتَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ كَانَ تَحْتَ عَرْشِي، فَيَمُوتَانِ. ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ المَوْتِ إِلَىٰ الجَبَّارِ ﷻ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ-: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: بَقِيتَ أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا تَمُوتُ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِكَ، وَبَقِيتُ أَنَا. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِيَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشِي. فَيَمُوتُوا، وَيَأْمُرُ اللهُ العَرْشَ. فَيَقْبِضُ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيلَ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ المَوْتِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ. فَيَقُولُ اللهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَقِيَ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَقِيتَ أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا تَمُوتُ، وَبَقِيتُ أَنَا. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ أَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي، خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْتَ، فَمُتْ. فَيَمُوتُ. فَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، كَانَ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا، طَوَىٰ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ طَيَّ[3] السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ، ثُمَّ دَحَاهُمَا، ثُمَّ يَلْقَفُهُمَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا[4] الجَبَّارُ، أَنَا الجَبَّارُ، [أَنَا الجَبَّارُ][5] ثَلاثًا. ثُمَّ هَتَفَ بِصَوْتِهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلا يُجِيبُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يَقُولُ اللهُ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فَيَبْسُطُهُمَا وَيَسْطَحُهُمَا، ثُمَّ يَمُدُّهُمَا مَدَّ الأَدِيمِ العُكَاظِيِّ[6][7] ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٧].

ثُمَّ يَزْجُرُ اللهُ الخَلْقَ زَجْرَةً، فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ المُبَدَّلَةِ مِثْلَ مَا كَانُوا فِيهَا مِنَ الأُولَىٰ، مَنْ كَانَ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) في (ز): علىٰ.
(٤) لوحة (٤٣ أ).
(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٦) نسبة إلىٰ سوق «عكاظ».
(٧) الأديم العكاظي: الجلد المنسوب إلىٰ عكاظ، أشهر أسواق العرب.

فِي بَطْنِهَا كَانَ فِي بَطْنِهَا، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا كَانَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ مَاءً مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ، فَتُمْطِرُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، حَتَّىٰ يَكُونَ المَاءُ فَوْقَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ الأَجْسَادَ أَنْ تُنْبِتَ فَتَنْبُتُ كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيثِ(١) -أَوْ: كَنَبَاتِ البَقْلِ- حَتَّىٰ إِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَادُهُمْ فَكَانَتْ كَمَا كَانَتْ، قَالَ اللهُ ﷻ: لِيَحْيَا حَمَلَةُ عَرْشِي، فَيَحْيَوْنَ. وَيَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ فَيَأْخُذُ الصُّورَ، فَيَضَعُهُ عَلَىٰ فِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ: لِيَحْيَا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، فَيَحْيَانِ، ثُمَّ يَدْعُو اللهُ الأَرْوَاحَ فَيُؤْتَىٰ بِهَا تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ المُسْلِمِينَ نُورًا، وَأَرْوَاحُ الكَافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعًا ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي الصُّورِ.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ البَعْثِ، [فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ البَعْثِ](٢)، فَتَخْرُجُ الأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَيَقُولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَيَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَىٰ جَسَدِهِ، فَتَدْخُلُ الأَرْوَاحُ فِي الأَرْضِ إِلَىٰ الأَجْسَادِ، فَتَدْخُلُ فِي الخَيَاشِيمِ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الأَجْسَادِ كَمَا يَمْشِي السُّمُّ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْكُمْ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُ، فَتَخْرُجُونَ سِرَاعًا إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَنْسِلُونَ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨] حُفَاةً عُرَاةً غُلْفًا غُرْلًا، فَتَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا مِقْدَارُهُ سَبْعُونَ عَامًا، لَا يُنْظَرُ إِلَيْكُمْ، وَلَا يُقْضَىٰ بَيْنَكُمْ، فَتَبْكُونَ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَمًا، وَتَعْرَقُونَ حَتَّىٰ يُلْجِمَكُمُ العَرَقُ، أَوْ يَبْلُغَ الأَذْقَانَ، وَتَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا فَيَقْضِيَ بَيْنَنَا؟ فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَكَلَّمَهُ قُبُلًا؟ فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَأْبَىٰ، وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَسْتَقْرِءُونَ الأَنْبِيَاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا، أَبَىٰ عَلَيْهِمْ». قال رسول الله ﷺ: «حَتَّىٰ يَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ إِلَىٰ الفَحْصِ فَأَخِرُّ سَاجِدًا» قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الفحص؟ قال: «قُدَّامَ العَرْشِ، حَتَّىٰ يَبْعَثَ اللهُ إِلَيَّ مَلَكًا فَيَأْخُذُ بِعَضُدِي، وَيَرْفَعُنِي، فَيَقُولُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: مَا شَأْنُكَ؟ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَأَقُولُ: يَا رَبِّ(٣)، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ. قَالَ اللهُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ أَقْضِي بَيْنَكُمْ».

قال رسول الله ﷺ: «فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ وُقُوفٌ، إِذْ سَمِعْنَا حِسًّا مِنَ السَّمَاءِ شَدِيدًا، فَهَالَنَا فَنَزَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمِثْلَيْ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَوْا مِنَ الأَرْضِ، أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِهِمْ، وَأَخَذُوا مَصَافَّهُمْ، وَقُلْنَا لَهُمْ: أَفِيكُمْ رَبُّنَا؟ قَالُوا: لَا [وَهُوَ آتٍ.

ثُمَّ يَنْزِلُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ بِمِثْلَيْ مَنْ نَزَلَ مِنَ المَلَائِكَةِ، وَبِمِثْلَيْ مَنْ فِيهَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَوْا مِنَ الأَرْضِ، أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِهِمْ، وَأَخَذُوا مَصَافَّهُمْ، وَقُلْنَا لَهُمْ: أَفِيكُمْ رَبُّنَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَهُوَ آتٍ](٤).

---

(١) طراثيث: جمع طُرْثوث، وهو نبت رملي طويل مستدق، يضرب إلىٰ الحمرة وييبس.
(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٤٣ ب). (٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ثُمَّ يَنْزِلُونَ عَلَىٰ قَدْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّضْعِيفِ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ الجَبَّارُ ﷻ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةِ، فَيَحْمِلُ عَرْشَهُ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ -وَهُمُ اليَوْمَ أَرْبَعَةٌ- أَقْدَامُهُمْ فِي تُخُومِ الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، وَالأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ إِلَىٰ حُجْزَتِهِمْ [(١)]، وَالعَرْشُ عَلَىٰ مَنَاكِبِهِمْ، لَهُمْ زَجَلٌ فِي تَسْبِيحِهِمْ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ ذِي العَرْشِ وَالجَبَرُوتِ، سُبْحَانَ ذِي المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ، سُبْحَانَ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، سُبْحَانَ الَّذِي يُمِيتُ الخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، سُبْحَانَ رَبِّنَا الأَعْلَىٰ، رَبِّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، سُبْحَانَ رَبِّنَا الأَعْلَىٰ، الَّذِي يُمِيتُ الخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ، فَيَضَعُ اللهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ أَرْضِهِ، ثُمَّ يَهْتِفُ بِصَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، إِنِّي قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِكُمْ هَذَا، أَسْمَعُ قَوْلَكُمْ، وَأُبْصِرُ أَعْمَالَكُمْ، [فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ] [(٢)]، وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ جَهَنَّمَ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ [(٣)] مُظْلِمٌ سَاطِعٌ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ -أَوْ [(٤)]: بِهَا تُكَذِّبُونَ -شك أبو عاصم- ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٤] فَيُمَيِّزُ اللهُ النَّاسَ، وَتَجْثُو الأُمَمُ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] فَيَقْضِي اللهُ ﷻ بَيْنَ خَلْقِهِ، إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الجِنَّ وَالإِنْسَ، فَيَقْضِي بَيْنَ الوُحُوشِ وَالبَهَائِمِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقْتَصُّ لِلْجَمَّاءِ مِنْ ذَاتِ القَرْنِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ تَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِلْأُخْرَىٰ، قَالَ اللهُ لَهَا: كُونِي تُرَابًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

ثُمَّ يَقْضِي اللهُ ﷻ بَيْنَ العِبَادِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا يَقْضِي فِيهِ الدِّمَاءَ، وَيَأْتِي كُلُّ قَتِيلٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَيَأْمُرُ اللهُ ﷻ كُلَّ قَتِيلٍ فَيَحْمِلُ رَأْسَهُ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ [(٥)] يَقُولُ: يَا رَبِّ، فِيمَ قَتَلَنِي هَذَا؟ فَيَقُولُ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: فِيمَ قَتَلْتَهُمْ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُمْ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: صَدَقْتَ. فَيَجْعَلُ اللهُ [(٦)] وَجْهَهُ مِثْلَ نُورِ الشَّمْسِ، ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ المَلَائِكَةُ إِلَىٰ الجَنَّةِ.

وَيَأْتِي كُلُّ مَنْ قُتِلَ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ يَحْمِلُ رَأْسَهُ وَتَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، فِيمَ قَتَلَنِي هَذَا؟ فَيَقُولُ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: لِمَ قَتَلْتَهُمْ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلْتُهُمْ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ وَلِي. فَيَقُولُ: تَعِسْتَ. ثُمَّ لَا تَبْقَىٰ نَفْسٌ قَتَلَهَا إِلَّا قُتِلَ [(٧)] بِهَا، وَلَا مَظْلَمَةٌ [ظَلَمَهَا إِلَّا أُخِذَ بِهَا، وَكَانَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ رَحِمَهُ.

ثُمَّ يَقْضِي اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ مَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِ، حَتَّىٰ لَا تَبْقَىٰ مَظْلَمَةٌ] [(٨)] لِأَحَدٍ عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ

---

(١) الحُجْزة: معقد الإزار. (٢) سقط من (ز). (٣) أي: قطعة منها.
(٤) في (ز): وبها. (٥) أي: تسيل عروقه. (٦) لوحة (٤٤ أ).
(٧) في (ز): مُثِّل. (٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُكَلِّفُ شَائِبَ اللَّبَنِ بِالمَاءِ ثُمَّ يَبِيعُهُ أَنْ يُخَلِّصَ اللَّبَنَ مِنَ المَاءِ.

فَإِذَا فَرَغَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، نَادَىٰ مُنَادٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ كُلَّهُمْ: أَلَا لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ [بِآلِهَتِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ عَبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا مُثِّلَتْ لَهُ آلِهَتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيُجْعَلُ يَوْمَئِذٍ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ عَلَىٰ صُورَةِ عُزَيْرٍ، وَيُجْعَلُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ عَلَىٰ صُورَةِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ. ثُمَّ يَتْبَعُ هَذَا اليَهُودُ وَهَذَا النَّصَارَىٰ، ثُمَّ قَادَتْهُمْ آلِهَتُهُمْ] [(١)] إِلَىٰ النَّارِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

فَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا المُؤْمِنُونَ فِيهِمُ المُنَافِقُونَ، جَاءَهُمُ اللهُ فِيمَا شَاءَ مِنْ هَيْئَتِهِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ذَهَبَ النَّاسُ فَالْحَقُوا بِآلِهَتِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. فَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا لَنَا إِلَهٌ إِلَّا اللهُ، وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ غَيْرَهُ، [فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي يَأْتِيهِمْ فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ذَهَبَ النَّاسُ فَالْحَقُوا بِآلِهَتِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. فَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا لَنَا إِلَهٌ إِلَّا اللهُ وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ غَيْرَهُ] [(٢)]، فَيَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ سَاقِهِ، وَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، وَيَخِرُّ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلَىٰ قَفَاهُ، وَيَجْعَلُ اللهُ أَصْلَابَهُمْ كَصَيَاصِيِّ البَقَرِ [(٣)]. ثُمَّ يَأْذَنُ اللهُ لَهُمْ فَيَرْفَعُونَ، وَيَضْرِبُ اللهُ الصِّرَاطَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ كَحَدِّ الشَّفْرَةِ -أَوْ: كَحَدِّ السَّيْفِ- عَلَيْهِ كَلَالِيبُ وَخَطَاطِيفُ وَحَسَكٌ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ [(٤)]، دُونَهُ جِسْرٌ دَحْضٌ [(٥)] مَزِلَّةٌ، فَيَمُرُّونَ كَطَرْفِ العَيْنِ، أَوْ كَلَمْحِ البَرْقِ، أَوْ كَمَرِّ الرِّيحِ، أَوْ كَجِيَادِ الخَيْلِ، أَوْ كَجِيَادِ الرِّكَابِ، أَوْ كَجِيَادِ الرِّجَالِ. فَنَاجٍ سَالِمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمُكَرْدَسٌ [(٦)] عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَهَنَّمَ.

فَإِذَا أَفْضَىٰ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا فَنَدْخُلَ الجَنَّةَ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ ﷺ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَكَلَّمَهُ قُبُلًا؟ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا، وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِنُوحٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُلِ اللهِ.

فَيُؤْتَىٰ نُوحٌ فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا، وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، وَيَقُولُ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا.

فَيُؤْتَىٰ إِبْرَاهِيمُ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا، وَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِمُوسَىٰ فَإِنَّ اللهَ قَرَّبَهُ نَجِيًّا، وَكَلَّمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ. فَيُؤْتَىٰ مُوسَىٰ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا، وَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِرُوحِ اللهِ وَكَلِمَتِهِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ.

فَيُؤْتَىٰ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: مَا أَنَا بِصَاحِبِكُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ». قال

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) أي: قرونها، جمع صِيصِيَة.

(٤) السَّعدان: نبت من أفضل مراعي الإبل، وله شوك تشبه حلمة الثدي.

(٥) جسر دحض، ومكان دحض: زلق لا يثبت عنده القدم.

(٦) المُكردس: الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي في موضع.

رسول الله ﷺ: «فَيَأْتُونِي -وَلِي عِنْدَ رَبِّي ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ وَعَدَنِيهِنَّ- فَأَنْطَلِقُ فَآتِي الجَنَّةَ، فَآخُذُ بِحَلْقَةِ(١) البَابِ، فَأَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّىٰ وَيُرَحَّبُ بِي. فَإِذَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَىٰ رَبِّي خَرَرْتُ سَاجِدًا، فَيَأْذَنُ اللهُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ. فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي يَقُولُ اللهُ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَقَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ». وكان رسول الله ﷺ يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ، فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ(٢) اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، سَبْعِينَ مِمَّا يُنْشِئُ اللهُ ﷻ، وَثِنْتَيْنِ آدَمِيَّتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، لَهُمَا فَضْلٌ عَلَىٰ مَنْ أَنْشَأَ اللهُ، لِعِبَادَتِهِمَا اللهَ فِي الدُّنْيَا. فَيَدْخُلُ عَلَىٰ الأُولَىٰ فِي غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ، عَلَىٰ سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّؤْلُؤِ، عَلَيْهَا سَبْعُونَ زَوْجًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، ثُمَّ إِنَّهُ يَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَىٰ يَدِهِ مِنْ صَدْرِهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلَحْمِهَا، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَىٰ مُخِّ سَاقِهَا كَمَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ السِّلْكِ فِي قَصَبَةِ اليَاقُوتِ، كَبِدُهَا لَهُ مِرْآةٌ، وَكَبِدُهُ لَهَا مِرْآةٌ. فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ، مَا يَأْتِيهَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءَ، مَا يَفْتُرُ ذَكَرُهُ، وَمَا تَشْتَكِي قُبُلَهَا. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمَلُّ وَلَا تُمَلُّ، إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ إِلَّا أَنَّ لَكَ أَزْوَاجًا غَيْرَهَا. فَيَخْرُجُ فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَتَىٰ وَاحِدَةً قَالَتْ لَهُ: وَاللهِ مَا أَرَىٰ فِي الجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ، وَلَا فِي الجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ.

وَإِذَا وَقَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَقَعَ فِيهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ أَوْبَقَتْهُمْ أَعْمَالُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ النَّارُ قَدَمَيْهِ لَا تُجَاوِزُ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَىٰ حِقْوَيْهِ(٣)، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ جَسَدَهُ كُلَّهُ، إِلَّا وَجْهَهُ حَرَّمَ اللهُ صُورَتَهُ عَلَيْهَا».

قال رسول الله ﷺ: «فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَنْ وَقَعَ فِي النَّارِ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَيَخْرُجُ أُولَئِكَ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْهُمْ أَحَدٌ. ثُمَّ يَأْذَنُ اللهُ فِي الشَّفَاعَةِ فَلَا يَبْقَىٰ نَبِيٌّ وَلَا شَهِيدٌ إِلَّا شَفَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ زِنَةَ الدِّينَارِ إِيمَانًا. فَيَخْرُجُ أُولَئِكَ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ يَشْفَعُ اللهُ فَيَقُولُ: أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ إِيمَانًا ثُلُثَيْ دِينَارٍ. ثُمَّ يَقُولُ: ثُلُثَ دِينَارٍ. ثُمَّ يَقُولُ: رُبُعَ دِينَارٍ. ثُمَّ يَقُولُ: قِيرَاطًا. ثُمَّ يَقُولُ: حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ. فَيَخْرُجُ(٤) أُولَئِكَ حَتَّىٰ(٥) لَا يَبْقَىٰ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَحَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ فِي النَّارِ مَنْ عَمِلَ للهِ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ لَهُ شَفَاعَةٌ إِلَّا شَفَعَ، حَتَّىٰ إِنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ مِمَّا يَرَىٰ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ رَجَاءَ أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: بَقِيتُ وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَيُدْخِلُ يَدَهُ فِي جَهَنَّمَ فَيُخْرِجُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصِيهِ غَيْرُهُ، كَأَنَّهُمْ حُمَمٌ(٦)،

---

(١) لوحة (٤٤ ب). (٢) في (ز): في. (٣) الحَقْو: الكشح والإزار.

(٤) في (ز): فيقول. (٥) لوحة (٤٥ أ). (٦) الحُمَم: الرماد والفحم وكل ما احترق من النار.

فَيُلْقَوْنَ عَلَىٰ نَهرٍ يُقَالُ لَهُ: نَهرُ الحَيَوَانِ، فَيَنبُتُونَ كَمَا تَنبُتُ الحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ (١) مَا يَلْقَى الشَّمسَ مِنهَا أُخَيضِرٌ، وَمَا يَلِي الظِّلَّ مِنهَا أُصَيفِرٌ، فَيَنْبُتُونَ كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيثِ، حَتَّىٰ يَكُونُوا أَمْثَالَ الذَّرِّ، مَكْتُوبٌ فِي رِقَابِهِمْ: الجُهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ بِذَلِكَ الكِتَابِ، مَا عَمِلُوا خَيْرًا للهِ قَطُّ، فَيَمْكُثُونَ فِي الجَنَّةِ مَا شَاءَ اللهُ، وَذَلِكَ الكِتَابُ فِي رِقَابِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا امْحُ عَنَّا هَذَا الكِتَابَ، فَيَمْحُوهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ» (٢).

هذا حديثٌ مشهورٌ، وهو غريبٌ جدًّا، ولِبَعْضِه شواهد في الأَحَادِيث المتفرِّقة، وفي بعض ألفاظِهِ نَكَارةٌ. تفرَّد به إسماعيل بن رافع قاصُّ أهل المدينة، وقد اختُلف فيه، فمِنْهُم مَن وثَّقه، ومنهم مَن ضَعَّفَه، ونصَّ علىٰ نكارةِ حَدِيثِهِ غير واحدٍ من الأئمَّة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفَلَّاس، ومنهم مَن قال فيه: هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نَظَر إلَّا أنه يُكْتَبُ حديثه في جملة الضعفاء.

قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث علىٰ وُجُوهٍ كثيرةٍ، قد أفردتها في جزء علىٰ حِدَةٍ. وأمَّا سياقه فغريبٌ جدًّا، ويقال: إنَّه جَمَعَهُ مِن أحاديثَ كثيرةٍ، وجعله سياقًا واحدًا، فَأُنْكِرَ عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّي يقول: إنَّه رأىٰ للوليد بن مسلم مصنفًا قد جمع فيه كلَّ الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ (٣) أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

---

(١) حَمِيل السَّيل: ما يجيء به السَّيْل من طين أو غُثَاء وغيره، فإذا اتَّفَقَت فيه حبَّة واسْتَقَرَّت علىٰ شَطِّ مَجْرَىٰ السَّيْل فإنها تَنْبُت في يوم وليلة، فشُبِّه بها سُرْعة عَوْد أبْدَانِهم وأجْسَامِهم إليهم بَعْدَ إحْراق النَّار لها. «النهاية».

(٢) ضعيف: رواه الطبراني في «الأحاديث الطوالات» (١/ ٢٢٧) حديث رقم (٣٦)، وابن راهويه في مسنده (١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٧، ٣٨٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٧)، والطبري (٢/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم (١٦٦٢٧) (١٨٤١٢)، وإسناده ضعيف، مداره علىٰ إسماعيل بن رافع وهو ضعيف جدًّا، وضعف الحديث البيهقي وعبد الحق، وصرح الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٦٨) بترجيح من ضعف هذا الحديث، وضعفه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ «شرح الطحاوية» (ص ٢٦٥).

(٣) قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: الآية حجة علىٰ الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرًا، وأن آزر عم إبراهيم لا أبوه، علىٰ ما بسطه الرازي هنا؛ وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ومثله لا يجزم به من غير نقل. قال بعض مفسري الزيدية: في الآية دلالة علىٰ بطلان قول الإمامية: إن الإمام لا يجوز أن يكون أبوه كافرًا؛ لأنه إذا جاز نبي أبوه وزوجته كافران، فالإمام أولىٰ.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: إنَّ أبا إبراهيم لَمْ يكُن اسمه آزر، إنَّما كان اسمه تَارِح. رواه ابن أبي حاتم[١].

وقال أيضًا: حدَّثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النَّبيل، حدَّثنا أبي[٢]، حدَّثنا أبو عاصم شبيب، حدَّثنا عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ يعني بآزَرَ: الصنم، وأبو إبراهيم اسمُهُ تَارِح، وأُمُّه اسمها مَثَانِي، وامرأَتُهُ اسمُهَا سَارَّة، وأُمُّ إسماعيل اسْمُهَا هَاجَر، وهي سُرِّيَّة إبراهيم[٣].

وهكذا قال غيرُ واحدٍ مِن عُلَمَاء النَّسب: إنَّ اسمَهُ تَارِح[٤]. وقال مجاهد والسُّدِّي: آزَر: اسم صنم.

قلت: كأنَّه غَلَبَ عليه آزر لِخِدْمَتِهِ ذلك الصَّنم، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هُو سَبٌّ وعَيبٌ بكلامهم، ومعناه: مُعْوَج، ولم يسنده ولا حكاه عن أحد.

وقد قال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي يقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قال: بَلَغَنِي أنها أَعْوَجُ، وأنها أشدُّ كلمةٍ قالها إبراهيم عليه السلام.

ثمَّ قال ابن جرير: والصواب أنَّ اسْمَ أَبِيهِ آزر. ثمَّ أَوْرَدَ علىٰ نَفْسِهِ قول النَّسَّابِين أن اسمه تَارِح، ثم أجاب بأنَّه قد يكون له اسمان، كما لكثيرٍ من النَّاس، أو يكون أَحَدُهُمَا لقبًا. وهذا الَّذِي قاله جيِّدٌ قَوِيٌّ، والله أعلم.

واختلف القراء في أداء قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ فحكىٰ ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنَّهُمَا كانا يقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزرُ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ معناه: يا آزرُ، أَتَتَّخِذُ أصنامًا آلهة.

وقرأ الجمهور بالفتح[٥]، إما علىٰ أنَّه عَلَمٌ أعجميٌّ لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ أو عطف بيان، وهو أشبه.

وعلىٰ قول مَن جعله نعتًا لا ينصرف أيضًا كأحمر وأسود.

فأمَّا مَنْ زَعَمَ أنَّه منصوبٌ لِكَوْنِهِ معمولًا لقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ تقديره: يا أَبَتِ، أَتَتَّخِذُ آزر أصنامًا آلهةً، فإنَّه قولٌ بعيد في اللُّغة؛ لأنَّ ما بعد حَرْفِ الاستفهام لا يَعْمَل فيما قبله؛ لأنَّ له صدر الكلام، كذا قَرَّرَهُ ابن جرير وغيره. وهو مشهورٌ في قواعد العربية.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧٤٩١). (٢) لوحة (٤٥ ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٤٨٩)، وفيه شبيب بن بشر: صدوق يخطئ.

قلت: وأيًّا كان الأمر، فلا مانع من تسميته بآزر تغليبًا لاسم الصنم عليه. أو قد يكون له اسمان كما ذكر الطبري رحمه الله، أو يكون أحدهما اسمًا والآخر لقبًا.

(٤) في (ز): تارخ.

(٥) متواترة: قَرَأَ (آزَرُ) يَعْقُوبُ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (آزَرَ).

والمقصود أن إبراهيم عليه السلام وعظ أباهُ في عبادة الأصنام، وزجرهُ عنها، ونهاهُ فلم ينتهِ، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: أتتألَّهُ لصنمٍ تعبده من دون الله، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: تائهينَ لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرةٍ وجهلٍ، وأمركم في الجهالة والضلال [بيِّنٌ واضح][1] لكلِّ ذي عقلٍ صحيح.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ[2] لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ -٤٨]، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مُدَّة حياتِه، فلمَّا مات علىٰ الشِّركِ وتبيَّن إبراهيم ذلك، رَجَعَ عن الاستغفار له، وتبرَّأ منهُ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وثبت في «الصَّحيح»: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَلْقَىٰ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، اليَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنَّكَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ[3]، وَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، انْظُرْ مَا وَرَاءَكَ. فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ[4][5] مُتَلَطِّخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ»[6].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [أي: نُبيِّن له وَجهَ الدَّلالَةِ في نظره إلىٰ خلقهما علىٰ وحدانيَّةِ الله عز وجل في مُلكِهِ وخلقِهِ، وأنَّه لا إلهَ غيره ولا ربَّ سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]،][7]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟[8] إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

فأما ما حكاه ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّي، وغيرهم قالوا - واللفظ لمجاهد-: فُرِجَتْ له السَّموَات، فنظَرَ إلَىٰ مَا فِيهِنَّ، حتَّىٰ انتهىٰ بَصَرُهُ إلىٰ العَرْشِ، وفُرِجَتْ له الأرضون السَّبع، فنظَرَ إلَىٰ مَا فِيهِنَّ -وزاد غيره-: فجعل ينظر إلىٰ العباد علىٰ المعاصي فيدعوا عليهم،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) لوحة (٤٦ أ).
(٣) في (ز): يوم الدين.
(٤) في (ز): بذبح. والذيخ: ذكر الضباع.
(٥) الذِّيخ: ذكر الضباع، وأراد بالتلطخ: التلطخ برجيعه أو بالطين.
(٦) البخاري (٣٣٥٠).
(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٨) في (ز): أفلم ينظروا. وهو خطأ.

فقال الله له: إِنِّي أرحم بعبادي منك، لعلَّهم أن يتوبوا وَيُرَاجِعُوا.

وقد روى ابن مَرْدوَيه في ذلك حديثين مرفوعين، عن معاذ، وعلي بن أبي طالب؛ ولكن لا يَصِحُّ إسنادهما، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم(١) من طريق العَوْفي عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ فإنَّه تعالىٰ جَلَا لَهُ(٢) الأمرَ؛ سِرَّه وعَلَانِيَتَه، فلم يُخْفِ عليه شيءٌ مِن أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله: إنَّك لا تَسْتَطِيع هذا. فردَّه الله -كما كان قبل ذلك- فيُحْتَمَل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتىٰ رأىٰ ذلك عيانًا، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتىٰ شَاهَدَهُ بِفُؤَادِهِ وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحِكَمِ الباهرة(٣) والدَّلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث المنام: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَىٰ؟ فَقُلْتُ: لا أَدْرِي يَا رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيِي، فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ ...» وذكر الحديث(٤).

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ لِيكُون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقيل: بَلْ هِي علىٰ بَابِهَا؛ أي: نُرِيهِ ذلك ليكون عالمًا ومُوقِنًا(٥).

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٥٠٧)، والطبري (٧/ ٢٤٧)، وفيه عطية العوفي، وهو شيعي مدلس مشهور بالضعف.

(٢) في (ز): فإنه تعالىٰ جل جلاله. (٣) لوحة (٤٦ ب).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وللحافظ ابن رجب رسالة في شرح هذا الحديث بعنوان: «اختيار الأولىٰ في اختصام الملإ الأعلىٰ».

(٥) قال القاسمي رحمه الله: قال الرازي: اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل. ولهذا المعنىٰ لا يوصف علم الله تعالىٰ بكونه يقينًا؛ لأن علمه غير مسبوق بالشبهة، وغير مستفاد من الفكر والتأمل. واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل به فإنه لا ينفك قلبه عن شكٍّ وشبهةٍ من بعض الوجوه، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سببًا لحصول اليقين؛ وذلك لوجوه:

الأول: أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوعُ تأثُّرٍ وقوةٍ، فلا تزال القوة تتزايد حتىٰ تنتهي إلىٰ الجزم.

الثاني: أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة، فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة علىٰ المدلول الواحد، جارٍ مجرىٰ تكرار الدرس الواحد، فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب، فكذا هاهنا.

الثالث: أن القلب عند الاستدلال كان مظلمًا جدًّا، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة في القلب، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولىٰ، فيصير الإشراق واللمعان أتم. وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر نورها في أول الأمر، وهو الصبح، فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح، ثم كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس، فإذا وصلت إلىٰ سمت الرأس حصل النور التام، فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله أكثر، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلىٰ، إلا أن الفرق بين شمس العلم وشمس العالم، أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين، لا يمكن أن يزاد عليه في الصعود، وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد فلا =

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: تغشّاه وستَرَهُ ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أي: نجمًا، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب. قال محمَّد بن إسحاق بن يسار: الأُفُولُ: الذَّهاب. وقال ابن جرير: يقال: أَفَلَ النَّجْمُ يأْفَلُ ويأْفِلُ أُفُولًا وأَفْلًا إذا غاب، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا ... [نُجُومٌ][1]، وَلَا بِالآفِلَاتِ[2] الدَّوَالِكِ[3]

ويُقالُ: أين أَفَلْتَ عنَّا؟ بمعنىٰ: أين غِبْتَ عنَّا؟

قال: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ قال قتادة: علم أنَّ ربَّه دائمٌ لا يزُولُ، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: هذا المنير الطَّالِعُ رَبِّي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي: جرمًا من النَّجْمِ ومِن القَمَرِ، وأكثر إضاءةً ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ أي: غابَتْ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أَخلَصْتُ دِيني؛ أي: وأَفْرَدْتُ عِبادَتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما علىٰ غير مثالٍ سبق. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كوني حَنِيفًا؛ أي: مائلًا عن الشِّرك إلىٰ التَّوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المُفسِّرون في هذا المقام، هل هو مقامُ نَظَرٍ أو مُنَاظَرةٍ؟[4] فروىٰ ابن جرير مِن طَرِيقِ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ما يقتضي أنَّه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلًّا بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرَب[5] الذي وَلَدته فيه أُمُّه، حين تَخَوَّفَتْ عَلَيْه النَّمرُود بن كنعان، لما أنْ قد أخبر بوجود مولودٍ يكون ذَهَاب مُلْكِكَ علىٰ يَدَيْهِ، فَأَمَر بِقَتلِ الغِلْمَان عَامئذٍ. فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها، ذهبت به إلىٰ سَرَبٍ ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هُنَاكَ. وذكر أشياء من خَوارِقِ العادَات، كما ذكرها غيره من المفسِّرين[6] من السَّلف والخَلَفِ.

والحقُّ أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان في هذا المقام مُناظِرًا لقومه، مُبيِّنًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأَصْنَام، فبيَّنَ في المقام الأوَّل مع أبيه خطأَهُم في عبادة الأصنامِ الأَرْضِيَّة، التي هي علىٰ صورة

= نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازدياداها.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى مراتب الدلائل والبينات. وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ إشارة إلى درجات أنوار التجلي، وشروق شمس المعرفة والتوحيد.

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): بالأفالات.

(٣) البيت في «اللسان»: دلك، والمصابيح: جمع مصباح، وهي التي تصبح في مبركها لا ترعىٰ حتىٰ يرتفع النهار، وهو مما يستحب من الإبل، وذلك لقوتها وسمنها، والدلوك: الغروب. أي: ليست بنجوم آفلات، ولكنها إبل.

(٤) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل.

(٥) السَّرَب: حفير تحت الأرض، وقيل: بيت تحت الأرض.
(٦) لوحة (٤٧ أ).

الملائكة السَّماوِيَّة؛ ليشفعوا لهم إلىٰ الخالق العظيم الَّذِين هم عند أنفسهم أَحْقَر مِن أن يعبدوه، وإنَّما يَتَوسَّلُون إليه بعبادة ملائكتِه؛ لِيَشْفَعُوا لهم عنده في الرِّزق والنَّصر[١]، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضَلَالَهُم في عبادةِ الهَيَاكِلِ، وهي الكواكب السَّيَّارة السبعة المتحيِّرة، وهي: القمر، وعُطَارِد، والزُّهْرَة، والشمس، والمِرِّيخ، والمُشْتَرَىٰ، وزُحَل، وأشدُّهن إضاءةً وأشرقهن عندهم الشَّمس، ثم القمر، ثم الزُّهرة. فبيَّنَ أولًا أنَّ هذه الزُّهرة لا تصلح للإلهيَّة؛ لأنَّها مُسَخَّرةٌ مقدَّرة بسَيْرٍ معيَّن، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تملك لنفسها تصرفًا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله مُنِيرَة، لما له في ذلك مِن الحكم العظيمة، وهي تَطْلُع من المشرق، ثم تَسِيرُ فيما بينه وبين المغرب حتىٰ تَغِيبَ عن الأبصار فيه، ثمَّ تَبْدُو في اللَّيلة القابلة علىٰ هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهيَّة. ثم انتقل إلىٰ القمر. فبيَّنَ فيه مثل ما بيَّنَ في النَّجم. ثم انتقل إلىٰ الشَّمس كذلك.

فلما انْتَفَت الإلهيَّة عَن هذه الأجرام الثَّلاثة التي هي أَنْوَر ما تقع عليه الأَبْصار، وتَحَقَّقَ ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بَرِيءٌ مِن عبادتهن ومَوَالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدُوني بها جميعًا ثم لا تُنْظِرُونِ، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنَّما أَعْبُدُ خالق هذه الأشياء، ومُخْتَرِعها ومُسَخِّرها، ومُقَدِّرها ومُدَبِّرها، الذي بيدِه ملكوت كل شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ وربه، ومليكه وإلَهُه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرًا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمْ يَكُ[٢] مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، [وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].][٣].

وقد ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»[٤]، وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ»[٥] وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]،

---

(١) في (ز): الرزق والرزق. (٢) لوحة (٤٧ ب). (٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨). (٥) مسلم (٢٨٦٥).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه علىٰ أحد القولين كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتي بيانه.

فإذا كان هذا في حقِّ سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولىٰ الناس بالفطرة السليمة، والسَّجيَّة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شكٍّ ولا رَيْب. ومما يُؤَيِّد أنَّه كان في هذا المقام مناظرًا لِقَوْمِهِ فيما كانوا فيه من الشِّرْك لا ناظرًا قوله تعالىٰ:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالىٰ [مخبراً عن خليله إبراهيم حين][(١)] جادَلَهُ قومُهُ فيما ذهب إليه من التَّوحيد، ونَاظَرُوهُ بِشُبَهٍ من القول، أنه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي: تُجادِلُونَني في أمر الله وأنَّه لا إله إلا هو، وقد بَصَّرَني وهَدَاني إلىٰ الحقِّ، وأنا علىٰ بيِّنَةٍ منه؟ فكيف أَلْتَفِتُ إلىٰ أقوالكم الفَاسِدَةِ[(٢)] وشبهكم الباطلة؟!

وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أي: ومن الدليل علىٰ بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أنَّ هذه الآلهة التي تعبدونها لا تُؤَثِّر شيئًا، وأنا لا أَخافُهَا، ولا أُبَالِيهَا، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعًا ولا تُنْظِرُون، بل عَاجِلُوني بذلك.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ؛ أي: لا يضرُّ ولا ينفع إلا الله ﷻ.

﴿وَسِعَ رَبِّى[(٣)] كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجَمِيعِ الأشياء، فلا تَخْفَىٰ عليه خافيةٌ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بَيَّنْتُهُ لكم فتَعْتَبِرُون أنَّ هذه الآلهة بَاطِلَةٌ، فتَنْزَجِرُوا عن عبادتها؟ وهذه الحُجَّة نظير ما احتجَّ به نبي الله هود ﵇ عَلَىٰ قومه عاد، فيما قصَّ عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) في (ز): إلىٰ قولكم الفاسد.
(٣) لوحة (٤٨ أ).

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف مِن هذه الأصنام التي تعبدون مِن دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؟ قال ابن عبَّاس وغير واحدٍ من السلف: أي حُجَّة، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأيُّ الطَّائفتَيْن أصوب؟ الَّذي عبَد مَن بِيَدِهِ الضُّر والنَّفع، أو الذي عبَدَ مَنْ لا يَضُرُّ[١] ولا يَنْفَع بلا دليل، أيُّهما أحقُّ بالأمن مِن عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الَّذِين أخلصوا العبادةَ لله وحده لا شَريك له، ولم يُشْرِكُوا به شيئًا هم الآمِنُون[٢] يوم القيامة، المُهْتَدُون في الدُّنيا والآخرة.

قال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن بشار، حدَّثنا ابن أبي عَدِيٍّ، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأَيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة، عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك علىٰ النَّاس، وقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يَظْلِمُ نفسه؟ قال: «**إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ! أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ**»[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا وكيع وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك[٥] علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: وأَيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»[٦].

وحدَّثنا عمر بن شَبَّة[٧] النمري، حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال: «**بِشِرْكٍ**»[٨].

---

(١) في (ز): ما لا يبصر. (٢) في (ز): هم المؤمنون.

(٣) البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٢٤)، وأحمد (١/ ٣٧٨).

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٧٧). وانظر ما قبله.

(٥) لوحة (٤٨ ب). (٦) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٧٥٤٢) (٧٥٤٣)، وهو صحيح كسابقه.

(٧) في (ز): شيبة، والصواب ما أثبتناه.

(٨) حسن صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٧٥٤٣)، ورجاله ثقات عدا عمر بن شبة: فصدوق؛ فالإسناد حسن، ويشهد له ما تقدم.

قال: ورُوي عن أبي بكر الصديق، وعمر، وأُبيّ بن كعب، وسلمان، وحذيفة، وابن عبَّاس، وابن عمر، وعمرو بن شرحبيل، وأبي عبد الرحمن السُّلَمِي، ومجاهد، وعِكْرِمة، والنَّخعِي، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي نحو ذلك.

وقال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا الشافعي، حدَّثنا محمَّد بن شَدَّاد المِسْمَعِيّ، حدَّثنا أبو عاصم، حدَّثنا سفيان الثَّوْري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ»(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسحاق بن يوسف، حدَّثنا أبو جَناب، عن زاذان، عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة، إذا رَاكِبٌ يُوضِع(٢) نحونا، فقال رسول الله ﷺ: «كَأَنَّ هَذَا الرَّاكِبَ إِيَّاكُمْ يُرِيدُ». فانتهىٰ إلينا الرجل، فسلَّم فرددنا عليه، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي. قال: «فَأَيْنَ تُرِيدُ؟»، قال: أريدُ رسول الله. قال: «تَعَالَ فَقَدْ أَصَبْتَهُ». قال: يا رسول الله، عَلِّمْني ما الإيمان؟ قال: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ». قال: قد أقررت. قال: ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جُرْذَان، فهوىٰ بعيره وهوىٰ الرجل، فوقع علىٰ هامته فمات، فقال النَّبيُّ ﷺ: «عَلَيَّ بِالرَّجُلِ». فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا: يا رسول الله، قُبِضَ الرجل! قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثمَّ قال لهما رسول الله ﷺ: «أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا»، ثم قال رسول الله ﷺ: «هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾» ثم قال: «دُونَكُمْ أَخَاكُمْ». قال: فاحتملناه إلىٰ الماء فغسَّلْناه وحَنَّطْناه وكفَّنَاه، وحملناه إلىٰ القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتىٰ جلس علىٰ شَفِير القبر فقال: «أَلْحِدُوا وَلَا تَشُقُّوا، فَإِنَّ اللَّحْدَ(٣) لَنَا وَالشَّقَّ لِغَيْرِنَا»(٤).

ثمَّ رواه أحمد عن أسود بن عامر، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء، عن ثابت، عن زاذان، عن جرير ابن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هَذَا مِمَّنْ عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يوسف بن موسىٰ القطان، حدَّثنا مِهْران بن أبي عمر، حدَّثنا علي ابن عبد الأعلىٰ عن أبيه، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: كنا مع رسول الله ﷺ

---

(١) ضعيف: فيه محمَّد بن شداد المسمعي: ضعيفٌ جدًّا.

(٢) الإيضاع: حمل الراكب بعيره علىٰ سرعة السير. (٣) لوحة (٤٩أ).

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد (٤/ ٣٥٩)، وفيه أبو جناب يحيىٰ بن أبي حبة: مدلس وقد عنعن، ولكن يشهد له رواية ابن عبَّاس الآتية. [مع مراعاة الألفاظ غير الواردة في الرواية الأخرىٰ فتظلّ علىٰ ضعفها].

(٥) رواه أحمد (٤/ ٣٥٩)، وفيه ثابت وهو ابن أبي صفية أبو حمزة الثمالي: ضعيف. لكن يعتبر بالإسناد السابق ويشهد له حديث ابن عبَّاس الآتي وبه يتقوىٰ الحديث.

في مَسِيرٍ سَارَهُ، إذ عرض له أعرابي فقال: يا رسول الله، والَّذي بعثك بالحقِّ، لقد خرجتُ مِن بلادي وتِلَادِي ومالي لأَهْتَدِيَ بهُدَاكَ، وآخذ من قَوْلِكَ، ومَا بَلَغْتُكَ حتىٰ مَا لِي طعامٌ إلَّا مِن خَضِرِ الأرض، فاعْرِضْ عَلَيَّ. فعرض عليه رسول الله ﷺ، فَقَبِلَ فَازْدَحَمْنَا حوله، فدَخَل خف بَكْرِه[1] في بيت جُرْذَان، فتردَّىٰ الأعرابي، فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ، لَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ وَتِلَادِهِ وَمَالِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهُدَايَ، وَيَأْخُذَ مِنْ قَوْلِي، وَمَا بَلَغَنِي حَتَّىٰ مَا لَهُ طَعَامٌ إِلَّا مَنْ خَضِرِ الأَرْضِ، أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا هَذَا مِنْهُمْ! أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ؟ فَإِنَّ هَذَا مِنْهُمْ»[2] [وروىٰ ابن مَرْدوَيه من حديث محمَّد بن معلىٰ -وكان نزل الري- حدَّثنا زياد بن خيثمة، عن أبي داود، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَمُنِعَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ» وسكت، قالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: «﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»[3]][4].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: وجهنا حجته علىٰ قومه.

قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾

قرئ بالإضافة وبلا إضافة[5]، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريبٌ في المعنىٰ.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) البَكْر: الفتي من الإبل.

(٢) حسن لغيره: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٥٤٦)، وفي إسناده عبد الأعلىٰ عامر الثعلبي قال الحافظ: صدوق يهم. قلت: ضعَّفه أحمد وأبو زرعة، وعن يحيىٰ: ليس بذاك، ويشهد للحديث الرواية السابقة.

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٥٤٨) وإسناده ضعيف، وفيه عبد الله بن سخبرة: مجهول كما في «التقريب»، وأيضًا فإن الإسناد مرسل.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) متواترة: قرأ (دَرَجَاتٍ مَّن) عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (دَرَجَاتِ مَن).

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ (١) (٨٦) وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ (٢) وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
(٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
(٨٨) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ (٨٩) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ
إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ (٩٠)﴾

يُخْبِر -تعالىٰ- أنَّه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طَعَن في السِّنِّ، وأَيِس هو وامرأته سارَّة من الوَلَدِ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلىٰ قوم لوط، فبَشَّرُوهُمَا بإسحاق، فتعجَّبَت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، وبَشَّرُوه مع وجوده بِنُبُوَّتِه، وبأنَّ له نسلًا وعقبًا، كما قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البِشَارَة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: ويُولَد لهذا المولود ولدٌ فِي حياتكما، فتقَرُّ أعينكما به كما قَرَّت بوالده، فإنَّ الفرح بولدِ الولدِ شديدٌ لبقَاء النَّسل والعقِب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يَعْقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب، الذي فيه اشتقاق العقِب والذُّرِّيَّة، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين اعتزل قومه وتَركَهُم، ونَزَح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلىٰ عبادة الله في الأرض، فعوَّضه الله عَزَّ وَجَلَّ عَن قومه وعشيرته بأولاد صالحين

---

(١) قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: اعلم أنه تعالىٰ ذكر هنا ثمانية عشر نبيًا من الأنبياء -عليهم السلام- من غير ترتيب، لا بحسب الزمان، ولا بحسب الفضل؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب. ولكن هنا لطيفة في هذا الترتيب، وهي أن الله تعالىٰ خص كل طائفة من طوائف الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولًا نوحًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنهم أصول الأنبياء، وإليهم ترجع أنسابهم جميعًا. ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان. وقد أعطىٰ الله داود وسليمان من ذلك حظًا وافرًا. ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد، وقد خص الله بهذه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثم عطف علىٰ هاتين المرتبتين من جمع بينهما، وهو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه صبر علىٰ البلاء والشدة إلىٰ أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة، ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين، وقد خص الله موسىٰ وهارون من ذلك بالحظ الوافر. ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس عليهم السلام، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين، ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبقَ له أتباع ولا شريعة، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط. فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة علىٰ هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. - أفاده الخازن وأصله للرازي -.

(٢) لوحة (٤٩ ب).

مِن صُلْبِهِ علىٰ دينه، لتقرَّ بهم عينه، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾.

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذُرِّيَّةً صالحةً، وكل منهما له خصوصيَّةٌ عظيمةٌ، أما نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن الله تعالىٰ لما أغرق أهل الأرض إلا مَن آمَنَ به -وهم الذين صَحِبُوه في السَّفِينة- جعل الله ذُرِّيَّته هم الباقين، فالنَّاس كُلُّهم مِن ذُرِّيَّة نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبعث الله عَزَّ وَجَلَّ بعده نبيًّا إلا مِن ذُرِّيَّته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨].

وقوله[1] في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية، وعود الضمير إلىٰ نوح؛ لأنَّه أقرب المذكورين ظاهر[2]. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلىٰ إبراهيم؛ لأنَّه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل علىٰ ذلك لوط، فإنَّه ليس مِن ذُرِّيَّة إبراهيم، بل هو ابن أخيه مَارَان بن آزَر؛ اللَّهُمَّ إلا أن يُقَال: إنه دخل في الذُّرِّيَّة تغليبًا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمُّه، ودخل في آبائه تغليبًا.

[وكما قال في قوله: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسُّجود، وذُمَّ علىٰ المخالفة؛ لأنَّه كان قد تشبَّه بهم، فعُومِلَ معاملتهم، ودخل معهم تغليبًا، وكان من الجِنِّ وطبيعتهم النَّار والملائكة من النُّور.][3].

وفي ذكر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذرية إبراهيم أو نوح، علىٰ القول الآخر دلالة علىٰ دخول ولد البنات في ذُرِّيَّة الرجال؛ لأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما ينسب إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأُمِّه مريم عليها السلام، فإنَّه لا أب لَهُ.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا سهل بن يحيىٰ العسكري، حدَّثنا عبد الرحمن بن صالح، حدَّثنا علي بن عابس، عن عبد الله بن عطاء المكي، عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحَجَّاجُ إلىٰ يحيىٰ بن

(١) لوحة (٥٠ أ).

(٢) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: يحتمل أن الضمير عائد إلىٰ نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطًا، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلىٰ إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط -وإن لم يكن من ذريته- فإنه ممن آمن علىٰ يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

يَعْمُر فقال: بَلَغني أنَّك تزعم أنَّ الحسن والحسين مِن ذُرِّيَّة النَّبيِّ ﷺ، تَجِدُه في كتاب الله، وقد قَرأتُهُ مِن أوَّلِهِ إلىٰ آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ حتىٰ بلغ ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؟ قال: بلىٰ، قال: أليس [عيسىٰ] مِن ذُرِّيَّة إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت [١].

فلهذا إذا أوصىٰ الرَّجل لذُرِّيَّته، أو وقف علىٰ ذُرِّيَّته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأمَّا إذا أعطىٰ الرَّجل بَنِيهِ أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بَنِيه، واحتجُّوا بقول الشاعر العربي:

بَنُونَـــا بَنُـــو أَبْنَائِنَـــا وَبَنَاتِنَـــا ... بَنُـــوهُنَّ أَبْنَـــاءُ الرِّجَـــالِ الأَجَانِـــبِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضًا، لما ثبت في «صحيح البخاري»، أنَّ رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» [٢] فسمَّاه ابنًا، فدل علىٰ دخوله في الأبناء.

وقال آخرون: هذا تَجوُّزٌ.

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذَوِي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنَّما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم [٣]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تشديدٌ لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفًا منا بالخليقة، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا علىٰ هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة.

وقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن المُسيَّب، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم مِن سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومِلِّيين وكتابِيِّين، فقد وَكَّلْنا بها قومًا [﴿ءَاخَرِينَ﴾] يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلىٰ يوم القيامة، ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون شيئًا منها، ولا يردون منها

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٥٥٤)، وفيه علي بن عابس قال في «التقريب»: ضعيف.

(٢) البخاري (٢٧٠٤) (٣٦٢٩) (٧١٠٩)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والنسائي (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٤٩)، والترمذي (٣٧٧٣).

(٣) لوحة (٥٠ ب).

حرفًا واحدًا، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بِمَنِّهِ وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالىٰ مخاطبًا عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذُّرِّيَّة والإخوان وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرًا للرسول ﷺ، فأُمَّتُهُ تبع له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به.

قال البخاري عند هذه الآية: حدَّثنا إبراهيم بن موسىٰ، أخبرنا هشام، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني سليمان الأحول، أن مجاهدًا أخبره، أنه سأل ابن عبَّاس: أفي ﴿صٓ﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ثم قال: هو منهم[1] -زاد يزيد بن هارون، ومحمَّد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد قال: قلت لابن عبَّاس، فقال: نبيكم ﷺ ممن أُمِرَ أن يَقْتَدي بهم.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم علىٰ إبلاغي إيَّاكم هذا القرآن ﴿أَجْرًا﴾ أي: أجرة، ولا أُرِيدُ منكم شيئًا، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتذكَّرون به فَيُرْشَدُوا من العَمَىٰ إلىٰ الهدىٰ، ومن الغيِّ إلىٰ الرَّشاد، ومن[2] الكفر إلىٰ الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: وما عظَّمُوا الله حقَّ تعظيمه، إذ كذَّبوا رسله إليهم، قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعبد الله ابن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفةٍ من اليهود؛ وقيل: في فِنْحَاصٍ رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصَّيْفِ. ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأنَّ الآية مكيَّةٌ، واليهود لا يُنكِرُون إنزال الكتب من السَّماء، وقريش -والعرب قاطبة- كانوا يُبعِدُونَ إرسال رسول من البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

---

(١) البخاري (٤٦٣٢).

(٢) لوحة (٥١ أ).

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ أي: قل يا محمَّد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيءٍ من الكتب من عند الله، في جواب سَلْبِهِم العام بإثبات قضيَّةٍ جزئيَّةٍ موجبةٍ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم -وكل أحد- أنَّ الله قد أنْزَلَها علىٰ موسىٰ بن عمران نورًا وهدىٰ للناس؛ أي: ليُستَضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدىٰ بها من ظُلَم الشبهات.

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: يجعلها حَمَلَتُها قراطيس؛ أي: قِطَعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الَّذي بأيديهم، ويحرفون فيها ما يحرفون، ويُبَدِّلُون ويَتَأَوَّلُون، ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الَّذي عَلَّمَكُم الله فيه من خبر ما سبق، ونبإِ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم.

قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد[1]: هذه للمسلمين.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: أي: قل: الله أنزله. وهذا الذي قاله ابن عبَّاس هو المتعيِّن في تفسير هذه الكلمة، [لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنىٰ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة، كلمة:][2] الله.

وهذا الَّذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمةٍ مفردةٍ مِن غَيرِ تركيبٍ، والإتيان بكلمةٍ مفردةٍ لا يُفِيدُ في لغةِ العَرَبِ فائدة يحسن السكوت عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم دَعْهُمْ في جَهْلِهِم وضَلَالِهِم يلعبون، حتىٰ يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم مِن عَرَبٍ وعجم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر منهن: «وَكَانَ

---

(١) لوحة (٥١ ب).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(١)، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: كُل مَن آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الَّذِي أنزلناه إليك يا محمَّد، وهو القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أَظْلَمُ ممن كذَبَ علىٰ الله، فجعل له شريكًا أو ولدًا، أو ادَّعىٰ أن الله أرسله إلىٰ الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾. قال عِكْرِمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب لعنه الله.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(٢) يعني: ومن ادَّعىٰ أنَّه يُعَارِضُ ما جاء مِن عند الله من الوحي مما يفتريه من القول، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكُرُباته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب كما قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ الآية [المائدة: ٢٨]، وقال: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ الآية [الممتحنة: ٢].

وقال الضَّحَّاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتىٰ تخرج أنفسهم مِن أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وذلك أنَّ الكافر إذا احتضر بشَّرَتْهُ الملائكة بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتَتَفَرَّق روحه في جسده، وتَعْصَىٰ وتأبىٰ الخروجَ، فتضربهم الملائكة حتىٰ تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: اليوم تُهانُون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون علىٰ الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

(١) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩-٢١١)، وأحمد (٣/ ٣٠٤).
(٢) لوحة (٥٢ أ).

وقد وردت أحاديث [متواترة]⁽¹⁾ في كيفيَّة احتضار المؤمن والكافر، وهي مقرَّرةٌ عند قوله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقد ذكر ابن مَرْدويه هاهنا حديثًا مطولًا جدًّا مِن طريقٍ غريبةٍ، عن الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس مرفوعًا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: [يُقال لهُم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، أي:][2] كما بدأناكم [أعدناكم][3]، وقد كنتم تُنْكِرُون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقْتَنَيْتُمُوهَا في الدَّار الدُّنيا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، وَمَا سِوَىٰ ذَٰلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**»[4].

وقال الحسن البصري: يؤتىٰ بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج[5]، فيقول الله ﷻ له: أين ما جَمَعْتَ؟ فيقول: يا رَبِّ، جمعته وتركته أَوْفَرَ ما كان، فيقول: فَأَيْنَ ما قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فلا يراه[6] قَدَّم شيئًا، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم[7].

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ تقريعٌ لهم وتوبيخٌ علىٰ ما كانوا اتَّخذُوا في الدَّار الدُّنْيا مِن الأنداد والأَصْنَام والأَوْثَان، ظانِّينَ أنَّ تلك تنفعهم في مَعَاشِهم ومَعَادِهِم إن كان ثَمَّ مَعَادٌ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضَّلال، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُونَ، ويُنَادِيهم الرَّبُّ ﷻ علىٰ رُءُوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ[8] ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ [أي: في العبادة، لهم فيكم قِسْطٌ في استحقاق العِبادَةِ لهم.

ثم قال تعالىٰ:][9] ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرئ بالرفع؛ أي: شَمْلُكُم، وقُرِئ بالنصب[10]؛ أي: لقد

---

(١)سقط من (ز). (٢)سقط من (ز). (٣)سقط من (ز).

(٤)رواه مسلم (٢٩٥٩) من حديث أبي هريرة، وثبت نحوه من حديث عبد الله بن الشخير: رواه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢)، وأحمد (٤/ ٢٤).

(٥)البَذَج: ولد الضأن، وجمعه: بِذْجان. (٦)لوحة (٥٢ ب).

(٧)رواه ابن أبي حاتم (٧٦٤١)، وإسناده مرسل، وقد روي مرفوعًا -دون ذكر الآية- من حديث أنس، رواه الترمذي (٢٤٢٧) وفيه إسماعيل بن موسىٰ: ضعيف، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤١٣).

(٨)في (ز): تشركون. وهو خطأ. (٩)ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(١٠) متواترة: قَرَأَ (بَيْنَكُمْ) نَافِعٌ وَحَفْصٌ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (بَيْنُكُمْ).

انقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مِن رَجاءِ الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤]، والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ(١) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ أنَّه فَالِقُ الحَبِّ والنَّوىٰ؛ أي: يَشُقُّه في الثَّرىٰ فتَنْبُتُ الزُّروع علىٰ اختلاف أصنافها من الحبوب، والثِّمار علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النَّوىٰ؛ ولهذا فسَّر قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج النَّبات الحيَّ من الحبِّ والنَّوىٰ، الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف علىٰ ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ ثم فسَّره، ثم عطَفَ عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾.

وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها متقاربةٌ مؤدِّيَةٌ للمعنىٰ، فَمِنْ قائل: يخرج الدَّجاجَةَ مِن البَيْضَة، والبَيْضَة مِن الدَّجاجَة، من قائل: يُخرِج الولَدَ الصَّالِحَ مِن الكَافِر، والكَافِرَ مِن الصَّالِح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف

---

(١) لوحة (٥٣ أ).

تُصْرَفُونَ عن الحَقِّ، وتَعْدِلُون عنه إلىٰ الباطل فتَعْبُدُون مع الله غيره.

وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: خالق الضِّيَاء والظَّلَام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فهو سبحانه يفلق [ظلام][1] اللَّيل عن غُرَّةِ الصَّباح، فيُضِيءُ الوجود، ويَسْتَنِير الأُفُق، ويَضْمَحِلُّ الظلام، ويذهب الليل بدَآدِئِه[2] وظلام رِوَاقِهِ، ويجيء النَّهار بضِيَائِهِ وإشراقه، كما قال تعالىٰ: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبَيَّنَ تعالىٰ قدرته علىٰ خلق الأشياء المُتَضَادَّة المختلفة الدَّالَّة علىٰ كمال عَظَمَتِهِ وعَظِيم سُلْطَانِه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: ساجيًا مظلمًا تَسْكُنُ فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤].

وقال صهيبٌ الرُّوميُّ ﵁ لامرأته و[قد][3] عاتَبَتْهُ في كثرة سهره: إن الله جعل اللَّيلَ سكنًا إلا لِصُهَيب، إنَّ صهيبًا إذا ذكر الجنَّة طال شوقه، وإذا ذَكَرَ النَّار طَارَ نَوْمُهُ. رواه ابن أبي حاتم[4].

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحسابٍ مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا[5] يَضْطَرِب، بل كل منهما له مَنَازل يَسْلُكُهَا في الصَّيف والشِّتاء، فيَتَرَتَّب علىٰ ذلك اختلاف اللَّيل والنَّهار طولًا وقِصَرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ الآية [يونس: ٥]، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يُمَانَع ولا يُخَالَف، العليم بكلِّ شيءٍ، فلا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وكثيرًا [ما][6] إذا ذكر الله تعالىٰ خَلْقَ اللَّيْل والنَّهار والشَّمس والقمر يختم الكلام بالعِزَّةِ والعِلْمِ، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧،٣٨]، ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة ﴿حمٓ﴾ السجدة، قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النُّجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب علىٰ الله: أَنَّ الله جعلها زِينَةً للسَّماء، ورجومًا للشياطين،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) يقال: ليلة دأداء؛ أي: شديدة الظلمة، والجمع: دآدِيء.
(٣) سقط من (ز).
(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٧٦٧٦).
(٥) لوحة (٥٣ ب).
(٦) سقط من (ز).

ويُهْتَدَىٰ بها في ظلمات البر والبحر(١).

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: قد بيَّنَّاها ووَضَّحْنَاها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يَعْقِلُون، ويَعْرِفُون الحقَّ، ويَجْتَنِبُون الباطل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اختلفوا في معنىٰ ذلك، فعَن ابنِ مسعود، وابن عبَّاس، وأبي عبد الرحمن السلمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والضَّحَّاك، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام قالوا -أو: أكثرهم-: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأَصْلاب.

وعن ابن مسعود وطائفة(٢) عكس ذلك. وعن ابن مسعود أيضًا، وطائفة: فمُسْتَقَرٌّ في الدنيا، ومُسْتَوْدَعٌ حيث يمُوتُ. [وقال سعيد بن جُبَيْر: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام وعلىٰ ظهر الأرض، وحيث يموت](٣). وقال الحسن البصري: المُسْتَقَرُّ الَّذِي قد مات فاسْتَقَرَّ به عمله. وعن ابن مسعود: وَمُسْتَوْدَعٌ في الدَّار الآخرة.

والقول الأول هو الأظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويَعُون كلام الله ومعناه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: بقَدَرٍ مباركًا، رزقًا للعباد، وغياثًا للخَلَائِق، رحمةً من الله لخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك يَخْلُقُ فيه الحَبَّ والثَّمَرَ؛ ولهذا قال: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضًا، كالسَّنابِل ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع قِنو وهي عُذُوق الرُّطب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبةٌ من المُتَنَاول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عبَّاس: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة(٤) عُذُوقُها بالأرض(٥). رواه ابن جرير.

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: دلت هذه الآية ونحوها علىٰ مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمىٰ علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

(٢) لوحة (٥٤ أ).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٤) في (ز): المتلاصقة.

(٥) في (ز): بالنخل.

قال ابن جرير: وأهل الحجاز يقولون: قِنْوان، وقيس يقولون: قُنْوان، وقال امرؤ القيس:

فَأَثَّـــتْ أَعَالِيــــهِ وَآدتْ أُصُــــولُهُ   [وَمَـالَ][١] بِقُنْـوَانٍ مِـنَ البُـسْرِ أَحْمَـرَا[٢]

قال: وتميم يقولون قُنْيَان بالياء -قال: وهي جمع قنو، كما أن صنوان جمع صنو.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونخرج منه جنَّاتٍ من أَعْنَابٍ، وهذان النَّوْعَان هما أَشْرَفُ الثِّمَار عند أهل الحجاز، ورُبَّمَا كانا[٣] خيار الثمار في الدُّنيا، كما امْتَنَّ تعالىٰ بهما علىٰ عباده في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكان ذلك قبل تحريم الخمر.

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [يس: ٣٤].

وقوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: يتَشَابه في الوَرَق، قريب الشكل بعضه مِن بعض، ويتَخَالف في الثِّمار شكلًا وطعمًا وطبعًا.

وقوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عبَّاس، والضَّحَّاك، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وقتادة، وغيرهم. أي: فكِّرُوا في قُدْرَةِ خالقه من العَدَم إلىٰ الوجود، بعد أن كان حَطَبًا صار عِنبًا ورطبًا وغير ذلك، ممَّا خلق تعالىٰ مِن الألوان والأشكال والطُّعوم والرَّوائح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ﴾[٤] أي: دَلَالَاتٌ علىٰ كمال قُدْرَةِ خالق هذه الأشياء وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويتبعون رسله[٥].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا رَدٌّ علىٰ المشركين الَّذِين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادةِ الله أَن عبدوا الجن، فجَعَلُوهُم شركاءَ الله في العبادة، تعالىٰ الله عن شِرْكِهم وكُفْرِهم.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟

فالجواب: أَنَّهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجِنِّ وأَمْرِهِم إيَّاهم بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن

---

(١) سقط من (ز).

(٢) البيت في «اللسان»: قنا، وأثت أعاليه: عظمت والتفت من ثقل حملها، وآدت: تثنت ومالت.

(٣) في (ز): وربما أنهما.   (٤) لوحة (٥٤ ب).

(٥) قال القاسمي رحمه الله: قال الرازي: اعلم أنه تعالىٰ ذكر هاهنا أربعة أنواع من الأشجار: النخل والعنب والزيتون والرمان، وإنما قدم الزرع علىٰ الشجر؛ لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم علىٰ الفاكهة. وإنما قدم النخل علىٰ سائر الفواكه؛ لأن التمر يجري مجرىٰ الغذاء بالنسبة إلىٰ العرب، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابه في خواص كثيرة بحيث لا توجد تلك المشابهة في سائر أنواع النبات.

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ -١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ﴾ أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعْبَدُ معه غيره، كما قال إبراهيم [عليه السلام] ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ومعنىٰ الآية: أنه ﷻ هو المُسْتَقِلُّ بالخلق وحده؛ فلهذا يَجِبُ أن يُفْرَد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ يُنَبِّه به تعالىٰ علىٰ ضلال مَن ضَلَّ في وصفه تعالىٰ بأنَّ له ولدًا، كما يَزْعُم مَن قاله مِن اليَهُودِ في العُزَير، ومَن قال مِن النَّصارىٰ في المسيح، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة: إنَّها بَنَاتُ الله، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ أي: واخْتَلَقُوا وائْتَفَكُوا، وتخرَّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ يعني: أنهم تخرَّصُوا.

وقال العوفي عنه: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ قال: جعلوا له بَنِينَ وبنات. وقال(١) مجاهد: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ﴾ قال: كذبوا. وكذا قال الحسن. وقال الضَّحَّاك: وضعوا، وقال السُّدِّي: قطعوا.

قال ابن جرير: فتأويلُ الكلام إذًا: وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إيَّاه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريكٍ ولا مُعِينٍ ولا ظهير ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ﴾ [يقول: وتخرَّصوا لله كذبًا، فافتعلوا له بنين وبنات](٢) بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلًا بالله وبعظمته، وأنَّه لا ينبغي -إن كان إلهًا- أن يكون له بَنُون وبَنَات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تَقَدَّس وتَنَزَّه وتَعَاظَم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضَّالُّون من الأولاد والأنداد، والنُّظَراء والشُّرَكاء.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾

(١) لوحة (٥٥ أ).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو موافق لما في «الطبري».

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: [مبدع السموات والأرض][١]، وخالقهما، ومُنْشِئُهما، [ومُحْدِثُها][٢] علىٰ غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسُّدِّي. ومنه سُمِّيَت البدعة بدعة؛ لأنَّه لا نظير لها فيما سلف.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له وَلَدٌ، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنَّما يكون متولدًا عن شيئين مُتَنَاسِبَيْن، والله لا يناسبه ولا يُشَابِهُهُ شيءٌ مِنْ خَلْقِهِ؛ لأنَّه خالق كلِّ شيءٍ، فلا صاحبةَ له ولا ولد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ -٩٥].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبيَّنَ تعالىٰ أنَّه الَّذي خلق كلَّ شيءٍ، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، فكيف يكون له صاحبةٌ مِنْ خَلْقِهِ تناسبه وهو الذي لا نظير له؟ فأنَّىٰ يكون له ولد؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كلَّ شيءٍ ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقِرُّوا له بالوَحْدَانِيَّة، وأنَّه لا إله إلا هو، وأنَّه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبةَ له ولا نَظِير ولا عَدِيلَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورَقِيب يُدبِّر كل ما سواه، ويَرْزُقُهم ويَكْلَؤُهم بالليل والنهار.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فيه أقوال[٣] للأئمَّة مِن السَّلَفِ:

أحدها: لا تُدْرِكُهُ في الدُّنيا، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير مَا طريق ثابت في «الصِّحاح» و«المسانيد» و«السنن»، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: مَن زعم أن محمَّدًا أبصر رَبَّه فقد كذب. [وفي رواية: علىٰ الله][٤] فإن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٥]. رواه ابن أبي حاتم مِن حديث أبي بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي الضحىٰ، عن مسروق. ورواه غير واحدٍ عن مسروق، وثبت في «الصَّحِيح» وغيره عن عائشة غير وجه.

وقد خالفها ابن عبَّاس، فعنه إطلاق الرُّؤْيَة، وعنه أنَّه رآه بفُؤَادِهِ مرَّتين. والمسألة تذكر في أوَّل «سورة النجم» إن شاء الله تعالىٰ

---

(١) في بعض النسخ: مبدعها.
(٢) سقط من (ز).
(٣) لوحة (٥٥ ب).
(٤) سقط من (ز).
(٥) البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٧٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٣٥).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمَّد بن مسلم، حدَّثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقِي، حدَّثنا يحيىٰ بن مَعِين قال: سمعت إسماعيل بن عُلَيَّة يقول في قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: هذا في الدنيا. قال: وذكر أبي، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك.

وقال آخرون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: جميعها، وهذا مُخَصَّصٌ بما ثبت مِن رُؤْيَةِ المؤمنين له في [الدَّارِ][1] الآخِرَةِ.

وقال آخرون -من المعتزلة- بمقتضىٰ ما فَهِمُوه مِن هذه الآية: إنَّه لا يُرَىٰ في الدُّنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أَهْلَ السُّنَّة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله وسُنَّة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال الإمام الشَّافعي: فدلَّ هذا علىٰ أنَّ المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالىٰ.

وأما السُّنَّة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحدٍ من الصحابة عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّ المؤمنين يَرَوْن الله في الدَّار الآخرة في العَرَصَاتِ، وفي رَوْضَاتِ الجنَّات، جعلنا الله تعالىٰ منهم بمَنِّهِ وكَرَمِهِ آمين.

وقيل: المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: العقول. رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، عن الفلَّاس، عن ابن مهدي، عن أبي الحصين يحيىٰ بن الحصين قارئ أَهْلِ مكَّة أنَّه قال ذلك. وهذا غريبٌ جدًّا، وخلاف ظاهر الآية، وكأنَّه اعتقد أنَّ الإِدْرَاكَ في معنىٰ الرُّؤْيَة، والله تعالىٰ أعلم.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرُّؤْيَة ونَفْيِ الإِدْرَاك، فإنَّ الإدراك أخصُّ مِن الرُّؤْيَة، ولا يَلْزَم مِن نفي الأَخَصِّ انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإِدْرَاكِ المَنْفِيِّ[2]، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإنَّ هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أنَّ مَنْ رأىٰ القمر فإنَّه لا يُدْرِكُ حَقِيقَتَهُ وكُنْهَهُ ومَاهِيَّتَهُ، فالعظيم أولىٰ بذلك، وله المثل الأعلىٰ.

وقال آخرون: المُرَادُ بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يَلْزَمُ مِن عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم مِن عَدَمِ إحاطة العلم عَدَمُ العِلْم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وفي «صحيح مسلم»: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»[3] ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا.

قال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: لا يحيط [بصر][4] أحد بالملك.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٥٦ أ).
(٣) صحيح مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والنسائي (١/ ١٠٢)، وابن ماجة (٣٨٤١).
(٤) سقط من (ز).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعة، حدَّثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد، حدَّثنا أسباط، عن سماك، عن عِكْرِمة، أنَّه قيل له: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؟ قال: أَلَسْتَ ترىٰ السماء؟ قال: بلىٰ. قال: فكلُّها ترىٰ؟.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

وقال ابن جرير: حدَّثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدَّثنا خالد بن عبد الرحمن، حدَّثنا أبو عرفجة، عن عطيَّة العوفي في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، قال: هُم يَنظُرُون إلىٰ الله، لا تُحِيطُ أبصارهم به مِن عَظَمَتِهِ، وبَصَرُهُ مُحِيطٌ بهم. فذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

وقد وَرَدَ في تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبي حاتم هاهنا، فقال:

حدَّثنا أبو زرعة، حدَّثنا مِنْجَاب بن الحارث السهمي، حدَّثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيدٍ الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: «**لَوْ أَنَّ الجِنَّ وَالإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالمَلَائِكَةَ مُنْذُ خُلِقُوا إِلَىٰ أَنْ فَنَوْا صُفُّوا صَفًّا وَاحِدًا، مَا أَحَاطُوا بِاللهِ أَبَدًا**»[١].

غريب لا يعرف إلا مِن هذا الوجه، ولم يَرْوِهِ أحدٌ من أصحاب الكتب السِّتَّة، والله أعلم.

وقال آخرون في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بما رواه الترمذي في «جامعه»، وابن أبي عاصم في كتاب «السُّنَّة» له، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن مَرْدوَيه أيضًا، والحاكم في «مستدركه»، من حديث الحكم بن أبان قال: سمعت عِكْرِمة يقول: سمعت ابن عبَّاس يقول: رأىٰ محمَّدٌ ربَّه تبارك وتعالىٰ. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية؟ فقال لي: «**لا أُمَّ لَكَ. ذَاكَ نُورُهُ**[٢]**، الَّذِي هُوَ نُورُهُ، إِذَا تَجَلَّىٰ بِنُورِهِ لا يُدْرِكُهُ شَيْءٌ**». وفي روايةٍ: «**لا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ**»[٣].

قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنىٰ هذا الأثر ما ثبت في «الصحيحين»[٤]، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ**[٥] **وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ**

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٣٦)، وفي إسناده عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٢) لوحة (٥٦ب).

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٣٢٧٥)، وفيه محمَّد بن عمرو بن شهاب. قال الحافظ: مقبول، وفيه الحكم بن أبان قال الحافظ: صدوق له أوهام، وقال ابن حبان: ربما أخطأ، وفيه اضطراب في روايته.

(٤) في نسبته للصحيحين وهمٌ، وإنما هو من أفراد مسلم.

(٥) القِسْط: المِيزان، سُمِّي به من القِسْط: العَدْل. أراد أنّ اللّه يَخْفِض ويَرْفَع ميزان أعمال العباد المُرْتفِعة إليه، وأرْزاقهم النازلة =

النَّهارِ، وَعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -أَو: النَّار- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١).

وفي الكتب المتقدمة: إنَّ الله تعالىٰ قال لموسىٰ لما سأل الرُّؤية: «يا مُوسَىٰ، إِنَّهُ لا يَرَانِي حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ». أي: تدعثر(٢). وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ونفي هذا الأثر الإدْراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يَتَجَلَّىٰ لعباده المؤمنين كما يشاء.

فأمَّا جلاله وعَظَمَتُهُ علىٰ ما هو عليه -تعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه- فلا تُدْرِكُهُ الأبصار؛ ولهذا كانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تُثْبِتُ الرُّؤْيَةَ في الدَّار الآخرة، وتَنْفِيهَا في الدُّنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ فالَّذي نَفَتْهُ الإدراك الَّذي هو بمعنىٰ رُؤْيَةِ العَظَمَةِ والجلال علىٰ ما هو عليه، فإنَّ ذلك غير مُمْكِنٍ للبشر، ولا للملائكة ولا لشيءٍ.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي: يحيط بها ويَعْلَمُهَا علىٰ ما هي عليه؛ لأنَّه خلقها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقد يكون عبَّر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السُّدِّي في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لا يراه شيء، وهو يرىٰ الخلائق.

وقال أبو العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٣) اللَّطِيفُ باستخراجها، الخبير بمكانها. والله أعلم.

وهذا كما قال تعالىٰ إخبارًا عن لقمان فيما وعظ به ابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

البَصَائِر: هي البيِّنات والحُجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا

= من عنده، كما يَرْفَع الوزَّان يده ويَخْفِضُها عند الوزن، وهو تمثيل لِمَا يُقَدِّره الله ويُنْزِله. وقيل: أراد بالقِسْط القِسْمَ من الرزق الذي يُصِيب كلَّ مَخْلُوق، وخَفْضه: تَقْليله، ورَفْعه: تكثيره. «النهاية».

(١) مسلم (١٧٩)، وابن ماجة (١٩٥)، وأحمد (٦/ ٣٩٥). (٢) تدعثر: تهدم.

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: الذي لطف علمه وخبرته ودق حتىٰ أدرك السرائر والخفايا والخبايا والبواطن. ومن لطفه أنه يسوق عبده إلىٰ مصالح دينه ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعىٰ فيها، ويوصله إلىٰ السعادة الأبدية والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب، حتىٰ أنه يقدر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها؛ لعلمه أن دينه أصلح بها، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

قال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا[1]﴾ لما ذكر البصائر قال:

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فإنَّما يعود وَبَالُ ذلك عليه، كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: بحَافِظٍ ولا رَقِيبٍ، بل أنا مُبلِّغٌ، والله يَهْدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يَشاء.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: وكما فصَّلنا الآيات في هذه السورة، مِن بيان التَّوحيد وأنَّه لا إله إلا هو، هكذا نُوَضِّح الآيات ونُفسِّرها ونُبيِّنُها في كلِّ موطنٍ لِجَهَالَةِ الجَاهِلِينَ، وليقول المشركون والكافرون المكذِّبون: دَارَسْت يا محمَّد من قبلك من أهل الكتاب وقَارَأْتَهُم وتعَلَّمْت منهم.

هكذا قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وقد قال الطبراني: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن كيسان، سمعت ابن عبَّاس يقرأ: ﴿دَرَسْتَ﴾ تَلَوْتَ، خَاصَمْتَ، جَادَلْتَ[2].

وهذا كما قال تعالىٰ إخبارًا عن كذبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وقال تعالىٰ إخبارًا عن زَعِيمِهِم وكَاذِبِهِم: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ -٢٥].

وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولنُوَضِّحه لقومٍ يعلمون الحقَّ فيَتَّبِعُونَه، والباطل فيَجْتَنِبُونَه. فللهِ تعالىٰ الحكمة البالغة في إضْلَالِ أولئك، وبَيَان الحق لهؤلاء. كما قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ [وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ][3]﴾ [الحج: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، إلىٰ غير ذلك

---

(١) لوحة (٥٧أ).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١١٢٨٣)، وابن أبي حاتم (٧٧٥١)، ورجاله ثقات إلا أن عمرو بن كيسان لم يوثقه غير ابن حبان، وهو متساهل في التوثيق.

(٣) في (ز): ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وهي الآية التالية.

مِن الآيات الدَّالَّة علىٰ أنَّه -تعالىٰ- أَنْزل القرآن هدًىٰ للمُتَّقين، وأنَّه يُضِلُّ به من يشاء، ويَهْدِي به من يشاء؛ ولهذا قال[1] تعالىٰ هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾، قال التميمي، عن ابن عبَّاس: «دَرَسْتَ» أي: قَرَأْتَ وتَعَلَّمْتَ[2]. وكذا قال مجاهد، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، قال الحسن: «وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ»، يقول: تَقَادَمَتْ وَانْمَحَتْ. وقال عبد الرزاق أيضًا: أنبأنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، سمعت ابن الزبير يقول: إن صبيانًا يقرءون هاهنا: «دَارَسْتْ»، وإنما هي: ﴿دَرَسَتَ﴾[3][4].

وقال شعبة: حدَّثنا أبو إسحاق الهمداني قال في قراءة ابن مسعود: «دَرَسْتْ» بغير ألف، بنصب السِّين[5] ووقف علىٰ التاء.

وقال ابن جرير: ومعناه: انْمَحَت وتَقَادَمَتْ؛ أي: إن هذا الذي تَتْلُوه علينا قد مرَّ بنا قديمًا، وتطاولت مُدَّتُه.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة أنه قرأها: «دُرِسَتْ» أي: قُرِئت وتُعُلِّمت[6].

وقال معمر، عن قتادة: «دُرِسَتْ»: قرئت. وفي حرف ابن مسعود «دَرَسَ»[7].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدَّثنا حجاج، عن هارون قال: هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود: «وَلِيَقُولُوا دَرَسَ». قال: يعنون النَّبيَّ ﷺ أنه قرأ[8].

وهذا غريبٌ؛ فقد روي عن أبي بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مَرْدوَيه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد ابن إبراهيم، حدَّثنا الحسن بن الليث، حدَّثنا أبو سلمة، حدَّثنا أحمد بن أبي بَزَّة المكي، حدَّثنا وهب بن زَمعَة، عن أبيه، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، عن أبي بن كعب قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾[9].

---

(١) لوحة (٥٧ب).

(٢) حسن: رواه الطبري (٧/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم (٧٧٤٩)، والتميمي هو أربِد: وثقه ابن حبان والعجلي. وقد رواه الطبري (٧/ ٣٠٦) عن ابن عبَّاس بنفس المعنىٰ.

(٣) متواترة: قَرَأَ (دَارَسْتَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُمَا ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (دَرَسَتْ) ابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ (دُرِسَتْ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (دَرَسْتَ).

(٤) صحيح: رواه عبد الرزاق في «تفسيره»، وابن أبي حاتم (٧٧٥٣)، والطبري (٧/ ٣٠٨).

(٥) في (ز): الراء.

(٦) قراءة: قَرَأَ (دُرِسَتْ) قَتَادَةُ، سَبَقَ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ.

(٧) قراءة: قَرَأَ (دَرَسَ) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ، سَبَقَ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَوَاتِرِ.

(٨) رواه الطبري (٧/ ٣٠٩).

(٩) ضعيف: عزاه لابن مردويه، ورواه الحاكم (٢/ ٢٣٨)، وصححه ووافقه الذهبي. قلت: بل هو ضعيف، فيه حميد الأعرج قال الحافظ: ضعيف.

ورواه الحاكم في «مستدركه»، من حديث وهب بن زمعة، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتَّبع طريقته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: اقْتَدِ به، واقْتَفِ أَثَره، واعمل به؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليك من رَبِّك هو الحق الَّذي لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنَّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعْفُ عنهم واصْفَح، واحْتَمِل أذاهم، حتىٰ يَفْتَح الله لك، ويَنصُرك ويظفرك عليهم.

واعلم أنَّ لله حكمةً فِي إِضْلَالِهِم، فإنَّه لو شاء لهدىٰ النَّاس كلهم جميعًا [ولو شاء الله لجَمَعَهُم علىٰ الهُدَىٰ][(١)].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يَشَاؤُه ويختاره، لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهُم يُسْأَلُونَ.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظًا تحفظ[(٢)] أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: مُوَكَّل علىٰ أَرْزَاقِهِم وأُمُورِهِم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[(٣)]

يقول تعالىٰ ناهيًا لِرَسُولِهِ ﷺ والمؤمنين عن سَبِّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلَّا أنه يَتَرَتَّب عليه مفسدةٌ أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسَبِّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو.

كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: قالوا: يا محمَّد، لَتَنْتَهِيَنَّ عَن سَبِّك آلِهَتَنا، أو لَنَهْجُوَنَّ ربَّك، فنهاهُم الله أَن يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ، ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٤)].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: كان المسلمون يَسُبُّون أصنام الكُفَّار، فيَسُبُّ الكُفَّار الله عَدْوًا

---

(١) ما بين المعقوفتين ليست في (ز). (٢) لوحة (٥٨أ).

(٣) قال القاسمي رحمه الله: قال ابن الفرس في الآية: إنه متىٰ خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن لم يجز أن يُسَبُّوا ولا دينهم. قال: وهي أصل في قاعدة سد الذرائع.

قال السيوطي رحمه الله: وقد يستدل بها علىٰ سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوىٰ. وكذا كل فعل مطلوب ترتب علىٰ فعله مفسدة أقوىٰ من مفسدة تركه.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٧/ ٣٠٩)، وابن أبي حاتم (٧٧٦٠)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

بغَيْرِ عِلْمٍ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (١).

وروىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السُّدِّي أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش: انْطَلِقُوا فلندخل علىٰ هذا الرَّجُلِ، فَلْنَأْمُرْه أَن ينهىٰ عنا ابن أخيه، فإنا نستحيي أَن نَقْتُلَهُ بعد موته، فتقول العرب: كان يَمْنَعُهُ فلمَّا مات قَتَلُوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمية، وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البَخْتَري وبعثوا رجلًا منهم يقال له: «المطلب»، قالوا: اسْتَأْذِنْ لنا علىٰ أبي طالب، فأتىٰ أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدُّخول عليك، فأَذِنَ لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أَنْتَ كَبِيرُنا وسَيِّدُنا، وإنَّ محمَّدًا قد آذَانا وآذَىٰ آلِهتنا، فنحب أن تَدْعُوه فتَنْهاهُ عَن ذِكْرِ آلِهتِنا، ولندعه وإلهه. فدعاه، فجاء النَّبيُّ ﷺ فقال له أبو طالب: هؤلاء قَوْمُكَ وبنو عمِّك. قال رسول الله ﷺ: «مَا تُرِيدُونَ؟». قالوا: نُريد أَن تدعنا وآلِهتِنا، ولندعك وإلهك. [قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم] (٢)، فقال النَّبيُّ ﷺ «أَرَأَيْتُم إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذَا، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ، [وَأَدَّتْ لَكُمُ] (٣) الخَرَاجَ؟» قال أبو جهل: وأَبِيكَ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وعشرة أمثالها، قال: فما هي؟ قال: «قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». فأَبَوْا واشْمَأَزُّوا. قال أبو طالب: يا ابن أخي، قل غيرها، فإن قومك (٤) قد فَزِعُوا منها. قال: «يَا عَمِّ، مَا أَنَا بِالَّذِي أَقُولُ غَيْرَهَا، حَتَّىٰ يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدِي، وَلَوْ أَتَوْا بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدِي مَا قُلْتُ غَيْرَهَا». إِرَادَةَ أن يُؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا، أو لَنَشْتُمَنَّك ونَشْتُم مَن يَأْمُرُك، فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (٥).

ومن هذا القبيل -وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها- ما جاء في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ». قالوا: يا رسول الله: وكيف يَسُبُّ الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ». أو كما قال عليه السلام (٦).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: وكما زيَّنَّا لهؤلاء القوم حبَّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زَيَّنَّا لكلِّ أُمَّةٍ من الأمم الخاليةِ علىٰ الضَّلال عَمَلَهُم الذي كانوا فيه، ولله الحُجَّةُ البَالِغَةُ، والحكمة التَّامَّة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم ومصيرهم، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُجَازِيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

---

(١) ضعيف: رواه ابن جرير (٧/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٦١)، وهو مرسل.
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٤) لوحة (٥٨ب).
(٥) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٦٢)، وابن جرير (٧/ ٣١٠)، وإسناده مرسل.
(٦) لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن ثبت بلفظ: «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه». رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (١١٦، ١١٧)، والترمذي (١٩٨٣)، والنسائي (٧/ ١١٢)، وابن ماجة (٦٩)، واللفظ المذكور له شاهد عند مسلم (١٩٧٨) بلفظ: «لعن الله من لعن والده» من حديث علي بن أبي طالب، ورواه أحمد (١/ ١٠٨) بلفظ: «لعن الله من سب والديه».

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن المشركين: إنَّهم ﴿أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: حلفوا أيمانًا مؤكدةً ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزة وخارق ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: لَيُصدِّقُنَّها ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمَّد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تَعَنُّتًا وكفرًا وعنادًا، لا علىٰ سبيل الهدىٰ والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلىٰ الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم، كما قال.

قال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا يونس بن بُكَيْر، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن محمَّد بن كعب القُرَظِي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشًا، فقالوا: يا محمَّد، تخبرنا أن موسىٰ كان معه عصًا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتىٰ نصدقك. فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّ شَيْءٍ تُحِبُّونَ أَنْ آتِيكُمْ بِهِ؟». قالوا: تجعل لنا الصَّفا ذهبًا. فقال لهم: «فَإِنْ فَعَلْتُ تُصَدِّقُونِي؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لَنَتَّبِعُكَ أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: «[لَكَ][(١)] مَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ الصَّفَا ذَهَبًا، وَلَئِنْ أَرْسَلَ آيَةً[(٢)] فَلَمْ يُصَدِّقُوا عِنْدَ ذَلِكَ لَيُعَذِّبَنَّهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَاتْرُكْهُمْ حَتَّىٰ يَتُوبَ تَائِبُهُمْ». [فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ يَتُوبُ تَائِبُهُمْ». فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾][(٣)] ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾[(٤)].

وهذا مرسل، وله شواهد من وجوه أخر. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام]. قيل: المخاطب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يُدْرِيكم بِصِدْقِكُم في هذه الأيمان[(٥)] التي تُقْسِمُون بها. وعلىٰ هذا فالقراءة: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بكسر «إِنَّهَا»[(٦)] علىٰ استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقراءة بعضهم: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا

---

(١) سقط من (ز)، وهو موافق لما في «الطبري». (٢) لوحة (٥٩ أ).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير، وإسناده مرسل، لكن ثبت أن هذه القصة في سبب نزول الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] رواه أحمد (١/ ٢٥٨)، وإسناده صحيح.

(٥) في (ز): الآيات.

(٦) متواترة: قَرَأَ (إِنَّهَا) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَشُعْبَةُ بِخُلْفٍ عَنْهُ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَنَّهَا).

تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء المثناة من فوق(١).

وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون؛ أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلىٰ هذا فيجوز في ﴿أَنَّهَآ﴾ الكسر كالأول والفتح علىٰ أنه معمول ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾. وعلىٰ هذا فتكون ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم -أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصًا علىٰ إيمانهم- أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

وقال بعضهم: «أَنَّهَا» بمعنىٰ لعلَّها.

قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أُبي بن كعب. قال: وقد ذكر عن العرب سماعًا: «اذْهَبْ إلىٰ السُّوق أنَّكَ تَشْتَرِي لي شيئًا» بمعنىٰ: لعلَّك تشتري.

قال: وقد قيل: إن قول عدي بن زيد العبادي من هذا:

أَعَـــاذِلُ مَـــا يُـــدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِـــي ... إِلَـىٰ سَـاعَةٍ فِـي الْيَـوْمِ أَوْ فِـي ضُـحَىٰ الْغَـدِ

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وذكر عليه شواهد من أشعار العرب، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال العوفي عن ابن عبَّاس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم علىٰ شيء، ورُدَّت عن كل أمر.

وقال مجاهد: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ونَحُولُ بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ فلا يُؤْمِنُون، كما حلْنَا بينهم وبين الإيمان أوَّل مرَّة.

وكذا قال عِكْرِمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس أنَّه قال: أَخْبَرَ الله ما العِبَاد قَائِلُون قبل أن يَقُولُوه، وعَمَلُهُم قبل أن يَعْمَلُوه. قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ(٢) ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ -٥٨] فأخبر -سبحانه- أنَّهم لو رُدُّوا لم يَقْدِرُوا علىٰ الهدىٰ، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال: ولو رُدُّوا إلىٰ الدُّنْيا لَحِيلَ بَيْنَهُم وبين الهُدَىٰ، كما حلْنَا بينهم(٣) وبينه أوَّل مرَّةٍ وهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ قال ابن عبَّاس

---

(١) متواترة: قَرَأَ (تُؤْمِنُونَ) ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَوَافَقَهُمَا الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يُؤْمِنُونَ).

(٢) لوحة (٥٩ب). (٣) في (ز): جعلنا.

والسُّدِّي: في كفرهم. وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: في ضلالهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، و[أبو][1] مالك، وغيره: في كفرهم يَتَرَدَّدُون.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فنزَّلنا عليهم الملائكة؛ أي: تُخْبِرُهُم بالرِّسالة مِن الله بِتَصْدِيق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرُّسل ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ -قرأ بعضهم: «قِبَلًا» بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمُعَايَنَةِ. [وقرأ آخرون بضمهما[2] قيل: معناه من المقابلة والمعاينة][3] أيضًا، [كما رواه][4] علي بن أبي طلحة، والعوفي، عن ابن عبَّاس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾ أفواجًا، قبيلًا قبيلًا؛ أي: تُعْرَضُ عليهم كلُّ أُمَّةٍ [بعد أُمَّة][5] فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدي مَن يشاء ويُضِلُّ من يشاء، وهو الفعَّال لما يريد، ولا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلُون؛ لعلمه وحكمته، وسلطانه وقَهْرِهِ وغَلَبَتِهِ. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول[6] تعالىٰ: وكَمَا جعلنا لك -يا محمَّد- أعداءً يخالفونك، ويُعادُونك جعلنا لكل نبيٍّ من قَبْلِكَ أيضًا أعداء فلا يَهِيدنَّك ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران:

---

(١) سقط من (ز).
(٢) متواترة: قَرَأَ (قِبَلًا) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (قُبُلًا).
(٣) سقط من (ز).
(٤) في (ز): قاله.
(٥) في (ز): من الأمم.
(٦) لوحة (٦٠ أ).

١٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنَّه لم يأتِ أحدٌ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِي[١].

وقوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أي: لهم أَعْداءٌ من شياطين الإنس والجن، ومن هؤلاء وهؤلاء، قبَّحَهُم الله ولعنهم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ قال: من الجِنِّ شياطين، ومن الإنس شياطين، يوحي بعضهم إلىٰ بعض، قال قتادة: وبلغني أن أبا ذر كان يومًا يصلي، فقال النَّبيُّ ﷺ: «تَعَوَّذْ يَا أَبَا ذَرٍّ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ». فقال: أَوَ إِنَّ من الإنس شياطين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ»[٢]. وهذا منقطعٌ بين قتادة وأبي ذَرٍّ، وقد رُوِيَ مِن وجهٍ آخر عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال ابن جرير:

حدَّثنا المثنىٰ، حدَّثنا أبو صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن أبي عبد الله محمَّد بن أيوب وغيره من المشيخة، عن ابن عائذ، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ في مجلسٍ قد أطال فيه الجُلوسَ قال: فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ صَلَّيْتَ؟». قال: لا يا رسول الله. قال: «قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ». قال: ثم جئتُ فجلستُ إليه، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَعَوَّذْتَ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ وَالإِنْسِ؟». قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نَعَمْ، هُمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ».

وهذا أيضًا فيه انقطاع[٣]، ورُوِيَ مُتَّصِلًا كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا المسعودي، أنبأني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ وهو في المسجد، فجلست فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ؟». قلت: لا. قال: «قُمْ فَصَلِّ». قال: فقمت فصَلَّيْت، ثم جلست فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ [شَرِّ][٤] شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ». قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نَعَمْ». وذكر تمام[٥] الحديث بطوله[٦].

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره» من حديث جعفر بن عون، ويعلىٰ بن عبيد،

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، وأحمد (٦/ ٢٣٢). (٢) تقدم عند تفسير الاستعاذة.
(٣) انظر التعليق السابق. (٤) سقط من (ز)، وما أثبتناه موافق لما في «المسند».
(٥) لوحة (٦٠ ب).
(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٥/ ١٧٨)، والنسائي (٨/ ٢٧٥)، وفي «الكبرىٰ» (٧٨٩١)، وفي إسناده المسعودي: ثقة لكن اختلط، لكن الراوي عنه وكيع وسماعه منه قبل الاختلاط، وفي الإسناد أيضًا عبيد بن الخشخَاش: لين الحديث، وفيه أبو عمر الدمشقي، قال الدارقطني: متروك. وبهذا فالإسناد ضعيف، وللحديث طرق كما ذكرها ابن كثير لا تخلو من ضعف، وحكم بقوتها وصحتها بمجموعها، وبمجموع الطرق؛ فالحديث حسن - إن شاء الله -.

وعبيد الله بن موسىٰ، ثلاثتهم عن المسعودي به.

طريق أخرىٰ عن أبي ذَرٍّ: قال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا الحجاج، حدَّثنا حماد، عن حميد بن هلال، حدَّثني رجل من أهل دمشق، عن عوف[١] بن مالك، عن أبي ذَرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَعَوَّذْتَ بِاللهِ مِنْ [شَرِّ][٢] شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ؟». قال: قلت: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: «نَعَمْ»[٣].

طريق أُخْرَىٰ للحديث: قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عَوْف الحِمْصي، حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْتَ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ وَالإِنْسِ؟». قال: يا رسول الله، وهل للإنس [من][٤] شياطين؟ قال: «نَعَمْ، شَيَاطِينُ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا»[٥][٦].

فهذه طُرُقٌ لهذا الحديث، ومجموعها يُفِيدُ قوته وصحته، والله أعلم.

وقد رَوَىٰ ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبو نُعَيم، عن شَرِيك، عن سعيد بن مسروق، عن عِكْرِمة: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ قال: ليس مِنَ الإِنْسِ شَيَاطِين، ولكن شياطين الجن يوحون إلىٰ شياطين الإنس، وشياطين الإنس يوحون إلىٰ شياطين الجن.

قال: وحدَّثنا الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا إسرائيل، عن السُّدِّي[٧] في قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [قال: للإِنْسِيِّ شيطانٌ، ولِلْجِنِّيِّ شيطانٌ، فيَلْقَىٰ شيطان الإنس شيطان الجن، فيُوحِي بعضهم إلىٰ بعضٍ زُخْرُفَ القول غرورًا][٨].

وقال أسباط: عن السُّدِّي، عن عِكْرِمة في قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ في تفسير هذه الآية: أما شياطين الإنس، فالشياطين التي تضل الإنس، وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان فيقول كل واحدٍ منهما لصاحبه: إني أَضْلَلْتُ صاحبي بكذا وكذا، فأَضْلِلْ أنت صاحبك بكذا وكذا، فيُعَلِّم بعضُهُم بعضًا.

---

(١) في (ز): عون. وهو خطأ. والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) سقط من (ز)، وما أثبتناه موافق لما في «المسند».

(٣) حسن لغيره: رواه الطبري (٨/ ٥ برقم ١٣٧٦٨)، وفيه رجل مجهول، ويشهد له الرواية الآتية، وانظر التخريج السابق.

(٤) سقط من (ز).

(٥) حسن لغيره: رواه ابن أبي حاتم (٧٧٨٦)، وأحمد (٥/ ٢٦٥)، وفيه علي بن يزيد: ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن: ضعيف، ويشهد له ما تقدم.

(٦) وقع في بعض النسخ المطبوعة كطبعة «أولاد الشيخ» وغيرهاهنا: [وقوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾]، وهي مقحمة في هذا الموضع كما لا يخفىٰ، أو هي خطأ من بعض النُّسَّاخ.

(٧) في (ز): (عن السُّدي عن عكرمة)، والمثبت موافق لما في «الطبري»، وهو الصواب، ويدل علىٰ أن عبارة: «عن عكرمة مقحمة في باقي كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

ففهم ابن جرير من هذا؛ [أنَّ المراد بشياطين الإنس عند عِكْرِمة والسُّدِّي: الشياطين من الجن الذين يُضِلُّون النَّاس، لا](١) أنَّ المراد منه شياطين(٢) الإنس منهم(٣). ولا شكَّ أن هذا ظاهر مِن كلام عِكْرِمة، وأمَّا كلام السُّدِّي فليس مثله في هذا المعنىٰ، وهو محتمل.

وقد رَوَىٰ ابن أبي حاتم نحو هذا، عن ابن عبَّاس من رواية الضَّحَّاك عنه، قال: إنَّ للجِنِّ شياطين يُضِلُّونهم مثل شَيَاطِين الإنس يُضِلُّونَهُم، قال: فيَلْتَقِي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أَضْلِلْهُ بكذا، أَضْلِلْهُ بكذا. فهو قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وعلىٰ كل حالٍ(٤) فالصَّحيح ما تقدَّم من حديث أبي ذرٍّ: إن للإنس شياطين منهم، وشيطان(٥) كل شيء مَارِدُهُ، ولهذا جاء في «صحيح مسلم»، عن أبي ذرٍّ أن رسول الله ﷺ قال: «**الكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ**»(٦)؛ ومعناه -والله أعلم-: شيطان في الكلاب.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد في تفسير هذه الآية: كُفَّار الجن شَيَاطِين يوحون إلىٰ شياطين الإنس -كُفَّار الإنس- زُخْرُفَ القول غرورًا.

وروىٰ ابن أبي حاتم، عن عِكْرِمة قال: قدمت علىٰ المختار فَأَكْرَمَنِي، وأَنْزَلَنِي حتىٰ كاد يَتَعَاهَد مَبِيتِي بالليل، قال: فقال لي: اخرج [إلىٰ الناس](٧) فحدِّثِ الناس. قال: فخرجت، فجاء رجلٌ فقال: ما تقول في الوَحْي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالىٰ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال الله تعالىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فَهَمُّوا بي أن يَأْخُذُونِي، فقلت: ما لكم ذاك، إنِّي مُفْتِيكُم وَضَيْفُكُم؛ فتركوني.

وإنما عَرَضَ عِكْرِمة بالمختار -وهو ابن أبي عبيد- قبَّحه الله، وكان يَزْعُم أنَّه يَأْتِيهِ الوحي، وقد كَانَتْ أُخْتُهُ صفيَّة تحت عبد الله بن عمر، وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أنَّ المختار يَزْعُم أنَّه يُوحَىٰ إِلَيْهِ، قال: صدق، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يلقي بعضهم إلىٰ بعضٍ القول المُزَيَّن المُزَخْرَف، وهو المُزَوَّق الذي يَغْتَرُّ سامِعُه من الجَهَلَةِ بِأَمْرِهِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: وذلِكَ كله بقَدَرِ الله وقضائه، وإرادته ومَشِيئَتِهِ، أن يكون لكل نَبِيٍّ عدوٌّ من هؤلاء.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدعهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون؛ أي: دع أذاهم وتوكل علىٰ الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إليه، قاله ابن عبَّاس.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) في (ز): أنهم المراد من شياطين.
(٣) قال ابن باز رحمه الله: هذا يصادم ما ذكر في الآية.
(٤) لوحة (٦١ أ).
(٥) في (ز): وشياطين.
(٦) رواه مسلم (٥١٠).
(٧) سقط من (ز).

﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم.

وقال السُّدِّي: قلوب الكافرين، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: يحبوه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون.

وقال السُّدِّي، وابن زيد: وليعملوا ما هم (١) عاملون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول الله تعالىٰ لِنَبيِّه محمَّد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: بيني وبينكم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبينًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارىٰ، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ» (٢).

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقًا فيما قال وعدلًا فيما حكم.

يقول: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحقٌّ لا مِرْيَةَ فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهُو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهىٰ عنه فباطلٌ، فإنَّه لا ينهىٰ إلا عن مَفْسَدةٍ، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ إلىٰ آخر الآية [الأعراف:١٥٧].

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ليس أحدٌ يُعقِّبُ حكمه تعالىٰ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٣) ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

---

(١) لوحة (٦١ ب).

(٢) مرسل رواه ابن جرير (١١/ ١٦٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٠٥٨٣)، وعبد الرزاق (٦/ ١٠٢١١)، وإسناده مرسل.

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: دلت هذه الآية علىٰ أنه لا يستدل علىٰ الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون -عند الله- قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل علىٰ الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

يخبر تعالىٰ عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنَّه الضَّلال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهم في ضَلَالِهم ليسوا علىٰ يَقِينٍ مِن أَمْرِهِم، وإنَّما هم في ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وحُسْبَانٍ باطل [﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾](١) فإنَّ الخَرْص هو الحَزْرُ، ومنه خرص النخل، وهو حَزْرُ ما عليها من التَّمر، وكذلك كلُّه قدر الله ومشيئته، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فيُيَسِّرُه لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيُيَسِّرُهم لذلك، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم(٢) بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾(٣)

هذه إباحةٌ مِن الله [تعالىٰ] لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذَّبائح ما ذُكِرَ عليه اسمه، ومفهومه: أنَّه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يَسْتَبِيحُهُ كفَّار المشركين مِن أكل الميتات، وأكل ما ذُبِحَ علىٰ النُّصُبِ وغيرها. ثم نُدِبَ إلىٰ الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بيَّن لكم ما حَرم عليكم ووضحه.

وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف(٤)، والكل بمعنىٰ البيان والوضوح.

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم.

ثم بَيَّنَ [تعالىٰ] جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالىٰ فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بِاعْتِدَائِهِم وكذبهم وافترائهم.

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ(٥) وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ معصيته في السِّرِّ والعلانية، وفي رواية عنه قال: هو ما ينوىٰ مما هو عامل.

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٦٢ أ).

(٣) قال القاسمي رحمه الله: قال الرازي: دلت هذه الآية علىٰ أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام؛ لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوىٰ والشهوة، والآية دلت علىٰ أن ذلك حرام.

(٤) متواترة: قَرَأَ (فُصِّلَ) ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ (فَصَلَ) عَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فَصَّلَ).

(٥) في (ز) ظاهرًا من الإثم. وليست آية.

وقال قتادة: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي: قليله وكثيره، سِرّه وعلانيتَهُ

وقال السُّدِّي: ظاهره الزِّنا مع البغايا ذوات الرَّايَات، وباطنه: [الزِّنا][1] مع الخليلة والصَّدائِق والأَخْدَان.

وقال عِكْرِمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم.

والصحيح: أنَّ الآية عامَّةٌ في ذلك كُلِّه، وهي كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ الآية [الأعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهرًا أو خفيًّا، فإن الله سيجزيهم عليه.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن عرفة، حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَير، عن أبيه، عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عَن الإثم فقال: «الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ»[2].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[3]

استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن ذهب إلىٰ أنَّه لا تَحِلُّ الذَّبِيحة التي لم يُذْكَرِ اسم الله عليها، ولو كان الذَّابح مسلمًا، وقد اختلف الأئمة رَحِمَهُمُ اللهُ في هذه المسألة علىٰ ثلاثة أقوال:

فمِنْهُم من قال: لَا تَحِلُّ[4] هذه الذَّبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التَّسمية عمدًا أو سهوًا. وهو مَرْويٌّ عن ابن عمر، ونافع مولاه، وعامر الشعبي، ومحمَّد بن سيرين. وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة مِن أصحابه المُتقدِّمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمَّد بن محمَّد بن علي الطائي من مُتأَخِّري الشافعيَّة في كتابه «الأربعين»، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آيةِ الصَّيد: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أَكَّدَ في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ والضَّمير قيل: عائد علىٰ الأكل، وقيل: عائد علىٰ الذَّبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتَّسْمِيَةِ عند الذَّبِيحَةِ والصيد، كحَدِيثَي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ [عَلَيْهِ][5] فَكُلْ مَا أَمْسَكَ

---

(١) سقط من (ز). (٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٣) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: دلت هذه الآية الكريمة علىٰ أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها علىٰ أنها حق، ولا تصدق حتىٰ تعرض علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التميز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله.

(٤) لوحة (٦٢ ب). (٥) سقط من (ز).

عَلَيْكَ»[١]. وهما في «الصحيحين»، وحديث رافع بن خَدِيْج: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ»[٢]. وهو في «الصَّحِيحَيْن» أيضًا، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجِنِّ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ»[٣] رواه مسلم. وحديث جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّي فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّىٰ صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[٤]. أخرجاه، وعن عائشة ﵂ أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، إنَّ قومًا يأتوننا باللَّحم لا ندري: أَذُكِرَ اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ[٥] وَكُلُوا». قالت: وكانوا حديثي عهد بالكُفْر[٦]. رواه البخاري.

ووجه الدَّلَالَةِ أنَّهم فَهِمُوا أنَّ التَّسْمِيَة لا بدَّ منها، وأنَّهم خشوا ألا تكون وجدت من أُولَئِكَ لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتَّسْمِيَةِ عند الأكل؛ لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذَّبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين علىٰ السداد، والله تعالىٰ أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنَّه لا يشترط التَّسْمِيَةُ، بل هي مستحبَّةٌ، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لم تَضُرَّ، وهذا مذهب الإمام الشافعي ﵀ وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نَقَلَهَا عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونَصَّ علىٰ ذلك أشهب بن عبد العزيز مِن أَصْحَابِهِ، وحكي عن ابن عبَّاس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم.

وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ علىٰ ما ذُبِحَ لِغَيْرِ الله[٧]، كقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: يَنْهَىٰ عن ذبائح كانت تَذْبَحُهَا قريش عن الأوثان، وينهىٰ عن ذَبَائِحِ المجوس، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قَوِيٌّ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يُقَوِّيَهُ بأن جعل «الواو» في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية؛ أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا، ولا يكون فسقًا حتىٰ يكون قد أُهِلَّ به لغير الله. ثم ادَّعىٰ أنَّ هذا مُتَعَيِّنٌ، ولا يجوزُ أن تكون «الواو» عاطفة؛ لأنَّه يلزم منه عطف جملةٍ اسميَّة خبريَّة علىٰ جملةٍ فعليَّةٍ طلبيَّةٍ.

وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فإنَّها عاطفةٌ لا محالة، فإن كانت «الواو» الَّتي ادَّعَىٰ أنَّها حالية صحيحة علىٰ ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطفت علىٰ الطلبيَّة ورد عليه ما أورد علىٰ غيره، وإن لم تكن «الواو» حاليَّةً، بطل ما قال مِن أَصْلِهِ، والله أعلم.

---

(١) البخاري (١٧٥، ٢٠٥٤)، ومسلم (١٩٢٩)، وأبو داود (٢٨٤٧)، والترمذي (١٤٦٥)، والنسائي (٧/ ١٨٠)، وابن ماجة (٣٢١٥).

(٢) البخاري (٢٤٨٨) (٥٤٩٨)، ومسلم (١٩٦٨)، وأبو داود (٢٨٢١)، والترمذي (١٤٩١)، والنسائي (٧/ ٢٢٦).

(٣) رواه مسلم (٤٥٠).

(٤) البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

(٥) في (ز): سموا عليه اسم الله.

(٦) رواه البخاري (١٩٥٢) (٤٤٤٩) (٥١٨٨).

(٧) لوحة (٦٣ أ).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيىٰ بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هي المَيْتَة (١).

ثم رواه، عن أبي زُرْعَة، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن ابن لَهِيعَة، عن عطاء -وهو ابن السائب- به.

وقد استدلَّ لهذا المذهب بما رواه أبو داود في «المراسيل» من حديث ثور بن يزيد، عن الصلت السدوسي -مولىٰ سُوَيْد بن مَنْجوف أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب «الثقات»- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ، ذَكَرَ اسْمَ اللهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْمَ اللهِ**» (٢).

وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عبَّاس أنه قال: إذا ذَبَحَ المسلم، ولم يذكر اسم الله فَلْيَأْكُلْ، فإنَّ المسلم فيه اسم من أسماء الله (٣).

واحتجَّ البيهقي أيضًا بحديث عائشة ﵂ المتقدم [أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله] (٤)، إنَّ قومًا حديثي عهد بجاهليةٍ يأتونا بلحمٍ لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا**».

قال: فلو كان وجود التَّسْمِيَةِ شرطًا لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: [أنه] (٥) إن تَرَكَ البسملة علىٰ الذَّبِيحَةِ نسيانًا لم يضر، وإن تركها عمدًا لم تَحِلَّ.

هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق ابن راهويه، وهو محكيٌّ عن علي، وابن عبَّاس، وسعيد بن المُسَيب، وعَطَاء، وطاوس (٦)، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، وجعفر بن محمَّد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن.

ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه «الهداية» الإجماع قبل الشَّافعي علىٰ تحريم متروك التَّسْمِيَةِ عمدًا، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ: لو حكم حَاكِمٌ بجواز بَيْعِهِ لم ينفذ؛ لمخالفة الإجماع.

وهذا الذي قاله غريبٌ جدًّا، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي، والله أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: مَن حَرَّم ذبيحة النَّاسي، فقد خرج مِن قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثَّابت عن رسول الله ﷺ في ذلك.

يعني: ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثنا أبو العبَّاس الأصم، حدَّثنا أبو أمية الطرسوسي، حدَّثنا محمَّد بن يزيد، حدَّثنا معقل بن عبيد الله، عن عمرو بن دينار،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٣٣).

(٢) ضعيف رواه أبو داود في «المراسيل» (٣٧٨)، وفيه الصلت السدوسي، قال الحافظ: لين الحديث أرسل حديثًا.

(٣) صحيح موقوف رواه الدارقطني (٤/ ٢٩٥/ ٩٦)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٢٣٩).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) ليست في (ز).

(٦) لوحة (٦٣ ب).

عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**المُسْلِمُ يَكْفِيهِ اسْمُهُ، إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ، فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْهُ**»(١) .

وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري؛ فإنَّه وإن كان مِن رجال مسلم إلا أنَّ سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، من قوله. فزادا في إسناده «أبا الشعثاء» ووقفاه(٢) والله تعالىٰ أعلم. وهذا أصحُّ، نصَّ عليه البيهقي [وغيره من الحفاظ](٣) .

وقد نقل ابن جرير وغيره. عن الشعبي، ومحمَّد بن سيرين، أنَّهما كَرِهَا متروك التَّسْمِيَةِ نسيانًا، والسَّلف يُطْلِقُون الكراهية علىٰ التَّحْرِيم كثيرًا، والله أعلم.

إلَّا أنَّ مِنْ قاعدة ابن جرير أنَّه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفًا لقول الجمهور، فيَعُدُّه إجماعًا، فليعلم هذا، والله الموفق.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيعٍ، حدَّثنا أبو أسامة، عن جَهِير بن يزيد قال: سئل الحسن، سأله رَجُلٌ أتيت بِطَيْرٍ كَرَىٰ(٤)؛ فمِنْهُ ما قَد ذُبِحَ فذُكِرَ اسم الله عليه، ومنه ما نُسِيَ أن يذكر اسم الله عليه، واختلط الطَّيْرُ، فقال الحسن: كُلْهُ كُلَّه.

قال: وسألت محمَّد بن سيرين فقال: قال الله تعالىٰ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾(٥) .

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجة، عن ابن عبَّاس، وأبي هريرة، وأبي ذرٍّ، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»(٦) وفيه نظر، والله أعلم.

وقد رَوىٰ الحافظ أبو أحمد بن عدي، من حديث مروان بن سالم القرقساني، عن الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير(٧)، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ الرجل منا يَذْبَحُ وينسىٰ أن يُسَمِّي؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**اسْمُ اللهِ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٨) .

ولكن هذا إسناده ضعيف، فإنَّ مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامي: ضعيف، تكلَّم فيه غيرُ واحدٍ من الأئمَّة، والله أعلم.

وقد أفردت هذه المسألة علىٰ حدة، وذكرت مذاهب الأئمة ومآخِذَهُم وأدلتهم، ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات، والله أعلم.

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي (٥/ ٢٣٩)، وقال البيهقي: المحفوظ روايته... عن ابن عبَّاس موقوفًا. وانظر ما قاله ابن كثير عقب الحديث.

(٢) في (ز): (ووقفا).

(٣) سقط من (ز).

(٤) جمع الكروان، وهو طائر بين الدجاجة والحمامة، حسن الصوت، يؤكل لحمه.

(٥) رواه الطبري (٨/ ١٩)، وفيه ابن وكيع: ضعيف.

(٦) صحيح: رواه ابن ماجة (٢٠٤٥) من حديث ابن عبَّاس، وفيه انقطاع، لكن وصله ابن حبان (٧٢١٩) بإسناد صحيح.

(٧) لوحة (٦٤ أ).

(٨) ضعيف: رواه ابن عدي (٦/ ٢٣٨١)، فيه مروان بن سالم: متروك كما في «التقريب».

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نُسِخَ من حكمها شيء أم لا؟

فقال بعضهم: لم يُنْسَخْ منها شيء، وهي محكمةٌ فيما عُنيت به. وعلىٰ هذا قول عامَّة أهل العلم.

ورُوِيَ عن الحسن البصري وعكرمة ما حدَّثنا به ابن حُميد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح، عن الحسين ابن واقد، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فنُسِخَ واستثنىٰ من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥][(١)].

وقال ابن أبي حاتم: قُرِئ علىٰ العبَّاس بن الوليد بن مزيد[(٢)]، حدَّثنا محمَّد بن شعيب، أخبرني النعمان -يعني ابن المنذر- عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم نَسَخَهَا الرب، ورَحِمَ المسلمين؛ فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ فنَسَخَهَا بذلك، وأحلَّ طعام أهل الكتاب[(٣)].

ثم قال ابن جرير: والصَّوابُ أنَّه لا تعارض بين حِلِّ طعامِ أهل الكِتاب، وبين تحريم ما لم يُذْكَرِ اسم الله عليه[(٤)].

وهذا الَّذي قاله صحيح، ومَن أَطْلَقَ من السَّلَفِ النَّسْخَ هاهنا فإنَّما أراد التَّخصيص، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إنَّ المختار يزعم أنَّه يوحىٰ إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وحدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعدًا عند ابن عبَّاس، وحجَّ المختار بن أبي عبيد، فجاءه رجلٌ فقال: يا ابن عبَّاس، وزعم أبو إسحاق أنه أُوحِيَ إليه الليلة؟ فقال ابن عبَّاس: صدق، فنَفَرتُ وقلت: يقول ابن عبَّاس صدق. فقال ابن عبَّاس: همَا وحيان، وَحْيُ الله، ووَحْيُ الشَّيطان[(٥)]، فوحي الله ﷻ إلىٰ محمَّدٍ ﷺ، ووَحْيُ الشيطان إلىٰ أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾[(٦)].

وقد تقدَّم عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نحو هذا.

---

(١) رواه الطبري (٨/ ٢١)، وإسناده ضعيف؛ لأن عكرمة والحسن البصري لم يسندا ذلك لأحدٍ من الصحابة، والظاهر أن مقصودهم بالنسخ هنا الاستثناء والتخصيص، وهذا ليس بنسخ.

(٢) في (ز): يزيد، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٣٧)، وإسناده ضعيف؛ لأنه مرسل.

(٤) قال ابن باز رحمه الله: إذا نَسيتَ اسم الله فالذبيحة حلال، وكذلك طعام أهل الكتاب، ولو لم يُسَمُّوا، إلا إذا ثبت أن القتل بالخنق، أو ذُبحت للأصنام، وتحقَّق ذلك فلا تأكل.

(٥) لوحة (٦٤ ب).

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٤٠، ٧٨٤١).

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر قال: خَاصَمَتِ اليهودُ النَّبيَّ ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ هكذا رواه مرسلًا.

ورواه أبو داود متصلًا فقال: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: جاءت اليهود إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقالوا: نَأْكُل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(١).

وكذا رواه ابن جَرير، عن محمَّد بن عبد الأعلىٰ وسفيان بن وَكِيع، كلاهما عن عمران بن عيينة به.

ورواه البزار، عن محمَّد بن موسىٰ الحَرَشي، عن عمران بن عيينة به.

وهذا فيه نظرٌ مِن وُجُوهٍ ثلاثة:

أحدها: أنَّ اليهود لا يَرَوْنَ إباحة الميتة حتىٰ يجادلوا.

الثاني: أنَّ الآية من الأنعام، وهي مكيَّة.

الثالث: أنَّ هذا الحديث رواه الترمذي، عن محمَّد بن موسىٰ الحَرَشي، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، [عن ابن عبَّاس. ورواه الترمذي بلفظ: أَتَىٰ ناسٌ النَّبيَّ ﷺ فذكره، وقال: حسن غريب، ورُوي عن سعيد بن جبير](٢) مرسلًا(٣).

وقال الطبراني: حدَّثنا علي بن المبارك، حدَّثنا زيد بن المبارك، حدَّثنا موسىٰ بن عبد العزيز، حدَّثنا الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارِسُ إلىٰ قريش: أَن خَاصِمُوا محمَّدًا وقولوا له: لما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله ﷻ بِشِمْشِيرٍ مِن ذهب -يعني الميتة- فهو حرام. فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال: الشياطين مِن فارس، وأَوْلِيَائِهِم من قريش(٤).

وقال أبو داود: حدَّثنا محمَّد بن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدَّثنا سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذَبَحَ الله فلا تَأْكُلُوه، وما ذَبَحْتُم أَنْتُم فَكُلُوهُ؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾(٥).

---

(١) ضعيف من هذا الوجه: رواه ابن أبي حاتم (٧٨٣٢)، ورواه أبو داود (٢٨١٩)، وهو بهذا اللفظ منكر (انظر تعليق ابن كثير علىٰ الحديث)، وفي الإسناد عمران بن عيينة وهو -وإن كان صدوقًا إلا أن له أوهامًا-. وهذا من أوهامه؛ أعني: عزو هذه المجادلة إلىٰ اليهود فإنهم لا يرون إباحة الميتة حتىٰ يجادلوا في ذلك. وقال فيه أبو حاتم: يأتي بالمناكير، ورواه الترمذي (٣٧٠١)، وفيه عطاء بن السائب، وهو مختلط؛ فالإسناد ضعيف علىٰ كل حال.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) الترمذي (٣٧٠١)، وفيه عطاء بن السائب: اختلط.

(٤) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٣٨٢٣)، وفيه موسىٰ بن عبد العزيز: صدوق سيئ الحفظ.

(٥) رواه أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجة (٣١٧٣)، والطبري (٨/ ١٦)، وابن أبي حاتم (٧٨٤٥)، وفيه سماك عن عكرمة،

=

ورواه ابن ماجة وابن[1] أبي حاتم، عن عمرو بن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيل به. وهذا إسناد صحيح.

ورواه ابن جرير مِن طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، عن ابن عبَّاس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج: قال عمرو بن دينار، عن عكرمة: إنَّ مُشْرِكِي قريش كاتَبُوا فارس علىٰ الرُّوم، وكاتَبَتْهُم فارس، وكَتَبَتْ فارس إلىٰ مشركي قُرَيش: أنَّ محمَّدًا وأصحابه يَزْعُمون أنَّهم يَتَّبِعُون أمرَ الله، فما ذَبَحَ الله بِسِكِّينٍ مِن ذهب فلا يأكله [محمَّد وأصحابه – للميتة-][2] وَمَا ذبحوه هم يَأْكُلُون. فكتب بذلك المشركون إلىٰ أصحاب محمَّد رسول الله ﷺ، فوقع في أنفس ناسٍ من المسلمين [مِن ذَلِكَ شيءٌ، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾][3] ونزلت: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وقال السُّدِّي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تَزْعُمون أنَّكم تتبعون مَرْضَاةَ الله، وما ذَبَحَ الله فلَا تَأْكُلُونَهُ، وما ذَبَحْتُم أَنْتُم أَكَلْتُمُوه؟ فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

وهكذا قاله مجاهد، والضَّحَّاك، وغير واحد من علماء السلف رَحِمَهُمُ اللهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: حيث عدلتم عَن أَمْرِ الله لَكُم وشَرْعِهِ إلىٰ قول غيره، فقَدَّمْتُم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد روىٰ التِّرمذي في تفسيرها، عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بَلْ إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ، وَحَرَّمُوا عَلَيهِمُ الحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»[4].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا مثلٌ ضرَبَهُ الله -تعالىٰ- للمُؤْمِنِ الذي كان مَيتًا؛ أي: في الضلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي به كيف يَسْلُكُ، وكيف يَتَصَرَّف به.

= وروايته عنه مضطربة، لكن رواه النسائي (٧/ ٢٣٧) بإسناد حسن نحوه، وفيه أن الذين خاصموه المشركون.

(١) لوحة (٦٥ أ). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) حسن: رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي (١٠/ ١١٦)، وحسنه الترمذي، وحسنه الألباني، وانظر: «غاية المرام» (٦).

والنُّور هو: القرآن، كما رواه العَوْفي وابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس.

وقال السُّدِّي: الإسلام. والكل صحيح.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضَّلالات المُتفرِّقة[1]، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلىٰ مَنفَذٍ، ولا مَخْلَصٍ مما هو فيه.

[وفي «مسند الإمام أحمد» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[2]][3] كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ -٢٣]. والآيات في هذا كثيرةٌ، ووجه المناسبة في ضرب المثلين -هاهنا- بالنُّور والظُّلُمات ما تقدَّم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وقد زعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان مُعيَّنان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الَّذي كان ميتًا فأحياه الله، وجعل له نورًا يَمْشِي به في الناس. وقيل: عمَّار بن ياسر. وأمَّا الذي في الظُّلمات ليس بخارجٍ منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمنٍ وكافر.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: حسنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قَدَرًا مِن الله وحِكْمَةً بالِغَةً، لا إله إلا هو.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما جعلنا في قريتك -يا محمَّد- أكابر مِن المجرمين، ورُؤساءَ ودعاة إلىٰ الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله، وإلىٰ مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل مِن قبلك يُبْتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، قيل: معناه: أمرناهم بالطَّاعات فخالَفُوا؛ فدمَّرْناهم. وقيل: أَمَرْناهُم أمرًا قدريًّا، كما قال

---

(١) لوحة (٦٥ ب).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والبزار (٢١٤٥ - كشف).

(٣) سقط من (ز).

هاهنا: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ قال: سَلَّطنا شِرارَها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا[١] ذلك أَهْلَكْناهُم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ قال: عظماؤها.

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

والمراد بالمَكْرِ هاهنا: دُعاؤُهم إلىٰ الضَّلالَةِ بزُخْرُفٍ من المقال والفعال، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابنُ أبي عمر، حدَّثنا سفيان قال: كُلُّ مَكْرٍ في القرآن فهُو عَمَلٌ.

وقوله: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: وما يَعُودُ وبَالُ مكرهم ذلك، وإضْلالِهم مَن أضلوه إلَّا علىٰ أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهانٌ وحجَّةٌ قاطعةٌ، قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتىٰ تأتينا الملائكة مِنَ الله بالرِّسالَةِ، كما تأتي إلىٰ الرسل، [كقوله جلَّ وعلا:][٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: هو أَعْلَمُ حيث يضع رسالته، ومَن يصلح لها من خَلْقِه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نُزِّل هذا القرآنُ علىٰ رَجُل عَظِيم كبيرٍ مُبَجَّلٍ في أَعْيُنِهم ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أي: مَكّة والطَّائف. وذلك لأنهم -قبَّحَهُم الله- كانوا يَزْدَرُون بالرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال تعالىٰ مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ[1] إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا[2] أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]. هذا وَهُمْ يَعْتَرِفُون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارةِ بَيْتِهِ ومُرَبَّاهُ ومَنْشَئِهِ، حتىٰ أَنَّهم كانوا يُسَمُّونَه بينهم قبل أن يوحىٰ إليه: الأَمِين، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أَبُو سفيان حين سأله هِرَقْلُ ملك الروم: كيف نَسَبُهُ فيكم؟ قال: هو فِينَا ذو نسب. قال: هل كنتم تَتَّهِمُونَهُ بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله[3] الذي استدلَّ به ملك الروم بطهارة صفاته ﷺ علىٰ صِدْقِهِ ونُبُوَّتِهِ، وصِحَّة ما جاء به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن مُصعب، حدَّثنا الأوزاعي، عن شَدَّاد أبي عمار، عن واثلة ابن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[4].

انفرد بإخراجه مسلم مِن حديث الأوزاعي -وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام- به نحوه.

وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ بُعِثْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**»[5].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نُعَيم، عن سفيان، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العبَّاس: بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس، فصَعَدَ المنبر فقال: «**مَنْ أَنَا؟**». قالوا: أنت رسول الله. قال: «**أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ. وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا**»[6]. صدق صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث أيضًا المروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ لِي جِبْرِيلُ: قَلَّبْتُ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ [رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَقَلَّبْتُ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ**

---

(١) لوحة (٦٦ ب). (٢) في (ز): «وإذا رأوك إن يتخذونك»، وهو خطأ.

(٣) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٤) رواه مسلم (٢٢٧٦) دون الجملة الأولىٰ وهي قوله: «إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل» فهي زيادة في رواية أحمد (٤/ ١٠٧)، وفيها محمَّد بن مصعب الفرقساني. قال الحافظ: صدوق كثير الغلط.

(٥) البخاري (٣٥٥٧).

(٦) إسناده ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢١٠)، وابن أبي شيبة في «المسند» (٩١٩)، وفي «المصنف» (٧/ ٤٠٧)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف. ولكن المعنىٰ صحيح لما تقدم من الأحاديث.

أَجِدْ][1] بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ [بَنِي][2] هَاشِمٍ»[3]. رواه الحاكم والبيهقي.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو بكر، حدَّثنا عاصم، عن زِرِّ بن حُبَيْش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ الله نظر في[4] قلوب العباد، فوجد قلب محمَّدٍ ﷺ خير قلوب العباد، فاصْطَفَاه لنفسِهِ فابتعثه بِرِسَالَتِهِ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمَّدٍ ﷺ، فوجد قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خير قلوبِ العِبَاد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رَأَوْا سَيِّئًا فهو عند الله سَيِّئٌ[5].

وقال [أحمد: حدَّثنا شُجاع بن الوليد قال: ذكر قَابُوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا سَلْمَانُ، لا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ». قلت: يا رسول الله، كيف أَبْغِضُك وبك هدانا الله؟ قال: «تَبْغَضُ العَرَبَ فَتُبْغِضُنِي»[6].

وذكر][7] ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: ذُكِرَ عن محمَّد بن منصور الجواز، حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجلٌ ابنَ عبَّاس وهو يدخل مِن باب المسجد فلمَّا نظر إليه رَاعَهُ، فقال: مَن هذا؟ قالوا: ابن عبَّاس ابن عم رسول الله ﷺ. قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[8].

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ من الله، وتهديدٌ أَكِيدٌ، لِمَن تكبَّر عن اتِّباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنَّه سَيُصِيبُه يوم القيامة بَيْنَ يَدَيِ الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذِّلَّة الدَّائِمَة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًّا، وهو التَّلَطُّفُ في التَّحَيُّل والخَدِيعَةِ، قُوبِلُوا بالعذاب الشديد جزاءً وفاقًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تَظْهَرُ المُسْتَتِرَات والمَكْنُونَات والضَّمائِر. وجاء في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ»[9].

والحكمة في هذا أنَّه لما كان الغدر خَفِيًّا لا يَطَّلِع عليه النَّاس، فيوم القيامة يَصِيرُ عَلَمًا منشورًا على صاحبه بما فعل.

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) إسناده ضعيف: رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٧٦)، وفيه موسى بن عبيدة: ضعيف.

(٤) لوحة (٦٧ أ). (٥) حسن: رواه أحمد (١/ ٣٧٩).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٤٤٠)، والترمذي (٣٩٢٣)، وفيه قابوس بن أبي ظبيان، قال الحافظ: فيه لين، والإسناد فيه انقطاع بين أبي ظبيان وسلمان.

(٧) سقط من (ز). (٨) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٦٩)، وإسناده منقطع.

(٩) البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يُيَسِّرُه له، ويُنَشِّطُهُ، ويُسَهِّلُهُ لِذَلِكَ، فهذه علامةٌ علىٰ الخير، كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

قال(١) ابن عبَّاس: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يقول: يُوَسِّع قلبه للتَّوْحِيدِ والإِيمَانِ بِهِ، وكذا قال أبو مالك وغير واحدٍ. وهو ظاهر.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي جعفر قال: سُئِل النَّبيُّ ﷺ: أيُّ المؤمنين أَكْيَسُ؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَكْثَرُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا». قال: وسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وقالوا: كيف يَشْرَحُ صَدْرَهُ يا رسول الله؟ قال: «نُورٌ يُقْذَفُ فِيهِ، فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ». قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: «الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ المَوْتِ»(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا هَنَّاد، حدَّثنا قَبِيصَة، عن سفيان -يعني الثوري- عن عمرو بن مُرَّة، عن رجل يُكْنَىٰ أبا جعفر كان يسكن المدائن، قال: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فذكر نحو ما تقدَّم(٣).

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشج، حدَّثنا ابن إدريس، عن الحسن بن الفرات القزاز، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الإِيمَانُ القَلْبَ انْفَسَحَ لَهُ القَلْبُ وَانْشَرَحَ» قالوا: يا رسول الله، هل لذلك مِنْ أَمَارَةٍ؟ قال: «نَعَمْ، الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ المَوْتِ»(٤).

وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري، حدَّثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مُرَّةَ، عن أبي جعفر فذكره.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيدٍ الأشج، حدَّثنا أبو خالد الأحمر، عن عمرو بن قَيْس، عن عمرو ابن مُرَّةَ، عن عبد الله بن المِسْوَر قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ

---

(١) لوحة (٦٧ ب).

(٢) موضوع: رواه عبد الرزاق (٢/ ٢١٧)، وابن جرير (٨/ ٢٦)، وفي إسناده أبو جعفر عبد الله بن المسور: كذاب وضَّاع.

(٣) رواه الطبري (١٣٨٥٤)، وانظر التعليق السابق.

(٤) موضوع: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٨٧٣)، وإسناده كسابقه.

لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: «نُورٌ يُقْذَفُ بِهِ فِي القَلْبِ». قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة ؟ قال «نَعَمْ» قالوا: وما هي؟ قال: «الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ المَوْتِ»[1].

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثني هلال بن العلاء، حدَّثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد، حدَّثنا محمَّد بن سَلَمَة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أُنَيْسة، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة [عن][2] عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[3]: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ». قالوا: فهل لذلك مِن علامةٍ يعرف بها؟ قال: «الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، وَالتَّنَحِّي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لُقِيِ المَوْتِ»[4].

وقد رواه ابن جرير من وجه آخر، عن ابن مسعود متصلًا مرفوعًا فقال: حدَّثني ابن سِنان القزاز، حدَّثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبد الله[5] بن عتبة، عن عبد الله ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ قالوا: يا رسول الله،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٧٢) عن عبد الله بن مسور وهو أبو جعفر المدائني المذكور في الأسانيد السابقة، وعليه فالإسناد موضوعٌ أيضًا.

(٢) في (ز): (بن)، والمثبت هو الصواب. (٣) لوحة (٦٨ أ).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٢٧)، والحاكم (٤/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٧)، وفيه انقطاع بين أبي عبيدة وابن مسعود، وفيه سعيد بن عبد الملك: متكلم فيه. قال أبو حاتم: (يتكلمون فيه روىٰ أحاديث كذب). انظر: «ميزان الاعتدال» (ت/ ٣٢٣٣).

(٥) وقع في النسخ الخطية (عبيد الله)، وصوابه (عبد الله) كما في «تفسير الطبري».
وقد أشكل هذا الإسناد على محمود شاكر في تعليقه على الطبري؛ لأن عبد الرحمن بن (عبد الله) بن عتبة متأخر جدًّا، مات سنة ١٦٠ أو ١٦٥هـ ويونس أعلى طبقةً منه، مات سنة ١٤٠، فهو في طبقة شيوخه.
وقال أيضًا: لم يذكروا يونس فيمن روى عنه، ثم رجح أن الصواب: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الله بن عتبة، وهو الذي يروي عن عمه ابن مسعود. انظر «تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٢) طبعة أحمد شاكر.
وهذا بحث جيد لكن فيه نظر:
أولًا: أن النسخ الخطية للطبري: عبد الرحمن بن عبد الله (وليس ابن عبيد الله) بن عتبة، فإن الصواب (عبيد الله) كما عند ابن كثير فدل على أنه اختلط
وإن كان الصواب وهو الراجح (عبد الله) كما عند الطبري فجوابه:
أولًا: أنه يكون من رواية الأكابر عن الأصاغر.
ثانيًا: رد الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٦٥) هذا الإشكال لعدم وروده أصلًا لأسباب:
منها: ضعف السند أصلًا من أجل محبوب، فلا إشكال لأنه يمكن أن يقال: أخطأ في تسمية شيخ يونس.
ومنها: أنه إذا صح ما قاله الشيخ شاكر فسيكون هناك إشكال آخر، وهو أن سن يونس (٩) سنوات عند وفاة عبد الله بن عتبة مما يبعد أن يكون تلقىٰ عنه، وهو لا يظن صحة ما ذهب إليه.
ومنها: أنه لو صح ذلك لذكروا ذلك في ترجمته لأنه سيكون إسنادًا عاليًا.
ومنها: أن في رواية الحاكم (٤/ ٣٤٦) (وهي ضعيفة جدًّا) أن الراوي عن ابن مسعود: عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، فحصل الاتفاق في تسمية الراوي وإن اختلفا في الرواي عنه.
وبهذا التقرير يتبين أن الصواب ما ورد في مخطوط الطبري، وأن الإسناد ضعيف.

وكيف يُشْرَح صدره؟ قال: «يَدْخُلُ فِيهِ النُّورُ فَيَنْفَسِحُ». قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ المَوْتُ»(١).

فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة، يشد بعضها بعضًا(٢)، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قُرِئَ بفتح الضَّاد وتسكين الياء، والأكثرون: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها(٣)، وهما لغتان: كَهَيْن وهَيِّن. وقرأ بعضهم: «حَرِجًا» بفتح الحاء وكسر الراء(٤)، قيل: بمعنىٰ آثم.

وقال السُّدِّي: وقيل: بمعنىٰ القراءة الأخرىٰ ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يَتَّسِعُ لِشَيْءٍ من الهدىٰ، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا من الأعراب مِن أهل البادية من مُدْلج: ما الحَرَجَةُ؟ قال: هي الشَّجَرَةُ تكون بين الأشجار لَا تَصِلُ إليها رَاعِيَة، ولا وَحْشِيَّة، ولا شيء. فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المُنَافِقِ لا يصل إليه شيءٌ مِن الخير(٥).

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس: يجعل الله عليه الإسلام ضَيِّقًا، والإسلام وَاسِعٌ. وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق(٦).

وقال مجاهد والسُّدِّي: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شاكًّا. وقال عطاء الخراساني: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ليس للخَيْرِ فيه مَنْفَذٌ. وقال ابن المبارك، عن ابن جُرَيْج ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، حتَّىٰ لا تستطيع أَنْ تدخُله، كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماء مِن شدَّة ذلك عليه. وقال سعيد بن جُبَيْر: يجعل صدره ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال: لَا يَجِدُ فيه مسلكًا إلا صُعدًا.

وقال السُّدِّي: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن ضِيقِ صَدْرِهِ.

وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: مَثَلُهُ كمثل الذي لا يَسْتَطِيعُ أَن يَصْعَدَ في السماء. وقال الحكم بن أبان عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٢٧)، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة المسعودي: اختلط.
ومحبوب بن الحسن الهاشمي: متكلم فيه، والحديث ضعفه الشيخ الألباني من جميع طرقه في «الضعيفة» (٩٦٥).

(٢) هكذا حكم ابن كثير بأن هذه الطرق يشد بعضها بعضًا، ولكننا نجد أن الروايات الأولىٰ من طريق أبي جعفر: عبد الله ابن مسور، وهي روايات موضوعة لا يتقوىٰ بها الحديث، وأما الرواية الثانية الأخرىٰ فمدارها علىٰ محبوب بن الحسن الهاشمي: متكلم فيه، عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود، فهي منقطعة، ولم تأتِ روايةٌ أخرىٰ تقويها، فالإسناد ضعيف.
وقد تعقبه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك بقوله: (وهذا من أوهامه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ، فإن طريقه الأولىٰ معضلة مع كذب الذي أعضله، والثانية منقطعة، مع ضعف أحد رواته، والثالثة معضلة أيضًا مع ضعف أحد رواتها، فأين الطريق المتصلة؟!...). اهـ «الضعيفة» (٩٦٥).

(٣) متواترة: قَرَأَ (ضَيْقًا) ابْنُ كَثِيرٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (ضَيِّقًا).

(٤) متواترة: قَرَأَ (حَرِجًا) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَشُعْبَةُ وَوَافَقَهُمُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (حَرَجًا).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٢٨)، وفيه عبد الله بن عمار: مجهول.

(٦) رواه الطبري (٨/ ٢٨)، والعوفي: شيعي مدلس، وقد تقدم هذا الإسناد كثيرًا، وهو مسلسل بالضعفاء.

يقول: فكما لا يستطيع ابنُ[١] آدمَ أن يَبْلُغَ السَّمَاء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التَّوْحِيدُ والإيمَانُ قلبَهُ، حتَّىٰ يُدْخِلَهُ اللهُ في قلبه[٢].

وقال الأوزاعي: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كيف يَسْتَطِيع مَن جعل الله صَدْرَهُ ضَيِّقًا أن يكون مسلمًا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ الله لقلب هذا الكَافِرِ في شدَّة تَضيقِهِ إيَّاه عن وصول الإيمان إليه. يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضِيقِهِ عن وصوله إليه مثل امْتِنَاعِهِ من الصُّعود إلىٰ السَّماء وعجزه عنه؛ لأنَّه ليس في وسعه وطاقته.

وقال في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر مَن أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيِّقًا حرجًا، كذلك يسلط الله الشَّيْطَان عليه وعلىٰ أمثاله مِمَّن أبىٰ الإيمان بالله ورَسُولِهِ، فيُغْوِيهِ ويَصُدُّه عن سبيل الله.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرِّجس: كلُّ ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ طَرِيقَة الضَّالِّينَ عَن سبيله، الصَّادِّين عنها، نَبَّهَ علىٰ أشرف ما أُرْسِل به رسوله مِنَ الهُدَىٰ ودين الحق فقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب علىٰ الحال؛ أي: هذا الدِّين الذي شرعناه لك يا محمَّد بما أوحينا إليك هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم، كما تقدَّم في حديث الحارث، عن علي رضي الله عنه في نعت القرآن: هُو صِراطُ الله المستقيم، وحَبْلُ الله المَتِين، وهو الذِّكْرُ الحكيم. رواه أحمد والترمذي بطوله[٣].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: قد وَضَّحْنَاهَا وبيَّنَّاها وفسَّرْنَاهَا، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لمن له فهمٌ ووَعْيٌ يَعْقِلُ عن الله ورسوله.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهي: الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة -هاهنا- بدَارِ السَّلام لسلامتهم فيما سلكوه مِن الصِّرَاط المستقيم، المُقْتَفِي أثر الأنبياء وطَرَائِقِهِم، فكما سَلِمُوا من آفات الِاعْوِجَاج أفْضوا إلىٰ دار السلام[٤].

---

(١) لوحة (٦٨ ب).

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٧٨٨١)، وفي الإسناد حفص بن عمر العدني، قال الحافظ: ضعيف، وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. قلت: ومعنىٰ الأثر صحيح. والعلم عند الله.

(٣) ضعيف: رواه الترمذي (٢٩٠٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٩٠-١٩١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢)، وفيه الحارث الأعور: كذبه الشعبي وابن المديني، وضعفه ابن معين والنسائي والدارقطني.

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: دار السلام الجنة، والسلام هو الله، فدار السلام كبيت الله، وهناك معنىٰ آخر وهو أنها دار السلامة من كل أذىٰ ومكروهٍ وآفةٍ.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: والسلام -وهو الله- وليهم؛ أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولَّاهم وأثابهم الجنة بمنِّه وكرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ (١) ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى: واذكر يا محمَّد فيما تَقُصُّه(٢) عليهم وتُذَكِّرُهم به ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الجنَّ وأَوْلِيَاءهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخْرُف القول غرورًا.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: ثم يقول: يا معشر الجنِّ. وسياق الكلام يدلُّ على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: من إِضْلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ -٦٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يعني: أضللتم منهم كثيرًا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: أنَّ أولياء الجنِّ من الإنس قالوا مُجِيبِينَ لله تعالى عن ذلك بهذا.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الأشهب هَوْذَة بن خليفة، حدَّثنا عَوْف، عن الحسن في هذه الآية قال: اسْتَكْثَر ربُّكم أهل النَّار يوم القيامة، فقال أَوْلِيَاؤُهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعضٍ إلا أن الجن أَمَرَتْ، وعَمِلَتِ الإنس.

وقال محمَّد بن كعب في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ قال: الصحابة في الدنيا.

وقال ابن جُرَيْج: كان الرَّجل في الجاهلية [ينزل الأرض](٣)، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي؛ فذلك اسْتِمْتَاعُهُم، فاعتذروا يوم القيامة.

وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان -فيما ذُكِرَ- ما ينال الجنَّ مِن الإنس مِن تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قَدْ سُدْنَا الإنس والجن.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال السُّدِّي: أي الموت.

---

(١) قال ابن باز رحمه الله: يعني: الأماكن التي قاموا فيها قبل دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، مثل البرزخ والصراط.
(٢) لوحة (٦٩ أ).
(٣) في (ز): كان الرجل ينزل في الجاهلية فيقول.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ماكثين مُكْثًا مخلَّدًا.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال بعضهم: يَرْجِعُ معنىٰ هذا الاستثناء إلىٰ البَرْزَخِ. وقال بعضهم: هذا رَدٌّ إِلَىٰ مُدَّةِ الدُّنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها -إن شاء الله- عند قوله تعالىٰ في سورة هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وقد روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح -كاتب الليث-: حدَّثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا يَنْبَغِي لأحدٍ[(١)] أن يحكم علىٰ اللهِ في خلقه، ولا يُنْزِلُهم جَنَّةً ولا نارًا[(٢)].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[(٣)]

قال سعيد، عن قتادة في تفسيرها: وإنَّما يُوَلِّي الله بين الناس بأعمالهم، فالمُؤْمِن وَلِيُّ المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر وَلِيُّ الكافر أَيْنَمَا كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتَّمَنِّي ولا بالتَّحَلِّي. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال معمر، عن قتادة في تفسيرها: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ في النار، يتبع بعضهم بعضًا.

وقال مالك بن دينار: قَرَأْتُ في الزَّبور: إني أَنْتَقِمُ مِن المنافقين بالمنافقين، ثمَّ أَنْتَقِم من المنافقين جميعًا، وذلك في كتاب الله قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾

[وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾][(٤)] قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال: ونُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الجِنِّ علىٰ ظَلَمَةِ الإنس.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الباقي بن أحمد، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود مرفوعًا: «مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ»[(٥)].

---

(١) لوحة (٦٩ ب).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٣٤)، وابن أبي حاتم (٧٨٩٧)، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق كثير الخطإ، والإسناد منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة؛ ولىٰ عليهم ظَلَمَةً يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، علىٰ وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين.
كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدلٍ وإنصافٍ، لا ولاة ظلمٍ واعتساف.

(٤) سقط من (ز).

(٥) موضوع: رواه ابن عساكر (٣٤/ ٤)، قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٧٢): فيه الحسن بن علي العدوي، وهو متهم بالوضع، وحكم عليه الألباني بالوضع. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٩٣٧).

وهذا حديثٌ غريبٌ، وقال بعض الشعراء:

وَمَـا مِـنْ يَـدٍ إِلَّا يَـدُ اللهِ فَوْقَهَـا ... وَلَا ظَـالِمٍ إِلَّا سَـيُبْلَىٰ بِظَـالِمِ

ومعنىٰ الآية الكريمة: كما وَلَّيْنَا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطَّائفة التي أغْوَتهم من الجن، كذلك نفعل بالظَّالمين، نُسَلِّط بعضهم علىٰ بعضٍ، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم بِبَعْضٍ، جزاءً علىٰ ظلمهم وبغيهم.

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ (١) يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

وهذا أيضًا مما يُقَرِّع الله به ﷻ كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم -وهو أعلم-: هل بلغتهم الرُّسل رسالاته؟ وهذا استفهامُ تقرير: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: مِن جملتكم. والرُّسُل من الإنس فقط، وليس من الجِنِّ رُسُلٌ، كما قد نصَّ علىٰ ذلك مُجَاهِد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمَّة من السَّلف والخلف.

وقال ابن عبَّاس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

وحكىٰ ابن جرير، عن الضَّحَّاك بن مُزاحم: أنه زعم أنَّ في الجِنِّ رُسُلًا، واحتجَّ بهذه الآية الكَرِيمَةِ، وفي الاستدلال بها علىٰ ذلك نَظَر؛ لأنَّها محتَمِلَةٌ، وليست بِصَرِيحَةٍ، وهي -والله أعلم- كقوله تعالىٰ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ (٢) يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ -٢٢]، ومعلومٌ أنَّ اللُّؤلؤ والمرجان إنما يُسْتَخْرَج من المالح لا مِن الحُلْوِ. وهذا واضح، ولله الحمد.

وقد نصَّ علىٰ هذا الجواب بِعَيْنِهِ ابن جرير.

والدَّليل علىٰ أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ -١٦٥]، وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحَصَرَ النُّبُوَّة والكتاب بعد إبراهيم في ذُرِّيَّتِهِ، ولم يَقُلْ أَحَدٌ من الناس: إنَّ النُّبُوَّة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ﷺ، ثمَّ انقطعت عنهم ببعْثَتِهِ. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

(١) قال القرطبي ﷺ: ومعنىٰ ﴿مِّنكُمْ﴾ في الخلق والتكليف والمخاطبة. ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل قال: ﴿مِّنكُمْ﴾ وإن كانت الرسل من الإنس وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر علىٰ المؤنث. وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي، كما قال: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلًا من الجن كما أرسل من الإنس. وقال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن، ثم قرأ: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وهو معنىٰ قول ابن عباس، وهو الصحيح.

(٢) لوحة (١٧٠أ).

الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلومٌ أنَّ الجنَّ تبعٌ للإنس في هذا الباب؛ ولهذا قال -تعالىٰ- إخبارًا عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقد جاء في الحديث -الذي رواه الترمذي وغيره- أنَّ رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرَّحْمَن، وفيها قوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢][(١)].

وقال تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أنَّ الرُّسُلَ قد بَلَّغونا رِسالاتِك، وأَنْذَرُونا لِقاءَك، وأنَّ هذا اليوم كائنٌ لا مَحالَةَ.

قال تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: وقد فَرَّطُوا في حياتهم الدُّنيا، [وهَلَكُوا بتكذيبهم الرُّسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتَرُّوا به من زُخْرفِ الحياة الدُّنيا][(٢)] وزينتِهَا وشهواتها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرُّسُل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ[(٣)]: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي: إنَّما أَعْذَرْنا إلى الثَّقَلَيْنِ بإرسال الرُّسل، وإنزال الكُتُب؛ لئلَّا يُعاقَبَ أحدٌ بظُلْمِهِ وهو لم تبلغه دعوةٌ، ولكن أَعْذَرْنا إلىٰ الأمم، وما عذَّبْنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨، ٩] والآيات في هذا كثيرةٌ.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالىٰ: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين:

أحدهما: ذلك مِن أَجْلِ أنَّ رَبَّكَ مُهْلِكَ القرىٰ بظُلْمِ أهلها بالشِّرْك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يُعَاجِلُهُم بالعقوبة حتىٰ يبعث إليهم مَنْ يُنَبِّهُهُم علىٰ حُجَجِ الله عليهم، ويُنْذِرُهُم عذاب الله يوم

(١) رواه الترمذي (٣٢٨٧)، والحاكم (٢/ ٤٧٣) من حديث جابر، وله شاهد من حديث ابن عمر، ورواه الطبري في «تفسيره» وصححه الحاكم، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٧٠ ب).

مَعَادِهِم، ولم يكن بالَّذِي يُؤَاخِذُهُم غفلةً فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

والوجه الثاني: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ يقول: لَمْ يكن ربك لِيُهْلِكَهُم دون التَّنْبِيهِ، والتَّذْكِير بالرُّسل والآيات والعِبَر، فيَظْلِمهُم بذلك، والله غير ظَلَّامٍ لِعَبِيده.

ثم شرع يُرَجِّح الوجه الأَوَّل، ولا شكَّ أنَّه أقوىٰ، والله أعلم.

وقال: وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: ولِكُلِّ عامل من طاعة الله أو معصيته مَنَازِلَ ومَرَاتِبَ مِن عَمَلِهِ يُبَلِّغُه الله إيَّاها، ويُثِيبُهُ بِهَا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته من كافري الجن والإنس؛ أي: ولكلٍّ دَرَجةٌ في النَّار بِحَسَبِهِ، كقوله تعالىٰ ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي وكل ذلك مِن عَمَلِهِم[1] -يا محمَّد- بعلم من ربك، يُحْصِيهَا ويثبتها لهم عنده؛ ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه، ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمَّد[2] ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: عن جميع خلقه مِن جميع الوجوه، وهم الفُقَراءُ إِلَيْهِ في جميع أحوالهم، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رَحِيمٌ بِهِمْ رءوف، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: قومًا آخرين؛ أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: هو قادرٌ علىٰ ذلك، سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، كما أذهب القرون الأول، وأتىٰ بالذي بعدها؛ كذلك هو قادرٌ علىٰ إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ -١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبان بن عثمان يقول في هذه الآية: ﴿كَمَآ

---

(١) في (ز): وكل ذلك يا محمَّد بعملهم.

(٢) لوحة (٧١ أ).

أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ الذُّرِّيَّة: الأصل، والذَّرِّيَّة: النَّسل.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: أخبرهم -يا محمَّد- أن الذي يوعدون به مِن أمر المعاد كائنٌ لا محالة، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ولا تُعْجِزُونَ اللهَ؛ بل هو قَادِرٌ علىٰ إِعادَتِكُم، وإِن صِرْتُم ترابًا رُفاتًا وعظامًا هو قادرٌ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمَّد بن المصفىٰ، حدَّثنا محمَّد بن حمير، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يَا بَنِي آدَمَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ المَوْتَىٰ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ»[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديدٌ [شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ][٢]؛ أي: اسْتَمِرُّوا علىٰ طَرِيقِكُم وناحيتكم إن كنتم تَظُنُّون أنَّكم علىٰ هدًى، فأنا مُسْتَمِرٌّ علىٰ طَرِيقَتِي ومَنْهَجِي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: نَاحِيَتِكُم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أَتكُون لِي أَوْ لَكُم. وقد أَنْجَزَ مَوْعِدَهُ له -صلوات الله عليه- فإنَّه -تعالىٰ- مكَّن له في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مُخَالِفِيهِ من[٣] العباد، وفتح له مكَّة، وأظهره علىٰ مَن كَذَّبَه من قومه وعاداه ونَاوَأَهُ، واستقرَّ أمره علىٰ سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرَّسَاتِيق[٤] بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عَنْهُم أجمعين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالىٰ إخبارًا عن رسله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقد فعل الله تعالىٰ ذَلِكَ بِهَذِهِ الأُمَّة، وله الحمد والمِنَّة أولًا وآخرًا، باطنًا وظاهرًا.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٩٠٧)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم: ضعيف اختلط، ثم الإسناد منقطع بين عطاء وأبي سعيد الخدري.
(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٧١ ب). (٤) الرساتيق: القرىٰ.

هذا ذمٌّ وتوبيخٌ مِن اللهِ لِلْمُشْرِكين الَّذِين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا، وجعلوا لله جزءًا من خلقه، وهو خالقُ كل شيءٍ ﷻ عما يشركون؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبرأ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: من الزُّرُوع والثِّمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءًا وقسمًا، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، والعَوْفي، عن ابن عبَّاس؛ أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حَرَثُوا حرثًا، أو كانت لهم ثَمَرَةٌ، جعلوا لله منه جزءًا ولِلْوَثَنِ جزءًا، فما كان من حَرْثٍ أو ثمرةٍ أو شيءٍ مِن نصيبِ الأَوْثَان حَفِظُوه وأَحْصوه. وإن سقط منه شيءٌ فيما سُمِّيَ للصَّمَدِ رَدُّوه إلىٰ ما جعلوه لِلْوَثَنِ. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لِلْوَثَنِ، فسَقَىٰ شيئًا مما جعلوه لله جعلوا ذلك لِلْوَثَن. وإن سقط شيءٌ من الحرث والثَّمَرَة الذي جعلوه لله، فاختلط بالَّذِي جعلوه لِلْوَثَنِ، قالوا: هذا فقير. ولم يردوه إلىٰ ما جعلوه لله. وإن سَبَقَهُم[1] الماء الذي جعلوه لله، فسقىٰ ما سُمِّي لِلْوَثَنِ تركوه لِلْوَثَن، وكانوا يُحَرِّمُون مِن أَمْوَالِهِم البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ والوَصِيلَةَ والحَام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية[2].

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في «تفسيره»: كل شيء جعلوه لله مِن ذَبْحٍ يذبحونه، لا يأكلونه أبدًا حتىٰ يذكروا معه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتىٰ بلغ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يَقْسِمُون، فإنَّهم أَخْطَئوا أولًا في القسمة، فإنَّ الله تعالىٰ هو رَبُّ كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه، وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا رَبَّ سواه. ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القِسْمَةَ التي هي فاسدةٌ، بل جاروا فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما زَيَّنَتِ الشياطين لهؤُلَاءِ المشركين أَن يَجْعَلُوا لله مما ذَرَأ من الحَرْثِ والأنعام نصيبًا، كذلك زَيَّنُوا لهم قتل أَوْلَادِهِم خَشْيَةَ الإملاق، ووَأْدِ البَنَاتِ خشية العار.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: وكذلك زَيَّن لكثيرٍ مِن المشركين قتل أَوْلَادِهِم شركاؤهم: زَيَّنُوا لهم قَتْلَ أَوْلَادِهِم.

---

(١) لوحة (٧٢أ).

(٢) رواه الطبري (٨/ ٤٠-٤١)، وابن أبي حاتم (٧٩١١، ٧٩١٣).

وقال مجاهد: ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ شياطينهم، يأمرونهم أن يَئِدُوا أولادَهُم خشيةَ العَيْلَةِ(١). وقال السُّدِّي: أمرتهم الشياطين أن يَقتُلوا البنَات. وإما ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ فيُهْلِكُوهم، وإما ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ أي: فيخلطون عليهم دينهم.

ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تاني الحال(٢) وقد نهاهم [الله] عن قتل أولادهم لذلك(٣) وإنَّما كان هذا كلُّه من شرع الشيطان وتَزْيِينُهُ لهم ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي: كل هذا واقع بمَشِيئَتِهِ -تعالىٰ- وإرادَتِهِ واخْتِيارِهِ لذلك كونًا، وله الحكمة التَّامَّة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يُسألون. ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣٨﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: «الحجْرُ»: الحرام، مما حرَّموا الوَصِيلَة، وتَحْرِيمُ مَا حرَّمُوا.

وكذلك قال مجاهد، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ الآية: تَحْرِيمٌ كان عليهم مِن الشَّياطِين [في أموالهم، وتغليظٌ وتشديدٌ، وكان ذلك من الشَّيَاطِين](٤)، ولم يَكُنْ من الله تعالىٰ.

وقال ابن زيد بن أسلم: ﴿حِجۡرٞ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم.

وقال السُّدِّي: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ يقولون: حرامٌ أن نُطْعِم إلا مَن شِئْنَا.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال السُّدِّي: [أما الأنعام التي حُرمتِ ظهورها](٥) فهي البَحِيرَةُ والسَّائِبَةُ والحَامُ، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال: إذا أَوْلَدُوها، ولا إن نَحَرُوهَا.

وقال أبو بكر بن عَيَّاش، عن عاصم بن أبي النَّجُود قال لي أبو وائل: تدري ما في قوله: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾؟ قلت: لا. قال: هي البَحِيرَةُ، كانوا لا يَحُجُّون عليها.

---

(١) العيلة: الفقر.
(٢) هكذا في (ز)، وفي بعض النسخ المطبوعة: (يحصل لهم في تلف المال)!!
(٣) لوحة (٧٢ ب).
(٤) سقط من (ز).
(٥) في (ز): (أما أنعام حرمت ظهورها).

وقال مجاهد: كان مِن إبِلِهِمْ طَائِفَةٌ لا يذكرون اسم الله عليها في شَأْنٍ مِن شَأْنِهَا، لا إن ركبوا، ولا إن حَلَبُوا، ولا إن حملوا، ولا إن سحبوا، ولا إن عملوا شيئًا.

﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي: على الله، وكذبًا منهم في إسنادِهِم ذلك إلى دِينِ الله وشرعه؛ فإنَّه لم يأذن لهُم في ذلك، ولا رَضِيَهُ منهم ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: عليه، ويُسْندون إليه.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾

قال أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن ابن[١] عبَّاس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ الآية، [قال: اللبن[٢]].

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾:][٣] فهو اللبن، كانوا يُحَرِّمُونَه على إناثهم، ويَشْرَبُهُ ذكرانهم. وكانت الشَّاة إذا وَلَدَتْ ولدًا ذكرًا ذبحوه، وكان للرِّجال دون النِّساء. وإن كانت أُنْثَى تُرِكَت فلم تُذْبَح، وإن كانت مَيْتَةً فهم فيه شركاء. فنَهَى الله عن ذلك[٤]. وكذا قال السُّدِّي.

وقال الشعبي: «البَحِيرَةُ» لا يَأْكُل مِن لَبَنِهَا إلا الرِّجال، وإن مَات مِنْهَا شيءٌ أَكَلَه الرِّجال والنِّساء، وكذا قال عِكْرِمة، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ قال: هي السَّائِبَةُ والبَحِيرَةُ.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وقتادة في قول ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: قولهم الكَذِب في ذلك؛ يعني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ﴾ الآية [النحل: ١١٦، ١١٧].

إنه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِن خيرٍ وشرٍّ، وسيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾

يقول تعالى: قد خَسِرَ الذين فعلوا هذه الأفعال في الدُّنيا والآخرة، أمَّا في الدُّنْيا فخَسِرُوا أَوْلَادَهُم بقَتْلِهِم، وضَيَّقُوا عليهم في أَمْوَالِهِم، فحرَّموا أشياء ابتدعوها مِن تلقاء أنفسهم، وأما في الآخِرَةِ فيَصِيرُونَ إلى شَرِّ المنازِلِ بكَذِبِهِم على الله وافْتِرائِهِم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ

---

(١) لوحة (٧٣ أ).
(٢) رواه الطبري (٨/ ٤٧)، وابن أبي حاتم (٧٩٣٥).
(٣) سقط من (ز).
(٤) رواه الطبري (٨/ ٤٨)، وابن أبي حاتم (٧٩٣٣).

مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن أيوب، حدَّثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدَّثنا أبو عَوانه، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس ﵄ قال: إذا سَرَّك أن تعلم جَهْلَ العرب فاقرأ ما فوق الثَّلاثِينَ والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[1]. وهكذا رواه البخاري مُنْفَردًا في كتاب «مناقب قريش» مِن «صحيحه»، عن أبي النعمان محمَّد بن الفضل عارم، [عن][2] أبي عَوانة -واسمه الوَضَّاح بن عبد الله اليَشْكُرِي- عن أبي بشر[3] واسمه جعفر ابن أبي وَحْشِيَّة إياس[4] به.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالىٰ بيانًا لأنَّه الخالق لكلِّ شيءٍ، من الزُّرُوع والثِّمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائِهم الفاسدة، وقسَّموها وجزَّءوها، فجعلوا منها حرامًا وحلالًا فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: [﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾][5] مسمُوكَات. وفي رواية: فـ«المعروشات»: ما عرَّشَ النَّاس، ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ ما خرج في البرِّ والجبال من الثَّمرات.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ ما عُرِّشَ من الكَرْم ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ ما لم يُعرَّشْ مِن الكَرْم. وكذا قال السُّدِّي.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ قال: مُتَشَابهٌ في المنظر، وغيرُ مُتَشَابِهٍ في الطَّعْم.

وقال محمَّد بن كَعْب: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ قال: من رُطَبِهِ وعِنَبِهِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزَّكاة المفروضة.

حدَّثنا عمرو، حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا يزيد بن درهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: الزكاة المفروضة[6].

---

(١) عزاه لابن مرْدَويه، ورواه البخاري في «صحيحه» (٣٥٢٤).

(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (٧٣ ب).

(٤) في (ز): (عن إياس)، وهو خطأ، و(إياس) هو اسم أبي وحشية، وجعفر: هو ابن إياس أبي وحشية.

(٥) سقط من (ز).

(٦) رواه الطبري (٨/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٧٩٥٣)، وفيه يزيد بن درهم: ضعيف، قال الذهبي في «الميزان»: وثَّقه الفلاس، وقال ابن معين: ليس بشيء، لكنه يتقوىٰ بأثر ابن عبَّاس الآتي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم يُكَالُ ويُعْلَمُ كَيْلُه[١]. وكذا قال سعيد بن المسيب.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيئًا، فقال الله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وذلك أن يعلم ما كَيْلُه وحَقُّه، مِن كلِّ عشرةٍ واحدًا، ما يَلْقُط النَّاس مِن سُنْبُلِهِ[٢].

وقد روىٰ الإمام أحمد وأبو داود في «سننه» من حديث محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن يحيىٰ ابن حبَّان، عن [عمه واسع بن حبان، عن][٣] جابر بن عبد الله؛ أن النَّبيَّ ﷺ أمَرَ من كُل جادٍّ[٤] عَشْرَة أوسُق مِن التَّمْرِ، بِقِنْوٍ يعلَّق في المسجد للمساكين[٥]. وهذا إسناده جيدٌ قويٌّ.

وقال طاوس[٦]، وأبو الشعثاء، وقتادة، والحسن، والضَّحَّاك، وابن جُرَيْج: هي الزكاة.

وقال الحسن البصري: هي الصَّدَقَةُ مِن الحَبِّ والثِّمار، وكذا قال ابن زيد بن أسلم.

وقال آخرون: هو حَقٌّ آخرُ سوىٰ الزكاة.

وقال أشعث، عن محمَّد بن سِيرين، ونافع، عن ابن عمر[٧] في قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: كانوا يُعْطُون شيئًا سوىٰ الزكاة. رواه ابن مَرْدويه[٨].

وروىٰ عبد الله بن المبارك وغيره، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: يُعْطِي مَن حضره يومئذٍ ما تَيَسَّر، وليس بالزَّكاة.

وقال مجاهد: إذا حَضَرَك المساكين، طَرَحْتَ لهم منه.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: عند الزَّرع يُعْطِي القبض، وعند الصِّرَام يعطي القبض، ويتركهم فيتبعون آثار الصِّرَام.

وقال الثوري، عن حماد، عن إبراهيم [النخعي] قال: يُعْطِي مثل الضِّغْثِ.

وقال ابن المبارك، عن شريك، عن سالم، عن سعيد بن جبير ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: كان هذا قبل الزكاة للمساكين، القَبْضَةُ الضِّغْثُ لِعَلَفِ دابَّتِهِ.

وفي حديث ابن لَهِيعة، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ مرفوعًا: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: ما سقط من السُّنْبُل. رواه ابن مَرْدويه[٩].

---

(١) رواه الطبري (٨/ ٥٣)، وإسناده منقطع، لكنه يتقوىٰ بالأثر السابق عن أنس، وقد رواه الطبري من طرق أخرىٰ عن ابن عبَّاس بمعناه.

(٢) رواه الطبري (٨/ ٥٤)، وفيه عطية العوفي: شيعي مدلس.

(٣) سقط من (ز).

(٤) جاد: بمعنىٰ مجدود، أيّ نخل يُجد؛ أي: يقطع منه ما يبلغ عشرة أوسق، والقنو: عنقود النخل.

(٥) حسن: رواه أحمد (٣/ ٣٥٩)، وأبو داود (١٦٦٢).

(٦) لوحة (٧٤أ).

(٧) في (ز): وعن نافع ابن عمر.

(٨) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٧٦)، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف.

(٩) ضعيف: في إسناده ابن لهيعة: اختلط، ورواية دراج أبي السمح، قال الحافظ: صدوق؛ في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

وقال آخرون: هذا كله شيءٌ كان واجبًا، ثم نسخه الله بالعُشْر ونصف العُشْرِ. حكاه ابن جرير عن ابن عبَّاس، ومحمَّد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسُّدِّي، وعطية العَوْفي. واختاره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلت: وفي تسمية هذا نسخًا نَظَرٌ؛ لأنَّه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثمَّ إنَّه فصَّل بيانه، وبيَّن مقدار المخرج وكَمِّيَّتَهُ. قالوا: وكان هذا في السَّنةِ الثَّانية من الهجرة، فالله أعلم.

وقد ذمَّ الله -سبحانه- الَّذين يَصْرِمُون ولا يتصدَّقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن»: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المُدْلَهِمِّ سوداءَ مُحْتَرِقةً ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قُوَّةٍ وجلَدٍ وهِمَّةٍ ﴿قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا (١) إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٢٥-٣٣].

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف.

وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئًا، ثم تبَارَوْا فيه وأَسْرَفُوا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

وقال ابن جُرَيْج: نزلت في ثابت بن قَيْس بن شَمَّاس، جذَّ نخلا. فقال: لا يأتيني اليوم أحدٌ إلا أطعمته. فأَطْعَم حتىٰ أمسىٰ ولَيْسَتْ له ثمرةٌ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رواه ابن جرير عنه (٢).

وقال ابن جريج، عن عطاء: يَنْهَىٰ عن السَّرَف في كل شيء.

وقال إياس بن معاوية: ما جَاوَزْتَ به أَمْرَ الله فهو سَرَفٌ.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تعطوا أموالكم، فتَقْعُدُوا فُقَرَاء.

وقال سعيد بن المسيب ومحمَّد بن كعب في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تَمْنَعُوا الصَّدقَة فتَعْصُوا.

ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نَهْيٌ عن الإسراف في كلِّ شيء. ولا شكَّ أنَّه صحيح، لكن الظاهر -والله أعلم- مِن سياق الآية حيث قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أن يكون عائدًا علىٰ الأكل؛ أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضَرَّة العقل والبدن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي «صحيح البخاري» تعليقًا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا، [وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا] (٣)، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» (٤) وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: وأنشأ لكم مِن الأنعام ما هو حَمُولَةٌ وما هو فَرْشٌ،

---

(١) لوحة (٧٤ ب).

(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (٨/ ٦١)، وإسناده مرسل. (٣) زيادة من «صحيح البخاري».

(٤) حسن: رواه البخاري تعليقًا (١٠/ ٥٢)، ووصله أحمد (٢/ ١٨٢)، والترمذي (٢٨٢٠)، والنسائي (٥/ ٧٩)، وابن ماجة (٣٦٠٥).

قيل: المراد بالحَمُولَة: ما يُحمل عليه مِن الإبل، والفَرْش: الصغار منها. كما قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ ما حُمِلَ عليه من الإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ قال: الصِّغَارُ مِن الإبل.

رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١).

وقال ابن عبَّاس: الحمولة: الكبار، والفرش هي: الصِّغار من الإبل(٢). وكذا قال مجاهد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ فأما الحمولة: فالإبل، والخيل، والبغال، والحمير، وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش: فالغنم(٣).

واختاره ابن جرير، قال: وأَحْسَبُه إنَّما سُمِّيَ فرشًا لدُنوهِ مِن الأرض.

وقال الربيع بن أنس، والحسن(٤)، والضَّحَّاك، وقتادة: الحَمُولَة: الإبل والبقر، والفَرْشُ: الغنم.

وقال السُّدِّي: أَمَّا الحمولة فالإبل، وأَمَّا الفَرْش فالفُصْلان والعَجَاجيل(٥) والغَنم، وما حُمِلَ عليه فهو حَمُولَة.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكُلُون وتَحْلِبُون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها، وتَتَّخِذُون من صوفها لحافًا وفرشًا.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسنٌ يَشْهَدُ له قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩-٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكُلُّها خلقَهَا الله -تعالىٰ- وجعلَهَا رزقًا لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: طرائقه وأوامره، كما اتَّبعَها المشركون الذين حَرَّمُوا ما رزقهم الله -أي: من الثِّمار والزُّروع- افتراءً علىٰ الله، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ﴾ أي: إن الشيطان -أيها الناس- لكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ ظاهر العداوة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ الآية، [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٢/ ٣١٧)، والطبري (٨/ ٦٢).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٦٢)، وفيه أبو بكر الهذلي. قال الحافظ في «التقريب»: متروك (تقريب/ ت ٨٠٠٢).

(٣) رواه الطبري (٨/ ٦٣)، وابن أبي حاتم (٧٩٧٢)، وإسناده منقطع.

(٤) لوحة (٧٥ أ).

(٥) العجاجيل: جمع عِجَّوْل، وهو العجل ولد البقر.

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات في هذا كثيرةٌ في القرآن.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وهذا بيانٌ لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حَرَّموا مِن الأنعام، وجعلوها أجزاءً[1] وأنواعًا: بَحِيرةً، وسَائِبَةً، ووَصِيلَةً وحَامًا، وغير ذلك من الأَنْواع التي ابْتَدَعُوها في الأنعام والزُّرُوع والثِّمَار، فبَيَّن أنَّه -تعالىٰ- أَنْشَأَ جنَّاتٍ معروشاتٍ وغير معروشات، وأنه أَنْشَأَ من الأنعام حَمُولَةً وفرشًا. ثم بيَّن أصناف الأنعام إلىٰ غَنَم وهو بياض وهو الضَّأن، وسوادٌ وهو المعز، ذَكَره وأُنْثَاه، وإلىٰ إبل ذُكُورها وإِنَاثِها، وبَقَر كذلك. وأنَّه -تعالىٰ- لم يُحَرِّم شيئًا من ذلك، ولا شيئًا مِن أولاده؛ بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلًا وركوبًا، وحمولةً، وحلبًا، وغير ذلك مِن وُجُوهِ المنافع، كما قال تعالىٰ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ رَدٌّ عليهم في قولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

وقوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أخبروني عَن يَقِينٍ: كيف حرَّم الله عليكم ما زعمْتُم تَحْريمَهُ مِن البَحِيرَةِ والسَّائِبَةِ والوَصِيلَةِ والحَام ونحو ذلك؟.

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ فهذه أربعة أزواج، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يقول: [لم أُحَرِّم شيئًا مِن ذلك ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني: هل يشمل الرَّحِمُ إلا علىٰ ذكر أو أُنْثَىٰ فلِمَ تُحَرِّمُون بعضًا وتُحِلُّون بَعْضًا؟][2] ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يقول: كله حلالٌ.

وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ تَهَكُّمٌ بهم فيما ابتدعوه وافْتَرَوْهُ علىٰ الله مِن تَحْرِيم ما حرَّمُوه من ذلك، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أظلم[3] منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأَوْلَىٰ مَن دخل في هذه الآية: عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَة، فإنَّه أوَّل مَن [غيَّر دين الأنبياء، وأول مَن][4] سَيَّب السَّوائِبَ، ووَصَلَ الوَصِيلَةَ، وحَمَىٰ الحَامِي، كما ثبت ذلك في «الصحيح»[5].

---

(١) لوحة (٧٥ ب).
(٢) سقط من (ز).
(٣) في (ز): أضل.
(٤) سقط من (ز).
(٥) رواه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عبدَه ورسوله محمَّدًا، صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء الذين حرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً علىٰ الله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: آكِلٍ يَأْكُلُه. قيل: معناه: لا أَجِدُ شيئًا ممَّا حرَّمْتُم حرامًا سوىٰ هذه. وقيل: معناه: لا أَجِدُ مِن الحيوانات شيئًا حرامًا سوىٰ هذه. فعلىٰ هذا يكون ما ورد من التَّحْرِيمَات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة - رافعًا لمفهوم هذه الآية.

ومن النَّاس مَن يُسَمِّي[1] ذلك نسخًا، والأكثرون من المتأخرين لا يُسَمُّونَه نسخًا؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم.

قال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ يعني: المهراق.

قال عِكْرِمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لولا هذه الآية لَتتبَّع النَّاس ما في العُرُوق، كما تتبَّعه اليهود.

وقال حماد: عن عمران بن حُدَير قال: سألت أبا مِجْلَز عن الدَّم، وما يَتَلَطَّخ من الذبح من الرَّأْس، وعن القِدْر يُرَىٰ فيها الحُمْرَةُ، فقال: إنما نهىٰ الله عن الدَّم المسفوح.

وقال قتادة: حَرَّم من الدِّماء ما كان مسفوحًا، فأمَّا لَحْمٌ خالطَهُ دمٌ فلا بأس به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا المثنىٰ، حدَّثنا حجاج بن مِنْهال، حدَّثنا حماد، عن يحيىٰ بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنَّها كانت لا تَرَىٰ بِلُحُوم السِّباع بأسًا، والحُمْرة والدَّم يكون أَعْلَىٰ القِدْرِ بأسًا، وقرأت هذه الآية. صحيح غريب[2].

وقال الحميدي: حدَّثنا سفيان، حدَّثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ عن لُحُوم الحُمُر الأهليَّة زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحَكَمُ بنُ عَمْرو عن رسول الله ﷺ، ولكن أبىٰ ذلك البحر -يعني ابن عبَّاس- وقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية[3].

وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني، عن سفيان به. وأخرجه أبو داود من حديث ابن جُرَيْج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في «مستدركه» [مع أنَّه في «صحيح البخاري»، كما رأيت.

وقال أبو بكر بن مَرْدوَيه والحاكم في «مستدركه»:][4] حدَّثنا محمَّد بن عليٰ بن دُحَيم، حدَّثنا أحمد بن حازم، حدَّثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن، حدَّثنا محمَّد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن أبي الشعثاء، عن ابن عبَّاس قال: كان أهل الجاهليَّة يأكلون أشياء، ويتركون أشياء تقذُّرًا، فبعث الله

---

(١) لوحة (٧٦أ). (٢) صحيح: رواه الطبري (٨/ ٧١)، وابن أبي حاتم (٨٠١١).

(٣) صحيح: رواه الحميدي (٨٥٩)، ورواه البخاري (٥٥٢٠)، وأبو داود (٣٨٠٨).

(٤) سقط من (ز).

نَبِيَّه، وأنزل كتابه، وأحلَّ حلاله، وحرَّم حرامه، فما أحلَّ فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سكت عنه فهو عفوٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ إلىٰ آخر الآية[1].

وهذا لفظ ابن مَرْدوَيه. ورواه أبو داود منفردًا به، عن محمَّد بن داود بن صبيح، عن أبي نعيم به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عَوَانة، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: مَاتَتْ شاةٌ لسَوْدَة بنت زَمْعَة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة -تعني الشاة- قال: «فَلَوْلَا[2] أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا[3]». قالت: نأخذ مَسْك شاةٍ قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ اللهُ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[4] وَإِنَّكُمْ لا تَطْعَمُونَهُ، أَنْ تَدْبَغُوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتَّخذت منه قِرْبَة، حتىٰ تخرَّقت عِندَها[5].

ورواه البخاري والنسائي، من حديث الشعبي، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه.

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا عبد العزيز بن محمَّد، عن عيسىٰ بن نُميلَة الفزاري، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجلٌ عن أكل القنفذ، فقرأ عليه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النَّبيِّ ﷺ فقال: «خَبِيثٌ مِنَ الخَبَائِثِ». فقال ابن عمر: إن كان النَّبيُّ ﷺ قاله فهو كما قال[6].

ورواه أبو داود، عن أبي ثور، عن سعيد بن منصور به.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمَنِ اضْطُرَّ إلىٰ أكل شيءٍ مما حُرِّم في هذه الآية الكريمة، وهو غير مُتَلَبِّسٍ ببَغْيٍ ولا عدوانٍ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور له رحيم به.

وقد تقدَّم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كِفَايَة.

والمقصود مِن سياق هذه الآية الكريمة الرد علىٰ المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات علىٰ أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحِيرَةِ والسَّائِبَةِ والوَصِيلَةِ والحَام ونحو ذلك، فأَمَرَ الله رسولَهُ أَن يُخْبِرَهُم أَنَّه لا يجد فيما أَوْحَاه الله إليه أنَّ ذلك محرَّمٌ، وإنَّما حُرِّم ما ذكر في هذه الآية من المَيْتَةِ، والدَّم المسفوح، ولَحْم الخِنْزِير، وما أُهِلَّ لغير الله بِهِ. وما عدا ذلك فَلَم يُحَرَّم، وإنَّما هُو عَفْوٌ

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ١١٥)، ورواه أبو داود (٣٨٠٠).

(٢) في (ز): (فلم لا)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٣) مسكها: جلدها.

(٤) لوحة (٧٦ ب).

(٥) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (١/ ٣٢٧) من طريق سماك عن عكرمة، وروايته عنه مضطربة، لكن أصل الحديث صحيح. رواه البخاري (٦٦٨٦)، والنسائي (٧/ ١٧٣).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٧٩٩)، وفيه عيسىٰ بن نميلة الفزاري وأبوه كلاهما مجهول، والراوي عن أبي هريرة: مجهول.

مَسْكُوتٌ عنه، فكيف تزعمون أنتم أنَّه حرامٌ، ومِن أَينَ حَرَّمْتُمُوه ولم يُحَرِّمه الله؟ وعلىٰ هذا فلا يبقىٰ تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا، كما جاء النَّهي عن لحوم الحُمُر[١] ولحوم السِّباع، وكل ذي مِخْلَبٍ مِن الطَّيْر، علىٰ المشهور مِن مذاهب العُلَماء.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦)﴾

قال ابن جرير: يقول تعالىٰ: وحرَّمنا علىٰ اليهود ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو البهائم والطَّيْرُ ما لم يكن مَشْقُوق الأصابع، كالإبِلِ والنَّعَام والإوَزِّ والبَطِّ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو البَعِير والنَّعامة. وكذا قال مجاهد، والسُّدِّي في رواية.

وقال سعيد بن جُبَيْر: هو الذي ليس بِمُنْفَرِج الأصابع، وفي روايةٍ عنه: كلُّ شيءٍ مُتَفَرِّق الأصابع، ومنه الدِّيك[٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وكان يقال: البَعِير والنَّعامة وأشياء مِن الطَّير والحِيتَان. وفي رواية: البَعِير والنَّعامة، وحرم عليهم من الطير: البَط وشِبْهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع.

وقال ابن جُرَيْج: عن مجاهد: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ قال: النَّعامة والبَعِير، شَقًّا شَقًّا. قلت للقاسم ابن أبي بَزَّة وحدَّثنيه: ما «شَقًّا شَقًّا»؟ قال: كل ما لم يُفَرَّج مِن[٣] قوائم البهائم، قال: وما انْفَرَج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم البَهائِم والعصافير، قال: فيَهُود تأْكُلُها. قال: ولم تَنْفَرِج قائمة البَعِير خُفُّهُ، ولا خُفُّ النعامة ولا قائمة الوَزِّ، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامَ ولا الوَزَّ، ولا كل شيءٍ لم تنفرج قائمته، ولا تأكُل حمارَ وَحْشٍ.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ قال السُّدِّي: يعني الثَّرب[٤]، وشحم الكُلْيَتَيْن. وكانت اليهود تقول: إنَّه حرمه إِسْرَائِيل فنَحْنُ نُحَرِّمُه. وكذا قال ابن زيد.

وقال قتادة: الثَّرْبُ وكلُّ شحمٍ كان كذلك ليس في عَظْمٍ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يعني: ما عَلِق بالظهر من الشُّحوم.

وقال السُّدِّي وأبو صالح: الأَلْيَة، مما حملت ظهورهما.

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري تَعَلَلَهُ: ذكر القرطبي أن علة تحريم الحمار قد تكون حاجة الناس للحمل عليه والركوب، وذكر علة أخرىٰ وهي كونه نجسًا، وذكر عن الترمذي في «نوادر الأصول» أن الحمار أظهر جوهره الخبيث حيث نزا علىٰ ذكره وتلوّط؛ فسمي لذلك رجسًا، وليس في الدواب من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار والخنزير.

(٢) لوحة (٧٧أ). (٣) سقط من (ز). (٤) الثَّرب: شحم رقيق يغشىٰ الكَرِش والأمعاء.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾ جمع، واحدها حاوياء، وحاوية وحَوِيَّة وهو: ما تَحَوىٰ من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المَبَاعِر»، وتُسَمَّىٰ «المَرَابِض»، وفيها الأمعاء.

قال: ومعنىٰ الكلام: ومِن البقر والغنم حرَّمْنا عليهم شحومهما، إلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما، [أو ما حَمَلَتِ الحوايا][1].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ وهي المَبْعَر.

وقال مجاهد: ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾ المبْعَر، والمَرْبَض. وكذا قال سعيد بن جبير، والضَّحَّاك، وقتادة، وأبو مالك، والسُّدِّي.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾ المَرابِض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وَسَطَهَا، وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تُدْعَىٰ المَرَابِض.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾ أي: وإلا ما اختلط مِن الشُّحوم بالعِظَام فقدْ أَحْلَلْناه لهم.

وقال ابن جُرَيْج: شحم الأَلْيَة اختلط بالعُصْعُص[2]، فهو حلالٌ. وكلُّ شيءٍ في القوائم والجَنْبِ والرأس والعين وما اختلط بِعَظْمٍ، فهو حلالٌ، ونحوه قاله السُّدِّي.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ أي: هذا التَّضييقُ إنَّما فعلْناه بهم وأَلْزَمْناهم به، مجازاةً لهم علىٰ بَغْيِهم ومخالفتهم أَوَامِرَنا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا[3] عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: وإنَّا لَعَادِلُون فيما جَزَيْنَاهُم به.

وقال ابن جرير: وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك به -يا محمَّد- مِن تَحْرِيمِنَا ذلك عليهم، لا كما زعموا مِن أنَّ إسرائيل هو الَّذِي حرَّمه [علىٰ نفسه][4]، والله أعلم.

وقال عبد الله بن عبَّاس: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ سَمُرَة باع خمرًا، فقال: قاتل الله سمرة! أَلَمْ يَعْلَمْ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا[5] فَبَاعُوهَا**»[6].

أخرجاه مِن حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عبَّاس، عن عمر به.

وقال الليث: حدَّثني يزيد بن أبي حبيب قال: قال عطاء بن أبي رباح: سمعت جابر بن عبد الله يقول: [سمعت رسول الله ﷺ يقول][7] عام الفتح: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ**». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنَّه يُدْهَن بها الجلود، ويُطلىٰ بها السفن، ويَسْتَصبح[8] بها الناس. فقال: «**لا، هُوَ حَرَامٌ**». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، إِنَّ اللهَ**

---

(١) سقط من (ز). (٢) العُصْعُص: عظم عجب الذنب.
(٣) لوحة (٧٧ ب). (٤) سقط من (ز). (٥) أي: أذابوها.
(٦) البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (١٥٨٢)، والنسائي (٧/ ١٧٧)، وابن ماجة (٣٣٨٣).
(٧) سقط من (ز). (٨) أي: يستضيئون بها.

لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»(١).

رواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حبيب به.

وقال الزُّهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ! حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»(٢).

ورواه البخاري ومسلم جميعًا، عن عبدان، عن ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري به.

وقال ابن مَرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن إبراهيم، حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق، حدَّثنا سليمان ابن حرب، حدَّثنا وُهَيب، حدَّثنا خالد الحَذَّاء، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عبَّاس؛ أن رسول الله ﷺ كان قاعدًا خَلْفَ المقام، فرفع بصره إلىٰ السماء فقال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ -ثلاثًا- إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ، فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا ثَمَنَهَا، إِنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَىٰ قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ إِلَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحذَّاء، عن بركة أبي الوليد، أنبأنا ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا في المسجد مستقبلًا الحِجْر، فنظر إلىٰ السماء فضحك، ثم قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا، وَإِنَّ اللهَ إِذَا حَرَّمَ(٤) عَلَىٰ قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ»(٥).

ورواه أبو داود، من حديث خالد الحذَّاء.

وقال الأعمش: عن جامع بن شَدَّاد، عن كلثوم، عن أسامة بن زيد قال: دخلنا علىٰ رسول الله ﷺ وهو مريض نعوده، فوجدناه نائمًا قد غطَّىٰ وجهه ببُرْدٍ عَدَني، فكشف عن وجهه وقال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ يُحَرِّمُونَ شُحُومَ الغَنَمِ وَيَأْكُلُونَ أَثْمَانَهَا»، وفي رواية: «حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا»(٦).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: فإن كذَّبك -يا محمَّد- مُخالِفُوك من المشركين واليهود ومَن شابَهَهُم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ وهذا تَرْغِيبٌ لهم في ابْتِغاء رحمة الله الواسعة، واتِّباع رسوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَرْهِيبٌ لهم من مُخالَفَتِهم الرسول خاتم النَّبيِّين. وكثيرًا ما يَقْرِنُ الله تعالىٰ بين التَّرْغِيب والتَّرْهِيبِ في القرآن، كما قال تعالىٰ في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]، وقال ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]،

---

(١) البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١)، وأبو داود (٣٤٨٦)، والترمذي (١٢٩٧)، والنسائي (٧/ ١٧٧)، وابن ماجة (٢١٦٧).

(٢) البخاري (٢٢٢٤)، ورواه مسلم من طريق أخرىٰ عن ابن شهاب به.

(٣) صحيح: عزاه لابن مردويه، ورواه البيهقي (٦/ ١٣، ١٤)، وانظر ما بعده.

(٤) لوحة (٧٨أ).

(٥) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٤٧)، وأبو داود (٣٤٨٨).

(٦) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ١٩٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

وقال تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، والآيات في هذا كثيرةٌ جدًّا.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ (١) فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذه مناظرةٌ ذكرها الله تعالىٰ وشُبهةٌ تَشبَّثَتْ بها المشركون في شِرْكِهم وتحريم ما حرَّموا؛ فإن الله مُطَّلِعٌ علىٰ ما هم فيه من الشِّرك والتَّحريم لما حرَّمُوه، وهو قادرٌ علىٰ تغْييرِهِ بأَنْ يُلْهِمَنَا الإيمان، أو يَحُولُ بيْنَنا وبين الكفر فلم يُغيِّرْهُ، فدلَّ علىٰ أنَّه بمشيئته وإرادته ورِضَاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وكذلك الآية التي في «النحل»(٢) مثل هذه سواء قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: بهذه الشُّبهة ضلَّ مَن ضلَّ قبل هؤلاء. وهي حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ باطلةٌ؛ لأنَّها لو كانت صحيحةً لما أذاقهم اللهُ بأْسَه، ودمَّرَ عليهم، وأدَالَ عليهم رُسُلَهُ الكرام، وأذاق المُشْرِكِينَ من أليم الانتقام.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ أي: بأنَّ الله تعالىٰ راضٍ عَنْكُم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتظهروه لنا وتُبيِّنُوه وتُبرِزُوهُ، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ أي: تكذبون علىٰ الله فيما ادَّعَيْتُمُوهُ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلىٰ الله زُلْفَىٰ فأخبرهم الله أنَّها لا تُقرِّبُهُم، وقوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، يقول تعالىٰ: لَوْ شِئْت لجمعتهم علىٰ الهدىٰ أجمعين.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ لهم - يا محمَّد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التَّامَّة، والحجَّة البالغة في هداية من هَدَىٰ، وإضلال من أَضلَّ ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقُدْرَتِهِ ومَشِيئَتِهِ واخْتِيارِهِ، وهو مع ذلك يرضىٰ عن المؤمنين، ويُبْغِضُ الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال

---

(١) قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: «فَلِلَّهِ» الفاء هنا هي الفاء الفصيحة إذ هي مفصحة عن كلام سابقٍ ترتب عليه ما بعدها ترتب الجزاء علىٰ الشرط، تقديره هنا فإن كان قولكم لمجرد اتباع الظن والخرص والحزر ولا عَلم لكم؛ فللّه تعالىٰ الحجة البالغة التي تصل إلىٰ الحقيقة وتؤكدها، وتبطل ما عداها.

(٢) لوحة (٧٨ ب).

تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

قال الضَّحَّاك: لا حُجَّة لأحدٍ عصىٰ الله، ولكن لله الحُجَّةُ البالِغَةُ علىٰ عباده.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [أي: أحضروا شهداءكم](١) ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الَّذِي حَرَّمْتُموه، وكَذَّبتم وافتَرَيْتُم علىٰ الله فيه ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنَّما يَشْهَدُون والحالة هذه كذِبًا وزُورًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يُشْرِكُون به، ويَجْعَلُون له عَدِيلًا.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قال داود الأَوْدِي، عن الشعبي(٢)، عن علقَمَة، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَن أراد أَن يَقْرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خَاتمه(٣)، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٤).

وقال الحاكم في «مستدركه»: حدَّثنا بكر بن محمَّد الصَّيرفي بمَرْوٍ، حدَّثنا عبد الصمد بن الفضل، حدَّثنا مالك بن إسماعيل النَّهدي، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: في الأنعام آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآيات(٥).

ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يُخرِّجَاه.

قلت: ورواه زُهَيْر وقيس بن الربيع كلاهما عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عبَّاس، به. والله أعلم.

وروىٰ الحاكم أيضًا في «مستدركه» من حديث يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهري،

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٧٩ أ). (٣) أي: محكمات لم تُنسخ.

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٣٠٧٢)، وفيه داود وهو ابن يزيد بن عبد الرحمن الأَوْدِي. قال الحافظ: ضعيف.

(٥) ضعيف: رواه الحاكم (٢/ ٣١٧)، وسعيد بن منصور (٤٩٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، قلت: فيه عبد الله بن خليفة: لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الذهبي: لا يكاد يعرف، وقد اضطرب فيه علي أبي إسحاق، فقد رواه هنا عنه عن عبد الله بن خليفة، ورواه ابن أبي حاتم (٨٠٥٧) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٠١- بتحقيقي) من طريق أبي إسحاق عن عبد الله بن عيسىٰ (مجهول)، وقد رواه ابن جرير الطبري (٣/ ١٧٢) وابن أبي حاتم (٣١٦٩) من طريق أخرىٰ، وفيها مبهم، وقد رجح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في حاشيته علىٰ «تفسير الطبري» أن المبهم هو عبد الله بن قيس.

عن أبي إدريس، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ؟» -ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتىٰ فرغ من الآيات- فَمَنْ وَفَّىٰ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ أُخِّرَ إِلَىٰ الآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»[١]. ثم قال: صحيح الإسناد، ولَمْ يُخَرِّجَاه.

وإنَّما اتَّفقَا علىٰ حديث الزُّهري، عن أبي إدريس، عن عبادة: «بَايِعُونِي عَلَىٰ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا» الحديث[٢]. وقد روىٰ سفيان بن حُسَين كلا الحديثين، فلا ينبغي أن يُنْسَبَ إلىٰ الوهم في أَحَدِ الحديثين إذا جَمَعَ بينهما، والله أعلم[٣].

وأما تفسيرها فيقول تعالىٰ لنبيِّه ورسوله محمَّدٍ ﷺ: قل -يا محمَّد- لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرَّموا ما رزقهم الله، وقتلُوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتَسْوِيلِ الشَّيَاطِين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هَلُمُّوا وأَقْبِلُوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَقُصُّ عليكم وأُخْبِرُكُم بما حرَّم رَبُّكُم عليكم حقًّا لا تَخَرُّصًا، ولا ظنًّا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وكأن في الكلام محذوفًا دلَّ عليه السِّياق، وتقديره: وأَوْصَاكُم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وكما قال الشاعر:

حَجَّ وَأَوْصَىٰ بِسُلَيْمَىٰ الأَعْبُدَا ... أَنْ لا تَرَىٰ وَلا تُكَلِّمَ أَحَدَا

وَلا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبَرَّدَا

وتقول العرب: أَمَرْتُك أَلَّا تقوم.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ، دَخَلَ الجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ»، وفي بعض الرِّوَايات أنَّ القائل ذلك إنَّما هو أبو ذرٍّ لرسول الله ﷺ، وأنَّه عليه السلام قال في الثَّالثة: «وَإِنْ رَغِمَ أَنفُ أَبِي ذَرٍّ» فكان أبو ذرٍّ يقول بعد تمام الحديث: وإِن رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ[٥].

وفي بَعْضِ «المسانيد» و«السُّنَن» عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي أَغْفِرُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم (٢/ ٣١٨)، وفيه سفيان بن حسين. قال الحافظ: ثقة في غير الزهري باتفاقهم. قلت: وهذا الحديث يرويه عن الزهري فالإسناد ضعيف.

(٢) البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من طرق أخرىٰ عن الزهري.

(٣) لم أقف علىٰ رواية لسفيان بن الحسين عن الزهري بما هو ثابت في «الصحيحين»، وإنما الثابت في «الصحيحين» من غير طريق (دون ذكر الآيات)، وهذا هو الوهم الذي خالف فيه سفيان بن حسين، ولم أجد متابعًا له. فهو بهذا السياق ضعيف كما تقدم.

(٤) لوحة (٧٩ ب). (٥) البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

خطيئةً أتيتُكَ بقُرابِها مغفِرةً ما لَمْ تُشرِكْ بِي شيئًا، وإنْ أخطأتَ حتَّىٰ تبلُغَ خطاياكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ استغفَرْتَني، غفَرتُ لَكَ»(١). ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود: «مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢) والآيات والأحاديث في هذا كثيرةٌ جدًّا.

وروىٰ ابن مَرْدوَيه من حديث عبادة وأبي الدرداء: «لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعْتُمْ أَوْ صُلِّبْتُمْ أَوْ حُرِّقْتُمْ»(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عَوْف الحِمْصي، حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا نافعُ بن يزيد، حدَّثني سيار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قَوْذر، عن سلمة بن شُرَيح، عن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَإِنْ حُرِّقْتُمْ وَقُطِّعْتُمْ وَصُلِّبْتُمْ»(٤)(٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ أي: وأوصاكم وأمَرَكم بالوالدين إحسانًا؛ [أي: أن تُحْسِنُوا إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].](٦).

وقرأ بعضهم: ﴿وَوَصَّىٰ(٧) رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

والله تعالىٰ كثيرًا [ما](٨) يقْرِن بَيْنَ طاعتِهِ وبرِّ الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمَر بالإحْسَان إليهما وإن كانا مُشْركَيْن بِحَسَبِهِمَا، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ الآية. [البقرة: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرةٌ(٩). وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «بِرُّ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٧٢)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال الأوهام، لكن للحديث شواهد كثيرة تدل علىٰ صحته. انظر: «الصحيحة» للألباني (١٢٧).

(٢) بل رواه البخاري (١٢٣٨)، ورواه مسلم (٩٢).

(٣) صححه الألباني بطرقه: حديث عبادة: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٠٥٨).
وحديث أبي الدرداء: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨)، وابن ماجة (٤٠٣٤)، وانظر: «صحيح الجامع» (٧٣٣٩)، وله شاهد من حديث معاذ، رواه أحمد (٥/ ٢٣٨)، وانظر: «إرواء الغليل» (٢٠٢٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٥٠٥٨)، وفيه سلمة بن شريح: مجهول، والرواي عنه يزيد بن قوذر: لم يوثقه غير ابن حبان، ولكن يشهد له ما تقدم من حديث عبادة وحديث أبي الدرداء وغيرهم.

(٥) قال ابن باز رحمه الله: هذا ليس علىٰ إطلاقه؛ لأنه ورد في الأحاديث الصحاح أنه إذا أكره جاز أن يقول بلسانه بخلاف ما فيه قلبه.

(٦) سقط من (ز).

(٧) قراءة: قَرَأَ (وَوَصَّىٰ) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَقَضَىٰ).

(٨) سقط من (ز). (٩) لوحة (٨٠ أ).

الوَالِدَيْنِ». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». قال ابن مسعود: حدَّثني بِهِنَّ رسول الله ﷺ، ولو اسْتَزَدْتُهُ لزادني(١).

وروىٰ الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما يقول: أوصاني خليلي ﷺ: «أَطِعْ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ لَهُمَا مِنَ الدُّنْيَا فَافْعَلْ»(٢). ولكن في إسناديهما ضعف، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لمَّا أوصىٰ -تعالىٰ- بِبِرِّ الآباء والأجداد، عَطَفَ علىٰ ذلك الإحسان إلىٰ الأبناء والأحفاد، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ وذلك أنَّهم كانوا يَقتُلُون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يَئِدُون البنات خَشْيَةَ العار، وربما قتلوا بعض الذُّكور خِيفةَ الافتقار؛ ولهذا جاء في «الصحيحين» من حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨](٣).

وقوله: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ قال ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي: هو الفقر؛ أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]، أي: خشية حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم؛ أي: لا تخافوا من فَقْرِكُم بِسَبَبِهِم، فرِزْقُهُم علىٰ الله. وأمَّا في هذه الآية فلمَّا كان الفَقْرُ حاصلًا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٢].

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود ﷺ(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(٥).

وقال عبد الملك بن عُمَيْر: عن وَرَّاد، عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي

---

(١) البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥)، والترمذي (١٧٣)، والنسائي (١/ ٢٩٢).

(٢) هو جزء من الحديث قبل السابق.

(٣) البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣٠١)، والترمذي (١٣٨١)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٢٣٨-٢٦٢- بتحقيقي).

(٤) لوحة (٨٠ ب).

(٥) البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠)، والترمذي (٣٥٢٠)، وأحمد (١/ ٣٨١).

رجلًا لضَربْتُهُ بالسَّيف غير مُصْفِح[١]. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ! فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». أخرجاه[٢].

وقال كامل أبو العلاء: عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إنَّا نَغارُ. قال: «وَاللهِ إِنِّي لَأَغَارُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ غَيْرَتِهِ نَهَىٰ عَنِ الفَوَاحِشِ»[٣].

رواه ابن مَرْدوَيه، ولم يُخرِّجْه أحد من أصحاب الكتب السِّتَّة، وهو علىٰ شرط التِّرمِذيِّ، فقد روي بهذا السند: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ»[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا ممَّا نصَّ -تبارك وتعالىٰ- علىٰ النَّهْيِ عنه تأكيدًا، وإلَّا فهو داخلٌ في النَّهْيِ عن الفواحش مَا ظهر منها وما بطن، فقد جاء في «الصَّحِيحَيْن» عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ المُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ»[٥].

وفي لفظ لمسلم: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ...» وذكره، قال الأعمش: فحدثت به إبراهيم، فحدَّثني عن الأسود، عن عائشة ﵂ بمثله.

وروىٰ أبو داود، والنسائي، عن عائشة ﵂؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ: زَانٍ مُحْصَنٍ يُرْجَمُ، وَرَجُلٍ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَلُ، وَرَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلَامِ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَيُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ أَوْ يُنْفَىٰ[٦] مِنَ الأَرْضِ». وهذا لفظ النسائي[٧].

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﵁ أنَّه قال -وهو محصور-: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: رَجُلٍ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، أَوْ زَنَا بَعْدَ إِحْصَانِهِ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ». فوالله ما زَنَيْتُ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ، ولا تَمَنَّيْتُ أَنَّ لي بديني بدلًا منه بعد إِذْ هداني الله، ولا قتلت نفسًا، فبم تَقْتُلُونَنِي؟ رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة[٨]. وقال الترمذي: هذا

---

(١) غير مُصْفَح: -بفتح الفاء وبكسرها- أي: غير ضارب بعرضه بل بحده، فمن فتح جعله وصفًا للسيف، ومن كسر جعله وصفًا للضارب، وصفحا السيف: وجهاه. «هدي الساري»: (ص١٤٤).

(٢) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤١٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٢٦)، وفيه كامل أبو العلاء، قال الحافظ: صدوق يخطئ.
قلت: ويشهد له الروايات السابقة.

(٤) حسن صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣١)، (٣٥٥٠)، وابن ماجة (٤٢٣٦)، وقال الترمذي: حسن غريب، قلت: إسناده حسن من أجل محمد بن عمرو فإنه صدوق، لكنه يتقوىٰ بالرواية الأخرىٰ (٢٣٣١) عند الترمذي، ويرقىٰ بمجموعهما إلىٰ الصحة؛ لذا استغرب ابن كثير علىٰ الترمذي قوله: حسن غريب عند إيراده للحديث في سورة فاطر الآية (٣٧).

(٥) مسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٣)، والنسائي (٧/ ١٠١) من حديث ابن مسعود.

(٦) في الأصل: أن ينفىٰ.

(٧) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٥٣)، والنسائي (٧/ ١٠١) (٨/ ٢٣).

(٨) رواه أحمد (١/ ٦١)، والترمذي (٢١٥٩)، والنسائي (٧/ ٩١)، وابن ماجة (٢٥٣٢) من حديث عثمان، وإسناده صحيح.

حديث حسن[١].

وقد جاء النَّهْيُ والزَّجر والوعيد في قتل المُعَاهَدِ -وهو المستأمن من أهل الحرب- كما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ[٣] خَرِيفًا»[٤].

رواه ابن ماجة، والترمذي وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا ما وصَّاكم به لعلكم تَعْقِلُون عنه أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

قال عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء:١٠]، فانْطَلَق مَن كان عِنْدَهُ يَتِيمٌ فعزَلَ طَعَامَهُ مِن طَعَامِهِ، وشَرَابَه مِن شَرَابِهِ، فجعل يفضل الشيء فيُحْبَسُ له حتىٰ يأكله ويفسد. فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠]، قال: فخلَطُوا طعامهم بِطَعَامِهِمْ، وشَرَابَهُم بِشَرَابِهِم[٥]. رواه أبو داود.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحدٍ مِن السَّلَفِ: يعني: حتىٰ يَحْتَلِمَ.

وقال السُّدِّي: حتىٰ يبلغ ثلاثين سنةً، وقيل: أربعون سنةً، وقيل: سِتُّون سنةً. قال: وهذا كله بعيدٌ هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يأمر -تعالىٰ- بإقامة العدل في الأَخْذِ والإِعْطَاء، كما توعَّد علىٰ تركه في قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦]. وقد أَهْلَكَ الله أُمَّةً مِن الأمم كانوا يَبْخَسُون المكيال والميزان.

---

(١) لوحة (٨١ أ). (٢) البخاري (٦٩٠٤)، والنسائي (١/ ٢٥)، وابن ماجة (٢٦٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) في (ز): خمسين.

(٤) رواه ابن ماجة (٢٦٨٧)، والترمذي (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة، وفيه مَعْدِيّ بن سليمان: ضعيف، وقد ثبت نحوه عند الطبراني في «الأوسط» (٦٦٣) بإسناد رجاله ثقات، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٥٦).

(٥) حسن: رواه أبو داود (٢٨٧١)، والنسائي (٦/ ٢٥٦)، والحاكم (٢/ ٢٧٨)، والطبري (٢/ ٣٦٩-٣٧٠)، وابن أبي حاتم (٢٠٨١).

وفي كتاب «الجامع» لأبي عيسىٰ الترمذي من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرَّحَبي [(١)]، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «**إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرًا هَلَكَتْ فِيهِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ**». ثم قال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحُسين، وهو ضعيفٌ في الحديث، وقد روي بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عبَّاس موقوفًا [(٢)].

قلت: وقد رواه ابن مَرْدوَيه في «تفسيره» من حديث شَرِيك، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ مَعْشَرَ المَوَالِي قَدْ بَشَّرَكُمُ اللهُ بِخَصْلَتَيْنِ بِهَا هَلَكَتِ القُرُونُ المُتَقَدِّمَةُ: المِكْيَالُ، وَالمِيزَانُ**» [(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: مَنِ اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حَرَجَ عَلَيْهِ.

وقد روىٰ ابن مَرْدوَيه من حديث بَقِيَّة، عن مُبَشر بن عبيد، عن عمرو بن ميمون بن مهْران، عن أبيه، عن سعيد بن المسَيَّب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال: «**مَنْ أَوْفَىٰ عَلَىٰ يَدِهِ فِي الكَيْلِ وَالمِيزَانِ -وَاللهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نِيَّتِهِ بِالوَفَاءِ فِيهِمَا- لَمْ يُؤَاخَذْ**». وذلك تأويل ﴿وُسْعَهَا﴾ هذا مرسل غريب [(٤)].

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:٨]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء [الآية:١٣٥]، يأمر تعالىٰ بالعدل [في الفِعَال والمَقَال، علىٰ القريب والبعيد، والله تعالىٰ يأمر بالعدل لكلِّ أحدٍ] [(٥)]، في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ حالٍ.

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول: وَبِوَصِيَّةِ الله التي أوصاكم بها فأَوْفُوا. وإيفاء ذلك: أَن تُطِيعُوهُ فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابِهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالىٰ: هذا وصَّاكم به، وأَمَرَكُمْ بِهِ، وأكَّد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تَتَّعِظُون، وتَنْتَهُون عما كنتم فيه قبل هذا، وقَرَأَ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها [(٦)].

---

(١) لوحة (٨١ ب).

(٢) ضعيف، لكنه صحيح موقوفًا: رواه الترمذي (١٢١٧)، وفيه الحسين بن قيس. قال الحافظ: متروك. فالإسناد ضعيفٌ جدًّا، والرواية الثانية التي أوردها ابن كثير فإنها من طريق شريك بن عبد الله القاضي: سيء الحفظ؛ لكنه ثبت عن ابن عبَّاس موقوفًا. رواه البيهقي في «الشعب» (٤/ ٥٢٨٧)، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) ضعيف جدًّا: فيه مبشر بن عبيد الله، قال الحافظ: متروك. وأيضًا الإسناد مرسل، فهذه علة أخرىٰ.

(٥) سقط من (ز).

(٦) متواترة: قَرَأَ (تَذَكَّرُونَ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَحَفْصٌ وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (تَذَّكَّرُونَ).

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنَّه إنَّما هلك مَن كان قبلهم بالمراء والخصومات في دِينِ الله. ونحو هذا قاله مجاهد، وغير[(١)] واحد.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا الأسود بن عامر: شاذان، حدَّثنا أبو بكر -هو ابن عياش- عن عاصم -هو ابن أبي النجود- عن أبي وائل، عن عبد الله -هو ابن مسعود ﷺ- قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا». وخطَّ علىٰ يمينه وشماله، ثم قال: «هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٢)].

وكذا رواه الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن أبي بكر بن عياش به. وقال: صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه[(٣)].

وهكذا رواه أبو جعفر الرازي، وورقاء، وعمرو بن أبي قيس، عن عاصم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن ابن مسعود به مرفوعًا نحوه[(٤)].

وكذا رواه يزيد بن هارون ومُسدَّد والنسائي، عن يحيىٰ بن حبيب بن عربي -وابن حِبَّان من حديث ابن وَهْب- أربعتهم عن حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود به[(٥)].

وكذا رواه ابن جرير، عن المثنىٰ، عن [الحِمَّاني، عن حماد بن زيد به][(٦)].

ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد به كذلك. وقال: صحيح ولم يخرجاه[(٧)].

وقد رویٰ هذا الحديث النسائي والحاكم من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن مسعود به مرفوعًا.

---

(١) لوحة (٨٢أ).

(٢) حسن: وقد اعتنىٰ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ بتخريجه. رواه أحمد (١/ ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وغيرهم. ورجاله ثقات عدا عاصم بن أبي النجود فهو صدوق له أوهام.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) هذه كلها متابعات لأبي بكر بن أبي عياش في الرواية السابقة، ورواية عمرو بن أبي قيس رواه ابن أبي حاتم (٨١٠٢). ورواية حماد بن زيد هي الرواية الآتية.

(٥) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

(٦) رواه الطبري (٨/ ٨٨).

(٧) الحاكم (٢/ ٣١٨).

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيه من حديث يحيىٰ الحماني، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن زِرٍّ به.

فقد صحَّحَه الحاكم كما رأيت مِن الطَّرِيقَيْنِ، ولعلَّ هذا الحديث عند عاصم بن أبي النجود، عن زرٍّ، وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود به، والله أعلم.

قال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر، من وجه غير معتمد.

يشير إلىٰ الحديث الذي قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعًا، واللفظ لأحمد: حدَّثنا عبد الله بن محمَّد -وهو أبو بكر بن أبي شيبة- أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنَّا جلوسًا عند النَّبيِّ ﷺ، فخطَّ خطًّا هكذا أمامه، فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ». وخطَّين عن يمينه، وخطَّين عن شماله، وقال: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ». ثم وضع يده في الخط الأوسط[1]، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

ورواه ابن ماجة في كتاب السُّنَّة من «سننه»، والبزار عن أبي سعيد عبد الله بن سعيد، عن أبي خالد الأحمر به.

قلتُ: ورواه الحافظ ابن مَرْدَوَيه من طريقين: عن أبي سعيد الكندي، حدَّثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا، وخطَّ عن يمينه خطًّا، وخطَّ عن يساره خطًّا، ووضع يده علىٰ الخطِّ الأوسط وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

ولكن العمدة علىٰ حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مُؤَثِّرًا، وقد روي موقوفًا عليه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أبَان؛ أن رجلًا قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمَّد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنَّة، وعن يمينه جَوَاد، وعن يساره جَوَاد، وثَمَّ رجالٌ يَدْعُون مَن مرَّ بهم. فمَن أخذ في تلك الجواد انْتَهَتْ به إلىٰ النَّارِ، ومَن أخذ علىٰ الصِّراط انتهىٰ به إلىٰ الجنَّة. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآية[3].

وقال ابن مَرْدَوَيه: حدَّثنا أبو عمرو، حدَّثنا محمَّد بن عبد الوهاب، حدَّثنا آدم، حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش، حدَّثنا أبان بن أبي عياش، عن مسلم بن أبي عمران، عن عبد الله بن عمر: سأل عبد الله عَنِ الصراط المستقيم، فقال له ابن مسعود: تركنا محمَّد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وذكر تمام الحديث كما تقدم[4]، والله أعلم.

---

(١) لوحة (٨٢ ب).

(٢) حسن لغيره: رواه الحاكم (٢/ ٢٣٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٧٥)، وابن ماجة (١١)، وفيه مجالد بن سعيد: ليس بالقوي، لكن يشهد لصحته حديث ابن مسعود السابق.

(٣) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٨/ ٨٨)، وفيه أبان بن أبي عياش: متروك، وفيه رجل مجهول.

(٤) ضعيف جدًّا: عزاه لابن مردويه، ومداره علىٰ أبان بن أبي عياش: متروك كما تقدم في التعليق السابق.

وقد روي من حديث النوَّاس بن سَمْعان نحوه، قال الإمام أحمد: حدَّثنا الحسن بن سَوَّار أبو العلاء، حدَّثنا لَيْث -يعني ابن سعد- عن معاوية بن صالح؛ أنَّ عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نفير حدثه، عن أبيه، عن النَّوَّاس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [جَمِيعًا][(١)]، وَلَا تَتَفَرَّجُوا[(٢)(٣)] وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ. لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي[(٤)] مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(٥)].

ورواه الترمذي والنسائي عن علي بن حُجْر -زاد النسائي- وعمرو بن عثمان، كلاهما عن بَقِيَّة بن الوليد، عن بحير بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن جُبَير بن نفير، عن النوّاس بن سمْعان به. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ إنما وَحَّدَ سبحانه سَبِيلَهُ؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ؛ ولهذا جمع[(٦)] لِتفرُّقِها وتَشعُّبِها، كما قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سِنَان الواسطي، حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا سفيان بن حسين، عن الزهري، عن أبي إدريس الخولاني، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَىٰ هَذِهِ الآيَاتِ الثَّلَاثِ؟». ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتىٰ فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «وَمَنْ وَفَّىٰ بِهِنَّ أَجْرُهُ [عَلَىٰ][(٧)] اللهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ[(٨)] [اللهُ][(٩)] فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَىٰ الآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»[(١٠)].

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل -يا محمَّد- مُخْبِرًا عنَّا بأنَّا آتينا موسىٰ

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز): لا تعرجوا. والمثبت من «المسند».
(٣) أي: لا تنكشفوا وتتفرقوا.
(٤) لوحة (٨٣ أ).
(٥) صحيح: الترمذي (٢٨٥٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، والحاكم (١/ ٧٣) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
(٦) أي: سبل غيره.
(٧) سقط من (ز).
(٨) في (ز): أدركه.
(٩) سقط من (ز).
(١٠) ضعيف: رواه الحاكم (٢/ ٣١٨)، وفيه سفيان بن حسين، قال الحافظ: ثقة في غير الزهري باتفاقهم، قلت: وهذا الحديث يرويه عن الزهري؛ فالإسناد ضعيف.

الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

قلتُ: وفي هذا نظرٌ، و﴿ثُمَّ﴾ هاهنا إنَّما هي لعطف الخَبَرِ بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وهاهنا لما أخبر الله تعالىٰ عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ عطف بمدح التَّوراة [ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة][1]، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ الآية [الانعام:٩١]، وبعدها ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية [الأنعام:٩٢]، وقال -تعالىٰ- مخبرًا عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا[2] وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٤٨]، وقال تعالىٰ مخبرًا عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملًا جامعًا لجميع ما يحتاج إليه في شَرِيعَتِهِ، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأعراف:١٤٥].

وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء علىٰ إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وكقوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله.

وقال قتادة: من أَحْسَنَ في الدُّنْيا تَمَّمَ[3] له ذلك في الآخرة.

واختار ابن جرير أن تقديره الكلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ علىٰ إحسانه. فكأنَّه جعل ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ مصدرية، كما قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] أي: كخوضهم وقال ابن رَوَاحة:

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي المُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (٨٣ ب). (٣) في (ز): ثم له.

وقال آخرون: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هاهنا بمعنىٰ «الذين».

قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود أنَّه كان يقرؤها: «تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِينَ أَحْسَنُوا»[(١)].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ قال: علىٰ المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. قال البغوي: والمُحْسِنُون: الأنبياء والمؤمنون؛ يعني: أظهرنا فضله عليهم.

قلت: كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه علىٰ محمَّدٍ ﷺ خاتَم الأنبياء والخليل -عليهما السلام- لأدلَّةٍ أُخر.

قال ابن جرير: وروىٰ أبو عمرو بن العلاء عن يحيىٰ بن يَعْمر أنه كان يقرؤها. «تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ» رفعًا[(٢)]، بتأويل: «عَلَىٰ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ»، ثم قال: وهذه قراءة لا أَسْتَجِيزُ القراءَةَ بها، وإن كان لها في العربية وجهٌ صحيحٌ.

وقيل: معناه: تمامًا علىٰ إحسان الله إليه زيادةً علىٰ ما أحسن الله إِلَيْهِ، حكاه ابن جرير، والبَغوي. ولا منافاة بينه وبين القول الأوَّل، وبه جمع ابن جرير كما بيناه[(٣)]، ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه الدعوة إلىٰ اتِّباع القرآن، ووصْفِهِ بالبركة لمن اتَّبعه وعَمِلَ به في الدنيا والآخرة.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتابٌ أنزلناه لئلَّا يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: لِيَنْقَطِعَ عُذْرُهُم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:٤٧].

وقوله: ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هم اليهود والنصارىٰ. وكذا قال مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، وغير واحد.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: وما كُنَّا نَفْهَمُ ما يقولون؛ لأنَّهم ليسوا بِلِسَانِنَا، ونحن مَعَ ذَلِكَ فِي شُغْلٍ وغَفْلَةٍ عمَّا هم فيه[(٤)].

---

(١) قراءة: قَرَأَ (الَّذِينَ أَحْسَنُوا) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (الَّذِي أَحْسَنَ).

(٢) شاذة: قَرَأَ (أَحْسَنُ) الْحَسَنُ وَالشَّنَبُوذِيُّ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (أَحْسَنَ).

(٣) لوحة (٨٤ أ).

(٤) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذه الآيات دليلٌ علىٰ أن علم القرآن أجَلُّ العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية =

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تعلُّلكم أن تقولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ علَيْنَا ما أُنْزِل عليهم لكنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُم فيما أُوتُوه، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الآية [فاطر:٤٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله علىٰ لسان محمَّدٍ ﷺ النَّبيِّ العربي قرآن عظيم، فيه بيانٌ للحلال والحرام، وهدًى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يَتَّبِعُونه ويقْتَفُون ما فيه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: لم ينتفع بما جاء به الرَّسول، ولا اتَّبع ما أُرْسِلَ به، ولا ترك غيره، بل صَدَفَ عن اتِّباع آيات الله؛ أي: صرف الناس وصدَّهُم عن ذلك. قاله السُّدِّي.

وعن ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَعْرَضَ عنها.

وقول السُّدِّي -هاهنا- فيه قوَّة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ كما تقدَّم في أوَّل(1) السورة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾

وقد يكون المراد كما قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: لا آمَنَ بِهَا ولا عَمِلَ بِهَا، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة:٣٢، ٣١]، ونحو ذلك من الآيات الدَّالَّة علىٰ اشتمال الكافر علىٰ التَّكْذِيبِ بقلبه، وترك العمل بجَوارِحِهِ، ولكن المعنىٰ الأول أقوىٰ وأظهر، والله تعالىٰ أعلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ(2) أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾

يقول تعالىٰ مُتَوَعِّدًا للكافرين به، والمخالفين رسله، والمكذِّبين بآياته، والصَّادِّين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وذلك كائنٌ يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ مِن أمارات السَّاعة وأَشْرَاطِهَا كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

= إلىٰ الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلىٰ تخرص المتكلمين، ولا إلىٰ أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين. وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا علىٰ الطائفتين من اليهود والنصارىٰ، فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

(1) لوحة (٨٤ ب).

(2) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذه الآية دليلٌ لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالىٰ كالاستواء والنزول والإتيان لله -تبارك وتعالىٰ- من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا عبد الواحد، حدَّثنا عمارة، حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا. فَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾**».

حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا**» ثم قرأ هذه الآية[١].

هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين، ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم -إلا الترمذي- من طرق، عن عمارة بن القَعْقَاع بن شُبْرُمَة، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة به[٢].

وأما الطريق الثاني: فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقيل: هو ابن منصور الكوسج، وقيل: إسحاق ابن نصر، والله أعلم.

وقد رواه مسلم عن محمَّد بن رافع النيسابوري، كلاهما عن عبد الرزاق[٣] به.

وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولىٰ الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة به.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا ابن فضيل، عن أبيه، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسٌ إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ**»[٤].

ورواه أحمد، عن وَكِيع، عن فُضَيْل بن غَزْوان، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة به، وعنده: «**وَالدُّخَانُ**».

ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، عن وكيع.

ورواه هو أيضًا والترمذي من غير وجه، عن فضيل بن غزوان به.

ورواه إسحاق بن عبد الله الفَرَوي، عن مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه؛ لضعف الفَرَوي، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا الربيع بن سليمان، حدَّثنا شعيب بن الليث، عن أبيه، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ**

---

(١) البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧)، وأبو داود (٤٣١٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٧٧)، وابن ماجة (٤٠٦٨).
(٢) انظر التعليق السابق. (٣) لوحة (٨٥ أ).
(٤) الطبري (٨/ ١٠٣)، ومسلم (١٥٨)، وأحمد (٢/ ٤٤٥)، والترمذي (٣٠٧٤).

﴿مِن قَبْلُ﴾ الآية»(١).

ورواه ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة به.

ورواه وكيع، عن فضيل بن غزوان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة به.

أخرج هذه الطرق كلّها الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره».

وقال ابن جرير: حدَّثنا الحسن بن يحيىٰ، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن [أيوب، عن](٢) ابن سِيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، قُبِلَ مِنْهُ»(٣).

لم يُخَرِّجْهُ أحد من أصحاب الكُتُب السِّتَّة.

حديثٌ آخرُ عن أبي ذر الغفاري: في «الصَّحِيحَيْنِ» وغيرهما، مِن طرق عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ؟». قلت: لا أدري، قال: «إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ العَرْشِ، ثُمَّ تَخِرُّ سَاجِدَةً، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّىٰ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، وَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»(٤).

- حديث آخر(٥) عن حُذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا سفيان، عن فُرَات، عن أبي الطُّفَيْل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر السَّاعة، فقال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَالدَّجَّالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ -أَوْ: تَحْشُرُ- النَّاسَ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»(٦).

وهكذا رواه مسلم وأهل السُّنن الأربعة من حديث فرات القَزَّاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن [أسيد به. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

- حديث آخر عن حذيفة بن](٧) اليمان رضي الله عنه:

قال الثوري، عن منصور، عن رِبْعي، عن حذيفة قال: سألت النَّبيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما آية طلوع الشمس مِن مَغْرِبِهَا؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «تَطُولُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ حَتَّىٰ تَكُونَ قَدْرَ لَيْلَتَيْنِ، فَبَيْنَمَا الَّذِينَ كَانُوا

---

(١) الطبري (٨/ ٩٩)، وقد رواه البخاري (٦٥٠٦) (٧١٢١)، ومسلم (١٥٧) من طريق الزناد عن الأعرج عبد الرحمن ابن هرمز به.

(٢) سقط من (ز). (٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٧٥)، وابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٩٩).

(٤) البخاري (٣١٩٩) (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩)، وأحمد (٥/ ١٧٧)، والترمذي (١٨٦) (٣٢٢٧).

(٥) لوحة (٨٥ ب).

(٦) مسلم (٢٩٠١)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٨٠، ١١٣٨٢)، وابن ماجة (٤٠٥٥)، وأحمد (٤/ ٦).

(٧) سقط من (ز).

يُصَلُّونَ فِيهَا، يَعْمَلُونَ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَبْلَهَا وَالنُّجُومُ لا تَسْرِي، قَدْ قَامَتْ مَكَانَهَا، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيُصَلُّونَ، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَطُلُّ عَلَيْهِمْ جُنُوبُهُمْ، حَتَّىٰ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ، فَيَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يُصْبِحُونَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَنْتَظِرُونَ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِهَا إِذْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنُوا، وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ»[١].

رواه ابن مَرْدوَيه، وليس في الكتب الستة من هذا الوجه، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي سعيد الخدري -واسمه: سعد بن مالك بن سنان بن مالك- رضي الله عنه وأرضاه:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا ابن أبي ليلىٰ، عن عطية العَوْفي، عن أبي سعيد الخُدْري، عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ قال: «طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٢].

ورواه الترمذي عن سفيان بن وكيع، عن أبيه به. وقال: غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه.

وفي حديثِ طالوت بن عباد، عن فَضَال بن جبير، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عَجْلان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٣].

وفي حديث عاصم بن أبي النَّجود، عن زِرِّ[٤] بن حُبَيْش، عن صفوان بن عَسَّال قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ فَتَحَ بَابًا قِبَلَ المَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ»، قال: «لَا يُغْلَقُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»[٥]. رواه الترمذي، وصححه النسائي، وابن ماجة في حديثٍ طويلٍ.

- **حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفىٰ:**

قال ابن مرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن علي بن دُحَيم، حدَّثنا أحمد بن حازم، حدَّثنا ضرار بن صُرَد، حدَّثنا ابن فضيل، عن سليمان بن زَيد، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ لَيْلَةٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَعْرِفُهَا المُتَنَفِّلُونَ، يَقُومُ أَحَدُهُمْ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْرَأُ حِزْبَهُ، ثُمَّ يَنَامُ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ [مِنْ مَغْرِبِهَا، فَضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً وَاحِدَةً][٦]، حَتَّىٰ إِذَا صَارَتْ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعِهَا». قال: «حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا»[٧].

---

(١) موضوع: عزاه المصنف لابن مردويه، وقد أورد السيوطي إسناده في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٥٨، ٥٩) وفيه محمَّد بن يوسف الرازي: متهم بالوضع، انظر: «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٩).

(٢) ضعيف: «المسند» (٣/ ٣١)، والترمذي (٣٠٧٣) من طريق عقبة العوفي، وهو شيعي مدلس.

(٣) حسن لغيره: رواه الطبراني (٨/ ٨٠٢٢)، وفيه ضعف؛ لكن يشهد له حديث عبد الله بن عمرو الآتي قريبًا.

(٤) لوحة (٨٦ أ). (٥) حسن: رواه الترمذي (٣٥٢٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٧٨)، وابن ماجة (٤٠٧٠).

(٦) سقط من (ز).

(٧) ضعيف: عزاه المصنف لابن مرْدَويه، وفيه سليمان بن زيد أبو إدام، قال الحافظ: ضعيف رماه يحيىٰ بن معين.

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وليس هو في شيء من الكتب الستة.

- **حديث آخر عن عبد الله بن عمرو:**

قال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدَّثنا [أبو][١] حيان، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفرٍ من المسلمين إلىٰ مروان بالمدينة فسمعوه يقول -وهو يحدث في الآيات-: إنَّ أَوَّلَهَا خروجُ الدَّجَّال. قال: فانصرف النَّفَر إلىٰ عبد الله بن عمرو، فحدَّثوه بالذي سَمِعُوه مِن مروان في الآيات، فقال: لم يقل مَرْوان شيئًا، قد حفظت من رسول الله ﷺ [في مثل ذلك حديثًا لم أَنْسَهُ بعد، سمعت رسول الله ﷺ][٢] يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحًىٰ، فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَىٰ عَلَىٰ أَثَرِهَا**». ثم قال عبد الله -وكان يقرأ الكتب-: وأظنُّ أولها خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنَّها كلَّما غربت أَتَتْ تحت العرش فسَجَدَتْ، واستأذنت في الرُّجُوع فأُذِنَ لها في الرُّجوع، حتىٰ إذا بدا الله[٣] أن تَطْلُع مِن مغربها فعلت كما كانت تفعل: أَتَتْ تحت العرش فسَجَدَتْ واستأذنت في الرُّجوع، فلم يُرَدَّ عليها شيءٌ، ثم تستأذنُ في الرُّجوع فلا يُرَدُّ عليها شيء، [ثم تستأذن فلَا يُرَدُّ عليها شيء][٤]، حتىٰ إذا ذهب مِنَ الليل ما شاء الله أَن يذهب، وعَرَفت أنَّه إن أُذِنَ لها في الرُّجوع لم تُدْرِكِ المشرق، قالت: رَبِّي، ما أبعد المشرق. مَن لِي بالنَّاس. حتىٰ إذا صار الأُفُق كأنَّه طوق استأذنت في الرُّجوع، فيقال لها: مِن[٥] مكانك فاطْلُعِي. فطَلَعَت علىٰ النَّاس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[٦].

وأخرجه مسلم في «صحيحه»، وأبو داود وابن ماجة في «سننيهما»، من حديث أبي حيان التيمي - واسمه يحيىٰ بن سعيد بن حيان- عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير به.

حديث آخر عنه: قال الطبراني: حدَّثنا أحمد بن يحيىٰ بن خالد بن حبان الرَّقِّي، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم بن زبريق الحمصي حدَّثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدَّثنا ابن لهيعة، عن حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النَّبِيّ ﷺ: «**إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا خَرَّ إِبْلِيسُ سَاجِدًا يُنَادِي وَيَجْهَرُ: إِلَهِي، مُرْنِي أَنْ أَسْجُدَ لِمَنْ شِئْتَ**». قال: «**فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ زَبَانِيَتُهُ فَيَقُولُونَ: يَا سَيِّدَهُمْ، مَا هَذَا التَّضَرُّعُ؟ فَيَقُولُ: إِنَّمَا سَأَلْتُ رَبِي أَنْ يُنْظِرَنِي إِلَىٰ الوَقْتِ المَعْلُومِ، وَهَذَا الوَقْتُ المَعْلُومُ**». قال «**ثُمَّ تَخْرُجُ دَابَّةُ الأَرْضِ مِنْ صَدْعٍ فِي الصَّفَا**». قال: «**فَأَوَّلُ خُطْوَةٍ تَضَعُهَا بِأَنطَاكِيَا، فَتَأْتِي إِبْلِيسَ فَتَلْطِمُهُ**»[٧].

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وسنده ضعيف، ولعلَّه من الزاملتين اللَّتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) أي: قضىٰ الله. (٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٨٦ ب).

(٦) مسلم (٢٩٤١) مختصرًا دون قول ابن عمرو الأخير، ورواه أبو داود (٤٣١٠)، وابن ماجة (٤٠٦٨)، وأحمد (٢/ ٢٠١)، وإسناده صحيح.

(٧) ضعيف: الطبراني في «الأوسط» (٩٤) (وفيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق. وثَّقه ابن معين، وضعَّفه النسائي، انظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٧٨). قال الحافظ: صدوق يهم كثيرًا، وفيه ابن لهيعة: مختلط. قال ابن كثير: رفعه منكر).

اليرموك، فأمَّا رفعه فمنكر، والله أعلم.

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين:

قال الإمام أحمد: حدَّثنا الحكم بن نافع، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيح ابن عبيد يرده إلىٰ مالك بن يخَامر، عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ مَا دَامَ العَدُوُّ يُقَاتِلُ**». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ، وَالأُخْرَىٰ تُهَاجِرُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلا تَنْقَطِعُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ**»(١). هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

- **حديث آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه:**

قال عوف الأعرابي، عن محمَّد بن سيرين، حدَّثني أبو عبيدة، عن ابن مسعود؛ أنه كان يقول: ما ذكر من الآيات فقد مضىٰ غير(٢) أربع: طلوعُ الشمس من مغربها، والدَّجَّال، ودابَّة الأرض، وخروج يَأْجُوج ومَأْجُوج. قال: وكان يقول: الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها، ألم تر أن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية كلها؛ يعني: طلوع الشمس من مغربها(٣).

- **حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما:**

رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في «تفسيره» من حديث عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وَهْب ابن مُنبِّه، عن ابن عبَّاس رضي الله عنه مرفوعا -فذكر حديثًا طويلًا غريبًا منكرًا رفعه- وفيه: «**أَنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ يَطْلُعَانِ يَوْمَئِذٍ مَقْرُونَيْنِ، وَإِذَا نَصَفَا السَّمَاءَ رَجَعَا، ثُمَّ عَادَا إِلَىٰ مَا كَانَا عَلَيْهِ**»(٤). وهو حديثٌ غريبٌ جدًّا، بَل منكرٌ، بل موضوع إنِ ادَّعىٰ أنَّه مرفوع، فأمَّا وقفه علىٰ ابن عبَّاس أو وهب بن منبه -وهو الأشبه- فغير مدفوع، والله أعلم.

وقال سفيان، عن منصور، عن عامر، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا خرج أوَّل الآيات، طُرِحَت الأَقْلَام، وحُبِسَت الحَفَظَة، وشَهِدَت الأَجْسَاد علىٰ الأَعْمَال(٥). رواه ابن جرير.

فقوله ﷻ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافرُ إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه، فأمَّا مَن كان مؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلِّطًا فأحدثَ توبة يومئذٍ لم تُقْبَلْ منه توبته، كما دلَّت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ

---

(١) حسن: رواه أحمد (١/ ١٩٢). (٢) لوحة (٨٧ أ).

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٠١)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٧٠)، والحاكم (٤/ ٥٤٥)، وإسناده منقطع بين أبي عبيدة وابن مسعود.

(٤) منكر: عزاه لابن مردويه (وانظر تعليق ابن كثير بعده).

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٠٣)، وعامر الشعبي لم يسمع من عائشة؛ فالإسناد منقطع. انظر: «جامع التحصيل» (ص:٢٤٨).

﴿إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ أي: ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيدٌ أكيدٌ لمن سَوَّف بإيمانه وتَوبَتِهِ إلىٰ وقتٍ لا ينفعه ذلك. وإنَّما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقتِ القيامة، وظهور أشراطها كما قال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمَّد:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝١٥٩﴾

قال مجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارىٰ.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس في[1] قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ وذلك أن اليهود والنصارىٰ اختلفوا قبل أن يبعث محمَّد ﷺ، فتفرقوا. فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدَّثني سعيد بن عَمْرو السكوني، حدَّثنا بَقِيَّة بن الوليد كتب إليّ عباد بن كثير، حدَّثني لَيْث، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ وَلَيْسُوا مِنْكَ، هُمْ أَهْلُ البِدَعِ، وَأَهْلُ الشُّبُهَاتِ، وَأَهْلُ الضَّلَالَةِ، مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ»[2].

لكن هذا الإسناد لا يصح، فإن عباد بن كثير متروك الحديث، ولم يختلق هذا الحديث، ولكنه وَهَم في رفعه. فإنه رواه سفيان الثوري، عن ليث -وهو ابن أبي سليم- عن طاوس، عن أبي هريرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ قال: نزلت في هذه الأمة[3].

وقال أبو غالب، عن أبي أمامة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ قال: هم الخوارج. وروي عنه مرفوعًا، ولا يصح[4].

وقال شعبة، عن مُجالد، عن الشعبي، عن شُرَيْح، عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ قال: «هُمْ أَصْحَابُ البِدَعِ»[5].

وهذا رواه ابن مَرْدوَيه، وهو غريبٌ أيضًا ولا يصح رفعه.

---

(١) لوحة (٨٧ ب).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٠٥)، وقد وهم في رفعه عباد بن كثير كما ذكر المصنف.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم (٨١٥١)، وفيه ليث بن أبي سليم. انظر التعليق السابق.

(٤) رواه مرفوعًا ابن أبي حاتم (٨١٥٠)، والإسناد مداره علي أبي غالب، قال الحافظ: صدوق يخطئ، فالإسناد ضعيف مرفوعًا وموقوفًا.

(٥) ضعيف: رواه الطبراني في «الصغير» (١/ ٣٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٣٧)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ص٢٠٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٤٧)، وفيه مجالد بن سعيد، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وفيه أيضًا بقية، وهو مدلس وقد عنعن.

والظاهر أنَّ الآية عامَّةٌ في كل مَن فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإنَّ الله بعث رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليُظهِرَهُ علىٰ الدِّين كله، وشرعه واحدٌ لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فرقًا كأهل الملل والنحل -وهي الأهواء والضلالات- فالله قد برَّأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [الشورىٰ:١٣]، وفي الحديث: «**نَحْنُ -مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ- أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ**»[(١)].

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل بُرآء منها، كما قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ[(٢)] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧]، ثم بيَّنَ بِنفسِهِ فضله يوم القيامة في حُكْمِهِ وعَدْلِهِ فقال:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

وهذه الآية الكريمة مُفصِّلَةٌ لما أجملَ في الآية الأخرىٰ، وهي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديثُ مطابقةً لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا عفان، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العُطاردي، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ عز وجل رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةٍ، إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً، أَوْ يَمْحُوهَا اللهُ عز وجل، وَلَا يَهْلِكُ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**»[(٣)]. ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجعد بن أبي عثمان به.

وقال [الإمام] أحمد أيضًا: حدَّثنا معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ عز وجل: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ. وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ. وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً. وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[(٤)].

ورواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية به. وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن الأعمش

---

(١) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).

(٢) لوحة (٨٨ أ).

(٣) البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٩).

(٤) مسلم (٢٦٨٧)، وابن ماجة (٣٨٢١)، وأحمد (٥/ ١٨٢).

به. ورواه ابن ماجة، عن علي بن محمَّد الطنافسي، عن وكيع به.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا شَيْبان، حدَّثنا حَمَّاد، حدَّثنا ثابت، عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً [وَاحِدَةً][(١)]»[(٢)].

واعلم أنَّ تارك السَّيِّئَةِ الَّذي لا يعملها علىٰ ثلاثة أقسام: تارةً يتركها لله ﷻ، فهذا تُكْتَبُ له حسنة علىٰ كَفِّهِ[(٣)] عنها لله تعالىٰ، وهذا عملٌ ونيَّةٌ؛ ولهذا جاء أنَّه يُكْتَبُ له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ «الصحيح»: «فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»[(٤)] أي: مِن أَجْلِي. وتارة يتركها نسيانًا وذُهولًا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنَّه لم يَنْوِ خيرًا ولا فَعَلَ شرًّا. وتارة يتركها عجزًا وكسلًا بعد السَّعْيِ في أسبابها والتَّلَبُّس بما يقرب منها، فهذا يتنَزَّل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث في «الصحيحين»: «إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ»[(٥)].

قال الإمام أبو يعلىٰ الموصلي: حدَّثنا مجاهد بن موسىٰ، حدَّثنا علي -وحدَّثنا الحسن بن الصباح وأبو خَيْثَمَة- قالا: حدَّثنا إسحاق بن سليمان، كلاهما عن موسىٰ بن عبيدة، عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس، عن جَدِّه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً، فَإِنْ تَرَكَهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً. يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي»[(٦)].

هذا لفظ حديث مجاهد -يعني ابن موسىٰ.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، حدَّثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن الرُّكَيْن بن الربيع، عن أبيه، عن عمه فلان بن عَمِيلة، عن خُرَيْم بن فاتك الأسدي؛ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ، وَالأَعْمَالُ سِتَّةٌ. فَالنَّاسُ مُوَسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمُوَسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ، وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوَسَّعٌ لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَالأَعْمَالُ مُوجِبَتَانِ، وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ، وَعَشَرَةُ أَضْعَافٍ، وَسَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ؛ فَالمُوجِبَتَانِ مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ وَحَرَصَ عَلَيْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ. وَمَنْ عَمِلَ

---

(١) زيادة من «مسند أبي يعلىٰ». (٢) رواه مسلم (١٦٢)، وأبو يعلىٰ (٣٤٥١).
(٣) لوحة (٨٨ ب). (٤) رواه مسلم (١٢٩).
(٥) البخاري (٣١، ٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأبو داود (٤٢٦٩)، والنسائي (٧/ ١٢٥).
(٦) عزاه لأبي يعلىٰ، وفي إسناده موسىٰ بن عبيدة الربذي: ضعيف، ولكن يشهد لصحة الحديث ما تقدم في الروايات السابقة.

حَسَنَةً كَانَتْ عَلَيْهِ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا. وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ عَجَلَ كَانَتْ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»(١).

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الرُّكَيْن بن الربيع، عن أبيه، عن بشير بن عَمِيلة، عن خُرَيْم بن فاتك به ببعضه. والله أعلم(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو زُرْعَة، حدَّثنا عبيد الله بن عمر القواريري(٣)، حدَّثنا يزيد بن زُرَيْع، حدَّثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّهِ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«يَحْضُرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا بِلَغْوٍ فَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِدُعَاءٍ، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، فَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي قَبْلَهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»**(٤).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا هاشم بن مَرْثَد، حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل، حدَّثني أبي، حدَّثني ضَمْضَم بن زرعة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْجُمُعَةُ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»**(٥).

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»**(٦).

رواه الإمام أحمد -وهذا لفظه- والنسائي، وابن ماجة، والترمذي وزاد: **«فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الْيَوْمُ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ»**، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ.

وقال ابن مسعود: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ من جاء بـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يقول: بالشِّرْكِ(٧).

وهكذا ورد عن جماعة مِن السَّلَفِ. وقد ورد فيه حديث مرفوع - الله أعلم بصحته(٨)، لكني لم أره من وجه يثبت- والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا، وفيما ذكر كفاية إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

---

(١) صحيح: أحمد (٤/ ٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٤٧٣- بتحقيقي).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (١٦٢٥). (٣) لوحة (٨٩ أ).

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٨١٦٧)، وأبو داود (١١١٣).

(٥) ضعيف: لكنه صحيح بدون ذكر الآية. فقد رواه مسلم من حديث أبي هريرة بدون ذكر الآية (٨٥٧)، وأما الرواية المذكورة فهي عند الطبراني (٣/ ٣٤٥٩)، وفيها انقطاع بين شريح وأبي مالك.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٤٥)، والترمذي (٧٦٢)، والنسائي (٤/ ٢١٩)، وابن ماجة (١٧٠٨).

(٧) حسن: رواه ابن أبي حاتم (٨١٦٥). (٨) رواه ابن أبي حاتم (٨١٧٠)، وهو حديث ضعيف فيه انقطاع.

يقول الله تعالىٰ آمرًا نَبِيَّه ﷺ -سيد المرسلين- أَن يخبر بما أنعم الله به عليه مِنَ الهداية إلىٰ صراطه المستقيم، الذي لا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائمًا ثابتًا، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ[1] إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وليس يلزم من كونه ﷺ أُمِرَ باتِّباع ملة إبراهيم الحنيفيَّة أَن يكون إبراهيم أكملَ مِنْهُ فيها؛ لأنه ﷺ قام بها قيامًا عظيمًا، وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلىٰ هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسَيِّدَ ولد آدم علىٰ الإطلاق، وصاحبَ المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتىٰ إبراهيم الخليل ﷺ.

وقد قال ابن مَرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن حَفْص، حدَّثنا أحمد بن عِصام، حدَّثنا أبو داود الطيالسي، حدَّثنا شعبة، أنبأنا سلمة بن كُهَيْل، سمعت ذر بن عبد الله الهَمْدَاني، يحدث عن ابن أَبْزَىٰ، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «**أَصْبَحْنَا عَلَىٰ مِلَّةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ [أَبِينَا][2] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد، أخبرنا محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحبُّ إلىٰ الله؟ قال: «**الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»[4].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: وضع رسول الله ﷺ ذَقْنِي علىٰ مَنْكِبِهِ، لأنظر إلىٰ زَفْن الحبشة[5]، حتىٰ كنت الَّتِي مللت فانصرفت عنه. قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «**لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[6].

أصل الحديث مُخَرَّجٌ في «الصحيحين»، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يأمره -تعالىٰ- أن يخبر

---

(١) لوحة (٨٩ ب). (٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: أحمد (٣/ ٤٠٦)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٣).

(٤) حسنه الألباني: رواه أحمد (١/ ٢٣٦). انظر: «صحيح الجامع» (١٥٨) «والسلسلة الصحيحة» (٨٨١)، وكذلك (١٨٢٩).

(٥) أي: لعبهم.

(٦) أحمد (٦/ ١١٦)، وأصله في «الصحيحين» كما قال الحافظ ابن كثير. انظر: البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٨٢٩).

المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنَّه مخالفٌ لهم في ذلك، فإنَّ صلاته لله ونُسُكَهُ علىٰ اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذَبِيحَتَكَ، فإنَّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله -تعالىٰ- بمُخَالَفَتِهِم والانحراف عمَّا هم[(١)] فيه، والإقبال بالقصد والنيَّة، والعزم علىٰ الإخلاص لله تعالىٰ.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: النُّسك: الذَّبح في الحجِّ والعمرة.

وقال الثوري، عن السُّدِّي، عن سعيد بن جُبَيْر: ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: ذبحي. وكذا قال السُّدِّي والضَّحَّاك.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمَّد بن عَوْف، حدَّثنا أحمد بن خالد الوَهْبِي[(٢)]، حدَّثنا محمَّد بن إسحاق، عن زيد بن أبي حبيب، عن [أبي عيَّاش][(٣)]، عن جابر بن عبد الله قال: ضَحَّىٰ رسول الله ﷺ في يوم عيدٍ بِكَبْشَيْنِ، وقال حين ذبحهما: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾»[(٤)].

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي: من هذه الأمة.

وهو كما قال؛ فإن جميع الأنبياء قبله -كلهم- كانت دَعْوَتُهُم إلىٰ الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالىٰ عن نوح أنَّه قال لقومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ -١٣٢]، وقال يوسف ﵇: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤ -٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر الله تعالىٰ أنَّه بعث رُسُلَهُ بالإسلام، ولكنهم مُتفاوِتُون فيه بحسب شرائعهم الخاصَّة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلىٰ أن نُسِخَت بشريعة محمَّدٍ ﷺ التي لا تُنْسَخُ أبَدَ الآبِدين، ولا تزال قائمةً منصورةً،

---

(١) لوحة (٩٠ أ). (٢) في (ز) الذهبي. (٣) في (ز): (أبي عباس)، وهو خطأ.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٨١٨٣)، ورواه أبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجة (٣١٢١)، وفيه محمَّد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، وأبو عياش المعافري: مجهول، وللحديث ألفاظٌ أخرىٰ فيها ذكر التسمية والتكبير عند الذبح دون الآية، وهي ألفاظ صحيحة. انظر: «الإرواء» رقم (٥٢٨).

وأعلامها مشهورة إلىٰ قيام الساعة؛ ولهذا قال[١] عليه الصلاة والسلام: «نَحْنُ -مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ- أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ»[٢] فإن أولاد العَلَّات هم الأخوة من أبٍ واحدٍ وأمهات شَتَّىٰ، فالدِّين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوَّعَتِ الشرائع التي هي بمنزلة الأُمَّهات، كما أنَّ إخوة الأخياف عكس هذا، بنو الأم الواحدة مِن آباءٍ شتىٰ، والأخوة الأعيان الأشقاء من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد، حدَّثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشُون، حدَّثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن الأعرج، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: «﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ. وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ. تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ».

ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد. وقد رواه مسلم في «صحيحه»[٣].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أطلب ربًّا سواه، و[﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾][٤]، يُرَبِّني ويحفظني ويَكْلَؤُني ويُدَبِّر أمري؛ أي: لا أتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا أُنِيبُ إلَّا إليه؛ لأنَّه ربُّ كل شيءٍ ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص العبادة والتَّوكُّل، كما تَضَمَّنَت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنىٰ يُقْرَنُ بالآخر كثيرًا في القرآن، كما قال تعالىٰ مرشدًا لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ إخبارٌ عَن الواقع يوم القيامةِ في[٥] جزاء الله تعالىٰ وحُكْمِهِ وعَدْلِهِ، أنَّ النفوس إنَّما تجازىٰ بأعمالها إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وأنَّه لا

---

(١) لوحة (٩٠ ب). (٢) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأحمد (٢/ ٣١٩).

(٣) مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٤٤) (٧٦، ١٥٠٩)، والترمذي (٢٦٦، ٣٤١٨)، والنسائي (٢/ ١٢٩)، وابن ماجة (٨٦٤) (١٠٥٤).

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (٩١ أ).

يحمل من خطيئة أحدٍ على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: فلا يظلم بأَنْ يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن يُنْقصَ من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كلُّ نفسٍ مُرْتَهَنَةٌ بعملها السَّيِّئ إلَّا أصحاب اليمين، فإنَّه قد تعود بركات أعمالهم الصَّالحة على ذَرارِيهم، [كما قال في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾][1] بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ [ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، أي: ألحقنا بهم][2] ذُرِّيَّاتهم في المنزلة الرفيعة في الجنَّة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: أنقصنا أولئك السَّادة الرُّفَعَاء مِن أعمالهم شيئًا حتىٰ سَاوَيْنَاهُم وهؤلاء الَّذِين هم أَنْقَصُ منهم منزلةً، بل رَفَعَهُم -تعالىٰ- إلىٰ منازل الآباءِ بِبَرَكةِ أَعْمَالِهم بفضله ومِنَّتِه، ثم قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، أي: من شر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا علىٰ مكانتكم إنَّا عاملون علىٰ ما نحن عليه، فَسَتُعْرَضُون ونُعْرَضُ عليه، ويُنَبِّئُنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنَّا نختلف فيه في الدَّار الدُّنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلًا بعد جيل، وقَرْنًا بعد قرن، وخَلَفًا بعد سَلَف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]، [وكقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]،][3] وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فَاوتَ بَيْنَكُم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمَسَاوِي، والمَنَاظِرِ والأَشْكَالِ والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: لِيَخْتَبِرَكُم في الَّذي أنعم به عليكم وامْتَحَنكُم به، لِيَخْتَبِرَ الغنيَّ في غِناه، ويسأله عن شُكْرِهِ، والفقيرَ في فقره، ويسأله عن صبره.

وقد روىٰ مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخدري[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَة وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفَكُمْ فِيهَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[٣] ترهيبٌ وترغيبٌ، أنَّ حسابه وعقابه سريع ممَّن عصاه وخالف رُسُلَه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاهُ واتَّبع رسله فيمَا جاءُوا به مِن خيرٍ وطَلَب.

وقال محمَّد بن إسحاق: يَرْحَمُ العباد علىٰ ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم.

وكثيرًا ما يقرن -تعالىٰ- في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وغير ذلك مِن الآيات المشتملة علىٰ التَّرْغيب والتَّرهيب، فتارةً يدعو عبادَهُ إليه بالرَّغْبَة وصفة الجنَّة والتَّرْغيب فيما لديه، وتارةً يدعوهم إليه بالرَّهْبَةِ وذكر النَّار وأَنْكالِهَا وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارةً بهذا وبهذا لِيَنْجَع في كُلٍّ بحَسَبِه.

جَعَلَنا الله ممَّن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهىٰ وزَجَر، وصَدَّقَه فيما أخبر، إنه قريبٌ مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا زُهَيْر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِالْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ، خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ**»[٤].

ورواه الترمذي، عن قُتَيْبَة، عن عبد العزيز الدَّراوَرْدي، عن العلاء به. وقال: حسن صحيح.

ورواه مسلم عن يحيىٰ بن يحيىٰ وقتيبة وعلي بن حُجْر، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء.

آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمِنَّة.

---

(١) لوحة (٩١ ب).

(٢) مسلم (٢٧٤٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٢٦٩)، وأحمد (٣/ ٢٢، ٤٠، ٦٨).

(٣) قال القاسمي رحمه الله: قال القاضي: وصف العقاب ولم يضفه إلىٰ نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة، وأتىٰ ببناء المبالغة واللام المبالغة واللام المؤكدة؛ تنبيهًا علىٰ أنه تعالى غفور بالذات، معاقب بالعرض، كثير الرحمة مبالغ فيها، قليل العقوبة مسامح فيها.

(٤) مسلم (٢٧٥٥)، والترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، وأحمد (٢/ ٤٨٤)، ورواه البخاري نحوه (٦٤٦٩).

سُورَةُ الأَعْرَافِ

تفسير سورة الأعراف وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلام في أوَّل «سورة البقرة» علىٰ ما يتعلَّق بالحروف وبسطه، واختلاف النَّاس فيه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا سفيان [(١)] بن وَكيع، حدَّثنا أبي، عن شَريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضُّحَىٰ، عن ابن عبَّاس: ﴿الٓمٓصٓ﴾: أنا الله أَفْصِلُ [(٢)]، وكذا قال سعيد بن جُبَير.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك؛ أي: مِن ربِّك ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة والسُّدِّي: شَكٌّ منه. وقيل: لا تتحرَّج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم مِنَ الرُّسل؛ ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: أنزل إليك لتُنْذِرَ به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالىٰ مخاطبًا للعالَم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذي جاءكم بكتابٍ أُنْزِل من ربِّ كلِّ شيءٍ ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تخرجوا عمَّا جاءكم به الرَّسول إلىٰ غيره، فتكونُوا قد عدلتم عن حكم الله إلىٰ حكم غيره.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: بمخالفةِ رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزْيُ الدُّنيا موصولًا بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا

---

(١) لوحة (٩٢/ أ).

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١١٥)، وفيه شريك بن عبد الله: سَيِّئُ الحفظ.

كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: فكان منهم مَن جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القَيْلُولَة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوَقْتَيْن وقت غَفْلةٍ ولَهْوٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقال: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وقوله: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي: فما كان[١] قولهم عند مَجيءِ العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنّهم حَقِيقُون[٢] بهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

وقال ابن جرير: في هذه الآية الدَّلالة الواضحة[٣] علىٰ صحَّة ما جاءت به الرِّواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، حدَّثنا بذلك ابن حُمَيْد، حدَّثنا جرير، عن أبي سِنان، عن عبد الملك بن مَيْسَرة الزرّاد قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[٤].

وقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [كقوله تعالىٰ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]][٥] وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] فالرَّبُّ تبارك وتعالىٰ يوم القيامة يسأل الأُمَم عما أجابوا رسله فيما

---

(١) في (ز): «فكما كان»، والمثبت من (ح).

(٢) لوحة (٩٢/ ب).

(٣) في (ز): «الدالة»، وفي (ح): «دلالة واضحة»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) حسن لغيره: رواه ابن جرير (٨/ ١٢٠)، وفيه محمَّد بن حميد الرازي: حافظ لكنَّه ضَعِيفٌ وكان ابن معين حسن الرأي فيه كما في «التقريب». وإسناده منقطع، فإنَّ عبد الملك لم يُدرِك ابن مسعود، وله شاهدٌ صحيحٌ رواه أبو داود (٤٢٤٧)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح سُنَنِ أبي داود».

(٥) ليست في (ز).

أرسلهم به، ويسأل الرُّسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: [يسأل الله النَّاس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المُرْسَلين](١) عما بلغوا.

وقال ابن مَرْدويه: حدَّثنا محمَّد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا إبراهيم بن محمَّد بن الحسن، حدَّثنا أبو سعيد الكِنْدي، حدَّثنا المحاربي، عن لَيْث، عن نافع، عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ يُسْأَلُ عَنِ الرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ، وَالمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَالعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ». قال اللَّيث: وحدَّثني ابن طاوس مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وهذا الحديث مُخرَّجٌ في «الصَّحيحين»(٢) بدون هذِه الزِّيادة(٣).

وقال ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: يُوضَع الكتاب يوم القِيامَة، فيتكلَّم بما كانوا يَعْمَلُون(٤)؛ يعني: أنَّه تعالىٰ يُخْبِر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عَمِلُوا، مِن قليلٍ وكثيرٍ، وجليلٍ وحَقِيرٍ؛ لأنَّه تعالىٰ شهيدٌ علىٰ كلِّ شيءٍ، لا يَغِيبُ عنه شيءٌ، ولا يغفل عن شيءٍ، بل هو العَالِم بخائنَة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي(٥) كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⁽٨⁾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ⁽٩⁾﴾

يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالىٰ أحدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ⁽٦⁾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⁽٧⁾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ⁽٨⁾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ⁽٩⁾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ⁽١٠⁾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ⁽١٠١⁾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⁽١٠٢⁾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) البخاري (٨٩٣)، ومسلم (٨٢٩)، والترمذي (١٥٠٧).

(٣) وهذه الزِّيادة صحيحة عن ابن طاوس: رواها ابن أبي حاتم (٨٢١٧).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٦٤).

(٥) لوحة (٩٣/ أ).

فصل

والَّذِي يُوضَع في الميزان يوم القيامة قيل: الأَعْمَال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله تعالىٰ يَقْلِبُها يوم القيامة أجسامًا. قال البغوي: يروىٰ [نحو][١] هذا عن ابن عبَّاس كما جاءَ في «الصَّحيح» من أنَّ «البقرة» و«آل عمران» يَأْتِيَان يوم القيامة كأنَّهما غمَامتَان -أو: غيَايَتان- أو فِرْقَان مِن طيرٍ صَوَافَّ[٢]. كذلك[٣] في «الصحيح»[٤] قصَّة القرآن وأنَّه يأتِي صاحبه [يومَ القيامة][٥] في صورة شابٍّ شاحب اللَّون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنَا القرآن[٦] الَّذي أسهرتُ ليلك وأَظْمَأْتُ نهارك[٧]. وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: «فَيَأْتِي المُؤْمِنَ شَابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ» وذكر عكسه في شأن الكافِر والمنافق[٨].

وقيل: يُوزَن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البِطَاقة، في الرَّجل الذي يؤتىٰ به ويوضع له في كِفَّةٍ تسعةٌ وتسعون سِجِلًّا كل سِجِلٍّ مَدَّ البصر، ثم يؤتىٰ بتلك البطاقة فيها: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلَّات؟ فيقول الله تعالىٰ: «إِنَّك لا تُظلَم». فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ»[٩]. رواه التِّرمذي بنحوٍ مِن هذا وصحَّحه.

وقيل: يُوزَن صاحب العمل، كما في الحديث: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ، فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][١٠].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال[١١]: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[١٢].

وقد يُمْكِنُ الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارةً توزن الأعمال، وتارةً توزن محالها، وتارةً يوزن فاعلها، والله أعلم[١٣].

---

(١) زيادة من (ح).

(٢) انظر أوَّل سورة البقرة: ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران. (٣) في (ز): «لذلك».

(٤) قال هاني الحاج في «التحبير»: (هذا الحديث ليس في الصحيح، وهو حديث ضعيف، ضعفه الشيخ الألباني في «العقيدة الطحاوية») أهـ. انظر «التحبير للأوهام والتنبيهات الواردة في تفسير ابن كثير» (ص٥٢).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) فالَّذي يتشكَّل يوم القيامة إنَّما هو ثواب العمل -ثواب قراءة القرآن-؛ لا القرآن ، فالقرآن كلام الله، صفةٌ من صفاته، غير مخلوق. ينظر: «شرح الرد علىٰ الزنادقة والجهمية» للشيخ/ عبد العزيز الراجحي.

(٧) انظر أوَّل سورة البقرة: ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران.

(٨) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨).

(٩) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩) وصححه، وابن ماجة (٤٣٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(١٠) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥). (١١) لوحة (٩٣/ ب).

(١٢) صحيح لغيره: رواه أحمد (١/ ٤٢٠) بإسناد حسن، وله شاهد من حديث علي: رواه أحمد (١/ ١١٤) بإسناد حسن أيضًا، وله شواهد أخرىٰ، انظر: «إرواء الغليل» (٦٥).

(١٣) قال الشيخ العثيمين رحمه الله: وجَمَعَ بعض العلماء بين هذه النُّصوص بأنَّ الجميع يوزن، أو أنَّ الوزن حقيقةٌ =

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ عبيده فيما مكَّن لهم مِن أنه جَعَل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح لهم منافعها، وسَخَّر لهم السَّحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش؛ أي: مكاسب وأسبابًا يَتَّجِرُون فيها، ويَتَسَبَّبُون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشُّكر علىٰ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقد قرأ الجميع: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج فإنَّه همزها[(١)]. والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز؛ لأنَّ معايش جمع معيشةٍ، مِن عاش يعيش عيشًا، ومعيشة أصلها «مَعْيِشَة» فاستثقلت الكسرة علىٰ الياء، [فنقلت][(٢)] إلىٰ العين فصارت مَعِيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلىٰ الياء لزوال الاستثقال، فقيل: مَعَايِش. ووزنه مفاعل؛ لأنَّ الياء أصليَّةٌ في الكلمة. بخلاف: مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة، من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع علىٰ فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾

يُنَبِّه تعالىٰ بني آدم في هذا المقام[(٣)] علىٰ شرف أبيهم آدَمَ، ويُبَيِّن لهم [عداوة][(٤)] عدوهم إبليس، وما هو مُنْطوٍ عليه مِن الحسد لهم ولأَبِيهم آدم؛ ليحذروه ولا يَتَّبِعُوا طرائقه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا﴾ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، وذلك أنَّه تعالىٰ لما خلق آدم عليه السلام بيَدِه مِن طينٍ لازبٍ، وصوَّره بشرًا [سويًّا][(٥)] ونفخ فيه مِن روحه، وأمر الملائكة بالسُّجود له تعظيمًا لشأن الرَّبِّ تعالىٰ وجلاله، فسَمِعُوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن مِن السَّاجدين. وقد تقدَّم الكلام علىٰ إبليس في أوَّل تفسير «سورة البقرة» وهذا الَّذِي قرَّرناه هو اختيار ابن جرير: أنَّ المراد بذلك كله آدم عليه السلام.

وقال سفيان الثَّوري، عن الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو[(٦)]، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَقَدْ

= للصَّحائف، وحيث إنَّها تثقل وتخف بحسب الأعمال المكتوبة صار الوَزْن كأنَّه للأعمال، وأمَّا وزن صاحب العمل فالمراد به: قدرُهُ وحرمته، وهذا جمعٌ حسنٌ، والله أعلم.اهـ. من شرحه علىٰ «لمعة الاعتقاد» (٣٩).

(١) قراءة: قَرَأَ (مَعَائِشَ) الْأَعْرَجُ وَخَارِجَةُ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مَعَايِشَ).

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز). (٦) لوحة (٩٤/ أ).

خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ قال: خُلِقوا في أصلاب الرجال، وصُوِّروا في أرحام النِّساء[١]. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشَّيخين، ولم يُخرِّجاه. ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا: أنَّ المراد بخلقناكم ثم صوَّرناكم: الذُّرِّيَّة. وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّي، وقتادة، والضَّحَّاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صوَّرنا الذُّرِّيَّة. وهذا فيه نظر؛ لأنَّه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فدلَّ على أن المراد بذلك آدم، وإنَّما قيل ذلك بالجمع؛ لأنَّه أبو البَشَر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الَّذين كانوا في زمن الرَّسول ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: آباؤهم الَّذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار به كأنَّه واقعٌ على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ [ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣] فإنَّ المراد منه آدم المخلوق من السُّلالة][٢]، وذُرِّيَّته مخلوقون من نطفة، وصحَّ هذا لأنَّ المراد من خلقنا الإنسان الجِنْس، لا مُعيَّنًا، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

قال بعض النُّحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا هاهنا زائدة. وقال بعضهم: زِيدَت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

«مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ»

فأدخل «إن» وهي للنَّفي، على «ما» النَّافية؛ لتأكيد النَّفي، قالوا: وكذلك هاهنا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مع تقدُّم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حكاهما ابن جرير وردهما، واختار أن ﴿مَنَعَكَ﴾ تضمَّن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أَمَرْتُك، ونحو ذلك. وهذا القول قويٌّ حسنٌ، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العُذْر الذي هو أَكْبَر من الذَّنب[٣]، كأنَّه امتنع من الطَّاعة؛ لأنَّه لا يؤمر الفاضل بالسُّجود للمفضول؛ يعني: لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسُّجود له؟ ثم بيَّن أنَّه خير منه بأنَّه خُلِقَ مِن نار، والنَّار أشرف مما خلقته منه، وهو الطِّين، فنظر اللَّعين إلى أصل العُنْصر، ولم ينظر إلى التَّشريف العظيم، وهو أنَّ الله تعالى خلق آدم بِيَدِه، ونفخ فيه مِن روحه، وقاسَ قياسًا فاسدًا[٤] في مقابلة نَصٍّ[٥] قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢]، فشذَّ مِن بين الملائكة بتَرْك السُّجود؛ فلهذا أَبْلَس

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٣١٩)، وابن أبي حاتم (٨٢٣٢) (٨٢٣٤)، وإسناده صحيح.

(٢) ليست في (ز).

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ بمجرَّدِها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنَّه برْهَن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبُّرِه، والقول على الله بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟.

(٤) لوحة (٩٤/ ب).

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: حُجَّة إبليس في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ هي =

من الرَّحمة؛ أي: أَيِسَ من الرَّحمة، فأخطأ قبَّحه اللهُ في قياسه ودعواه أنَّ النَّار أشرف من الطِّين أيضًا، فإنَّ الطِّين من شأنه الرَّزانة والحلم والأَنَاة والتَّثبُّت، والطِّين محل النَّبات والنُّمو والزِّيادة والإصلاح، والنَّار من شأنها الإحراق والطَّيش والسُّرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التَّوبة والمغفرة.

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ [مَارِجٍ مِنْ]**[(١)] **نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» هكذا رواه مسلم[(٢)].

وقال ابن مَرْدوَيه: حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا إسماعيل بن[(٣)] عبد الله بن مسعود، حدَّثنا نُعَيم ابن حماد، حدَّثنا عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ المَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ العَرْشِ، وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ**». قلتُ لنعيم بن حماد: أين سمعتَ هذا من عبد الرزَّاق؟ قال: باليمن[(٤)] وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير «الصحيح»: «**وَخُلِقَتِ الحُورُ العِينُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ**»[(٥)].

= باطلةٌ؛ لأنَّه عارَضَ النَّصَّ بالقياسِ. ولهذا قال بعضُ السَّلف: أوَّل من قاس إبليس وما عُبِدَت الشَّمسُ والقمرُ إلَّا بالمَقايِيسِ. ويظهرُ فسادُهَا بالعقلِ مِنْ وُجُوهٍ خَمْسَةٍ. أَحَدُهَا: أَنَّهُ ادَّعَىٰ أَنَّ النَّار خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ وَهَذَا قَدْ يُمْنَعُ، فَإِنَّ الطِّينَ فِيهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالِاسْتِقْرَارُ وَالثَّبَاتُ وَالْإِمْسَاكُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَفِي النَّار الْخِفَّةُ وَالْحِدَّةُ وَالطَّيْشُ، وَالطِّينُ فِيهِ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ. الثَّانِي: أَنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَّار خَيْرًا مِنْ الطِّينِ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مِنْ الْأَفْضَلِ أَفْضَلَ، فَإِنَّ الْفَرْعَ قَدْ يُخْتَصُّ بِمَا لَا يَكُونُ فِي أَصْلِهِ وَهَذَا التُّرَابُ يُخْلَقُ مِنْهُ مِنْ الْحَيَوَانِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَالِاحْتِجَاجُ عَلَىٰ فَضْلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِفَضْلِ أَصْلِهِ عَلَىٰ أَصْلِهِ حُجَّةٌ فَاسِدَةٌ احْتَجَّ بِهَا إبْلِيسُ وَهِيَ حُجَّةُ الَّذِينَ يَفْخَرُونَ بِأَنْسَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَصَّرَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَبْلُغْ بِهِ نَسَبُهُ». الثَّالِثُ: أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ طِينٍ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ فِيهِ مَا شُرِّفَ بِهِ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ فَعَلَّقَ السُّجُودَ بِأَنْ يَنْفُخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ فَالْمُوجِبُ لِلتَّفْضِيلِ هَذَا الْمَعْنَىٰ الشَّرِيفُ الَّذِي لَيْسَ لإبليس مِثْلُهُ. الرَّابِعُ: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بِيَدَيْ اللهِ تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وَهُوَ كَالْأَثَرِ الْمَرْوِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فِي تَفْضِيلِهِ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ حَيْثُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ قَدْ خَلَقْت لِبَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ وَيَنْكِحُونَ؛ فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ كَمَا جَعَلْت لَهُمْ الدُّنْيَا فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ. ثُمَّ أَعَادُوا. فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَعَادُوا فَقَالَ: وَعِزَّتِي لَا أَجْعَلُ صَالِحَ مَنْ خَلَقْت بِيَدَيَّ كَمَنْ قُلْت لَهُ: كُنْ فَكَانَ». الْخَامِسُ: أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ أَفْضَلَ فَقَدْ يُقَالُ: إكْرَامُ الْأَفْضَلِ لِلْمَفْضُولِ لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ «الفتاوىٰ» (١٥/ ٥).

(١) زيادة من (ح). (٢) مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣)، وابن حبان (٦١٥٥).

(٣) في (ز): (إسماعيل عن عبد الله بن مسعود)، والمثبت هو الصواب، وهو: إسماعيل بن عبد الله بن مسعود العبدي الأصبهاني الحافظ المعروف بـ(سَمُّويه) (ت ٢٦٧ هـ).

(٤) شاذٌّ بهذا اللفظ: عزاه لابن مردويه من طريق نعيم بن حماد ولا يعتمد تفرده. والمشهور من رواية الثقات: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**» دون تحديد أنَّ هذا النُّور نور العرش.

(٥) ضعيف: رواه أبو نعيم في «صفة الجنَّة» (٣٧٣)، والطبراني في «الكبير» (٧٧١٩) من حديث أبي أمامة، وإسناده موضوع، قال ابن حبان: (وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن زيد والقاسم أبو عبد الرحمن لا يكون متن ذلك الخبر إلا مما عملت أيديهم). «المجروحين ٢/ ٦٣».

ورواه أبو نعيم (٣٨٤) من حديث أنس، وفيه الحارث بن خليفة: مجهول: «الميزان» (١/ ٤٣٣).

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا محمَّد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الورَّاق، عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أوَّل مَن قاس. إسناده صحيح[١]. وقال: حدَّثني عمرو بن مالك، حدثني يحيىٰ بن سليم[٢] الطائفي عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسنادٌ صحيحٌ أيضًا.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لإبليس بأمرٍ قدريٍّ كوني: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: بسبب عِصْيَانِك لأمري، وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبَّر فيها.

قال كثيرٌ من المفسِّرين: الضمير عائدٌ علىٰ الجنَّة، ويحتمل أن يكون عائدًا علىٰ المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلىٰ.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الذَّليلين الحَقِيرين، معاملةً له بنقيض قصده، ومكافأةً لمراده بضِدِّه، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل[٣] النَّظرة إلىٰ يوم الدِّين، قال: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالىٰ إلىٰ ما سأل؛ لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالَف ولا تُمانَع، ولا مُعقِّبَ لحكمه، وهو سَرِيعُ الحساب.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه لما أنْظَر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعانَدَة والتَّمرُّد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني.

قال ابن عبَّاس: كما أَضْلَلْتَنِي. وقال غيره: كما أَهْلَكْتَنِي لأقعدن لعبادك -الذين تخلُقهم من ذُرِّيَّة هذا الذي أبعدتني بسببه- علىٰ ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحَقِّ وسبيل النَّجاة، ولأضلَّنَّهم عنها؛ لئلَّا يعبدوك ولا يوحِّدُوك بسبب إضلالك إيَّاي.

وقال بعض النُّحاة: الباء هاهنا قسميَّة، كأنَّه يقول: فبِإغوَائِك إيَّاي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

[قال مجاهد: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾][٤] يعني: الحق. وقال محمَّد بن سوقة، عن عون بن عبد الله:

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحَمَهُ اللَّهُ: فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم حتىٰ يفتنكم إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحَذَرَ منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمَةَ الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

(٢) في (ز): «بن سليمان»، وهو خطأ.

(٣) لوحة (٩٥/ أ). (٤) زيادة من (ح).

يعني طريق مكة. قال ابن جرير: والصَّحيح: أنَّ الصِّراط المستقيم أعم مِن ذلك [كله][١].

قلت: لما روىٰ الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، حدَّثنا أبو عَقِيل -يعني: الثقفي عبد الله بن عقيل- حدَّثنا موسىٰ بن المسيب، أخبرني سالم بن أبي الجَعْد، عن سَبْرَة بن أبي فَاكِه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟». قال: «فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ». قال: «وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَالفَرَسِ فِي الطِّوَلِ[٢]؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَالِ، فَقَالَ: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ المَالُ؟». قال: «فَعَصَاهُ، فَجَاهَدَ». قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّة، [أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّة، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّة][٣] أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنَّة»[٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يقول: أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: أُرَغِّبُهُم في دنياهم، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: أُشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾[٥]: أُشَهِّي لهم المعاصي.

وقال علي بن أبي طلحة -في رواية- والعَوْفي، كلاهما عن ابن عبَّاس: أما ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فمِنْ قِبَلِ دنياهم، وأما ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: فأَمْرُ آخرتهم، وأما ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: فمن قِبَل حسنَاتِهم، وأما ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: فمِنْ قِبَل سيِّئاتهم[٦].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بَعْثَ ولا جنَّة ولا نار، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من أمر الدنيا فزيَّنها[٧] لهم ودعاهم إليها، و﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من قِبَل حسناتهم بَطَّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ زيَّن لهم السَّيِّئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأَمَرَهُم بها. آتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنَّه لم يأتك مِن فوقك، [لَم يستطع][٨] أَن يحُول بَيْنَك وبين رَحْمَةِ الله.

وكذا رُوي عن إبراهيم النَّخعي، والحكم بن عتيبة، والسُّدِّي، وابن جرير إلا، أنهم قالوا: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: الدُّنيا، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: الآخرة.

---

(١) زيادة من (ح)، وهذا مما يقال فيه: اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. راجع: «مقدمة أصول التفسير» لابن تيمية، ومقدمة «تفسير ابن كثير».
(٢) الطِّوَل: الحبل. (٣) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».
(٤) حسن: أحمد (٣/ ٤٨٢)، والنسائي (٦/ ٢١)، ورجاله ثقات. عدا موسىٰ بن المسيب فصدوق؛ لذا فالإسناد حسن.
(٥) لوحة (٩٥/ ب). (٦) الطبري (٨/ ١٣٦).
(٧) في (ز): «وزينتها»، والمثبت موافق لما في «الطبري» وقد تُوَجَّه بأنها جملة حال، فتكون منفيةً تبعًا لصاحبها.
(٨) في (ز): «يستطيع»، والمثبت موافق لما في «تفسير الطبري».

وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن أيمانهم»: حيث يُبْصِرُون، «[ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون][(١)].

واختار ابن جرير أنَّ المراد: جميع طرق الخير والشَّرِّ، فالخير يصُدُّهم عنه، والشَّرُّ يُحببه لهم.

وقال الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ ولم يَقُلْ: مِن فوقهم؛ لأنَّ الرَّحمة تنزل مِن فوقهم[(٢)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ قال: مُوَحِّدِين.

وقول إبليس هذا إنَّما هو ظنٌّ منه وتوهُّم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد في الحديث [الاستعاذة][(٣)] مِن تَسلُّط الشَّيطان علىٰ الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدَّثنا نَصْر بن علي، حدَّثنا عمرو بن مجمع، عن يونس بن خَبَّاب، عن ابن جُبَيْر بن مُطْعِم -يعني: نافع بن جبير- عن ابن عبَّاس. وحدَّثنا عمر بن الخطاب -يعني: السجستاني- حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أُنَيْسَةَ، عن يونس بن خباب، عن ابن جبير بن مطعم، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ**[(٤)] **وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»[(٥)]. تفرَّد به البزَّار وحسَّنه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيعٌ، حدَّثنا عبادة بن مسلم الفَزَارِي[(٦)]، حدَّثني [جُبير][(٧)] بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدعُ هؤلاء الدَّعوات حين يصبح وحين يمسي: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ**

---

(١) ليست في (ز).

(٢) حسن لغيره: الطبري (٨/ ١٣٧)، وإسناده ضعيف، فيه حفص بن عمر الراوي عن الحكم بن أبان: ضعيف، لكنه توبع، فقد رواه اللالكائي (٣/ ٦٦١) من طريق إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه، وإبراهيم هذا ضعيف، وبالجملة فالإسناد يتقوىٰ ليرقىٰ إلىٰ التحسين.

(٣) ليست في (ز). (٤) لوحة (٩٦/ أ).

(٥) صحيح: رواية ابن عبَّاس عزاها المصنف للبزار في «مسنده»، ولم أقف عليها، ورواه الطبراني في «الدعاء» (١٢٩٧)، وفيه يونس بن خباب: ضعيف، لكن الرواية الأخرىٰ الآتية عن ابن عمر صحيحة الإسناد. رواها أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجة (٣٨٧١)، والنسائي (٨/ ٢٨٢)، والحاكم (١/ ٥١٧)، وابن حبان.

(٦) في (ز): (ثنا وكيع بن عبادة بن مسلم الفزاري)، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب وهو موافق لما في «المسند».

(٧) سقط من (ز)، وفي (ح): «جرير»، والمثبت هو الصواب.

يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي». قال وكيع: يعني الخسف[١].

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حِبَّان، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أَكَّد تعالىٰ اللَّعنة والطرد والإبعاد والنَّفي عن محل الملأ الأعلىٰ بقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

قال ابن جرير: أما «المَذْءُوم» فهو المعيب، والذَّأم -غير مشدَّد-: العيب. يقال: «ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمْته أذيمه ذيما وذامًا، والذَّام والذَّيم أبلغ في العيب من الذَّمِّ».

قال: «والمدحور»: المُقْصَىٰ. وهو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المَذْءُوم» و«المَذْمُوم» إلا واحدًا.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التَّميمي، عن ابن عبَّاس: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قال: مقيتًا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: صغيرًا مقيتًا. وقال السُّدِّي: مقيتًا مطرودًا. وقال قتادة: لعينًا مقيتًا. وقال مجاهد: منفيًّا مطرودًا. وقال الربيع بن أنس: مذءومًا: منفيًّا، والمدحور: المصغر.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا[٢] تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

يذْكر تعالىٰ أنَّه أباح لآدم عليه السلام ولِزَوْجَتِه [حواء][٣] الجنَّة، أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدَّم الكلامُ علىٰ ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشَّيطان، وسعىٰ في المكر والخديعة والوَسْوَسَة ليُسْلبَا ما هما فيه من النِّعمة واللِّباس الحَسَن، ﴿وَقَالَ﴾ كذبًا وافتراءً: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ﴾ أكل ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، أي: [لئلا تكونا مَلَكَيْن][٤]، كقوله: ﴿قَالَ

---

(١) صحيح: انظر التعليق السابق.
(٢) لوحة (٩٦/ ب).
(٣) ليست في (ز).
(٤) ما بين المعقوفتين ليس في (ز).

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، [وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾][1] أي: لئلا تكونا مَلَكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تَضِلُّوا، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لئلا تميد بكم.

وكان ابن عبَّاس ويحيىٰ بن [أبي][2] كثيرٍ يقرآن: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللَّام[3]. وقراءة[4] الجمهور بفتحها[5].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾: فإنِّي من قَبْلكما هاهنا، وأَعْلَم بهذا المكان، وهذا مِن باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبي ذؤيب:

وَقَاسَمَهَا بِاللهِ جَهْدًا لأَنْتُمُ ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَىٰ [إِذْ][6] مَا نَشُورُهَا[7]

أي: حَلَفَ لهما بالله علىٰ ذلك، وقال قتادة في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾: فحلف لهُمَا بالله حتَّىٰ خدعهما -وقد يخدع المؤمن بالله- فقال: إنِّي خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتَّبِعَاني أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «مَنْ خَادَعَنَا بالله خُدِعْنَا لَهُ»[8].

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[9]

قال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان آدم رجلًا طُوَالًا كأنَّه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرَّأس. فلمَّا وقع بما وقع به من الخَطِيئَة، بَدَتْ له عورته عند ذلك، وكان لا يراها. فانطلق هاربًا في الجنَّة فتعلَّقت برَأسِه شجرة مِن شجر الجنَّة، فقال لها: أَرْسِلِينِي. فقالت: إنِّي غير مُرْسِلَتُك. قال لها: أرسليني. قالت: إنِّي غير مُرْسِلَتِك. فناداه ربه عز وجل: «يا آدمُ، أَمِنِّي

---

(١) ليست في (ز)، وزدناها للسياق. (٢) ليست في (ز)، والصواب إثباتها.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٤٠)، وفيه عبد الرحمن بن أبي حاتم: مجهول الحال.

(٤) في (ز): (وقرأه).

(٥) قراءة: قَرَأَ (مَلِكَيْنِ) الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَيَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ حَكِيمٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (مَلَكَيْنِ).

(٦) سقط من (ز).

(٧) السلوىٰ: العسل، ونشورها: نأخذها، والشور: أخذ العسل.

(٨) رواه ابن سعد في «الطبقات»: (٤/ ١٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٤) عن ابن عمر موقوفًا عليه.

(٩) قال السعدي رحمه الله: وإبليس مستمر علىٰ طغيانه غير مقلع عن عصيانه فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه، ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بُعْدًا.

تَفِرُّ؟» قال: رَبِّ إنِّي استحْيَيْتُك.

وقد رواه ابن جرير، وابن مَرْدويه من طُرُق، عن الحسن، عن أبيِّ بن كعب، عن النَّبيِّ ﷺ، والموقوف أصحُّ إسنادًا[١].

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كانت الشَّجرة التي نهىٰ الله[٢] عنها آدم وزوجته، السُّنبلة، فلمَّا أكلا منها بَدَتْ لهما سوآتهما، وكان الذي وارىٰ عنهما مِن سوآتهما أظفارهما[٣]، وطَفِقَا يخصفان عليهما مِن وَرَق الجنَّة وَرَقَ التِّين، يلزقان بعضَهُ إلىٰ بعض، فانطلق آدم ﵇ مُوَلِّيًا في الجنَّة، فعَلَقَت برأسه شجرةٌ منَ الجنَّة، فناداه: «يَا آدَمُ، أَمِنِّي تَفِرُّ؟» قال: لا، ولكنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ يا رب. قال: «أما كان لك فيما مَنَحْتُك من الجنَّة وأَبَحْتُك منها مندوحة عمَّا حرَّمت عليك؟» قال: بلىٰ يا رب، ولكن وعِزَّتك ما حسبت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا. قال: وهو قوله ﷿: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قال: «فبِعِزَّتي لأُهْبِطَنَّك إلىٰ الأَرْضِ، ثمَّ لا تنال العَيْش إلَّا كَدًّا». قال: فأُهْبِطَ من الجنَّة، وكانا يأكلان منها رَغَدًا، فأُهْبِطَ إلىٰ غير رغدٍ مِن طعامٍ وشرابٍ، فعُلِّم صنعة الحَدِيدِ، وأُمِرَ بالحرث، فحَرَثَ وزَرَعَ ثُمَّ سَقَىٰ، حتَّىٰ إذا بلغ حَصَدَ، ثمَّ دَاسَهُ، ثُمَّ ذَرَّاه، ثم طَحَنَهُ، ثم عَجَنَهُ، ثم خَبَزَهُ، ثم أَكَلَهُ، فلَمْ يبلغه حتىٰ بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ[٤]، وقال الثوري، عن ابن أبي ليلىٰ، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال: «ورق التِّين». صحيح إليه[٥].

وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة كهيئة الثوب.

وقال وَهب بن مُنبِّه في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نورًا علىٰ فروجهما، لا يرىٰ هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلا من الشَّجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بإسنادٍ صحيح إليه[٦].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أرأيت إن تبت واستغفرت؟ قال: «إذًا أُدْخِلُك الجنَّة». وأما إبليس فلم يسأله التَّوبة، وسأله النَّظرة، فأُعْطِيَ كلُّ واحدٍ منهما الذي سأله.

---

(١) ضعيف مرفوعًا وموقوفًا، رواه الطبري (٨/ ١٤٣)، وقد تقدم تخريجه والحكم عليه، انظر: تفسير الآية (٣٦) من سورة البقرة.

(٢) لوحة (٩٧/ أ). (٣) في (ز): «أستارهما».

(٤) ضعيف جدًّا: أخرجه ابن جرير (٨/ ١٤٢)، وفيه الحسن بن عمارة: متروك.

(٥) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٤٣)، وفيه ابن أبي ليلىٰ: سيئ الحفظ.

(٦) رواه الطبري (٨/ ١٤٤)، ولا يغتر بقول ابن كثير: صحيح إليه؛ فإنه يعني: صحيح إلىٰ وهب بن منبه. وهو يروي من كتب بني إسرائيل.

وقال ابن جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا عَبَّاد بن العَوَّام، عن سفيان بن حسين، عن يعلىٰ بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: لما أكل آدم من الشَّجرة قيل له: «لِمَ أَكَلْتَ من الشَّجرة الَّتِي نَهَيْتُك [عنها][1]؟». قال: حوَّاء أَمَرَتْنِي. قال: «فإنِّي قد أَعْقَبْتُهَا أن لا تحمل إلا كَرْهًا، ولَا تَضَعَ إلا كَرْهًا. قال: فرنَّت[2] حواء عند ذلك. فقيل لها: الرَّنَّة عَلَيْكِ وعلىٰ وَلَدِكِ[3].

وقال الضَّحَّاك بن مُزَاحِم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه ﷻ.

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[4]

قيل: المراد بالخطاب بـ:﴿ٱهْبِطُواْ﴾: آدم، وحوَّاء، وإبليس، والحيَّة. ومنهم مَن لم يذكر الحيَّة، والله أعلم.

والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالىٰ في سورة «طه»: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية [طه:١٢٣]، وحواء تبع لآدم، والحيَّة -إن كان ذكرها صحيحًا- فهِيَ تَبَعٌ لإبليس.

وقد ذَكَر المفسِّرُون الأماكن التي هَبَطَ فيها كلٌّ منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلىٰ الإسرائيليَّات، والله أعلم بصحَّتِهَا. ولو كان في تَعْيِين تلك البقاع فائدةٌ تعود علىٰ المكلَّفين في أمرِ دينِهِم، أو دُنْيَاهُم، لذَكَرَهَا الله تعالىٰ في كتابه أو رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرارٌ وأعمارٌ مضروبةٌ إلىٰ آجالٍ معلومةٍ، قد جرىٰ بها القَلَمُ، وأحصاها القَدَرُ، وسُطِّرَت في الكتاب الأوَّل. وقال ابن عبَّاس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور. وعنه: وجه الأرضِ وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، يخبر تعالىٰ أنَّه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدُّنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورُهُم ليوم المعاد الذي يجمع اللهُ فيه الأوَّلين والآخِرين، ويجازي كلًّا بعمله.

---

(١) سقط من (ز)، وإثباتها موافق لما في «الطبري».

(٢) رنت المرأة ترن رنينًا: صوتت وصاحت من الحزن.

(٣) رواه ابن جرير (٨/ ١٤٥)، والحاكم (٢/ ٣٨١)، وإسناده موقوف، لكن لا يقال هذا بالرأي، وقد اشترط العلماء لقبول هذه الروايات أن يكون الصحابي ممن لم يأخذ من كتب أهل الكتاب، فإن كان روىٰ من هذه الكتب فلا يثبت ما قاله. ومعلوم أن ابن عبَّاس أخذ من كتب أهل الكتاب؛ لذا فلا يصح الاعتماد علىٰ مثل هذه الروايات حتىٰ لو صح الإسناد إليه.

(٤) لوحة (٩٧/ ب).

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ (١) ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

يَمْتَنُّ تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده بما جعل لهم من اللِّباس والرِّياش فاللِّباس المذكور هاهنا لستر العورات -وهي السوآت- والرياش والريش: هو ما يتجمَّل به ظاهرًا، فالأوَّل من الضَّرُوريَّات، والرِّيش من التَّكمُّلات والزِّيادات. قال ابن جرير: «الرِّياش» في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر مِن الثِّياب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس -وحكاه البخاري عنه-: الرِّيش: المال. وكذا قال مجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، والسُّدِّي، والضَّحَّاك. وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: «الرِّيَاش»: اللباس، والعيش، والنَّعيم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرِّيَاش»: الجمال.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا أَصْبَغُ، عن أبي العلاء الشامي قال: لبس أبو أمامة ثوبًا جديدًا، فلما بلغ تَرْقُوَتَه قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمَّل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ**(٢) **اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبِسَهُ فَقَالَ حِينَ يَبْلُغ تَرْقُوَتَهُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ الثَّوْبِ [الَّذِي](٣) خَلُقَ(٤) أَوْ: أَلْقَىٰ فَتَصدَّقَ بِهِ، كَانَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، وَفِي جِوَارِ اللهِ، وَفِي كَنَفِ اللهِ [حَيًّا وَمَيِّتًا، حَيًّا وَمَيِّتًا، حَيًّا وَمَيِّتًا](٥)**»(٦).

ورواه التِّرمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ -هو ابن زيد الجهني- وقد وثَّقه يحيىٰ بن مَعِين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرجه أحد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن عبيد، حدَّثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر؛ أنَّه رأىٰ عليًّا ﷺ أتىٰ غلامًا حدثًا، فاشترىٰ منه قميصًا بثلاثة دراهم، ولبسه إلىٰ ما بين الرُّسْغَين(٧) إلىٰ الكعبين، يقول وَلَبِسَه: «الحمد لله الَّذِي رزقني من الرِّياش ما أتجمل به في النَّاس، وأواري به عورتي».

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: ولمَّا بيَّن تعالىٰ ساتر الظاهر وزينته، أشار إلىٰ ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: خشية الله، أو الإيمان، أو السَّمت الحسن، والكلُّ متقارب، ورفعه بالابتداء خبره جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أو خيرٌ، وذلك صفته، كأنَّه قيل: ولباس التقوىٰ المشار إليه خير.

قال المهايمي: لأنَّ الظَّاهر محلُّ نظر الخلق، والباطن محل نظر الحق، والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة. وقال القاشاني: لباسُ التَّقوىٰ صفة الورع والحذر مِن صفة النَّفس، ذلك خير؛ لأنَّه من جملة أركان الشرائع؛ لأنَّه أصل الدِّين وأساسه، كالحمية في العلاج.

(٢) لوحة (٩٨/ أ). (٣) سقط من (ز).

(٤) خَلُقَ الثوب وأخلق: بليَ. (٥) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٥٥)، وابن ماجة (٣٥٥٧)، وأحمد (١/ ٤٤)، وفيه: أصبغ بن زيد الجهني: صدوق يغرب، وأبو العلاء الشامي: مجهول، والحديث ضعَّفه الألباني كما في «ضعيف الجامع».

(٧) في (ح): «الرصغ»، وهو لغة في الرسغ.

فقيل: هذا شيءٌ تَرْوِيهِ عن نفسك أو عن نبيِّ الله ﷺ؟ قال: هذا شيءٌ سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيَاشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ، وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، قرأ بعضهم: ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، بالنَّصب(٢). وقرأ الآخرون بالرفع علىٰ الابتداء، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره.

واختلف المفسِّرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو مَا يَلْبَسُهُ المتَّقُون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال زيد بن علي، والسُّدِّي، وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان. وقال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس [رضي الله عنه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: العمل الصَّالح. وقال زياد(٣) بن عمرو، عن ابن عبَّاس](٤): هو السَّمْتُ الحسن في الوجه. وعن عُرْوَة بن الزُّبير: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشيةُ الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: يَتَّقِي الله، فيواري عورَتَه، فذاك لباس التَّقوىٰ. وكل هذه متقاربة، ويؤيِّد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال:

حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا إسحاق بن الحجاج، حدَّثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه علىٰ منبر رسول الله ﷺ [عليه](٥) قميصٌ قُوهي(٦) محلول الزرِّ، وسمعته يأمر بقَتْلِ الكلاب، وينهىٰ عن اللَّعب بالحمام. ثم قال: يا أيُّها النَّاس، اتَّقُوا الله في هذه السَّرائر، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا عَمِلَ أَحَدٌ قَطُّ سِرًّا إِلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهُ عَلَانِيَةً، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ». ثم تلا هذه الآية(٧): «وَرِيَاشًا» -ولم يقرأ: وريشًا- ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: «السَّمْتُ الحَسَنُ»(٨).

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف. وقد روىٰ الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري -في كتاب «الأدب»- مِن طرق صحيحة، عن الحسن البصري؛ أنَّه سَمِعَ أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام، يوم الجمعة علىٰ المنبر(٩).

وأمَّا المرفوع منه فقد روىٰ الحافظ أبو القاسم الطبراني في «معجمه الكبير» له شاهدًا آخر مِن وجهٍ آخر، حيث قال: حدَّثنا [محمود بن محمَّد المروزي، ثنا حامد بن آدم المروزي، ثنا الفضل بن

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (١/ ١٥٧)، وقال الهيثمي (٥/ ١٢١): وفيه مختار بن نافع وهو ضعيف. قلت: وفيه أبو مطر: مجهول.

(٢) متواترة: قَرَأَ (وَلِبَاسَ) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَوَافَقَهُمُ الْحَسَنُ وَالشَّنَبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (وَلِبَاسُ).

(٣) في (ح): «الديال»، وهو خطأ، فهو زياد بن عمرو الفهري القرشي، كما في مصادر الترجمة.

(٤) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٦) القوهي: ثياب بيض منسوبة إلىٰ قوهستان، وهي أرض متصلة بنواحي هراة ونيسابور.

(٧) لوحة (٩٨/ ب).

(٨) ضعيف: رواه ابن جرير (٨/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم (٥٣٤٢)، وفيه سليمان بن أرقم. قال الحافظ: ضعيف «تقريب» (٢٥٣٢).

(٩) صحيح موقوف: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في «زيادات المسند» (١/ ٧٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٠١)، وقد صرَّح مبارك بن فضالة بالتحديث فانتفت علة تدليسه.

موسىٰ، عن محمَّد بن عبيد الله العَرْزَمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَسَرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ»(١)](٢).

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ(٣) إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالىٰ محذرًا بني آدم من إبليس وقبيله، ومبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سَعْيِهِ في إخراجه من الجنَّة الَّتي هيَ دار النَّعيم، إلىٰ دارِ التَّعَبِ والعَنَاء، والتَّسبُّب في هَتْكِ عَوْرَتِهِ بعدما كانت مستورةً عَنْهُ، وما هذا إلا عَن عداوةٍ أكيدةٍ(٤)، وهَذَا كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٥) ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتَضَعُ المرأة علىٰ فَرْجِهَا النِّسعة(٦)، أو الشيء وتقول:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية.

قلت: كانت العرب -ما عدا قريشًا- لا يطوفُون بالبيت في ثيابهم التي لَبِسُوها، يتأوَّلُون في ذلك أنَّهم لا يَطُوفُون في ثيابٍ عَصَوُا الله فيها، وكانت قريش -وهم الحُمْس(٧)- يَطُوفُون في ثيابهم، ومَن

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٨٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥): (فيه حامد بن آدم وهو كذاب).
قلت: وفيه أيضًا محمَّد العَرْزَمي: متروك الحديث، وانظر لذلك: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٢٣٧).

(٢) بياض في (ز)، والمثبت من «المعجم الكبير»: ٢/ ١٧١ (١٧٠٢)، وقد ساقه المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في آخر تفسير سورة الفتح، كما سيأتي إن شاء الله.

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: في هذه الآية دليل علىٰ حرص الشَّيطان علىٰ أن يكشف الآدمي عورته لما يسبب ذلك من الفسق والفجور اللذَيْنِ يرغب الشيطان في إيقاع الآدمي فيهما.

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حَفِظَهُ اللهُ: تكاد تكون هذه سنَّة بشريَّة لا تتخلَّف؛ إذ ما من أمَّة تبرج نساؤها فكشفن محاسنهن وأبدين عوراتهن إلا أسرع إليها الهلاك بزوال الملك وذهاب السلطان.

(٥) لوحة (٩٩/ أ). (٦) النِّسعة: قطعة من جلد مضفورة عريضة، توضع علىٰ صدر البعير.

(٧) الحُمْس: جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس، سموا حُمسًا لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا، والحماسة: الشجاعة.

أعارهُ أحمسي ثوبًا طاف فيه، ومَن معه ثوبٌ جديدٌ طاف فيه ثمَّ يُلْقِيه فلا يَتَملَّكه أحد، فمن لم يَجِد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسيٌّ ثوبًا، طاف عريانًا. ورُبَّما كانت امرأةٌ فتطوف عريانةً، فتجعل على فَرْجِها شيئًا يستره بعض الشَّيء وتقول:

اليَـــوْمَ يَبْـــدُو بَعْـــضُهُ أَوْ كُلُّـــهُ وَمَـــا بَـــدَا مِنْـــهُ فَـــلَا أُحِلُّـــهُ

وأكثر ما كان النِّساء يَطُفْنَ [عراة](١) باللَّيل، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه مِن تلقاء أنفسهم، واتَّبعوا فيه آباءهم ويَعْتَقِدُون أن فعل آبائهم مستند إلىٰ أَمْرٍ مِن الله وشرع، فأنكر الله تعالىٰ عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالىٰ ردًّا عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمَّد لمن ادَّعىٰ ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرةٌ، والله لا يأمر بمثل ذلك، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أَتُسْنِدُون إلىٰ الله مِنَ الأقوال ما لا تعلمون صِحَّتَه.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: أمركم بالاستقامة(٢) في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيَّدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالىٰ وما جاءُوا به عنه من الشَّرائع، وبالإخلاص له في عِبادَتِه، فإنَّه تعالىٰ لا يتقبَّل العمل حتىٰ يجمع هذين الرُّكْنَين: أن يكون صوابًا موافقًا للشَّريعة، وأن يكون خالصًا من الشِّرْك(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ اختلف في معنىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، فقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يُحْيِيكُم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدُّنْيا، كذلك تعُودُون يوم القيامة أحياء.

وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ(٤) تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخَلَقَهُم ولم يكونوا شيئًا، ثم ذهبوا، ثمَّ يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولًا كذلك يعيدكم آخرًا.

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيَّده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن المغيرة بن النُّعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أَيُّها النَّاس، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» [الأنبياء: ١٠٤].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في «الصحيحين»(٥)، من حديث شعبة، وفي «صحيح البخاري» أيضًا من حديث الثَّوْرِي به.

---

(١) ليست في (ز). (٢) في (ز): «بالاستعانة».

(٣) احتفىٰ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذين الأصلين وكرر الكلام عليهما كثيرًا في كتبه. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٣٣٣)، و(٣/ ١٢٤)، و(٧/ ٤٩٥)، و(١٠/ ١٧٤ و٣١٨)، و(١٨/ ٢٥٠)، وغيرها.

(٤) لوحة (٩٩/ ب).

(٥) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٣٨٦٠)، والترمذي (٢٤٢٥)، والنسائي (٤/ ١١٧)، وابن جرير (٨/ ١٥٨).

[وقال وقَاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلمًا، والكافر كافرًا.

وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلىٰ علمه فيهم][(١)].

وقال سعيد بن جبير: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كتب عليكم تكونون. وفي رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون.

وقال محمَّد بن كعب القُرَظِي في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقَهُ علىٰ الشَّقاوة[(٢)] صار إلىٰ ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عَمِلَ بأعمال أهل السَّعادة، [كما أنَّ إبليس عَمِلَ بأعمال أهل السَّعادة، ثم صار إلىٰ ما ابتُدِئَ عليه خلقه][(٣)]، ومن ابتُدئ خلقه علىٰ السَّعادة، صار إلىٰ ما ابتدئ خلقه عليه، إن عَمِلَ بأعمال أهل الشَّقاء، كما أنَّ السَّحرة عَمِلَت بأعمال أهل الشَّقاء، ثم صاروا إلىٰ ما ابتدئوا عليه.

وقال السُّدِّي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما خلقكم[(٤)]، فريقٌ مهتدون وفريقٌ ضُلَّالٌ، كذلك تعُودُون وتخرجون مِن بطون أمَّهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال: إن الله تعالىٰ بدأ خلقَ ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يُعِيدُهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنًا وكافرًا[(٥)].

قلتُ: ويتأيَّد هذا القول بحديث ابن مسعود في «صحيح البخاري»: **«فوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّة، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ -أَوْ: ذِرَاعٌ- فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ -أَوْ: ذِرَاعٌ- فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّة، فَيَدْخُلُ الجنَّةَ»**[(٦)].

وقال أبو القاسم البَغَوي: حدَّثنا علي بن الجَعْد، حدَّثنا أبو غَسَّان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ -فِيمَا يَرَىٰ النَّاسُ- بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّة، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّار، وَإِنَّهُ لَيَعْمَلُ -فِيمَا يَرَىٰ النَّاسُ- بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجنَّة، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ»**[(٧)].

---

(١) ليست في (ز).

(٢) في (ح): «الشِّقْوة» بكسر الشين وفتحتها، وهي لغة في الشقاوة.

(٣) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) في (ح): «خلقناكم».

(٥) رواه الطبري (٨/ ١٥٦)، وإسناده منقطع.

(٦) البخاري (٣٢٠٨) نحوه.

(٧) البغوي في «شرح السنة» (٨٠)، وفي «التفسير» (٩١٩) من طريق أبي القاسم، ورواه نحوه البخاري (٦٤٩٣) و(٦٦٠٧) و(٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

هذا قطعةٌ مِن حديثٍ رواه البخاريُّ من حديث أبي غسَّان محمَّد بن مُطَرِّف المدني، في قصة[١] «قُزْمَان» يوم أُحد.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا عبد الرحمن، حدَّثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ»[٢].

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجة من غير وجه، عن الأعمش به، ولفظه: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

قلتُ: ولا بدَّ مِن الجمع بين هذا القول -إن كان هو المراد من الآية- وبين قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن عِياض بن حمَار قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ...» الحديث[٤].

ووجه الجمع علىٰ هذا أنَّه تعالىٰ خلقهم ليكون منهم كافر ومؤمن في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم علىٰ معرفته وتوحيده، والعِلْم بأنَّه لا إله غيره[٥]، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفِطرِهم، ومع هذا قدَّر أن [يكون][٦] منهم شقيًّا ومنهم سعيدًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفي الحديث: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[٧]، وقدَرُ الله نافذٌ في بَرِيَّتِهِ، فإنه هو ﴿ٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٣]، و﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وفي «الصحيحين»: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ [مِنكُمْ][٨] مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ»[٩]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، ثم علَّل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال ابن جرير: وهذا مِن أَبيَنِ الدلالة علىٰ خطأِ مَن زعم أنَّ الله لا يعذِّب أحدًا علىٰ معصيةٍ ركبها أو ضلالةٍ اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد عِلْم منه بصوابِ وَجْهِهَا، فيركبها عنادًا منه لربِّه فيها؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك لَمْ يَكُن بين فريقِ الضَّلالة الَّذي ضَلَّ وهو يحسب أنَّه هادٍ وفريق الهُدَىٰ فرقٌ. وقد فرَّق الله تعالىٰ بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة.

---

(١) لوحة (١٠٠/ أ).

(٢) مسلم (٢٨٧٨)، وابن جرير الطبري (٨/ ١٥٧)، وابن ماجة (٤٢٣٠).

(٣) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، والنسائي (٤/ ٩٨).

(٤) مسلم (٢٨٦٥).

(٥) في (ز): (لا إله إلا غيره).

(٦) ليست في (ز).

(٧) مسلم (٢٢٤)، والدارمي (٢/ ١٦٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٢).

(٨) زيادة من (ح).

(٩) البخاري (٤٩٤٧) و(٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤١)، وابن ماجة (٧٨).

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾

هذه الآية الكريمة ردٌّ علىٰ المشركين فيما كانوا يَعْتَمِدُونَه من الطَّواف بالبيت عُراةً، كما رواه[١] مسلم والنسائي وابن جرير -واللفظ له- من حديث شعبة، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاسٍ قال: كانوا يطوفون بالبيت عراةً، [الرجال والنساء:][٢] الرجال بالنَّهار، والنِّساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليَـــوْمَ يَبْـــدُو بَعْـــضُهُ أَوْ كُلُّـــهُ ... وَمَـــا بَـــدَا مِنْـــهُ فَـــلَا أُحِلُّـــهُ

فقال الله تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[٣].

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الآية، قال: كان رجالٌ يطوفون بالبيت عراةً، فأمرهم الله بالزِّينة -والزِّينَةُ: اللِّباس- وهو ما يواري السَّوأة وما سوىٰ ذلك من جَيِّد البَزِّ[٤] والمَتَاع، فأُمِرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجدٍ[٥].

وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النَّخعي، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، ومالك عن الزُّهري، وغير واحدٍ من أئمَّة السَّلف في تفسيرها: إنَّها في طواف المشركين بالبيت عُرَاة.

وقد رَوَىٰ الحافظ ابن مَرْدويه، من حديثِ سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعًا؛ أنَّها أنزلت في الصَّلاة في النِّعال[٦]. ولكن في صحَّته نظر، والله أعلم.

ولهذه الآيةِ -وما ورد في معناها من السُّنَّة- يستحب التَّجمُّل عند الصَّلاة، ولا سيما يومَ الجُمُعَةِ ويوم العيد، والطِّيبُ؛ لأنَّه من الزِّينة، والسِّواك؛ لأنَّه من تمام ذلك، ومن أفضل الثِّياب البياض، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا علي بن عاصم، حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ البَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنَّ مِنْ خَيْرِ أَكْحَالِكُمْ الإِثْمِدَ، فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ»**[٧].

هذا حديثٌ جيِّدُ الإسناد، رجاله علىٰ شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللإمام أحمد أيضًا، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمُرَة بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) لوحة (١٠٠/ ب).
(٢) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٣) مسلم (٣٠٢٨)، والنسائي (٥/ ٢٣٣)، والطبري (٨/ ١٥٩).
(٤) البَزّ: الثياب، ويطلق علىٰ متاع البيت من الثياب ونحوها.
(٥) ضعيف بهذا السياق: رواه الطبري (٨/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم (٨٣٧٧)، ويشهد لمعناه الرواية السابقة.
(٦) موضوع: في إسناده عباد بن جويرية، قال أحمد: كذاب. انظر: «لسان الميزان».
(٧) حسن: أحمد (١/ ٢٤٧)، وأبو داود (٤٠٦١)، والترمذي (٩٩٤)، والنسائي (٨/ ١٤٩)، وابن ماجة (١٤٧٢)، ويشهد له الحديث الآتي.

«**عَلَيْكُمْ بِالثِّيَابِ الْبَيَاضِ فَالْبَسُوهَا؛ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»(١).

وروىٰ الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمَّد بن سيرين: أنَّ تميمًا الدَّاري اشترىٰ رداءً بألف، فكان يُصَلِّي فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطِّبَّ كلَّه في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٢).

وقال البخاري: قال ابن عبَّاس(٣): كل ما شئت، والْبَسْ ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ(٤).

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الأعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: أَحَلَّ اللهُ الأكلَ والشُّرْب ما لم يكن سرَفًا أو مَخِيلةً(٥). إسناده صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا بَهْز، حدَّثنا هَمّام، عن قتادة، عن عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا [فِي](٦) غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلا سَرَفٍ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَىٰ نِعْمَتُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ**»(٧).

ورواه النَّسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النَّبيِّ

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٨١١)، والنسائي (٤/ ٣٤)، وابن ماجة (٣٥٦٧).

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: تناقل المفسِّرون وغيرهم ما قيل: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، جمع الطِّب كله. وأصله ما حكاه الزمخشري والكرماني في عجائبه، أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.
فقال له: قد جمع الله الطب كلَّه في نصف آية من كتابه، قال: وما هي ؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فقال النَّصراني: ولا يؤثر مِن رسولكم شيء في الطب! فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطِّبَّ في ألفاظٍ يسيرةٍ، قال: وما هي؟ قال قوله: «المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَأَعْطِ كُلَّ بَدَنٍ مَا عَوَّدْتَهُ» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا.
قال في «العناية»: وترك بعضهم تمام القصة؛ لأنَّ في ثبوت هذا الحديث كلامًا للمحدثين.
أقول (القاسمي): إن صحَّت هذه الحكاية، فصواب جواب النَّصراني في سؤاله الثَّاني بالتفنيد والفِرْية، فإن رسول الله ﷺ أُثِرَ عنه مِن بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثَرْ عن نبيٍّ قط، وللمحدِّثين في عهد السَّلف منه قسمٌ كبيرٌ في جوامعهم ومسانيدهم. وأمَّا أعلام المتأخِّرين فقد اضطرهم وفرة ما رويَ في ذلك إلىٰ تدوينه في أسفارٍ مطوَّلةٍ ومختصرةٍ بعنوان (الطِّب النَّبوي). وقد بيَّن الإمام ابن القيِّم -عليه الرحمة-: اشتمال التَّنزيل العزيز علىٰ أصول الطِّبِّ، والسُّنَّة المطهَّرة علىٰ بدائعه، في كتابه «زاد المعاد» بيانًا يدهش الألباب، وفوق كل ذي علمٍ عليم....

(٣) لوحة (١٠١/ أ).

(٤) صحيح: رواه البخاري تعليقًا (١٠/ ٢٥٢- فتح)، ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٥٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٦). والسَّرَفُ: الإسراف ومجاوزة القصد، والمَخِيلة: الاختيال والكبر.

(٥) صحيح: رواه الطبري (٨/ ١٦٢).

(٦) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «المسند» وهو خطأ.

(٧) حسن: تقدم عند تفسير الآية (١٤١، ١٤٢) من سورة الأنعام.

ﷺ قال: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا سليمان بن سليم الكِناني، حدَّثنا يحيىٰ بن جابر الطائي(١) سَمِعْتُ المقدام بن مَعْدي كَرِب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»(٢).

ورواه النَّسائي والتِّرمذي مِن طرق، عن يحيىٰ بن جابر به، وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»: حدَّثنا سُوَيْد بن سعيد(٣)، حدَّثنا بَقِيَّة، عن يوسف ابن أبي كثير، عن نوح بن ذَكْوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ»(٤).

ورواه الدارقطني في «الأفراد» وقال: هذا حديث غريب، تفرَّد به بقية.

وقال السُّدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراةً، يحرمون عليهم الوَدَكَ(٥) ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله تعالىٰ لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، يقول: لا تسرفوا في التَّحريم.

وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حرامًا، ذلك الإسراف.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: في الطَّعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله: إن الله تعالىٰ لا يحب المتعدين(٦) حَدَّه في حلال أو حرام، الغالين(٧) فيما أحلَّ [أو حَرَّم](٨) بإحلالِ الحرام وبتحريمِ(٩) الحلال، ولكنه يُحِبُّ أن يُحَلَّل ما أحلَّ، ويُحَرَّم ما حرَّم، وذلك العدل الذي أمر به(١٠).

---

(١) في (ز): «الطاري»، والتصويب من «المسند»: (٤/ ١٣٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٨١)، والنسائي (٥/ ٧٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢).

(٣) في (ز) و (ح): «سويد بن عبد العزيز»، والمثبت من «مسند أبي يعلىٰ».

(٤) ضعيف: «مسند أبي يعلىٰ» (٢٧٦٥)، وابن ماجة (٣٣٥٢)، وفيه نوح بن ذكوان: ضعيف، ويوسف بن أبي كثير: لا يعرف، وفيه بقية، وهو مدلس، وتدليسه من شَرِّ أنوع التدليس فإنه يدلس تدليس التَّسوية.

(٥) الوَدَك: دسم اللَّحم ودهنه الذي يستخرج منه؛ ويعني بالموسم: موسم الحج.

(٦) في (ز) و(ح): «المعتدين»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٧) في (ح): «المُغَالين». (٨) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري».

(٩) في (ز): «أو بتحريم»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(١٠) لوحة (١٠١/ ب).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١) كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالىٰ ردًّا علىٰ من حَرَّم شيئًا من المآكل أو المشارب، والملابس مِن تلقاءِ نفسِهِ، مِن غير شرعٍ مِن الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد، لهؤلاء المشركين الَّذِين يُحَرِّمون ما يحرمون بآرائِهِمُ الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: هي مخلوقةٌ لمن آمَن بالله وَعَبَدَهُ في الحياة الدُّنيا، وإِن شَرِكَهُمْ فيها الكفار حسًّا في الدُّنيا، فهي لهم خاصَّةٌ يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحدٌ مِن الكفَّار، فإنَّ الجنَّة محرَّمةٌ علىٰ الكافرين.

قال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أبو حُصَين محمَّد بن الحسين القاضي، حدَّثنا يحيىٰ الحِمَّاني، حدَّثنا يعقوب القُمِّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ، يُصَفِّرُون ويُصفِّقون، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فأمروا بالثياب(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن شَقِيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، [فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ](٣)»(٤).

أخرجاه في «الصَّحِيحَيْن» من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن شقيق أبي وائل(٥)، عن عبد الله ابن مسعود. وتقدَّم الكلام في «سورة الأنعام» علىٰ ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قال السُّدِّي: أما الإِثْمُ فالمعصية، والبغي أن تبغي علىٰ الناس بغير الحق.

وقال مجاهد: الإثم: المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائنٌ علىٰ نفسه.

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال المهايمي: إنَّما خُلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة، فيرغبوا فيها مزيد رغبةٍ، لكن شاركهم الكفرة فيها؛ لئلا يكون هذا الفرق ملجئًا لهم إلىٰ الإيمان.
فإذا ذهب هذا المعنىٰ، تصير خالصةً لهم يوم القيامة، فلو حرمت علىٰ المؤمنين لكانت مخلوقةً للكافرين، وهو خلاف مقتضىٰ الإيمان، وهو العبادة والتقوىٰ، ولكن من غير انهماك في الشهوات.

(٢) ضعيف: الطبراني (١٢/ ١٢٣٢٤)، وفيه يحيىٰ الحماني: ضعيف، واتهموه بسرقة الحديث، وجعفر بن أبي المغيرة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير.

(٣) سقط من (ز)، وزدناه من مصادر التخريج.

(٤) البخاري (٥٢٢٠) و(٧٤٠٣)، ومسلم (٢١٨٨)، والنسائي (١١١٨٣)، والترمذي (٣٥٢٠).

(٥) في (ح): «عن شقيق عن أبي وائل»، وهو خطأ، فشقيق هو أبو وائل راوية ابن مسعود.

وحاصل ما فُسِّر به الإثم أنَّه الخطايا المتعلِّقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التَّعدِّي إلىٰ النَّاس، فحَرَّم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكًا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب مِن دعوىٰ أنَّ له ولدًا ونحو ذلك، مما لا عِلْمَ لكم به، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ الآية [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ [١] عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: قرن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ثم أنذر تعالىٰ بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلًا يقصُّون عليهم آياته، وبَشَّر وحذَّر فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرَّمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: كذَّبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العَمَلِ بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترىٰ الكذب علىٰ الله، أو كذب بآيات الله المنزلة.

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف المفسِّرون في معناه، فقال العَوْفي [عن ابن عباس][٢]: ينالهم ما كُتِبَ عليهم، وكتب لمن يفتري علىٰ الله أن وجهه مسود.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عَمِل خيرًا جُزي به، ومَن عَمِل شرًّا جُزي به.

وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) لوحة (١٠٢/ أ). (٢) سقط من (ز)، واستدركناه من «تفسير الطبري»: (١٠/ ١٧٤).

وكذا قال قتادة، والضَّحَّاك، وغير واحدٍ، واختاره ابن جرير.

وقال محمَّد بن كعبٍ القرظي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم. وهذا القول قويٌّ في المعنىٰ، والسِّياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، ويصير المعنىٰ في هذه الآية كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ يخبر تعالىٰ أن الملائكة إذا توفَّت المشركين تفزعُهُم عند الموتِ وقَبْضِ أرواحهم إلىٰ النَّار، يقولون لهم: أَيْنَ الَّذِين[1] كنتم تُشْرِكُون بهم في الحياة الدُّنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟! ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه!! قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنَّا فلا نرجوا نفعهم، ولا خيرهم. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقروا واعترفوا علىٰ أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذِّبين بآياته: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: مِن أشكالكم وعلىٰ صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: من الأُمَمِ السَّالفة الكافرة، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي:

---

(١) لوحة (١٠٢/ ب).

أخراهم دخولًا -وهم الأتباع-، لأولاهم -وهم المَتْبُوعُون- لأنَّهم أشد جرمًا من أَتْبَاعِهِم[1]، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلىٰ الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أَضَلُّوهم عن سواء السَّبِيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أَضْعِفْ عليهم العقوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ [وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ][2]﴾ [العنكبوت:١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السُّدِّي[3]: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذا الحال كما أخبر الله تعالىٰ عنهم في حال محشرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عملٌ صالحٌ ولا دعاءٌ.

قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العَوْفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس. وكذا رواه الثوري، عن ليْث، عن عطاء، عن ابن عبَّاس. وقيل: المراد لا تُفَتَّح لأرواحهم أبواب السَّماء. رواه الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس. وقاله السُّدِّي وغير واحدٍ، ويُؤَيِّدُهُ ما قال ابن جرير[4]:

حدَّثنا أبو كُرَيْب، حدَّثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المِنْهَال - هو ابن عمرو- عن زاذان،

---

(١) قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن المعلوم أنَّ عذاب الرؤساء وأئمَّة الضَّلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أنَّ نعيم أئمَّة الهدىٰ ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع.

(٢) ليست في (ز). (٣) لوحة (١٠٣/ أ). (٤) الطبري: (١٢/ ٤٢٤).

عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قَبْض رُوحِ الفاجر، وأنَّه يُصْعَد بها إلىٰ السَّماء، قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ(١) مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَٰذِهِ الرُّوحُ الخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُدْعَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ بَابَهَا لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الآية(٢).

هكذا رواه، وهو قطعةٌ من حديثٍ طويلٍ رواه أبو داود، والنَّسائي، وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو به. وقد رواه الإمام أحمد بطُوله فقال:

حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش عن مِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازةِ رجل من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنَّ علىٰ رُءُوسِنا الطَّير، وفي يَدِهِ عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ(٣) مِنْ عَذَابِ القَبْرِ». -مرَّتين أو ثلاثًا- ثم قال: «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ إِلَىٰ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ(٤) اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ».

قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَٰلِكَ الكَفَنِ، وَفِي ذَٰلِكَ الحَنُوطِ. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ -يعني: بها- عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَٰذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الجَنَّةِ». قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

---

(١) في (ز): «فلا تمر علىٰ»، والمثبت من (ح) والطبري.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧- ٣٨).

(٣) لوحة (١٠٣/ ب).

(٤) في (ز): «المطمئنة»، والمثبت موافق لما في «المسند».

قال: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي».

قال: «وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ، إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قال: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[١] مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ[٢] عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينَ فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ». فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ. وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ؛ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[٣].

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن يونس بن خَبَّاب، عن المِنْهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ جنازةٍ، فذكر نحوه.

وفيه: «حَتَّىٰ إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّىٰ عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ ﷻ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ».

وفي آخره: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَىٰ أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ ﷻ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَىٰ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ

---

(١) السَّفُّود -كتنور-: الشوك أو الحديدة التي يشوىٰ بها اللحم. «مرقاة المفاتيح».

(٢) لوحة (١٠٤/ أ). (٣) صحيح: انظر التعليق السابق.

إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». قال البراء: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمَهَّدُ لَهُ فُرُشٌ مِنَ النَّارِ»(١).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجة وابن جرير -واللفظ له- من حديث محمَّد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ(٢) الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، قَالَ: فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُعْرَجَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ. فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَيُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عز وجل. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ. فَيَقُولُونَ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَمْ تُفْتَحْ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَتَصِيرُ إِلَىٰ القَبْرِ»(٣).

وقد قال ابن جُرَيج في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم.

وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، هكذا قرأه الجمهور، وفسَّروه بأنَّه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن النَّاقة. وفي رواية: زوج النَّاقة(٤). وقال الحسن البصري: حتىٰ يدخل البَعِير في خُرْق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضَّحَّاك. وكذا روىٰ علي بن أبي طلحة، والعَوْفي عن ابن عبَّاس.

وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عبَّاس: أنه كان يقرؤها: «[حتىٰ](٥) يلج الجُمَّل في سم الخياط» بضم الجيم، وتشديد الميم؛ يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة.

وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتىٰ يلج الجُمَّل»(٦) يعني: قُلُوس السفن(٧)، وهي الحبال الغلاظ.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٩٥)، وابن عبد الباقي في «الزوائد» (٢/ ١٤٤٢). وانظر التعليق السابق.
(٢) لوحة (١٠٤/ ب).
(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٦٤) و(٦/ ١٤٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٤٢)، وابن ماجة (٤٢٦٢).
(٤) رواه الطبري (٨/ ١٧٨)، وفيه انقطاع، ورواه الطبري (٩/ ٨٦٩٢) من طريق أخرىٰ وفيها عمرو بن ثابت: رافضي متروك. وفي «التقريب» ضعيف. وبمجموع الطريقين يتقوَّىٰ الأثر.
(٥) ليست في (ز).
(٦) شاذَّة: قَرَأَ (الْجُمَّلُ) ابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (الْجَمَلُ).
(٧) رواه الطبري (٨/ ١٨٠)، وفيه يحيىٰ بن طلحة اليربوعي. قال الحافظ: لين الحديث. والقلوس: جمع قَلْس، وهو حبل ضخم غليظ من ليف أو خوص، وهو من حبال السفن.

وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ [وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال محمَّد بن كعب القُرَظي: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾](١) قال: الفرش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحُفُ.

وكذا قال الضَّحَّاك بن مُزاحِم، والسُّدِّي، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ مَآلَ الأشقياء عطف بذكر حالِ السُّعَداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمَنَتْ قلوبهم وعملوا الصَّالحات(٢) بجوارِحهم، ضد أولئك الَّذِين كفروا بآياتِ الله، واستكبروا عنها.

ويُنبِّه تعالىٰ علىٰ أنَّ الإيمان والعمل به سهل؛ لأنَّه تعالىٰ قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في «الصحيح» للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكِّل الناجي، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجنَّة وَالنَّار، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجنَّة؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجنَّة أَدَلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»(٣).

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية: إنَّ أهل الجنَّة إذا سيقوا(٤) إلىٰ الجنَّة [فبلغوا](٥) وجدوا عند بابها شجرة في أَصْلِ ساقها عينان، فشَرِبُوا مِن إحداهما، فينزع ما في صدورهم مِن غلٍّ، فهو «الشَّراب الطَّهور»، واغتسلوا من الأخرىٰ، فجَرَتْ عليهم «نضرة النَّعيم» فلم يشعثوا ولم يَشْحَبُوا بعدها أبدًا.

وقد رَوَىٰ أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحوًا من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] إن شاء الله، وبه الثِّقة وعليه التُّكلان.

وقال قتادة: قال علي ﷺ: إنِّي لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزُّبير من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ رواه ابن جرير(٦).

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سَمِعْتُ الحسن يقول: قال عليٌّ: فينا

---

(١) ليست في (ز). (٢) لوحة (١٠٥/ أ).
(٣) البخاري (٢٤٤٠) و(٦٥٣٥)، وأحمد (٣/ ١٣، ٦٣، ٧٤).
(٤) في ابن أبي حاتم: «سبقوا». (٥) سقط من (ز)، وهي مثبتة في «الطبري»، وابن أبي حاتم.
(٦) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٨٤٦٧)، وإسناده منقطع بين قتادة وعلي.

-والله- أهلُ بدرٍ نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[(١)].

وروى النَّسائي وابن مَرْدويه -واللفظ له- مِن حديث أبي بكر بن عيَّاش، عن الأعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أَهْلِ الجنَّة يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا. وَكُلُّ أَهْلِ النَّار يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجنَّة فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ**»[(٢)].

ولهذا لما أُورثوا مقاعد أهل النَّار من الجنَّة نودوا: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب أعمالكم [نالتكم الرحمة فدخلتم الجنَّة، وتبوَّأتُم منازلكم بحسب أعمالكم][(٣)]. وإنَّما وجب الحمل علىٰ هذا؛ لما ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قالوا: ولا أنت[(٤)] يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[(٥)].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالىٰ بما يخاطب به أهلُ الجنَّة أهلَ النَّار إذا استقرُّوا في منازِلهم، وذلك علىٰ وجه التَّقْريع والتَّوبيخ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ «أن» هاهنا مفسِّرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق؛ أي: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالىٰ في سورة «الصافات» عن الذي كان له قرين من الكفَّار: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الآيات:٥٥-٥٩]، أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدُّنيا، ويُقرِّعه بما صار إليه من العَذاب والنَّكال، وكذا تُقرِّعُهُم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٤-١٦]، وكذلك قرع رسولُ الله ﷺ قتلىٰ القَليب[(٦)] يوم بدر، فنادىٰ: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَيَا عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ** -وَسَمَّىٰ رءوسهم-: **هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جيفوا؟ فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا**

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٨٤٦٦)، وإسناده منقطع بين الحسن البصري وعلي.

(٢) حسنه الألباني: رواه أحمد (٢/ ٥١٢)، والحاكم (٢/ ٢٣٥)، والنسائي في «التفسير» (٤٧٤)، وابن أبي حاتم (١٨٥٢٤)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٤)، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) ليست في (ز).

(٤) لوحة (١٠٥/ ب).

(٥) البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٦) القَليب: بئر ببدر، طرحت فيه جثث المشركين بعد الغزوة.

أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا»[١].

وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أَعْلَمَ مُعْلِمٌ ونادىٰ مُنَادٍ: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم.

ثمَّ وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يَصُدُّون النَّاس عن اتِّباع سبيل الله وشَرْعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السَّبيل معوجةً غير مستقيمةٍ، حتىٰ لا يَتَّبعها أحد. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم بِلِقَاء الله في الدَّار الآخرة كافرون؛ أي: جاحدون مُكَذِّبون بذٰلِك لا يُصَدِّقُونه ولا يُؤْمِنُون به. فلِهَذَا لا يُبَالُون بِمَا يَأْتُون مِن منكرٍ مِن القول والعمل؛ لأنَّهم لا يخافون حسابًا عليه، ولا عقابًا، فهم شر النَّاس أعمالًا وأقوالًا[٢].

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ[٣] أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ مخاطبة أهل الجنَّة مع أهل النَّار، نَبَّه أن بين الجنَّة والنَّار حجابًا، وهو الحاجز المانع مِن وصول أهل النَّار إلىٰ الجنَّة.

قال ابن جرير: وهو السُّور الذي قال الله تعالىٰ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، وهو الأعراف الذي قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

ثم روىٰ بإسناده عن السُّدِّي أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾: وهو «السور»، وهو «الأعراف».

وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنَّة والنَّار، سورٌ له باب. قال ابن جرير: و«الأعراف» جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يُسمَّىٰ «عرفًا»، وإنَّما قيل لعرف الدِّيك عرفًا لارتفاعه.

وحدَّثنا سفيان بن وَكِيع، حدَّثنا ابن عُيينة، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عبَّاس يقول: «الأعراف» [هو الشيء المشرف[٤].

وقال الثَّوْريُّ، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: الأعراف:][٥] سور كعُرْف الديك[٦].

---

(١) مسلم (٢٨٧١)، وأحمد (٣/ ١٠٤) من حديث أنس، ورواه البخاري (٣٩٧٩- ٣٩٨١) نحوه، ورواه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أبي طلحة نحوه.

(٢) لوحة (١٠٦/ أ).

(٣) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الجشمي: وإنَّما قال: ﴿صُرِفَتْ﴾؛ لأنَّ نظرهم إلىٰ أهل النَّار نظر عداوةٍ، فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم، فأمَّا أهل الجنَّة فوجوههم إليهم سرورًا بهم، فلا يحتاج إلىٰ تكلفٍ، وقيل: لأنَّهم مع أهل الجنَّة بُعَداء مِن أهل النَّار، فيحتاجون إلىٰ صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النَّار.

ثم قال الجشمي: تدل الآية علىٰ وجوب الاجتناب من الظَّلمة في الدنيا؛ كيلا يكون معهم في الآخرة.

(٤) صحيح: رواه الطبري (٨/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٨٤٩٣) من طرق عن سفيان به.

(٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٨٤٩١)، وفي الإسناد جابر الجعفي وهو ضعيف.

وفي رواية عن ابن عبَّاس: الأعراف -جمع-: تلٌّ بين الجنَّة والنَّار، حُبِسَ عليه ناسٌ من أهل الذُّنوب بين الجنَّة والنَّار. وفي رواية عنه: هو سُورٌ بين الجنَّة والنَّار[١]. وكذلك قال الضَّحَّاك وغير واحد من علماء التَّفسير.

وقال السُّدِّي: إنَّما سُمِّيَ «الأعراف» أعرافًا؛ لأنَّ أصحابه يعرفون النَّاس.

واختلفت عبارات المفسِّرين في أصحاب الأعراف مَن هُمْ، وكلُّها قريبةٌ ترجع إلىٰ معنًىٰ واحدٍ، وهو أنَّهم قومٌ استوَتْ حسناتهم وسيِّئاتُهُم. نصَّ عليه حذيفة، وابن عبَّاس، وابن مسعود، وغير واحد من السَّلف والخلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وقد جاء في حديثٍ مرفوعٍ رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه:

حدَّثنا عبد الله بن إسماعيل، حدَّثنا عبيد بن الحسين، حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا النعمان[٢] ابن عبد السلام، حدَّثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عمَّن استوت حسناته وسيئاته؟ فقال: «**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**»[٣].

وهذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عن محمَّد بن المُنْكَدِر، عن رجل من مُزَينة قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ[٤] عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «**إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عُصَاةً بِغَيْرِ إِذْنِ آبَائِهِمْ، فَقُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**»[٥].

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا أبو مَعْشَر، حدَّثنا يحيىٰ بن شِبْل، عن يحيىٰ[٦] بن عبد الرحمن المزني، عن أبيه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن «أصحاب الأعراف»؟ فقال: «**هُمْ نَاسٌ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ مَعْصِيَةُ آبَائِهِمْ، وَمَنَعَهُمْ مِنْ [دُخُولِ][٧] النَّار قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[٨].

---

(١) رواه الطبري (٨/ ١٨٩) من طرق عن ابن عبَّاس بمعناه، ويؤيده ما تقدم.

(٢) في (ز): «سليمان حدَّثنا داود بن النعمان...»، وهو خطأ، فهو سليمان بن داود الشاذكوني، والنعمان هو ابن عبد السلام بن حبيب أبو المنذر، هكذا في كتب الرجال.

(٣) ضعيف جدًّا: عزاه لابن مردويه وفيه أبو عباد شيخ النعمان مجهول، وأيضًا ففيه سليمان بن داود: متهم بالكذب.

(٤) لوحة (١٠٦/ ب).

(٥) نسبه في «الدر المنثور» (٣/ ٨٨) إليه وإلىٰ أبي الشيخ، ولم يذكر هنا بقيَّة السَّند ليحكم عليه، والغالب علىٰ مرويات ابن مردويه الضَّعف. فالله أعلم.

(٦) كذا في (ز)، وفي «تفسير الطبري»: «محمَّد بن عبد الرحمن»، وهكذا في «الجرح والتعديل» (٥/ ٣٠٣) لابن أبي حاتم، وانظر ما علَّق به الشيخ شاكر في (١٢/ ٤٥٨، ٤٥٩) من «تفسير الطبري»، فقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لم يقف لـ «محمَّد ابن عبد الرحمن المزني» علىٰ ترجمةٍ مستقلةٍ.

(٧) ليست في (ز).

(٨) في إسناده أبو معشر: ضعيف، رواه الطبري (٨/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٨٤٩٨)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٤٤) بزيادة عنده، وفيه محمَّد بن مخلد الزغبي: ضعيف، وأمَّا ما ذكره ابن كثير من رواية ابن عبَّاس وأبي سعيد وعزو ذلك لابن ماجه، فلم أجده في «السُّنن»، ولعلَّه في مصنف آخر له. وأورد ابن كثير كذلك متابعةً عزاها لابن مردويه لكنَّه لم يسُقْ سنده كاملًا، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: والله أعلم بصحَّة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة.

هكذا رواه ابن مَرْدوَيه، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر به. وكذلك رواه ابنُ ماجة مرفوعًا، من حديث ابن عبَّاس وأبي سعيد الخدري ﷺ والله أعلم بصحَّة هذه الأخبار المرفوعة، وقُصاراها أن تكون موقوفة، وفيه دلالةٌ علىٰ ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين، عن الشَّعْبي، عن حذيفة؛ أنَّه سُئِلَ عن أصحاب الأعراف؟ قال: فقال: هُم قومٌ استوت حسناتهم وسيِّئاتهم، فقَعَدَتْ بهم سيِّئاتهم عن الجنَّة، وخلَّفت بهم حسناتهم عن النَّار. قال: فوقفوا هناك علىٰ السُّور حتىٰ يقضي الله فيهم[١].

وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال:

حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح، حدَّثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشَّعْبي: أرسل إليَّ عبد الحميد بن عبد الرحمن -وعنده: أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان مولىٰ قريش- وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إنَّ حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجَاوَزَت بهم حسناتهم النَّار، وقعدت بهم سيِّئاتهم عن الجنَّة، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النَّار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فبَيْنَا هم كذلك، اطَّلع عليهم رَبُّك فقال لهم: «اذْهَبُوا فَادْخُلُوا الجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٢].

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يُحَاسَب النَّاس يوم القيامة، فمَن كانت حسناته أكثر من سيِّئاته بواحدةٍ دخل الجنَّة، ومن كانت سيئاته أكثر مِن حسناته بواحدة دخل النَّار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إنَّ الميزان يخف بمثقال حبَّة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من[٣] أصحاب الأعراف، فوقفوا علىٰ الصراط، ثم عرفوا أهل الجنَّة وأهل النَّار، فإذا نظروا إلىٰ أهل الجنَّة نادوا: سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلىٰ يسارهم نظروا أصحاب النَّار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأمَّا أصحاب الحسنات، فإنَّهم يعطون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطىٰ كل عبد يومئذٍ نورًا، وكل أُمَّة نورًا، فإذا أتوا علىٰ الصراط سلب الله نور كل منافقٍ ومنافقةٍ، فلمَّا رأىٰ أهل الجنَّة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨]، وأمَّا أصحاب الأعراف، فإنَّ النُّور كان في أيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فكان الطَّمع دخولًا. قال: وقال ابن مسعود: علىٰ أنَّ العبد إذا عَمِل حسنةً كُتِبَ له بها عشر، وإذا عمل سيئةً لم

---

(١) صحيح: رواه الطبري (٨/ ١٩٠)، ورجاله ثقات إلا أنَّ عامر الشَّعبي لم يسمع مِن حذيفة والظَّاهر أنَّ الواسطة بينهما صلة بن زُفر، كما في رواية الحاكم (٢/ ٣٢٠)، وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (١٠١)، وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الطبري (٨/ ١٩٠)، ومحمَّد بن حميد شيخ الطبري: حافظ ضعيف، وبقيَّة رجاله ثقات، وانظر التعليق السابق.

(٣) لوحة (١٠٧/ أ).

تكتب إلا واحدةً. ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره[(١)]. رواه ابن جرير. وقال أيضًا:

حدَّثني ابن وَكِيعٍ وابن حميدٍ قالا: حدَّثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله ابن الحارث، عن ابن عبَّاس قال: «الأعراف»: السور الذي بين الجنَّة والنَّار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتىٰ إذا بَدَا الله[(٢)] أن يعافيهم، انْطُلِق بهم إلىٰ نهرٍ يقال له: «الحياة»، حافتاه قصب الذهب، مكلَّل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا فيه حتىٰ تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتىٰ إذا صلحت ألوانهم أتىٰ بهم الرحمن تبارك وتعالىٰ فقال: تَمَنَّوْا ما شئتم فيتمنون، حتىٰ إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفًا. فيدخلون الجنَّة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنَّة[(٣)].

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيىٰ بن المغيرة، عن جرير به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله[(٤)] وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد عن عبد الله بن الحارث من قوله والضَّحَّاك وغير واحد.

وقال سُنَيْد بن داود: حدَّثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ قال: «**هُمْ آخِرُ مَنْ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ العِبَادِ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ العَالَمِينَ مِنْ فَصْلِهِ بَيْنَ العِبَادِ قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجَتْكُمْ حَسَنَاتُكُمْ[(٥)] مِنَ النَّارِ، وَلَمْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي، فَارْعَوْا مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ**». وهذا مرسل حسن[(٦)]. وقيل: هم أولاد الزنا. حكاه القرطبي.

وروىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن موسىٰ»، عن منبه[(٧)] بن عثمان، عن عُرْوَة بن رُوَيْم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النَّبِيِّ ﷺ: «**أن مؤمني الجن لهم ثوابٌ وعليهم عقابٌ**»، فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم؟ فقال: «**عَلَىٰ الأَعْرَافِ، وَلَيْسُوا فِي الجَنَّةِ مَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ**». فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: «**حَائِطُ الجَنَّةِ تَجْرِي فِيهَا الأَنْهَارُ، وَتَنْبُتُ فِيهِ الأَشْجَارُ وَالثِّمَارُ**»[(٨)].

---

(١) ضعيف من هذا الطريق: رواه الطبري (٨/ ١٩٠ - ١٩١)، وابن أبي حاتم (٨٥٠١)، وأبو بكر الهذلي العلاف: أخباري متروك الحديث. انظر: «التقريب».

(٢) كذا في (ح) والطبري، وفي (ز) وابن أبي حاتم: «بدأ الله». وأورده السيوطي في «الدرِّ المنثور» بلفظ: «فإذا أراد الله...» وعزاه لهناد وابن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ (٣/ ٤٦٤).

(٣) رواه الطبري (٨/ ١٩١)، وابن أبي حاتم (٨٥٠٢)، وفيه حبيب بن أبي ثابت كثير الإرسال والتدليس كما في «التقريب»؛ لذا فالإسناد ضعيف؛ لأنَّه لم يصرِّح بالسَّماع.

(٤) ضعيف: كذلك؛ لأنَّه مِن طريق حبيب بن أبي ثابت وهو مدلس وقد عنعن، والأثر رواه الطبري (٨/ ١٩١).

(٥) لوحة (١٠٧/ ب).

(٦) مرسل: وفي إسناده سنيد بن داود: ضعيف. رواه الطبري (٨/ ١٩٤).

(٧) في (ز): «شيبة» وهو خطأ.

(٨) موضوع: رواه البيهقي في «البعث والنشور» (١٠٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٩١٠)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٧-٨). وفيه الوليد بن موسىٰ. قال الحاكم: أحاديثه موضوعة. وقال الدارقطني: منكر الحديث، وقال الذهبي: هذا حديثٌ منكرٌ جدًّا، وقال الألباني في «الضعيفة»: موضوع.

رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمَّد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسىٰ به.

وقال سفيان الثوري، عن خُصَيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قومٌ صالحون فقهاءُ علماء.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلز في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ قال: هم رجالٌ من الملائكة، يعرفون أهل الجنَّة وأهل النَّار، قال: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ في النَّار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فهذا حين دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وهذا صحيحٌ إلىٰ أبي مِجْلَز -لاحق بن حميد- أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق، وقول الجمهور مقدَّم علىٰ قوله، بدلالة الآية علىٰ ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء. فيه غرابة أيضًا. والله أعلم.

وقد حكىٰ القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولًا، منها: أنَّهم شهدوا أنهم صلحاء تفرَّعوا مِن فرع الآخرة، دخلوا يطَّلِعُون علىٰ أخبار النَّاس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: يعرفون أهل الجنَّة ببياض الوجوه، وأهل النَّار بسواد الوجوه. وكذا روىٰ الضَّحَّاك عنه.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس قال: أنزلهم الله بتلك المنزلة؛ ليعرفوا من في الجنَّة والنَّار، وليعرفوا أهل النَّار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيون أهل الجنَّة بالسَّلام، لم يدخلوها، وهم[1] يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

وكذا قال مجاهد، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مَعْمَر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامةٍ يريدها بهم.

وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلىٰ أهل النَّار وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وقال السُّدِّي: وإذا مروا بهم -يعني: بأصحاب الأعراف-: بزمرةٍ يُذهب بها إلىٰ النَّار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

---

(١) لوحة (١٠٨/ أ).

وقال عكرمة: تحدد وجوههم في النَّار، فإذا رأوا أصحاب الجنَّة ذهب ذلك عنهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودةً، وأعينهم مزرقةً، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [(١)]

يقول الله تعالىٰ مخبرًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النَّار بسيماهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، أي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلىٰ ما صرتم فيه من العذاب والنكال. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: يعني: أصحاب الأعراف ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمَّد بن سعد، حدَّثني أبي، حدَّثني عمي[(٢)]، حدَّثني أبي، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: فلما قالوا لهم الذي قضىٰ الله أن يقولوا -يعني: أصحاب الأعراف لأهل الجنَّة وأهل النَّار- قال الله تعالىٰ لأهل التكبُّر والأموال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[(٣)].

وقال حذيفة: «**إِنَّ أَصْحَابَ الأَعْرَافِ قَوْمٌ تَكَافَأَتْ**[(٤)] **أَعْمَالُهُمْ، فَقَصُرَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ الجَنَّةِ، وَقَصُرَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ، فَجُعِلُوا عَلَىٰ الأَعْرَافِ، يَعْرِفُونَ**[(٥)] **النَّاسَ بِسِيمَاهُمْ، فَلَمَّا قَضَىٰ اللهُ بَيْنَ العِبَادِ أَذِنَ لَهُمْ فِي طَلَبِ الشَّفَاعَةِ، فَأَتَوْا آدَمَ فَقَالُوا: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُونَا، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ. فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَحَدًا خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ إِلَيْهِ غَضَبَهُ، وَسَجَدَتْ لَهُ المَلَائِكَةُ غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: مَا عَلِمْتُ كُنْهَهُ**[(٦)] **مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْفَعَ لَكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا ابْنِي إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ** ﷺ

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال ابن القيم: يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم علىٰ الحق ولا استكباركم. وهذا إما نفي وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفحم.
ثم نظروا إلىٰ الجنَّة فرأوا من الضُّعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم في الدنيا.

(٢) في (ز): «يحيىٰ»، وهو تصحيف، والتصويب من «الطبري»: (١٢/ ٤٦٩) ط: شاكر، و(١٠/ ٢٣١) ط: هجر.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٩٩).

(٤) في (ز): «تكاثفت»، وتكاثف الشيء: إذا اجتمع والتفَّ بعضه إلىٰ بعض «شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلوم» (ك ث ف)، والمثبت من «الطبري».

(٥) لوحة (١٠٨/ ب).

(٦) في (ز): «ما علمت كنهه»، والمثبت من «الطبري» ط. شاكر. وقال في «الحاشية»: كنه الشيء: قدره ونهايته وغايته وحقيقته، يريد: ما علمتُ ما يبلغ بي مرتبة الشفاعة لكم. (١٢/ ٤٧٠).
قلت وقد أورده السيوطي في «الدر المنثور» معزوًّا للطبري علىٰ نحو ما رَجَّحَ الشيخ شاكر (٣/ ٤٦٢). والله أعلم.

فَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيَقُولُ: [هَلْ][(١)] تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَدٍ اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا؟ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَحَدًا أَحْرَقَهُ قَوْمُهُ بِالنَّارِ فِي اللهِ غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: مَا عَلِمْتُ كُنْهَ، مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْفَعَ لَكُمْ. وَلَكِنِ ائْتُوا ابْنِي مُوسَىٰ. فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَدٍ كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: مَا عَلِمْتُ كُنْهَ، مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْفَعَ لَكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَىٰ. فَيَأْتُونَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ. فَيَقُولُ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَحَدًا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ [غَيْرِي؟][(٢)] فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: هَلْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَدٍ كَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ غَيْرِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ: أَنَا حَجِيجُ نَفْسِي. مَا عَلِمْتُ كُنْهَ، مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْفَعَ لَكُمْ. وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَيَأْتُونَنِي فَأَضْرِبُ بِيَدِي عَلَىٰ صَدْرِي، ثُمَّ أَقُولُ: أَنَا لَهَا. ثُمَّ أَمْشِي حَتَّىٰ أَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ، فَآتِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْتَحُ لِي مِنَ الثَّنَاءِ مَا لَمْ يَسْمَعِ السَّامِعُونَ بِمِثْلِهِ قَطُّ، ثُمَّ أَسْجُدُ فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: هُمْ لَكَ. فَلَا يَبْقَىٰ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، إِلَّا غَبَطَنِي بِذَلِكَ الْمَقَامِ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ. فَآتِي بِهِمُ الْجَنَّةَ، فَأَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لِي وَلَهُمْ، فَيُذْهَبُ بِهِمْ إِلَىٰ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَوَانِ، حَافَّتَاهُ قَصَبٌ[(٣)] مُكَلَّلٌ بِاللُّؤْلُؤِ، تُرَابُهُ الْمِسْكُ، وَحَصْبَاؤُهُ الْيَاقُوتُ. فَيَغْتَسِلُونَ مِنْهُ، فَتَعُودُ إِلَيْهِمْ أَلْوَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَرِيحُ [أَهْلِ الْجَنَّةِ][(٤)] فَيَصِيرُونَ كَأَنَّهُمُ الْكَوَاكِبُ الدُّرِّيَّةُ، وَيَبْقَىٰ فِي صُدُورِهِمْ شَامَاتٌ بِيضٌ يُعْرَفُونَ بِهَا، يُقَالُ لَهُمْ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[(٥)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ[(٦)] قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾

يُخْبِر تعالىٰ عن ذِلَّة أهل النَّار وسؤالهم أهل الجنَّة مِن شرابهم وطعامهم، وأنَّهم لا[(٧)] يجابون إلىٰ ذلك.

قال السُّدِّي: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: الطعام. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم.

وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه

---

(١) ليست في (ز)، وهي زيادة من «الطبري». (٢) ليست في (ز)، واستدركناها من «الطبري».

(٣) القصب: أنابيب مستطيلة مجوَّفة من الجوهر أو الذَّهب أو الفضَّة.

(٤) ليست في (ز)، وأثبتناها من الطبري. (٥) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ١٩٩)، وإسناده منقطع.

(٦) قال القرطبي رحمه الله: في هذه الآية دليل علىٰ أن سقي الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلىٰ أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

(٧) لوحة (١٠٩/ أ).

فيقول: قد احترَقْتُ، أَفِضْ علي من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وروي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عبَّاس، مثله [سواء][(١)(٢)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنَّة وشرابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نصر بن علي، أخبرنا موسىٰ بن المغيرة، حدَّثنا أبو موسىٰ الصفَّار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عبَّاس -أو: سُئِلَ-: أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ المَاءُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ [لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الجَنَّةِ]**[(٣)] **قَالُوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾**»[(٤)].

وقال أيضًا: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلتَ إلىٰ ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنَّة لعلَّه أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النَّبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: إنَّ الله حرَّمهما علىٰ الكافرين[(٥)].

ثمَّ وصف تعالىٰ الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدُّنيا مِن اتِّخاذهم الدِّين لهوًا ولعبًا، واغترارهم بالدُّنيا وزينتها وزخرفها عمَّا أُمِرُوا به من العمل للدَّار الآخرة.

قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نَسيهم؛ لأنَّه تعالىٰ لا يَشِذُّ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالىٰ: ﴿فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

وإنَّما قال تعالىٰ هذا مِن باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤].

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قال: نَسِيَهُم الله من الخَيْرِ، ولم ينسهم من الشَّرِّ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا.

[وقال مجاهد: نتركهم في النَّار. وقال السُّدِّي: نتركهم من الرَّحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاءِ يومهم هذا][(٦)].

وفي «الصحيح»: «**أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ**

---

(١) ليست في (ز)، وأثبتناها من ابن أبي حاتم.

(٢) رواه الطبري (٨/ ٢٠)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٨) من طريقين عن الثوري به موقوفًا علىٰ ابن عبَّاس، وإسناده صحيح.

(٣) ليست في (ز)، وأثبتناها من ابن أبي حاتم.

(٤) حسن لغيره: ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٣٣)، وفيه موسىٰ بن المغيرة: مجهول، انظر: «مجمع الزوائد» (٣/ ١٣٤)، وله شاهد عند أبي داود (١٦٧٩) بدون ذكر الآية، والنسائي (٦/ ٢٥٤)، وابن ماجة (٣٦٨٤)، وحسَّنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) مرسل: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٣٦)، وإسناده ضعيف؛ لأنَّه مرسل.

(٦) ليست في (ز).

الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللهُ: فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[١].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى [٢] وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ [٣] وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إعذاره إلىٰ المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنَّه كتابٌ مفصَّلٌ مبيَّنٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الآية [هود:١].

وقوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: علىٰ علمٍ منا بما فصَّلناه به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦].

قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة علىٰ قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢]، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وهذا الذي قاله فيه نظر؛ فإنَّه قد طال الفَصْل، ولا دليل علىٰ ذلك، وإنَّما لما أخبر عمَّا صاروا إليه من الخسار في الدَّار الآخرة، ذكر أنَّه قد أزاح عللهم في الدَّار الدُّنيا، بإرسال الرُّسل، وإنزال الكُتُب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما وَعَد من العذاب والنَّكال والجنَّة والنَّار. قاله مجاهد وغير واحد.

وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أَمْرٌ، حتىٰ يتم يوم الحساب، حتىٰ يدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، فيتم تأويله يومئذٍ.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة، قاله ابن عبَّاس. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدَّار الدُّنيا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ﴾ أي: في خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلىٰ الدَّار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [أي: قد خسروا أنفسهم بدخولهم النَّار وخلودهم فيه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾][٤]، أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم مِن دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون فيهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

---

(١) مسلم (٢٩٦٨)، والترمذي (٢٤٢٨).   (٢) لوحة (١٠٩/ ب).

(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: خسران النَّفس أكبر خسران إذ هو آخر ما يخسر، فإن مَنْ خسر نفسه فقد خسر كل شيء قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ومعنىٰ: خسران النفس: عدم الانتفاع بها.

(٤) ليست في (ز).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (١) تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ بأنَّه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آيةٍ مِن القرآن، والسِّتَّة الأيَّام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلىٰ الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نصَّ علىٰ ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروىٰ ذلك من رواية الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس؟ فأمَّا يوم السَّبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنَّه اليوم السَّابع، ومنه سُمِّيَ السَّبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» حيث قال: حدَّثنا حجاج، حدَّثنا ابن جُرَيْج، أخبرني إسماعيل بن أُمَيَّة، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع -مولىٰ أم سلمة- عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ آخِرَ الخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَىٰ اللَّيْلِ**»(٣).

فقد رواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه» والنسائي من غير وجه، عن حجاج -وهو ابن محمَّد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالىٰ قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ ولهذا تكلَّم البخاري وغير واحدٍ من الحفَّاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعًا، والله أعلم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللنَّاس في هذا المقام مقالاتٌ كثيرةٌ جدًّا، ليس هذا موضع بسطها، وإنَّما يُسلك في هذا المقام مذهب السَّلف الصَّالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمَّة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكْييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ(٤). والظَّاهر المتبادر إلىٰ

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمِّن للشَّرائع والنُّبوَّات، فالخلق: يتضمَّن أحكامه الكونيَّة القدريَّة، والأمر: يتضمَّن أحكامه الدِّينيَّة الشَّرعيَّة، وثَمَّ أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء.

(٢) لوحة (١١٠/ أ).

(٣) مسلم (٢٢٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٧٤)، وانظر تعليق ابن كثير بعد إيراده الحديث.

(٤) و«إمرارها كما جاءت» معناه: إثباتها علىٰ ما دل عليه ظاهر النص علىٰ ما يليق بالله جل جلاله، من دون تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]، وظاهر النص قد دل علىٰ عُلوِّ الله، وأدلة علوه تقرب من

=

أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، بل الأمر كما قال الأئمة -منهم نُعَيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري-: «مَن شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومَن جَحَدَ ما وصف الله به نفسه فَقَدْ كَفَرَ». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهٌ»[(١)] . فمن أثبت لله تعالىٰ ما وردت به الآيات الصَّريحة[(٢)] والأخبار الصَّحيحة، علىٰ الوجه الذي يليق بجلال الله تعالىٰ، ونفىٰ عن الله تعالىٰ النَّقائص، فقد سلك سبيل الهدىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا؛ أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، [يس:٣٧-٤٠] فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. منهم مَن نَصَب، ومنهم مَن رَفَع[(٣)]، وكلاهما قريب المعنىٰ؛ أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبِّهًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، أي: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدَّثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدَّثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه -وكانت له صحبةٌ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ عَلَىٰ مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَحَمَدَ نَفْسَهُ، فَقَدْ كَفَرَ وَحَبِطَ عَمَلُهُ، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئًا فقد كفر بما أنزل الله علىٰ أنبيائه؛ لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**»[(٤)] .

= ألف دليل كما قال ابن القيم في «إعلام الموقعين»: (٤/ ٧٥)، وانظر: «الصواعق: (٤/ ١٢٧٧)، و«العلو» للذهبي، وغيرها، ودل كذلك -أي: ظاهر النصوص- علىٰ استواء الله علىٰ عرشه، ومعناه: علوه وارتفاعه وصعوده واستقراره، علىٰ ما يليق به، كما حكاها ابن القيم عن السلف في «النونية». وانظر «رسالة أهل الثغر» (ص٧١، ط: الجليند)، و«المقالات» (١/ ٣٢٠-٣٢٥) كلاهما للأشعري، و«الجيوش الإسلامية» لابن القيم، و«الأثر المشهور عن الإمام مالك» لعبد الرزاق البدر، وغيرها. وقد ذكر الله تعالىٰ استواءه علىٰ عرشه في سبعة مواضع من القرآن، ذكرها ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «الواسطية»: (٣/ ١٣٥- الفتاوىٰ)، وراجع: «التدمرية»، و«شرح حديث النزول».

(١) رواه عنه الذهبي في «العلو»: (٤٦٤)، وهو في «مختصره» للألباني: (٢١٧)، وذكره ابن تيمية في كتبه مرارًا. رحم الله الجميع.

(٢) لوحة (١١٠/ ب).

(٣) متواترة: قرَأَ (وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ) ابنُ عامرٍ، وَقرَأَ البَاقُونَ (وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ).

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٨/ ٢٠٩)، وفيه عبد الغفار بن عبد العزيز: ضعيف الحديث. انظر: «الكامل» لابن عدي (٥/ ١٩٦٦).

وفي الدعاء المأثور، عن أبي الدرداء -وروي مرفوعًا-: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ»(١).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ (٢) إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أرشد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عبادَهُ إلىٰ دعائه، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ قيل: معناه: تذللًا واستكانةً، و﴿وَخُفۡيَةً﴾ كما قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] وفي «الصحيحين»، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: رَفَعَ النَّاس أصواتهم بالدُّعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا(٣) النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» الحديث(٤).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ قال: السِّر.

وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعٗا﴾: تذللًا واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفۡيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحَّة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءً.

وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: [إنْ](٥) كانَ الرَّجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به النَّاس. وإن كان الرَّجل لقد فَقُه الفقه الكثير، وما يشعر به النَّاس. وإن كان الرَّجل لَيُصَلِّي الصَّلاة الطَّويلة في بَيْتِهِ وعنده الزُّوَّر(٦) وما يشعرونَ به. ولقد أدركنا أقوامًا ما كان علىٰ الأرض مِن عمل يَقْدِرُون أن يعملوه في السِّرِّ فيكون علانيةً أبدًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رَضِي فعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم:٣].

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٤٤١)، وفيه خالد بن يزيد أبو الهيثم العمري، كذَّبه العلماء واستنكروا حديثه، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات (انظر «لسان الميزان» (١٥٩٨).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وَخصَّ الدُّعَاءَ بِالْخُفْيَةِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الحِكَمِ وَغَيْرِهَا وَخصَّ الذِّكْرَ بِالْخِيفَةِ لِحَاجَةِ الذَّاكِرِ إِلَىٰ الْخَوْفِ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَسْتَلْزِمُ الْمَحَبَّةَ وَيُثْمِرُهَا؛ وَلَا بُدَّ لِمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَنْ يُثْمِرَ لَهُ ذَلِكَ مَحَبَّتَهُ وَالْمَحَبَّةُ مَا لَمْ تَقْتَرِنْ بِالْخَوْفِ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا بَلْ تَضُرُّهُ؛ لِأَنَّهَا تُوجِبُ التواني وَالِانْبِسَاطَ وَرُبَّمَا آلَتْ بِكَثِيرِ مِنْ الْجُهَّالِ الْمَغْرُورِينَ إِلَىٰ أَنْ اسْتَغْنَوْا بِهَا عَنْ الْوَاجِبَاتِ وَقَالُوا: الْمَقْصُودُ مِنْ الْعِبَادَاتِ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ وَإِقْبَالُهُ عَلَىٰ اللهِ. وَمَحَبَّتُهُ لَهُ فَإِذَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَالِاشْتِغَالُ بِالْوَسِيلَةِ بَاطِلٌ. «الفتاوىٰ»: (١٥/ ٢٠).

(٣) لوحة (١١١/ أ).

(٤) البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢).

(٥) ليست في (ز).

(٦) جمع زائر.

وقال ابن جُرَيْج: يُكْرَه رفع الصوت والنِّداء والصِّياحُ في الدُّعاء، ويؤمر بالتَّضرُّع والاستكانة، ثم روىٰ عن عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: في الدُّعاء ولا في غيره.

وقال أبو مِجْلز: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: لا تسأل منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدَّثنا شعبة، عن زياد بن مِخْراق، سَمِعْتُ أبا نعامة[١] عن مولىٰ لسعد؛ أنَّ سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللَّهمَّ إني أسألك الجنَّة ونعيمها وإستبرقها، ونحوًا من هذا، وأعوذ بك من النَّار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيرًا [كثيرًا][٢] وتعوَّذْتَ بالله من شرٍّ كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**»، وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وإن بحسبك أن تقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ**»[٣].

ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مِخْرَاق، عن أبي نَعَامة، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفَّان، حدَّثنا حَمَّاد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نَعَامة: أنَّ عبد الله بن مُغَفَّل سمع ابنه يقول: اللَّهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين[٤] الجنَّة إذا دخلتها. فقال: يا بُنَيّ، سَلِ الله الجنَّة، وعُذْ به من النَّار؛ فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ**»[٥].

وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسىٰ بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجُرَيري، عن أبي نَعَامة -واسمه: قيس ابن عباية الحنفي البصري- وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾، ينهىٰ تعالىٰ عن الإفساد في الأرض، وما أَضَرَّه بعد الإصلاح! فإنه [إذا كانت][٦] الأمور ماشية علىٰ السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، في الأرض كان أضر ما يكون علىٰ العباد. فنهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتَّضرُّع إليه والتَّذلُّل لديه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا مما عنده من وَبيلِ العقاب، وطمعًا فيما عنده مِن جزيل الثواب.

---

(١) في (ز): «أبا علية»، وهو تصحيف. وأبو نعامة هو قيس بن عباية، وانظر: تعليق العلامة/ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ «المسند»: (٣/ ٤٧) (١٤٨٣).

(٢) سقط من (ز)، والمثبت من «المسند».

(٣) صحيح: أبو داود (١٤٨٠)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وإسناده حسن، وله شاهد من حديث عبد الله بن مغفل. رواه أبو داود (٩٦)، وابن ماجة (٣٨٦٤)، وأحمد (٥/ ٥٥)، وإسناده صحيح، وهو الآتي بعده في الكتاب.

(٤) لوحة (١١١/ ب). (٥) صحيح: انظر التعليق السابق. (٦) سقط من (ز).

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مُرْصَدة للمحسنين، الَّذين يَتَّبعون أوامره ويتركون زَوَاجِرَه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: «قريبة»؛ لأنَّه ضمَّن الرحمة معنىٰ الثَّواب، أو لأنَّها مضافةٌ إلىٰ الله، فلهذا قال: قريبٌ من المحسنين. وقال مَطَر الوَرَّاق: تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته، فإنَّه قضىٰ أنَّ رحمته قريبٌ من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ أنَّه خالق السموات والأرض، وأنَّه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشد إلىٰ دعائه؛ لأنه علىٰ ما يشاء قادر -نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّه الرزَّاق، وأنه يعيد الموتىٰ يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نشْرًا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم مَن قرأ ﴿بُشْرًا﴾(١) كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ(٢) ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورىٰ:٢٨]، وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحابًا ثقالًا؛ أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلةً قريبةً من الأرض مدلهمةً، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالا

وقوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: إلىٰ أرض مَيِّتَةٍ مُجْدِبَةٍ لا نبات فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة، ينزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يومًا، فتنبت منه الأجساد في

---

(١) متواترة: قَرَأَ (بُشْرًا) عَاصِمٌ، وَقَرَأَ (نُشْرًا) ابْنُ عَامِرٍ، وَقَرَأَ (نَشْرًا) حَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الأَعْمَشُ، وَقَرَأَ البَاقُونَ (نُشُرًا).

(٢) لوحة (١١٢/ أ).

قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنىٰ كثيرٌ في القرآن، يضرب الله مثلًا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخاري: حدَّثنا محمَّد بن العلاء، حدَّثنا حماد بن أسامة، عن بُرَيد[٢] بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[٣].

رواه مسلم والنَّسائي مِن طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة به[٤].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ قصَّة آدم في أول السورة، وما يتعلَّق بذلك وما يتَّصل به، وفرغ منه، شرع تعالىٰ في ذكر قصص الأنبياء -عليهم السلام- الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنَّه أوَّل رسول [بعثه الله][٥] إلىٰ أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو: نوح بن لَامَك بن متوشلح بن خَنُوخ -وهو إدريس النَّبيُّ عليه السلام- فيما يزعمون، وهو أول من خطَّ بالقَلَمِ -ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام.

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة، فإنَّ القلوب الطَّيِّبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.
وأمَّا القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلًّا قابلًا بل يجدها غافلةً معرضةً، أو معارضةً، فيكون كالمطر الذي يمر علىٰ السِّباخ والرِّمال والصُّخور، فلا يؤثر فيها شيئًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾.

(٢) في (ز): «يزيد»، وهو تصحيف، والتصويب من البخاري، ومصادر التخريج.

(٣) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣/ ٥٨٤٣)، وأحمد (٤/ ٣٩٩).

(٤) لوحة (١١٢/ ب). (٥) زيادة من (ح).

هكذا نسبه محمَّد بن إسحاق وغير واحدٍ من أئمَّة النَّسب، قال محمَّد بن إسحاق: ولم يَلْقَ نبيٌّ مِن قومه من الأذىٰ مثل نوحٍ إلا نبي قُتِل.

وقال يزيد الرَّقَاشي: إنَّما سُمِّي نوحًا لكثرة ما نَاحَ علىٰ نفسه.

وقد كان بين آدم إلىٰ زمن نوح -عليهما السلام- عشرة قرون، كلُّهم علىٰ الإسلام [قاله عبد الله ابن عبَّاس](١).

قال عبد الله بن عبَّاس وغير واحدٍ من علماء التفسير: وكان أول ما عُبِدَت الأصنام: أنَّ قومًا صالحين ماتوا، فبنىٰ قومهم عليهم مساجدَ وصَوَّروُا صور أولئك فيها، لِيَتَذَكَّروا حالهم وعبادتهم، فيَتَشَبَّهوا بهم، فلما طال الزَّمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا علىٰ تلك الصور، فلمَّا تمادىٰ الزَّمان عبدوا تلك الأصنام وسمُّوها بأسماء أولئك(٢) الصالحين «ودًّا وسُوَاعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسرًا»، فلمَّا تفاقم الأمر بعث الله ﷻ -وله الحمد والمِنَّة- رسوله نوحًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الجمهور والسَّادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: في دعوتك إيَّانا إلىٰ ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفُجَّار إنَّما يرون الأبرار في ضلالةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ(٣) إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾، [الأحقاف:١١] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما أنا ضالٌّ، ولكن أنا رسولٌ مِن ربِّ كل شيءٍ ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغًا فصيحًا ناصحًا [عالمًا](٤) بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في «صحيح مسلم»: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة -وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا-: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قالوا: نشهد أنك [قد](٥) بلَّغتَ وأدَّيتَ [ونصحتَ](٦). فجعل يرفع إصبعه إلىٰ السماء وينكتُها عليهم ويقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»(٧).

---

(١) ليست في (ز)، والأثر عند «الطبري» (٤٠٤٨)، وابن أبي حاتم (١٥١٨٤)، وهو صحيح، وتقدم في سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٢) في (ز): «تلك».

(٣) لوحة (١١٣/ أ).

(٤) زيادة من (ح).

(٥) زيادة من (ح).

(٦) زيادة من (ح).

(٧) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن نوح عليه السلام أنَّه قال لقومه: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي: لا تعجبوا مِن هذا، فإنَّ هذا ليس بعجَب أن يوحي الله إلىٰ رجل منكم، رحمةً بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم؛ لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمادوا علىٰ تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليلٌ، كما نصَّ عليه تعالىٰ في موضعٍ آخرَ، ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥]، ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح:٢٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق، لا يُبْصِرُونه ولا يهتدون له.

فبيَّن تعالىٰ في هذه القصَّة أنَّه انتقم لأوليائِهِ مِن أعدائِهِ، وأنجىٰ رسوله والمؤمنين، وأَهْلَكَ أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١، ٥٢].

وهذه سُنَّة الله في عباده في الدُّنيا والآخرة، أنَّ العاقبة [فيهما][(١)] للمُتَّقين والظفر، والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح عليه السلام بالغرَقِ، ونجىٰ نوحًا وأصحابه المؤمنين.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوحٍ قد ضاق بهم السَّهل والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذَّب الله قوم نوح عليه السلام إلا والأرض ملأىٰ بهم، وليس بقعة[(٢)] من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وَهْب: بلغني عن ابن عبَّاس: أنَّه نجا مع نوح عليه السلام في السَّفينة ثمانون رجلًا أحدهم «جُرْهم»، وكان لسانه عربيًّا.

رواهن ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير مِن وجهٍ آخر متصلًا عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما[(٣)].

---

(١) زيادة من (ح). (٢) لوحة (١١٣/ ب).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٨٦٣٥) من طريق الحسين بن واقد (ثقة له أوهام) عن أبي نهيك عثمان بن نهيك، وقد اختلف في توثيقه وتضعيفه، واضطرب فيه قول الحافظ، فقال مرة: مقبول، انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة (٢٥٢٤)، وقال في «الكنىٰ»: ثقة، ترجمة (٨٤١٩).

قلت: ذكره ابن حبان في «الثقات» فيمن لا يعرف اسمه، وذكره مغلطاي في «إكمال تهذيب الكمال» ورجح عدم تسميته (ص١٦١) وأيًّا كان الأمر، فهذه من الأخبار التي تروىٰ علىٰ سبيل الحكاية لا تصدق ولا تكذب. فالله أعلم.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى
سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ
﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: وكما أرسلنا إلىٰ قوم نوحٍ نوحًا، كذلك أرسلنا إلىٰ عادٍ أخاهم هودًا.

قال محمَّد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

قلت: وهؤلاء هم عاد الأولىٰ، الذين ذكرهم الله تعالىٰ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأْوُون إلىٰ العُمُد في البر، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن عبد الله بن أبي سعيد الخُزَاعي، عن أبي الطُّفَيْل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبًا أحمر تخالطه مَدَرَة[(١)] حمراء ذا أَرَاكٍ وسِدْر[(٢)] كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لَتَنْعَته نعتَ رجلٍ قد رآه. قال: لا، ولكني قد حُدِّثْتُ عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هودٍ عليه السلام[(٣)].

رواه ابن جرير؛ وهذا فيه فائدة: أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودًا عليه السلام دُفِنَ هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبًا؛ لأن الرُّسل إنَّما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقهم شُدِّد علىٰ قلوبهم، وكانوا مِن أَشَدِّ الأمم تكذيبًا للحَقِّ؛ ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له[(٤)]، وإلىٰ طاعته وتقواه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ -و«الملأ» هم: الجمهور والسادة والقادة منهم-: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: في ضلالةٍ حيث دعوتنا إلىٰ ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلىٰ عبادة الله وحده [لا شريك له][(٥)]، كما تعجب الملأ من قريش من الدَّعوة إلىٰ إلهٍ واحدٍ: ﴿أَجَعَلَ

---

(١) المدرة: الطين لا رمل فيه.

(٢) الأَرَاكُ: شجر السِّواك، يُستاك بفُروعه، قال أَبو حنيفة: هو أَفضل ما اسْتِيك بفرعه من الشجر، وأَطيب ما رَعَتْه الماشية رائحةَ لَبَنٍ. «اللسان»: أرك. والسِّدْرُ: شجر النبق، واحدتها سِدْرَة وجمعها سِدْراتٌ وسِدِراتٌ وسِدَرٌ وسُدورٌ. «اللسان»: سدر، ونبق.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٨/ ٢١٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٣٥)، وفيه تصريح ابن إسحاق بالتحديث، وفي الإسناد محمَّد بن عبد الله: لم يوثقه غير ابن حبان، وهو متساهلٌ في التوثيق. فالإسناد ضعيف.

(٤) لوحة (١١٤/ أ). (٥) ليست في (ز).

ﵟٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞﵞ [ص:٥].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رَبُّ كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرُّسُل: البلاغة والنصح والأمانة[(١)].

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولًا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الَّذِي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾ أي: زاد طولكم على الناس بسطة؛ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ [البقرة:٢٤٧]؛ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه ومنّنه عليكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، و«آلاء» جمع «إِلَىٰ»، وقيل: «أَلَىٰ»[(٢)].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾[(٣)]

يقول تعالى مخبرًا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الزَّمخشري: في إجابة الأنبياء عليهم السلام، مَن نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنَّ خصومهم أضل النَّاس وأسفههم، أدب حسن، وخلق عظيم. وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السُّفهاء وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم، على ما يكون منهم. انتهى.

وزاد القاضي: إنَّ في ذلك كمال النُّصح والشَّفقة، وهضم النَّفس وحسن المجادلة، قال: وهكذا ينبغي لكل ناصح.

(٢) قال ابن جرير: وأمَّا الآلاء فإنَّها جمعٌ، واحدها: (إِلَىٰ) بكسر الألف في تقدير (مِعَىٰ)، ويقال: (أَلَىٰ) في تقدير (قفا) بفتح الألف. وقد حُكي سماعًا من العرب: (إِلْيٌ) مثل: (حِسْيٍ). والآلاء: النعم. (١٢/ ٥٠٥). وقال في «النهاية» لابن الأثير: الآلاء: النعم، واحدُها (أَلَا) بالفتح والقصر، وقد تكسر الهمزة.

(٣) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ مع إثبات التَّكذيب بآيات الله ؟ قلت: هو تعريض بمَن آمَنَ منهم، كمرثد بن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنَّه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل مَن آمن منهم؛ ليؤذن أن الهلاك خصَّ المكذبين، ونجَّىٰ الله المؤمنين. انتهى.

قال الطيبي: يعني إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين، علم أنَّ سبب النَّجاة هو الإيمان لا غير، تزيد رغبته فيه، ويعظم قدره عنده.

ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢].

وقد ذكر محمَّد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصنامًا، فصنم يُقَال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صمُود، وآخر يقال له: الهباء.

ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه مِن رَبِّكم رجسٌ، قيل: هو مقلوب مِن رجز. وعن ابن عبَّاس[1]: معناه السخَط والغضب.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: أَتُحَاجُّوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم علىٰ عبادتها حجةً ولا دليلًا؛ ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وهذا تهديدٌ ووعيدٌ من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنَّه أرسل عليهم الرِّيح العقيم، ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨]، لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريحٍ عاتيةٍ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه علىٰ أمِّ رأسه فتثلغُ رأسه[2] حتىٰ تُبينه من بين جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هودًا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم موضعًا، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد مِنَّا قوَّة؟ واتَّبعه منهم ناسٌ، وهم يسيرٌ مكتتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد علىٰ الله وكذَّبوا نبيَّه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكلِّ ريع آيةً عبثًا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١]، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: بجنون، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٣-٥٦].

قال محمَّد بن إسحاق: فلما أبوا[3] إلا الكفر به أَمْسَك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتىٰ جهدهم ذلك، قال: وكان النَّاس إذا جَهَدَهُم أمرٌ في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنَّما يطلبونه بحُرْمة ومكان بيته، [وكان معروفًا عند المِلَل][4] وبه العماليق مقيمون، وهم من

(١) لوحة (١١٤/ ب).
(٢) ثلغ رأسه: هشَّمه وشدخه، وتبينه: تفصله.
(٣) لوحة (١١٥/ أ).
(٤) في (ح): «وكانوا عند أهل ذلك الزمان».

سلالة عمليق بن لاوذ[١] بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلًا يقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت له أمٌّ مِن قوم عاد، واسمها كلهدة[٢] ابنة الخَيْبَرِيّ، قال: فبعثت عادٌ وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا إلىٰ الحرم؛ ليستسقوا لهم عند الحرم، فمَرُّوا بمعاويةَ بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان -قينتان لمعاوية- وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلمَّا طال مقامهم عنده وأخذته شفقة علىٰ قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به، فقال:

أَلَا يَـا قَيْـلُ وَيْحَـكَ قُـمْ فَهَيْـنِمْ ... لَعَـلَّ اللهَ يُـصْبِحُنَا غَمَامَـا

فَيَـسْقِي أَرْضَ عَـادٍ إِنَّ عَـادًا ... قَـدْ امْـسَوْا لا يُبِينُـونَ الكَلَامَـا

مِـنَ العَطَـشِ الـشَّدِيدِ فَلَـيْسَ نَرْجُـوا ... بِـهِ الـشَّيْخَ الكَبِيـرَ وَلَا الغُلَامَـا

وَقَـدْ كَانَـتْ نِـسَاؤُهُمُ بِخَيْـرٍ ... فَقَـدْ أَمْـسَتْ نِـسَاؤُهُمُ عَيَـامَىٰ[٣]

وَإِنَّ الـوَحْشَ تَـأْتِيهِمْ جِهَـارًا ... وَلَا تَخْـشَىٰ لِعَـادِيٍّ سِـهَامَا

وَأَنْـتُمْ هَاهُنَـا فِيمَـا اشْـتَهَيْتُمْ ... نَهَـارَكُمُ وَلَـيْلَكُمُ التَّمَامَـا

فَقُـبِّحَ وَفْـدُكُمْ مِـنْ وَفْـدِ قَـوْمٍ ... وَلَا لُقُّـوا التَّحِيَّـةَ وَالـسَّلَامَا

قال: فعند ذلك تنبَّه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلىٰ الحرم، ودعوا لقومهم فدعا دَاعِيهم، وهو: «قَيْلُ ابن عنز» فأنشأ الله سحاباتٍ ثلاثًا: بيضاءَ، وسوداءَ، وحمراءَ، ثم ناداه منادٍ من السماء: «**اخْتَرْ لِنَفْسِكَ -أَوْ- لِقَوْمِكَ مِنْ هَذَا السَّحَابِ**»، فقال: اخترتُ هذه السَّحابة السَّوداء، فإنَّها أكثر السَّحاب ماءً. فناداه مُنادٍ: اخترت رَمادًا رِمْدِدًا[٤]، لا تبقي من عادٍ أحدًا، لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته هَمدًا، إلا بني اللَّوذيَّة المهندا، قال: وبنو اللَّوذيَّة: بطن من عاد مقيمون بمكَّة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم -قال: وهم مَنْ بَقِيَ مِن أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة- قال: وساق الله السَّحابة السَّوداء، فيما يذكرون، التي اختارها «قَيْلُ بن عنز» بما فيها من النِّقمة إلىٰ عاد، حتىٰ تخرج عليهم من وادٍ يقال له: «المُغِيثُ»، فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا[٥] عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥]، أي: كل شيءٍ مَرَّت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنَّها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدَد[٦]: فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعِقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مَهْدد؟ قالت: ريحًا فيها شُهُب النَّار، أمامها رجالٌ يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسومًا، كما قال الله -و«الحُسوم»: الدائمة، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك واعتزل هُود عليه السلام فيما ذكر لي، ومن

---

(١) في (ز): «لاوم»، والمثبت من (ح) و«الطبري». (٢) في (ز): «جلهدة»، والمثبت من «الطبري» (١٠/ ٢٧٠).

(٣) عامَ القومُ: قلَّ لبنهم من القحط. وفي «البداية والنهاية»: «أيامىٰ» جمع أيم، وهي التي هلك زوجها.

(٤) الرِّمدد: المتناهي في الاحتراق والدقة. «النهاية». (٥) لوحة (١١٥/ ب).

(٦) في (ز): «مهيد»، وفي (ح): «مهد». والمثبت من «الطبري» (١٢/ ٥١٢) ط: شاكر.

معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومَن معه إلا [ما][(١)] تلين عليه الجلود، وتلْتذ الأنفس، وإنَّها لتمر على عاد بالطَّعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياقٌ غريبٌ فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [في «مسنده» قريبٌ مما أورده محمَّد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الإمام أحمد:][(٢)] حدَّثنا زيد بن الحُبَاب، حدَّثني أبو المُنذر سَلَّام بن سليمان النحوي، حدَّثنا عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البَكريِّ قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلىٰ رسول الله ﷺ، فمررت بالرَّبَذَة فإذا عجوز من بني تميم مُنْقطِع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلىٰ رسول الله ﷺ حاجةً، فهل أنت مُبلغي إليه؟ قال: فحَمَلتُها فأتيتُ المدينة، فإذا المسجد غَاصٌّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلِّد بسيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن النَّاس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا. قال: فجلستُ، فدخل منزله -أو قال: رحله- فاستأذنتُ عليه، فأَذِن لي، فدخلتُ فسلَّمتُ، فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبَرة[(٣)] عليهم، ومررتُ بعجوز من بني تميم مُنقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأَذِنَ لها، فدَخَلَتْ، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء. فحَمِيَت العجوز واستوفزت[(٤)]، فقالت: يا رسول الله، فإلىٰ أين يضطر مُضَرُكَ[(٥)]؟ قال: قلت: إن مَثَلِي ما قال الأول: «معزَىٰ حَمَلت حتفها[(٦)]»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد! قال: «**هِيهْ، وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟**» -وهو أعلم[(٧)] بالحديث منه، ولكن يستطعمه- قلت: إنَّ عادًا قَحطُوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: «قيل»، فمرَّ بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يَسْقِيه الخمر وتغنيه جاريتان، يقال لهما: «الجرادتان»، فلما مضىٰ الشهر خرج إلىٰ جبال مَهْرة، فقال: اللَّهم إنَّك تعلم أني لم أجئ إلىٰ مريض فأداويه، ولا إلىٰ أسيرٍ فأُفاديه. اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سُودٌ، فنُودي منها: «اختَرْ». فأومأ إلىٰ سحابة منها سوداء، فنودي منها: «**خُذْهَا رَمَادًا رِمْدِدًا، لا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا**». قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتىٰ هلكوا -قال أبو وائل: وصدق- قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد»[(٨)].

---

(١) سقط من (ز)، وأثبتناها من «الطبري». (٢) سقط من (ز).

(٣) الدَّبَرَة: الهزيمة لهم، والدَّولة والظفر للآخرين. (٤) استوفزت: استقلت علىٰ رجليها متهيئةً للوثوب.

(٥) في (ح): «معزك!!»، والمثبت من «المسند» (٢٥/ ٣٠٧)، ومضر: هو مضر بن نزار، جَدّ قريش وبني تميم.

(٦) هذا مثلٌ مشهورٌ بلفظ: (حَتْفَها تَحْمِلُ ضَأنٌ بأظْلَافها) وأصله: أنَّ رجلًا كان جائعًا بالبلد القَفْر فوَجد شَاةً ولم يكن مَعَه ما يَذْبَحُها به، فبَحَثَت الشَّاةُ الأرض، فظَهَر فيها مُدْيَةٌ، فذبحها بها، فصَار مثَلًا لكُلِّ مَن أعَانَ علىٰ نَفْسِه بسُوء تَدْبيره. «النهاية». وانظر: «مجمع الأمثال»: (١/ ١٩٢).

(٧) لوحة (١١٦/ أ).

(٨) الترمذي (٨٢٧٠)، وأحمد (٣/ ٤٨٢)، والطبري (٨/ ٢٢٠) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة»والبغوي في «معجم =

هكذا رواه الإمام أحمد في «المسند»، ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به نحوه، ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر[١]. عن عاصم -وهو ابن بَهْدَلة- ومن طريقه رواه ابن ماجة أيضًا، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري به. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب عن زيد بن حُبَاب به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكري» فذكره، ورواه أيضًا عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن حسان البكري، فذكره ولم أر في النسخة «أبا وائل»، والله أعلم[٢].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ[٣] ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[٤] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

= الصحابة» (٤٤٥٣)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦٥٩). ورجاله ثقات عدا سلَّام: متكلم فيه، وقد قال ابن عدي: عامة ما يرويه حسان، إلا أنه لا يتابع عليه.

(١) في (ح): «سلَّام بن أبي المنذر»، وهو خطأ، فهو سلَّام بن سليمان القارئ أبو المنذر المزني، يروي عن عاصم بن بهدلة.

(٢) **مقصود ابن كثير**: أن رواية الطبري (٨/ ٢٢٠) لم يذكر فيها أبا وائل الراوي عن الحارث البكري، ولا شك أنَّ إثبات أبي وائل أرجح؛ لأنَّها مِن طريق سلَّام أبي المنذر، وهو أحفظ لرواية عاصم من رواية أبي بكر بن عياش.

(٣) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال في «الانتصاف»: ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضىٰ المطابقة أن يقولوا: إنَّا بما أُرسل به كافرون، ولكن أبَوْا ذلك حذرًا ممَّا في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك علىٰ سبيل التَّهكُّم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، فأثبت إرساله تهكمًا، وليس هذا موضع التَّهكُّم، فإنَّ الغرض إخبار كل واحدٍ من الفريقين، والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرِّسالة، احتياطًا للكفر، وغلوًّا في الإصرار. انتهىٰ. ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه في إصابة العذاب عن مسها بالسُّوء.

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الرَّازي: زعم بعض الملحدين أنَّ ألفاظ التَّنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت، وهي: الرَّجفة والطَّاغية والصَّيحة.

والجواب ما قاله أبو مسلم: إنَّ الطَّاغية: اسم لكل ما تجاوز حدَّه، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت. وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، ويقال: طغىٰ طغيانًا، وهو طاغٍ وطاغية، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾، أي: غلب وتجاوز عن الحد. وأمَّا الرَّجفة فهي الزَّلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها، وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصَّيحة العظيمة الهائلة.

وأمَّا الصَّاعقة، فالغالب أنَّها الزَّلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾. فبطل ما زعمه ذلك البعض.

قال علماء التَّفسير والنَّسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جَديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام[١] وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشَّام إلىٰ وادي القرىٰ وما حوله، وقد مَرَّ رسول الله ﷺ علىٰ قُرَاهم ومساكنهم، وهو ذاهبٌ إلىٰ تبوك سنة تسع.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا صَخْر بن جُوَيرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس علىٰ تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقىٰ النَّاس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها القُدُور. فأمرهم النَّبيُّ ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتىٰ نزل بهم علىٰ البِئر التي كانت تشرب منها النَّاقة، ونهاهم أن يدخلوا علىٰ القوم الذين عُذِّبُوا، [قال:][٢] «**إِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**»[٣].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدَّثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»[٤]. وأصل هذا الحديث مُخَرَّج في «الصحيحين» من غير وجه.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمَّد بن أبي كَبْشَة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلىٰ أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنادىٰ في الناس: «**الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ**». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره[٥] وهو يقول: «**مَا تَدْخُلُونَ عَلَىٰ قَوْمٍ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ**». فناداه رجلٌ منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: «**أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ: رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ، فَاسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَعْبَأُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا وَسَيَأْتِي قَوْمٌ لَا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا**»[٦].

لم يخرجه أحدٌ من أصحاب السنن، وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرَّزَّاق: حدَّثنا مَعْمَر، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن أبي

---

(١) لوحة (١١٦/ ب). (٢) زيادة من المسند.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١١٧)، ورواه مسلم (٢٩٨١) مختصرًا.

(٤) أحمد (٢/ ٧٤)، والبخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٥) في (ز): «بعنزة»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) حسن: رواه أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني (٢٢/ ٨٢٥)، ولا يضرُّ كون المسعودي اختلط؛ فرواية جعفر بن عون عنه عند الطَّبراني، وهو ممَّن روىٰ عنه قبل الاختلاط.

الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لَا تَسْأَلُوا الآيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ** -يعني: الناقة- **تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا** (١) **وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ**». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ**» (٢).

وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب السِّتَّة، وهو علىٰ شرط مسلم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلىٰ قبيلة ثمود أخاهم صالحًا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ جميع الرُّسل يدعون إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: قد جاءتكم حُجَّة مِن الله علىٰ صِدْق ما جئتكم به. وكانوا هم الَّذِين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآيةٍ، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرةٍ صمَّاء عَيَّنوها بأنفسهم (٣)، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ (٤)، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلىٰ سؤالهم وأجابهم إلىٰ طُلْبتهم ليُؤمِنُنَّ به وليتبعنه. فلما أعطوه علىٰ ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلىٰ

---

(١) لوحة (١١٧/ أ). (٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٢٩٦).

(٣) قال الشيخ السعدي رحمه الله: واعلم أنَّ كثيرًا من المفسِّرين يذكرون في هذه القصَّة أنَّ النَّاقة قد خرجت من صخرة صمَّاء ملساء اقترحوها علىٰ صالح وأنَّها تمخَّضت تمخُّض الحامل فخرجت النَّاقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلًا حين عقروها رغىٰ ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن صالحًا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأوَّل من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال. وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدلُّ علىٰ شيءٍ منها بوجهٍ مِن الوجوه، بل لو كانت صحيحةً لذكرها الله تعالىٰ؛ لأنَّ فيها من العجائب والعِبَر والآيات ما لا يهمله تعالىٰ ويدع ذكره، حتىٰ يأتي مِن طريق مَن لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذِّب بعض هذه المذكورات، فإن صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تنعموا وتلذَّذوا بهذا الوقت القصير جدًّا، فإنَّه ليس لكم من المتاع واللَّذَّة سوىٰ هذا، وأيُّ لذَّةٍ وتمتع لمَن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يومًا فيومًا، علىٰ وجه يعمهم ويشملهم: احمرار وجوههم، واصفرارها واسودادها من العذاب.

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟. فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ ممَّا لا يناقض كتاب الله، فعلىٰ الرَّأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتِّباعه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وقد تقدَّم أنَّه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيليَّة، ولو علىٰ تجويز الرِّواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإنَّ معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

(٤) أي: حامل يأخذها الطلق.

عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ صلاته ودعا الله عَزَّ وَجَلَّ، فتحرَّكت تلك الصَّخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفاء وَبْرَاء يتحرَّك جنينها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القَوْمِ وهو: «جُندَع بن عمرو» ومَن كان معه علىٰ أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم «ذُؤاب بن عمرو بن لبيد»، «والحُباب» صاحب أوثانهم، و«رباب بن صمعر بن جلهس»(١)، وكان لـ«جندع بن عمرو» ابن عم يقال له: «شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس»، وكان مِن أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يُسلم أيضًا فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجلٌ من مؤمني ثمود، يقال له: مِهْوس بن عِنمة ابن الدميل(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَانَــتْ عُـصْبَةٌ مِــنْ آلِ عَمْــرٍو ... إِلَــىٰ دِيــنِ النَّبِــيِّ دَعَــوْا شِــهَابَا

عَزِيــزَ ثَمُــودَ كُلِّهِــمُ جَمِيعًــا ... فَهَــمَّ بِــأَنْ يُجِيــبَ فَلَــوْ أَجَابَــا

لأَصْــبَحَ صَــالِحٌ فِينَــا عَزِيــزًا ... وَمَــا عَــدَلُوا بِــصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَــا(٣)

وَلَكِــنَّ الغُــوَاةَ مِــنْ آلَ حُجْــرٍ ... تَوَلَّــوْا بَعْــدَ رُشْــدِهِمْ ذِئَابَــا(٤)

فأقامت النَّاقة وفصيلها بعد ما وضعته بَين أظهرهم مُدَّةً، تَشْرَب ماء بئرها يومًا، وتَدَعُهُ لهم يومًا، وكانوا يشربون لبنها يوم شُرْبِهَا، يحتلبونها فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية تَرِدُ من فَجٍّ وتَصْدُرُ مِن غيره ليسعها؛ لأنَّها كانت تتضلَّع(٥) عن الماء، وكانت -علىٰ ما ذُكر- خَلْقًا هائلًا ومنظرًا رائعًا، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلمَّا طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عزموا علىٰ قتلها، ليَسْتَأْثِرُوا بالماء كلَّ يوم، فيُقَال: إنَّهم اتَّفقوا كلهم علىٰ قتلها.

قال قتادة: بَلَغَنِي أنَّ الذي قتل النَّاقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتىٰ علىٰ النِّساء في خُدُورهن، وعلىٰ الصِّبيان أيضًا.

قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك علىٰ مجموع القبيلة، فدلَّ علىٰ رضا جميعِهِم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من علماء التَّفسير في سبب قتل الناقة: أنَّ امرأةً منهم يقال لها: «عُنَيزةُ ابنة غُنْم بن مِجْلَز» وتكنىٰ أم غُنْم(٦) كانت عجوزًا كافرةً، وكانت مِن أشدِّ النَّاس

---

(١) في (ز): «بن حلمس»، وفي (ح): «بن خلبس»، والمثبت موافق لما في «الطبري»، و«البداية والنهاية».

(٢) كذا في (ز) و«الطبري» وفي «البداية والنهاية» و«قصص الأنبياء» «مهرش بن غنمة».

(٣) لوحة (١١٧/ ب).

(٤) في «الطبري»: (١٢/ ٥٣٠) ط شاكر: «ذبابًا».

(٥) أي: تمتلئ ريًّا.

(٦) في (ز): «أم عثمان»، والمثبت من «الطبري».

عداوةً لصالح عليه السلام وكانت لها بناتٌ حسانٌ ومال جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرىٰ يقال لها: «صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا[(١)]» ذات حسب ومال[(٢)]، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلًا يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبىٰ عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مِصْدَعُ بْنُ مَهْرج بن المحيَّا»، فأجابها إلىٰ ذلك، ودعت «عُنَيزة بنت غُنْم» قُدار بن سَالِف بن جُنْدَع[(٣)] وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان ولد زَنية، وأنَّه لم يكن مِن أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنَّما هو من[(٤)] رجل يقال له: «صهياد»[(٥)]، ولكن ولد علىٰ فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئتَ علىٰ أن تَعْقِرَ النَّاقة! فعند ذلك، انطلق «قُدار بن سَالِف» و«مِصْدَع بن مَهْرج»، فاستفزا[(٦)] غُواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعةَ رهط، وهم الذين قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم علىٰ ذلك، فانطلقوا فرصدوا النَّاقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرةٍ علىٰ طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل أخرىٰ، فمرت علىٰ «مصدع» فرماها بسهم، فانتظم به عضَلَة ساقها وخرجت «أُمُّ غُنْم عُنيزة»، وأمرت ابنتها -وكانت مِن أحسن النَّاس وجهًا- فسفرت عن وجهها لقدار وذمَّرته[(٧)] فشدَّ علىٰ النَّاقة بالسَّيف، فكشف عن عُرْقُوبها[(٨)]، فخرَّت ساقطةً إلىٰ الأرض، ورغَتْ رَغاةً واحدة تُحذِّر سَقْبَها[(٩)]، ثم طعن في لَبَّتِها فنحرها، وانطلق سَقْبُها -وهو فصيلها- حتىٰ أتىٰ جبلًا منيعًا، فصعد أعلىٰ صخرةٍ فيه ورَغَا. فروىٰ عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عمن سمع الحسن البصري أنَّه قال: يا رب أين أمي؟ ويقال: إنَّه رغا ثلاث مرات. وإنَّه دخل في صخرةٍ فغاب فيها. ويقال: بل اتَّبعوه فعقروه مع أُمِّه، فالله أعلم.

فلمَّا فعلوا ذلك وفرغوا من عقر النَّاقة بلغ الخبر صالحًا عليه السلام فجاءهم وهم مُجْتَمِعُون، فلمَّا رأىٰ النَّاقة بكىٰ وقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، وكان قتلهم النَّاقة يوم الأربعاء، فلمَّا أمسىٰ أولئك التِّسعة الرهط عزموا علىٰ قتل صالح عليه السلام وقالوا: إن كان صادقًا عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته، ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ الآيات [النمل:٤٩-٥٢]، فلما عزموا علىٰ ذلك، وتواطئوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح،

---

(١) في (ز): «المحيا بن زهير بن المختار»، والمثبت من «الطبري»: (١٢/ ٥٣٢) ط شاكر.

(٢) في (ز): «وجمال».

(٣) في (ز): «بن جذع»، والمثبت من «الطبري».

(٤) لوحة (١١٨/ أ).

(٥) في (ز): «ضبيان»، والمثبت من «الطبري».

(٦) في (ز): «فاستغووا»، والمثبت موافق لما في «الطبري» (١٢/ ٥٣٣ شاكر)، و(١٠/ ٢٩١).

(٧) ذمرته: شجعته وحثته وحرضته.

(٨) أي: قطعه.

(٩) السَّقْب: ولد الناقة.

أرسل الله ﷻ -وله العزة ولرسوله- عليهم حجارةً فرضَختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم[١]، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم[٢] الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح ﵇، وأصبحوا في اليوم الثَّاني مِن أيَّام التَّأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودَّة[٣]، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحَنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذًا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وقد أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السَّماء ورَجْفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النُّفوس في ساعةٍ واحدةٍ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: صرعىٰ لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثىٰ -قالوا: إلا جارية كانت مقعدة- واسمها «كلبة ابنة السَّلْق»، ويقال لها: «الزُّرَيْقَةُ»- وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح ﵇، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعىٰ كأسرع شيء، فأتت حيًّا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

قال علماء التَّفسير: ولم يبقَ مِن ذُرِّيَّة ثمود أحدٌ سوىٰ صالح ﵇ ومن اتَّبعه إلا أن رجلًا كان يقال له: «أبو رِغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيمًا في الحرم، فلم يُصِبْهُ شيء، فلمَّا خرج في بعض الأيام إلىٰ الحِلِّ جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدَّم في أوَّل القصَّة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أنَّ أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف.

قال عبد الرزَّاق: قال مَعْمَر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بقبر أبي رغال فقال: **«أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟»** فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، رَجُلٌ مِنْ ثَمُودَ، كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ، فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللهِ عَذَابَ اللهِ. فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ، فَدُفِنَ هَاهُنَا، وَدُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَابْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ، فَبَحَثُوا عَنْهُ، فَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْنَ»**[٤].

وقال عبد الرزَّاق: قال مَعْمَرٌ: قال الزُّهرِيُّ: أبو رِغَال: أبو ثَقِيف.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد رُوِيَ متصلًا من وجه آخر، كما قال محمَّد بن إسحاق، عن إسماعيل ابن أمية، عن بُجَير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلىٰ الطَّائف[٥]، فمررنا بقبر فقال: **«هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ، وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ، وَكَانَ بِهَذَا الحَرَمِ فَدَفَعَ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا المَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ. وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ» فَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ الغُصْنَ**[٦].

---

(١) في (ز): «قبل يومهم». (٢) لوحة (١١٨/ ب).
(٣) سبق قريبًا كلام العلامة السعدي ﵀ علىٰ هذه الأخبار.
(٤) ضعيف: رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٠٩٨٩)، وإسناده مرسل، بل معضل.
(٥) لوحة (١١٩/ أ).
(٦) ضعيف: أبو داود (٨٠٨٨)، وضعفه الشيخ الألباني؛ لأنَّ فيه بجير بن أبي بجير: مجهول.

وهكذا رواه أبو داود، عن يحيىٰ بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن أبي إسحاق به.

قال شيخنا أبو الحجَّاج المِزِّيُّ: وهو حديث حسن عزيز.

قلت: تفرد بوصله «بُجَيْر بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيىٰ بن معين: ولم أسمع أحدًا روىٰ عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلىٰ هذا، فيخشىٰ أن يكون وَهِمَ في رفع هذا الحديث، وإنَّما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزَّامِلَتين (١).

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تقريع من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إيَّاه، وتمردهم علىٰ الله، وإبائِهم عن قبول الحقِّ، وإعراضهم عن الهدىٰ إلىٰ العمىٰ -قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ لما ظهر علىٰ أهل بَدْرٍ، أقام هناك ثلاثًا، ثم أمر براحلته فشُدَّت بعد ثلاث من آخر اللَّيل فركبها ثم سار حتىٰ وقف علىٰ القليب -قليب بدر-، فجعل يقول: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنِ هِشَام، يَا عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانُ ابْنِ فُلَانٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أقوام قد جَيَّفُوا؟! فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ**» (٢).

وفي «السِّيرة» (٣) أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: «**بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ، كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، فَبِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ**» (٤).

وهكذا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك؛ لأنَّكم لا تُحِبُّون الحقَّ ولا تَتَّبِعُون ناصحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وقد ذكر بعض المفسِّرين أنَّ كلَّ نبيٍّ هَلَكَتْ أُمَّتُهُ كان يذهب فيُقِيمُ في الحرم (٥)، حرم مكة، فالله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، حدَّثنا زَمْعَة بن صالح، عن سلمة ابن وهرام، عن عكرمة، عن

---

(١) كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من الإذن في ذلك بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل»، وقد تقدم الكلام علىٰ أخبار بني إسرائيل وأقسامها في «مقدمة التفسير»، وانظر: «مقدمة أصول التفسير» للإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وشروحها.

(٢) مسلم (٢٨٧١)، وأحمد (٣/ ١٠٤) من حديث أنس، ورواه البخاري (٣٩٧٩، ٣٩٨١)، ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أبي طلحة نحوه.

(٣) لابن هشام (١/ ٦٣٩).

(٤) ضعيف: وقد ثبت عند أحمد (٦/ ١٧٠) نحوه لكنَّه منقطع بين عائشة وإبراهيم النخعي.

(٥) لوحة (١١٩/ ب).

ابن عبَّاس قال: لما مرَّ رَسُول الله ﷺ بوادي عُسْفان حين حَجَّ قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيُّ وَادٍ هَذَا؟» قال: هذا وادي عُسْفَان. قال: «لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- عَلَىٰ بَكَرَاتٍ [حُمْرٍ][١] خُطُمُهَا اللِّيفُ، أُزُرُهُمُ العَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ[٢]، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ البَيْتَ العَتِيقَ»[٣].

هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرجه أحد منهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَ﴾ قد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾، أو تقديره: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولوط: ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وكان قد آمَنَ مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلىٰ أرض الشَّام، فبعثه الله تعالىٰ إلىٰ أهل «سَدُوم» وما حَوْلَها مِن القرىٰ، يدعوهم إلىٰ الله عز وجل ويَأْمُرُهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يَرْتكِبُونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يَسْبِقْهُم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذُّكور [دون الإناث][٤]. وهذا شيءٌ لَمْ يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتىٰ صنع ذلك أهل «سَدُوم» عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: ما نَزَا ذَكر علىٰ ذَكر، حتىٰ كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك -الخليفة الأُموي، باني جامع دمشق-: لولا أنَّ الله عز وجل قَصَّ علينا خبر لوطٍ، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا.

ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: عَدَلْتُم عن النِّساء، وما خلق لكم ربكم منهنَّ إلىٰ الرِّجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنَّه وضع الشَّيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، فأرشدهم إلىٰ نسائهم، فاعْتَذَرُوا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]، أي: لقد عَلِمْتَ أنَّه لا أَرَب لنا في النِّساء، ولا إرادة، وإنَّك لتعلم مرادنا مِن أَضْيَافِكَ.

---

(١) سقط من (ز)، وأثبتناها من «المسند».

(٢) البَكَرات: جمع بَكْرة -مؤنث بكر- وهو الفَتِي من الإبل، والخُطُم: جمع خطام، وهو الحبل الذي يقاد به البعير، والنِّمار: جمع نمرة، وهي شملة مخططة.

(٣) ضعيف: رواه أحمد (١/ ٢٣٢)، وفيه زمعة بن صالح: ضعيف كما في «التقريب».

(٤) ليست في (ز).

وذكر المُفَسِّرون أنَّ الرِّجال كانوا قد استغنىٰ بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كُنَّ قد استغنىٰ بعضهنَّ ببعضٍ أيضًا[١].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: ما أجابوا لوطًا إلا أن هَمُّوا بإخراجه ونَفْيِهِ ومَن معه مِن بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالىٰ سالمًا، وأهلكهم في أرضهم صاغِرِينَ مُهَانِينَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة: عابُوهُم بغير عَيْبٍ.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: من أَدْبَار الرِّجال وأَدْبَار النِّساء. ورُوي مثله عن ابن عبَّاس أيضًا.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: فأنجينا لوطًا وأهله، ولم يُؤْمِن به أحدٌ منهم سوىٰ أهل بيته فقط، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذريات:٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنَّها لم تُؤْمِن به، بل كانت علىٰ دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمَن يَقْدم عليه مِن ضِيفَانِه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أُمِرَ لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَسْرِي بأهله أُمِرَ ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتَّبعتهم، فلمَّا جاء العذابُ التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر: أنها لم تخرج من البَلَدِ، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين. ومنهم مَن فسَّر ذلك ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الهالكين، وهو تفسير باللَّازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر -يا محمَّد- كيف كان عاقبة من تجهرم علىٰ معاصي الله وكذَّب رسله.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ: أن اللَّائط يُلْقَىٰ مِن شاهقٍ، ويُتْبَعُ بالحجارة كما فُعِلَ بقومِ لوطٍ.

وذهب آخرون مِن العُلَمَاء إلىٰ أنَّه يُرْجَم سواء كان محصنًا أو غير محصن. وهو أحد قولي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ والحُجَّة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والتِّرمذي، وابن ماجه، من حديث الدراوردي، عن عمرو بن أبي عَمْرو، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن

---

(١) لوحة (١٢٠/ أ).

وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[١].

وقال آخرون: هو كالزَّاني، فإن كان محصنًا رُجِمَ، وإن لم يكن محصنًا جُلِدَ مائة جلدةٍ. وهو القول الآخر للشافعي[٢].

وأمَّا إتيان النِّساء في الأدبار، فهو اللُّوطية الصُّغرىٰ، وهو حرامٌ بإجماع العلماء، إلا قولًا واحدًا شاذًّا لبعض السَّلف[٣]، وقد ورد في النَّهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدَّم الكلام عليها في «سورة البقرة»[٤].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قال محمَّد بن إسحاق: هُم مِن سُلَالَةِ «مَدْيَن بن مديان بن إبراهيم». وشعيب هو: ابن ميكيل بن يشجن[٥] قال: واسمه بالسُّرْيَانِيَّة: «يثرون»[٦].

قلت: وتطلق «مدين» علىٰ القبيلة، وعلىٰ المدينة، وهي التي بقرب «مَعَان» من طريق الحجاز، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، وهُم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثِّقة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هذه دعوة الرُّسل كلهم، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد أقامَ الله الحُجج والبيِّنات علىٰ صدق ما جئتكم به[٧]. ثمَّ وعظهم في معاملتهم النَّاس بأن يُوفُّوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا النَّاس أشياءهم؛ أي: لا يَخُونُوا النَّاس في أموالهم ويأْخُذُوها علىٰ وَجْهِ البَخْسِ، وهو نقص المكيال والميزان خُفْيَةً وتدليسًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦]، وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، نسأل الله العافية منه.

---

(١) صحيح: أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجة (٢٥٦١).

(٢) ينظر: المغني: (١٢/ ٣٤٨)، و«مجموع الفتاوىٰ»: (١١/ ٥٤٣)، و«مسائل الجمهور»: (٢/ ٨٦٢).

(٣) لوحة (١٢٠/ ب).

(٤) عند قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وذكر ابن القيم رحمه الله مضار هذه الفعلة النكراء في «الزاد»: (٤/ ٢٣٥-٢٤٢).

(٥) كذا في (ز)، و«قصص الأنبياء» للمصنف، وفي «الطبري»: يشجر؛ بالراء، وقال الشيخ شاكر: لا أستطيع الآن ضبطها.

(٦) كذا في (ز)، وفي المطبوع من «قصص الأنبياء»: «يترون»، وفي الطبري: «بثرون».

(٧) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: من الجائز أن يكون الله تعالىٰ قد أعطىٰ نبيَّه شعيبًا آيةً ولم يذكر في القرآن، والرَّاجح أنَّها حجَّةٌ قويَّةٌ قهرهم بها ولم يتمكنُوا من ردِّها.

ثم قال تعالىٰ إخبارًا عن شعيب، الذي يقال له: «خطيب الأنبياء»[١]، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عَن قطع الطَّريق الحِسِّي والمَعْنَوِي، بقوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي: توعدون النَّاس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السُّدِّي وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحدٍ: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلىٰ شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتوَدُّون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلةً. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلَّتكم فصِرْتُم أَعِزَّةً[٢] لكثرة عَدَدكم[٣]، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حَلَّ بهم من العذاب والنَّكال باجترائهم علىٰ معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: قد اختلفتم عليَّ، ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾[٤] أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ فإنَّه سيجعل العاقبة للمُتَّقِين، والدَّمار علىٰ الكافرين.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

---

(١) ورد ذلك من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «ذَاكَ خَطِيبُ الأَنْبِيَاءِ»، وهو حديث ضعيفٌ جدًّا، وفي إسناده إسحاق بن بشر: متَّهم بالكذب، وجويبر بن سعيد الأزدي: متروكُ الحديث، وله إسناد مرسل عند الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٥٦٨)، وفيه - أيضًا- سلمة بن الفضل: أجمعوا علىٰ ضعفه.

(٢) لوحة (١٢١/ أ). (٣) في (ز): «عدوكم!».

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الشِّهاب: وخطاب اصبروا للمؤمنين، ويجوز أن يكون للفريقين؛ أي: صبر المؤمنين علىٰ أذىٰ الكفَّار، والكفَّار علىٰ ما يسوؤهم من إيمانهم. أو للكافرين؛ أي: تربصوا لتروا حكم الله بيننا وبينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؛ لأنَّه منزَّه عن الجور في حكمه، فسيجعل العاقبة للمتقين، والدَّمار علىٰ الكافرين.

هذا إخبار مِنَ الله تعالىٰ عمَّا واجهت به الكفَّار نَبِيَّ الله شعيبًا ومَن معه من المُؤْمِنِين، فِي توعدهم إيَّاه ومَن مَعَه بالنَّفي من القَرْيَةِ، أو الإكراه علىٰ الرُّجوع في مِلَّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول، والمراد: أتباعه الَّذِين كانوا معه علىٰ الملة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقول: أَو أَنْتُم فاعلون ذلك ولو كنَّا كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنَّا إن رجعنا إلىٰ مِلَّتِكُم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفِرْيَة علىٰ الله في جعل الشركاء معه أندادًا. وهذا تعبيرٌ منه عن أتباعه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا ردٌّ إلىٰ المشيئة، فإنَّه يعلم كل شيءٍ، وقد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصل بَيْنَنَا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنَّك العادل الذي لا يَجُورُ أبدًا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن شِدَّة كفر قوم شعيب وتَمَرُّدهم وعُتُوِّهم، وما هم فيه من الضَّلال، وما جُبِلَت عليه قلوبهم من المخالفة للحقِّ، ولهذا أَقْسَمُوا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فلِهَذَا عقَّب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، أخبر تعالىٰ هاهنا أنَّهم أخذتهم الرَّجْفة، وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ[1] بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤]، والمناسبة في ذلك -والله أعلم- أنَّهم لما تَهَكَّمُوا بنَبِيِّ الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، فجَاءَت الصَّيحة فأَسْكَتَتْهُم.

وقال تعالىٰ إخبارًا عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وما ذاك إلا لأنَّهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، فأخبر أنَّه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شَرَرٌ مِن نارٍ ولَهَبٍ ووهَجٍ عظيم، ثم جاءتهم صيحةٌ من السَّماء ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ مِن أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النُّفوس وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: كأنَّهم لما أصابتهم النِّقمة لم يقيموا بديارهم التي أَرَادُوا

---

(١) لوحة (١٢١/ ب).

إجلاء الرَّسول وصحبه منها.

ثم قال مقابلًا لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(١).

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾

أي: فتولَّىٰ عنهم «شعيب» عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ما أصابهُم ما أصابهم من العَذَاب والنِّقمة والنَّكال، وقال مُقَرِّعًا لهم ومُوَبِّخًا: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ أي: قد أدَّيْتُ إليكم ما أُرْسِلْت به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾؟!.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضَّرَّاء، يعني ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: ما يصيبهم في أَبْدَانِهم مِن أمراضٍ وأسقام، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: ما يصيبهم مِن فقرٍ وحاجةٍ ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويَبْتَهِلُون إلىٰ الله تعالىٰ في كَشْفِ ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنَّه ابتلاهم بالشِّدَّة ليتضرَّعوا، فما فعلوا شيئًا مِنَ الَّذِي أراد الله مِنْهُم، فقلب الحال إلىٰ الرَّخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أي: حوَّلنا الحال من شدَّةٍ إلىٰ رخاء، ومن مرضٍ وسِقَمٍ إلىٰ صِحَّةٍ وعافيةٍ، ومِن فقرٍ إلىٰ غنًىٰ؛ ليشكروا علىٰ ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا(٢) الشيء إذا كثر، ﴿وَقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يقول تعالىٰ: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرَّعوا ويُنيبوا إلىٰ الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسَّنا من البأساء والضَّرَّاء، ثم بعده من الرَّخاء مثل ما أصاب آباءنا في قَدِيم الدَّهر، وإنَّما هو الدَّهر تارات وتارات، ولم يتفطَّنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الَّذِين يشكرون الله علىٰ السَّرَّاء، ويصبرون علىٰ الضَّرَّاء، كما ثبت في «الصحيحين»: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٣). فالمؤمن مَن يتفطَّن لما ابتلاه الله به من السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لا يَزَالُ الْبَلاءُ**

---

(١) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال تعالىٰ مقابلًا السابق: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دينًا ودنيا، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا.

(٢) لوحة (١٢٢/ أ).

(٣) في عزوه لـ«الصَّحيحين» وَهْمٌ، وإنَّما هو عند مسلم فقط، فقد رواه (٢٩٩٩)، ورواه أحمد (٤/ ٣٣٢) و(٦/ ١٥، ١٦) من حديث صهيب.

بالمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنْ ذُنُوبِهِ، وَالمُنَافِقُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الحِمَارِ، لا يَدْرِي فِيمَ رَبَطَهُ أَهْلُهُ، وَلا فِيمَ أَرْسَلُوهُ»، أو كما قال(١). ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة؛ أي: علىٰ بغتةٍ منهم؛ وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأةً، كما جاء في الحديث: «مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ»(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قِلَّة إيمان أهل القُرَىٰ الَّذِين أرسل فيهم الرُّسل، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] أي: ما آمَنَتْ قريةٌ بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمَنُوا، وذلك بعد ما عَايَنُوا العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات:١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

وكذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: آمَنَتْ قلوبهم بما جاءتهم به الرُّسُل، وصَدَّقت به واتَّبعَتْه، واتَّقوا بفعل الطَّاعات وترك المُحَرَّمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ولكن كذَّبوا رسلهم، فعَاقَبْنَاهُم بالهلاك علىٰ ما كسبوا مِن المآثِم والمحارم.

ثم قال تعالىٰ مخوِّفًا ومحذِّرًا من مخالفة أوامِرِه، والتَّجرُّؤ(٣) علىٰ زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: بَأْسَه ونِقْمَتَهُ وقُدْرَتَهُ عليهم وأَخْذَهُ إيَّاهم في حال سَهْوِهِم وغفلتهم؟! ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمِنٌ.

---

(١) لم أقف علىٰ لفظه كما ذكره المصنف، وقد ثبت نحوه موقوفًا علىٰ سلمان. رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣١)، وأبو نعيم (١/ ٢٠٦)، وإسناده صحيح.

(٢) ضعيف عدا الفقرة الأخيرة: رواه أحمد (٦/ ١٣٦)، والبيهقي (٣/ ٣٧٩)، وفي إسناده عبيد الله بن الوليد الوصافي: متروك، فالإسناد ضعيف، وصحَّحه العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء»، وصححه العَجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٩٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٩٦)، لكنَّه صحَّح الفقرة الأخيرة فقط كما في «المشكاة» (١٦٣١).

(٣) لوحة (١٢٢/ ب).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

قال ابن عبَّاس ﵄ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أوَ لم نُبيِّنْ. [وكذا قال مجاهد والسُّدِّي.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أوَ لم نُبيِّنْ](١) لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالىٰ: أوَ لَمْ نبيِّن للذين يستخلفون في الأرض مِن بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعَتَوْا علىٰ ربهم: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمَن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم علىٰ قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظةً ولا تذكيرًا.

قلت: وهكذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٤، ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]، أي: هل ترىٰ لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦]، وقال تعالىٰ -بعد ذكره إهلاك عاد-: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٥-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي(٢) فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥، ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:١٠]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ حلول نِقَمِه بأعدائه، وحصول نِعَمِهِ لأوليائه؛ ولهذا عقَّب ذلك بقوله -وهو أصدق القائلين ورب العالمين-:

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٢٣/ أ).

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

لمَّا قصَّ تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالىٰ أعذر إليهم بأن بيَّن لهم الحق بالحُجج علىٰ ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمَّد ﴿مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج علىٰ صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ الباء سَبَبيَّة؛ أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحقِّ أوَّل ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو مُتَّجهٌ حَسَنٌ، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩، ١١٠]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطَّاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو: ما جبلهم عليه وَفطَرَهُم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنَّه ربهم ومليكهم، وأنَّه لا إله إلا هو، فأقَرُّوا بذلك، وشَهِدُوا علىٰ أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حُجَّةٍ، لا من عقلٍ ولا شرعٍ، وفي الفِطَرِ السَّليمة خلاف ذلك، وجاءت الرُّسُل الكرام(١) من أولهم إلىٰ آخرهم بالنَّهي عن ذلك، كما جاء في «صحيح مسلم» يقول الله تعالىٰ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»(٢).

وفي «الصحيحين»: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ...»(٣) الحديث. وقال تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقد قِيلَ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾، ما روىٰ أبو جعفر

---

(١) لوحة (١٢٣/ ب). (٢) مسلم (٢٨٦٥).
(٣) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، والنسائي (٤/ ٩٨).

الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيٍّ بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالىٰ يوم أقروا له بالميثاق؛ أي: فما كانوا ليُؤمِنوا لعِلْم الله منهم ذلك(١)، وكذا قال الرَّبيع بن أنس، واختاره ابن جرير.

وقال السُّدِّي: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمَنُوا كُرهًا.

وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلىٰ سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحُجَجِنا ودلائلنا البيِّنة إلىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو مَلِكُ مصر في زمن موسىٰ ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤]، أي: الذين صَدُّوا عن سبيل الله وكذبوا رسله؛ أي: انظر يا محمَّد كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأىٰ من موسىٰ وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفىٰ لقلوب أولياء الله: موسىٰ وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾

يُخبِرُ تعالىٰ عن مُناظَرةِ موسىٰ لفرعون، وإلجامه إيَّاه بالحُجَّة، وإظهاره الآيات البيِّنات بحضرة فرعون(٢) وقومه مِن قِبطِ مصر، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أرسلني الذي هو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّهُ ومليكُهُ.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيقٌ بأن لا أقول علىٰ الله إلا الحقَّ؛ أي: جدير بذلك وحَرِيٌّ به. وقالوا: و«الباء» و«علىٰ» يتعاقبان، فيقال: «رميت بالقوس» و«علىٰ القوس»، و«جاء علىٰ حال حسنة» و«بحال حسنة».

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١١)، وابن أبي حاتم (٨٧٧٨)، ورجاله ثقات عدا أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ.
(٢) لوحة (١٢٤/ أ).

وقال بعض المُفسِّرين: معناه: حريصٌ علىٰ ألا أقول علىٰ الله إلا الحَقَّ.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾(١) بمعنىٰ: واجبٌ وحقٌّ عَلَيَّ ذلك، ألا أُخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أَعْلَمُ مِن عِزِّ جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحُجَّةٍ قاطعةٍ مِنَ الله، أعطانيها دليلًا علىٰ صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أَسْرِك وقَهْرِك، ودَعْهُم وعبادة رَبِّك وربِّهم؛ فإنَّهم مِن سلالة نبي كريم: إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حُجَّةٌ فأظهرها لنراها، إن كنت صادقًا فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحيَّة الذَّكر. وكذا قال السُّدِّي، والضَّحَّاك.

وفي حديث «الفُتُون» من رواية يزيد بن هارون عن الأصْبَغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبَّاس قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحوَّلت حيَّةً عظيمةً فاغرةً فَاهَا مُسْرِعَةً إلىٰ فرعون، فلما رآها فرعون أنَّها قاصدةٌ إليه، اقتحم عن سريره(٢)، واستغاث بموسىٰ أن يَكُفَّها عنه ففعل(٣).

وقال قتادة: تحوَّلت حيَّةً عظيمةً مثل المدينة.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ والثُّعبان: الذَّكر من الحيَّات، فاتحةً فاها، وَاضِعَةً لحْيها(٤) الأسفل في الأرض، والآخر علىٰ سُور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لِتَأْخُذَه. فلما رآها ذُعِرَ مِنْهَا، ووثب وأحدث، ولَمْ يكن يُحْدث قبل ذلك، وصاح: يا مُوسَىٰ، خُذْهَا وأنا أُومِنُ بك، وأُرْسِل معك بني إسرائيل. فأخذها موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فعادت عصا.

ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عبَّاس نحو هذا.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: لما دخل موسىٰ علىٰ فرعون، قال له فرعون: أَعْرِفُك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]؟ قال: فَرَدَّ إليه موسىٰ الَّذي رَدَّ، فقال(٥) فرعون: خُذُوهُ، فبادره موسىٰ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فحملت علىٰ النَّاس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون

---

(١) متواترة: قَرَأَ (عَلَيَّ) نَافِعٌ وَوَافَقَهُ الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (عَلَىٰ).

(٢) أي: رمىٰ بنفسه وسقط عن سريره.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٧)، وأبو يعلىٰ (٢٦١٨) وسيأتي بتمامه في تفسير سورة طه، الآية (٤٠). وغالب ما فيه من الإسرائيليات.

(٤) اللَّحىٰ -ومثناه لحيان-: هما العظمان اللَّذان فيهما الأسنان مِن داخل الفم.

(٥) لوحة (١٢٤/ ب).

ألفًا، قتل بعضهم بعضًا، وقام فرعون منهزمًا حتىٰ دخل البيت(١).

رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم. وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي: نزع يده أخرجها مِن دِرْعِهِ بعد ما أدخلها فيه، فخرَجَت بيضاءَ تتلألأُ مِن غير بَرَصٍ ولا مرضٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ [ءَايَةً أُخْرَىٰ]﴾ [النمل: ١٢].

وقال ابن عبَّاس في حديث الفُتُون: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء ﴿[مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ]﴾(٢) يعني: مِن غَيْر برص، ثم أعادها إلىٰ كُمِّه، فعادت إلىٰ لونها الأول(٣). وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: قال الملأ -وهم: الجمهور والسَّادة من قوم فرعون- مُوافِقِين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعه واستقرَّ علىٰ سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يَصْنَعُون في أمره، وكيف تكون حِيلَتُهُم في إطفاء نورِهِ وإخماد كلمَتِهِ، وظهور كذبهم وافترائهم، وتخوفوا من معرفته(٤) أن يستميل النَّاس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إيَّاهم مِن أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦]، فلما تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتَّفق رأيهم علىٰ ما حكاه الله تعالىٰ عنهم في قوله تعالىٰ:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قال ابن عبَّاس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخِّره. وقال قتادة: احبسهُ. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي: ابعث. ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿حَـٰشِرِينَ﴾ أي: من يحشر لك السَّحرة من سائرِ البلاد ويجمعهم.

وقد كان السِّحر في زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا. واعتقد مَنِ اعتقد منهم، وأُوهِمَ مَن أُوهِمَ منهم، أن ما جاء به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبيل ما تُشَعْبِذُهُ سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السَّحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيِّنات، كما أخبر تعالىٰ عن فرعون حيث قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه:٥٧-٦٠]، وقال تعالىٰ هاهنا(٥):

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٨٧٩٢)، وأحمد في «الزهد» (٧٩، ٨٤) عن وهب بن منبه، وهو يروي الإسرائيليات.

(٢) ليست في (ز).

(٣) انظر التعليق قبل السابق.

(٤) في (ز): «من معرته».

(٥) لوحة (١٢٥/ أ).

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عما تشارط عليه فرعون والسَّحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسىٰ عليه السلام: إن غلبوا موسىٰ ليُثيبنَّهم وليُعْطِيَنَّهم عطاءً جزيلًا؛ فوعدهم ومَنَّاهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنَّهم مِن جلسائه والمُقَرَّبين عنده، فلما تَوَثَّقُوا مِن فرعون لعنه الله.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هذه مبارزةٌ من السحرة لموسىٰ عليه السلام في قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، أي: قَبْلك. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه:٦٥]؛ فقال لهم موسىٰ عليه السلام: ﴿أَلْقُواْ﴾ أي: أنتم أولًا قبلي. والحكمة في هذا -والله أعلم-: ليرىٰ النَّاسُ صَنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرِغَ من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بَعْدَ تَطَلُّبٍ له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النُّفوس، وكذا كان. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: خَيَّلُوا إلىٰ الأبصار أنَّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج. ولم يكن إلا مجرَّد صنعةٍ وخيال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٦-٦٩].

قال سفيان بن عُيَيْنَة: حدَّثنا أبو سعد[1]، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس: ألقوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا. قال: فأقبلت يُخيل[2] إليه مِن سِحْرِهِم أنَّها تَسْعَىٰ[3].

وقال محمَّد بن إسحاق: صَفَّ خمسة عشر ألف ساحرٍ، مع كلِّ ساحرٍ حباله وعِصِيُّه، وخرج موسىٰ عليه السلام معه أخوه يَتَّكِئُ علىٰ عصاه، حتىٰ أتىٰ الجمع، وفرعون في مجلسه مع أشراف أهل مملكته، ثمَّ قال السَّحرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ [طه:٦٥، ٦٦]، فكان أوَّل ما اختطفوا بسِحْرِهِم بصر موسىٰ وبصر فرعون، ثم أبصار النَّاس بعد، ثم أَلْقَىٰ كل رجلٍ منهم ما في يده من الحِبال والعِصِيِّ، فإذا حيَّات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا.

وقال السُّدِّي: كانوا بضعة وثلاثين[4] ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا، ﴿فَلَمَّآ[5] أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فَرَقوهم؛ أي: من الفرق[6].

---

(١) في (ز): (أبو سعيد)، وهو خطأ، والمثبت هو الصواب، وهو موافق لما في «الطبري»، وهو أبو سعد البقال.
(٢) في (ز): (تخيل). (٣) رواه الطبري (٩/ ٢٠)، وفي إسناده أبو سعد البقال: ضعيف.
(٤) في (ز): (وثلاثون). (٥) لوحة (١٢٥/ ب). (٦) الفرق: الفزع.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا ابن عُلَيَّةَ، عن هشام الدَّستَوائي، حدَّثنا القاسم ابن أبي بَزَّة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حَبْلٍ، وسبعين ألف عصًا، حتىٰ جعل يخيل إليه مِن سِحْرِهِم أنَّها تسعىٰ.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّه أَوْحَىٰ إلىٰ عبده ورسوله موسىٰ عليه السلام في ذلك الموقف العَظِيم الَّذِي فرق الله تعالىٰ فيه بين الحَقِّ والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يَمِينِهِ -وهي عصاه-، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: ما يُلْقُونَه ويوهمون أنَّه حق، وهو باطل.

قال ابن عبَّاس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيءٍ من حِبَالِهم ولا مِن خُشُبهم إلا الْتَقَمَتْهُ، فعرفت السَّحرة أنَّ هذا أمرٌ من السَّماء، وليس هذا بسحرٍ، فخرُّوا سجدًا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: جعلت تبتلع[١] تلك الحبال والعصي واحدة واحدة، حتَّىٰ ما يُرَىٰ[٢] بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسىٰ فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السَّحرة سجدًا، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لو كان هذا ساحرًا[٣] ما غُلِبْنَا.

وقال القاسم بن أبي بَزَّة: أوحىٰ الله إليه أَن أَلْقِ عصاك، [فألقىٰ عصاه][٤]، فإذا هي ثعبانٌ فاغرٌ فَاهُ، يَبْتَلِعُ حبالهم وعصِيَّهم، فألقي السَّحرة عند ذلك سجدًا، فما رفعوا رُءُوسهم حتىٰ رأَوُا الجنَّة والنَّار وثواب أهلهما[٥].

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يُخْبِرُ تعالىٰ عمَّا توعَّد به فرعون -لعنه الله- السَّحرة لما آمنوا بموسىٰ عليه السلام، وما أظهره للنَّاس مِن كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾، أي: إن غَلَبَه لكم فِي يَوْمِكم هذا إنَّما كان عن تشاورٍ منكم ورضًا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ[٦] ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ

---

(١) في (ز): (تتبع). (٢) في (ز): (ما ترىٰ). (٣) في (ز): (سحر).
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٥) في (ز): أهلها. (٦) لوحة (١٢٦/ أ).

ٱلسِّحۡرَ﴾ [طه:٧٠]، وهو يعلم وكلُّ مَن له لُبٌّ أَنَّ هذا الذي قاله مِن أَبْطَلِ الباطل؛ فإن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمُجَرَّد ما جاء من «مَدْين» دعا فرعون إلىٰ الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحُجَج القاطعة علىٰ صِدْق ما جاء به، فعِنْدَ ذلك أرسل فرعون في مدائن مُلْكِهِ ومعاملة سلطنته، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممَّن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا مِن أحرص النَّاس علىٰ ذلك، وعلىٰ الظُّهور في مقامهم ذلك والتَّقدم عند فرعون، وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنَّما قال ذلك تسترًا وتدليسًا علىٰ رعاع دَوْلَتِهِ وجهَلتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، فإن قومًا صدّقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

وقال السُّدِّي في «تفسيره» بإسناده المشهور، عن ابن مسعود، وابن عبَّاس، وغيرهما من الصَّحابة، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قالوا: التقىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأميرُ السَّحرة، فقال له موسىٰ: أَرَأَيْتَكَ إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أنَّ ما جئت به حق؟ قال السَّاحر: لآتين غدًا بسِحْرٍ لا يغلبه سحر، فوالله لَئِنْ غَلَبْتَنِي لأومنن بك ولأشهدنَّ أنَّك حق. وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

وقوله: ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾ أي: تَجْتَمِعُوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرُّؤساء، وتكون الدَّولة والتَّصرف لكم، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: ما أَصْنَعُ بكم.

ثم فسَّر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ يعني: يقطع يد الرَّجُل اليمنىٰ ورِجْله اليُسْرَىٰ أو بالعكس. و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١]، أي: علىٰ الجذوع.

قال ابن عبَّاس: وكان أوَّل مَن صَلَّبَ وأوَّل مَن قَطَّع الأيدي والأرجل من خِلافٍ فِرعَونُ.

وقول السَّحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنَّا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكالُهُ علىٰ ما تدعونا إليه، وما أكرهتنا عليه من السِّحر، أعظم من نكالك، فلنصبِرَنَّ اليوم علىٰ عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: عُمَّنا بالصَّبر علىٰ دينك، والثَّبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مُتابِعِين لنبيِّك موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ[1] مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ [طه:٧٢-٧٥]، فكانوا في أوَّل النَّهار سحرةً، فصارُوا في آخر النَّهار شهداءَ بَرَرَة.

قال ابن عبَّاس، وعُبَيد بن عُمَيْر، وقتادة، وابن جُرَيْج: كانوا في أوَّل النهار سحرةً، وفي آخره شهداء.

(١) لوحة (١٢٦/ ب).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يُخْبِر تعالىٰ عمَّا تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أظهروه لموسىٰ عليه السلام وقَوْمِهِ من الأذىٰ والبغضة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أي: أَتَدَعُهُم ليُفْسِدوا في الأرض؛ أي: يفسدوا أهل رَعِيَّتك ويَدْعُوهُم إلىٰ عبادة رَبِّهم دُونَك، يالله للعجب! صَارَ هؤُلاء يُشْفِقُون[١] مِن إفساد موسىٰ وقومه! ألا إن فرعون وقَوْمَه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قال بعضهم: «الواو» هُنَا حالية؛ أي: أَتَذَرُهُ وقومه يُفْسِدُون وقد تركَ عبادتك؟ وقرأ ذلك أُبيُّ بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»[٢]، حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: هي عاطفة، أي: لا تدع موسىٰ يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلىٰ تركه آلهتك.

وقرأ بعضهم: «إلاهتك»[٣]، أي: عبادتك، ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس ومجاهد.

وعلىٰ القراءة الأولىٰ قال بعضهم: كان لفرعون إلهٌ يعبده.

قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السِّرِّ. وقال في رواية أخرىٰ: كان له جُمَانَةٌ[٤] في عنقه معلَّقةٌ يسجد لها.

وقال السُّدِّي في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وآلهته، -فيما زعم ابن عبَّاس-، [كانت البقر][٥]، كانوا إذا رأوا بقرةً حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلًا جسدًا.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، وهذا أمرٌ ثانٍ بهذا الصَّنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسىٰ عليه السلام حَذَرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضدَّ ما قَصَدَهُ فرعون[٦]. وهكذا عُومِلَ في صنيعه هذا أيضًا، إنَّما أراد قَهْرَ بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر علَىٰ خلاف ما أراد؛ نصرهم الله عليه وأذلَّه، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

---

(١) في (ز): (لا يشفقون).

(٢) في (ز): «وقد تركوك أن يعبدوا آلهتك». والمثبت من «الطبري»، و «معاني القرآن» للفراء.

(٣) شاذَّة: قَرَأَ (وَإِلَاهَتَكَ) الْحَسَنُ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمُتَوَاتِرِ إِلَّا (وَآلِهَتَكَ).

(٤) في (ز): «حنانة»، والمثبت موافق لما في «الطبري» والجُمَانة: واحدة الجُمَان، وهو اللؤلؤة، أو ما يتخذ علىٰ شكله مِن خرز الفضَّة.

(٥) سقط من (ز)، وأثبتناه من «الطبري».

(٦) لوحة (١٢٧/ أ).

ولما صَمَّمَ فرعون علىٰ ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ ووعدهم بالعاقبة، وأنَّ الدَّار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، أي: قد جرىٰ علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسىٰ، ومن بعد ذلك. فقال منبهًا لهم علىٰ حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا تَحضِيضٌ لهم عَلَىٰ العَزمِ علىٰ الشكر، عند حلول النِّعم وزوال النِّقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اختبرناهم وامْتَحنَّاهم وابتليناهُم ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي: سِنِي الجُوعِ بسبب قلَّة الزُّروع، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قال مجاهد: وهو دُونَ ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حَيْوة: كانت النَّخلة لا تَحْمِلُ إلَّا ثمرةً واحدةً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جَدْب[1] وقحط ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: هذا بسببهم وما جاءوا به.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عبَّاس قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال: إلا من قِبَل الله.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ[2] ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

---

(١) في (ز): (جذب).

(٢) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: قال الشهاب: سُمِّيت النُّبوَّة عهدًا؛ لأنَّ الله عَهِدَ إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقًا تحفظ، كما تحفظ العهود، أو لأنَّها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالىٰ.

هذا إخبار من الله ﷻ عن تَمَرُّد قوم فرعون وعُتُوِّهم وعنادهم للحَقِّ وإصرارهم علىٰ الباطل في[1] قولهم: ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ [2]﴾ يقولون: أيُّ آيةٍ جِئتنا بها ودلالة وحُجَّةٍ أقمتها، رَدَدْنَاها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جِئْتَ به، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾.

اختلفوا في معناه، فعن ابن عبَّاسٍ في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المُتْلِفَة للزُّروع والثِّمار[3]. وبه قال الضَّحَّاك بن مُزَاحِم.

وقال ابن عبَّاس في رواية أخرىٰ: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء.

وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: الماء والطَّاعون علىٰ كلِّ حالٍ.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو هشام[4] الرفاعي، حدَّثنا يحيىٰ بن يَمان، حدَّثنا المِنْهَال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مِيناء، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ «**الطُّوفَانُ: المَوْتُ**»[5].

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيىٰ بن يمان به، وهو حديثٌ غريبٌ.

وقال ابن عبَّاس في رواية أخرىٰ: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩، ٢٠].

وأما الجراد: فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في «الصحيحين» عن أبي يَعفُور قال: سألت عبد الله بن أبي أَوْفَىٰ عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[6].

وروىٰ الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أُحِلَّتْ لَنا مَيْتَتانِ وَدَمَانِ: الحُوتُ وَالجَرَادُ، وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»[7].

ورواه أبو القاسم البغوي، عن داود بن رُشَيْد، عن سُوَيْد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيليِّ، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعًا مثله.

وروىٰ أبو داود، عن محمَّد بن الفرج، عن محمَّد بن الزِّبْرِقان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «**أَكْثَرُ جُنُودِ اللهِ، لا آكُلُهُ، وَلا أُحَرِّمُهُ**»[8].

---

(١) في (ز): (و). (٢) لوحة (١٢٧/ ب).

(٣) رواه الطبري (٩/ ٣٠ - ٣١) بإسنادين كلاهما ضعيف؛ فالأول فيه ابن وكيع ضعيف، وهو من طريق سعيد بن أبي إياس عن سعيد بن جبير، وروايته عنه خاصة ضعيفة، والإسناد الثاني فيه انقطاع، وبالجملة فالإسنادين يقوي بعضهما بعضًا ويرقىٰ للتحسين إن شاء الله.

(٤) في (ز): «ابن هشام»، وهو خطأ؛ والتصويب من «الطبري» وهو أبو هشام الرفاعي الكوفي القاضي، محمَّد بن يزيد، وهو من شيوخ ابن جرير أكثر عنه: ضعيف وإن روىٰ له مسلم.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ٣١)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٨٥٥)، وفيه المنهال بن خليفة: ضعيف، والحجاج بن أرطأة: صدوق كثير الخطأ والتدليس، وهو ضعيف.

(٦) البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢)، وأبو داود (٣٨١٢)، والترمذي (١٨٢٢)، والنسائي (٧/ ٢١٠).

(٧) رواه أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجة (٣٣١٤) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١١٨).

(٨) ضعيف: أبو داود (٣٨١٣) وفيه محمَّد بن الزبرقان: صدوق يَهِم، والحديث أعلَّه أبو حاتم في «العلل» (١٤٩٥) ورجَّح أنَّه مرسل، وكذلك الحافظ في «الفتح» (٩/ ٦٢٢). انظر: «الضعيفة» للألباني (١٥٣٣).

وإنَّما تَرَكَه ﷺ لأنَّه كان يعافه، كما عَافَتْ نفسه الشَّريفة أكل الضَّبِّ وأَذِنَ فيه.

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في جزءٍ جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، حدَّثنا نصر بن يحيىٰ بن سعيد، حدَّثنا يحيىٰ بن خالد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجَرَاد، ولا الكلوتين، ولا الضَّبَّ مِن غير أن يحرمها. أمَّا الجراد: فرجزٌ وعذابٌ. وأمَّا الكِلْوَتَان: فلِقُرْبِهِمَا من البول. وأما الضَّبُّ فقال: «**أَتخَوَّفُ أَنْ يَكُونَ مَسْخًا**»، ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من [(١)] هذا الوجه [(٢)].

وقد كان أميرُ المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يَشْتَهِيهِ ويُحِبُّه، فروىٰ عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أنَّ عُمَرَ سُئِلَ عن الجراد فقال: ليت أنَّ عندنا منه قَفْعَةً [(٣)] أو قفعتين نأكله [(٤)].

وروىٰ ابن ماجه: حدَّثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النَّبيِّ ﷺ يَتَهَادَيْن الجراد علىٰ الأطباق [(٥)].

وقال أبو القاسم البغوي: حدَّثنا داود بن رُشَيْد، حدَّثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن نُمَيْر بن يزيد القَيْني [(٦)] حدَّثني أبي، عن صُدَيّ بن عَجْلان -أبي أمامة- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ -عَلَيْهَا السَّلَامُ- سَأَلَتْ رَبَّهَا ﷻ أَنْ يُطْعِمَهَا لَحْمًا لا دَمَ لَهُ، فَأَطْعَمَهَا الجَرَادَ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ أَعِشْهُ بِغَيْرِ رَضَاعٍ، وَتَابِعْ بَيْنَهُ بِغَيْرِ شِيَاعٍ**» [(٧)] وقال نُمَير: «الشِّيَاع»: الصَّوت [(٨)].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك اليَزَني حدَّثنا بقية بن الوليد، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبي زُهَير النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقَاتِلُوا الجَرَادَ، فَإِنَّهُ جُنْدُ اللهِ الأَعْظَمِ**» [(٩)]. غريبٌ جدًّا.

وقد قال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتَدَع الخشب.

وروىٰ ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمَّد بن كثير، سمعت الأوزاعي

---

(١) لوحة (١٢٨/ أ).

(٢) لم أقف علىٰ هذا الجزء لابن عساكر، وفي الإسناد ابن جريج: مدلس وقد عنعن فالإسناد ضعيف.

(٣) القَفْعَة: شيء كالقفة واسعة الأسفل ضيقة الأعلىٰ.

(٤) صحيح: رواه عبد الرزاق (٨٧٥١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥٧١)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٥٨).

(٥) ضعيف: ابن ماجة (٣٢٢٠)، وفيه أبو سعد البقَّال: ضعيف مدلِّس.

(٦) في (ز): «يحيىٰ بن يزيد القبتي»، وفي (ح): «يحيىٰ بن مرثد القبتي»، والمثبت هو الصواب كما في المصادر.

(٧) ضعيف: رواه الطبراني (٨/ ٧٦٣١)، وفيه نمير بن يزيد القيني: مجهول، وانظر: «الضعيفة» للألباني (١٩٩٢).

(٨) أي: تابع بينه من غير أن يصاح به ويدعىٰ.

(٩) رواه الطبراني (٢٢/ ٧٥٧)، وفي «الأوسط» (٩٢٧٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٢٩٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٤٢): (رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وفيه محمَّد ابن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف). قلت: هو ثقة في روايته عن الشامين، وقد رواه عن أبي زهير وهو شامي، ثم إن ابن عبَّاس توبع كما بيَّن ذلك الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤٢٨).

يقول: خَرَجْتُ إلىٰ الصحراء، فإذا أنا بِرِجْلٍ[١] مِن جرادٍ فِي السَّماء، وإذا بِرَجُلٍ رَاكِبٍ علىٰ جَرَادةٍ منها، وهو شاكٍ في الحديد، وكُلَّما قال بيده[٢] هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدُّنيا باطلٌ، باطلٌ ما فيها، الدُّنيا باطلٌ، باطلٌ ما فيها، الدُّنيا باطلٌ، باطلٌ ما فيها.

وروىٰ الحافظ أبو الفرج المعافىٰ بن زكريا الحريري، حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن زياد، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وَكِيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سُئِلَ شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قَبَّحَ الله الجرادة. فيها خلقة سَبْعَة جبابرة؛ رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذَنَبُهَا ذَنَبُ حيَّةٍ، وبطنها بطن عقرب.

وقد قدمنا عند قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، حديث حماد بن سلمة، عن أبي المُهزَم، عن أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجٍّ أو عمرةٍ، فَاسْتَقْبَلَنَا رِجْلُ جرادٍ، فجعلنا نضربه بالعِصِيِّ، ونحن محرمون[٣]، فسألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «لَا بَأْسَ بِصَيْدِ البَحْرِ»[٤].

وروىٰ ابن ماجه، عن هارون الحمَّال[٥]، عن هاشم[٦] بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلاثة، عن موسىٰ بن محمَّد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا دعا علىٰ الجراد قال: «اللَّهُمَّ أَهْلِكْ كِبَارَهُ، وَاقْتُلْ صِغَارَهُ، وَأَفْسِدْ بَيْضَهُ، وَاقْطَعْ دَابِرَهُ، وَخُذْ بِأَفْوَاهِهِ عَنْ مَعَايِشِنَا وَأَرْزَاقِنَا، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو علىٰ جندٍ من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إِنَّمَا هُوَ نَثْرَةُ حُوتٍ فِي البَحْرِ»[٧]. قال هاشم: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال: مَن حقَّق ذلك، إن السَّمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشَّمس أنَّه يفقس كله جرادًا طيَّارًا.

وقدمنا عند قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] حديث عُمَر رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ أَلْفَ أُمَّةٍ، سِتُّمِائَةٍ فِي البَحْرِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ فِي البَرِّ، وَإِنَّ أَوَّلَهَا هَلَاكًا الجَرَادُ»[٨].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدَّثنا يزيد بن المبارك، حدَّثنا عبد الرحمن بن قَيْس، حدَّثنا سالم بن سالم، حدَّثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمَّد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا وَبَاءَ مَعَ السَّيْفِ، وَلَا نَجَاءَ مَعَ الجَرَادِ». حديث غريب[٩].

---

(١) الرِّجل: الجراد الكثير. (٢) قال بيده: أشار. (٣) لوحة (١٢٨/ ب).

(٤) ضعيف جدًّا: رواه أبو داود (١٨٥٤)، والترمذي (٨٥٠)، وابن ماجة (٣٢٢٣)، وفيه أبو المهزم يزيد بن سفيان، قال الحافظ: متروك.

(٥) في (ز): «الحماني». (٦) في (ز): «هشام».

(٧) ضعيف جدًّا: رواه ابن ماجة (٣٢٢١)، وفيه موسىٰ بن محمَّد، قال الحافظ: منكر الحديث.

(٨) موضوع: انظر تفسير سورة الفاتحة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٩) ضعيف: عزاه السُّيُوطي في «الجامع الصغير» إلىٰ ابن صصري في «أماليه»، انظر: «ضعيف الجامع» للألباني (٦٣٣٠)، وعلته سالم بن سالم البلخي: ضعيف.

وأمَّا ﴿ٱلْقُمَّلَ﴾، فعن ابن عبَّاس: هو السُّوس الذي يخرج من الحِنْطَة. وعنه: أنَّه الدَّبَىٰ، وهو: الجراد الصِّغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: دوابٌّ سودٌ صغارٌ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: البراغيث.

وقال ابن جرير، ﴿ٱلْقُمَّلَ﴾ جمعٌ، واحدتها «قُمَّلة»، وهي دابةٌ تشبه القَمْل، تأكلها الإبل، فيما بلغني، وهي التي عناها الأعشىٰ بقوله:

قَـــومٌ تُعَـــالِجُ قُمَّـــلًا أَبْنَـــاؤُهُمْ ... وَسَلَاسِـــلًا أُجُـــدًا وَبَابًـــا مُؤْصَـــدًا[١]

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة[٢] يزعم أنَّ القُمَّل عند العرب «الحَمْنَانُ»، واحدتها «حَمْنَانَةٌ»، وهي: صغار القِرْدَان فوق القَمْقَامَة[٣].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن حميد الرازي، حدَّثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فرعون قال له: أرسل مَعِيَ بني إسرائيل [فأبىٰ عليه][٤]، فأرسل الله عليهم الطُّوفان -وهو المطر- فصَبَّ عليهم منه شيئًا، خافوا أن يكون عذابًا، فقالوا لموسىٰ: ادعُ لنا ربَّك يكشف عنَّا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه، فلم يؤمنوا، ولم يُرْسِلُوا معه بني[٥] إسرائيل. فأنبت لهم في تلك السَّنة شيئًا لم يُنْبِتْه قبل ذلك من الزَّرع والثَّمر والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنَّىٰ. فأرسل الله عليهم الجراد فسَلَّطه علىٰ الكَلَإِ، فلمَّا رأوا أثره في الكلإِ عرفوا أنَّه لا يبقي الزَّرع، فقالوا: يا موسىٰ، ادع لنا ربَّك يكشف عنَّا الجراد فنُؤمن لك، ونُرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يُؤمنوا، ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا[٦] في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القمَّل -وهو السُّوس الذي يخرج منه- فكان الرَّجل يخرج عشرة أجربة إلىٰ الرَّحىٰ، فلم يردَّ منها إلا ثلاثة أقفزة فقالوا لموسىٰ: ادْعُ لنا ربك يكشف عنَّا القُمَّل، فنُؤمن لك، ونُرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالسٌ عند فرعون، إذ سَمِعَ نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقىٰ أنت وقومك مِن هذا؟ قال: وما عسىٰ أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتىٰ كان الرجل يجلس إلىٰ ذَقْنه في الضفادع، ويهم أن يتكلَّم فتثب الضُّفدع في فِيهِ.

---

(١) البيت في «تفسير الطبري»: (١٠/ ٣٨٥)، والأُجُد: القوي الموثق، يقال: ناقة أجد؛ أي: قوية وثيقة التركيب، والموصد: من أوصد الباب، إذا أغلقه.

(٢) يقصد أبا عبيدة، وكلامه في «مجاز القرآن»: (١/ ٢٢٦).

(٣) **القمقام والحمنان**: صغار القُردان، وهي دويبة متطفلة تمتص الدماء. وفوق القمقامة: أكبر منها. ينظر: «اللسان»: قمقم، وحمن، و«تاج العروس»: (٣٦/ ١٩).

(٤) زيادة من «تفسير الطبري».

(٥) لوحة (١٢٩/ أ).

(٦) **داسو الحب**: درسوه، وأحرزوه: حفظوه.

فقالوا لموسىٰ: ادع لنا ربَّك يكشف عنا هذه الضَّفادع، فنُؤمن لك، ونُرسل معك بني إسرائيل، [فكشف عنهم فلم يُؤمنوا][1] وأرسل اللهُ عليهم الدَّمَ، فكانوا ما اسْتَقُوا من الأنهار والآبار، وما كان في أَوْعِيَتِهم، وجدوه دمًا عبيطًا[2]، فشكوا إلىٰ فرعون، فقالوا: إنَّا قد ابتلينا بالدَّم، وليس لنا شراب. فقال: إنَّه قد سَحَرَكُم، فقالوا: مِن أين سَحَرَنَا، ونحن لا نَجِدُ في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عَبِيطًا؟! فأتوه وقالوا: يا موسىٰ، ادْعُ لنا رَبَّك يكشف عنَّا هذا الدَّم فنُؤمن بك ونُرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه فكشف عنهم، فلم يُؤمنوا، ولم يُرسلوا معه بني إسرائيل[3].

وقد رُوي نحو هذا عن ابن عبَّاس، والسُّدِّي، وقتادة وغير واحدٍ من علماء السَّلف[4].

وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السَّحرة مغلوبًا مغلولًا، ثمَّ أبىٰ إلا الإقامة علىٰ الكفر، والتَّمادي في الشَّرِّ، فتابع الله عليه الآيات، وأخذه بالسِّنين، فأرسل عليه الطُّوفان، ثم الجراد، ثم القمَّل، ثم الضَّفادع، ثم الدَّم، آيات مفصَّلات. فأرسل الطوفان -وهو الماء- ففاض علىٰ وجه الأرض ثمَّ ركد، لا يقدرون علىٰ أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا، حتىٰ جهدوا جوعًا، فلمَّا بلغهم ذلك ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فدعا موسىٰ[5] ربَّه، فكشف عنهم، فلم يَفُوا له بشيءٍ ممَّا قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشَّجر، فيما بلغني، حتىٰ إن كان ليأكل مسامير الأبواب مِن الحديد، حتىٰ تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربَّه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيءٍ مما قالوا، فأرسل الله عليهم القُمَّل، فذُكِر لي: أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمر أن يمشي إلىٰ كَثِيبٍ حتىٰ يضربه بعصاه، فمشىٰ إلىٰ كثيب أَهْيَل[6] عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قمَّلًا حتىٰ غلب علىٰ البيوت والأطعمة ومنعهم النَّوم والقرارة، فلمَّا جَهِدَهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فلم يَفُوا له بشيءٍ ممَّا قالوا. فأرسل الله عليهم الضَّفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحدٌ ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضَّفادع قد غلبت عليه. فلمَّا جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربَّه فكشف عنهم، فلم يَفُوا له بشيءٍ مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدَّم، فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون مِن بئرٍ ولا نهرٍ، ولا يَغْتَرِفُون من إناءٍ، إلا عاد دمًا عبيطًا[7].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت من «الطبري». (٢) الدم العبيط: الطري.

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٣٤)، وفي الإسناد ابن حميد: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه، ورواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير ليست بالقويَّة، ولكن هذه من الأخبار التي لا تصدق ولا تكذب، والعلم عند الله.

(٤) بعدها بياض في (ز) بمقدار كلمتين.

(٥) لوحة (١٢٩/ ب). (٦) كثيب أهيل: منهال لا يثبت رمله حتىٰ يسقط.

(٧) ورواه الطبري (٩/ ٣٦)، ويقال فيها ما يقال في التَّعليق السابق من كونها أخبار لا تصدق ولا تكذب.

يزيد عن عكرمة، قال عبد الله بن عَمْرو: لا تقتلوا الضَّفادع؛ فإنَّها لما أرسلت علىٰ بني إسرائيل انطلق ضفدعٌ منها فوقع في تنُّور فيه نار، يطلب بذلك مرضات الله، فأبدلهنَّ الله أبرد شيءٍ يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التَّسبيح(١). وروي من طريق عكرمة، عن ابن عبَّاس نحوه.

وقال زيد بن أسلم: يعني بالدَّم الرُّعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾

يُخْبِر تعالىٰ أنَّهم لما عتَوْا وتمرَّدُوا، مع ابتلائه إيَّاهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدةٍ، أنَّه انتقم منهم بإغراقه إيَّاهم في اليمِّ، وهو البحر الَّذي فرقه لموسىٰ فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده علىٰ أثرهم، فلمَّا استكملوا فيه ارْتَطَم عليهم، فغَرِقُوا عن آخرهم، وذلك بسببِ تكذِيبِهم بآياتِ الله وتغافُلِهم عنها.

وأخبر تعالىٰ أنه أورث القومَ الَّذين كانوا يُستضعفون -وهم بنو إسرائيل- ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ(٢) أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥، ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨].

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾: قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي: وخرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يَبْنُون.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾

---

(١) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٨٨٧٩)، وفيه جابر بن يزيد الجعفي: ضعيف، وأمَّا النَّهي عن قتل الضُّفدع فقد رواه أبو داود (٣٨٧١)، والنَّسائي (٧/ ٢١٠) وإسناده صحيح، وأما قوله: إن نقيقها التَّسبيح فقد رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٧١٦)، قال الهيثمي: وفيه المسيب بن واضح: وفيه كلام وقد وثق، وبقيَّة رجاله رجال الصحيح.

(٢) لوحة (١٣٠/ أ).

يخبر تعالىٰ عمَّا قاله جهلة بني إسرائيل لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسِّرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا مِن لخم.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصنامًا علىٰ صور البَقَر، فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العِجْل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنَزَّه عنه من الشَّريك والمَثِيل.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وروىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية من حديث محمَّد بن إسحاق وعَقِيل، ومعمر، كلهم عن الزُّهري، عن سِنَان بن أبي سنان، عن أبي واقد اللَّيثي: أنَّهم خرجوا مِن مكَّة مع رسول الله ﷺ إلىٰ حُنَيْن، قال: وكان للكفَّار سدرة[1] يعكفون عندها، ويُعَلِّقُون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذاتُ أَنْوَاطٍ»، قال: فمررنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمةٍ، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط. فقال: «قُلْتُم -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا[2] لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[3].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزُّهري، عن سِنَان بن أبي سنان الدِّيلي، عن أبي وَاقِد اللَّيثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنَين، فمررنا بسدرةٍ، فقلت: يا نَبِيَّ الله اجعل لنا هذه «ذات أنواط»، كما للكُفَّار ذات أنواط، وكان الكفَّار ينوطون[4] سلاحهم بسدرةٍ، ويعكفون حولها. فقال النَّبيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ [الَّذِينَ][5] مِنْ قَبْلِكُمْ»[6].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزَني، عن أبيه عن جَدِّه مرفوعًا[7].

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

---

(١) السدرة: شجرة النبق. (٢) لوحة (١٣٠/ ب).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢).

(٤) أي: يعلقون. (٥) ليست في (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢١٨)، وانظر التخريج السابق.

(٧) ضعيف من هذا الطريق: رواه ابن أبي حاتم (٨٩١٠)، وفيه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني: ضعيف، لكنَّ الحديث صحيح من حديث أبي واقد الليثي وهو المروي قبله.

يذكِّرهم موسىٰ عليه السلام بنِعْمَةِ الله عليهم، مِن إنقاذِهِم مِن أَسْرِ فرعونَ وقَهْرِهِ، وما كانوا فيه مِن الهَوَان والذِّلَّة، وما صاروا إليه من العِزَّة والاشتفاء مِن عَدُوِّهم، والنَّظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودَمَارِهِ. وقد تقدَّم تفسيرها في «سورة البقرة».

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ بني إسرائيل بما حَصَلَ لهم مِنَ الهِدَاية، بتكليمه موسىٰ عليه السلام وإعطائِهِ التَّوراة وفيهَا أحكامهم وتفاصيل شَرْعِهِم، فذكر تعالىٰ أنَّه وَاعَد موسىٰ ثلاثين ليلةً.

قال المفسِّرون: فصامَهَا موسىٰ عليه السلام، فلما تَمَّ الميقات اسْتَاكَ بِلِحَاء شجرة، فأمره الله تعالىٰ أن يكمل بعشر أربعين.

وقد اختلف المفسِّرون في هذه العَشْر ما هي؟ فالأكثرون علىٰ أنَّ الثَّلاثين هي: ذو القعدة، والعَشْرُ عَشْرُ ذي الحجة. قاله مجاهد، ومَسْروق، وابن جُرَيج. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس. فعلىٰ هذا يكون قد كَمَّل الميقات يوم النَّحر، وحصَلَ فيه التَّكليم لموسىٰ عليه السلام، وفيه أكمل الله الدِّين لمحمَّدٍ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

فلما تَمَّ الميقات عزم(١) موسىٰ علىٰ الذَّهاب إلىٰ الطُّور، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحينئذٍ استخلف موسىٰ علىٰ بني إسرائيل(٢) أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيهٌ وتذكيرٌ، وإلا فهارون عليه السلام نبيٌّ شريفٌ كريمٌ علىٰ الله، له وجاهةٌ وجلالةٌ، صلوات الله وسلامه عليه، وعلىٰ سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ(٣) وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه لما جاء لميقاتِ اللهِ تعالىٰ، وحَصَلَ له التَّكليم مِنَ الله تعالىٰ سأل الله تعالىٰ أن ينظر، إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾.

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا علىٰ كثيرٍ من العلماء؛ لأنَّها موضوعةٌ لنَفْيِ التَّأبيد، فاستدلَّ به المعتزلة علىٰ نَفْيِ الرُّؤية في الدُّنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال؛ لأنَّه قد تواترت الأحاديث عن

---

(١) في (ح): «وعزم».
(٢) لوحة (١٣١/ أ).
(٣) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: الإجماع علىٰ أنَّ توبة موسىٰ هذه لم تكن مِن ذنبٍ، وإنَّما هي بمعنىٰ الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ وعدم طلب مثل هذا الذي طلب.

رسول الله ﷺ بأنَّ المؤمنين يَرَوْنَ الله في الدَّار الآخرة(١)، كما سنوردها عند قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢- ٢٤].

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن الكفَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

وقيل: إنَّها لنفي التَّأبيد في الدُّنيا، جمعًا بين هذه الآية وبين الدَّليل القاطع علىٰ صحَّة الرُّؤية في الدَّار الآخرة.

وقيل: إنَّ هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الآية:١٠٣]، وقد تقدَّم ذلك في الأنعام.

وفي الكتب المتقدِّمة أنَّ الله تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام: «**يَا مُوسَىٰ، إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيٌّ إِلَّا مَاتَ**(٢)، **وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ**»؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدَّثنا أحمد بن سُهَيْل الواسطي، حدَّثنا قُرَّة بن عيسىٰ، حدَّثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ، أَشَارَ بِإِصْبُعِهِ فَجَعَلَهُ دَكًّا**»، وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السَّبَّابة(٣).

هذا الإسناد فيه رجلٌ مبهمٌ لم يُسَمَّ، ثم قال: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا حجَّاج بن مِنْهال، حدَّثنا حمَّاد، عن لَيْث، عن أنس؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: «**هَكَذَا بِإِصْبُعِهِ** -ووضع النَّبيُّ ﷺ إصبعه الإبهام علىٰ المفصل الأعلىٰ من الخنصر- **فَسَاخَ الجَبَلُ**»(٤).

هكذا وقع في هذه الرواية: «حماد بن سلمة، عن ثابت عن ليث، عن أنس». والمشهور: «حماد ابن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال(٥) ابن جرير:

حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا هُدْبَة بن خالد، حدَّثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريبًا مِن طرف خِنْصَره، قال: فَسَاخَ الجَبَلُ. قال حُمَيد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابتٌ يده فضرب صَدْرَ حُمَيد وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس وأنا أكتمه؟!(٦).

---

(١) قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: وأجمعوا علىٰ أن المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة بأعين وجوههم. «رسالة أهل الثغر» (ص٧٢- ط الجليند)، وانظر: «مقالات الإسلاميين»: (١/ ٣٢١)، وقد قال الناظم:

مِمَّا تواتـرَ حديثُ مَن كَذَبْ ... ومن بنىٰ لله بيتًا واحتسـبْ
ورؤيةٌ شـفاعـةٌ والحـوضُ ... ومَسْحُ خُفين وهَذي بعضُ

وسيأتي المزيد في سورة القيامة.

(٢) وقال ﷺ: «**لن يرىٰ أحدٌ منكم ربَّه عز وجل حتىٰ يموت**». رواه مسلم: ٩٥ - (١٦٩) عقب رقم (٢٩٣٠).

(٣) صحيح: الرواية الأولىٰ التي أوردها ابن كثير فيها رجل لم يُسَم، لكن الروايات التي بعدها صحيحة، رواه ابن جرير (٩/ ٥٣)، وأحمد (٣/ ١٢٥)، والترمذي (٣٠٧٥)، والحاكم (١/ ٢٥)، وغيرهم.

(٤) صحيح: انظر التعليق السابق. (٥) لوحة (١٣١/ ب). (٦) صحيح: انظر التعليق السابق.

وهكذا رواه الإمام أحمد في «مسنده»: حدَّثنا أبو المثنىٰ، معاذ بن معاذ العَنْبري، حدَّثنا حماد بن سلمة، حدَّثنا ثابت البُنَاني، عن أنس بن مالك، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: قال هكذا -يعني: أنَّه أخرج طرف الخِنْصر- قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حُميد الطَّويل: ما تريد إلىٰ هذا يا أبا محمَّد؟ قال: فضرب صدره ضربةً شديدةً وقال: مَنْ أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدِّثني به أنس بن مالك عن النَّبيِّ ﷺ، [فتقول: أنت:][1] ما تريد إليه؟![2]

وهكذا رواه التِّرمذي في تفسير هذه الآية، عن عبد الوهاب بن الحكم الورَّاق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سليمان بن حرب، عن حمَّاد بن سَلَمة به، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث حماد.

وهكذا رواه الحاكم في «مستدركه» من طرق عن حمَّاد بن سلمة به. وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يُخرِّجاه.

ورواه أبو محمَّد الحسن بن محمَّد بن علي الخَلَّال، عن محمَّد بن علي بن سُوَيْد، عن أبي القاسم البغوي، عن هُدبة بن خالد، عن حمَّاد بن سلمة، فذكره وقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ لا علَّة فيه.

وقد رواه داود بن المُحَبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعًا بنحوه، وهذا ليس بشيء؛ لأن داود ابن المُحَبّر كذاب، ورواه الحافظان أبو القاسم الطَّبراني وأبو بكر بنحوه. وأسنده ابن مردويه من طريقين، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس مرفوعًا بنحوه. وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيْلَماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعًا، ولا يصح أيضًا.

وقال السُّدِّي، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس في قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلَّىٰ منه إلا قدر الخِنصر ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مَغْشيًّا عليه[3]. رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: ميتًا.

وقال سفيان الثوري: سَاخَ الجبل في الأرض حتىٰ وقع في البحر فهو يذهب معه.

وقال سُنَيْد، عن حجَّاج بن محمَّد الأعور، عن أبي بكر الهذلي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلىٰ يوم القيامة.

وجاء في بعض الأخبار: أنَّه ساخ في الأرض، فهو يَهْوِي فيها إلىٰ يوم القيامة. رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمر بن شَبَّة، حدَّثنا محمَّد بن يحيىٰ أبو غسَّان الكِنَاني، حدَّثنا عبد العزيز ابن عمران، عن معاوية بن[4] عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَمَّا تَجَلَّىٰ اللهُ لِلْجِبَالِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبُلٍ، فَوَقَعَتْ ثَلَاثَةٌ بِالمَدِينَةِ وَثَلَاثَةٌ بِمَكَّةَ، بِالمَدِينَةِ:**

---

(١) في (ز): «يقول»، والمثبت من «المسند».
(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٢٥)، والترمذي (٣٠٧٦)، والحاكم (١/ ٢٥) و(٢/ ٣٢٠).
(٣) رواه الطبري (٩/ ٣٧)، وابن أبي حاتم (٨٩٣٧)، ورجاله ثقات غير أن أسباط بن نصر، قال الحافظ: صدوق كثير الخطأ يغرب؛ لذا ضعَّفه الألباني في «ظلال الجنَّة» (٤٨٤).
(٤) لوحة (١٣٢/ أ).

أُحُد، وَوَرْقَانُ، وَرَضْوَىٰ. وَوَقَعَ بِمَكَّةَ: حِرَاءٌ، وَثَبِيرٌ، وَثَوْرٌ»(١).

وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن محمَّد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدَّثنا الهَيْثَم بن خارجة، حدَّثنا عثمان ابن [حِصن](٢) بن عَلاق، عن عُرْوة بن رُوَيم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلَّىٰ اللهُ لموسىٰ علىٰ الطُّور صُمًّا مُلْسًا، فلما تجلَّىٰ اللهُ لموسىٰ علىٰ الطُّور دُكَّ، وتفطَّرت الجبال فصارت الشُّقوق والكهوف(٣).

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، وذلك أنَّ الجبل حين كُشِف الغِطَاء ورأىٰ النُّور، صار مثل دَكٍّ مِن الدَّكاكِ(٤). وقال بعضهم: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: فتَّته.

وقال مُجاهد في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾؛ فإنه أكبر منك وأشدُّ خلقًا(٥)، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلىٰ الجبل لا يتمالك، وأقبلَ الجبل فدُكَّ علىٰ أوَّلِه، ورأىٰ موسىٰ ما يَصْنَعُ الجبلُ فخرَّ صَعِقًا. وقال عكرمة: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: نظر اللهُ إلىٰ الجبل فصار [صحراء](٦) ترابًا. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القُرَّاء(٧)، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه(٨). والمعروف أن «الصَّعْق» هو: الغَشْيُ هاهنا، كما فسَّره ابن عبَّاسٍ وغيره، لا كما فسَّره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحًا في اللُّغة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، فإنَّ هناك قرينةً تدلُّ علىٰ الموت كما أنَّ هنا قرينةً تدلُّ علىٰ الغَشْي، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، و«الإفاقَة» إنَّما تكون مِن غشيٍ. ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحدٌ في الدُّنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرُّؤية. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عبَّاس

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٣٩)، وفيه عبد العزيز بن عمران: منكر الحديث، كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك، وانظر: «الضعيفة» للألباني (١٦٢).

(٢) في (ز): (حصين)، وهو خطأ.

(٣) رواه ابن أبي حاتم (٨٩٤٣)، وفيه انقطاع فالإسناد ضعيف، ثم مثل هذا لا يعتمد عليه؛ لأنه غير موفوع إلىٰ رسول الله ﷺ.

(٤) الدك: ما استوىٰ من الرمل، وجمعه: دِكاك.

(٥) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: فنبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّ الجبل، مع شدَّته وصلابته، إذا لم يستقر، فالآدمي مع ضعف بِنْيَته أولىٰ بأن لا يستقر، وفيه تسكين لفؤاد موسىٰ، بأنَّ المانع من الانكشاف الإشفاق عليه، وأما أنَّ المانع محالة الرؤية، فليس في القرآن إشارة إليه.

﴿وَخَرَّ﴾ أي: وقع ﴿مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًّا عليه من هول ما رأىٰ.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من الإقدام علىٰ سؤالي الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: بأنَّه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ في هذه النشأة.

(٦) في (ز): (صخرًا).

(٧) متواترة: قَرَأَ (دَكَّاءَ) حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيَارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (دَكًّا).

(٨) لم يذكر سنده للنَّظر فيه، والغالب علىٰ مرويات ابن مردويه الضعف. فالله أعلم.

ومجاهد: [أي:][(١)] مِن بني إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرىٰ عن ابن عبَّاس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أنَّه لا يراك أحدٌ. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنَا أوَّل مَن آمن بك أنَّه لا يراك أحدٌ مِن خلقك إلىٰ يوم القيامة. وهذا قولٌ حسنٌ له اتِّجاه. وقد ذكر محمَّد بن جرير في «تفسيره» هاهنا أثرًا طويلًا فيه غرائب وعجائب، عن محمَّد بن إسحاق بن يسار. وكأنَّه تلقَّاه من الإسرائيليَّات، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله[(٢)]: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، فيه: أبو سعيد وأبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ، فأمَّا حديث أبي سعيد: فأسنده [البخاري في صحيحه][(٣)] هاهنا، فقال: حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا سفيان، عن عمرو ابن يحيىٰ المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ مِن اليهود إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قد لُطِمَ وجهه، فقال: يا محمَّد، إنَّ رجلًا من أصحابك من الأنصار لَطَمَ وَجْهِي. قال: «**ادْعُوهُ**» فدعوه، قال: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟**» قال: يا رسول الله، إنِّي مَرَرْتُ باليهوديِّ فسمعته يقول: والَّذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر. قال: قلت: وعلىٰ محمَّد؟ قال: فأخذتني غضبةٌ فلطمته، قال: «**لا تُخَيِّرُوني مِنْ بَيْنِ الأَنْبِياءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**»[(٤)].

وقد رواه البخاري في أماكنَ كثيرةٍ من «صحيحه»، ومسلم في أحاديث الأنبياء من «صحيحه»، وأبو داود في (كتاب السُّنَّة) من «سننه» من طرقٍ عن عمرو بن يحيىٰ بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد -سعد بن مالك بن سِنَان- الخدري به.

وأمَّا حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في «مسنده»:

حدَّثنا أبو كامل، حدَّثنا إبراهيم بن سعد، حدَّثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه اسْتَبَّ رجلان: رجلٌ من المسلمين ورجلٌ من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفىٰ محمَّدًا علىٰ العالمين. وقال اليهودي: والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ العالمين، فغضب المسلم علىٰ اليهودي فلَطَمَهُ، فأتىٰ اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُخَيِّرُوني عَلَىٰ مُوسَىٰ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَىٰ مُمْسِكًا بِجَانِبِ العَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[(٥)]. أخرجاه في «الصَّحيحين» مِن حديث الزُّهري به.

وقد رَوىٰ الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله: أنَّ الَّذي لَطَم اليهودي في هذه القضيَّة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولكن تقدَّم في «الصَّحيحين» أنَّه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم.

---

(١) زيادة من (ح).
(٢) في (ز): (وقال البخاري في صحيحه: وقوله).
(٣) ليست في (ز).
(٤) البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٢٧٣)، وأبو داود (٤٦٦٨).
(٥) البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٢٧٣)، وأبو داود (٤٦٧١).

والكلام في قوله ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ» كالكلام[١] علىٰ قوله: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»[٢]، قيل: مِن باب التَّواضُع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نَهَىٰ أَن يُفَضَّل بينهم علىٰ وَجْه الغَضَب والتَّعَصُّب. وقيل: علىٰ وَجْه القول بمجرَّد الرَّأي والتَّشهِّي، والله أعلم.

وقوله: «فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ»، الظَّاهر أَنَّ هذا الصَّعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمرٌ يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرَّبُّ تبارك وتعالىٰ لفَصْل القضاء، وتَجَلَّىٰ للخلائق الملك الدَّيَّان، كما صُعِقَ موسىٰ مِن تَجَلِّي الرَّب ﷻ ولهذا قال ﷺ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»؟.

وقد روىٰ القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمَّد بن محمَّد بن مرزوق، حدَّثنا [هانئ][٣]، حدَّثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيىٰ بن وَثَّاب، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَمَّا تَجَلَّىٰ اللهُ لِمُوسَىٰ ﷺ كَانَ يُبْصِرُ النَّمْلَةَ عَلَىٰ الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، مَسِيرَةَ عَشْرَةِ فَرَاسِخَ»[٤] ثم قال: ولا يبعد علىٰ هذا أن يختص نَبِيُّنا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ.

انتهىٰ ما قاله، وكأنَّه صحَّح هذا الحديث، وفي صحَّته نظرٌ، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يُعرفون، ومثل هذا إنَّما يُقبل من رواية العدل الضَّابط عَن مِثْلِهِ حتىٰ ينتهي إلىٰ منتهاه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يذكر تعالىٰ أنه خاطب موسىٰ ﷺ بأنَّه اصطفاه علىٰ عَالَمِي زمانه برسالاته وبكلامه تعالىٰ، ولا شكَّ أن محمَّدًا ﷺ سيِّد ولد آدم من الأوَّلين والآخرين؛ ولهذا اختصَّه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التي تستمر شريعته إلىٰ قيام السَّاعة، وأتباعه أكثر من أتباع سَائِرِ الأنبياءِ والمرسلين كلهم، وبعده -في الشَّرف والفضل- إبراهيم الخليل ﷺ ثم موسىٰ بن عِمْران كليم الرحمن ﷺ ولهذا قال الله تعالىٰ له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام والمُناجاة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: علىٰ ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثمَّ أخبر تعالىٰ أنَّه كتب له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ، قيل: كانت[٥]

---

(١) لوحة (١٣٣/ أ). (٢) البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) في (ز) وجميع النسخ: (قتادة)، والمثبت هو الصواب، وفي «الشفاء»: (حدثنا همام حدثنا الحسن) وهو خطأ أيضًا، قال في الحاشية: [قوله: (حدثنا همام) كذا في كثير من النسخ وصوابه هانئ، وهو هانئ بن يحيىٰ السلمي أخذ عن الحسن بن أبي جعفر الجعفري أحد الضعفاء، قال الطبراني: لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبي جعفر تفرد به هانئ بن يحيىٰ].

(٤) ضعيف: رواه عياض (٦٨، ٦٩) من كتاب «الشفاء» وفيه هانئ بن يحيىٰ السلمي: صدوق له أوهام ويخطئ، والحسن ابن أبي جعفر: ضعيف الحديث، كما في «التقريب».

(٥) لوحة (١٣٣/ ب).

الألواح مِن جوهرٍ، وأنَّ الله تعالىٰ كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصَّلةً مبيِّنةً للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملةً علىٰ التَّوراة التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص:٤٣].

وقيل: الألواح أُعطِيها موسىٰ قبل التَّوراة، فالله أعلم. وعلىٰ كُلِّ تقدير: كانت كالتَّعويض له عمَّا سأل مِنَ الرُّؤية ومُنِعَ منه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم علىٰ الطَّاعة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سُفيان بن عُيينة: حدَّثنا أبو سعد عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: أُمِرَ موسىٰ عليه السلام أن يأخذ بأشدِّ ما أُمِرَ قومه(١).

وقوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة مَن خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يَصِير إلىٰ الهلاك والدَّمار والتَّباب.

قال ابن جرير: وإنَّما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأُرِيكَ غدًا إلامَ يَصِير إليه حال مَن خالف أمري»، علىٰ وجه التَّهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

ثمَّ نقل معنىٰ ذلك عن مجاهد، والحسن البصري.

وقيل: معناه ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشَّام، وأُعطيكم إيَّاها. وقيل: منازل قوم فِرْعون، والأوَّل أولىٰ، والله أعلم؛ لأنَّ هذا كان بعد انفصال موسىٰ وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبَنِي إسرائيل قبل دخولهم التِّيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلَّة الدَّالَّة علىٰ عظمتي وشَرِيعَتِي وأحكامي قلوب المُتكبِّرين عن طاعتي، ويتكبَّرون علىٰ النَّاس بغير حَقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حَقٍّ أذلَّهم الله بالجهل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقال بعض السَّلف: لا ينال العلم حَيِيٌّ ولا مستكبرٌ.

وقال آخر: مَن لم يصبر علىٰ ذُلِّ التَّعلُّم ساعةً، بَقِيَ في ذُلِّ الجهل أبدًا.

وقال سفيان بن عُيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى (٢) ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال:

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٥٨)، وفيه أبو سعد البقَّال: ضعيف مدلس. (٢) لوحة (١٣٤/ أ).

أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا خطابٌ لهذه الأُمَّة.

قلتُ: ليس هذا بلازمٍ؛ لأنَّ ابن عُيينة إنَّما أراد أنَّ هذا مُطَّرِدٌ في حَقِّ كُلِّ أُمَّةٍ، ولا فرق بين أحدٍ وأحدٍ في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرُّشد؛ أي: طريق النَّجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضَّلال يتَّخِذُوه سبيلًا.

ثم علَّل مصيرهم إلىٰ هذه [الحال][1] بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئًا مما فيها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واسْتَمَرَّ عليه إلىٰ الممات، حَبِطَ عمله.

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما نُجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن ضلال مَن ضَلَّ مِن بني إسرائيل في عبادتهم العِجْل، الَّذي اتَّخذه لهم السَّامِرِيُّ من حُلِيِّ القِبْط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشَكَّل لهم منه عجلًا ثم ألقىٰ فيه القَبْضَة منَ التُّراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فصار عجلًا جسدًا له خُوارٌ، و«الخُوار»: صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لميقات ربه تعالىٰ، وأعلمه الله تعالىٰ بذلك وهو علىٰ الطُّور، حيث يقول تعالىٰ إخبارًا عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

وقد اختلف المفسِّرون في هذا العِجْل: هل صار لحمًا ودمًا له خوار، أو استمَرَّ علىٰ كونه مِن ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ علىٰ قولين، والله أعلم. ويقال: إنَّهم لما صَوَّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتتنوا به، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه:٨٨]، فقال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩].

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا (١) يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. يُنْكِر تعالىٰ عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السموات والأرض وربِّ كلِّ شيءٍ ومليكِهِ، أَن عبدوا معه عجلًا جسدًا له خُوار؛ لا يُكَلِّمُهُم ولا يُرْشِدُهم إلىٰ خير، ولكن غَطَّىٰ علىٰ أَعْيُن بصائرهم عَمَىٰ الجهل والضَّلال، كما تقدَّم مِن رواية الإمام أحمد، وأبو داود، عن أبي الدَّرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»(٢).

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: نَدِمُوا علىٰ ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: «لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا»(٣) -بالتَّاء المثنَّاة من فوق- «ربنا» -منادىٰ- «وتَغْفِر لنا»(٤). ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتِجاء إلىٰ الله ﷻ.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى (٥) فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنَّ موسىٰ عليه السلام رجع إلىٰ قومه من مناجاة ربِّه تعالىٰ وهو غضبان أسف.

قال أبو الدَّرداء: «الأَسَفُ»: أَشَدُّ الغَضَبِ.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ يقول: بئس ما صَنَعْتُم في عبادتكم العِجْل بعد أن ذهبت وتركتكم.

[وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ يقول: استعجَلْتُم مجيئي إليكم، وهو مُقَدَّرٌ مِن الله تعالىٰ](٦).

وقوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، قيل: كانت الألواح من زُمُرُّد. وقيل: مِن ياقوتٍ. وقيل: من بَرَد، وفي هذا دلالةٌ علىٰ ما جاء في الحديث: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ»(٧).

ثم ظاهر السِّياق: أنَّه إنَّما ألقىٰ الألواح غضبًا علىٰ قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا.

---

(١) لوحة (١٣٤/ ب).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٥/ ١٩٤)، وعلَّته أبو بكر بن أبي مريم: اختلط مع سوء حفظه، ووقع في الإسناد اختلاف واضطراب، انظر: «الضعيفة» للألباني رحمه الله (١٨٦٨).

(٣) في (ز): «لئن لم تغفر».

(٤) متواترة: قرَأَ (تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وتَغْفِرْ) حَمْزَةُ والْكِسائِيُّ وَخَلَفٌ (فِي اخْتِيارِهِ) وَوَافَقَهُمُ الْأَعْمَشُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ).

(٥) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: في الآية دليل علىٰ أنَّ مَن خاف علىٰ نفسه القتل أن يسكت عن المنكر ولا يغيره بيده ولا بلسانه ولكن بقلبه.

(٦) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٧) صحيح: ابن أبي حاتم (٥/ ٨٩٩٨)، وابن حبان (٦٢١٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٠) وصححه، ووافقه الذهبي.

وروىٰ ابن جرير عن قتادة في هذا قولًا غريبًا، لا يصح إسناده إلىٰ حكاية قتادة، وقد ردَّه ابن عطيَّة وغير واحدٍ من العلماء، وهو جديرٌ بالرَّدِّ، وكأنَّه تلقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذَّابون ووَضَّاعون وأفَّاكون وزنادقَة.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ خوفًا أن يكون قد قصَّر في نَهْيِهِم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٢-٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى(١) مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تَسُقني مَسَاقهم، ولا تَخْلِطْني معهم. وإنَّما قال: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾؛ لتكون أرأف وأنجع عندَهُ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأُمِّه. فلما تحقَّق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ براءةَ ساحة هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ قال كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ [طه:٩٠] فعند ذلك قال موسىٰ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصبَّاح، حدَّثنا عفان، حدَّثنا أبو عَوانة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ، لَيْسَ المُعَايِنُ كَالمُخْبَرِ؛ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَىٰ الأَلْوَاحَ»(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أمَّا الغضب الَّذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو: أنَّ الله تعالىٰ لم يَقْبَل لهم توبةً، حتىٰ قَتَل بعضهم بعضًا، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤].

وأمَّا الذِّلَّة فأعقبهم ذلك ذُلًّا وصَغَارًا في الحياة الدُّنيا، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلةً لكلِّ مَن افترىٰ بدعةً، فإن ذُلَّ البدعة ومخالفة الرِّسالة متَّصلة مِن قلبه علىٰ كَتِفَيْه، كما قال الحسن البصري: إنَّ ذُلَّ البدعة علىٰ أكتافهم، وإن هَمْلَجَت(٣) بهم البغْلات، وطَقْطَقَتْ بهم البراذين(٤).

وهكذا روىٰ أيوب(٥) السَّخْتِياني، عن أبي قِلابة الجَرْمي، أنَّه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

---

(١) لوحة (١٣٥/ أ). (٢) انظر التخريج السابق.

(٣) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة.

(٤) الطقطقة: صوت قوائم الخيل علىٰ الأرض الصلبة. والبراذين: جمع بِرْذَوْن، يُطلق علىٰ غير العربي من الخيل والبغال من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر. «المعجم الوسيط»: (ص٤٨). ويقابل البراذين: العراب، وهي أضمر وأرق أعضاء.

(٥) في (ز): «أبو السختياني»، وهو خطأ.

﴿ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ قال: هي -والله- لكُلِّ مُفترٍ إلىٰ يوم القِيامَةِ.

وقال سفيان بن عيينة: كلُّ صاحب بدعةٍ ذليلٌ.

ثم نبَّه تعالىٰ عباده وأرشدهم إلىٰ أنَّه يقبل توبةَ عباده مِن أَيِّ ذنبٍ كان، حتَّىٰ ولو كان مِن كفرٍ أو شركٍ أو نفاقٍ أو شقاقٍ؛ ولهذا عقَّب هذه القصَّة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمَّد، يا رسول الرَّحمة ونبي النُّور(١).

﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا أَبَان، حدَّثنا قتادة، عن عَزْرَة عن الحسن العَرَني، عن عَلْقَمة، عن عبد الله بن مسعود؛ أنَّه سُئِلَ عن ذلك -يعني: عن الرَّجل يَزْنِي بالمرأة، ثمَّ يتزوَّجها- فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا(٢) لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها(٣).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ [أي: سكن](٤)، ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ أي: غضبه علىٰ قومه، ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ أي: التي كان ألقاها من شِدَّة الغضب علىٰ عبادتهم العِجْل، غيرةً لله وغضبًا له ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾.

يقول كثير من المفسِّرين: إنَّها لما ألقاها تكسَّرت، ثمَّ جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعضُ السَّلف: فوجد فيها [هدىً](٥) ورحمة. وأمَّا التفصيل فذهب، وزعموا أن رُضَاضَها(٦) لم يزل موجودًا في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلىٰ الدَّولة الإسلاميَّة، والله أعلم بصِحَّة هذا، وأمَّا الدَّليل القاطع علىٰ أنَّها تكسَّرت حين ألقاها وهِيَ مِن جوهر الجنَّة: فقد أخبر الله تعالىٰ أنَّه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدًىٰ ورحمةً.

﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ ضَمَّنَ الرَّهبة معنىٰ الخضوع؛ ولهذا عدَّاها باللام.

وقال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ قال: رَبِّ، إنِّي أَجِدُ في الألواح أُمَّة خير أُمَّة أُخرِجت للنَّاس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رَبِّ، إنِّي أجد في الألواح أُمَّةً هم الآخرون -أي: آخرون في الخَلْقِ- السَّابقون في دخول الجنَّة، رب اجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رب، إنِّي أَجِدُ في الألواح أُمَّة أناجيلهم في صدورهم يَقْرَءُونها وكان مَن قَبْلَهُم يقرَءُون كتابهم نظرًا، حتىٰ إذا رفعوها لم يحفظوا [منها](٧) شيئًا ولم يعرفوه. [قال قتادة:](٨)

---

(١) في (ح): «يا رسول التوبة ونبي الرحمة».
(٢) لوحة (١٣٥/ ب).
(٣) صحيح: رواه ابن أبي حاتم (٩٠١٠).
(٤) ليست في (ح).
(٥) ليست في (ح).
(٦) الرضاض: الفُتات.
(٧) ليست في (ز).
(٨) ليست في (ز).

وإنَّ الله أعطاكم أيَّتُها الأُمَّة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم. قال: رب، اجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رَبِّ، إنِّي أجد في الألواح أُمَّةً يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضَّلالة[١]، حتىٰ يُقَاتِلُوا الأعور الكذَّاب، فاجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رَبِّ، إنِّي أجد في الألواح أُمَّةً صدقاتهم يأكلونها في بُطُونِهِم، ويُؤْجَرُون عليها -وكان مَنْ قبلهم [من الأمم][٢] إذا تصدَّق بصدقةٍ فقُبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن رُدَّت عليه تُركَت، فتأكلها السِّباع والطَّير، وإنَّ الله أخذ صدقاتكم من غَنِيِّكم لفقيركم. قال: رب، اجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رَبِّ، إنِّي أجد في الألواح أُمَّةً إذا همَّ أحدهم بحسنةٍ ثمَّ لم يعملها، كُتِبَت له حسنة، فإن عملها، كُتِبَت له عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف رب اجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد». قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أُمَّةً إذا هَمَّ أحدُهُم بسيئةٍ لم تكتب عليه حتىٰ يعملها، فإذا عملها كُتِبَت عليه سيئةٌ واحدةٌ، فاجعلهم أُمَّتِي: قال: «تلك أُمَّة أحمد». [قال: رب، إني أجد في الألواح أمَّةً هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد».][٣] قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أُمَّةً هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أُمَّتِي. قال: «تلك أُمَّة أحمد»[٤]. قال قتادة: فذكر لنا أن نَبِيَّ الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نبذ الألواح، وقال: اللَّهمَّ اجعلني مِن أمَّة أحمد[٥].

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ[٦] ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ[٧] بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ[٨] ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ [قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ][٩] ﴿١٥٦﴾﴾

---

(١) في (ز): «فصول الصلاة».
(٢) ليست في (ز).
(٣) ليست في (ح).
(٤) ليست في (ز).
(٥) رواه الطبري (٩/ ٦٥) موقوفًا علىٰ قتادة، ومثل هذا لا يعتمد عليه لعدم رفعه إلىٰ رسول الله ﷺ. وغاية ما فيه أنَّه من الإسرائيليَّات التي تروىٰ لا تصدَّق ولا تكذَّب. فالله أعلم.
(٦) لوحة (١٣٦/ أ).
(٧) في (ز): «تصيب»، وهو خطأ.
(٨) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه- أنَّ هذا استعطاف من موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لربِّه، وتوسُّل إليه بعفوه عنهم من قبل، حتىٰ عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم، يقول موسىٰ: إنَّهم قد تقدَّم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فيسعهم اليوم ما وسعهم من قبل، وهذا كمن واخذه سيده بجرم، يقول: لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولاً، فيسعني اليوم.
ثم قال نبي الله: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فقال ابن الأنباري وغيره: هذا استفهام علىٰ معنىٰ الجحد؛ أي: لست تفعل ذلك، والسُّفهاء هنا عَبَدة العجل.
قال الفرَّاء: ظنَّ موسىٰ أنَّهم أهلكوا باتِّخاذ قومهم العجل، فقال: أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منا ؟ وإنَّما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾. انتهىٰ. واستظهار أنَّ هذا استفهام استعطاف، سبقه إليه المبرد.
(٩) ليست في (ح).

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية: كان الله أمَرَه أن يختار من قومه سبعين رجلًا [فاختار سبعين رجلًا][(١)] فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دَعَوُا الله قالوا: اللَّهم أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطه أحدًا بعدنا فكَرِهَ الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرَّجفة، قال موسىٰ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ الآية[(٢)].

وقال السُّدِّي: إن الله أمر موسىٰ أن يأتيه في ناسٍ مِن بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدًا، فاختار موسىٰ مِن قومه سبعين رجلًا علىٰ عينه، ثمَّ ذهب بهم لِيَعْتَذِرُوا. فلمَّا أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسىٰ حتىٰ نرىٰ الله جهرة، فإنَّك قد كلَّمْتَهُ، فأرناه. فأخذتهم الصَّاعقة فماتوا، فقام موسىٰ [يبكي و][(٣)] يدعو الله ويقول: رَبِّ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا [لَقِيتُهُم][(٤)] وقد أهلكتَ خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾.

وقال محمَّد بن إسحاق: اختار موسىٰ من بني إسرائيل سبعين رجلًا الخيِّرَ فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلىٰ الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسَلُوه التَّوبة علىٰ مَن تركتم وراءكم من قومكم، صُومُوا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم. فخرج بهم إلىٰ طُور سَيْناء، لميقاتٍ وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون -فيما ذكر لي- حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء رَبِّه، فقالوا لموسىٰ: اطلب لنا نسمع كلام رَبِّنَا. فقال: أَفْعَلُ. فلمَّا دنا موسىٰ مِنَ الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتىٰ تَغَشَّىٰ الجبل كله. ودنا موسىٰ فدخل فيه، وقال للقوم: ادْنُوا. وكان موسىٰ إذا كلَّمه الله وقع علىٰ جبهة موسىٰ نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتىٰ إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُودًا فسَمِعُوه وهو يُكَلِّم موسىٰ، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلمَّا فرغ إليه مِن أمره انكشف عَن موسىٰ الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسىٰ: لَن نُّؤمِن لك حتَّىٰ نرىٰ الله جهرةً. فأخذتهم الرجفة -وهي الصاعقة- فافتُلتَت[(٥)] أرواحهم، فماتوا جميعًا. فقام موسىٰ يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول:[(٦)] ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾، قد سَفِهُوا، أَتُهْلِك مَن ورائي مِن بني إسرائيل؟[(٧)].

وقال سفيان الثوري: حدَّثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السَّلُولي، عن علي [بن أبي طالب رضي الله عنه][(٨)] قال: انطلق موسىٰ وهارون وشبر وشبير، فانطلقوا إلىٰ سفح جَبَل، فنام[(٩)] هارون علىٰ سرير، فتوفاه الله عز وجل، فلمَّا رجع موسىٰ إلىٰ بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفَّاه الله عز وجل.

---

(١) ليست في (ح). (٢) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٧٢)، وفيه انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٣) ليست في (ز). (٤) في (ح): «إذا أتيتهم».

(٥) في (ز): «فالتقت»، وافْتُلِتَت نفسه: مات فلتة؛ أي: بغتة.

(٦) لوحة (١٣٦/ ب). (٧) مرسل: رواه عنه الطبري (٩/ ٧٢).

(٨) في (ح): «عن علي عليه السلام». (٩) في (ز): «فقام هارون».

قالوا [له:][١] أَنتَ قتلته، حَسَدتنا علىٰ خُلُقِهِ ولينه -أو كلمة نحوها-. قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلًا. قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، مَن قتلك؟ قال: ما قتلني [أحد][٢]، ولكن توفَّاني الله. قالوا: يا موسىٰ، لن تُعصَىٰ بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرَّجفة. قال: فجعل[٣] موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يرجع يمينًا وشمالًا وقال: يا﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم[٤].

هذا أثَرٌ غريبٌ جدًّا، و«عمارة بن عبد» هذا لا أعرفه. وقد رواه شُعبَة، عن أبي إسحاق، عن رجلٍ مِن بني سلول، [عن عليٍّ][٥]، فذكره.

وقال ابن عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، وقتادة، وابن جُرَيْج: إنَّما أخذتهم الرَّجفة؛ لأنَّهم لم يُزَايِلُوا قومهم فِي عِبَادَتِهِم العجل، ولا نَهَوهُم، ويتوجَّه هذا القول بقول موسىٰ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وربيع بن أنس، وغير واحدٍ من علماء السَّلف والخلف. ولا معنىٰ له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تُضِلُّ مَن تشاء، وتَهْدِي مَن تشاء، ولا هادي لِمَنْ أَضْلَلْتَ، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيْتَ، ولا مُعطِي لما مَنَعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كُلُّهُ لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ الغَفْر هو: السَّتر، وترك المؤاخذة بالذَّنب، والرَّحمة إذا قُرِنَت مع الغفْر، يُرَادُ بها ألَّا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يَغْفِرُ الذُّنوب إلَّا أنت، ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾. هناك الفصل الأوَّل مِن الدُّعاء في دفع المحذور، وهذا لتَحْصِيلِ المقصود ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ[٦] ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[٧] أي: أَوْجِب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدَّم [تفسير][٨] ذلك في «سورة البقرة»[٩].

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٢) ليست في (ز). (٣) في (ز): «فرجع».

(٤) ضعيف: ابن جرير (٩/ ٧٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ٩٠١٨)، وفيه عمارة بن عبد السلولي. قال الحافظ: مقبول.

(٥) ليست في (ز). (٦) لوحة (١٣٧/ أ).

(٧) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الجشمي: تدلُّ الآية علىٰ حسن سؤال نعيم الدنيا، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة، وتدلُّ علىٰ أنَّ الواجب علىٰ الدَّاعي أن يقرن بدعائه التَّوبة والإخلاص، لذلك قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.
وتدل علىٰ أنَّه تعالىٰ ينعم علىٰ البر والفاجر، ويخص بالثواب المؤمن، فلذلك فصل، ومن تأمل هذا السؤال والجواب، عرف عظيم محل هذا البيان؛ لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة، فكان من الجواب أنَّ العذاب خاصَّة يصاب به من يستحقه، فأمَّا النِّعم فما كان من باب الدُّنيا يسع كل شيء يصح عليه التَّنعُّم، وما كان مِن باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها.
وتدلُّ علىٰ أنَّ الرَّحمة لا تنال بمجرَّد الإيمان الذي هو التَّصديق، حتىٰ ينضم إليه الطَّاعات، فيبطل قول المرجئة.

(٨) ليست في (ز). (٩) راجع تفسير الآية (٢٠١) من سورة البقرة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وأبو العالية، والضَّحَّاك، وإبراهيم التيمي، والسُّدِّي، وقتادة، وغير واحدٍ. وهو كذلك لُغَة.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجيّ، عن علي رضي الله عنه قال: إنما سُمِّيت اليهود؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [(١)].

جابر -هو: ابن يزيد الجُعْفي-: ضعيفٌ.

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

قال تعالىٰ -مجيبًا لموسىٰ في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية-: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، آية عظيمة الشُّمول والعُمُوم، كقوله إخبارًا عن حَمَلة العرش ومَن حوله أنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا الجُرَيري، عن أبي عبد الله الجُشَمي، حدَّثنا جُنْدُب -هو ابن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه- قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عقَلها، ثمَّ صلىٰ خلف رسول الله ﷺ، فلمَّا صلَّىٰ رسول الله ﷺ أتىٰ راحلته فأطلق عِقالَها، ثم رَكِبَها، ثم نادىٰ: اللَّهمَّ، ارحمني ومحمَّدًا، ولا تشرك في رِحْمَتِنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «[أَتَقُولُونَ][(٢)] هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟» قالوا: بلىٰ. قال: «لَقَدْ حظَرْتَ رَحْمَةً واسِعَةً؛ إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً [وَاحِدَةً][(٣)] يَتَعَاطَفُ بِهَا الخَلْقُ؛ جِنُّهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا، وَأَخَّرَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً. أَتَقُولُونَ: هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟»[(٤)].

رواه أبو داود عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن سليمان، عن أبي عثمان، عن سلمان، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ للهِ ﷻ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاحَمُ بِهَا الخَلْقُ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوُحُوشُ عَلَىٰ أَوْلادِهَا، وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»[(٥)].

تفرَّد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سُلَيمان -هو ابن طِرْخان- وداود بن أبي هند، كلاهما عن

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٢/ ١٤٣ برقم ١٠٩٤)، وفيه ابن وكيع: ضعيف، وجابر الجعفي: ضعيف، وشريك القاضي: سيئ الحفظ.

(٢) ليست في (ز). (٣) ليست في (ز).

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ٣١٢)، وأبو داود (٤٨٨٥)، وفيه أبو عبد الله الجشمي قال الحافظ: مجهول.

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٣)، وأحمد (٥/ ٤٣٩) من حديث سلمان.

أبي عثمان -واسمه عبد الرحمن بن مُلّ[١] - عن سلمان، هو[٢] الفارسي، عن النَّبيِّ ﷺ به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عفان، حدَّثنا[٣] حمَّاد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**للهِ مِائَةُ رَحْمَةٍ، عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَجَعَلَ عِنْدَكُمْ وَاحِدَةً تَتَرَاحَمُونَ بِهَا بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَبَيْنَ الخَلْقِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّهَا إِلَيْهِ**». تفرد به أحمد من هذا الوجه[٤].

وقال أحمد: حدَّثنا عفان[٥]، حدَّثنا عبد الواحد، حدَّثنا الأعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**للهِ مِائَةُ رَحْمَةٍ، فَقَسَمَ مِنْهَا جُزْءًا وَاحِدًا بَيْنَ الخَلْقِ، فَبِهِ يَتَرَاحَمُ النَّاسُ وَالوَحْشُ وَالطَّيْرُ**»[٦].

ورواه ابن ماجة من حديث أبي معاوية، عن الأعمش به.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا أحمد بن يونس، حدَّثنا سعد أبو غَيْلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زُفَر، عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَدْخُلَنَّ [الجَنَّةَ]**[٧] **الفَاجِرُ فِي دِينِهِ، الأَحْمَقُ فِي مَعِيشَتِهِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ الَّذِي قَدْ مَحَشَتْهُ**[٨] **النَّارُ بِذَنْبِهِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَغْفِرَنَّ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْفِرَةً يَتَطَاوَلُ لَهَا إِبْلِيسُ رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ**»[٩].

هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، «وسعد» هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلىٰ آخرها؛ يعني: فسأوجب حُصُول رحمتي مِنَّةً مِنِّي وإحسانًا إليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأجعلها للمُتَّصِفِين بهذه الصِّفات، وهم أُمَّةُ محمَّدٍ ﷺ الَّذين يَتَّقون؛ أي: الشِّرك والعظائم من الذُّنوب.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ قيل: زكاة النُّفوس. وقيل: [زَكَاة][١٠] الأموال. ويحتمل أَن تكون عامَّةً لهما؛ فإِنَّ الآية مكيَّة، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون.

---

(١) عبد الرحمن بن مُلّ، ميمه مثلثة، كما قال الحافظ، وهو: أبو عثمان النهدي، مخضرم ثقة ثبت عابد. «التقريب» (٤٠١٧).

(٢) لوحة (١٣٧/ ب).

(٣) في (ز): «عفان بن حماد»، والمثبت هو الصواب.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٥٥)، (٢/ ٥٢٦) من طريق حمَّاد به، وأصل الحديث في «الصحيحين» من طرق أخرىٰ. رواه البخاري (٦٠٠٠)، (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢)، وابن ماجة (٤٢٩٣).

(٥) في (ز): «حدَّثنا عثمان»، وهو خطأ.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٥٥)، وابن ماجة (٤٢٩٤).

(٧) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٨) **المحش**: احتراق الجلد وظهور العظم.

(٩) الطبراني (٣/ ٣٠٢١)، وفيه سعد أبو غيلان ضعَّفه أبو حاتم كما في «ميزان الاعتدال» و«لسان الميزان»، لكن قال أبو زرعة: لا بأس به فحديثه هذا محتمل التَّحسين. والله أعلم، وانظر ما قاله ابن كثير تعقيبًا علىٰ الحديث.

(١٠) ليست في (ز).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾. وهذه صفة محمَّد ﷺ في كتب الأنبياء؛ بَشَّروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودةً في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا إسماعيل، عن الجُرَيري، عن أبي صَخْر العُقَيلي، حدَّثني رجلٌ من الأعراب، قال: جَلَبتُ جَلُوبَةً(١) إلىٰ المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلمَّا فرغت مِن بيعتي قلت: لألقينَّ هذا الرَّجل فلأسمعنَّ منه، قال: فتلقَّاني بين أبي بكر وعمر يمشون(٢)، فتبعتهم [في أقفائهم](٣)، حتىٰ أتوا علىٰ رجل من اليَهُود ناشرًا التَّوراة يقرؤها، يُعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، هَلْ تَجِدُ(٤) فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟» فقال برأسه(٥) هكذا؛ أي: لا. فقال ابنه: إي والَّذي أنزل التَّوراة إنَّا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله، فقال: «أَقِيمُوا اليَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ». ثم ولي كفنَه [وجَنَّه](٦) والصلاةَ عليه(٧).

هذا حديث جيدٌ قويٌّ له شاهد في «الصحيح» عن أنس.

وقال الحاكم صاحب «المستدرك»: أخبرنا [أبو](٨) محمَّد عبد الله بن إسحاق البغوي، حدَّثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدَّثنا عبد الله بن إدريس، عن شُرَحْبيل بن مسلم، عن أبي أُمامة البَاهِلي، عن هشام بن العاص الأموي قال: بُعثت أنا ورجلٍ آخر إلىٰ هِرَقْل صاحب الروم ندعوه إلىٰ الإسلام، فخرجنا حتىٰ قدمنا الغُوطة -يعني: غوطة دمشق- فنزلنا علىٰ جَبَلَة بن الأَيْهَم الغسَّاني، فدخلنا عليه، فإذا هو علىٰ سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولًا، إنَّما بعثنا إلىٰ الملك، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم الرَّسول. فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا، فقال: تَكَلَّموا، فكلَّمه هشام بن العاص، ودعاه إلىٰ الإسلام، فإذا عليه ثيابُ سوادٍ، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتىٰ

---

(١) في (ز): «جلبت حلوة». (٢) لوحة (١٣٨/ أ). (٣) ليست في (ز).
(٤) في (ز): «تجد في»، والمثبت من «المسند». (٥) قال برأسه: أشار.
(٦) في (ز): «وحنته»، والمثبت موافق لما في «المسند»، والجنن: الدفن والسَّتر.
(٧) صحيح: أحمد (٥/ ٤١١)، ورجاله ثقات وقوىٰ إسناده ابن كثير عقيب إيراده الحديث.
(٨) في (ز)، و(ح): «محمَّد بن عبد الله»، وفي «الشعب»: «أبو محمَّد عبد الله» وهو الصواب.

أخرجكم من الشَّام. قلنا: ومجلسك هذا، والله لنأخذنَّه منك، ولنأخذنَّ مُلْك المَلِك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قومٌ يصومون بالنَّهار، ويقومون باللَّيل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فمُلِئَ وجهه سوادًا فقال: قوموا. وبعث معنا رسولًا إلىٰ الملك، فخرجنا حتىٰ إذا كنَّا قريبًا من المدينة، قال لنا الذي معنا: إنَّ دوابَّكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم علىٰ بَرَاذِين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلَّا عليها، فأرسلوا إلىٰ الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا علىٰ رواحلنا متقلدين سيوفنا، حتىٰ انتهينا إلىٰ غرفة فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر، فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة[(١)] حتىٰ صارت كأنها عِذْق[(٢)] تصَفِّقه الرياح، فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا[(٣)]، فدخلنا عليه وهو علىٰ فراش له، وعنده بطارقته من الروم، وكل شيءٍ في مجلسه أحمر، وما حوله حُمرة، وعليه ثياب من الحُمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيَّتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجلٌ فصيحٌ بالعربيَّة، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تَحِلُّ لك، وتحيتك التي تُحيىٰ بها لا تحل لنا أَن نُحَيِّك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السَّلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر، فلما تكلمنا بها -والله يعلم- لقد تَنَفَّضت الغرفة حتىٰ رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تنفضت الغرفة، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا ما رأيناها فَعَلَتْ هذا قط إلا عندك. قال: لَوَدِدْتُ أنكم كلَّما قلتم تَنَفَّضَ كل شيءٍ عليكم. وأني خرجتُ من نصف مُلْكي. قلنا: لِمَ؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر ألا تكون من أمر النُّبُوَّة، وأنها تكون من حِيَل الناس. ثم سَأَلَنَا عمَّا أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا [فقمنا][(٤)]. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل [كثير][(٥)]، فأقمنا ثلاثًا.

فأرسل إلينا ليلًا فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيءٍ كهيئة الرَّبْعَةِ[(٦)] عظيمة مُذْهَبَة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتًا وقفلًا فاستخرج حريرةً سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجلٌ ضَخْم العينين. عظيم الأَلْيَتَيْن، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لِحْيَة، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإذا هو أكثر الناس شَعرًا.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر [كشعر][(٧)] القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) أي: تشققت وسمع صوتها.
(٢) العِذق: العرجون بما فيه من الشَّماريخ، وتصفقه الرياح: تحركه.
(٣) لوحة (١٣٨/ ب).
(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). والنُّزُل: قرىٰ الضيف.
(٦) الرَّبْعة: إناء مربع.
(٧) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، وإذا فيها رجلٌ شديد البياض، حسن العينين، صَلْت الجبين[١]، طويل الخد، أبيض اللِّحية كأنَّه يبتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر فإذا فيه صورةٌ بيضاء، وإذا -والله- رسول الله ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمَّد رسول الله ﷺ قال: وبَكَيْنا[٢]. قال: والله يعلم أنَّه قام قائمًا ثم جلس، وقال: والله إنَّه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو، كأنَّك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنَّه كان آخر البيوت، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، فإذا فيها صورة أدماء سَحماء وإذا رجلٌ جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب [الأسنان][٣]، مقلَّص[٤] الشفة كأنَّه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسىٰ عليه السلام. وإلىٰ جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مُدْهَان الرأس[٥]، عريض الجبين، في عينيه قَبَلٌ[٦]، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا [هارون][٧] بن عمران عليه السلام.

[ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط[٨] رَبْعَة، كأنَّه غضبان][٩]، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط عليه السلام.

[ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة، أقنىٰ[١٠]، خفيف العارضين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه السلام][١١].

[ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنَّه علىٰ شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام][١٢].

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أقنىٰ الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يُعرَفُ في وجهه الخشوع، يضرب إلىٰ الحُمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نَبِيِّكم عليهما السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فيها صورة كأنها صورة آدم عليه السلام كأنَّ وجهه الشَّمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام.

---

(١) صَلْت الجبين: واسعه، وقيل: الصلت البارز، وقيل أيضـًا: الأملس.
(٢) لوحة (١٣٩/ أ). (٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٤) أي: مجتمعة منضمة.
(٥) أي: دهين الشعر. (٦) القَبَل: إقبال السواد علىٰ الأنف، وقيل: هو ميل كالحول.
(٧) في (ح): «موسىٰ».
(٨) الآدم: الأسمر، والسَّبْط: التام الخلق، وسبط الشعر: منبسطه مسترسله. والرَّبعة: المُتَوَسِّطُ القامةِ بين الطُّولِ والقِصَر، كالمَرْبوعِ.
(٩) ما بين المعقوفتين ورد في (ح) بلفظ: «وإلىٰ جنبه صورة تشبهه إلا أنَّه مدهان الرَّأس عريض الجبين أكحل عينين».
(١٠) القنا في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه. (١١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(١٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ح).

ثم فتح بابًا آخر فاستخرج [منه][١] حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمرَ حَمْش السَّاقين[٢]، أخْفَش العينين[٣] ضخم البطن، رَبْعة متقلدٌ سيفًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج [منه][٤] حريرةً بيضاء، فيها صورة رجلٍ ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرسًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا [رجل][٥] شابٌّ شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن[٦] العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسىٰ ابن مريم عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصُّور؟ لأنَّا نعلم أنها علىٰ ما صورت عليه الأنبياء -عليهم السلام-؛ لأنَّا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم عليه السلام سأل رَبَّه أن يريه الأنبياء مِن ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشَّمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشَّمس فدفعها إلىٰ دانيال. ثم قال: أما والله إنَّ نفسي طابت بالخروج مِن ملكي، وإنِّي كنت عبدًا لأَشَرِّكُمْ ملكةً، حتىٰ أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه [فحدَّثناه بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكىٰ أبو بكر][٧]، وقال: مسكين! لو أراد الله به خيرًا لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّهم واليهود يجدون نعت محمَّدٍ ﷺ عندهم. هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله، في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة فذكره، وإسناده لا بأس به[٨].

وقال ابن جرير: حدَّثنا المُثنىٰ، حدَّثنا عثمان بن عُمَر، حدَّثنا فُلَيْح، عن هلال بن علي، عن عطاء ابن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التَّوراة كصفته في القرآن: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ[٩] المُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ، [وَلا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ][١٠]، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيَفْتَحُ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا**»[١١].

قال عطاء: ثمَّ لقيت كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفًا، إلا أن كعبًا قال: بلغته، قال: «**قُلُوبًا غُلُوفِيًّا وَآذَانًا صُمُومِيًّا وَأَعْيُنًا عُمُومِيًّا**».

وقد رواه البخاري في «صحيحه»، عن محمَّد بن سِنَان، عن فُلَيْح، عن هلال بن علي، -فذكر

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٢) حَمْش الساقين، وأحمش: دقيقهما.

(٣) الخفش في العين: فساد فيها، يضعف منه نورها، وتغمض دائمًا من غير وجع.

(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) لوحة (١٣٩/ ب). (٧) ليست في (ز).

(٨) رواها البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٨٥- ٣٩٠)، وقال ابن كثير عقبه: إسناده لا بأس به. ا هـ. لكني لم أقف علىٰ ترجمة عبد العزيز بن مسلم بن إدريس.

(٩) في (ز): «اسمك». (١٠) ليست في (ز).

(١١) رواه الطبري (٩/ ٨٣)، ورواه البخاري (٢١٢٥)، (٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

بإسناده نحوه وزاد -بعد قوله: «لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ»-: «وَلَا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ».

ويقع في كلام كثيرٍ من السَّلف إطلاق «التوراة» علىٰ كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا موسىٰ بن هارون، حدَّثنا محمَّد بن إدريس [ورَّاق][١] الحميدي، حدَّثنا محمَّد بن عمر بن إبراهيم -من ولد جبير بن مُطْعِم- قال[٢]: حدثتني أم عثمان بنت سعيد -وهي جدتي- عن أبيها سعيد بن محمَّد بن جبير، عن أبيه محمَّد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجتُ تاجرًا إلىٰ الشام، فلما كنت بأدنىٰ الشام، لقيني رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجلٌ نبيًّا؟ قلت: نعم. قال: هَلْ تَعْرِفُ صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتًا فيه صور، فلم أر صورة النَّبيِّ ﷺ، فبينما أنا كذلك إذْ دخل رجلٌ منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلىٰ منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلىٰ صورة النَّبيِّ ﷺ، وإذا رجلٌ آخذٌ بعقب النَّبيِّ ﷺ، قلت: من هذا الرجل القابض علىٰ عَقِبِهِ؟ قال: إنَّه لم يكن [نبي إلا كان][٣] بعده نبي [إلا][٤] هذا [النَّبيُّ][٥]، فإنَّه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبي بكر رضي الله عنه[٦].

وقال أبو داود: حدَّثنا حفص بن عمر[٧] أبو عمر الضرير، حدَّثنا حماد بن سلمة، أن سعيد بن إياس الجريري أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثني عمر إلىٰ الأسقف، فدعوته، فقال له عمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نَعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجدك قَرْنًا. قال: فرفع عمر الدِّرَّة وقال قرن مَهْ؟ قال: قرن مِن حديد، أميرٌ شديدٌ. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفةً صالحًا، غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر: يرحم الله عثمان، ثلاثًا. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أَجِدُ صَدَأً[٨] حَدِيدٍ[٩]. قال: فوضع عمر يده علىٰ رأسه وقال: يا دفراه، يا دَفْراه[١٠]! قال: يا أمير المؤمنين، إنَّه خليفة صالح، ولكنَّه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق[١١].

---

(١) في (ز): «محمَّد بن إدريس بن الحميدي»، والمثبت موافق لما في كتب الرجال.

(٢) لوحة (١٤٠/ أ).

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) ضعيف: رواه الطبراني (٢/ ١٥٣٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٣٦): وفيه من لم أعرفهم.

(٧) في (ز) و(ح): «عمر بن حفص»، والمثبت وهو الصواب، وهو موافق لما في «سنن أبي داود».

(٨) في (ز) و(ح): «صدئ».

(٩) صَدأ من حَديد، ويُروىٰ: صدَعٌ، أراد دوامَ لُبس الحديد؛ لاتِّصال الحُرُوب في أيَّام عليٍّ، وما مُنِيَ به من مُقَاتلة الخَوارِج والبُغَاة ومُلابَسة الأمور المُشْكلة، والخُطوب المُعْضلة، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: (وادَفْراهُ) تَضَجُّرًا من ذلك واستِفحَاشًا. ورواه أبو عُبَيد غير مهموز، كأنَّ الصَّدا لُغَة في الصَّدَع، وهو اللطيفُ الجِسْم. أرادَ أنَّ عليًّا رضي الله عنه خفيفٌ، يخف إلىٰ الحُرُوب ولا يكْسَل؛ لشدَّة بأسِه وشَجَاعته. «النهاية».

(١٠) الدَّفْر: النَّتْن. «النهاية».

(١١) ضعيف: أبو داود (٤٦٥٦). وضعَّفه الشيخ الألباني رحمه الله.

وقوله تعالىٰ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يأمر إلا بخيرٍ، ولا ينهىٰ إلا عن شرٍّ، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَرْعِها سمعك، فإنَّه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ يَنهىٰ عنه(١). ومن أهمِّ ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالىٰ به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنَّهي عن عبادة مَن سواه، كما أرسل به جميع الرُّسل قبله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عامر -هو: العَقَدِيّ عبد الملك(٢) بن عمرو-، حدَّثنا سليمان -هو: ابن بلال-، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك ابن سعيد، عن أبي حُميد وأبي أسيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ**»(٣).

هذا حديثٌ جيِّد الإسناد، لم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب [السِّتَّة](٤).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعْمَش، عن عمرو بن مُرة، عن أبي البَخْتري، عن علي رضي الله عنه قال: إذا حُدِّثْتُم عن رسول الله ﷺ حديثًا، فظُنُّوا به الذي هو أهدىٰ، والَّذي هو أَهْنَا(٥)، [والذي هو أنجىٰ](٦) والذي هو أتقىٰ(٧).

ثمَّ رواه عن يحيىٰ بن سعيد، عن مِسْعَر، عن عمرو بن مُرة، عن أبي البَخْتَري، عن أبي عبد الرحمن، عن علي رضي الله عنه قال: إذا حُدِّثْتُم عن رسول الله ﷺ حديثًا فظُنُّوا به الَّذي هو أهداه وأهناه وأتقاه(٨).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، أي: يُحِلُّ لهم ما كانوا حرَّموه علىٰ أنفسهم من البحائر، والسَّوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به علىٰ أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: كلحم الخنزير والرِّبا، وما كانوا يستحلونه من المحرَّمات من المآكل التي حرَّمها الله تعالىٰ.

= قلت: علته الأقرع مُؤَذِّن عمر. قال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف.

(١) حسن: تقدم، انظر: سورة البقرة الآية (١٠٥).

(٢) لوحة (١٤٠/ ب).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وانظر: «الصحيحة» للألباني (٧٣٢).

(٤) ليست في (ز).

(٥) أهنا: أصله من (أهنأ) -بالهمز- وهو اسم تفضيل، من هنؤ الشئ هناءة: تيسر من غير مشقة ولا عناء.

(٦) ليست في (ز).

(٧) رواه أحمد (١/ ١٢٢) وإسناده منقطع بين أبي البختري وعلي بن أبي طالب، لكن رواه ابن ماجة (٢٠) موصولًا وإسناده صحيح.

(٨) صحيح: هذه الرواية عند أحمد موصولة؛ حيث جعل بين أبي البختري وعلي: أبي عبد الرحمن السلمي، وكذا رواه ابن ماجة في المقدمة (٢٠)، وكما تقدم في التعليق السابق.

وقال بعضُ العلماء: كلُّ ما أَحَلَّ الله تعالىٰ فهو طَيِّبٌ نافع في البدن والدِّين، وكُلُّ ما حَرَّمه فهو خبيثٌ ضارٌّ في البدن والدِّين.

وقد تمسَّك بهذه الآية الكريمة مَن يرىٰ التَّحسين والتَّقبيح العقليين(١)، وأُجِيبَ عَن ذلك بما لا يَتَّسِع هذا الموضع له.

وكذا احتج بها مَن ذهب مِن العلماء إلىٰ أنَّ المرجع في حِلِّ المآكل التي لم ينص علىٰ تحليلها ولا تحريمها إلىٰ ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلىٰ ما استخبثته. وفيه كلامٌ طويلٌ أيضًا.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إنَّه جاء بالتَّيسير والسَّماحة، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**بُعِثْتُ بالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»(٢). وقال لأَمِيرَيْهِ معاذ وأبي موسىٰ الأشعري، لما بعثهما إلىٰ اليمن: «**بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا**(٣) **تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**»(٤). وقال صاحبه أبو بَرْزَة الأَسْلَمِي: إنِّي صَحِبْتُ رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره(٥).

وقد كانت الأُمَم الَّذِين كانوا قبلنا في شرائعهم ضُيق عليهم، فوَسَّع الله علىٰ هذه الأُمَّة أمورها، وسَهَّلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ**»(٦)، وقال: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»(٧)؛ ولهذا قد(٨) أرشد الله هذه الأُمَّة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وثبت في «صحيح مسلم»: أن الله تعالىٰ قال بعد كلِّ سؤال من هذه: «**قَدْ فَعَلْتُ، قَدْ فَعَلْتُ**»(٩).

---

(١) الحكم علىٰ الشيء بأنه حسن أو قبيح؛ يرىٰ الأشاعرة ومن وافقهم أن التحسين والتقبيح لا يكون إلا بالشرع، والحق في المسألة أن العقل والشرع كلاهما يُحَسِّنُ ويُقبح، إلا أن العبد لا يؤاخذ بذلك إلا بعد بلوغ الشرع له، وهذا هو مذهب أهل السنة، ويُلحق بهذه المسألة أن الله يخلق ويأمر وينهىٰ لحكمة، خلافًا للأشاعرة ومن معهم. ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٩٠-٩٣، و٤٢٨-٤٣٧)، و«الإعلام بمخالفات الموافقات والاعتصام» للشيخ/ ناصر بن حمد الفهد حَفِظَهُ الله (ص١٠١-١١١، ط الرشد)، وتعليق الشيخ العلامة/ عبد الرحمن البراك -حفظه الله- علىٰ «فتح الباري»: (٢/ ١٤٢، ط طيبة)، بتحقيق الشيخ: نظر الفاريابي حَفِظَهُ الله، و«تقريرات ابن تيمية» للشيخ الفاضل/ عبد العزيز آل عبد اللطيف حَفِظَهُ الله (ص٩٧ وما بعدها، ط الرشد).

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٧)، وفيه علي بن يزيد الألهاني: **ضعيف**.
لكن للحديث شاهد من حديث جابر. رواه الخطيب (٧/ ٢٠٩)، وابن النجار في ذيل «تاريخ بغداد» (١٠ / ١٤٥) وإسناده ضعيف، وله شاهد مرسل عن حبيب بن أبي ثابت رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، وبمجموع هذه الطرق فإنَّ الحديث يرقىٰ إلىٰ التحسين إن شاء الله.

(٣) لوحة (١٤١/ أ). (٤) البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣). (٥) البخاري (١٢١١).

(٦) البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجة (٢٠٤٠).

(٧) صحيح: رواه ابن ماجة (٢٠٤٥) وفيه الوليد بن مسلم فإنَّه يُدَلِّس تدليس تسوية، وروواه ابن حبان (٧٢١٩) بإسناد صحيح.

(٨) في (ز) و(ح): «ولهذا قال». (٩) مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة، و(١٢٦) من حديث ابن عبَّاس.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظَّموه ووقَّروه، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، [أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلىٰ الناس](١)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ورسوله محمَّد ﷺ ﴿قُلْ﴾ -يا محمَّد-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا مِن شرفه وعظمته أنَّه خاتم النَّبيِّين، وأنَّه مبعوثٌ إلىٰ النَّاس كافَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، والآيات في هذا كثيرةٌ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر مِن أن تُحْصَر، وهو معلوم مِن دين الإسلام ضرورةً أنَّه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلىٰ النَّاس كلهم.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: حدَّثنا عبد الله، حدَّثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسىٰ ابن هارون قالا: حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر، حدَّثني بُسْر بن عُبيد الله، حدَّثني أبو(٢) إدريس الخَوْلاني، قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضبًا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتىٰ أغلق بابه في وجهه، فأَقْبَل أبو بكر إلىٰ رسول الله ﷺ -فقال أبو الدرداء: ونحن عنده- فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ**» -أي: غَاضَبَ وحَاقَدَ(٣) - قال: ونَدِمَ عمر علىٰ ما كان منه، فأقبل حتىٰ سَلَّم وجلس إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وقَصَّ علىٰ رسول الله ﷺ [الخبرَ -قال أبو الدَّرداء: وغضب رسول الله ﷺ-](٤)، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ**». انفرد به البخاري(٥).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدَّثنا يزيد بن أبي زياد، عن

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٢) لوحة (١٤١/ ب).
(٣) وقال ابنُ الأثير: فقد غَامَرَ؛ أي: خاصم غيره، ومعناه: دَخَل في غَمْرة الخصومة وهي مُعْظَمُها. والمُغَامِرِ: الذي يَرْمِي بنَفْسه في الأمور المُهْلكة. «النهاية».
(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٥) البخاري (٤٦٤٠)، و(٣٦٦١).

مِقْسَم، عن ابن عبَّاس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي -وَلا أَقُولُهُ فَخْرًا-: بُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً -الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ-، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِي [يَوْمَ القِيَامَةِ](١)، فَهِيَ لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا». إسناده جيد، ولم يخرجوه(٢).

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد(٣)، عن عمرو ابن شُعَيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام مِن اللَّيل يُصَلِّي، فاجتمع وراءه رجالٌ من أصحابه يحرسونه، حتىٰ إذا صَلَّىٰ انصرف إليهم فقال لهم: «لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَنُصِرْتُ عَلَىٰ العَدُوِّ بِالرُّعْبِ، وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةَ شَهْرٍ لَمُلِئَ مِنِّي رُعْبًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ آكُلُهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ أَكْلَهَا، كَانُوا يَحْرِقُونَهَا، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسَاجِدَ وَطَهُورًا، أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ، وَالخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ، قِيلَ لِي: سَلْ؛ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ. فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَىٰ يَوْمِ(٤) القِيَامَةِ، فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» إسنادٌ جيِّدٌ قويٌّ أيضًا، ولم يخرجوه(٥).

وقال أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن أبي موسىٰ الأشعري ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي، لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»(٦).

وهذا الحديث في «صحيح مسلم» من وجه آخر عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»(٧).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، حدَّثنا أبو يونس -وهو سُلَيم بن جُبَير- عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». تفرد به أحمد(٨).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي بُرْدَة، عن

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٢) صحيح لغيره: رواه أحمد (١/ ٣٠١)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف، لكن يشهد له الروايات الآتية وبعضها في «الصحيحين».
(٣) في (ز): «أبي الهاد»، والمثبت هو الصواب.
(٤) لوحة (١٤٢/ أ).
(٥) صحيح لغيره: رواه أحمد (٢/ ٢٢)، وإسناده حسن، ولكن يشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة بعده.
(٦) مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧، ٣٥٠).
(٧) انظر التعليق السابق.
(٨) رواه أحمد (٢/ ٣٥٠)، ورواه مسلم (١٥٣).

أبي موسىٰ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَىٰ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ(١) شَهْرًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ -وَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ الشَّفَاعَةَ، وَإِنِّي قَدِ اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا»(٢).

وهذا أيضًا إسنادٌ صحيحٌ، ولم أرهم خرَّجوه، والله أعلم، وهذا الحديث ثابت في «الصحيحين» أيضًا، من رواية جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(٣).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالىٰ، في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحُكم.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أخبرهم أنَّه رسول الله إليهم، ثمَّ أمرهم باتِّباعه والإيمان به(٤). ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أي: الذي وُعِدتم به وبُشِّرتُم به في الكتب المتقدِّمة، فإنَّه منعوتٌ بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: إلىٰ الصراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفةً يتَّبعون الحقَّ ويَعْدِلُون به، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) في (ح) زيد: (مسيرة).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٤١٦)، ويشهد له الروايات المذكورة في الباب.

(٣) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩- ٢١١) و(٢/ ٥٦). وأحاديث الشفاعة متواترة كما قال ابن تيمية وابن حجر وغيرهما -رحم الله الجميع- ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٣١٤) وغيرها، و«فتح الباري» (١١/ ٤٢٦)، وقال الناظم:

مِمَّا تَوَاتَرَ: حَدِيثُ (مَنْ كَذَبْ) ... و(مَنْ بَنَىٰ للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ)
وَرُؤْيَةٌ، شَفَاعَةٌ، وَالْحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ. وهَذِي بَعْضُ

(٤) لوحة (١٤٢/ ب).

ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص:٥٢-٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الآية [البقرة:١٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبرًا عجيبًا، فقال: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين، حدَّثنا حجَّاج، عن ابن جُرَيْج قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ قال: بلغني أنَّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا -وكانوا اثني عشر سِبطًا- تبرَّأ سِبْط منهم ممَّا صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله عَجَّلَ أن يُفرِّق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقًا في الأرض، فساروا فيه حتىٰ خرجوا مِن وراء الصِّين، فهم هنالك حُنَفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جُريج: قال ابن عبَّاس: فذلك قوله: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤] و﴿وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: عيسىٰ ابن مريم. قال ابن جُريج: قال ابن عبَّاس: ساروا في السرب سنةً ونصفًا[١].

وقال ابن عُيينة، عن صَدَقة أبي الهُذيل، عن السُّدِّي: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ قال: قومٌ بينكم وبينهم نهر من شهْد[٢].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

تقدَّم تفسير هذا كله في «سورة البقرة»، وهي مدنية، وهذا السِّياق مكيٌّ، ونبَّهنا علىٰ الفرق بين هذا السِّياق وذاك بما أغنىٰ عن إعادته، ولله الحمد والمنَّة[٣].

(١) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٨٧- ٨٨)، وابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٢) لوحة (١٤٣/ أ).

(٣) راجع ما تقدم في «تفسير سورة البقرة» الآيات [٥٨] وما بعدها.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

هذا السِّياق هو بسطٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، يقول الله تعالىٰ لنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ أي: واسأل هؤلاء اليهود [الذين][1] بحضرتك عَن قِصَّة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته علىٰ صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحَذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كُتُبِهِم؛ لئلَّا يحل بهم ما حَلَّ بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي «أَيْلَة» وهي علىٰ شاطئ بحر القلْزَم[2].

قال محمَّد بن إسحاق: عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قال: هي قريةٌ يقال لها: «أَيْلَة» بين مَدْيَن والطُّور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي.

وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أَيْلة. وقيل: هي مَدْين، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها: «مقنا» بين «مدين» و«عَيدُوني»[3].

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: أي ظاهرة علىٰ الماء.

وقال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس: ﴿شُرَّعًا﴾[4]: مِن كُلِّ مكان.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم بإظهار السَّمك لهم علىٰ ظَهْرِ الماء في اليَوْم المحرم عليهم صَيْدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عَن طاعةِ الله وخروجهم عنها.

وهؤلاء قومٌ احتالوا علىٰ انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظَّاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام[5].

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن مسلم، حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح الزعفراني، حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ اليَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الحِيَلِ**»[6].

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت من (ح).

(٢) وهو البحر الأحمر.

(٣) في (ز): «متنا» بين «مدينه» و«عينونا».

(٤) لوحة (١٤٣/ ب).

(٥) وهذا يدل علىٰ الترابط والتلازم بين الباطن والظاهر، وأن القرائن المحتفة بالفعل أو بالمعصية تغير في حكمها، وربما تجعلها أعظم من غيرها.

(٦) رواه ابن بطة في «إبطال الحيل» (صـ ٤٦ – ٤٧)، وقد جود إسناده الحافظ ابن كثير كما في متن الكتاب عقب الحديث.

=

وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمَّد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في «تاريخه» ووثقه[١]، وباقي رجاله مشهورون ثقات، ويُصحِّح التِّرمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن أهل هذه القرية أنَّهم صاروا إلىٰ ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا علىٰ اصطياد السَّمك يوم السبت، كما تقدَّم بيانه في «سورة البقرة». وفرقة نَهَتْ عن ذلك، [وأنكرت][٢] واعتزلتهم. وفرقة سَكَتَتْ فلم تفعل ولم تَنْهَ، ولكنَّها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنَّهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إيَّاهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾. قرأ بعضهم بالرَّفع، كأنَّه علىٰ تقديره: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنَّصب[٣]؛ أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعلَّ بهذا الإنكار يتَّقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلىٰ الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ﴾ أي: فلمَّا أبىٰ الفاعلون المُنْكرِ قبولَ النصيحةِ، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ﴾ فنصَّ علىٰ نجاة الناهين وهلاك[٤] الظالمين، وسكت عن السَّاكتين؛ لأنَّ الجزاء مِن جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمَّة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من النَّاجين؟ علىٰ قولين:

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: هي قريةٌ علىٰ شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أَيْلَة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سَبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرَّعًا في ساحل البحر، فإذا مضىٰ يوم السبت

= وكذلك حسَّنه ابن تيمية في «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٣/ ١٢٣)، (٢٩/ ٢٩)، وكذلك حسنه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٤٨)، وفي «الحاشية علىٰ سنن أبي داود» (١/ ٣٧٦)، وحسنه السخاوي في «الفتاوىٰ الحديثية» (٢٣٦). [ولابن تيمية كتاب قيم اسمه: «بيان الدليل علىٰ بطلان التحليل» مطبوع، ولابن القيم في «الإغاثة» كلام في ذلك].

(١) قال محقق «تفسير ابن كثير» ط/ طيبة: (في «تاريخ بغداد» (٥/ ٩٨، ٩٩) أحمد بن محمَّد بن مسلم البغدادي، ولكن لم يتكلم عليه الخطيب ولم يوثق) اهـ.

(٢) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٣) متواترة: قَرَأَ (مَعْذِرَةً) حَفْصٌ وَوَافَقَهُ الْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مَعْذِرَةٌ).

(٤) لوحة (١٤٤/ أ).

لم يقدروا عليها. فمضىٰ علىٰ ذلك ما شاء الله، ثمَّ إن طائفةً منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرَّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا، وجعلت طائفةٌ أخرىٰ تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفةٌ من النُّهاة: تعلمونَ أنَّ هؤلاء قوم [قد][1] حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرىٰ. فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكلٌّ قد كانوا ينهون، فلمَّا وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الَّذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردةً[2].

وروىٰ العَوْفي عن ابن عبَّاس قريبًا من هذا[3].

وقال حَمَّاد بن زيد، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أتعظون قومًا الله مهلكهم»، أم لا ؟ قال: فلم أزل به حتىٰ عرَّفته أنَّهم قد نَجَوْا، فكساني حُلَّةً[4].

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا ابن جُرَيْج، حدَّثني رجلٌ، عن عكرمة قال: جئت ابن عبَّاس يومًا وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل علىٰ ذلك حتىٰ تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عبَّاس، جعلني اللهُ فِدَاكَ؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا [هو][5] في «سورة الأعراف»، قال: تعرف «أيلة» قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حيٌّ من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتىٰ يغوصوا بعد كدٍّ ومؤنةٍ شديدةٍ، كانت تأتيهم يوم السبت شُرَّعًا بيضًا سمانًا كأنَّها الماخض[6]، تتبطحُ ظهورها لبطونها بأفنيتهم. فكانوا كذلك برهةً من الدَّهر، ثمَّ إن[7] الشيطان أوحىٰ إليهم فقال: إنَّما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكُلُوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتىٰ جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفةٌ بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتَنَحَّت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: [ويلكم][8]، الله ينهاكم عن [ذلك][9]، لا تتعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٢) رواه الطبري (٩/ ٩٣)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس، وفي الإسناد أيضًا عبد الله بن صالح - كاتب الليث- وهو كثير الخطأ. لكن يشهد لصحة الأثر الطرق الأخرىٰ الآتية بعده.

(٣) رواه الطبري (٩/ ٩٣)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٤) رواه الطبري (٩/ ٩٤)، وفيه داود بن الحصين وهو ثقة، إلا في روايته عن عكرمة -وهذا منها- لكن رواية الطبري (٩/ ٩٤) من طرق أخرىٰ متابعة لطريق داود، وبه فالأثر حسن إن شاء الله.

(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) الماخض: التي قد دنا ولادها، وتتبطح: تتمرَّغ في البطحاء.

(٧) لوحة (١٤٤/ ب).

(٨) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٩) ليست في (ز).

شَدِيدًا﴾؟ قال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلىٰ ربكم. فمضوا علىٰ الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله. والله [لا نُبَايِتُكُم][1] الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتىٰ يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سُلَّمًا، وأعلوا سور المدينة رجلًا، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة -والله- تعاوي لها أذناب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها[2]؛ أي نعم. ثم قرأ ابن عبَّاس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، قال: فأرىٰ الذين نهوا قد نجوا، ولا أرىٰ الآخرين ذكروا، ونحن نرىٰ أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟. قال: قلت: أي جعلني الله فِدَاك، ألا ترىٰ أنهم قد كرهوا ما هُم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فَأَمَرَ لي، فكُسِيتُ ثوبين غليظين[3].

وكذا روىٰ مجاهد عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثنا يونس، أخبرنا أَشْهَب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رُومَان أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ قال: كانت تأتيهم يوم السَّبت، فإذا كان المساء ذهبت، فلا يُرىٰ منها شيء إلىٰ يوم السبت الآخر، فاتَّخذ -لذلك- رجلٌ خيطًا ووتدًا، فربط حوتًا منها في الماء يوم السَّبت، حتىٰ إذا أمسوا ليلة الأحد، أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك؛ فجحدهم، فلم يزالوا به حتىٰ قال لهم: «فإنَّه جِلْدُ حُوتٍ[4] وَجَدْنَاهُ». فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك -ولا أدري لعلَّه قال: ربط حوتين- فلمَّا أمسىٰ مِن ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحةً، فجاءوا فسألوه فقال لهم: لو شِئْتُم صنعتم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتىٰ كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ربض[5] يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فغدوا عليهم جيرانهم ممن كان يكون حولهم، يطلبون منهم ما يطلب النَّاس، فوجدوا المدينة مغلقةً عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم، فإذا هم قردةٌ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به.

وقد قدمنا في «سورة البقرة» من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مَقْنَع وكِفَاية، ولله الحمد والمنَّة.

القول الثاني: أنَّ السَّاكتين كانوا من الهالكين:

قال محمَّد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس أنه قال: ابتدعوا السَّبت فابتلُوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها

---

(١) في (ز) و(ح): «لنبايتنكم». (٢) أي: تشير.

(٣) رواه الطبري (٩/ ٩٤)، وفيه رجل لم يُسَمَّ، فالأثر ضعيف بهذا السياق.

(٤) لوحة (١٤٥/ أ). (٥) الرَّبَض: فضاء حول المدينة.

في البحر. فإذا انقضىٰ السبت ذهبت، فلم تُرَ حتىٰ السبت المُقبل، فإذا جاء السبت جاءت شُرَّعًا، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجُلًا منهم أخذ حوتًا فَخَزَمَ أنفه[١] ثم ضرب له وتدًا في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يُنكرون، ولا ينهاه منهم أحدٌ، إلا عُصبة منهم نهوه، حتىٰ ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية. قال: فقالت طائفةٌ للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، فقالوا: سخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال ابن عبَّاس: كانوا أثلاثًا: ثلثٌ نهوا، وثلثٌ قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلثٌ أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهوا، وهلك سائرهم[٢].

وهذا إسنادٌ جيدٌ عن ابن عبَّاس، ولكن رجوعه إلىٰ قول عكرمة في نجاة السَّاكتين أولىٰ مِن القول بهذا؛ لأنَّه تبَيَّن حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم علىٰ أن الذين بقوا نجوا.

و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة[٣]، ومعناه في[٤] قول مجاهد: الشَّديد، وفي رواية: أَلِيم. وقال قتادة: موجع. والكل متقارِب، والله أعلم.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي: ذَلِيلين حَقِيرين مُهَانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾ تَفَعَّل مِن الإِذْن؛ أي: أَعْلَم. وقال مجاهد: قال. وقال غيره: أَمَرَ.

وفي قوَّة الكلام ما يُفِيدُ معنىٰ القَسَم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللَّام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: علىٰ اليهود، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عِصْيَانهم ومُخَالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم علىٰ المحارم.

ويقال: إنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضرب عليهم الخَرَاج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أوَّل مَن

---

(١) خزم الدَّابَّة: ثقب في أنفها ثقبًا.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٩٧)، وفيه محمَّد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، ورواية داود بن حصين عن عكرمة ضعيفة، قال الحافظ: ثقة إلا في عكرمة، ورمي برأي الخوارج «تقريب» ترجمة (١٧٧٩)، وقال ابن المديني: ما روىٰ عن عكرمة فمنكر، وقال أبو زرعة: لين، وقال: أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال أبو داود: أحاديثه عن شيوخه مستقيمة، وقال ابن عدي: صالح إذا روىٰ عن ثقة فهو صالح الرواية إلا أن يروي عنه ضعيف «تهذيب الكمال» (٨/ ٣٧٩)، وبذلك تعلم أنَّ قول ابن كثير: وهذا إسناد جيد غير صحيح، بل هو ضعيف كما بينت.

(٣) متواترة: قَرَأَ (بيسٍ) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَزَيْدٌ عَنِ الدَّاجُونِيِّ عَنْ هِشَام، وقَرَأَ (بِئْسٍ) ابْنُ عَامِرٍ إِلَّا زَيْدًا عَنِ الدَّاجُونِيِّ، وَقَرَأَ (بَيْئَسٍ) شُعْبَةُ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وقَرَأَ (بِئْسَ) الْحَسَنُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (بَئِيسٍ) وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي لِشُعْبَةَ.

(٤) لوحة (١٤٥/ ب).

ضرب الخراج. ثمَّ كانوا في قهر الملوك مِن اليُونانيِّين والكَشْدَانِيِّين والكَلْدَانِيِّين، ثم صاروا في قهر النَّصارىٰ وإذلالهم وإيَّاهم، أخذهم منهم الجزية[1] والخراج، ثمَّ جاء الإسلام ومحمَّد -عليه أفضل الصلاة والسلام-، فكانوا تحت [صَغارِه][2] وذمَّتِه يُؤَدُّون الخَرَاج والجِزية.

قال العَوْفي عن ابن عبَّاس في تفسير هذه الآية قال: هي المَسْكنةُ وأخْذُ الجزية منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومهم سوء العذاب: محمَّد رسول الله ﷺ وأُمَّته إلىٰ يوم القيامة.

وكذا قال سعيد بن جُبَير، وابن جُرَيْج، والسُّدِّي، وقتادة.

وقال عبد الرزَّاق: عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن سعيد بن المُسَيَّب قال: يُستحب أَن تبعث الأنباط في الجزية.

قلت: ثمَّ آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدَّجَّال، فيقتلهم المسلمون مع عيسىٰ ابن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف [أمره و][3] شرعه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا مِن باب قرن الرَّحمة مع العقوبة؛ لئلَّا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالىٰ بين التَّرغيب والتَّرهيب كثيرًا؛ لتبقىٰ النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟[4] مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

يذكر تعالىٰ أنَّه فرَّقهم في الأرض أُممًا؛ أي: طوائف وفرقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الأسراء:١٠٤].

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فيهم الصَّالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي: اختبرناهم، ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالرَّخاء والشِّدَّة، والرَّغبة والرَّهبة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) الجزية: جمعها: جِزَىٰ.
(٢) في (ز): «صفاره»، والمثبت من (ح).
(٣) ليست في (ز).
(٤) لوحة (١٤٦/ أ).

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾. يقول تعالىٰ: فخلف مِن بعد ذلك الجيل -الذين فيهم الصَّالح والطَّالح-، خَلْفٌ آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة هذا الكتاب، وهو التوراة، -وقال مجاهد: هم النَّصارىٰ- وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي: يعتاضون عَن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدُّنيا، ويسرفون أنفسهم ويَعِدُونها بالتَّوبة، وكلَّما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾، كما قال سعيد بن جُبير: يعملون الذَّنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عَرَض ذلك الذنب أخذوه.

وقول مجاهد في قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ قال: لا يُشْرِف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالًا كان أو حرامًا، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، وإن يجدوا عَرَضًا مثله يأخذوه.

وقال قتادة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ إي والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، ورَّثهم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم:٥٩]، قال: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ تمنوا علىٰ الله أماني، وغرَّة يغترون بها، ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾، لا يشغلهم شيءٌ عن شيءٍ، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ لهم شيءٌ مِن أمر الدُّنيا أكلوه، ولا يبالون حلالًا كان أو حرامًا.

وقال السُّدِّي في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشىٰ في الحكم، وإنَّ خِيارَهُم اجتمعوا، فأخذ بعضهم علىٰ بعض العهود ألا يفعلوا ولا يرتشىٰ، فجعل الرَّجل منهم إذا استقضىٰ ارتشىٰ، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟! فيقول[1]: «سَيُغْفَر لي»، فتَطْعَنُ عليه البقيَّة الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات، أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي. يقول: وإن يأت الآخرين عَرَض الدُّنيا يأخذوه.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾. يقول تعالىٰ مُنكِرًا عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق لَيُبينن الحق للنَّاس ولا يكتمونه، [كقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ][2] فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عبَّاس: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾، قال: فيما يُوجبون علىٰ الله مِن غفران ذنوبهم التي لا يَزَالُون يعودون فيها ولا يتوبُونَ منها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، يُرغبهم تعالىٰ في جَزيل ثوابِهِ، ويُحَذِّرُهم مِن وَبيل عِقابه؛ أي: وثوابي [خير][3] وما عندي خير لمن اتَّقىٰ المَحَارم، وترك هوىٰ نفسه

---

(١) لوحة (١٤٦/ ب). (٢) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٣) ليست في (ح).

وأقبل علىٰ طاعة ربه.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، يقول: أفليس لهؤلاء -الَّذين اعْتَاضُوا بعَرَض الدُّنيا عما عندي- عقل يردعهم عمَّا هم فيه مِن السَّفه والتَّبذير؟! ثمَّ أثنىٰ تعالىٰ علىٰ مَن تَمَسَّك بكتابه الذي يقوده إلىٰ اتِّباع رسوله محمَّد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾، يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ [النساء:١٥٤]. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس: رفعته الملائكة فوق رءوسهم.

وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس قال: ثم سار بهم موسىٰ عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدَّسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالَّذي أمره الله تعالىٰ به، أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأَبَوْا أن يقربوها حتَّىٰ نَتَقَ الله الجبل فوقهم كأنَّه ظُلَّة، قال: رفعته الملائكة فوق رءوسهم. رواه النَّسائي بطوله[(١)].

وقال سُنَيْد بن داود في «تفسيره»، عن حجَّاج بن محمَّد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أَحَلَّ لكم وما حَرَّم[(٢)] عليكم، وما أمركم وما نهاكم. قالوا: انْشُرْ علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها [يسيرة][(٣)] وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا! حتىٰ نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها. فراجعوا موسىٰ مِرارًا، فأوحىٰ الله إلىٰ الجبل فانقلع فارتفع في السَّماء، حتىٰ إذا كان بين رءوسهم وبين السَّماء قال لهم موسىٰ: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التَّوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل[(٤)]. قال: فحدَّثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلىٰ الجبل خَرَّ كلُّ رجلٍ ساجدًا علىٰ حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنىٰ إلىٰ الجبل فَرَقًا من أن يسقط عليهم. فكذلك ليسَ اليوم في الأرض يَهُودِيٌّ يسجد إلا علىٰ حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السَّجدة التي رُفِعَت بها العُقوبة. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بِيَدِهِ، لم يَبْقَ علىٰ وجه الأرض جبلٌ ولا شجر ولا حجر إلا اهْتَزَّ، فليس اليوم يهوديٌّ علىٰ وجه الأرض صغيرٌ، ولا كَبيرٌ،

---

(١) هذا جزء من حديث الفتون، وسيأتي بتمامه في سورة طه الآية (٤٠)، وهو حديث موقوف علىٰ ابن عبَّاس، ورجاله ثقات، وقد قال ابن كثير: (وليس منه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عبَّاس رضي الله عنهما ممَّا أُبيح نقله من الإسرائيليَّات عن كعب الأحبار وغيره، والله أعلم).

(٢) لوحة (١٤٧/ أ). (٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٤) في (ز): «الحيط»، والمثبت من (ح).

تقرأ عليه التَّوراة إلا اهتزَّ ونفض لها رأسه[١]؛ [أي: حرَّك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء:٥١][٢]؛ أي: يحركونها][٣].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ أنَّه استخرج ذرِّيَّة بني آدم من أصلابهم شاهدين علىٰ أنفسهم أنَّ الله ربهم ومليكهم، وأنَّه لا إله إلا هو، كما أنَّه تعالىٰ فطَرَهُم علىٰ ذلك وجبَلَهُم عليه[٤]، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ -وفي رواية: عَلَىٰ هٰذِهِ المِلَّةِ- فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟!»[٥]، وفي «صحيح مسلم»: عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ[٦] الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»[٧].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وَهْب، أخبرني السَّرِيُّ بن يحيىٰ، أنَّ الحسن بن أبي الحسن حدَّثهم، عن الأسود بن سَرِيع من بني سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال:[٨] فتناول القوم الذُّرِّيَّة بعد ما قتلوا المُقَاتِلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشْتَدَّ عليه، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاوَلُونَ الذُّرِّيَّةَ؟» قال رجلٌ: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ المُشْرِكِينَ! أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا». قال الحسن: والله، لقد قال الله في

---

(١) ويشبههم في هذه -وغيرها- الرافضة، قاتلهم الله. وقد ذكر الإمام الشعبي رحمه الله التشابه بين اليهود والرافضة من أوجه كثيرة. ينظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية: (١/ ٢٣-٢٨)، و«العواصم من القواصم» لابن العربي (ص١٢-١٤). ط: دار ابن الجوزي بالقاهرة.

(٢) رواه الطبري (٩/ ١٠٩) من كلام أبي بكر بن عبد الله، ومثل هذا لا يعتمد عليه في ثبوت الأخبار؛ لأنه لم يصلها إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو أشبه بالإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٤) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: لقد حاول كثيرون التَّخلُّص من قضية أخذ الرَّبِّ تعالىٰ من ظهر آدم ذريته وإشهادهم علىٰ أنفسهم، ونطق الأرواح وشهادتها، ولا داعي لهذا أبدًا ما دامت الأحاديث والآثار كثيرة وقدرة الله صالحة لكلِّ شيءٍ ولا يعجزها شيء -فمثلًا: ما هي النملة؟ وقد أنطقها الله فنطقت وأفصحت، وانظر إلىٰ الحيوان المنوي الذي منه تكون الذُّرِّيَّة. قال العلماء: لو جمعت الحيوانات المنوية كلها من آدم إلىٰ اليوم ووضعت في فنجان ما ملأته، أمع هذا يحاول إبطال الأحاديث وتأويل الآية علىٰ غير ظاهرها رجل من أهل العلم؟!!

(٥) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذي (٢١٣٨)، والنسائي (٤/ ٩٨).

(٦) في (ز): «فختالتهم». (٧) مسلم (٢٨٦٥). (٨) لوحة (١٤٧/ ب).

كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[١].

وقد رواه الإمام أحمد: عن إسماعيل بن عُليَّة، عن يونس بن عُبيد، عن الحسن البصري به. وأخرجه النسائي في «سننه» من حديث هُشَيْم، عن[٢] يونس بن عُبيد، عن الحسن قال: حدَّثنا الأسود ابن سَرِيع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك.

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صُلْب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلىٰ أصحاب اليمين وإلىٰ أصحاب الشِّمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأنَّ الله ربّهم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حَجَّاج، حدَّثنا شُعْبة، عن أبي عمران الجَوْني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ [الأَرْضِ]**[٣] **مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟**» قال: «**فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي**»[٤].

أخرجاه في «الصَّحِيحَيْن» من حديث شعبة به.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين بن محمَّد، حدَّثنا جرير -يعني ابن حازم- عن كلثوم ابن جبر[٥] عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام بِنُعمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا﴾ إلىٰ قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾**»[٦].

وقد روىٰ هذا الحديث النسائي في (كتاب التفسير) من «سننه»: عن محمَّد بن عبد الرحيم - صاعقة- عن حسين بن محمَّد المَرْوَزي به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث حسين بن محمَّد به. إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفًا. وأخرجه الحاكم في «مستدركه» من حديث حسين بن محمَّد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جَبْر[٧] به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وقد[٨] احتجَّ مسلم بكلثوم بن جبر. هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس فوقفه، وكذا رواه إسماعيل بن عُلية ووَكيع، عن ربيعة بن كلثوم [بن جبر][٩]، عن أبيه به. وكذا رواه عطاء بن السائب، وحَبيب بن أبي ثابت، وعلي بن بَذِيمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس

---

(١) صحيح: رواه الطبري (٩/ ٧٧)، وأحمد (٤/ ٢٤)، وقد صرح الحسن البصري بالسماع في رواية أحمد (٣/ ٤٣٥)، فانتفت شبهة التدليس.

(٢) في (ز، ح): «هشيم بن يونس»، والمثبت هو الصواب.

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «المسند».

(٤) البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ١٢٧).

(٥) في (ز): «جبير»، والمثبت من (ح) و«المسند»، وهو الصواب.

(٦) صحيح: أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن جرير (١٣/ ٢٢٢ برقم ١٥٣٣٨)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وللحديث طرق وشواهد استوفاها الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٢).

(٧) في (ز): «جبير»، وهو خطأ. (٨) لوحة (١٤٨/ أ). (٩) في (ز): (عن جبير)، وهو خطأ.

قوله، وكذا رواه العَوْفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس قوله؛ فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم [١].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمْرَة الضُّبَعي، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: أخرج الله ذُرِّيَّة آدم عليه السلام مِن ظهره كهيئة الذَّرِّ، وهو في آذِي من الماء [٢].

وقال أيضًا: حدَّثنا علي بن سهل، حدَّثنا ضَمْرَة بن ربيعة، حدَّثنا أبو مسعود عن جُوَيْبر قال: مات ابن للضحاك بن مُزَاحِم، وهو ابن سِتَّة أيَّام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لَحْدِهِ، فأبرز وجهه، وحُلَّ عنه عقده، فإنَّ ابني مُجْلَس، ومسئول. ففعلت به الَّذِي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمَّ يُسأل ابنك؟ مَن يسأله إيَّاه؟ قال: يُسأل عن الميثاق الذي أَقَرَّ به في صُلْب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أَقَرَّ به في صلب آدم؟ قال: حدَّثني ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ الله مسح صُلْبَ آدم فاستخرج منه كل نَسَمَةٍ هو خالقها إلىٰ يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أَن يعبدوه ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، وتكفَّل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم السَّاعة حتىٰ يولد من أعطىٰ الميثاق يومئذٍ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوَفَّىٰ به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يَفِ [٣] به لم ينفعه الميثاق الأول. ومَن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات علىٰ الميثاق الأوَّل علىٰ الفطرة [٤].

فهذه الطُّرق كلها مما تقوِّي وَقْف هذا علىٰ ابن عبَّاس، والله أعلم.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدَّثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدَّثنا أحمد بن أبي طيبة، عن سفيان ابن سعيد، عن الأَجْلَح، عن الضَّحَّاك، [و] [٥] عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: «**أَخَذَ مِنْ ظَهْرِهِ، كَمَا يُؤْخَذُ بِالْمُشْطِ مِنَ الرَّأْسِ، فَقَالَ لَهُمْ**: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، **قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ**: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾» [٦].

أحمد بن أبي طيبة [٧] هذا هو: أبو محمَّد الجُرجاني قاضي قومس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائي في «سننه»، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عَدِيٍّ: حدث بأحاديث كثيرة غرائب.

وقد روىٰ هذا الحديث عبد الرحمن [٨] بن مَهْدِيٍّ، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قوله. وكذا رواه جرير، عن منصور به. وهذا أصح، والله أعلم.

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١١١ - ١١٢) من هذه الطرق، وهي صحيحة عن ابن عبَّاس وهي في حكم المرفوع.

(٢) رواه الطبري (٩/ ١١٢)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٤) من طرق، عن أبي هلال به، ورجاله ثقات عدا أبا هلال، فقد قال الحافظ: صدوق فيه لين. والآذيّ: الموج الشَّديد، والأطباق التي تراها ترفعها من متنه الريح دون الموج.

(٣) في (ز) و(ح): «فلم يقر به»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١١٢). (٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح)، وهو الصواب.

(٦) المرفوع ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١١٣)، انفرد به أحمد بن أبي طيبة، وقد قال ابن عدي: حدث بأحاديث أكثرها غرائب، والثابت في هذا أنه موقوف علىٰ عبد الله بن عمرو. رواه الطبري (٩/ ١١٣)، ومثله لا يقال بالرأي، لكنَّه لا يقبل في هذا الموطن أن يكون في حكم المرفوع؛ لأن عبد الله بن عمرو ممن أخذوا من كتب أهل الكتاب فيخشىٰ أن يكون هذا منها.

(٧) لوحة (١٤٨/ ب). (٨) في (ز): «عبد الرحمن حمزة بن مهدي».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا روح -هو: ابن عُبادة- حدَّثنا مالك، وحدَّثنا إسحاق، أخبرنا مالك[١]، عن زيد بن أبي أُنَيْسَةَ: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يَسار الجُهَني، أنَّ عمر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سُئِلَ عنها فقال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ [لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ][٢] لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فقال [رجل:][٣] يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَقَ اللهُ [الْعَبْدَ][٤] لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ»[٥].

وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبي، والنَّسائي عن قتيبة، والترمذي عن إسحاق بن موسىٰ، عن مَعْنٍ. وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وهب. وابن جرير من حديث رَوْح بن عبادة وسعد بن عبد الحميد بن جعفر. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس به.

قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يَسَار لم يسمع عُمَر. وهكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرْعَة. زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيْم بن ربيعة.

وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود في «سننه» عن محمَّد بن مصفىٰ، عن بَقِيَّةَ، عن عمر بن جُعْثُم القرشي، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يَسَار الجُهَني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب[٦] رضي الله عنه وقد سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فذكره.

وقال الحافظ الدَّارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثُم يزيد[٧] بن سِنان أبو فَرْوَة الرَّهَاوي، وقولهما أولىٰ بالصواب من قول مالك، والله أعلم.

---

(١) في (ز): «إسحاق بن مالك».
(٢) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٥) صحيح لغيره: أحمد (١/ ٤٤)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٧)، والنسائي، وابن حبان (٦١٦٦)، وفيه انقطاع بين مسلم بن يسار وعمر، لكنه ثبت موصولًا في رواية أبي داود كما قال ابن كثير، فبينهما: نعيم بن ربيعة، وقد رجح الدارقطني هذه الطريق كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير، إلا أن فيه نعيم بن ربيعة: مجهول، لكن يشهد للحديث ما تقدم، وانظر الأحاديث الأخرىٰ بعده.
(٦) لوحة (١٤٩/ أ).
(٧) ليست في (ز).

قلت: الظَّاهر أنَّ الإمام مالكًا إنَّما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمدًا؛ لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنَّه غير معروف إلَّا في هذا الحديث وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يُرْسِل كثيرًا من المرفوعات ويقطع كثيرًا من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخر: قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية: حدَّثنا عبد بن حميد، حدَّثنا أبو نُعَيْم، حدَّثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا[١] مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَىٰ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ[٢] مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدَ. قَالَ: رَبِّ، وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَىٰ عُمُرَ آدَمَ، جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ قَالَ: أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَ لَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[٣].

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ.

ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث أبي نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن، به. وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدثه عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، فذكر نحو ما تقدم إلىٰ أن قال: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ آدَمَ فَقَالَ: يَا آدَمُ، هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، وَإِذَا فِيهِمُ الأَجْذَمُ وَالأَبْرَصُ وَالأَعْمَىٰ، وَأَنْوَاعُ الأَسْقَامِ[٤]، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: كَيْ تَشْكُرَ نِعْمَتِي، وَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَظْهَرَ النَّاسِ نُورًا؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاءُ يَا آدَمُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم[٥].

حديث آخر: قال عبد الرحمن بن قتادة النَّصْري[٦] عن أبيه، عن هشام بن حكيم رضي الله عنه، أنَّ رجلًا سأل النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله[٧]، أتبدأ الأعمال، أم قد قُضِي القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ[٨] بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ» ثم قال: «هَؤُلَاءِ فِي الجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ. فَأَهْلُ الجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَهْلُ

---

(١) الوبيص: البريق. (٢) في (ز): «ومص»، والمثبت من (ح).

(٣) صحيح: الترمذي (٣٠٧٨)، والحاكم (٢/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٣٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) في (ز): «الأقسام». (٥) انظر التعليق السابق. (٦) في (ز)، (ح): «البصري»، وهو خطأ.

(٧) لوحة (١٤٩/ ب). (٨) أي: بسطهم متفرِّقين.

النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»[(١)].

رواه ابن جَرير، وابن مردويه من طرق عنه.

حديث آخر: روىٰ جعفر بن الزبير -وهو ضعيف- عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، وَقَضَىٰ القَضِيَّةَ، أَخَذَ أَهْلَ اليَمِينِ بِيَمِينِهِ وَأَهْلَ الشِّمَالِ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: يَا أَصْحَابَ اليَمِينِ. فَقَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: يَا أَصْحَابَ الشِّمَالِ. قَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ ثُمَّ خَلَطَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَبِّ، لِمَ خَلَطْتَ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ: لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، أَنْ يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ** عليه السلام». رواه ابن مردويه[(٢)].

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذٍ جميعًا، ما هو كائنٌ منه إلىٰ يوم القيامة، فجعلهم [أرواحًا][(٣)] ثم صوَّرهم، ثم استنطقهم فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربِّكم؟ قالوا: بلىٰ، الآية. قال: فإنِّي أُشْهِد عليكم السَّموات السبع، والأرَضِين السبع، وأُشْهِد عليكم أباكم آدم؛ أَن تقولوا يوم القيامة: لَمْ نعلم بهذا، اعلموا أنَّه لا إله غيري، ولا رَبَّ غيري، فلا تُشْرِكُوا بي شيئًا، وإني سَأُرْسِل إليكم رُسُلًا يُذَكِّرُونكم[(٤)] عهدي وميثاقي، وأُنزل عليكم كُتُبِي. قالوا: نشهد أنَّك ربَّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرك، ولا إله لنَا غيرك. فأقروا له يومئذٍ بالطَّاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأىٰ فيهم الغَنِيَّ والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سَوَّيت بين عبادك؟ قال: إنِّي أحببت أن أُشْكَر. ورأىٰ فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخر مِن الرِّسالة والنُّبوَّة، فهو الذي يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الروم:٣٠]، ومن ذلك[(٥)]: قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم:٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢] الآية[(٦)].

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١١٧)، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٦٨). وقال الألباني معلقًا عليه: إسناده صحيح.

(٢) ضعيف جدًّا: رواه الطبراني (٨/ ٧٩٤٣)، قال ابن حبان: روىٰ جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة نسخة موضوعة. انظر: «المجروحين» (١/ ٢١٢). قلت: وتابعه بشر بن نمير: ضعيف، وله طرق أخرىٰ لا يتقوَّىٰ بها، انظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٢/ ٥٩٨).

(٣) ليست في (ز)، (ح).

(٤) في (ز)، (ح): «ينذرونكم»، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٥) لوحة (١٥٠/ أ).

(٦) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٣٥)، ورواه الطبري (٩/ ١١٥)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٧) من طرق عن الربيع بن أنس به، وإسناده صحيح، وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٣)، ووافقه الذهبي.

رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في «مسند أبيه»، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدويه في «تفاسيرهم»، من رواية أبي جعفر الرازي به. وروي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التَّطويل في تلك الآثار كلها، والله المستعان.

فهذه الأحاديث دالَّةٌ علىٰ: أنَّ الله ﷻ استخرج ذُرِّيَّة آدم مِن صُلْبه، ومَيَّز بين أهل الجنَّة وأهل النَّار، وأمَّا الإشهاد عليهم هناك بأنَّه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس ﵄، وفي حديث عبد الله بن عمرو ﵄، وقد بَيَّنَّا أنَّهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدَّم. ومن ثَمَّ قال قائلون من السَّلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنَّما هو فَطْرُهُم علىٰ التَّوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمَار المُجَاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَريع. وقد فسَّر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «مِنْ ظَهْرِه»، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالًا وقالًا، والشَّهادة تارةً تكون بالقَوْل، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام:١٣٠] الآية، وتارة تكون حالًا كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنَّهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧]، كما أنَّ السُّؤال تارةً يكون بالقَالِ، وتارةً يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤]، قالوا: ومما يدلُّ علىٰ أنَّ المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا -كما قاله مَن قال- لكان كلُّ أحدٍ يذكره؛ لِيَكُون حجَّةً عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كافٍ في وجوده؟ فالجواب: أن المُكَذِّبين مِن المشركين يُكَذِّبُون بجميع ما جاءتهم به الرُّسل مِن هذا ومن غيره. وهذا جعل حجَّةً مستقِلَّةً عليهم، فدلَّ علىٰ أنَّه الفطرة التي فُطِروا[1] عليها من الإقرار بالتَّوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾[2] أي: لئلَّا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن التَّوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

---

(١) لوحة (١٥٠/ ب).

(٢) متواترة: قَرَأَ (أَنْ يَقُولُوا) أَبُو عَمْرٍو وَوَافَقَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَالْيَزِيدِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَنْ تَقُولُوا).

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

قال عبد الرزَّاق: عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُّحَىٰ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ﴾ الآية، قال: هو رجلٌ من بني إسرائيل يقال له: بَلْعَم بن آبَرَ[1]. وكذا رواه شُعبة وغير واحدٍ عن منصور به[2].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو صيفي بن الراهب[3].

قال قتادة: وقال كعب: كان رجلًا من أهل البَلْقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبَّارين[4].

وقال العَوْفي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو رجلٌ من أهل اليمن، يقال له: بَلْعَم، آتاه الله آياته فتركها[5].

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدَّعوة، يُقدِّمونه في الشدائد، بعثه نبيُّ الله موسىٰ إلىٰ ملك مَدْين يدعوه إلىٰ الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسىٰ عليه السلام.

وقال [عمران][6] بن عيينة، عن حُصَين، عن عمران[7] بن الحارث، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو بَلْعم ابن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة[8].

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: من الأقوال التي تناقلها المفسِّرون أنَّها نزلت في بَلْعَام بن بعور، ويحكون عنه قصةً لم تُروَ في جوامع الآثار الصَّحيحة عندنا، ولا هي مطابقة لما عند أهل الكتاب.
فقد ذُكر نبؤه في الفصل الثاني والعشرين والثالث والعشرين من سفر «العدد»، من تاريخ التوراة، بغير ما يرويه المفسرون عنه، ثم رأيت الجشمي لم يصحح ذلك، فحمدت المولىٰ علىٰ الموافقة. وعبارته:
وعن مجاهد قال: هو نبي يقال له: بلعم، رشاه قومه فكفر. وهذا لا يجوز؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر، لأنَّ ذلك يُنَفِّر الخلق عن الأنبياء، والقبول منهم، ويحقِّرهم في النُّفوس؛ ولأنَّهم حجج الله علىٰ خلقه اصطفاهم. فالأقرب أنَّه لا يصح عن مجاهد. انتهىٰ.
وهو كذلك؛ لأنَّ مَن قرأ «نبأه» في السفر المتقدم، رأىٰ من ثباته، وعدم موافقته لبالاق، ملك مؤاب، علىٰ ما أراد منه ما يبرئه عن ذلك.
(٢) صحيح: رواه الطبري (٩/ ١١٩-١٢٠)، وابن أبي حاتم (٨٥٤١).
(٣) ضعيف: قتادة لم يسمع من ابن عبَّاس. انظر: «جامع التحصيل».
(٤) روايات كعب الأحبار هي من الإسرائيليَّات، وقد تقدَّم أنَّ ما وافق الكتاب والسُّنَّة صدقناه، وما خالف الكتاب والسُّنَّة كذَّبناه، وما لم يوافقهما ولا يخالفهما رويت علىٰ سبيل الحكاية لا يصدق ولا يكذب.
(٥) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٢١)، وإسناده مسلسل بالضعفاء.
(٦) في (ز) وأكثر الطبعات: (سفيان)، وهو خطأ، والصواب من «تفسير الطبري»، وعمران بن عيينة هو أخو سفيان بن عيينة، وهو ضعيف في الحديث.
(٧) في (ز): «عثمان بن الحارث».
(٨) رواه ابن أبي حاتم (٨٥٤٦)، والطبري (٩/ ١٢٠)، وفيه عمران بن عيينة -وليس سفيان كما أوردها-، وعمران بن

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس ﷺ قال: هو بَلْعَام[١]. وقالت ثقيف: هو أُمَيَّة بن أبي الصَّلت[٢].

وقال شُعْبَة، عن يَعْلَىٰ بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو ﷺ في قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أُميَّة بن أبي الصَّلت.

وقد رُوِيَ مِن غير وجهٍ عنه، وهو صحيح إليه، وكأنَّه إنَّما أراد أن أُمَيَّة بن أبي الصَّلت يُشبهه، فإنَّه كان قد اتَّصل إليه علمٌ كثيرٌ مِن علم الشَّرائع المتقدِّمة، ولكنَّه لم ينتفع بعلمه، فإنَّه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلىٰ موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورَثَىٰ أهل[٣] بدر من المشركين بمَرْثَاةٍ بليغةٍ قبَّحه الله تعالىٰ، وقد جاء في بعض الأحاديث: «أَنَّهُ مِمَّنْ آمَنَ لِسَانُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ قَلْبُهُ»[٤]؛ فإنَّ له أشعارًا ربانيَّةً وحِكمًا وفصاحةً، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر[٥]، حدَّثنا سفيان عن أبي سعد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ قال: هو رجلٌ أُعْطِيَ ثلاث دعواتٍ يُسْتَجَاب له فيهنَّ، وكانت له امرأةٌ له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدةً. قال: فلك واحدة، فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأةٍ في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأةٍ في بني إسرائيل، فلمَّا علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئًا آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبةً، فصارت كلبةً، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا علىٰ هذا قرار، قد صارت أُمُّنَا كلبةً يُعَيِّرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلىٰ الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدَّعوات الثَّلاث، وسُميت «البَسُوس». غريب[٦].

وأمَّا المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجلٌ من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السَّلف.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هو رجلٌ من مدينة الجبَّارين، يقال له: «بَلْعَام»[٧]، وكان

= عيينة: ضعيف. قال فيه أبو حاتم: يأتي بالمناكير.

(١) رواه الطبري (٩/ ١٢١).

(٢) رواه الطبري (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٨٥٤٢)، وإسناده حسن.

(٣) لوحة (١٥١/ أ).

(٤) ضعيف جدًّا: أخرجه ابن عبد البر (٤/ ٧)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي: متروك، وانظر: «الضعيفة» للألباني (١٥٤٦)، والثابت عن رسول الله ﷺ في شأن أُميَّة أنه قال: «كاد أُمَيَّة بن أبي الصَّلت أن يسلم». رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٥) في (ز)، (ح): «ابن أبي نمر»، وهو خطأ.

(٦) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٨٥٤٩)، وفيه أبو سعد الأعور: ضعيف مدلِّس، كما قال الحافظ في «التقريب».

(٧) في (ز)، (ح): «بعلم».

يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السَّلف: كان [رجلًا][(١)] مجاب الدَّعوة، ولا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إيَّاه.

وأغرب -بل أبعد، بل أخطأ- مَن قال: كان قد أُوتِيَ النُّبوَّة فانسلخ منها. حكاه ابن جرير عن بعضهم، ولا يصح.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: لما نزل موسىٰ بهم -يعني: بالجبَّارين- ومن معه أتاه -يعني: بَلْعَام- أتاه بنو عَمِّه وقومه، فقالوا: إنَّ موسىٰ رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنَّه إن يظهر علينا يهلكنا، فادْعُ الله أن يَردَّ عنَّا موسىٰ ومَن معه. قال: إنِّي إن دعوت الله [أن][(٢)] يَرُدَّ موسىٰ ومَن معه، ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتَّىٰ دعا عليهم، فَسَلَخَه [الله][(٣)] ما كان عليه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[(٤)].

وقال السُّدِّي: إنَّ الله لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة:٢٦]، بعث يُوشَع بن نُون نبيًّا، فدعا بني إسرائيل؛ فأخبرهم أنَّه نبيٌّ، وأنَّ الله [قد][(٥)] أمره أن يقاتل الجبَّارين، فبايعوه وصَدَّقوه. وانطلق رجلٌ من بني إسرائيل يقال له: «بَلْعَم» وكان عالمًا، يعلم الاسم الأعظم [المكتوم][(٦)]، فَكَفَر -لعنه الله- وأتىٰ الجبَّارين[(٧)] وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإنِّي إذا خرجتم تقاتلونهم أَدْعُوا عليهم دعوةً فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدُّنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النِّساء لِعِظَمِهِنَّ فكان يَنْكِحُ أَتَانًا[(٨)] له، وهو الذي قال الله تعالىٰ: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: استحوذ عليه وغلبه علىٰ أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

وقد ورد في معنىٰ هذه الآية حديثٌ رواه الحافظ أبو يعلىٰ المَوْصِلي في «مسنده» حيث قال: حدَّثنا محمَّد بن مرزوق، حدَّثنا محمَّد بن بكر، عن الصَّلْت بن بَهْرام، حدَّثنا الحسن، حدَّثنا جُنْدُب البجلي في هذا المسجد؛ أن حذيفة -يعني ابن اليَمان رضي الله عنه- حدَّثه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّىٰ إِذَا رُؤِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِدْءَ الإِسْلَامِ اعْتَرَاهُ إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ، انْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَىٰ عَلَىٰ جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**». قال: قلت: يا نَبِيَّ الله، أيُّهما أولىٰ بالشِّرك: المَرمَي أو الرَّامي؟ قال: «**بَلِ الرَّامِي**»[(٩)].

---

(١) ليست في (ز).

(٢) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٢٣)، وإسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٥) ليست في (ز).

(٦) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٧) لوحة (١٥١/ ب).

(٨) الأتان: أنثىٰ الحمار.

(٩) حسن: رواه ابن حبان (٨١)، والبزار (١٧٥-كشف)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٧).

هذا إسنادٌ جيِّدٌ، والصَّلْت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يُرْمَ بشيءٍ سوىٰ الإرجاء، وقد وثَّقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وغيرهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أي: لرفعناه من التَّدنُّس عن قاذورات الدُّنيا بالآيات التي آتيناه إيَّاها، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي: مال إلىٰ زينة الدُّنيا وزهرتها، وأقبل علىٰ لَذَّاتِها ونعيمها، وغرَّته كما غرَّت غيره مِن غير أولي البصائِرِ والنُّهىٰ.

وقال أبو الزَّاهِرِيَّة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تَراءَىٰ له الشَّيطان علىٰ غَلْوةٍ[١] من قَنْطَرة بانياس[٢]، فسَجَدت الحمارة لله، وسَجَد بَلْعَام للشَّيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَير وغير واحدٍ[٣].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان من قصَّة هذا الرجل: ما حدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المُعْتَمِر، عن أبيه: أنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، فحدث عن سيَّار أنَّه كان رجلًا يقال له: بَلْعَام، وكان قد أُوتي النُّبوَّة وكان مجاب الدَّعوة، قال: وإن موسىٰ أقبل في بني إسرائيل يُرِيدُ الأرض التي فيها بَلْعَام -أو قال: الشَّام- قال فرُعِب النَّاس منه رعبًا شديدًا، قال: فأتوا بَلْعَام، فقالوا: ادع الله علىٰ هذا الرَّجل وجيشه! قال: حتىٰ أُوَامِر ربي -أو: حتىٰ أؤامر- قال: فوَامَر في الدُّعاء عليهم، فقيل له: لا تَدْعُ عليهم، فإنَّهم عبادي، وفيهم نَبِيُّهم. قال: فقال لقومه: إنِّي قد وامرت رَبِّي في الدُّعاء عليهم، وإنِّي قد نُهِيتُ. فأهدوا له هديةً فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادعُ عليهم. فقال: حتىٰ أُوَامِر. فوَامَر، فلم يَحُر إليه شيء[٤]. فقال: قد وامرت فلم يَحُر إليَّ شيء! قال: فقالوا: لو كَرِهَ ربُّك أن تدعو عليهم لنَهَاكَ كما نهاك المرَّة الأولىٰ. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرىٰ علىٰ لسانه الدُّعاء علىٰ قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسىٰ وجيشه -أو نحوًا من ذا إن شاء الله-، فقالوا له: ما نراك تدعو إلَّا علينا. قال: ما يجري علىٰ لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضًا ما استجيب لي، ولكن سأَدُلُّكم علىٰ أمرٍ عسىٰ أن يكون فيه هلاكهم. إنَّ الله يبغض الزِّنا، وإنَّهم إن وقعوا بالزِّنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النِّساء يَسْتقبلنَهُم؛ فإنَّهم قوم مسافرون، فعسىٰ أن يَزْنُوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النِّساء يستَقْبِلْنَهُم. قال: وكان للملك ابنة، فذكر مِن عِظَمِهَا ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها -أو بَلْعَام-: لا

---

(١) الغلوة: قدر رمية بسهم.

(٢) بانياس: من مُدن دمشق -فرج الله عن أهلها وعن جميع المسلمين-.

(٣) هذه الأخبار لابد مِن ثبوت صحَّتها عن النَّبيِّ ﷺ، وهي أشبه بالإسرائيليَّات التي تؤدَّىٰ علىٰ سبيل الحكاية.

(٤) أي: لم يرجع.

تُمَكِّني نفسك إلا مِن موسىٰ! قال: ووقعوا في الزِّنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها علىٰ نفسه، فقالت: ما أنا بمُمكنةٍ نفسي إلا من موسىٰ. قال: فقال: إنَّ منزلتي كذا وكذا، وإنَّ من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلت إلىٰ أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فَأَمْكِنِيه قال: ويأتيهما رجلٌ من بني هارون ومعه الرُّمح فيطعنهما. قال: وأيده الله بقوَّةٍ. فانتظمهما جميعًا، ورفعهما علىٰ رمحه فرآهما النَّاس -أو كما حدَّث- قال: وسلَّط الله عليهم الطَّاعون، فمات منهم سبعون ألفًا.

قال [أبو][1] المعتمر: فحدَّثني سَيَّار: أن بَلْعَامًا ركب حمارةً له حتىٰ أتىٰ العلولي أو قال: طريقًا من العلولي جعل يضربها ولا تَقَدَّم، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟! أما ترىٰ هذا الذي بين يديك؟! فإذا الشَّيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

قال: فحدَّثني بهذا سَيَّار، ولا أدري لعلَّه قد دخل فيه شيء مِن حديث غيره.

قلت: هو بَلْعَام -ويقال: بَلْعَم- بن بَاعُوراء، ويقال: ابن آبر -ويقال: ابن بَاعُور بن شهوم- بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران -ويقال: ابن حران- بن آزر. وكان يسكن قريةً من قرىٰ البَلْقَاء.

قال ابن عساكر: وهو الَّذِي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ مِن دِينِهِ، له ذِكْر في القرآن. ثم أورد مِن قِصَّتِهِ نحوًا ممَّا ذكرنا هاهنا، وأورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمَّد بن إسحاق بن يسار، عن سالم أبي النَّضر؛ أنَّه حدَّث: أنَّ موسىٰ عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتىٰ قوم بَلْعَام إليه، فقالوا له: هذا موسىٰ بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلها بني إسرائيل، وإنَّا قومك، وليس لنا مَنْزِلٌ، وأنت رجل مجابُ الدَّعوة، فاخرج فادعُ الله عليهم. قال: ويلكم! نَبِيُّ الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أَدْعُو عليهم وأنا أعلم مِن الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا مِن مَنْزِلٍ! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتىٰ فتنوه فافتتن، فركب حمارةً له متوجهًا إلىٰ الجبل الَّذِي يطلعه علىٰ عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسْبان، فلمَّا سار عليها غير كثيرٍ، رَبَضَتْ به، فنزل عنها فضربها، حتىٰ إذا أذلقها[3] قامت فركبها. فلم تَسِرْ به كثيرًا حتىٰ رَبَضَتْ به، فضربها حتىٰ إذا أذلقها أَذِنَ اللهُ لها فكلَّمته حُجَّةً عليه، فقالت: وَيْحَك يا بَلْعَم: أين تذهب؟ أما ترىٰ الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلىٰ نَبِيِّ الله والمؤمنين لِتَدْعُوَ عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلىٰ الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتىٰ إذا أشرفت به علىٰ رأس حُسْبَان، علىٰ عسكر موسىٰ وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بِشَرٍّ إلا صرف الله لسانه إلىٰ قومه، ولا

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح)، والصواب إثباتها.

(٢) رواه الطبري (٩/ ١٢٤)، ومثل هذا لا يعتمد عليه؛ لأنَّه لم يرفعه إلىٰ رسول الله ﷺ.

(٣) الإذلاق: أن يبلغ منه الجهد حتىٰ يقلق ويتضور.

يدعو لقومه بخيرٍ إلا صرف لسانه إلىٰ بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بَلْعَم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيءٌ قد غَلَبَ الله عليه! قال: واندلع لسانه(١) فوقع علىٰ صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدُّنيا والآخرة، ولم يَبْقَ إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأَحْتَال، جَمِّلوا النِّساء وأعطوهن السِّلَع، ثم أرسلوهن إلىٰ العسكر يبعنها فيه، ومُرُوهُنَّ فلا تمنع امرأةٌ نفسها مِن رجلٍ أرادها، فإنَّهم إن زنىٰ رجلٌ منهم واحدٌ كُفِيتموهم، ففعلوا. فلما دخل النِّساء العسكر مَرَّت امرأة من الكنعانيين اسمها: «كسبىٰ ابنة صُور رأسِ أُمَّتِه» برجل مِن عظماء بني إسرائيل، وهو: «زمرىٰ بن شَلُوم»، رأسُ سِبْطِ سَمْعَان بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، [فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتىٰ وقف بها علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ](٢) فقال: إنِّي أظنُّك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هي حرامٌ عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نُطِيعك في هذا. ثم دخل بها قبته فوقع عليها. وأرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الطَّاعون في بني إسرائيل، وكان فِنْحَاص بن العَيْزَار بن هارون، صاحب أمر موسىٰ، وكان غائبًا حين صنع زمرىٰ بن شَلُوم ما صنع، فجاء والطاعون يَجُوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلىٰ السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه علىٰ خاصرته، وأسند الحربة إلىٰ لَحْيَيْه -وكان بِكْرَ العَيْزَار- وجعل يقول: اللَّهمَّ هكذا نفعل بمَنْ يَعْصِيك. ورُفِعَ الطَّاعُون، فحُسِب مَن هَلَك من بني إسرائيل في الطَّاعون فيما بين أن أصاب زمرىٰ المرأة إلىٰ أن قتله [فِنْحَاصُ](٣)، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا -والمقلل لهم يقول: عشرون ألفًا- في ساعة من النَّهار. فمِن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحةٍ ذبحوها القبة(٤) والذراع واللَّحىٰ [لاعتماده بالحَرْبَة علىٰ خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلىٰ لحييه](٥)، والبِكْر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنَّه كان بِكْر أبيه العَيْزَار. ففي بَلْعَام بن بَاعُورَاء أنزل الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٦).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اختلف المفسِّرون في معناه، فأمَّا علىٰ سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النَّضر: أنَّ بَلْعَامًا اندلع لسانه علىٰ صدره -فتشبيهه بالكلب في لهثه(٧) في كلتا حالتيه إن زُجِرَ وإن ترك [ظاهر](٨). وقيل: معناه فصار مثله، في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلىٰ الإيمان وعدم الدُّعاء، كالكلب في لَهْثه في حالتيه: إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلىٰ

---

(١) اندلع لسانه: خرج من الفم واسترخىٰ كلسان الكلب. (٢) ليست في (ز).
(٣) ليست في (ح). (٤) القِبَة: من الكرش. (٥) ليست في (ز).
(٦) رواه الطبري (٩/ ١٢٥)، وهذه كلها أخبار لا تثبت ولا يصح الاعتماد عليها. وهي تروىٰ علىٰ سبيل الحكاية مما لا يصدق ولا يكذب.
(٧) في (ز)، (ح): «لهيثه». (٨) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

الإيمان ولا عدمه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠] ونحو ذلك.

وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضَّالِّ ضعيفٌ فارغٌ من الهدىٰ، فهو كثير الوجيب؛ فعبَّر عن هذا بهذا، نُقِل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾، أي: لعلَّ بني إسرائيل العَالِمينَ بحال بَلْعَام، وما جرىٰ له في إضلال الله إيَّاه وإبعاده من رحمته، بسبب أنَّه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطىٰ، وإذا دُعِيَ به أجاب- في غير طاعة ربِّه، بل دعا به علىٰ حزب الرَّحمن، وشعْب الإيمان، أتباع عبده ورسولِهِ في ذلك الزَّمان، كليم الله موسىٰ بن عمران ﷺ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإنَّ الله قد أعطاهم علمًا، ومَيَّزهُم علىٰ مَن عَداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمَّد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحقُّ النَّاس وأولاهم باتِّباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا مَن خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أَحَلَّ الله به ذلًّا في الدنيا موصولًا بذُلِّ الآخرة.

وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، يقول تعالىٰ: ساء مثلًا مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآياتنا؛ أي: ساء مثلهم أَنْ شُبِّهُوا بالكلاب التي لا همَّة لها إلا في تحصيل أكلةٍ أو شهوةٍ، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدىٰ وأقبل علىٰ شهوة نفسه، واتَّبع هواه، صار شبيهًا بالكلب، وبئس المَثَل مَثَله؛ ولهذا ثبت في «الصَّحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ لَنا مَثَلُ السَّوْءِ، العَائِدُ [فِي هِبَتِهِ]**[١] **كَالكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**»[٢].

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ما ظَلَمَهُم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتِّباع الهدىٰ وطاعة المولىٰ، إلىٰ الرُّكون إلىٰ دار البِلَىٰ، والإقبال علىٰ تحصيل اللَّذَّات وموافقة الهوىٰ.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: مَن هداه الله فإنَّه لا مُضِلَّ له، ومَن أضلَّه فقد خاب وخسر وضلَّ لا محالة، فإنَّه تعالىٰ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «**إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»[٣].

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم[٤].

---

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٢) البخاري (٢٦٢٢).

(٣) صحيح: أحمد (١/ ٣٩٢)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (٦/ ٨٩)، وابن ماجة (١٨٩٢).

(٤) وهذه هي خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه، وقد جمع طرقها وشرحها وأفردها في رسالة العلامة/ =

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: هيَّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنَّه تعالىٰ لما أراد أن يخلق الخلق، عَلِمَ ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتابٍ قبل أن يخلق السموات [والأرض][(١)] بخمسين ألف سنةٍ، كما ورد في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ [كَتَبَ][(٢)] مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السموات وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ»[(٣)]. ممم

وفي «صحيح مسلم» أيضًا من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلىٰ جنازةِ صبيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبىٰ له، عصفورٌ مِن عصافير الجنَّة، لم يعمل السُّوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»[(٤)].

وفي «الصَّحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ: رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ»[(٥)].

وتقدَّم أنَّ الله تعالىٰ لما استخرج ذريَّة آدم مِن صُلْبِهِ وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال، قال: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي»[(٦)].

والأحاديث في هذا كثيرةٌ، ومسألة القدر كبيرةٌ ليس هذا موضع بسطها[(٧)].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ليس ينتفعون بشيءٍ من هذه الجوارح التي جعلها الله [سببًا للهداية][(٨)]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا

= محمد ناصر الدين الألباني، وطبعها له الشيخ/ زهير الشاويش -رحم الله الجميع- صاحب المكتب الإسلامي، وانظر: «مرويات خطبة الحاجة» لمحمد أحمد باجابر.

(١) ليست في (ح). (٢) مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٧)، وأحمد (٢/ ١٦٩).

(٣) في (ز): (قدَّر) وهو لفظ أحمد والترمذي، والمثبت لفظ مسلم، وهو أصح، ومعناه كما ذكر أهل السنة: أن المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، لا أصل التقدير فإن التقدير أزلي لا أول له.

(٤) مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٥٧)، وابن ماجة (٨٢)، وأحمد (٦/ ٤١).

(٥) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٨١)، والترمذي (٢٠٦٣).

(٦) تقدمت هذه الأحاديث: انظر الآيات (١٧٢ - ١٧٤).

(٧) من أحسن الكتب التي تكلمت علىٰ القدر «شفاء العليل» لابن القيم رحمه الله، وكذلك «شرح القصيدة التائية» للسعدي رحمه الله.

(٨) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨] هذا في حقِّ المنافقين، وقال في حقِّ الكافرين: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، ولم يكونوا صمًّا بكمًا عميًا إلا عن الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، وقال: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ (٣٦) وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحقَّ ولا يَعُونَهُ ولا يُبْصِرُون الهُدَىٰ كالأنعام السَّارحة الَّتي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها مِن ظاهر الحياة الدُّنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة:١٧١] أي: ومَثَلهم -في حال دُعائهم إلىٰ الإيمان- كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تَفْقَهُ ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ أي: من الدَّوابِّ؛ لأنَّ الدَّوابَّ قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ بها[(١)] -وإن لم تفقه كلامه- بخلاف هؤلاء؛ ولأنَّ الدَّوابَّ [تفقه][(٢)] ما خُلِقَت له، إمَّا بطَبْعِها وإمَّا بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنَّه إنَّما خُلِقَ ليعبد الله ويُوَحِّدَه، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا مَن أطاع الله مِن البشر كان أشرف مِن مثله من الملائكة في مَعَادِهِ[(٣)]، ومَن كفر به من البشر، كانت الدَّوابُّ أتمَّ منه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ[(٤)] (١٨٠)﴾

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، [مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا][(٥)] مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ**»[(٦)].

أخرجاه في «الصحيحين» من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج عنه. ورواه

---

(١) أي: زجرها بقوله: بِسْ، بِسْ. (٢) في (ح): «تفعل».

(٣) وهذا هو الصحيح؛ أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وهو اختيار ابن تيمية وغيره -رحم الله الجميع- وسيأتي المزيد في آخر تفسير «سورة الإسراء».

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الرَّافضة مثلًا يدعون عليًّا: يا علي، وسمعت رجلًا منهم يدعو عند المقام، ويرفع صوته: يا علي، فجاءه أحد رجال الحسبة فزجره، وقال: تشرك تحت الكعبة! اخرج، فقال: إنما أنا أقول: يا علي، والله يقول في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يعني: أنه ينادي الله، وهذا من التقية التي يتخذونها، وهي سبيل المنافقين، فهذا لا شك -فيما يظهر لي والله أعلم- أنَّه لا يريد الله إنَّما يريد عليًّا؛ لأنه لو كان يريد الله لقال: يا رب، أو اللَّهمَّ، أو ما أشبه ذلك، لكن لما وقع في شرك العدل والتَّوحيد ادَّعىٰ هذه الدعوة.

(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦).

البخاري، عن أبي اليمان، عن شُعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزِّناد به، وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مُسلم، عن شُعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: -«يُحِبُّ الوِتْرَ»-: «هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، المَلِكُ، القُدُّوسُ، السَّلَامُ، المُؤْمِنُ، المُهَيْمِنُ، العَزِيزُ، الجَبَّارُ، المُتَكَبِّرُ، الخَالِقُ، البَارِئُ، المُصَوِّرُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، الوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الفَتَّاحُ، العَلِيمُ، القَابِضُ، البَاسِطُ، الخَافِضُ، الرَّافِعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السَّمِيعُ، البَصِيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللَّطِيفُ، الخَبِيرُ، الحَلِيمُ، العَظِيمُ، الغَفُورُ، الشَّكُورُ، العَلِيُّ، الكَبِيرُ، الحَفِيظُ، المُقِيتُ، الحَسِيبُ، الجَلِيلُ، الكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، المُجِيبُ، الوَاسِعُ، الحَكِيمُ، الوَدُودُ، المَجِيدُ، البَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الحَقُّ، الوَكِيلُ، القَوِيُّ، المَتِينُ، [الوَلِيُّ، الحَمِيدُ، المُحْصِي، المُبْدِئُ، المُعِيدُ، المُحْيِي][١]، المُمِيتُ، الحَيُّ، القَيُّومُ، الوَاجِدُ، المَاجِدُ، الوَاحِدُ، الأَحَدُ، [الفَرْدُ][٢]، الصَّمَدُ، القَادِرُ، المُقْتَدِرُ، المُقَدِّمُ، المُؤَخِّرُ، الأَوَّلُ، الآخِرُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ، الوَالِي، المُتَعَالِي، البَرُّ، التَّوَّابُ، المُنْتَقِمُ، العَفُوُّ، الرَّءُوفُ، مَالِكُ المُلْكِ، ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، المُقْسِطُ، الجَامِعُ، الغَنِيُّ، المُغْنِي، المَانِعُ، الضَّارُّ، [النَّافِعُ][٣]، النُّورُ، الهَادِي، البَدِيعُ، البَاقِي، الوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ»[٤].

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رُوِي من غير وَجْه عن أبي هريرة ﵁ ولا نعلم في كثير شيءٍ من الرِّوايات ذكر الأسماء إلَّا في هذا الحديث[٥].

ورواه ابن حبَّان في «صحيحه»، من طريق صفوان به. وقد رواه ابن ماجة في «سننه»، مِن طريق آخر عن موسىٰ بن عُقبة، عن الأَعْرَج، عن أبي هُريرة مرفوعًا، فسرد الأسماء كنحو ما تقدَّم بزيادةٍ ونُقْصان.

والَّذِي عوَّل عليه جماعةٌ من الحُفَّاظ أن سَرْدَ الأسماء في هذا الحديث مُدْرَجٌ فيه، وإنَّما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمَّد الصنعاني، عن زُهير بن محمَّد: أنه بَلَغَه عن غير واحدٍ مِن أهل العلم أنهم قالوا ذلك؛ أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمَّد، وسفيان بن عُيينة، وأبي زيد اللُّغوي، والله أعلم.

ثم لِيُعْلَم أنَّ الأسماء الحسنىٰ ليست منحصرةً في التِّسعة والتِّسعين؛ بدليل ما رواه الإمام أحمد في

---

(١) ما بين المعقوفتين مكرر مرتين في (ح). (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ح).

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ح).

(٤) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجة (٣٨٦١) من طريقين: الأولىٰ من رواية الوليد بن مسلم وهو مدلس، والثانية وفيها عبد الملك بن محمد وهو ضعيف، كما أن الحديث مضطرب سندًا ومتنًا، وقد أطال الحافظ ابن حجر في بيان ضعف هذا الحديث في «فتح الباري» (١١/ ٢١٤- ٢١٥)، وتعقيب الذين صحَّحوا الحديث كالحاكم، ثمَّ صحَّح الحافظ أن سَرْدَ الأسماء مُدرجةٌ مِن بعض الرُّواة.

(٥) وقد اجتهد الكثير من العلماء في جمع الأسماء الحُسْنىٰ من نصوص الوحيين، ولهم في هذا جهود مشكورة، ومن أحسنها ما جمعه الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه الماتع: «القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ»، ثم قام بشرحه، وهو مطبوع، وكذا كتاب: «فقه الأسماء الحسنىٰ» للشيخ/ عبد الرزاق البدر.

«مسنده» عن يزيد بن هارون، عن فُضَيل بن مرزوق، عن أبي سلمة[١] الجُهَني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: «بَلَىٰ، يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[٢].

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حِبَّان البُسْتِي في «صحيحه» بمثله.

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكيَّة في كتابه: «الأحوذي في شرح الترمذي»؛ أنَّ بعضهم جمع من الكتاب والسُّنَّة مِن أسماء الله أَلْفُ اسم، فالله أعلم.

وقال العَوْفِي، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، [قال: إِلْحَادُ المُلْحِدِينَ: أن دَعَوا «اللَّات» في أسماء الله.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾][٣]، قال: اشْتَقُّوا «اللَّات» من الله، واشتقوا «العُزَّىٰ» من العزيز.

وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: الإلحاد: التَّكذِيب. وأصلُ الإلحاد في كلام العَرَبِ: العَدْلُ عَن القصد، والمَيْلُ والجور والانحراف، ومنه اللَّحد في القبر، لانحرافه إلىٰ جِهَةِ القبلة عن سَمْتِ الحفَرِ.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾[٤]

يقول تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: ومن الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق، قولًا وعملًا، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون.س

وقد جاء في الآثار: أنَّ المراد بهذه الأُمَّة المذكورة في الآية هي هذه الأمَّة المحمَّديَّة.

قال سعيد، عن قتادة في تفسير هذه الآية: بَلَغنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هَذِهِ لَكُمْ، وَقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلَهَا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾» [الأعراف: ١٥٩][٥].

وقال أبو جعفر الرَّازي، عن الرَّبيع بن أنس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

---

(١) في (ز): «عن أبي مسلم»، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «المسند».

(٢) صحيح: أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٩٧٢)، وصحَّحه الشيخ شعيب، وكذا صحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٤) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الشِّهابُ: اسْتُدِل بالآية علىٰ أنَّ الإجماع حجَّةٌ في كلِّ عصرٍ، وعلىٰ أنَّه لا يخلو عصر مِن مجتهدٍ إلىٰ قيام السَّاعة.

(٥) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ١٣٥)، والإسناد مرسل؛ لأن قتادة لم يصل الإسناد.

يَعۡدِلُونَ ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَىٰ الحَقِّ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مَتَىٰ مَا نَزَلَ»(١).

وفي «الصَّحيحين»، عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»، وفي رواية: «حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ»، وفي رواية: «وَهُمْ بِالشَّامِ»(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرِّزق ووجوه المعاش في الدُّنيا، حتىٰ يَغترُّوا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم علىٰ شيءٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ ﴾ أي: وسأُملِي لهم، أُطوِّل لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ أي: قويٌّ شديدٌ.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾، يعني: محمَّدًا صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًّا دعا إلىٰ حقٍّ، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له قلبٌ ولُبٌّ يعقل به ويَعِي به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير:٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ:٤٦]، يقول: إنَّما أَطْلُب منكم أَن تقوموا لله قيامًا خالصًا لله، ليس فيه تعصُّبٌ ولا عنادٌ، ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: مجتمِعين ومُتفرِّقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في هذا الَّذي جاءكم بالرِّسالة من الله: أَبِه جنون أم لا؟ فإنَّكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظَهَرَ أنَّه رسول الله حقًّا وصدقًا.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان علىٰ الصَّفا، فدعا قريشًا فجعل يُفَخِّذهم فَخِذًا فَخِذًا(٣): «يَا بَنِي فُلانَ، يَا بَنِي فُلانَ»، فحذَّرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إنَّ صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلىٰ الصباح -أو: حتىٰ أصبح- فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾(٤).

---

(١) حسن لغيره: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٨٩)، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيِّئ الحفظ، والإسناد أيضًا منقطع، لكن يشهد له الرِّواية الصَّحيحة الآتية.

(٢) البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧). ونسأل الله أن يُفرِّجَ عن أهل الشام وسائر المسلمين.

(٣) أي: يناديهم فخذًا فخذًا. وأَوَّل العَشِيرة: الشَّعْب، ثم القَبِيلة، ثم الفَصِيلة، ثم العِمَارة، ثم البَطْن، ثم الفَخِذ. «النهاية».

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٩٢)، والإسناد مرسل لم يصله قتادة.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ -هؤلاء المُكذبون بآياتنا- في مُلْك الله وسُلطانه في السموات والأرض، وفيما خلقَ اللهُ من شيءٍ فيهما، فيتَدَبَّرُوا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدِّين الخالص إلَّا له، فيُؤْمِنُوا به، ويُصَدِّقوا رسوله، ويُنِيبُوا إلىٰ طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويَحْذَرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا علىٰ كُفرِهم، ويَصِيرُوا إلىٰ عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيبٍ -بعد تحذيرِ محمَّدٍ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آيِ كتابه- يُصَدِّقُون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمَّدٌ من عند الله ﷻ؟!.

وقد روىٰ الإمام أحمد عن حسن بن موسىٰ وعفان بن مسلم(١) وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعَان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَنَظَرْتُ فَوْقِي، فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَصَوَاعِقَ»، قال: «وَأَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ فِيهَا الحَيَّاتُ تُرَىٰ مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا. فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَنَظَرْتُ إِلَىٰ أَسْفَلَ مِنِّي، فَإِذَا أَنَا بِرَهَجٍ(٢) وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحْرِفُونَ عَلَىٰ أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ(٣) أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السموات وَالأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوُا العَجَائِبَ»(٤). علي بن زيد بن جُدْعَان له منكرات. ثم قال تعالىٰ:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾

يقول تعالىٰ: مَن كُتِب عليه الضَّلالة فإنَّه لا يهديه أحدٌ، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنَّه لا يجدي عنه شيئًا، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤١]، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾

يقول تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣]، قيل:

---

(١) في (ز)، (ح): «عثمان بن مسلم»، وهو خطأ. (٢) الرَّهَج: الغبار.

(٣) أي: يميلونها ويصرفونها كائنين عليها.

(٤) ضعيف: رواه أحمد (٣/ ٣٥٣)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وشيخه أبو الصلت: مجهول.

نزلت في قريش. وقيل: في نفرٍ من اليهود. والأوَّل أشبه؛ لأنَّ الآية مكيَّةٌ، وكانوا يسألون عن وقت السَّاعة استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنبياء:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورىٰ:١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: «منتهاها» أي: متىٰ محطها؟ وأيَّان: آخر مُدَّة الدُّنيا الذي هو أوَّل وقت السَّاعة.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ إذا سُئل عن وقت السَّاعة، أن يرُدَّ علمها إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإنَّه هو الذي يُجلِّيها لِوَقْتِهَا؛ أي: يعلم جَلِيَّة أمرها، ومتىٰ يكون علىٰ التَّحديد[1]، لا يعلم ذلك أحدٌ إلا هو تعالىٰ؛ ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: ثَقُلَ علمها علىٰ أهل السَّموات والأرض، إنَّهم لا يعلمون. قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت، ثقلت علىٰ أهل السَّموات والأرض، يقول: كَبُرت عليهم.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: ليس شيءٌ من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السَّماء، وانتثرت النُّجوم، وكُوِّرت الشَّمس، وسُيِّرت الجبال، وكان ما قاله الله ﷻ فذلك ثقلها.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ المراد: ثَقُلَ علم وقتها علىٰ أهل السموات والأرض، كما قال قتادة.

وهو كما قالاه، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها علىٰ أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وقال السُّدِّي في قوله تعالىٰ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: خَفِيَت في السموات والأرض، فلا يعلم قِيَامها حين تقوم مَلَك مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قال: يبغتهم قيامها، تأتيهم علىٰ غفلة.

وقال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، قضىٰ الله أنَّها: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، قال: وذُكِرَ لنا أن نبي الله ﷺ قال: «**إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيجُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ**».

وقال البخاري: حدَّثنا أبو اليمان، أنبأنا شُعيب، حدَّثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ**

---

(١) ليست في (ح).

آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ[١] فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»[٢].

وقال مسلم في «صحيحه»: حدَّثني زُهير بن حرب، حدَّثنا سُفيان بن عُيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به [النَّبيَّ ﷺ][٣] قال: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلِبُ اللِّقْحَةَ، فَمَا يَصِلُ الإِنَاءُ إِلَىٰ فِيهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالرَّجُلُ يَلُوطُ حَوْضَهُ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّىٰ تَقُومَ»[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، اختلف المفسِّرون في معناه، فقيل: معناه: [كأنَّك حفيٌّ بهم][٥] كما قال العوْفِي عن ابن عبَّاس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنَّ بينك وبينهم مودَّةً، كأنَّك صديقٌ لهم.

قال ابن عبَّاس: لما سأل النَّاس محمَّدًا ﷺ عن السَّاعةِ سألوه سؤالَ قوم كأنَّهم يرون أنَّ محمَّدًا حفيٌّ بهم، فأوحىٰ الله إليه: إنَّما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يُطْلِع الله عليها مَلَكًا مُقرَّبًا ولا رسولًا.

وقال قتادة: قالت قريش لمحمَّدٍ ﷺ: إنَّ بيْنَنَا وبينك قرابة، فأسرَّ إلينا متىٰ السَّاعة؟ فقال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسُّدِّي، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد -من رواية ابن أبي نَجِيح وغيره-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ قال: استحْفَيت عنها السُّؤال، حتىٰ علمت وقتها.

وكذا قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، يقول: كأنَّك عالمٌ بها، لَسْت تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقال معمر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنَّك عالمٌ بها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾: كأنَّك عالمٌ بِهَا، وقد أخفىٰ الله عِلْمها علىٰ خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان:٣٤].

وهذا القول أرجح في المعنىٰ من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة أعرابيٍّ يُعَلِّم النَّاس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السَّائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثمَّ عن الإحسان، ثم قال: فمتىٰ

---

(١) أي: يطينه.
(٢) البخاري (٦٥٠٦).
(٣) ليست في (ز).
(٤) مسلم (٢٩٥٤).
(٥) لعل الصَّواب هو ما أثبتناه كما يقتضيه الكلام بعده، وهو في (ح): «حفي بها».

الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «**مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، أي: لست أعلم بها منك [ولا أحد أعلم بها من أحد] (١)، ثم قرأ النَّبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية.

وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة، ثم قال: «**فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ**». وقرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: «**صَدَقْتَ**»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السَّائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**» (٢).

وفي روايةٍ قال: «**وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا، إِلَّا صُورَتَهُ هَذِهِ**» (٣).

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من «الصِّحاح» و«الحِسَان» و«المسانيد»، في أوَّل «شرح صحيح البخاري»، ولله الحمد والمنَّة.

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ فقال: يا محمَّد، قال له رسول الله ﷺ: «**هَاءْ**» (٤) - علىٰ نَحْوٍ مِن صوته - قال: يا محمَّد، متىٰ السَّاعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «**وَيْحَكَ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ، فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قال: [ما] (٥) أعددت لها كبير صلاةٍ ولا صيام، ولكنِّي أُحِبُّ الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**». فما فرح المسلمون بشيءٍ فرحهم بهذا الحديث (٦).

وهذا له طرقٌ متعددة في «الصَّحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، وهي متواترةٌ عند كثيرٍ من الحفَّاظ المتقنين.

ففيه: أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إذا سُئِلَ عن هذا الَّذِي لا يحتاجون إلىٰ علمه أرشدهم إلىٰ ما هو الأهم في حَقِّهم، وهو: الاستعداد لوقوع ذلك، والتَّهيُّؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

ولهذا قال مسلم في «صحيحه»: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شَيبة، وأبو كُرَيب قالا: حدَّثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كانت الأعراب إذا قدموا علىٰ رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متىٰ الساعة؟ فنظر إلىٰ أحدثِ إنسانٍ منهم فقال: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ حَتَّىٰ قَامَتْ [عَلَيْكُمْ]** (٧) **سَاعَتُكُمْ**» (٨)؛ يعني بذلك: موتهم الَّذِي يُفْضِي بهم إلىٰ الحصول في برزخ الدَّار الآخرة.

ثم قال مسلم: وحدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا يونس بن محمَّد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن السَّاعة، [وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمَّد] (٩) فقال رسول الله ﷺ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا الغُلَامُ فَعَسَىٰ أَلَّا يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». انفرد به مسلم (١٠).

---

(١) في (ح): «ولا أحد أعلم بها منك من أحد».
(٢) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (١/ ٣١٨).
(٣) رواه أحمد (١/ ٥٢)، ورجاله ثقات.
(٤) في (ز)، (ح): «هاؤم». وهاء: كلمة إجابة وتلبية.
(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٦) البخاري (٣٨٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس.
(٧) ليست في (ز).
(٨) البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث عائشة، وأما حديث أنس فرواه مسلم (٢٩٥٣)، وأحمد (٣/ ١٥٩، ١٦٨، ٢٢٨)، وابن ماجة (٥٦٥).
(٩) ليست في (ز)، وهي مثبتة في «صحيح مسلم».
(١٠) مسلم (٢٩٥٣).

وحدَّثنا حَجَّاج بن الشاعر، حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا حماد بن زيد، حدَّثنا معبد بن هلال العنزي [(١)]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رجلًا سأل النَّبيَّ ﷺ قال: متىٰ السَّاعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هُنيهةً، ثم نظر إلىٰ غلامٍ بين يديه مِن أَزْدِ شَنُوءَة، فقال: «**إِنْ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**» -قال أنس: ذلك الغلام من أترابي [(٢)].

وقال: حدَّثنا هارون بن عبد الله، حدَّثنا عفان بن مسلم، حدَّثنا همام، حدَّثنا قتادة، عن أنس قال: مَرَّ غلام للمغيرة بن شعبة -وكان من أقراني- فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنْ يُؤَخَّرْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**».

ورواه البخاري في (كتاب الأدب) من «صحيحه» عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيىٰ، عن قتادة، عن أنس؛ أن رجلًا من أهل البادية قال: يا رسول الله، متىٰ الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: «فمَرَّ غلامٌ للمغيرة بن شعبة» وذكره.

وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمولٌ علىٰ التقييد بـ«سَاعتِكُمْ» في حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: قال: «**تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ مَا عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ اليَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ**» رواه مسلم [(٣)].

وفي «الصَّحيحين» عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنَّما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن [(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَازة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**»، قال: «**فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ**»، قال: «**فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَالَ: لا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا [أَمْرَهُمْ]** [(٥)] **إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: لا عِلْمَ لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ عِيسَىٰ، فَقَالَ عِيسَىٰ: أَمَّا وَجْبَتُهَا: فَلا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ عز وجل وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل: أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ**»، قال: «**وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ**»، قال: «**فَيُهْلِكُهُ اللهُ عز وجل إِذَا رَآنِي، حَتَّىٰ إِنَّ الحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ، إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا تَعَالَىٰ فَاقْتُلْهُ**». قال: «**فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ عز وجل ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَىٰ بِلادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ**»، قال: «**فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطَئُونَ بِلادَهُمْ، لا يَأْتُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ**»، قال: «**ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللهَ عز وجل عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُهُمْ**

---

(١) في (ز)، (ح): «سعيد بن أبي هلال المصري»، والمثبت موافق لما في «صحيح مسلم»، وهو الصواب.

(٢) البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٩٥٣).

(٣) مسلم (٢٥٣٨).

(٤) البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «المسند».

وَيُمِيتُهُمْ، حَتَّىٰ تَجْوَىٰ الأَرْضُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِمْ» -أي: تُنْتِن- قال: «فَيُنْزِلُ اللهُ المَطَرَ، فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّىٰ يَقْذِفَهُمْ فِي البَحْرِ». قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تُنْسَف الجبال، وتُمَدُّ الأرض مدَّ الأديم -ثم رجع إلىٰ حديث هشيم قال: «فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ لا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَىٰ تُفَاجِئُهُمْ بِوِلادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»(١).

ورواه ابن ماجه، عن بُنْدَار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّام بن حَوْشَب بسنده نحوه.

فهؤلاء أكابر أُولِي العَزْم مِن المرسلين، ليس عندهم عِلْمٌ بوقت السَّاعة علىٰ التَّعيين، وإنَّما رَدُّوا الأمر إلىٰ عيسىٰ ﷺ فتكلَّم علىٰ أشراطها؛ لأنَّه ينزلُ في آخر هذه الأمة مُنفذًا لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدَّجَّال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالىٰ به.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بُكَيْر، حدَّثنا عُبيد الله بن إياد(٢) بن لَقِيط قال: سمعتُ أبي يذكر عن حذيفة قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا(٣)، وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا: إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرْجًا»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهَرْج ما هو؟ قال: «بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: القَتْلُ». قال: «وَيُلْقَىٰ بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ، فَلا [يَكَادُ](٤) أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا»(٥). لم يروه أحدٌ من أصحاب الكتب [السِّتَّة](٦) من هذا الوجه.

وقال وَكِيع: حدَّثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر مِن شأن السَّاعة حتىٰ نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآية [النازعات:٤٢](٧).

ورواه النسائي من حديث عيسىٰ بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد به. وهذا إسنادٌ جيِّدٌ قويٌّ.

فهذا النَّبيُّ الأُمِّيُّ سيِّد الرُّسل وخاتمهم [محمَّد](٨) صلوات الله عليه وسلامه، نبيُّ الرَّحمة، ونبي التَّوبة، ونبي المَلْحَمة، والعَاقِب، والمُقَفَّىٰ، والحَاشِر الذي تُحشر الناس علىٰ قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في «الصحيح» من حديث أنس، وسهل بن سعد ﵄: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وقَرَن بين

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٥)، وابن ماجة (٤٠٨١)، والحاكم (٢/ ٣٨٤) (٤/ ٤٨٨، ٥٤٥) وصحَّحه، وكذا صحَّحه البوصيري في «مصباح الزجاجة».
قلت: ومؤثر بن عفازة قال الحافظ: مقبول. ووثقه ابن حبان في «الثِّقات» (٥/ ٤٦٣)، ووثَّقه العجلي في «الثقات» (١٦٤٩)، ولبعض ألفاظه شواهد. والله أعلم.

(٢) في (ز)، (ح): «عبيد الله بن زياد»، والمثبت موافق لما في «المسند»، وهو الصواب.

(٣) مَشاريط الشَّيء: أوائله، الواحد: مِشراط.

(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح)، وهو موافق لما في «المسند».

(٥) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٨٩)، ورجاله ثقات.

(٦) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٧) رواه الطبري (٣٠/ ٤٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٦٤٥) وقد قوىٰ المصنف إسناده، وللحديث شاهد من حديث عائشة، رواه الطبري (٣٠/ ٤٩)، والحاكم (٢/ ٥١٣) وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٨) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

إصبعيه السَّبَّابة والتي تليها[١]. ومع هذا كله قد أمره الله تعالىٰ أن يَرُد علم وقت السَّاعة إليه إذا سُئل عنها، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

أمره الله تعالىٰ أن يفوِّض الأمور إليه، وأَن يُخبر عَن نفسه أنَّه لا يعلم الغيب، ولا اطِّلاع له علىٰ شيءٍ من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه[٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن:٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ قال عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ قال: لو كنت أعلم متىٰ أَمُوتُ، لعملت عملًا صالحًا.

وكذلك روىٰ ابن أبي نجيح عن مجاهد. وقال مثله ابن جُرَيْج.

وفيه نظر؛ لأنَّ عمل رسول الله ﷺ كان دِيمَة[٣]. وفي روايةٍ: كان إذا عَمِلَ عملًا أَثْبَتَهُ[٤][٥].

فجميع عمله كان علىٰ مِنوَالٍ واحدٍ، كأنَّه ينظر إلىٰ الله ﷻ في جميع أحواله، اللَّهمَّ إلَّا أن يكون المرادُ: أَن يُرْشِد غيره إلىٰ الاستعداد لذلك، والله أعلم.

والأحسن في هذا: ما رواه الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئًا إلا رَبِحْت فيه، [وما مَسَّنِي السُّوء، قال:][٦] ولا يُصِيبُني الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنىٰ ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسَّنَة المجدبة من المخصبة، ولعرفت[٧] الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتَّقيتُهُ.

ثم أخبر أنَّه إنَّما هو نذيرٌ وبشيرٌ؛ أي: نذيرٌ من العذاب، وبشيرٌ للمؤمنين بالجنَّات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم:٩٧].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٤، ٢٩٥١) من حديث أنس، ورواه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل، وله شاهد من حديث جابر: رواه مسلم (٨٦٧)، وابن ماجة (٤٥)، وابن حبان (١٠).

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري ﷾: الغيب قسمان، حقيقي: وهو ما استأثر الله تعالىٰ به ومن علَّمه تعالىٰ منه شيئًا علمه، وإضافي: يعلمه بعض ويخفىٰ عن بعض، ومن ادعىٰ علم الغيب فقد كذَّب الله ونازعه فيما استأثر به فهو بذلك كافر.

(٣) دِيمَة: أي دائمًا غير مقطوع. (٤) أي: لازمه وداوم عليه.

(٥) الرواية الأولىٰ: أخرجها البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣)، والثانية: أخرجها أبو داود (١٣٦٨)، وأحمد (٦/ ٤٠)، وإسنادها صحيح، وهي عند مسلم (٧٨٢) بنحوها.

(٦) ليست في (ز). (٧) في (ز)، (ح): «ولوقت الغلاء»، والمثبت كما في «الطبري».

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم (١) مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

يُنبِّه تعالىٰ علىٰ أنَّه خلق جميع النَّاس من آدم عليه السلام وأنَّه خلق منه زوجه حوَّاء، ثمَّ انتشر النَّاس منهما، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء:١].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]؛ فلا أُلفة بين زَوْجين أعظم ممَّا بين الزَّوجين؛ ولهذا ذكَر تعالىٰ أنَّ السَّاحر رُبَّما توصَّل

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: أي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض علىٰ كثرتكم وتفرقكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.
﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حوَّاء لأجل أن يسكن إليها؛ لأنَّها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلىٰ الآخر، فانقاد كل منهما إلىٰ صاحبه بزمام الشهوة.
﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: تجللها مجامعًا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ] ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثىٰ، ولا يثقلها.
﴿فَلَمَّا﴾ استمرت به و﴿أَثْقَلَت﴾ به حين كَبُر في بطنها، فحينئذٍ صار في قلوبهما الشَّفقة علىٰ الولد، وعلىٰ خروجه حيًّا، صحيحًا، سالمًا لا آفة فيه [كذلك] فدعوا ﴿اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولدًا ﴿صَالِحًا﴾ أي: صالح الخلقة تامَّها، لا نقص فيه ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.
﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ علىٰ وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنِّعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فعَبَّداه لغير الله. إمَّا أن يسمِّياه بعبد غير الله كـ«عبد الحارث» و«عبد العزىٰ» و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحدٌ من العباد.
وهذا انتقال من النوع إلىٰ الجنس، فإنَّ أوَّل الكلام في آدم وحوَّاء، ثم انتقل إلىٰ الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجودٌ في الذُّرِّيَّة كثيرًا، فلذلك قررهم الله علىٰ بطلان الشِّرك، وأنَّهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشِّرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإنَّ الخالق لهم من نفسٍ واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلىٰ بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلىٰ ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل، ثم أوجد الذُّرِّيَّة في بطون الأمَّهات وقتًا موقوتًا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويًّا صحيحًا، فأتمَّ الله عليهم النِّعمة وأنالهم مطلوبهم.
أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدًا، ويخلصوا له الدين.
ولكن الأمر جاء علىٰ العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾.
﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.
فإذا كانت لا تخلق شيئًا، ولا مثقال ذرَّة، بل هي مخلوقةٌ، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن مَن يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتَّخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظُّلم، وأسفه السفه.

بكيده إلىٰ التَّفرقة بين المرء وزوجه.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطئها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أوَّل الحمل، لا تجد المرأة له ألمًا، إنَّما هي النُّطفة، ثمَّ العَلَقة، ثم المُضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرَّت بحمله. ورُوِيَ عن الحَسَن، وإبراهيم النَّخَعي، والسُّدِّي نحوه.

وقال مَيْمُون بن مِهْرَان، عن أبيه: استخفته.

وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾؟ قال: لو كنتَ رجُلًا عربيًّا لعرفت ما هي؛ إنَّما هي: فاستمرت به.

وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ استبان حملها.

وقال ابن جرير: معناه اسْتَمَرَّت بالماء، قامَتْ به وقعدت.

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: استمرت به، فشَكَّت: أحملت أم لا.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذاتَ ثِقَلٍ بحملها.

وقال السُّدِّي: كَبُرَ الولدُ في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا، كما قال الضَّحَّاك عن ابن عبَّاس: أشفقا أن يكون بَهِيمَةً.

وكذلك قال أبو البَخْتري وأبو مالك: أشفقا ألَّا يكون إنسانًا.

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلامًا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ذكر المفسِّرون هاهنا آثارًا وأحاديث سأُورِدُها وأُبيِّن ما فيها، ثم نتبع ذلك بيان الصَّحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثِّقة.

قال الإمام أحمد في «مسنده»: حدَّثنا عبد الصمد، حدَّثنا عمر بن إبراهيم، حدَّثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**وَلَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ -وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ- فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ؛ فَإِنَّهُ يَعِيشُ. فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَعَاشَ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ**»(١).

وهكذا رواه ابن جرير، عن محمَّد بن بشَّار -بُنْدَار-، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به(٢).

ورواه الترمذي في «تفسيره» هذه الآية، عن محمَّد بن المُثنىٰ، عن عبد الصمد به، وقال: هذا

---

(١) ضعيف منكر: أحمد (٥/ ١١)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

قلت: فيه عمر بن إبراهيم عن قتادة، وروايته عنه مضطربة كما قال ابن عدي. وعليه فلا يحتمل تفرُّده خاصَّة بروايته عن قتادة. وانظر: «الضعيفة» للألباني (٣٤٢)، وانظر تعقيب ابن كثير بعد إيراده للحديث.

(٢) منكر: الطبري (٩/ ١٤٦) من طريق عمر بن إبراهيم.

حديث حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، [عن قتادة][(١)] ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه[(٢)].

ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث عبد الصمد مرفوعًا، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه[(٣)].

ورواه الإمام أبو محمَّد بن أبي حاتم في «تفسيره»، عن أبي زُرْعَة الرَّازي، عن هِلَال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في «تفسيره»، من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا.

قلت: «وشاذ» [هذا][(٤)] هو: هلال، و«شاذ» لقبه؛ والغرض أنَّ هذا الحديث مَعْلُولٌ من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثَّقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المُعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سَمُرة مرفوعًا فالله أعلم[(٥)].

الثاني: أنَّه قد رُوِيَ مِن قول سَمُرة نفسه ليس مرفوعًا، كما قال ابنُ جرير: حدَّثنا ابن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا المُعتمر، عن أبيه. وحدَّثنا [ابن عُلَيَّة][(٦)]، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن سَمُرة بن جُندب، قال: سَمَّىٰ آدم ابنه «عبد الحارث»[(٧)].

الثالث: أنَّ الحسن نفسه فسَّر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سَمُرة مرفوعًا لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن وَكِيع، حدَّثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل المِلَل، ولم يكن بآدم[(٨)].

وحدَّثنا محمَّد بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا محمَّد بن ثَوْر، عن معمر قال: قال الحسن: عنىٰ بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده -يعني: قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾[(٩)].

وحدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحَسَن يقول: هم اليهود والنَّصارىٰ، رزقهم الله أولادًا، فهوَّدوا ونَصَّروا[(١٠)].

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه فسَّر الآية بذلك، وهو مِن أحسن التَّفاسير وأولىٰ ما

---

(١) ليست في (ز).

(٢) أي: إن الحديث مضطرب فقد رواه بعضهم مرفوعًا، ورواه بعضهم موقوفًا، وهذه علَّةٌ أخرىٰ تضاف إلىٰ ما سبق.

(٣) الحاكم (٥/ ٥٤٥)، ولم يصب في تصحيحه للحديث، فقد تقدَّم أنَّ في إسناده عمر بن إبراهيم، انظر التعليقات السابقة.

(٤) ليست في (ز).

(٥) لم أقف عليه، والغالب علىٰ أسانيد ابن مردويه الضعف، والله أعلم.

(٦) في (ز)، (ح): «بكر بن عبد الله»، وهو خطأ.

(٧) رواه ابن جرير (٩/ ١٤٦).

(٨) رواه ابن جرير (٩/ ١٤٨) من طرق صحيحة.

(٩) انظر التعليق السابق.

(١٠) انظر التعليق السابق.

حُمِلَت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وَوَرَعه، فهذا يدلك علىٰ أنه موقوفٌ علىٰ الصَّحابي، ويحتمل أنَّه تلقَّاه مِن بعض أهل الكتاب مِمن آمن منهم، مثل: كَعْب أو وَهْب بن مُنَبِّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ، إلا أنَّنا برئنا من عُهْدة المرفوع، والله أعلم.

فأمَّا الآثار:

فقال محمَّد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: كانت حواء تلد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أولادًا فيعبدهم لله ويُسَمِّيه: «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس وآدم، فقال: إنَّكما لو تُسَمِّيَانِهِ بغيرِ الَّذِي تُسمِّيَانِه به لعاش. قال: فولدت له رجلًا فسمَّاه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ إلىٰ آخر الآية [(١)].

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس قوله في آدم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلىٰ قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ شَكَّت أحَبلتْ أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يُولَدُ لَكُمَا؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة يكون أم لا؟ وزيَّن لهما الباطل؛ إنَّه غويٌّ مبينٌ، وقد كانت قبل ذلك ولدت وَلَدَيْن فماتا، فقال لهما الشَّيطان: إنَّكما إن لم تسمِّياه بي، لم يخرج سويًّا، ومات كما مات الأوَّلان [(٢)]، فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية [(٣)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن شَرِيك، عن خصيف، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ -آدم- ﴿حَمَلَتْ [(٤)] حَمْلًا خَفِيفًا﴾، فأتاهما إبليس -لعنه الله- فقال: إنِّي صاحبكما الذي أخرجتكما مِن الجنَّة لَتُطيعُنِّي أو لأجعلنَّ قرني له أيل، فيخرج مِن بطنك فيشقه، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ -يخوفهما- فسَمِّيَاه «عبد الحارث» فأَبَيَا أن يُطِيعَاه، فخرج ميتًا، [ثم حملت الثَّانية، فأتاهما أيضًا فقال: أنا صاحبكما الَّذِي فعلتُ ما فعلتُ، لتفعلُنَّ أو لأفعلَنَّ -يخوفهما- فأبيا أن يُطِيعَاه، فخرج ميتًا] [(٥)]، ثم حملت الثَّالثة فأتاهما أيضًا، فذكر لهما، فأدركهما حُبُّ

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٤٦)، وداود بن حصين: ضعيف في روايته عن عكرمة، وفي الإسناد علة أخرىٰ وهي عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس.

(٢) في (ز)، (ح): «الأول»، والمثبت كما في «الطبري».

(٣) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٤٦)، وهذا الإسناد مسلسل بالضعفاء وقد تقدم كثيرًا.

(٤) ما بين المعقوفتين في (ح): «﴿حَمَلَتْ﴾ هي إبليس».

(٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

الوَلَد فَسَمَّيَاه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، رواه ابن أبي حاتم [(١)].

وقد تلقَّىٰ هذا الأثرَ عن ابن عبَّاس جماعةٌ من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جُبير، وعكرمة. ومِن الطَّبَقة الثَّانية: قتادة، والسُّدِّي، وغير واحدٍ من السَّلف وجماعة من الخَلَف، ومن المفسِّرين من المتأخِّرين جماعات لا يُحْصَوْن كثرةً، وكأنَّه -والله أعلم- أصله مأخوذ مِن أهل الكتاب، فإنَّ ابن عبَّاس رواه عن أُبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو الجماهر حدَّثنا سعيد -يعني: ابن بشير- عن عُقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، عن أُبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشَّيطان، فقال لها: أَتُطِيعِينِي ويَسْلَم لك ولدك؟ سَمِّيه «عبد الحارث»، فلم تَفْعَلْ، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثَّالث فجاءها فقال: إن تُطِيعِينِي يَسْلَم، وإلا فإنَّه يكون بَهِيمةً، فهيَّبهما فأطاعا [(٢)].

وهذه الآثار يظهر عليها -والله أعلم- أنَّها مِن آثار أهل الكتاب، وقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**» [(٣)]، ثمَّ أخبارهم علىٰ ثلاثة أقسام: فمنها: ما عَلِمْنَا صحَّته بما دلَّ عليه الدَّليل مِن كتاب الله أو سُنَّة رسوله. ومنها ما عَلِمْنَا كذبه، بما دُلَّ علىٰ خلافه من الكتاب والسُّنَّة أيضًا. ومنها: ما هو مسكوتٌ عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله عليه السلام: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**» [(٤)]، وهو الَّذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب؛ لقوله: «**فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأمَّا مَن حدَّث به مِن صحَابيٍّ أو تابعيٍّ، فإنَّه يراه من القسم الثَّالث، وأمَّا نحن فعلىٰ مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا [والله أعلم] [(٥)]، وأنَّه ليس المراد مِن هذا السِّياق آدم وحواء، وإنَّما المراد من ذلك المشركون من ذُرِّيَّتِهِ [(٦)]؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذكره تعالىٰ آدم وحواء كالتَّوطئةِ لما بعدهما مِن الوَالِدَيْن وهو كالاستطراد من جنس الشَّخص إلىٰ الجنس كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ومعلوم أنَّ المصابيح -وهي النُّجوم-

---

(١) ضعيف:رواه ابن أبي حاتم (٨٦٥٤)، وفيه شريك القاضي: سيئ الحفظ، وخصيف: ضعيف.

(٢) ضعيف:رواه ابن أبي حاتم (٨٦٥٣)، وفيه سعيد بن بشير الأزدي: ضعيف.

(٣) البخاري (٤٤٨٥) و(٧٣٦٢) و(٧٥٤٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وثبت نحوه من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه، رواه أحمد (٤/ ١٣٦)، وابن حبان (٦٢٥٧).

(٤) رواه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد (٢/ ٢٠٢، ٢١٤).

(٥) سقط من (ز)، والمثبت من (ح).

(٦) قال الإمام البيضاوي- مبينًا صفة الانتقال من آدم وحواء إلىٰ ذريتهما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾: (أي: جعل أولادُهما له شركاء فيما آتىٰ أولادهما فسموه عبد العزىٰ وعبد مناف علىٰ حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اهـ.

- وذكر الشنقيطي رحمه الله أن قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نصٌّ قرآنيٌّ صريح في أن المراد المشركون من بني آدم، لا آدم وحواء، يشير بذلك إلىٰ أن الضمير في الفعل ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ورد بصيغة الجمع لا المثنىٰ.

التي زينت بها السَّماء الدُّنيا ليست هي التي ترمىٰ بها، وإنَّما هذا استطرادٌ مِن شخص المصابيح إلىٰ جنسها، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن، والله أعلم. ثم قال:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

هذا إنكارٌ مِن الله علىٰ المشركين الذين عبدوا مع الله غيره مِن الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقةٌ لله مربوبةٌ مصنوعةٌ، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تَضُرُّ ولا تنفع، [ولا تنصر][1] ولا تنتصر لعابديها، بل هي جمادٌ لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبَطْشِهِم؛ ولهذا قال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي: أَتُشْرِكُون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤]، أخبر تعالىٰ أنَّه لَوِ اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خَلْقَ ذُبابة، بل لو استلبتهم الذُّبابة شيئًا مِن حَقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فَمَنْ هذه صفته وحاله كيف يُعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي: لعابديهم، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يعني: ولا لأنفسهم يَنْصُرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكسر أصنام قومه ويُهينُها غاية الإهانة، كما أخبر تعالىٰ عنه في قوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات:٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجَمُوح ومعاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وكانا شابَّين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة- فكانا يَعْدُوان في اللَّيل علىٰ أصنام المشركين يكسرانها ويُتْلِفَانها ويتخذانها حطبًا للأرامل؛ ليعتبر قومهما بذلك، ويَرْتَئُوا لأنفسهم،

(١) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

فكان لعمرو بن الجموح -وكان سيِّدًا في قومه- كان له صنمٌ يعبده ويُطَيِّبُه، فكانا يَجِيئَان في اللَّيل فينكسانه علىٰ رأسه، ويُلَطِّخانه بالعَذِرة، فيجيءُ عمرو بن الجموح فيرىٰ ما صنع به فيغسله ويُطَيِّبُه ويضع عنده سيفًا، ويقول له: انتصر. ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلىٰ صنيعه أيضًا، حتىٰ أخذاه مرَّة فَقَرَنَا معه جَرْوَ كلبٍ مَيِّتٍ، ودلَّياه في حبلٍ في بئرٍ هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأىٰ ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدِّين باطلٌ، وقال:

تَـــاللهِ لَـــوْ كُنْـــتَ إِلَهًـــا مُـــسْتَدَنِ ... لَـمْ تَـكُ وَالكَلْـبُ جَمِيعًـا فِـي قَـرَنْ(١)

ثم أسلم فَحسُن إسلامه، وقُتِلَ يوم أُحُدٍ شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، يعني: أنَّ هذه الأصنام لا تسمع دعاء مَن دَعَاهَا، وسواء لديها مَن دَعَاهَا ومَن دَحَاهَا(٢)، كما قال إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢] ؟

ثمَّ ذكر تعالىٰ أنَّها عبيد مثل عابديها؛ أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها؛ لأنَّها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: استنصروا بها عَلَيَّ، فلا تؤخروني طرفةَ عَيْنٍ، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الله حَسْبِي وكافيَّ، وهو نصيري وعليه مُتكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدُّنيا والآخرة، وهو وَلِيُّ كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤-٥٦]، وكقول الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٠] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلىٰ آخر الآية مُؤَكِّد لما تقدَّم، إلا أنَّه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

---

(١) مُسْتدن: من السِّدَانة، وهي: خدمة البيت وتعظيمه، والقَرَن: الحبل.

(٢) دحاها: رماها.

وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنَّما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: يقابلونك بعيون مصوَّرةٍ كأنَّها ناظرةٌ، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة مَن يعقل؛ لأنَّها على صور مصورة كالإنسان، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ﴾ فعبَّر عنها بضميرِ مَن يَعْقِل.

وقال السُّدِّي: المراد بهذا المشركون. وروي عن مُجاهد نحوه. والأول أولىٰ، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعني: خُذْ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به مِن شيءٍ فخُذْهُ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصَّدقات. قاله السُّدِّي.

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: الفضل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعَفْوِ والصَّفح عن المشركين عشرَ سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال غير واحدٍ عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: مِن أخلاق النَّاس وأعمالهم مِن غير تَحَسُّسٍ(١).

وقال هشام بن عُرْوة، عن أبيه: أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق النَّاس. وفي روايةٍ قال: خذ ما عُفي لك من أخلاقهم.

وفي «صحيح البخاري»: عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق النَّاس(٢). وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر(٣). وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك(٤)، والله أعلم.

وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وَهْب بن كَيْسَان، عن ابن الزُّبير(٥): ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق النَّاس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم(٦). وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه

(١) في (ز)، (ح): «من غير تحسيس». (٢) رواه البخاري (٤٦٤٣) و(٤٦٤٤)، وأبو داود (٤٧٨٧).
(٣) رواه ابن أبي حاتم (٨٦٧٥)، والحاكم (١/ ١٢٤)، وانظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٠٥).
(٤) أخرجه تمام في «فوائده» (٤/ ١٣٤١)، وعزاه الحافظ في «الفتح» (٨/ ٣٠٥) إلىٰ ابن مردويه، وإسناده ضعيف، فيه يحيىٰ بن كثير البصري: ضعيف.
(٥) في (ز)، (ح): «أبي الزبير»، والمثبت هو الصواب.
(٦) رواه الطبري (٩/ ١٥٤).

ابن جرير وابن أبي حاتم جميعًا: حدَّثنا يونس، حدَّثنا سفيان -هو ابن عُيينة- عن أُميٍّ[١] قال: لما أنزل الله ﷻ على نبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»[٢].

وقد رواه ابن أبي حاتم أيضًا، عن أبي يزيد القراطيسي كتابةً، عن أَصْبَغ بن الفرج، عن سفيان، عن أُميّ عن الشعبي. نحوه، وهذا -على كل حال- مُرسل، وقد روي له شاهد من وجوه أخر، وقد روي مرفوعًا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة، عن النَّبيِّ ﷺ، أسندهما ابن مردويه[٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا معاذ بن رفاعة، حدَّثني عَليُّ بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمَامة الباهلي، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[٤].

وروى التِّرمذي نحوه، من طريق عُبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد به. وقال: حسن.

قلت: ولكن [«علي بن يزيد»، وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»][٥] فيهما ضعف.

وقال البخاري: قوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ «العرف»: المعروف: حدَّثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله [بن عُتبة][٦]: أنَّ ابن عبَّاس قال: قَدِمَ عُيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس -وكان من النَّفر الذين يدنيهم عمر- وكان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته -كُهولًا كانوا أو شبابًا- فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عبَّاس: فاستأذن الحُرُّ لعُيينة، فأذن له عمر رضي الله عنه فلما دخل عليه قال: هِي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هَمَّ أن يُوقِعَ به، فقال له الحُرُّ: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جَاوَزَها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله ﷻ. انفرد بإخراجه البخاري[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلى قراءةً، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع؛ أن سالم بن عبد الله بن عمر مُرَّ على عِيرٍ لأهل الشَّام وفيها جَرَسٌ، فقال: إنَّ هذا

---

(١) أُميّ: هو: «أُميُّ بن ربيعة المرادي الصيرفي» ثقة.

(٢) مرسل: رواه ابن جرير (٩/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٦٨٢).

(٣) لم يذكر أسانيد المرفوع، واكتفى بعزوها إلى ابن مردويه، وانظر ما بعده.

(٤) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٤٨)، والترمذي (٢٤٠٦)، وعلي بن يزيد وشيخه: ضعيفان كما ذكر ابن كثير، لكن للحديث طريقٌ أخرى عند أحمد (٤/ ١٥٨)، ورجاله ثقات، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٨٩١).

(٥) في (ح): «ولكن علي وشيخه أبو عبد الرحمن فيهما ضعف».

(٦) ليست في (ز). (٧) البخاري (٤٦٤٢، ٧٢٨٦).

منهيٌّ عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنَّما يُكره الجُلْجُل الكبير، فأمَّا مثل هذا فلا بأس به. فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[(١)].

وقول البخاري: «العرف: المعروف» نصَّ عليه عروة بن الزُّبير، والسُّدِّي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكىٰ ابن جرير أنه يقال: أوليته عرفًا[(٢)]، وعارفًا، وعارفة، كل ذلك بمعنىٰ: «المعروف». قال: وقد أمر الله نَبيَّه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطَّاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمرًا لنبيِّه ﷺ فإنَّه تأديبٌ لخلقه باحتمال مَنْ ظلمهم واعتدىٰ عليهم، لا بالإعراض عمَّن جَهِلَ الحق الواجب مِن حقِّ الله، ولا بالصفح عمَّن كفر بالله وجَهِلَ وحدانيته، وهو للمسلمين حرب.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله ﷻ بها نَبيَّه ﷺ، ودلَّه عليها.

وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنىٰ، فَسَبَكَهُ في بيتين فيهما جِنَاسٌ فقال:

خُـذِ العَفْـوَ وَأْمُـرْ بِعُـرْفٍ كَمَـا ... أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الجَـاهِلِينْ
وَلِـنْ فِـي الكَـلَامِ لِكُـلِّ الأَنَـامِ ... فَمُسْتَحْـسَنٌ مِـنْ ذَوِي الجَـاهِ لِـينْ

وقال بعضُ العلماء: النَّاس رجلان؛ فرجلٌ محسنٌ، فخُذْ ما عفا لك مِن إحسانه، ولا تُكلِّفْه فوق طاقته ولا مَا يحرجه. وإمَّا مسيءٌ، فمُرْهُ بالمعروف، فإن تمادىٰ علىٰ ضلاله، واستعصىٰ عليك، واستمر في جهله، فأَعْرِض عنه، فلعلَّ ذلك أن يَرُدَّ كيده، كما قال تعالىٰ: ﴿[ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ][(٣)] ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: هذه الوصية ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦]، وقال في هذه السُّورة الكريمة أيضًا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف» و«المؤمنون» و﴿حم﴾ «السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالىٰ يُرشِد فيهنَّ إلىٰ معاملة العاصي من الإنس[(٤)] بالمعروف والتي هي أحسن، فإنَّ ذلك يَكُفُّه عمَّا هو فيه من التَّمرُّد بإذنه تعالىٰ؛ [ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ثم يرشد تعالىٰ إلىٰ الاستعاذة به][(٥)] مِن شيطان الجانِّ، فإنَّه لا يَكُفُّه عنك الإحسان، وإنَّما يُرِيدُ هلاكك ودمارك بالكليَّة، فإنَّه عدوٌّ مبينٌ لك ولأبيك من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وإما يُغْضِبَنَّك من

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٨٦٨٨)، وفي الإسناد عبد الله بن نافع: ضعيف.
(٢) في (ز)، (ح): «معروفًا»، والمثبت موافق لما في «الطبري». (٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).
(٤) في (ز)، (ح): «الأمر». (٥) سقط من (ز)، والمثبت من (ح).

الشيطان غضبٌ يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين ويحملك على مجازاتهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: [إن الله الذي تستعيذ به مِن نزغ الشيطان][1] سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيءٌ، عليمٌ بما يذهب عنك نزغ الشَّيطان، وغير ذلك مِن أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يا رَبِّ، كَيْفَ بِالغَضَبِ؟» فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

قلت: وقد تقدَّم في أوَّل الاستعاذة حديث الرَّجلين اللَّذين تسابًا بحضرة النَّبيِّ ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». فقيل له، فقال: ما بي من جنون[3].

وأصل «النَّزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣]، و«العياذ»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشَّرِّ، وأما «الملاذ» ففي طلب الخير، كما قال [أبو الطيب][4] المُتَنَبِّي[5] في شعره:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول «التفسير» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المُتَّقين مِن عباده الَّذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زَجَر، أنَّهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم «طيف»، وقرأ آخرون: ﴿طَائِفٌ﴾[6]، وقد جاء فيه حديث[7]، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم مَن فسَّره بمَسِّ الشَّيطان بالصَّرع ونحوه، ومنهم مَن فسَّره بالهَمِّ بالذَّنب، ومنهم مَن فسَّره بإصابة الذَّنب.

---

(١) ليست في (ز)، وما أثبتناه موافق للطبري.
(٢) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ١٥٦) وهذا مرسل، وعبد الرحمن بن زيد: ضعيف.
(٣) تقدم في سورة الفاتحة. تخريج أحاديث الاستعاذة.
(٤) ليست في (ز).
(٥) في (ز)، (ح): «الحسن بن المتنبي»، وهو خطأ.
(٦) متواترة: قَرَأَ (طَيْفٌ) ابنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ وَوَافَقَهُمُ الْيَزِيدِيُّ وَالشَّنَبُوذِيُّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (طَائِفٌ).
(٧) ينظر: «الدر المنثور» (٦/ ٧١٥-٧١٦).

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصَحُوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأةٌ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وبها طيفٌ؛ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكِ، وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلا حِسَابَ عَلَيْكِ». فقالت: بل أصبر، ولا حساب عليَّ [(١)].

ورواه غير واحد من أهل السُّنن، وعندهم: قالت يا رسول الله، إني أُصْرَعُ وأَتَكَشَّفُ [(٢)]، فَادْعُ الله أن يشفيني. فقال «إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةِ؟» فقالت: بل أصبر، وَلِيَ الجنَّة، ولكن ادعُ اللهَ أن لا أَتَكَشَّف. فدعا لها، فكانت لا تتكشف [(٣)].

وأخرجه الحاكم في «مستدركه» وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يُخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في (ترجمة عمرو بن جامع) من «تاريخه»: أنَّ شابًّا كان يتعبَّد في المسجد، فهَوِيَتْهُ امرأةٌ، فدعته إلىٰ نفسها، وما زالت به حتَّىٰ كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فخرَّ مغشيًّا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فَعزَّىٰ فيه أباه، وكان قد دُفِنَ ليلًا فذهب فصلَّىٰ علىٰ قبره بمَنْ مَعَهُ، ثمَّ ناداه عمر فقال: يا فتىٰ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وأجابه الفتىٰ مِن داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنَّة مرتين [(٤)].

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: وإخوان الشَّياطين مِن الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]، وهم أتباعهم والمُسْتَمِعُون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: تُسَاعِدُهُم الشَّياطين علىٰ [فِعْلِ] [(٥)] المعاصي، وتسهلها عليهم وتُحَسِّنُهَا لهم.

وقال ابن كثير: المَدّ: الزِّيادة. يعني: يزيدونهم في الغَيِّ؛ يعني: الجهل والسَّفه.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه إن الشَّياطين تَمُدُّ، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك. كما قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، قال: لا الإنس يقصرون عمَّا يعملون [من السَّيِّئات] [(٦)]، ولا الشَّياطين تُمسك عنهم.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٤٤١)، وابن حبان (٢٩٠٩)، وفي بعض الألفاظ «لَمَم» والمقصود به: الصرع والجنون، وله شاهد من حديث ابن عبَّاس، رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(٢) خَشِيَت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر. «فتح الباري»: (١٠/ ١١٥).

(٣) هو في «سنن النسائي الكبرىٰ» (٤/ ٧٤٩٠) فقط من حديث ابن عبَّاس، ورواه البخاري ومسلم من حديثه، وفي اقتصاره علىٰ أصحاب السنن وهم. انظر التخريج السابق.

(٤) هكذا عزاه لابن عساكر في «تاريخه»، ولم يذكر سنده، والغالب أنه لا يصح.

(٥) ليست في (ز).

(٦) ليست في (ز).

قيل: معناه كما رواه العَوْفِي، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: هم الجنُّ، يوحون إلىٰ أوليائِهِمْ مِن الإنس، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يَسْأَمُون.

وكذا قال السُّدِّي وغيره: يعني إن الشَّياطين يمُدُّون أولياءَهُم من الإنس ولا تسأم مِن إمدادهم في الشَّرِّ؛ لأنَّ ذلك طبيعة لهم وسَجِيَّة[١]، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

قال ابن عبَّاس وغيره: تُزعجهم إلىٰ المعاصي إزعاجًا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرةً أخرىٰ: لولا أحدثتها فأنشأتها.

وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضبتها[٢]، قالوا: تخرجها مِن نفسك. وكذا قال قتادة، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال العَوْفِي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله عز وجل.

وقال الضَّحَّاك: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أَنْتَ فجئت بها مِن السَّماء.

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألَّا تُجْهِدَ نفسك في طَلَبِ الآيات [مِنَ الله][٣] حتىٰ نراها ونؤمن بها، قال الله تعالىٰ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدَّم إليه تعالىٰ في [شيءٍ][٤] وإنَّما أتَّبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليَّ، فإن بعث آيةً قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إيَّاها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنَّه حكيمٌ عليم.

ثمَّ أرشدهم إلىٰ أنَّ هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدَّلالات، وأصدق الحُجج والبيِّنات، فقال:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[٥]

---

(١) في (ح) زيادة: «لا يقصرون».

(٢) اقتضب الكلام: ارتجله من غير تهيئةٍ ولا إعدادٍ له.

(٣) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٤) ليست في (ز)، والمثبت من (ح).

(٥) قال الشيخ السعدي رحمه الله: والفرق بين الاستماع والإنصات، أنَّ الإنصات في الظَّاهر بترك التَّحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأمَّا الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبَّر ما يستمع، فإنَّ مَن لازم علىٰ هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدًىٰ متزايدًا، وبصيرةً في دينه.

لما ذكر تعالىٰ أنَّ القرآن بصائر للنَّاس وهدًىٰ ورحمةٌ أمر تعالىٰ بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، ولكن يتأكَّد ذلك في الصَّلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا»(١)، وكذلك رواه أهل السُّنن مِن حديث أبي هريرة وصححه مسلم بن الحجَّاج أيضًا، ولم يُخرجه في كتابه، وقال إبراهيم بن مسلم الهَجَري، عن أبي عِيَاض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلَّمون في الصَّلاة، فلمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، والآية الأخرىٰ، أُمِرُوا بالإنصات(٢).

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم، عن المُسَيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يُسَلِّم بعضنا علىٰ بعض في الصَّلاة: [سلامٌ علىٰ فلان، وسلامٌ علىٰ فلان](٣)، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤).

وقال أيضًا: حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا المُحَاربي، عن داود بن أبي هِنْد، عن بشير بن جابر قال: صلَّىٰ ابن مسعود، فسمع ناسًا يقرءون مع الإمام، فلمَّا انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟! ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، كما أمركم الله(٥).

قال: وحدَّثني أبو السائب، حدَّثنا حَفْص، عن أشْعَث، عن الزُّهْري قال: نزلت هذه الآية في فتًىٰ من الأنصار كان رسول الله ﷺ كُلَّما قَرأ شيئًا قَرأَهُ، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾(٦).

وقد روىٰ الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن أبي أُكَيمة الليثي، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعِي آنِفًا؟» [قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: «إِنِّي أَقُولُ: مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ؟!»](٧)، قال: فانتهىٰ الناس عن القِراءَة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقِراءَة من الصلوات حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ(٨).

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازي.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس عن الزهري قال: لا يَقْرَأُ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام،

---

(١) تقدم في المقدمة ذكر ما ورد في فضل الفاتحة.

(٢) ضعيف: إبراهيم بن مسلم الهَجَري: ضعيف. رواه الطبري (٩/ ١٦٢ - ١٦٣)، وابن أبي حاتم (٨٧٢٨).

(٣) ليست في (ز).

(٤) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٦٢)، وإسناده منقطع بين المسيب بن رافع وابن مسعود.

(٥) رواه الطبري (٩/ ١٦٣)، وابن أبي حاتم (٨٧٣٠)، وفي إسناد الطبري انقطاع، وصله ابن أبي حاتم وسنده صحيح.

(٦) ضعيف: فهو من رواية الزهري (تابعي) فالإسناد مرسل، وفيه أشعث بن سوار: ضعيف. رواه الطبري (٩/ ١٦٣).

(٧) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). وأنازع القرآن: أي: أُدَاخَل في القراءة وأُغالب عليها.

(٨) صحيح: أبو داود (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢)، والنسائي (٢/ ١٤٠)، وابن ماجة (٨٤٨).

تَكْفِيهِم قراءة الإمام وإن لم يُسْمِعْهُمْ صوته، ولكنَّهم يقرءون(١) فيما لا يجهر به سرًّا في أنفسهم، ولا يصلح لأحدٍ خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًّا ولا علانيةً، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قلتُ: هذا مذهب طائفةٍ مِن العلماء: أنَّ المأموم لا يجب عليه في الصَّلاة الجهريَّة قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحدُ قولي الشافعي -وهو القديم- كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدِّمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفةٍ من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب علىٰ المأموم قراءة أصلًا في السِّرِّيَّة ولا الجهرِيَّة؛ لما ورد في الحديث: «مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَتُهُ لَهُ قِرَاءَةٌ». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن جابر مرفوعًا، وهو في «موطأ مالك» عن وَهْبِ بن كَيْسَان عن جابر موقوفًا، وهذا أصح(٢). وهذه المسألة مبسوطةٌ في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مُصَنَّفًا علىٰ حِدَةٍ واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السِّرِّيَّة والجهريَّة أيضًا(٣)، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: في الصلاة المفروضة(٤).

وكذا رُوِيَ عن عبد الله بن المُغَفل.

وقال ابن جرير: حدَّثنا حُمَيْد بن مَسْعَدة، حدَّثنا بَشْرُ بن المُفضل، حدَّثنا الجُريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيزَ قال: رأيتُ عُبيد بن عُمير، وعطاء بن أبي رَبَاح يتحدثان، والقاصُّ يَقُصُّ، فقلت: ألا تستمعان إلىٰ [الذكر](٥) وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليَّ، ثم أقبلا علىٰ حديثهما. قال: فأعدتُ فنظرا إليَّ، وأقبلا علىٰ حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾(٦).

وقال سفيان الثَّوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: في الصلاة. وكذا رواه غير واحدٍ عن مجاهد.

وقال عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلَّم.

وكذا قال سعيد بن جُبير، والضَّحَّاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشَّعْبي، والسُّدِّي، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصَّلاة.

---

(١) في (ز): «يجهرون»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٢) تقدَّم في المقدمة: ذكر ما ورد في الفاتحة.

(٣) وهو المشهور بـ: «جزء القراءة خلف الإمام»، وللبيهقي أيضًا مؤلف بنفس الاسم. وكلاهما مطبوع.

(٤) الطبري (٩/ ١٦٤). (٥) ليست في (ز)، والمثبت من (ح). (٦) الطبري (٩/ ١٦٣).

وقال شُعبَة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حُرَّة يحدث أنَّه سمع مجاهدًا يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: في الصَّلاة والخطبة يوم الجمعة.

وكذا روىٰ ابن جريج عن عطاء مثله.

وقال هُشَيْم، عن الربيع بن صُبيح، عن الحَسَن قال: في الصَّلاة وعند الذِّكر.

وقال ابن المبارك، عن بقِيَّة: سمعت ثابت بن عَجْلان يقول: سمعت سعيد بن جُبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: الإنصات يوم الأضحىٰ، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصَّلاة.

وهذا اختيار ابن جرير أنَّ المراد بذلك: [الإنصات في الصلاة وفي الخطبة؛ لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات](١) خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال عبد الرزَّاق، عن الثوري، عن لَيْث، عن مجاهد، أنَّه كَرِهَ إذا مَرَّ الإمام بآيةِ خوفٍ أو بآيةِ رحمةٍ أن يقولَ أحدٌ من خلفه شيئًا، قال: السُّكوت.

وقال مبارك بن فَضَالة، عن الحسن: إذا جلست إلىٰ القُرآنِ فأنصت له.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا عبَّاد بن مَيْسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». تفرَّد به أحمد رحمه الله(٢).

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

يأمر تعالىٰ بذكره أوَّل النَّهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوَقْتَيْنِ في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، وقد كان هذا قبل أن تفرض الصَّلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكيَّةٌ.

وقال هاهنا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ -وهو: أوائل النهار- ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ جمع «أصيل»، كما أن «الأيمان» جمع «يمين».

وأمَّا قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربَّك في نفسك رهبةً ورغبةً، وبالقول لا جهرًا؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وهكذا يُستَحبُّ أن يكون الذِّكر لا يكون نداءً ولا جهرًا بليغًا؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريبٌ ربُّنا فنُناجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فنُنَادِيه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من (ح).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٨٤٧٥)، وفيه عباد بن ميسرة: ضعيف، وفيه علَّة أخرىٰ، وهي: أنَّ الحسن لم يسمع من أبي هريرة؛ فالإسناد منقطع.

فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦][(١)].

وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري قال: رفع النَّاس أصواتهم بالدُّعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: **«أيُّها النَّاس، ارْبعُوا[(٢)] علىٰ أَنْفسِكُمْ، فإنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غَائِبًا؛ إنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»**[(٣)].

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سَمِعُوا القرآن سَبُّوه، وسَبُّوا مَن أنزله، و[سَبُّوا][(٤)] مَن جاء به؛ فأمره الله تعالىٰ ألَّا يجهر به؛ لئلَّا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وقد زعم ابن جرير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أنَّ المراد بهذه الآية: أمر السَّامع للقُرآن في حالِ استماعه بالذِّكر علىٰ هذه الصِّفة. وهذا بعيدٌ مُنافٍ للإنصات المأمور به، ثمَّ المراد بذلك في الصَّلاة، كما تقدَّم، أو الصَّلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذِّكر باللِّسان، سواء كان سرًّا أو جهرًا، فهذا الذي قالاه لم يُتابعَا عليه، بل المراد: الحضُّ علىٰ كثرة الذِّكر من العباد بالغدوِّ والآصال؛ لئلَّا يكونوا من الغَافِلين؛ ولهذا مدح الملائكة الَّذين يُسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يَفتُرُون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾، وإنَّما ذكرهم بهذا ليتشبَّه بهم في كثرةِ طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السُّجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ كما جاء في الحديث: **«ألا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ [المَلائِكَةُ][(٥)] عِنْدَ رَبِّهَا، يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ في الصَّفِّ»**[(٦)].

وهذه أوَّل سجدةٍ في القرآن، ممَّا يُشْرَع لتَالِيها ومُستمعها السُّجود بالإجماع. وقد ورد في حديثٍ رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه عدَّهَا في سَجَدَات القرآن[(٧)].

آخِرُ تفسير «سورة الأعراف»، ولله الحمد والمنَّة.

---

(١) ضعيف: تقدَّم: انظر تفسير سورة البقرة الآية (١٨٦).
(٢) أي: ارفقوا.
(٣) البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢).
(٤) ليست في (ز).
(٥) ليست في (ز)، والمثبت من «صحيح مسلم».
(٦) مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، والنسائي (٢/ ٩٢)، وابن ماجة (٩٢٢).
(٧) رواه ابن ماجة (١٠٥٦)، وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٥٣): هذا إسناد ضعيف لضعف عثمان بن فائد.
قلت: لكنه متابع عند البيهقي (٢/ ٣١٣).

سُورَةُ الأَنفَال

تفسير سورة الأنفال

وهي مَدَنِيَّةٌ آياتها سبعون وست آيات، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدىٰ وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفًا، والله أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ[1] قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾

قال البخاري: قال ابن عبَّاس الأنفال: الغنائم: حدَّثنا محمَّد بن عبد الرحيم، حدَّثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عبَّاس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر[2].

أما ما عَلَّقه عن ابن عبَّاس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصةً، ليس لأحدٍ منها شيءٌ[3].

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضَّحَّاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد: إنَّها الغنائم.

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لَبِيدٌ[4]:

إِنَّ تَقْوَىٰ رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ... وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ[5]

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: وقع عند الزمخشري أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، لمن الحكم فيها للمهاجرين أم للأنصار، أم لهم جميعـًا؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول، وليس لأحدٍ فيها حكم.
تأثر الزمخشريَّ أبو السعود في سوقه لما ذكر، وزاد عليه اعتماده له، بتطويل مملّ، ولا أدري من أين سرت لهم هذه الرواية. فإن رواة الآثار لم يخرجوها في «صحاحهم» ولا «سننهم»، بل ولا أصحاب السير، كابن إسحاق وابن هشام، وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم علىٰ الغنائم، ويتنازعوا ولايتها، والرسول بين أظهرهم؟ ومتىٰ عهد ذلك من سيرتهم؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ! ولكن هو الرأي قاتله الله! ونبذ كتب السنة، والتقليد البحت، الذي لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه علىٰ القدم، حيث يكون مطواعـًا لآراء غيره، منقادًا لها مصدقـًا ما ينطق به فمه، غثًّا كان أو سمينـًا. اللهم نوِّر بصيرتنا بفضلك.

(٢) البخاري (٤٦٤٥).

(٣) رواه البخاري تعليقًا (٨/ ٣٠٦)، ووصله الطَّبري (٩/ ١٦٩)، وإسناده منقطع.

(٤) إسناده مسلسل بالضُّعفاء. رواه الطبري (٩/ ١٦٩).

(٥) البيت في «اللسان»: نفل.

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمَّد قال: سمعت رجلًا يسأل ابن عبَّاس عن «الأنفال»، فقال ابن عبَّاس ﵄: الفَرَس من النَّفل، والسَّلَب من النَّفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عبَّاس ذلك أيضًا. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتىٰ كاد يُحرِجُه، فقال ابن عبَّاس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمَّد قال: قال ابن عبَّاس: كان عمر بن الخطاب ﵁ إذا سئل عن شيءٍ قال: لا آمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عبَّاس: والله ما بعث الله نبيَّه ﷺ إلا زاجرًا آمرًا مُحِلًّا مُحرِّمًا. قال القاسم: فَسُلِّطَ علىٰ ابن عبَّاس رجلٌ يسأله عن الأنفال، فقال ابن عبَّاس: كان الرَّجل ينفل فرس الرَّجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتىٰ أغضبه، فقال ابن عبَّاس: أتدرون ما مَثَلُ هذا؟ مثل صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتىٰ سالت الدِّماء علىٰ عقبيه -أو علىٰ رجليه- فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك(٢).

وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عبَّاس: أنه فسَّر النَّفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَبٍ أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلىٰ فهم كثيرٍ من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾(٣).

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزَّحف، إنَّما النفل قبل التقاء الصُّفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما(٤).

وقال ابن المبارك وغير واحدٍ، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شَذَّ من المشركين إلىٰ المسلمين في غير قتال، من دابَّةٍ أو عبدٍ أو أَمَةٍ أو متاعٍ، فهو نفل للنَّبيِّ ﷺ يصنع به ما يشاء.

وهذا يقتضي أنَّه فسَّر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفَّار مِن غيرِ قتالٍ.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السَّرايا، حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا علي ابن صالح بن حيي قال: بلغني في قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: السرايا.

ويعني هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة علىٰ قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرَّح بذلك

---

(١) صحيح: رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٣٦٣)، والطبري (٩/ ١٧٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» ومن طريقه رواه الطبري (٩/ ١٧٠).

(٣) مرسل: رواه ابن جرير (٩/ ١٧٠)، وإسناده مرسل.

(٤) رواه ابن أبي حاتم (٨٧٦٤).

الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزِّيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمَّد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخي عُمَيْر، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذَا الكَتِيفَةِ[(١)]»، فأتيت به نبي الله ﷺ، فقال: «اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي القَبَضِ[(٢)]». قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله مِن قتل أخي وأخذ سلبي. قال: فما جاوزت إلا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ فَخُذْ سَيْفَكَ[(٣)]».

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لا لَكَ وَلا لِي، ضَعْهُ» قال: فوضعته، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيفُ اليوم مَن لا يبلي بلائي! قال: رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئًا؟ قال: «كُنْتَ سَأَلْتَنِي السَّيْفَ، وَلَيْسَ هُوَ لِي وَإِنَّهُ قَدْ وُهِبَ لِي، فَهُوَ لَكَ» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[(٤)].

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفًا يوم بدر، فأتيت النَّبيَّ ﷺ فقلت: نَفِّلْنيه. فقال: «ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» مرتين، ثم عاودته، فقال النَّبيُّ ﷺ: «ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[(٥)].

وتمام الحديث في نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] وآية الوصية. وقد رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث شعبة به.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمَرْزُبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النَّفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئًا يُسأَله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسولَ الله ﷺ فأعطاه إيَّاه[(٦)]

---

(١) الكَتِيفة: السَّيف العريض. (٢) القَبَض - بمعنى المقبوض-: ماجمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

(٣) أحمد (١/ ١٨٠)، ورجاله ثقات: إلَّا أنَّ فيه انقطاعًا بين محمَّد بن عبد الله وسعد، ويشهد له الرواية الآتية رواه أحمد (١/ ١٧٨)، وأبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) حسن: انظر التعليق السابق. (٥) مسلم (١٧٤٨)، والطيالسي (٢٠٨).

(٦) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ١٧٣ - ١٧٤)، وفيه جهالة بعض بني ساعدة، وقد ساق له طريقًا آخر وفيه يحيى بن عمر، قال فيه أبو حاتم: شيخ مجهول «الجرح والتعديل» (٩/ ١٧٨).

ورواه ابن جرير من وجه آخر.

سبب آخر في نزول الآية:

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسىٰ، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا -أصحابَ بدرٍ- نزلت، حين اختلفنا في النَّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلىٰ رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول: عن سواء(١).

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا معاوية بن عمرو(٢)، أخبرنا أبو إسحاق(٣)، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسىٰ، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقىٰ النَّاس، فهزم الله تعالىٰ العدو، فانطلقت طائفةٌ في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفةٌ علىٰ العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غرَّة، حتىٰ إذا كان اللَّيل، وَفَاءَ النَّاس بعضهم إلىٰ بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحدٍ فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحقَّ به منَّا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: [لستم بأحقَّ منَّا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ](٤)، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين -وكان رسول الله إذا غار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكلُّ الناس راجعًا، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «لِيَرُدَّ قَوِيُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ ضَعِيفِهِمْ»(٥).

ورواه الترمذي وابن ماجة، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسن. ورواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم: صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروىٰ أبو داود والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه -واللفظ له- وابن حبان، والحاكم مِن طرق، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَنَعَ

---

(١) حسن: رواه أحمد (٥/ ٣٢٢)، والرِّواية الثَّانية عند أحمد (٥/ ٣٢٤)، وابن حبَّان (٤٨٥٥)، وأخرجه مختصرًا أحمد (٥/ ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤)، والترمذي (١٥٦٦)، وحسنه، والنسائي (٧/ ١٣١)، وابن ماجة (٢٨٥٢)، وفي الإسناد سليمان بن موسىٰ وعبد الرحمن بن الحارث بن عياش.
أمَّا الأوَّل: فقد قال ابن حجر: صدوق فَقِيه في حديثه بعض لين وخولط قبل موته بقليل.
وأمَّا الثَّاني: فصدوقٌ له أوهام، والحديث حسَّنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في «تعليقه علىٰ ابن حبان».

(٢) في نسخ «معاوية بن عُمر» وهو خطأ، والصَّواب ما أثبتناه.

(٣) في (ز): «ابن إسحاق»، وهو خطأ.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٥) انظر التخريج السابق.

كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»، فتسارع[(١)] في ذلك شُبَّان الرجال، وبقي الشُّيوخ تحت الرَّايات، فلما كانت المغانم، جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنَّا كنَّا ردءًا لكم، لو انكشفتم[(٢)] لفئتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاسٍ قال: لما كان يوم بدرٍ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَتَىٰ بِأَسِيرٍ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا». فجاء أبو اليَسَر بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبقَ لأصحابك شيءٌ، وإنَّه لم يمنعنا مِن هذا زهادةٌ في الأجر، ولا جبنٌ عن العدو، وإنَّما قُمْنَا هذا المقام محافظةً عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلىٰ آخر الآية [الأنفال: ٤١][(٤)].

وقال الإمام أبو القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الأموال الشرعيَّة وبيان جهاتها ومصارفها»: أمَّا الأنفال: فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون مِن أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولىٰ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدرٍ علىٰ ما أراده الله مِن غير أن يُخمِّسَها علىٰ ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولىٰ.

قلت: هكذا روىٰ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس سواء، وبه قال مجاهد وعكرمة والسُّدِّي.

وقال ابن زيد: ليست منسوخةً، بل هي محكمةٌ.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع الغنائم، إلَّا أنَّ الخمس منها مخصوصٌ لأهله علىٰ ما نزل به الكتاب، وجرت به السُّنَّة. ومعنىٰ الأنفال في كلام العرب: كلُّ إحسانٍ فعله فاعلٌ تفضلًا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النَّفل الذي أحلَّه الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنَّما هو [شيء][(٥)] خصَّه الله به تطولًا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمةً علىٰ الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمَّة فهذا أصل النفل.

قلت: شاهد هذا في «الصحيحين» عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي» فذكر الحديث، إلىٰ أن قال: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»، وذكر تمام الحديث[(٦)].

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمىٰ ما جعل الإمام للمقاتِلَةِ نفلًا وهو تفضيله بعض الجيش علىٰ بعضٍ بشيءٍ سوىٰ سهامهم، يفعل ذلك بهم علىٰ قدر الغناء عن الإسلام والنِّكاية في العدو، وفي النَّفل الذي

---

(١) في (ز): «فتنازع». (٢) انكشفتم: انهزمتم.

(٣) صحيح: أبو داود (٢٧٣٧)، وابن جرير (٩/ ١٧١ - ١٧٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٩٧).

(٤) صحيح من غير هذه الطريق: رواه أبو داود (٢٧٣٨) من طريق أخرىٰ غير الطريق التي ذكرها المؤلف. فإنَّ الطَّريق التي ذكرها فيها الكلبي، وهو مُتَّهمٌ بالكذب، لكن رواية أبي داود إسنادها صحيح.

(٥) سقط من (ز).

(٦) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩ - ٢١١)، وأحمد (٣/ ٣٠٤).

ينفله الإمام سنن أربع، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ موضع غير موضع الأخرىٰ:

فإحداهنَّ: في النَّفل لا خمس فيه، وذلك السَّلب.

والثَّانية: في النَّفل الذي يكون مِن الغنيمة بعد إخراج الخُمُس، وهو أن يوجه الإمام السَّرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسَّريَّة مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة: في النَّفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلُّها، ثم تخمَّس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه علىٰ قدر ما يرىٰ.

والرَّابعة: في النَّفل في جملة الغَنِيمَة قبل أن يخمَّس منها شيءٌ، وهو أن يعطىٰ الأَدِلَّاء ورعاة الماشية والسَّوَّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الرَّبيع: قال الشَّافعي: الأنفال: ألا يخرج مِن رأس الغنيمة قبل الخمس شيءٌ غير السَّلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثَّاني مِنَ النَّفل هو شيءٌ زيدوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ له خمس الخمس من كل غنيمةٍ، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدَّت شوكتهم، وقَلَّ مَن بإزائه من المسلمين، نفل منه اتِّباعًا لسُنَّة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

والوجه الثَّالث من النَّفل: إذا بعث الإمام سريَّةً أو جيشًا، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئًا فله بعد الخمس، فذلك لهم علىٰ ما شرط الإمام؛ لأنَّهم علىٰ ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهىٰ كلامه.

وفيما تقدَّم مِن كلامه وهو قوله: «إنَّ غنائم بدرٍ لم تخمَّس»، نظر. ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللَّذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانًا شافيًا ولله الحمد [والمنة][١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتَّقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهُدَىٰ والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم علىٰ ما أراده الله، فإنَّه قسَّمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عبَّاس: هذا تحريج[٢] من اللهِ [علىٰ المؤمنين][٣] أن يتَّقوا الله ويُصْلِحُوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد.

وقال السُّدِّي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا. ولنذكر هاهنا حديثًا أورده الحافظ أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنىٰ الموصلي رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده»، فإنَّه قال: حدَّثنا مجاهد بن موسىٰ، حدَّثنا عبد الله بن بكر[٤]، حدَّثنا عباد بن شيبة الحبطي عن سعيد بن أنس، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله

---

(١) سقط من (ز).
(٢) التحريج: التضييق.
(٣) سقط من (ز)، وهو مثبت من «تفسير الطبري».
(٤) في (ز): «بكير»، وهو خطأ، وعبد الله بن بكر هو السهمي.

ﷺ جالسٌ، إذ رأيناه ضحك حتىٰ بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رَجُلانِ جَثَيَا مِنْ أُمَّتِي بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ، خُذْ لِي مَظْلِمَتِي مِنْ أَخِي. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلِمَتَكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ. قَالَ: رَبِّ، فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي» قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَىٰ مَنْ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فِي الجِنَانِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَرَىٰ مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ، لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا لِمَنْ أَعْطَىٰ الثَّمَنَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ. قَالَ: مَاذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: تَعْفُو عَنْ أَخِيكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ». ثم قال رسول الله ﷺ: «فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ(٢) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيءٌ من ذكر الله عند [أداء](٣) فرائضه، ولا يؤمنون بشيءٍ من آيات الله، ولا يتوكَّلون، ولا يُصلُّون إذا غابوا، ولا يُؤدُّون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالىٰ أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول: تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت؛ أي: فزعت وخافت. وكذا قال السُّدِّي وغير واحدٍ.

وهذه صفة المؤمن حقَّ المؤمن، الذي إذا ذكر الله وَجِلَ قلبُهُ؛ أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السُّدِّي يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

---

(١) منكر: رواه الحاكم (٤/ ٢٧٦)، وفيه عباد بن شيبة، قال ابن حبَّان: منكر الحديث جدًّا علىٰ قلة روايته، لا يجوز الاحتجاج به، لما انفرد به من المناكير.

(٢) قال الشيخ أبو بكر الجزائري حفظه الله: قيل لبعضهم: متىٰ تعرف أنه استجيب دعاؤك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي ووجل قلبي، وفاضت عيناي بالدموع، وقالت عائشة ﵂: ما الوجل في القلب إلا كضَرَمَة السَّعفة، فإذا وجل أحدكم فَلْيَدْعُ عند ذلك.

(٣) سقط من (ز).

قال: هو الرجل يريد أن يظلم -أو قال: يَهُمُّ بمعصيةٍ- فيقال له: اتَّقِ الله فَيَجِلُ قلبه.

وقال الثوري أيضًا: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب إحراق السَّعفة، أما تجد له قُشَعْريرةً؟ قال: بلىٰ. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإنَّ الدُّعاء يُذْهِبُ ذلك[1].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدلَّ البخاري وغيره من الأئمَّة بهذه الآية وأشباهها، علىٰ زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكىٰ الإجماع علىٰ ذلك غير واحدٍ من الأئمة، كالشافعي، وأحمد ابن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصًىٰ في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنَّة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إيَّاه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه المتصرِّف في الملك، وحده لا شريك له، ولا مُعقِّب لحكمه، وهو سريعُ الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكُّل علىٰ الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يُنبِّه بذلك علىٰ أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالىٰ.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة علىٰ مواقيتها ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حَيَّان: إقامتها: المحافظة علىٰ مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ، هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزَّكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجبٍ ومستحبٍّ، والخلق كلهم عيال الله[2]، فأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا ممَّا أعطاكم الله، فإنَّما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصِّفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الحضرمي، حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا زيد ابن الحُبَاب، حدَّثنا ابن لَهِيعَة، عن خالد بن يزيد السَّكْسَكِيِّ، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمَّد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري؛ أنَّه مَرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟»

---

(١) الطبري (٩/ ١٧٩)، وعنده عن «أبي الدرداء»، وليس أم الدرداء، وفي الإسناد شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: يعولهم.

قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا. قال: «انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فقال: عَزَفَت نفسي عن الدُّنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأنِّي أنظر إلىٰ عرش ربِّي بارزًا، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل الجنَّة يتزاورون فيها، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل النَّار يَتضاغَوْن فيها، فقال: «يَا حَارِثُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ» ثلاثًا(١).

وقال عمرو بن مُرَّة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنما أُنزلَ القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيدٌ حقًّا، وفي القوم سادة، وفلانٌ تاجرٌ حقًّا، وفي القوم تجار، وفلانٌ شاعرٌ حقًّا، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازلُ ومقاماتٌ ودرجاتٌ في الجنَّات، كما قال تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السَّيِّئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنَّة بعضهم فوق بعض، فيرىٰ الَّذي هو فوق فضله علىٰ الَّذي هو أسفل منه، ولا يرىٰ الَّذي هو أسفلُ أنه فُضِّل عليه أحدٌ.

ولهذا جاء في «الصحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بَلَىٰ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»(٢).

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عَطية، عن أبي سعيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ [أَهْلَ](٣) الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا»(٤)(٥).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسِّرون في السَّبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شُبِّه به في الصَّلاح للمؤمنين، اتِّقاؤهم ربَّهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. ثم روىٰ عن عكرمة نحو هذا.

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبراني (٣/ ٣٣٦٧)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٢) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١). (٣) سقط من (ز).

(٤) ضعيف بهذا السياق: رواه أحمد (٣/ ٢٦)، وأبو داود (٣٩٨٧)، والترمذي (٣٦٥٩)، وابن ماجة (٩٦)، وفيه عطيَّة العوفي وهو شيعي مدلس.

(٥) أنعما: زادا وفضلا.

ومعنىٰ هذا أنَّ الله تعالىٰ يقول: كما أنّكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلىٰ قَسْمِه وقَسْم رسوله ﷺ فقسمها علىٰ العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التَّامَّة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلىٰ الأعداء من قتال ذات الشوكة -وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم- فكان عاقبة كراهتكم للقتال -بأن قدَّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم علىٰ غير ميعاد- رَشَدًا وهدًىٰ، ونصرًا وفتحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنىٰ ذلك: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ علىٰ كرهٍ مِن فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقِتَال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبيَّن لهم، ثم روىٰ نحوه عن مجاهد أنَّه قال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق.

وقال السُّدِّي: أنزل الله في خروجه إلىٰ بدر ومجادلتهم إيَّاه فقال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعِير، ولم تعلمنا قتالًا فنستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنَّما خرج من المدينة طالبًا لعيرِ أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنَّها صادرةٌ من الشَّام، فيها أموالٌ جزيلةٌ لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا وطلب نحو السَّاحل مِن علىٰ طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيرًا إلىٰ مكَّة، فنهضوا في قريبٍ مِن ألف مُقَنَّع[1]، ما بين التسعمائة إلىٰ الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلىٰ سيف البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدرٍ، وجمع الله المسلمين والكافرين علىٰ غير ميعاد؛ لما يريد الله تعالىٰ من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم علىٰ عدوهم، والتَّفرقة بين الحقِّ والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النَّفير، أوحىٰ الله إليه يَعِدُهُ إحدىٰ الطائفتين: إمَّا العير وإمَّا النَّفير، ورَغِبَ كثيرٌ من المسلمين إلىٰ العير؛ لأنَّه كسبٌ بلا قتالٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في «تفسيره»: حدَّثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدَّثنا بكر بن سهل، حدَّثنا عبد الله بن يوسف، حدَّثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ

(١) المقنع: المتغطِّي بالسِّلاح، وقيل: الذي يلبس الخوذة.

فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذِهِ العِيرِ لَعَلَّ اللهَ يُغْنِمُنَاهَا؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سِرْنا يومًا أو يومين قال لنا: «مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ؟» فقلنا: لا والله، ما لنا طاقةٌ بقتال العدو، ولكنَّا أردنا العير، ثم قال: «مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذًا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] قال: فتمنينا -معشر الأنصار- أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا مِن أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله علىٰ رسوله ﷺ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ وذكر تمام الحديث(١).

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لهيعة بنحوه.

وروىٰ ابن مَرْدوَيْه أيضًا من حديث محمَّد بن عمرو بن عَلْقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلىٰ بدر، حتىٰ إذا كان بالرَّوْحاء، خطب الناس فقال: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بَلَغَنَا أنَّهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر. ثم خطب الناس فقال: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيَّانا تريد؟ فوالذي أكرمك [بالحق](٢) وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت [بنا](٣) حتىٰ تأتي (بَرْك الغماد)(٤) من ذي يَمَنٍ لَنَسِيرَنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسىٰ ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مُتَّبِعون، ولعلَّك أن تكون خرجت لأمرٍ، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامضِ له، فَصِلْ حبال من شئتَ، واقطع حبال من شئتَ، وعَادِ من شئتَ، وسَالِمْ من شئتَ، وخذ من أموالنا ما شئتَ، فنزل القرآن علىٰ قول سعد: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الآيات(٥).

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: لما شاور النَّبيُّ ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبئوا للقتال، وأمرهم بالشَّوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾(٦).

وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال. [وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ

---

(١) رواه الطبراني (٤/ ١٧٤)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٤). قلت: فيه بكر بن سهل ضعَّفه النَّسائي، ومنهم مَن وضعه، وقال الحافظ: حمل الناس عنه وهو مقارب الحال انظر: «لسان الميزان» لكن يشهد له الرواية المذكورة بعده من حديث علقمة الليثي، فالحديث حسنٌ إن شاء الله.

(٢) سقط من (ز).

(٣) سقط من (ز).

(٤) برك الغِماد: موضع وراء مكة بخمس ليالٍ، يلي البحر.

(٥) انظر التخريج السابق.

(٦) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٨٣)، وهو مسلسل بالضعفاء.

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾][١] أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم. وقال السُّدِّي: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: بعد ما تبيَّن لهم أنَّك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عنىٰ بذلك المشركين. حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وَهْب قال: قال ابن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ حين يُدْعون إلىٰ الإسلام ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر.

ثم قال ابن جرير: ولا معنىٰ لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عبَّاس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين.

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدلُّ عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا يحيىٰ بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدَّثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العبَّاس بن عبد المطلب -قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه- ثم اتفقا: إنَّه لا يصلح لك، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إنَّما وعدك إحدىٰ الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك[٢]. إسناد جيد، ولم يخرجه.

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطَّائفة التي لها الشَّوكة والقتال، ليُظَفِّرَكم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبًا علىٰ الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبُّون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمَّد بن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثني محمَّد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عُرْوَة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عبَّاس -كل قد حدَّثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر- قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلًا من الشام نَدب المسلمين إليهم، وقال: «**هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُنْفِلَكُمُوهَا**» فانتدب الناسُ، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنَّهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقىٰ حربًا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار،

---

(١) سقط من (ز).

(٢) ضعيف: أحمد (١/ ٢٢٩)، والترمذي (٣٠٨٠)، وحسَّنه، وفيه سماك وروايته عن عكرمة مضطربة، فالإسناد ضعيف.

ويسأل مَن لقي من الركبان؛ تخوفًا علىٰ أمر النَّاس، حتىٰ أصاب خبرًا من بعض الركبان: أن محمَّدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلىٰ أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم إلىٰ أموالهم، ويخبرهم أن محمَّدًا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلىٰ مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتىٰ بلغ واديًا يقال له: «ذَفِرَان»، فخرج منه حتىٰ إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار النَّبيُّ ﷺ النَّاسَ، وأخبرهم عن قريشٍ، فقام أبو بكر ﵁ فقال فَأَحْسَنَ، ثم قام عمر ﵁ فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلىٰ «بَرْكِ الغِماد» -يعني مدينة الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتىٰ تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخيرٍ، ثم قال رسول الله ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ» -وإنَّما يُرِيدُ الأنصار- وذلك أنَّهم كانوا عَدد الناس[١]، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَامك حتىٰ تصل إلىٰ دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمَمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف ألا تكون الأنصار ترىٰ عليها نصرته إلا ممَّن دهمه بالمدينة، من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلىٰ عدوٍّ من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أَجَلْ» قال: فقال: فقد آمنَّا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا علىٰ السَّمع والطَّاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر[٢] فخضته لخضناه معك، ما يتخلَّف منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله [أن][٣] يُرِيكَ منا ما تَقَرُّ به عينك، فسِرْ بنا علىٰ بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك، ثم قال: «سِيرُوا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَىٰ مَصَارِعِ القَوْمِ»[٤].

وروىٰ العَوْفي عن ابن عبَّاس نحو هذا، وكذلك قال السُّدِّي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمَّد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

---

(١) أي: جمهورهم. (٢) استعرض البحر أو الخطر: أقبل عليه لا يبالي خطره.
(٣) سقط من (ز).
(٤) حسن: رواه ابن جرير (٩/ ١٨٥)، وقد صرَّح ابن إسحاق بالتَّحديث فأمن تدليسه، وذلك في الرواية التي ساقها المصنف إلا ما يخشىٰ من إدخاله رواية المبهمين في قوله: «وغيرهم من علمائنا» فإنه لم يبين من هم؟

قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نوح قُراد، حدَّثنا عكرمة بن عمَّار، حدَّثنا سماك الحَنَفي أبو زُميل، حدَّثني ابن عبَّاس، حدَّثني عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدرٍ نظر النَّبيُّ ﷺ إلىٰ أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلىٰ المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النَّبيُّ ﷺ القبلة، [ثم مد يديه](1) وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللَّهُمَّ [أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ]**(2) **أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ أَبَدًا**»، قال: فما زال يستغيث ربه ﷻ ويدعوه حتىٰ سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فَرَدَّاهُ(3)، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلمَّا كان يومئذٍ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلًا وأسر منهم سبعون رجلًا واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعليًّا وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرىٰ أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا علىٰ الكفَّار، وعسىٰ أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا تَرَىٰ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟**» قال: قلت: والله ما أرىٰ ما رأىٰ أبو بكر، ولكني أرىٰ أن تُمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتُمكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكن حمزة من فلان -أخيه- فيضرب عنقه، حتىٰ يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمَّتهم وقادتهم، فَهَوَىٰ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد -قال عمر- غدوت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، [أخبرني](4) ما يُبْكِيكَ أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاءً بَكَيتُ، وإن لم أجد بكاءً تَبَاكيتُ لبكائكما! قال النَّبيُّ ﷺ: «**لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الفِدَاءَ، قَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» -لشجرة قريبة-، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾

إلىٰ قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحلَّ لهم الغنائم، فلما كان يوم أحدٍ من العام المقبل، عوقبوا مما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ، وكُسِرَت رباعيته، وهُشِّمت البيضة علىٰ رأسه، وسال الدَّم علىٰ وجهه، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء(5).

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جرير، وابن مَرْدويه، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني.

---

(١) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٣) رَدَّاهُ تردية: ألبسه الرداء.
(٤) سقط من (ز)، وهو مثبت من «المسند».
(٥) مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، وأحمد (١/ ٣٠).

وهكذا رَوىٰ علي بن أبي طلحة والعَوْفي، عن ابن عبَّاس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أنها في دعاء النَّبيِّ ﷺ وكذا قال يزيد بن يُثَيع، والسُّدِّي، وابن جريج.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النَّبيُّ ﷺ يناشد ربَّه أشد النِّشدة يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، بعض نِشْدَتِك، فوالله ليَفِيَنَّ الله لك بما وعدك[(١)].

وقال البخاري في «كتاب المغازي»، باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ حدَّثنا أبو نُعَيم، حدَّثنا إسرائيل، عن مُخارق، عن طارق [بن شهاب][(٢)] قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مَشْهدًا لأن أكون صاحبه أحبُّ إلي مما عدل به: أتىٰ النَّبيَّ ﷺ وهو يدعو علىٰ المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النَّبيَّ ﷺ أشرق وجهه وسَرَّه -[يعني قوله][(٣)(٤)].

وحدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن حَوْشَب، حدَّثنا عبد الوهاب، حدَّثنا خالد الحَذَّاء، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ**»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][(٥)].

ورواه النَّسائي عن بُندار عن عبد الوهاب بن[(٦)] عبد المجيد الثقفي.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا، كما قال هارون بن عنترة[(٧)] عن ابن عبَّاس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين.

ويحتمل أن يكون المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم؛ أي: نجدة لكم، كما قال العوفي، عن ابن عبَّاس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول: المدَدَ، كما تقول: ائْتِ الرَّجل فزده كذا وكذا.

وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مُمِدِّين.

وقال أبو كُدَيْنة، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس: ﴿مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل ملك ملك.

وفي روايةٍ بهذا الإسناد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم علىٰ أثر بعض. وكذا قال أبو ظِبْيان، والضَّحَّاك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنىٰ، حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا يعقوب بن محمَّد الزهري، حدَّثني عبد العزيز بن عمران، عن الزَّمْعِي، عن أبي الحويرث، عن محمَّد بن جُبَيْر، عن علي رضي الله عنه قال: نزل

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبري (٩/ ١٩٠)، وإسناده مرسل وإنَّما الصَّحيح ما تقدَّم في حديث ابن عبَّاس السابق.

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز). (٤) البخاري (٣٩٥٢).

(٥) البخاري (٣٩٥٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٥٥٧). (٦) في (ز): «عن»، وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٧) في (ز): «هبيرة»، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه.

جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النَّبيِّ ﷺ [وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النَّبيِّ ﷺ][(١)] وأنا في الميسرة[(٢)].

وهذا يقتضي -لو صح إسناده- أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: «مُرْدَفِين»[(٣)] بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: وأَمَدَّ الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين بألفٍ من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة[(٤)(٥)].

وروىٰ الإمام أبو جعفر بن جرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سِمَاك بن وليد الحَنَفي، عن ابن عبَّاس، عن عمر، الحديث المتقدِّم. ثم قال أبو زُمَيل حدَّثني ابن عبَّاس قال: بينا رجلٌ من المسلمين يَشْتَدُّ[(٦)] في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسَّوط فوقه، وصوتَ الفارس [يقول: «أقدم حَيْزُوم»[(٧)] إذ نظر إلىٰ المشرك أمامه، فخرَّ مستلقيًا قال:][(٨)] فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السَّوط، فاخضر[(٩)] ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فقتلوا يومئذٍ سبعين وأَسَرُوا سبعين[(١٠)].

وقال البخاري: «باب شهود الملائكة بدرًا»: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا جرير، عن يحيىٰ بن سعيد، عن معاذ بن رِفاعة بن رافع الزُّرَقي، عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريلُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قال: «مِنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ» -أو كلمة نحوها- قال: «وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ»[(١١)].

انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في «المعجم الكبير» من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ والصواب رواية البخاري، والله تعالىٰ أعلم.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بَلْتَعَة: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[(١٢)].

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إيَّاكم بهم إلا بُشرىٰ، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالىٰ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) **ضعيف جدًا**: ابن جرير (٩/ ١٩٢)، وفيه عبد العزيز بن عمران: منكر الحديث كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك.

(٣) **متواترة**: قَرَأَ (مُرْدَفِينَ) نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (مُرْدِفِينَ).

(٤) **مجنبة الجيش**: يمنته أو يسرته.

(٥) **ضعيف**: رواه الطبري (٩/ ١٩٥) منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٦) أي: يسرع.

(٧) أي: اجترئ يا حيزوم علىٰ العدوِّ ولا تحجم، وحيزوم: اسم فرس الملك.

(٨) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري»، و «صحيح مسلم».

(٩) أي: فصار موضع ذلك أخضر من أثر الضرب.

(١٠) مسلم (١٧٦٣)، والطبري [٩/ ١٨٩، برقم (١٥٧٣٤)، وليس عند الطبري رواية أبي زميل عن ابن عبَّاس.

(١١) البخاري (٣٩٩٢).

(١٢) البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

قادرٌ علىٰ نصركم علىٰ أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمَّد: ٤-٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فهذه حِكَمٌ شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالىٰ إنَّما يعاقب الأمم السَّالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمَّة المكذِّبة، كما أهلك قوم نوح بالطُّوفان، وعادًا الأولىٰ بالدَّبُور، وثمود بالصَّيحة، وقوم لوط بالخَسْف والقلب وحجارة السِّجيل وقوم شعيب بيوم الظُّلَّة، فلمَّا بعث الله تعالىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمِّ، ثم أنزل علىٰ موسىٰ التَّوراة، شرع فيها قتال الكفَّار، واستمرَّ الحكم في بقيَّة الشَّرائع بعده علىٰ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣] وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفىٰ لصدور المؤمنين، كما قال تعالىٰ للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنْكىٰ لهم وأشفىٰ لصدور حزب الإيمان. فقَتْلُ أبي جهل في معركة القِتَال وحومة الوغىٰ، أشد إهانةً له مِن أن يموت علىٰ فِراشِهِ بقارعةٍ أو صاعقةٍ أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب -لعنه الله- بالعَدَسة[1] بحيث لم يقربه أحد مِن أقاربه، وإنَّما غسَّلوه بالماء قذفًا مِن بعيد، ورجموه حتىٰ دفنوه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزَّة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه مِن قتال الكفَّار، مع القدرة علىٰ دَمارِهم وإهلاكهم، بحوله وقوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم مِن إلقائه النُّعاس عليهم، أمانًا مِن خوفهم الَّذي حصل لهم مِن كثرة عدُوِّهم وقلَّة عَددهم، وكذلك فعل تعالىٰ بهم يوم أُحُد، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ

(١) العَدَسة: بَثْرة تُشْبِه العَدسة، تَخْرج في مَواضعَ من الجَسَد من جنْسِ الطَّاعُون، تقتُل صاحِبَها غالبـًا. «النهاية».

أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة كنت ممن أصابه النُّعاس يوم أحد، ولقد سقط السَّيف مِن يدي مرارًا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرتُ إليهم يَمِيدُون وهم تحت الحَجَف[١].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا زُهَيْر، حدَّثنا ابن مَهْدِي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مُضَرِّب، عن عليٍّ ﷺ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسول الله ﷺ، يُصَلِّي تحت شجرةٍ ويبكي حتىٰ أصبح[٢].

وقال سفيان الثوري، عن عاصم عن أبي رَزِين، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّه قال: النُّعاس في القتال أمنةٌ مِن الله، وفي الصلاة من الشَّيطان[٣].

وقال قتادة: النُّعاس في الرَّأس، والنَّوم في القلب.

قلت: أمَّا النُّعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهورٌ جدًّا، وأما يوم بدر في هذه الآية الشَّريفة إنَّما هي في سياق قصَّة بدر، وهي دالَّةٌ علىٰ وقوع ذلك أيضًا وكأن ذلك كان سجيَّةً للمؤمنين عند شدَّة البأس؛ لتكون قلوبهم آمنةً مطمئنةً بنصر الله. وهذا مِن فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ﷺ وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنةٌ من النوم، ثم استيقظ متبسمًا فقال: «أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، هَذَا جِبْرِيلُ عَلَىٰ ثَنَايَاهُ النَّقْعُ»[٤] ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥][٥].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: نزل النَّبيُّ ﷺ -يعني: حين سار إلىٰ بدر- والمسلمون[٦] بينهم وبين الماء رملة دعصة[٧] وأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقىٰ الشَّيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنَّكم أولياء الله تعالىٰ وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون علىٰ الماء، وأنتم تصلُّون مجنبين! فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وأنشف[٨] الرمل حين أصابه المطر ومشىٰ النَّاس عليه والدَّواب، فساروا إلىٰ القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريلُ في خمسمائة مُجَنِّبَة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبَة[٩].

---

(١) **الحَجَف**: واحدة حجفة، وهي الترس يكون من الجلود.

(٢) **صحيح**: أبو يعلىٰ (٢٨٠)، وابن خزيمة (٨٢٩)، وابن حبان (٢٢٥٧).

(٣) **حسن**: رواه الطبري (٩/ ١٩٣). (٤) **النقع**: الغبار.

(٥) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٧٨) ولم يعزه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٧٤) إلا في البيهقي وإسناده مرسل.

(٦) في (ز): «والمشركون». والمثبت موافق لـ «الطبري».

(٧) **الدِّعْصة**: طائفة من الرمل مجتمعة؛ يعني: أنها أرض لينة تسوخ فيها القدم وتغوص.

(٨) أي: جعله يابسًا متماسكًا. (٩) رواه الطبري (٩/ ١٩٥) وإسناده منقطع.

وكذا قال العوفي عن ابن عبَّاس: إن المشركين مِن قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا علىٰ الماء يوم بدرٍ، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلُّون مُجْنِبين مُحْدِثين، حتىٰ تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماءً حتَّىٰ سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملئوا الأسقية، وسقوا الرِّكاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثَبَّت الأقدام. وذلك أنَّه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتىٰ اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام[١].

ونحو ذلك رُوِي عن قتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي.

وقد روي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنَّه طشٌّ أصابهم يوم بدر[٢].

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلىٰ بدر، نزل علىٰ أدنىٰ ماء هناك؛ أي: أول ماء وجده، فتقدَّم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «**بَلْ مَنْزِلٌ نَزَلْتُهُ لِلْحَرْبِ وَالمَكِيدَةِ**». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سِرْ بنا حتىٰ نتزل علىٰ أدنىٰ ماء يلي القوم ونُغوِّر ما وراءه من القُلُبِ[٣]، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك.

وفي مغازي «الأموي» أنَّ الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السَّماء وجبريل جالسٌ عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمَّد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنَّ الرَّأي ما أشار به «الحباب ابن المنذر» فالتفت رسول الله ﷺ إلىٰ جبريل عليه السلام فقال: «**هَلْ تَعْرِفُ هَذَا؟**» فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنَّه ملك وليس بشيطان[٤].

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمَّد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» رحمه الله: حدَّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء -وكان الوادي دهسًا[٥]- فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لَبَدَ لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا علىٰ أن يرتحلوا معه[٦].

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النُّعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا هارون بن إسحاق، حدَّثنا مصعب بن المقدام، حدَّثنا إسرائيل، حدَّثنا أبو إسحاق، عن حارثة[٧]، عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من اللَّيل طشٌّ من المطر -يعني الليلة التي كانت في

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١٩٥) وإسناده مسلسل بالضعفاء. (٢) **الطش**: المطر القليل، وهو فوق الرذاذ.
(٣) **القُلُب**: جمع قليب، وهو البئر. (٤) لم يذكر السند، ولم أقف عليه، والعلم عند الله.
(٥) **الدهس**: كل مكان لين. (٦) **مرسل**: رواه ابن هشام في «السيرة» (١/ ٦٢٠).
(٧) في (ز): «جارية»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الطبري».

صبيحتها وقعة بدر- فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ﷺ [يدعو ربه: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ»! فلما أن طلع الفجر، نادىٰ: «الصَّلَاةَ، عِبَادَ اللهِ»، فجاء النَّاس مِن تحت الشجر والحجف، فصلىٰ بنا رسول الله ﷺ][(١)] وحرَّض علىٰ القتال[(٢)].

وقوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالىٰ في حقِّ أهل الجنَّة: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهرًا لما كان مِن غِلٍّ أو حسدٍ أو تباغضٍ، وهو زينة الباطن وطهارته.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصَّبر والإقدام علىٰ مُجَالَدَةِ الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذه نعمة خفيةٌ أظهرها الله تعالىٰ لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه -تعالىٰ وتقدَّس وتبارك وتمجَّد- أوحىٰ إلىٰ الملائكة الذين أنزلهم لنصر نَبِيِّه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يُثَبِّتُوا الَّذِين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازِرُوهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كَثِّروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لنَنْكَشِفَنَّ»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوىٰ أنفسهم حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: ثَبِّتُوا أنتم المسلمين وقووا أنفسهم علىٰ أعدائهم، عن أَمْرِي لكم بذلك، سألقي الرُّعب والمذلَّة والصَّغار علىٰ من خالف أمري، وكذَّب رسولي ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرِّقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرءوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: علىٰ الأعناق، وهي: الرقاب. قاله الضَّحَّاك، وعطية العوفي.

ويشهد لهذا المعنىٰ أنَّ الله تعالىٰ أرشد المؤمنين إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمَّد: ٤].

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللهِ،

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٢) **حسن صحيح**: رواه ابن جرير الطبري (٩/ ١٩٤)، وفيه أبو إسحاق، اختلط، لكن رواية إسرائيل عنه ثابتة في «الصحيحين» فتحمل علىٰ الاتصال والسماع قبل الاختلاط، وإن كان في ذلك اختلاف بين العلماء، وهارون بن إسحاق ومصعب: كلاهما صدوق كما في «التقريب»، وزاد في مصعب: له أوهام، وله شاهد مرسل من حديث عروة ابن الزبير عن الزهري وغيره، رواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٧٨) وإسناده مرسل.

إِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ [وَشَدِّ الوَثَاقِ»][(١)(٢)].

واختار ابن جرير أنَّها قد تدلُّ علىٰ ضَرْبِ الرِّقاب وفلق الهام.

قلت: وفي مغازي «الأموي» أن رسول الله ﷺ جعل يَمُرُّ بين القتلىٰ يوم بدر فيقول: «نُفَلِّقُ هَامًا»، فيقول أبو بكر:

... مِــــنْ رِجَــــالٍ أَعِــــزَّةٍ عَلَيْنَــا وَهُــمْ كَــانُوا أَعَــقَّ وَأَظْلَمَــا[(٣)]

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأوَّل البيت، ويستطعم أبا بكر ﷺ إنشاد آخره؛ لأنَّه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩][(٤)].

وقال الربيع بن أنس: كان النَّاس يوم بدرٍ يعرفون قتلىٰ الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلىٰ البنان مثل سمة النَّار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير[(٥)]: معناه: واضربوه أيُّها المؤمنون مِن عدوِّكم كلَّ طرفٍ ومَفْصِلٍ من أطراف أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر:

أَلا لَيْتَنِــي قَطَّعْــتُ مِنْــهُ[(٦)] بَنَانَــةً وَلاقَيْتُــهُ فِــي البَيْــتِ يَقْظَــانَ حَــاذِرَا

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضَّحَّاك وابن جريج. وقال السُّدِّي: البنان: الأَطْرَاف، ويقال: كل مَفْصِل.

وقال عكرمة، وعطية العوفي والضَّحَّاك -في رواية أخرىٰ- : كل مفصل.

وقال الأوزاعي في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارْمِهِ بشهابٍ مِن نارٍ، فإذا أخذته حرَّم ذلك كله عليك.

وقال العوفي، عن ابن عبَّاس -فذكر قصة بدر إلىٰ أن قال- : فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلًا ولكن خذوهم أخذًا، حتىٰ تعرفوهم الذي صنعوا مِن طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللَّات والعزىٰ. فأوحىٰ الله إلىٰ الملائكة: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل -لعنه الله- في تسعةٍ وسِتِّين رجلًا وأسر عقبة بن أبي مُعَيْط فقتل صبرًا، فوفَّىٰ ذلك سبعين -يعني- : قتيلًا.

ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشَّرع والإيمان به واتباعه في شق -وهو مأخوذٌ أيضًا من شقِّ العصا، وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ١٩٨)، وإسناده مرسل. (٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) قاله الحصين بن الهمام المري كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٦٤٨).

(٤) لم يذكر له المصنف إسنادًا، ويغلب في ذكر المغازي الضعف. والعلم عند الله.

(٥) لوحة (١٧٦ ب). انتهىٰ الجزء المفقود من المخطوطة وعدنا إلىٰ الأزهرية.

(٦) في (ز): «مني».

يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالىٰ، لا إله [غيره، ولا رَبَّ][(١)] سواه.

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ هذا خطاب للكفَّار؛ أي: ذوقوا هذا العذاب والنَّكال في الدُّنيا، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النَّار في الآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ [(٢)] ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ [(٣)] ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ متوعدًا علىٰ الفرار من الزَّحف بالنَّار لمن فعل ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم منهم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أي: تفرُّوا وتتركوا أصحابكم.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي: يَفِرُّ بين يدي قرنه مكيدةً؛ ليريه أنَّه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نصَّ عليه سعيد بن جبير، والسُّدِّي.

وقال الضَّحَّاك: أن يتقدَّم عن أصحابه ليرىٰ غرة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي: فرَّ مِن هاهنا إلىٰ فئةٍ أخرىٰ من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك، حتَّىٰ ولو كان في سَرِيَّةٍ ففرَّ إلىٰ أميره أو إلىٰ الإمام الأعظم، دخل في هذه الرُّخصة.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن، حدَّثنا زُهَيْر، حدَّثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: كنت في سريةٍ من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص النَّاس حيصةً[(٤)] -وكنت فيمن [حاص][(٥)]- فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزَّحف وبُؤْنَا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبِتْنَا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا علىٰ رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبةٌ وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة

---

(١) سقط من (ز).

(٢) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال الشهاب: عدل عن لفظ الظهور إلىٰ الأدبار تقبيحـًا للإنهزام، وتنفيرًا عنه.

(٣) قال الإمام السعدي رحمه الله: وهذا يدل علىٰ أن الفرار من الزحف من غير عذرٍ من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا علىٰ وعيده بهذا الوعيد الشديد.
ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلىٰ أخرىٰ؛ ليكون أمكن له في القتال، وأنكىٰ لعدوه، فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يولِّ دبره فارًّا، وإنما ولَّىٰ دبره ليستعلي علىٰ عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلىٰ فئة تمنعه وتعينه علىٰ قتال الكفار، فإن ذلك جائز،فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح،وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلىٰ بلد من بلدان المسلمين أو إلىٰ عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل علىٰ أن هذا جائز،ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقىٰ عليهم.
أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال -أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه - علىٰ هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه،وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

(٤) الحَيْص: الحيد عن الشيء، يقال: حاص عنه يحيص حيصًا: رجع، وحاصوا عن العدو: انهزموا.

(٥) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

الغداة، فخرج فقال: «مَنِ القَوْمُ؟» فقلنا: نحن الفرَّارون. فقال: «لا بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ[١]، أَنَا فِئَتُكُمْ، وَأَنَا فِئَةُ المُسْلِمِينَ» قال: فأتيناه حتىٰ قبَّلنا يده[٢].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة من طرق عن يزيد بن أبي زياد، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه.

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به. وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

قال أهل العلم: معنىٰ قوله: «العَكَّارون» أي: العطَّافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ عن أبي عبيد لما قتل علىٰ الجسر بأرض فارس؛ لكثرة الجيش مِن ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنت له فئة. هكذا رواه محمَّد بن سيرين، عن عمر[٣].

وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها النَّاس، أنا فئتكم[٤].

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئةُ كلِّ مسلم.

وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنَّكم هذه الآية، فإنَّما كانت يوم بدرٍ، وأنا فئةٌ لكلِّ مسلم[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا حسان بن عبد الله المصري، حدَّثنا خلاد بن سليمان الحضرمي، حدَّثنا نافع: أنَّه سأل ابن عمر قلت: إنَّا قوم لا نثبت عند قتال عدوِّنا، ولا ندري من الفِئَة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إنَّ الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا[٦] تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فقال: إنَّما نزلت هذه الآية في يوم بدرٍ، لا قبلها ولا بعدها[٧].

وقال الضَّحَّاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ المتحيِّز: الفارُّ إلىٰ النَّبيِّ وأصحابه، وكذلك مَن فَرَّ اليوم إلىٰ أَمِيرِهِ أو أصحابه.

فأمَّا إن كان الفرار لا عن سببٍ مِن هذه الأسباب، فإنَّه حرامٌ وكبيرةٌ من الكبائر؛ لما رواه البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ». قيل: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا،

---

(١) العكار: الَّذِي يفرُّ إلىٰ إمامه لينصره، ليس يريد الفرار من الزحف، والفئة: الجماعة من الناس والطائفة التي تقوم وراء الجيش.

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦)، وابن ماجة (٣٧٠٤) مختصرًا، وفي الإسناد يزيد بن أبي زياد: ضعيف، وضعفه الشيخ الألباني.

(٣) رواه الطبري (٩/ ٢٠٢)، وإسناده صحيح.

(٤) رواه الطبري (٩/ ٢٠٣)، وهو شاهد لسابقه.

(٥) رواه الطبري (٩/ ٢٠٣).

(٦) لوحة (١٧٧ب).

(٧) رواه ابن أبي حاتم (٨٨٩٧)، وفي إسناده حسان بن عبد الله المصري: مقبول كما قال الحافظ ومعناه إذا توبع، وعليه فالإسناد ضعيف.

وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»[١].

ولهذا الحديث شواهد مِن وجوهٍ أخر؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده: ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا زكريا بن عَدِيّ، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو الرَّقِّي، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة، حدَّثنا جَبَلَة بن سُحَيْم، عن أبي المثنىٰ العبدي، سمعت السدوسي -يعني ابن الخَصاصِيَة، وهو بشير بن معبد- قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ تسليمًا لأبايعه، فاشترط علي: «شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ، وَأَنْ أَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ». فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنَّهم زعموا أنَّه مَن ولَّىٰ الدُّبُر فقد باء بغضبٍ مِن الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصَّدقة، فوالله ما لي إلا غُنَيْمَةٌ وعشر ذَوْدٍ هُنَّ رَسَل[٢] أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَبِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا؟» فقلت: يا رسول الله، [أنا][٣] أبايعك. فبايعته عليهنَّ كلهنَّ[٤].

هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن يحيىٰ بن حمزة، حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدَّثنا يزيد بن ربيعة، حدَّثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ»[٥].

وهذا أيضًا حديث غريب جدًّا.

وقال الطبراني أيضًا: حدَّثنا[٦] العبَّاس بن الفضل الأسْفَاطِيُّ، حدَّثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدَّثنا حفص بن عمر الشَّنِّي، حدَّثني عمرو بن مُرَّة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد -مولىٰ رسول الله ﷺ- قال: سمعت أبي حَدَّث عن جَدِّي قال: قال رسول الله: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ»[٧].

وهكذا رواه أبو داود عن موسىٰ بن إسماعيل به، وأخرجه الترمذي عن البخاري، عن موسىٰ بن إسماعيل به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) البخاري (٢٧٦٦) (٥٧٦٤) (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٦/ ٢٥٧).

(٢) الذود من الإبل: ما فوق الثنتين إلىٰ التسع. والرَّسَل: القطيع.

(٣) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «المسند».

(٤) **ضعيف**: رواه أحمد (٥/ ٢٢٤)، وفيه أبو المثنىٰ العبدي مُؤْثِر بنُ عَفَازَة: مجهول، انظر: «تعجيل المنفعة» (٥١٧).

(٥) **ضعيف**: رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٥)، وفيه يزيد بن ربيعة قال البخاري: أحاديثه مناكير، وقال أبو حاتم وغيره: ضعيف، وقال النسائي: متروك، وقال الجوزجاني: أخاف أن تكون أحاديثه موضوعةً، وأما ابن عديٍّ فقال: أرجو أنه لا بأس به، انظر: «ميزان الاعتدال».

(٦) لوحة (١٧٨أ).

(٧) **صحيح**: الطبراني (٥/ ٨٩/ ٤٦٧٠)، وأبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٥٧٧)، وصححه الشيخ الألباني.

قلت: ولا يعرف لزيد مولى النَّبيِّ ﷺ عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أنَّ الفرار إنَّما كان حرامًا على الصَّحابة؛ لأنَّه -[يعني الجهادَ][1]- كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصَّةً؛ لأنَّهم بايعوا على السَّمع والطَّاعة في المنشط والمكره. وقيل: إنَّما المراد بهذه الآية أهل بدرٍ خاصَّةً، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عبَّاس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضَّحَّاك، وغيرهم.

وحجتهم في هذا: أنَّه لم تكن عصابةٌ لها شوكة يَفيئُون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[2]؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأمَّا اليوم: فإنِ انحاز إلى فئةٍ أو مصرٍ -أحسبه قال: فلا بأس عليه.

وقال ابن المبارك أيضًا، عن ابن لَهِيعَة: حدَّثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فرَّ يوم بدر النَّار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلمَّا كان يوم أُحدٍ بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثمَّ كان يوم حُنَيْن بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

وفي سنن أبي داود، والنسائي، ومستدرك الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مَرْدوَيه، من حديث داود ابن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ إنَّما أنزلت في أهل بدر[3].

وهذا كله لا ينفي أن يكون[4] الفرار من الزَّحف حرامًا على غير أهل بدر، وإن كان سبب النُّزول فيهم، كما دَلَّ عليه حديث أبي هريرة المتقدِّم، من أنَّ الفرار من الزَّحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ[5] ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ

(١) سقط من (ز).
(٢) مسلم (١٧٦٣)، وأحمد (١/ ٣٠).
(٣) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٤٨)، والنسائي في «الكبرى» والحاكم (٢/ ٣٢٧)، والطبري (٩/ ٢٠٢).
(٤) لوحة (١٧٨ب).
(٥) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: اعتقد جماعة أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه وإضافته إلى الرب تعالى وجعلوا ذلك أصلا في الجبر وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده وهذا غلط منهم في فهم القرآن فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال فيقال ما صليت إذ صليت وما صمت إذ صمت وما ضحيت إذ ضحيت ولا فعلت كل فعل إذ فعلته ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد طاعتهم ومعاصيهم إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها أو رميه وحده تناقضوا فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.
وبعد، فهذه الآية نزلت في شأن رميه المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء فلم تدع وجه أحدٍ منهم إلا أصابته =

﴿بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

يُبيِّن تعالىٰ أنَّه خالقُ أفعال العباد، وأنَّه المحمود علىٰ جميع ما صَدَرَ عنهم مِن خير؛ لأنَّه هو الذي وَفَّقَهُم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بِحَوْلِكُم وقُوَّتِكُم قتلتم أعداءكم مع كثرة عَدَدِهِم وقلَّة عددكم، أي: بل هو الَّذِي أظفركم عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] يعلم - تبارك وتعالىٰ- أنَّ النَّصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللَّأمة[(١)] والعدد، وإنَّما النَّصر مِن عند الله تعالىٰ كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال لنَبيِّه ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التُّراب، التي حَصَبَ بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرُّعِهِ واستكانته، فرَمَاهُم بها وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ» ثمَّ أمر الصَّحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلىٰ أعين المشركين، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: هو الذي بَلَّغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: رفع رسول الله ﷺ يديه -يعني: يوم بدر- فقال: «**يا رَبِّ إِنْ تَهلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ، فَلَنْ تُعبَدَ فِي الأَرْضِ أَبَدًا**». فقال له جبريل: «**خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرابِ، فَارْمِ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ**» [فأخذ قبضةً من التُّراب، فرمىٰ بها في وجوههم][(٢)] فما من المشركين أحدٌ إلا أصاب عينيه ومنخريه وفَمَهُ تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين[(٣)].

وقال السُّدِّي: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ ﷺ يوم بدر: «**أَعْطِنِي حَصَبًا مِنَ الأَرْضِ**»، فناوله[(٤)] حصبًا

= ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه مبدأ الرمي وهو الحذف، ومن الله ﷻ نهايته وهو الإيصال، فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفىٰ عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته ونظير هذا قوله في الآية نفسها فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فأخبره أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم ولم يكن ذلك بكم أنتم كما تفرد بإيصال الحصىٰ إلىٰ أعينهم ولم يكن ذلك من رسوله ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابًا ظاهرةً كدفع المشركين وتولي دفعهم وإهلاكهم بأسبابٍ باطنةٍ غير الأسباب التي تظهر للناس فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه به وهو خير الناصرين.

(١) **اللأمة**: الدرع والسلاح. (٢) سقط من (ز).

(٣) رواه ابن جرير (٩/ ٢٠٥) من طريق علي بن أبي طلحة، وروايته عن ابن عبَّاس مرسلة، وكذلك الروايات الأخرىٰ التي ذكرها ابن كثير كلها مرسلة، ولكن ثبت صحيحًا نحو هذا من غير هذا السياق. انظر رقم (٩٤) الآتي في هذه السورة عند تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ ...الآية﴾ [الأنفال: ٣٠].

(٤) في (ز): (فناولته).

عليه تراب، فرمىٰ به في وجوه القوم، فلم يَبْقَ مشركٌ إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم(١) المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢).

وقال أبو معشر المدني، عن محمَّد بن قَيْس ومحمَّد بن كعب القُرَظِي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من تراب، فرمىٰ بها في وجوه القوم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رَمْية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في قوله تعالىٰ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمىٰ بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فانهزموا(٤).

وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد وعكرمة، وقتادة وغير واحدٍ من الأئمَّة: أنَّها نزلت في رمية النَّبيِّ ﷺ يوم بدر، وإن [كان](٥) قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا أحمد بن منصور، حدَّثنا يعقوب بن محمَّد، حدَّثنا عبد العزيز بن عمران، حدَّثنا موسىٰ بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة(٦)، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان ابن أبي حَثْمَة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتًا وقع من السَّماء، كأنَّه صوت حصاة وقعت في طست، ورمىٰ رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا(٧).

غريب مِن هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جدًّا.

أحدهما: قال ابن جرير: حدثنىٰ محمَّد بن عوف الطائي، حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان بن عمرو، حدَّثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أنَّ رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحُقَيْق بخيبر، دعا بقوسٍ، فأتيَ بقوسٍ طويلةٍ، وقال: «جِيئُونِي بِقَوْسٍ غَيْرِهَا». فجاءوا بقوسٍ كبداء(٨)، فرمىٰ النَّبيُّ ﷺ الحصن، فأقبل السَّهم يهوي حتىٰ قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٩)

وهذا غريب، وإسناده جيد إلىٰ عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعلَّه اشتبه عليه، أو أنَّه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفىٰ علىٰ أئمة العلم، والله أعلم.

---

(١) ردفه: تبعه.

(٢) رواه الطبري (٩/ ٢٠٥)، وإسناده مرسل.

(٣) رواه الطبري (٩/ ٢٠٥)، وإسناده مرسل.

(٤) رواه الطبري (٩/ ٢٠٥)، وإسناده مرسل.

(٥) سقط من (ز).

(٦) في (ز): (ربيعة)، وهو خطأ والصواب وما أثبتناه.

(٧) رواه ابن جرير (٩/ ٢٠٥)، وفيه عبد العزيز بن عمران: منكر الحديث كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك.

(٨) قوس كَبْداء: غليظة الكبد شديدتها، وكبد القوس: فويق مقبضها حيث يقع السهم.

(٩) **مرسل**: رواه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٩١١)، وإسناد مرسل.

والثاني: روىٰ ابن جرير أيضًا، والحاكم في «مستدركه»، بإسنادٍ صحيحٍ إلىٰ سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت[(١)] في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أُبي بن خلف بالحربة وهو في لأمَتِهِ، فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عَن فرسه مرارًا، حتىٰ كانت وفاته بها بعد أيَّام، قاسىٰ فيها العذاب الأليم، موصولًا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة[(٢)].

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضًا جدًّا، ولعلَّهما أرادا أنَّ الآية تتناوله بعمومها، لا أنَّها نزلت فيه خاصةً كما تقدَّم، والله أعلم.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن جعفر بن الزُّبير، عن عُرْوَة بن الزُّبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: ليُعرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم علىٰ عدوِّهم مع كثرة عدوِّهم، وقلَّة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

وهكذا فسَّر ذلك ابن جرير أيضًا. وفي الحديث: «وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا»[(٣)].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدُّعاء، عليمٌ بمَن يستحق النَّصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارةٌ أخرىٰ مع ما حصل من النَّصر: أنَّه أعلمهم تعالىٰ بأنَّه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغِّرًا أمرهم، وأنَّهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنَّة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالىٰ للكفار[(٤)] ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أَن يَفصِل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمَّد بن إسحاق وغيره، عن الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر؛ أنَّ أبا جهل قال يوم بدر: اللَّهُمَّ أَقطَعُنَا للرَّحم وآتانا بما لا نعرف فَأَحِنْهُ

---

(١) لوحة (١٧٩ ب). (٢) مرسل: رواه الحاكم (٢/ ٣٢٧).

(٣) النسائي في «الكبرىٰ» (٢٣/ ١٠)، والحاكم (١/ ٧٣١) وصححه علىٰ شرط مسلم، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٧٧) وإسناده حسن.

(٤) **قال الشيخ القاسمي** رحمه الله: جُوِّز أن يكون الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ للمؤمنين؛ أي: إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم، فقد حصل لكم ذلك، فاشكروا ربكم، والزموا طاعته.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَنتَهُوا﴾ أي: عن المنازعة في أمر الأنفال، وعن طلب الفداء علىٰ الأسرىٰ الذي عوتبوا عليه بقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾.

عن مثله -: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا﴾ إلىٰ تلك المنازعات نعد عليكم بالإنكار، وتهييج العدوّ؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم علىٰ الطاعة، وترك المخالفة، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة، إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فإنه مع الكاملين في إيمانهم. وهذا الوجه قرره الرازي ونقله عن القاضي.

قال البيضاوي: ويؤكده الآية بعدُ، فإن المراد بها: الأمر بطاعة الرسول، والنهي عن الإعراض عنه، والله أعلم.

الغداة -وكان ذلك استفتاحًا منه- فنزلت: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ إلىٰ آخر الآية(١).

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا يزيد -يعني: ابن هارون- أخبرنا محمَّد بن إسحاق، حدَّثني الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهلٍ قال حين التقىٰ القوم: اللَّهُمَّ، أقطعنا للرَّحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْهُ(٢) الغداة، فكان المستفتح(٣).

وأخرجه النَّسائي في «التَّفسير» من حديث صالح بن كيسان، عن الزُّهري به، وكذا رواه الحاكم في «مستدركه» من طريق الزهري به، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه(٤). وروي [نحو](٥) هذا عن ابن عبَّاس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادة، ويزيد بن رُومَان، وغير واحد.

وقال السُّدِّي: كان المشركون حين خرجوا من مكَّة إلىٰ بَدْرٍ، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللَّهمَّ انصر(٦) أعلىٰ الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القَبِيلَتَيْن. فقال الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمَّد ﷺ(٧).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالىٰ إخبارًا عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أي: عمَّا أنتم فيه من الكُفْر بالله والتَّكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرة. [وقوله](٨) ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله(٩): ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلىٰ ما كنتم فيه من الكُفْر والضَّلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السُّدِّي: ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أي: إلىٰ الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ إلىٰ الفتح لمحمَّدٍ ﷺ، والنصر له، وتظفيره علىٰ أعدائه، والأول أقوىٰ.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسىٰ أن تجمعوا، فإنَّ مَن كان الله معه فلا غالب له، فإنَّ الله مع المؤمنين، وهم الحزب النَّبوي، والجناب المصطفوي.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٤٣١)، وعبد الله بن ثعلبة له رؤية لكنه لم يثبت له سماع فهو مرسل صحابي، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فالإسناد صحيح دون ذكر نزول الآية.

(٢) حان فلان: هلك، وأحانه الله: أهلكه.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٣١) وانظر التخريج السابق.

(٤) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٠١) والحاكم (٢/ ٣٢٨) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٥) سقط من (ز).

(٦) لوحة (١٨٠أ).

(٧) رواه الطبري (٩/ ٢٠٨) وإسناده مرسل.

(٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): «أي كقوله».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ [وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ](١) ﴿٢٣﴾ ﴾

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتَّشبُّه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنَّهم يظهرون أنَّهم قد سَمِعُوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّ هذا الضَّرب مِن بني آدم شَر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأنَّ كلَّ دابةٍ مما سواهم مطيعة لله عَزَّ وَجَلَّ فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدَّار مِن قريش. روي عن ابن عبَّاس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمَّد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بَيْنَ المشركين والمنافقين في(٢) هذا؛ لأنَّ كلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلىٰ العمل الصالح.

ثم أخبر تعالىٰ بأنَّهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أنَّ لهم فهمًا، فقال: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لَا خَيْرَ فيهم فلم يفهمهم؛ لأنَّه يعلم أنه ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك، ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عنه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ(٣) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٨٠ ب).

(٣) قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: ويستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة علىٰ أنه يجب علىٰ كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلىٰ العمل به كائنًا ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال . وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث علىٰ العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائنًا ما كان .

قال البخاري: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ أجيبوا، ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ لما يصلحكم. حدَّثنا إسحاق، حدَّثنا روح، حدَّثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدِّث عن أبي سعيد بن المُعَلَّىٰ قال: كنت أُصَلِّي، فمرَّ [بي](١) رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آتِهِ حتىٰ صليت، ثم أتيته فقال: «مَا مَنعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له -وقال معاذ: حدَّثنا شعبة، عن خُبَيْب بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيدٍ - رجلًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ بهذا- وقال: «[هِيَ](٢) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ السَّبْعُ الْمَثَانِي»(٣).

هذا لفظه بحروفه، وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ قال: الحق.

وقال قتادة ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النَّجاة والتُّقاة والحياة.

وقال السُّدِّي: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكُفْرِ.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن جعفر بن الزُّبير، عن عُرْوَةَ بن الزُّبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أي: للحرب التي أعزَّكم الله تعالىٰ بها بعد الذُّلِّ، وقواكم [بها](٤) بعد الضَّعف، ومنعكم من عدوِّكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ قال ابن عبَّاس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان(٥).

رواه الحاكم في «مستدركه» موقوفًا، وقال: صحيح ولم يخرجاه، ورواه ابن مَرْدَوَيه من وجه آخر مرفوعًا ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضَّحَّاك، وأبو صالح، وعطية، ومُقَاتِل بن حيَّان، والسُّدِّي.

وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ حتىٰ تركه لا يعقل.

وقال السُّدِّي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا(٦) يكفر إلا بإذنه.

وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك ﷺ قال:

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «البخاري». (٢) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٣) تقدَّم. في أول الفاتحة: ذكر ما ورد في سورة الفاتحة. (٤) سقط من (ز).

(٥) **صحيح**: رواه الطبري (٩/ ٢١٥)، ورواه الحاكم نحوه (٢/ ٣٢٨)، وصححه.

وأما المرفوع فلم يذكر إسناده، وقد اكتفىٰ ابن كثير بالحكم عليه أنَّه ضعيف.

(٦) لوحة (١٨١أ).

كان النَّبيُّ ﷺ يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمَنَّا بك وبما جِئْتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ تَعَالَىٰ يُقَلِّبُهَا**»(١).

وهكذا رواه الترمذي في «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمَّد بن حازم الضرير، عن الأعمش -واسمه سليمان بن مهران- عن أبي سفيان -واسمه طلحة بن نافع- عن أنس ثم قال: حسن. وهكذا روي عن غير واحدٍ عن الأعمش، ورواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النَّبيِّ ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح(٢).

حديث آخر: قال عبد بن حميد في «مسنده»(٣): حدَّثنا عبد الملك بن عمرو، حدَّثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلىٰ، عن بلال رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يدعو: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»(٤).

هذا حديث جيِّد الإسناد إلا أن فيه انقطاعًا وهو -مع ذلك- علىٰ شرط أهل السُّنن ولم يخرجوه(٥).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الوليد بن مسلم قال: سَمِعْتُ ابن جابر يقول: حدَّثني بسر ابن عبد الله الحضرمي: أنه سمع أبَا إدريس الخولاني يقول: سمعت النَّوَّاس بن سَمْعَان الكلابي رضي الله عنه يقول: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ العَالِمِينَ، إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ**». وكان يقول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكَ**». قال: «**وَالمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ**»(٦).

وهكذا رواه النَّسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا يونس، حدَّثنا حماد بن زيد، عن المعلىٰ بن زياد، عن الحسن؛ أنَّ عائشة قالت: دعواتٌ كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنَّك تُكثِر تدعو بهذا الدُّعاء. فقال: «**إِنَّ قَلْبَ الآدِمِيِّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ**»(٧).

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والترمذي (٢١٤٠)، وإسناده حسن، ويشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة بعده.

(٢) هذه الطريق رواها الحاكم (٢/ ٢٨٨)، وإسناده صحيح.

(٣) في (ز): «قال الإمام أحمد: قال الإمام عبد بن حميد»، وهو خطأ بيِّن، والحديث لم يخرجه أحمد من حديث بلال رضي الله عنه.

(٤) أورده ابن حجر في «اتحاف المهرة» من طريق عبد بن حميد، وفيه انقطاع بين ابن أبي ليلىٰ وبلال، لكن يشهد له الروايات المذكورة قبله وبعده، وهو عند ابن حميد (٣٥٩).

(٥) حسن لغيره: فيه انقطاع بين ابن أبي ليلىٰ وبلال، لكن يشهد له الروايات المذكورة قبله وبعده وهو عند (عبد بن حميد) في «المنتخب» برقم (٣٥٩)، ولم يخرجه أحمد من حديث بلال.

(٦) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجة (١٩٩)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٧٣٨).

(٧) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٩١، ٢٥١) الحسن البصري: يرسل وقد عنعن، لكن يشهد للحديث الروايات المذكورة قبله وبعده.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا هاشم، حدَّثنا عبد الحميد[١]، حدَّثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أنَّ رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ». قالت: فقلت: يا رسول الله، أَوَ إِنَّ القلوب لتقلب؟ قال: «نَعَمْ، مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَشَرٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ ﷻ فَإِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ. فَنَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا أَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلِّمني دعوةً أدعو بها لنفسي؟ قال: «بَلَىٰ، قُولِي: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنِي»[٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا حيوة، أخبرني أبو هانئ، أنَّه سَمِعَ أبا عبد الرحمن الحُبُلي أنَّه سَمِعَ عبد الله بن عمرو؛ أنَّه سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَىٰ طَاعَتِكَ»[٣].

انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حَيْوَة بن شُرَيْح المصري به.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يحذِّر تعالىٰ عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختبارًا ومحنةً، يعُمُّ بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا مَن باشر الذَّنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم، حدَّثنا شَدَّاد بن سعيد، حدَّثنا غَيْلان بن جرير، عن مُطَرِّف قال: قلنا للزُّبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيَّعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير ﷺ: إنا قرأنا علىٰ عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتىٰ وقعت منَّا حيث وقعت[٤].

وقد رواه البزَّار من حديث مطرف، عن الزُّبير، وقال: لا نعرف مطرفًا روىٰ عن الزبير غير هذا الحديث.

وقد روىٰ النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا.

---

(١) لوحة (١٨١ب).

(٢) في إسناده شهر بن حوشب وهو كثير الإرسال والأوهام، لكن الجملة الأولىٰ من الحديث إلىٰ قوله: «إن شاء أن يقيمه...» ثابتة للشَّواهد المتقدِّمة.

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٥)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٨٦١).

(٤) حسن: رواه أحمد (١/ ١٦٥)، والبزار (٢٧٦)، وفيه شداد بن سعيد: صدوق يخطئ، ويشهد له الرواية الأخرىٰ من طريق الحسن: رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٢٠٦)، والطبري (٩/ ٢٠٨)، وفيه الحسن البصري وابن فضالة وكلاهما مدلس.

وروى ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا مبارك بن فَضَالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا [بها][(١)] يعني قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا[(٢)] أنا خُصِصْنَا بها خاصة[(٣)].

وكذا رواه حميد، عن الحسن، عن الزبير رضي الله عنه.

وقال داود بن أبي هِنْد، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، [وعثمان][(٤)] وطلحة والزبير رضي الله عنهم.

وقال سفيان الثوري عن الصَّلت بن دينار، عن عقبة بن صُهْبان[(٥)]، سمعت الزُّبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زمانًا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(٦)].

وقد روي من غير وجه، عن الزبير بن العوام.

وقال السُّدِّي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل، فاقتتلوا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: أصحاب النَّبيِّ ﷺ خاصة[(٧)].

وقال في رواية له، عن ابن عبَّاس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب[(٨)].

وهذا تفسير حسن جدًّا؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضًا لكم، وكذا قال الضَّحَّاك، ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ إلا وهو مشتملٌ علىٰ فتنة، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فأيُّكم استعاذ فليستعذ بالله من مُضِلَّات الفتن. رواه ابن جرير[(٩)].

والقول بأنَّ هذا التَّحذير يعمُّ الصَّحابة وغيرهم -وإن كان الخطاب معهم- هو الصَّحيح، ويدل علىٰ ذلك الأحاديث الواردة في التَّحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالىٰ،

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٨٢أ). (٣) انظر التخريج السابق.

(٤) في (ز) وجميع نسخ ابن كثير: «عمار» بدلًا من «عثمان»، والمثبت من تفسير الطبري في جميع نسخه وفي المطبوع تحقيق الشيخ شاكر، وكذا في نسخة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وهو ما اعتمده العلامة أحمد محمَّد شاكر في مختصر تفسير ابن كثير «عمدة التفسير»، فرأينا إثبات «عثمان»؛ لأنه هو الثابت عن داود بن أبي هند عن الحسن البصري رحمه الله.

(٥) في (ز): «ضبيان»، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، ولكن هو موافق لمعنىٰ الآية.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه الطبري (٩/ ٢١٨)، وفيه الصلت بن دينار: متروك.

(٧) إسناده منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس.

(٨) رواه الطبري (٩/ ٢١٨)، وإسناده كسابقه.

(٩) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٢١٨- ٢١٩)، وفيه ابن وكيع: ضعيف، والمسعودي اختلط، والقاسم لم يسمع من ابن مسعود وهو متكلم فيه أيضًا، انظر: «جامع التحصيل».

كما فعله الأئمَّة وأفردوه بالتَّصنيف ومِن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدَّثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله -يعني ابن المبارك- أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَدِيَّ بن عَدِيٍّ الكندي يقول: حدَّثني مولىً لنا أنَّه سَمِعَ جَدِّي -يعني عَدِيَّ بن عميرة- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ ﷻ لا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّىٰ يَرَوُا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ»[(١)].

فيه رجلٌ مبهمٌ، ولم يخرجوه في الكتب السِّتَّة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد[(٢)]: حدَّثنا سليمان الهاشمي، حدَّثنا إسماعيل -يعني ابن جعفر- أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيفة بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[(٣)].

ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ قَوْمًا ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[(٤)].

وقال أحمد: حدَّثنا عبد الله بن نمير، قال: حدَّثنا رَزِين بن[(٥)] حبيب الجُهَني، حدَّثني أبو الرُّقاد قال: خرجت مع مولاي، فدفعت إلىٰ حذيفة وهو يقول: إنْ كان الرجل ليتكلَّم بالكلمة علىٰ عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقًا، وإنِّي لأسمعها مِن أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولَتَحاضُّن علىٰ الخير، أو لَيَسْحَتَنَّكُمُ[(٦)] الله جميعًا بعذاب، أو ليؤمّرَنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم[(٧)].

حديثٌ آخر: قال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثني يحيىٰ بن سعيد، عن زكريا، حدَّثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير ﵁ يخطب يقول -وأومأ بإصبعيه إلىٰ أذنيه- يقول: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا -أَوِ المُدَاهِنِ فِيهَا- كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَأَوْعَرَهَا وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوُا المَاءَ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ

---

(١) ضعيف: رواه أحمد (٤/ ١٩٢)، وفيه رجل مجهول. (٢) لوحة (١٨٢ب).

(٣) رواه الترمذي (٢١٧٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول، والحديث حسَّنه التِّرمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع».

(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٩١)، وهو نفس الحديث السابق.

(٥) في (ز): «زر بن حبيب»، وهو خطأ. (٦) ليسحتنكم: ليستأصلنكم.

(٧) ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٣٩٠)، وفيه أبو الرقاد لا يعرف، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٩٧): فيه أبو الرقاد الجهيني: ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا»[١].

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و «الشهادات»، والترمذي في الفتن من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبي به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسين، حدَّثنا خَلَف بن خليفة، عن لَيْث، عن عَلْقَمَة بن مَرْثد، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أم سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا ظَهَرَتِ المَعَاصِي فِي أُمَّتِي، عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ**». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «**بَلَىٰ**»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**»[٢].

حديث آخر: قال[٣] الإمام أحمد: حدَّثنا حَجَّاج بن محمَّد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُونَ بِالمَعَاصِي، وَفِيهِمْ رَجُلٌ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ لا يُغَيِّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ - أَوْ: أَصَابَهُمُ العِقَابُ**»[٤].

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق به

وقال أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عُبَيد الله بن جرير، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لَمْ يُغَيِّرُوهُ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»[٥].

ثم رواه أيضًا عن وَكِيع، عن إسرائيل -وعن عبد الرزاق، عن مَعْمَر- وعن أسود، عن شريك ويونس -كلهم عن أبي إسحاق السَّبِيعي به.

وأخرجه ابن ماجة، عن علي بن محمَّد، عن وكيع به.

حديث آخر وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سفيان، حدَّثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنْذِر، عن حسن بن محمَّد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النَّبيَّ ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِي الأَرْضِ، أَنْزَلَ اللهُ بِأَهْلِ الأَرْضِ بَأْسَهُ**». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «**نَعَمْ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ**»[٦].

---

(١) البخاري (٢٤٩٣، ٢٦٨٦)، والترمذي (٢١٧٣)، وأحمد (٤/ ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٣)، وابن حبان (٢٩٧).

(٢) صحيح لغيره: أحمد (٦/ ٣٠٤) (٦/ ٢٩٤)، ورجاله ثقات عدا ليث بن أبي سليم اختلط ولم يميز حديثه فترك، والرواية الثانية عند أحمد (٦/ ٢٩٤) بمعناها وفيه امرأة مجهولة، لكن يبدو أنها صحابية؛ لقوله: امرأة من الأنصار، وللحديث شواهد أخرىٰ مذكورة في الباب، فبالجملة الحديث صحيح لغيره.

(٣) لوحة (١٨٣أ).

(٤) حسن: رواه أحمد (٤/ ٣٦١) (٣٦٤)، وأبو داود (٤٣٣٩)، ورواه ابن ماجة (٤٠٠٩).

(٥) انظر التخريج السابق.

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٤١)، وفيه امرأة الحسن بن محمَّد، لم تسم، فالإسناد ضعيف، لكن يرتقي للتحسين بالشواهد المذكورة قبله.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ينبه تعالىٰ عباده المؤمنين علىٰ نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قَلِيلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونَصَرَهُم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قَلِيلين مُسْتَخْفِين مُضْطَرِّين يخافون أن يتخطَّفهم النَّاس مِن سائر بلاد الله، مِن مشركٍ ومجوسيٍّ ورومِيٍّ، كلهم أعداء لهم لقلَّتِهم وعدم قوَّتهم، فلَمْ يَزَلْ ذلك دأبهم حتَّىٰ أَذِنَ الله لهم في الهجرة إلىٰ المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آوَوْا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبَذَلُوا مُهَجَهُمُ فِي طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادة بن دِعامة السَّدوسي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العَرَبِ أذلَّ النَّاس ذُلًّا وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالًا [مكعومين[١] علىٰ رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذٍ مِن شيءٍ يحسدون عليه][٢] مَن عاش منهم عاش شقيًّا، ومَن مات منهم رُدِّيَ في النَّار[٣]، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نَعْلَم قَبِيلًا مِن حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشرَّ منزلًا منهم، حتىٰ جاء الله بالإسلام فمَكَّن به في البلاد، ووسَّع به في الرِّزق، وجعلهم به ملوكًا علىٰ رقاب النَّاس، وبالإسلام أعطىٰ الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإنَّ ربَّكم مُنْعِمٌ يحب الشُّكر، وأهل الشُّكر في مزيدٍ مِن الله تعالىٰ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ بني قُرَيْظة لينزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك -وأشار بيده إلىٰ حلقه- أي: إنَّه الذَّبح، ثمَّ فَطِنَ أبو لبابة، ورأىٰ أنَّه قد خان اللهَ ورسولَهُ، فحلف لا يذوق ذواقًا حتىٰ يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلىٰ مسجد المدينة، فرَبَطَ نفسه في ساريةٍ منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتىٰ كان يَخِرُّ مغشيًّا عليه من الجهد، حتىٰ أنزل الله توبته علىٰ رسوله، فجاء النَّاس يُبَشِّرُونه بتوبةِ الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السَّارِيَة، فحلف لا يحلُّه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحلَّه، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع مِن مالي صدقة، فقال: «يَجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ»[٤].

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدَّثنا

---

(١) مكعومين: مقهورين أذلاء، من كَعَمَ فم البعير؛ أي: شَدَّه؛ لئلا يأكل أو يَعَضَّ، والذي يشد به: كِعام -بزنة كتاب-.
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٣) لوحة (١٨٣ب).
(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ٢٢١)، وإسناده مرسل.

محمَّد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان ﵁: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية(١).

وقال ابن جرير أيضًا: حدَّثنا القاسم بن بِشر بن معروف، حدَّثنا شَبابة بن سَوَّار، حدَّثنا محمَّد بن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدَّثني قال: حدَّثني جابر بن عبد الله؛ أنَّ أبا سفيان خرج من مكة، فأتىٰ جبريل رسول الله ﷺ فقال: إنَّ أبا سفيان في موضع كذا وكذا. [فقال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا](٢) فَاخْرُجُوا إِلَيْهِ وَاكْتُمُوا» فكتب رجلٌ مِن المنافقين إليه: إنَّ محمَّدًا يريدكم، فخُذُوا حذركم، فأنزل الله [ﷻ]: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الآية(٣). هذا حديث غريب جدًّا، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي «الصَّحِيحَيْن» قصة «حاطب بن أبي بَلْتَعَة» أنَّه كتب إلىٰ قريش يُعْلِمُهُم بقصد رسول الله ﷺ(٤) إيَّاهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله علىٰ ذلك، فبعث في إِثْرِ الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطبًا فأقرَّ بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنَّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دَعْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٥).

قلت: والصَّحيح أنَّ الآية عامَّة، وإن صحَّ أنَّها وردت علىٰ سببٍ خاصٍّ، فالأخذ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعُمُّ الذُّنوب الصِّغار والكبار اللَّازمة والمتعدِّية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد -يعني الفريضة- يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها.

وقال في رواية: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ يقول: بتَرْك سُنَّته وارتكاب معصيته.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي: لا تظهروا له من الحق ما يرضىٰ به منكم، ثم تخالفوه في السِّرِّ إلىٰ غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم.

وقال السُّدِّي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم.

وقال أيضًا: كانوا يسمعون من النَّبيِّ ﷺ الحديث فيفشونه حتىٰ يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن

---

(١) ضعيف جدًّا: رواه ابن جرير (٩/ ٢٢٢)، وفيه عبد العزيز بن أبان أحد المتروكين، انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٢٢)، وشيخه يونس بن الحارث ضعيف، كما في «التقريب».

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، وهو مثبت من «الطبري».

(٣) ضعيف: رواه ابن جرير (٩/ ٢٢١)، وأشار المصنف إلىٰ تضعيفه، ومحمَّد بن المحرم، قال ابن الجوزي: مِن أكذب النَّاس، وقال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال الرازي: واهي الحديث، انظر: «الضُّعفاء والمتروكين» لابن الجوزي (٣/ ٩٦).

(٤) لوحة (١٨٤أ).

(٥) البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

ابن زيد بن أسلم نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبارٌ وامتحانٌ منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]،وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]،وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]،وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجنَّاته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنَّه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا، والله سبحانه هو المتصرِّف المالك للدُّنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفي الأثر يقول الله تعالىٰ: «ابْنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»(١).

وفي «الصَّحيح» عن رسول الله(٢) ﷺ [أنه قال](٣): «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ أَنْ(٤) يُلْقَىٰ فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ [مِنْ](٥) أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ»(٦).

بل حُبُّ رسوله مقدَّمٌ علىٰ الأولاد والأموال والنُّفوس، كما ثبت في «الصحيح» أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٧).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عبَّاس، والسُّدِّي، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، وقَتادة، ومُقَاتِل بن حَيَّان: ﴿فُرْقَانًا﴾ مخرجًا. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة.

وفي رواية عن ابن عبَّاس: ﴿فُرْقَانًا﴾ نجاةً. وفي رواية عنه: نصرًا.

---

(١) لم أقف علىٰ هذا الأثر، وقد أشار ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٨/ ٥٢) أنَّه من الآثار الإسرائيلية، وأنه مما هو في الكتب الإلهية السابقة.

(٢) لوحة (١٨٤ب). (٣) سقط من (ز).

(٤) في (ز): «من كان يحب أن». (٥) سقط من (ز).

(٦) البخاري (٢١) (٦٠٤١)، ومسلم (٦٨)، والنسائي (٨/ ٩٦)، وابن ماجة (٤٠٣٣)، وأحمد (٣/ ١٧٤).

(٧) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (٨/ ١١٤)، وابن ماجة (٦٧).

وقال محمَّد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلًا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدَّم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإنَّ مَن اتَّقىٰ الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحقِّ مِن الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه مِن أمور الدُّنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه، وهو محوها وغفرها: سترها عن النَّاس -وسببًا لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [أي:](١) ليقيدوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السُّدِّي: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال وهو الغالب مِن صنيع مَن أراد غيره بسوء.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال عطاء: سمعت عُبَيْد بن عُمَيْر يقول: لما ائتمروا بالنَّبيِّ ﷺ ليُثْبِتُوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «**يُرِيدُونَ أَنْ يَسْحَرُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي**»، فقال: مَن أخبرك بهذا؟ قال: «**رَبِّي**»، قال: نِعْم الرَّبُّ ربك، استوصِ به خيرًا فقال: «**أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ؟! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي**»(٢).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثني محمَّد(٣) بن إسماعيل البصري(٤)، المعروف بالوساوسي، أخبرنا عبد الحميد بن أبي رَوَّاد(٥) عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبي وَدَاعة، أنَّ أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «**يُرِيدُونَ أَنْ يَسْحَرُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي**». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «**رَبِّي**»، قال: نِعْم الرَّبُّ ربك، فاستوصِ به خيرًا، «**قَالَ: أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ؟! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي**». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية(٦).

وذِكر أبي طالب في هذا، غريبٌ جدًّا، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثمَّ إنَّ هذه القصَّة واجتماع قريش علىٰ هذا الائتمار والمشاورة علىٰ الإثبات أو النفي أو القتل، إنَّما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحوٍ من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترءوا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الَّذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه.

---

(١) سقط من (ز). (٢) ضعيف: رواه الطبري (٩/ ٢٢٧)، والإسناد مرسل وفيه ابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٣) لوحة (١٨٥أ). (٤) في (ز): «المصري»، والمثبت موافق لما في «الطبري»، وهو الصواب.

(٥) في (ز): «داود»، وهو خطأ.

(٦) منكر: الطبري (٩/ ٢٢٧)، فيه عبد المجيد بن أبي رواد: صدوق يخطيء، وهذا من أخطائه؛ لأن وفاة أبي طالب كانت بمكة وهذه الآية مدنية، وفيه ابن جريج: مدلس وقد عنعن.

والدَّليل علىٰ صِحَّة ما قلنا: ما رواه الإمام محمَّد بن إسحاق بن يَسَار صاحب «المغازي» عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: وحدَّثني الكلبي، عن باذان مولىٰ أم هانئ، عن ابن عبَّاس؛ أن نفرًا من قريشٍ مِن أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار النَّدوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخٍ جليلٍ، فلمَّا رأوه قالوا: مَن أنت؟ قال: شيخ مِن نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم(١) رأيي ونُصْحِي. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرَّجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائلٌ منهم: احبسوه في وَثَاقٍ، ثم تربَّصوا به [ريب](٢) المنون، حتىٰ يهلك كما هلك مَن كان قبله مِن الشُّعَرَاء: زُهَيْر والنَّابِغَة، إنَّما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدوُّ الله الشَّيخ النَّجدي فقال: واللهِ ما هذا لَكُم بِرَأْيٍ، والله ليخرجنَّه ربُّه مِن مَحْبَسِه إلىٰ أصحابه، فليُوشِكَنَّ أن يثبوا عليه حتىٰ يأخذوه مِن أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم. قال: فانظروا في [غير](٣) هذا.

قال: فقال قائلٌ منهم: أَخْرِجُوهُ مِن بين أظهركم تستريحوا منه، فإنَّه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النَّجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة [قوله](٤) وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع(٥) من حديثه؟ والله لئن فعلتم، [ثم استعرض العرب](٦) ليجتمعن عليكم [ثم](٧) ليأتين [إليكم](٨) حتىٰ يخرجكم من بلادكم ويقتل أَشْرَافكُم. قالوا: صدق والله، فانظروا(٩) بابًا غير هذا.

قال: فقال أبو جهل - لعنه الله-: والله لأشيرنَّ عليكم برأي ما أراكم تصرمونه(١٠) بعد، ما أرىٰ غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ مِن كلِّ قبيلةٍ غلامًا شابًّا وسيطًا نهدًا(١١)، ثم يعطىٰ كل غلام منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربةَ رجل واحدٍ، فإذا قتلوه تفرَّق دَمُهُ في القبائل [كلها](١٢) فلا أظنُّ هذا الحي مِن بني هاشم يقوَوْن علىٰ حرب قريشٍ كلها، فإنَّهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل(١٣)، واسترحنا وقطعنا عنَّا أذاه.

قال: فقال الشيخ النَّجدي: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتىٰ لا رأي غيره، قال: فتفرَّقوا علىٰ ذلك وهم مجمعون له.

فأتىٰ جبريل النَّبيَّ ﷺ، فأمره ألا يَبِيتَ في مضجعه الَّذِي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك اللَّيلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

---

(١) لن يعدمكم: لا يعدوكم ويخطئكم. (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): «ما تشبع». (٦) سقط من (ز).
(٧) سقط من (ز). (٨) سقط من (ز). (٩) لوحة (١٨٥ب).
(١٠) تصرمونه: تقطعونه.
(١١) الوسيط: الشريف الحسيب في قومه، والنهد: الكريم الذي ينهض في معالي الأمور.
(١٢) سقط من (ز). (١٣) العَقل: الدية.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ وأنزل الله في قولهم: «تربَّصُوا به [ريب المنون][١] حتىٰ يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] وكان ذلك اليوم يسمىٰ «يوم الزَّحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي[٢].

وعن السُّدِّي نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وكذا روىٰ العَوْفي، عن ابن عبَّاس. وروي عن مجاهد، وعُرْوة بن الزبير، وموسىٰ بن عُقْبَة، وقتادة، ومِقْسَم، وغير واحدٍ، نحو ذلك.

وقال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتىٰ إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل عليه السلام فأمره ألا يَبِيتَ في مكانه الذي كان يَبِيتُ فيه فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت علىٰ فراشه وأن يَتَسَجَّىٰ ببُردٍ له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ علىٰ القوم وهم علىٰ بابه، وخَرَج معه بحِفْنَةٍ مِن تراب، فجعل يذرُّها علىٰ رءوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمَّدٍ ﷺ وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩][٣].

وقال[٤] الحافظ أبو بكر البيهقي: روي عن عكرمة ما يؤكد هذا.

وقد روىٰ أبو حاتم ابن حِبَّان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه»، من حديث عبد الله بن عثمان ابن خُثَيْم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبَّاس قال: دخلت فاطمةُ علىٰ رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «**مَا يُبْكِيكِ يَا بُنَيَّةُ؟**» قالت: يا أبتِ، وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأ من قريش في الحِجْر يتعاقدون باللَّات والعُزَّىٰ ومناة الثَّالثة الأخرىٰ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا مَن قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «**يَا بُنَيَّةُ، ائْتِينِي بِوَضُوءٍ**»، فتوضَّأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلىٰ المسجد. فلمَّا رأوه قالوا: إنما هو ذا فطأطئوا رءوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضةً من ترابٍ فحصبهم بها، وقال: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**». فما أصاب رجلًا منهم حَصَاة من حصياته إلا قُتل يوم بدرٍ كافرًا[٥].

---

(١) سقط من (ز).

(٢) رواه ابن جرير (٩/ ٢٢٧) من طريق محمَّد بن إسحاق وهو صدوق لكنه يدلس، وبقية رجاله ثقات، وأما الطريق الثاني فإنه لا يصح؛ لأن فيه الكلبي وهو متهم.

(٣) إسناده مرسل: رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٣٥).

(٤) لوحة (١٨٦أ).

(٥) صحيح: رواه ابن حبان (٦٥٠٢)، وفيه مسلم بن خالد الزنجي: صدوق كثير الأوهام، لكنه توبع، فقد رواه أحمد (١/ ٣٠٣)، والحاكم (٣/ ١٥٧) من طرق عن عبد الله بن خثيم به.

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، أخبرني عثمان الجَزَري[١]، عن مِقْسَم مولىٰ ابن عبَّاس أخبره عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت قريش [ليلة][٢] بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق -يريدون النَّبيَّ ﷺ- وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه فأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه علىٰ ذلك، فبات عليٌّ ﷺ علىٰ فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ حتىٰ لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النَّبيَّ ﷺ، فلمَّا أصبحوا ثاروا إليه، فلمَّا رأوا عليًّا رَدَّ الله تعالىٰ مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصَّا أثره، فلمَّا بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمرُّوا بالغار، فرأوا علىٰ بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العَنْكَبُوت علىٰ بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[٣].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن محمَّد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: فمكرت [بهم][٤] بكيدي المتين، حتىٰ خلصتك منهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا[٥] بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ عن كُفْرِ قريشٍ وعُتُوِّهم وتمرُّدهم وعِنَادِهِمْ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلىٰ عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ وهذا منهم قولٌ لا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرَّةٍ أن يأتوا بسورةٍ مِن مثله فلا يجدون إلىٰ ذلك سبيلًا، وإنَّما هذا قول منهم يَغُرُّون به أنفسهم ومَنِ اتَّبعهم علىٰ باطلهم.

وقد قيل: إنَّ القائل لذلك هو النَّضر بن الحارث -لعنه الله- كما قد نَصَّ علىٰ ذلك سعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّي، وابن جُرَيج وغيرهم؛ فإنه -لعنه الله- كان قد ذهب إلىٰ بلاد فارس، وتعلَّم مِن أخبار ملوكهم رُسْتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو علىٰ النَّاس القرآن، فكان إذا قام ﷺ مِن مجلس، جلس فيه النَّضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصًا؟ أنا أو محمَّد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالىٰ منه يوم بدرٍ ووقع في الأسارىٰ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته

(١) في (ز): «عثمان الجريري»، والمثبت هو الصواب وهو موافق لما في «المسند».

(٢) سقط من (ز).

(٣) أحمد (١/ ٣٤٨)، وفيه عثمان بن عمرو الجزري: وفيه ضعف.

(٤) سقط من (ز). (٥) لوحة (١٨٦ب).

صبراً بين يديه، ففُعل ذلك، ولله الحمد. وكان الَّذي أسره المقداد بن الأسود ﷺ كما قال ابن جرير:

حدَّثنا محمَّد بن بشَّار، حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شُعْبَة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قَتل النَّبيُّ ﷺ يوم بدر صبراً عُقْبَة بن أبي مُعَيْط وطُعَيْمة بن عَدِي، والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر، فلمَّا أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيري فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ مَا يَقُولُ». فأمر رسول الله ﷺ بقَتْلِه، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ». فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١).

وكذا رواه هُشَيْم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيَّة(٢)، عن سعيد بن جُبَيْر؛ أنه قال: «المطعم بن عدي» «بدل طعيمة» وهو غلط؛ لأنَّ المُطْعِم بن عدي لم يكن حيًّا يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ(٣) حَيًّا، ثُمَّ(٤) سَأَلَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَىٰ لَوَهَبْتُهُمْ لَهُ»(٥) -يعني: الأسارىٰ- لأنَّه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف.

ومعنىٰ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة؛ أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلَّم منها ويتلوها علىٰ النَّاس، وهذا هو الكَذِب البَحْت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٥، ٦]. أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنَّه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشِدَّة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولىٰ لهم أن يقولوا: «اللَّهمَّ، إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، ووفقنا لاتِّباعه». ولكن استفتحوا علىٰ أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٣]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:١٦]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١-٣]،وكذلك قال الجهلة من الأُمَم السَّالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]،وقال هؤلاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

قال شُعْبَة، عن عبد الحميد -صاحب الزيَّادي- عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

---

(١) مرسل: رواه ابن جرير (٩/ ٢٣١)، ورجاله ثقات إلا أنه مرسل.

(٢) في (ز): «أبي حية»، وهو خطأ.

(٣) لوحة (١٨٧أ)

(٤) في (ز): «لما».

(٥) البخاري (٣١٣٩).

فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية[١].

رواه البخاري عن أحمد ومحمَّد بن النضر، كلاهما عن عُبيد الله بن مُعاذ، عن أبيه، عن شعبة به.

وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: هو النَّضر ابن الحارث بن كِلْدة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١-٢][٢] وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والسُّدِّي: إنَّه النَّضر بن الحارث[٣] -زاد عطاء: فقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضعَ عشرة آية من كتاب الله ﷻ.

وقال ابن مرْدوَيْه: حدَّثنا محمَّد بن إبراهيم، حدَّثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدَّثنا أبو غسان حدَّثنا أبو تُمَيْلة، حدَّثنا الحسين، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفًا يوم أُحُد علىٰ فرس، وهو يقول: اللَّهمَّ، إن كان ما يقول محمَّد حقًّا، فاخسف بي وبفرسي[٤].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سفهة هذه الأمَّة وجهلتها فعاد الله بعائدته ورحمته علىٰ سفهة هذه الأمة وجهلتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة موسىٰ بن مسعود، حدَّثنا عِكْرِمة بن عمار، عن أبي زُمَيْل سِمَاك الحنفي، عن ابن عبَّاس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك فيقول النَّبيُّ ﷺ: «قَدْ قَدْ»! ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن عبَّاس: كان فيهم أمانان: النَّبيُّ ﷺ، والاستغفار، فذهب النَّبيُّ ﷺ وبقي الاستغفار[٥].

---

(١) البخاري (٤٦٤٨) (٤٦٤٩).

(٢) ضعيف: في إسناده رجل لم يسم، رواه ابن أبي حاتم (٩٠١٣).

(٣) لوحة (١٨٧ب).

(٤) عزاه لابن مردويه، ولم يعزه السيوطي في «الدرر المنثور» (٤/ ٥٥) لغيره، والإسناد كلهم ثقات عدا شيخ ابن مردويه فلم أهتد لترجمته.

(٥) ابن أبي حاتم (٥/ ٩٠١٧)، وابن جرير (٩/ ٢٣٢)، وفيه موسىٰ بن مسعود: صدوق، سيئ الحفظ، وشيخه عكرمة بن عمار: صدوق يغلط.

وقال ابن جرير: حدَّثني الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا أبو مَعْشَر، عن يزيد بن رُومَان ومحمَّد ابن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمَّد أكرمه الله مِن بَيْنِنا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلمَّا أَمسَوْا ندموا علىٰ ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللَّهمَّ! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال][1].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليُعَذِّب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتىٰ يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له مِن الله الدخولُ في الإيمان، وهو الاستغفار، يستغفرون، يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة.

وروي عن مُجاهد، وعِكْرِمَة، وعطية العَوْفي، وسعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّي نحو ذلك.

وقال الضَّحَّاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ[2] يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الغفار بن داود، حدَّثنا النضر بن عَرَبي[3] قال: قال ابن عبَّاس: إنَّ الله جعل في هذه الأُمَّة أَمَانَيْنِ لا يزالون معصومين مجارين[4] مِن قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأَمَانٌ بَقِيَ فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[5].

قال أبو صالح عبد الغفار: حدَّثني بعض أصحابنا، أنَّ النَّضر بن عربي حدَّثه هذا الحديثَ مجاهدٌ، عن ابن عبَّاس.

وروىٰ ابن مَرْدوَيه وابن جرير، عن أبي موسىٰ الأشعري نحوًا من هذا[6] وكذا رُوي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ.

وقال التِّرمذي: حدَّثنا سفيان بن وَكِيع، حدَّثنا ابن نُمَيْر، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عباد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسىٰ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فَإِذَا مَضَيْتُ،**

---

(١) ضعيف: ابن جرير (٩/ ٢٣٢)، وإسناده مرسل. (٢) لوحة (١٨٨أ).

(٣) في (ز): «النضر بن عدي»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٤) في (ز): «محبورين»، والصواب ما أثبتناه.

(٥) عزاه السُّيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن أبي حاتم (٩٠٢٥) وأبي الشيخ وابن مردويه والإسناد المذكور لا بأس به إلا أن فيه انقطاعًا، وصله في الإسناد الذي بعده لكن الطريق الذي وصله بها فيها جهالة شيوخ أبي صالح، وبالجملة فالإسناد حسن.

(٦) صحيح: رواه الطبري (٩/ ٢٣٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥) إلىٰ أبي الشيخ والطبراني وابن مردويه والحاكم وابن عساكر.

تَرَكْتُ فِيهِمُ الِاسْتِغْفَارَ [إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»][(١)(٢)].

ويَشْهَد لهذا ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والحاكم في «مستدركه»، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[(٣)].

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا معاوية بن عمرو، حدَّثنا رِشْدِين -هو ابن سعد- حدَّثني معاوية بن سعد التُّجِيبي، عمن حدثه، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «العَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللهَ ﷻ»[(٤)].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يُخْبِر تعالىٰ أنَّهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم وأُسِرَت سَراتهم[(٥)]. وأرشدهم تعالىٰ إلىٰ الاستغفار من الذنوب، التي هم[(٦)] متلبسون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا.

واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالىٰ في يوم الحديبية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥].

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبزىٰ قال: كان

---

(١) حسن لغيره: رواه الترمذي (٣٠٨٢)، وفيه إسماعيل بن مهاجر: ضعيف، وعباد بن يوسف مجهول، لكن يشهد له الآثار المذكورة قبله، وهذا لا يقال بالرأي، ويشهد له كذلك الحديث الآتي كما قال ابن كثير.

(٢) سقط من (ز)، وهو مثبت من «الترمذي».

(٣) صححه الألباني: رواه أحمد (٣/ ٢٩)، والحاكم (٤/ ٢٦١)، وفيه دراج: روايته عن أبي الهيثم ضعيفة، ورواه أحمد من طريق أخرىٰ (٣/ ٢٩، ٤١)، وفيه انقطاع، وبهذه المتابعة أورده الألباني في «الصحيحة» (١٠٤).

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/ ٢٠)، وفيه رشدين بن سعد: ضعيف، وشيخه معاوية: مجهول، ويشهد له الروايات السابقة.

(٥) السراة: الأشراف. (٦) لوحة (١٨٨ ب).

النَّبيُّ ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النَّبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقيَّة من المؤمنين الذين بقُوا فيها يستغفرون -يعني بمكة- فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ قال: فأذِنَ الله في فتح مكَّة، فهو العذاب الذي وعدهم[١].

ورُوي عن ابن عبَّاس، وأبي مالك والضَّحَّاك، وغير واحد نحو هذا.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ علىٰ أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

قال ابن جرير: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح، عن الحسين بن[٢] واقد، عن يزيد النَّحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقاتلوا بمكَّة، فأصابهم فيها الجوع والضُّر[٣].

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي تُمَيْلة يحيىٰ بن واضح.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمَّد بن الصباح، حدَّثنا حجاج بن محمَّد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنىٰ أهل الشرك فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٤].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وكيف لا يُعذِّبهم الله وهم يَصُدُّون عن المسجد الحرام أي الذي[٥] بكَّة، يَصُدُّون المؤمنين الذين هم أهْله عن الصَّلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنَّما أهله النَّبيُّ ﷺ وأصحابه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]،وقال تعالىٰ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ

---

(١) ضعيف: ابن جرير (٩/ ٢٣٤)، وشيخ ابن جرير: محمَّد بن حميد الرازي: قال عنه الحافظ في «التقريب»: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه، والإسناد مرسل.

(٢) في (ز): «الحسين عن واقد»، وهو خطأ.

(٣) ضعيف: رواه ا بن جرير (٩/ ٢٣٨)، وابن أبي حاتم (٩٠٣٠) وإسناده ضعيف مرسل.

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٩٠٢٩) وفيه انقطاع بين عطاء وابن عبَّاس.

(٥) لوحة (١٨٩أ).

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه في تفسير هذه الآية: حدَّثنا سليمان بن أحمد -هو الطبراني- حدَّثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدَّثنا نُعَيْم بن حماد، حدَّثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك، ﷺ قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ من آلُكَ؟ قال: «كُلُّ تَقِيٍّ»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١].

وقال الحاكم في «مستدركه»: حدَّثنا أبو بكر الشافعي، حدَّثنا إسحاق بن الحسن، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشًا[٢] فقال: «هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟» قالوا: فينا ابن أختنا[٣] وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حَلِيفُنَا مِنَّا، وَابْنُ أُخْتِنَا[٤] مِنَّا، وَمَوْلَانَا مِنَّا، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ»[٥].

ثم قال: هذا [حديث][٦] صحيح، ولم يخرجاه.

وقال عُرْوَة، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق في قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمَّد ﷺ وأصحابه ﷺ.

وقال مجاهد: هم المجاهدون، مَن كانوا، وحيث كانوا.

ثمَّ ذكر تعالىٰ ما كانوا يَعْتَمِدُونَه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال عبد الله بن عمر، وابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو رجاء العُطَاردي، ومحمَّد بن كعب القرظي، وحُجْر بن عَنْبَس، ونُبَيْط بن شُرَيْط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير -وزاد مجاهد: وكانوا يُدخِلُونَ أصابعهم في أفواههم.

وقال السُّدِّي: المُكَاء: الصفير علىٰ نحو طير أبيض يقال له: «المُكَّاء[٧]»، ويكون بأرض الحجاز.

والتَّصدية: [التَّصْفِيق][٨].

---

(١) موضوع: رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٠٠٢)، وفيه نوح بن أبي مريم: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.
(٢) في (ز): «غيركم»، والمثبت موافق لما في «المستدرك».
(٣) في (ز): «أخينا».
(٤) في (ز): «أخينا».
(٥) ضعيف: الحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه، قلت: وفيه إسماعيل بن عبيد: مقبول. كما في «التقريب»، فالإسناد ضعيف، ولكن قوله: «أوليائي المتقون» ثابت صحيح في «سنن أبي داود» (٤٢٤٢)، وصححه الألباني في «الجامع الصغير» (٤١٩٤).
(٦) سقط من (ز).
(٧) المُكَّاء -وجمعه: مكاكي-: طائر نحو القنبرة، إلا أن في جناحيه بلقًا، سمي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرًا حسنًا.
(٨) سقط من (ز).

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو خَلاد سليمان بن خلاد، حدَّثنا يونس بن محمَّد المؤدب، حدَّثنا يعقوب -يعني ابن عبد الله الأشعري- حدَّثنا جعفر بن [أبي][1] المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس[2] في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراةً تصفر وتُصَفِّق. والمكاء: الصَّفير، وإنَّما شبهوا بصفير الطَّير وتصدية التَّصفيق[3].

وهكذا روىٰ علي بن أبي طلحة والعَوْفي، عن ابن عبَّاس. وكذا روىٰ عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمَّد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضَّحَّاك، وقتادة، وعطية العوفي، وحُجْر بن عَنْبَس[4]، وابن أبزَىٰ نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن بشار، حدَّثنا أبو عامر[5]، حدَّثنا قُرَّة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصفير. والتَّصدية: التَّصفيق. قال قرة: وحَكَىٰ لنا عطيَّة فعل ابن عمر، فصَفَّر ابن عمر، وأمال خدَّه، وصفَّق بيديه[6].

وعن ابن عمر أيضًا أنه قال: كانوا يضعون خدودهم علىٰ الأرض ويُصَفِّقُون ويُصَفِّرُون. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه[7].

وقال عكرمة: كانوا يطوفُون بالبَيْت علىٰ الشمال.

قال مجاهد: وإنَّما كانوا يَصْنَعُون ذلك لِيَخلِّطُوا بذلك علىٰ النَّبيِّ ﷺ صلاته.

وقال الزُّهري: يستهزئون بالمؤمنين.

وعن سعيد بن جُبَيْر وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله ﷻ.

قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضَّحَّاك، وابن جُرَيْج، ومحمَّد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بَدْر من القتل والسَّبْي. واختاره ابن جرير، ولم يَحْكِ غيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عمر، حدَّثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسَّيف، وعذاب أهل التَّكذيب بالصَّيحة والزَّلزلة.

---

(١) سقط من (ز).

(٢) لوحة (١٨٩ب).

(٣) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم (٩٠٤٥)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة روايته عن سعيد بن جبير ضعيفة.

(٤) في (ز): «عبس».

(٥) كذا بالأصل، ووقع في بعض النُّسخ الخطية والمطبوعة (أبو عمر)، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٦) رواه الطبري (٩/ ٢٤١) من طرق عن عطية عن ابن عمر به وعطية هو العوفي: صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًّا مدلسًا، قلت: لكن معنىٰ المكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق معنىٰ صحيح ثابت عند جمهور المفسرين.

(٧) رواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٦) معلقًا بصيغة التمريض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾[1] لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني الزهري، ومحمَّد بن يحيىٰ بن حِبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد[2] بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فَلُّهم[3] إلىٰ مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيرِه، مشىٰ عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أميَّة، في رجالٍ مِن قريشٍ أُصِيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومَن كانت له في تلك العير مِن قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمَّدًا قد وَتَركم[4] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال علىٰ حَرْبِه، لعلَّنا أن ندرك منه ثأرًا بمن[5] أُصِيب منَّا! ففعلوا. قال: ففيهم -كما ذكر عن ابن عبَّاس- أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[6].

وهكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والحَكَم بن عتيبة، وقتادة، والسُّدِّي، وابن أبزَىٰ: أنَّها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُدٍ لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضَّحَّاك: نزلت في أهل بدر.

وعلىٰ كل تقديرٍ، فهي عامَّةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصًّا، فقد أخبر تعالىٰ أن الكفَّار ينفقون أموالهم لِيَصُدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ، فسيفعلون ذلك، [ثمَّ][7] تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامةً؛ حيث لم تُجْدِ شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم علىٰ كلمة الحق، والله مُتِمُّ نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعْلِن كلمته، ومظهر دينه علىٰ كل دينٍ، فهذا الخزي لهم في الدُّنيا، ولهم في الآخِرَةِ عذاب النَّار، فمَن عاش منهم، رأىٰ بِعَيْنِهِ وسَمِعَ بأُذُنِه ما يسوءه، ومَن قُتِل

---

(١) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: قال بعضهم: ثمرة الآية خطر المعاونة علىٰ معصية الله تعالىٰ، وأن الإنفاق في ذلك معصية، فيدخل في هذا معاونة الظلمة علىٰ حركاتهم في البغي والظلم، وكذلك بيع السلاح والكراع، لمن يستعين بذلك علىٰ حرب المسلمين.

(٢) في بعض النسخ «سعيد»، وهو خطأ.

(٣) الفَلّ: المنهزمون الراجعون من جيش قد هُزم.

(٤) وتركم: أدرك فيكم مكروهًا بالقتل، والموتور: الذي قُتل له قتيل فلم يأخذ بثأره.

(٥) لوحة (١٩٠أ).

(٦) رواه ابن هشام (٣/ ٦٤) والطبري (٩/ ٢٤٥)، والإسناد مرسل، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلىٰ ابن المنذر وابن أبي حاتم (٧/ ٨٦ برقم ٩٨٠٠) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٧) سقط من (ز).

منهم أو مَاتَ، فإلىٰ الخِزْي الأبدي والعذاب السَّرْمَدِيِّ؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السَّعادة مِن أهل الشَّقاء وقال السُّدِّي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التَّمييز في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التَّمييز في الدُّنيا، بما يظهر مِن أعمالهم للمُؤْمِنِين، وتكون «اللَّام» معلِّلةً لما جعل الله للكُفَّار مِن مالٍ يُنْفِقُونه في الصَّدِّ عَن سبيل الله؛ أي: إنَّما أَقْدَرْنَاهُم علىٰ ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يُطِيعُه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنُّكول عن ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ الآية [آل عمران:١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ [(١)] جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ونظيرتها في «براءة» أيضًا.

فمَعْنَىٰ الآية علىٰ هذا: إنَّما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم علىٰ إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليتَميَّز الخبيث من الطَّيِّب، فيجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض، [﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه علىٰ بعض][(٢)] كما قال تعالىٰ في السَّحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور:٤٣] أي: متراكمًا متراكبًا، ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدُّنيا والآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أي: عمَّا هم فيه من الكفر والمشاقَّة والعِنَاد ويَدْخُلُوا في الإسلام والطَّاعة والإنابة، يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَف؛ أي: مِن كفرهم، وذنوبهم

(١) لوحة (١٩٠ب).
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

وخطاياهم، كما جاء في «الصحيح»، من حديث أبي وائل عن ابن مسعود؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ، لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ، أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**»(١).

وفي «الصَّحيح» أيضًا: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا**»(٢).

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ أي: يستمرُّوا علىٰ ما هُم فِيهِ، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مَضَتْ سُنَّتُنَا في الأوَّلين أنَّهم إذا كذبوا واستمروا علىٰ عنادهم، أنَّا نعاجلهم بالعَذَاب والعقوبة.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في قريشٍ يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السُّدِّي ومحمَّد بن إسحاق؛ أي: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قال البخاري: حدَّثنا الحسن بن عبد العزيز(٣)، حدَّثنا عبد الله بن يحيىٰ، حدَّثنا حَيْوَة بن شُرَيْح، عن بكر بن عمرو، عن بُكَيْر، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنَّ رجلًا جاءه فقال: يا أبا عبد الرَّحمن، ألا تسمع(٤) ما ذَكَرَ الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ الآية [الحجرات:٩]، فمَا يَمْنَعُكَ ألَّا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعَيَّر بهذه الآية ولا أُقَاتِل، أَحَبُّ إليَّ مِن أَنْ أُعَيَّر بالآية التي يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ إلىٰ آخر الآية [النساء:٩٣]، قال: فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا وكان الرَّجل يُفْتَن فِي دينه: إمَّا أن يقتلوه، وإمَّا أن يُوَثِّقُوه، حتىٰ كثر الإسلام فلم تكن فتنةٌ، فلمَّا رأىٰ أنَّه لا(٥) يوافقه [فيما يريد](٦) قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما(٧) قولي في علي وعثمان؟ أمَّا عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأمَّا علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُه -وأشار بيده- وهذه ابنته -أو: بنته- حيث ترون.

وحدَّثنا أحمد بن يونس، حدَّثنا زُهَيْر، حدَّثنا بَيَان أنَّ وَبَرَة حدَّثه قال: حدَّثني سعيد بن جُبَيْر قال: خرج علينا -أو: إلينا- ابن عمر رضي الله عنهما فقال [رجل](٨) كيف ترىٰ في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمَّد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم(٩) علىٰ الملك(١٠).

هذا كله سياق البخاري رحمه الله.

---

(١) البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٨٩)، وابن ماجة (٤٢٤٢)، وأحمد (١/ ٤٠٩، ٤٢٩).

(٢) مسلم (١٢١)، رواه أحمد (٤/ ١٩٩، ٢٠٤).

(٣) في (ز): «الحسن بن عبد الرحمن»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٤) في (ز): «ألا تصنع»، وهو خطأ.

(٥) لوحة (١٩١أ).

(٦) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(٧) في (ز): «أما».

(٨) سقط من (ز).

(٩) في (ز): «تقاتلكم»، والمثبت موافق لما في «البخاري».

(١٠) البخاري (٤٦٥٠، ٤٦٥١).

وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنَّه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن النَّاس قد صنعوا ما ترىٰ، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أنَّ الله حرَّم عليَّ دَمَ أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟

قال: قد قاتلنا حتىٰ لم تكن فتنة، وكان الدِّين كُلُّه لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتىٰ تكون فتنة، ويكون الدِّين لِغَيْرِ الله.

وكذا رواه حمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللَّخْمي قال: كنت عند عبد الله ابن عمر رضي الله عنه فأتاه رجلٌ فقال: إنَّ الله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتَّىٰ كان الدِّين كلُّه لله، وذهب الشِّرك ولم تكن فتنةٌ، ولكنَّك وأصحابك تقاتلون حتىٰ تكون فتنةٌ، ويكون الدِّين لغير الله. رواهما ابن مَرْدويه.

وقال أبو عَوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمِي، عن أبيه قال: قال ذو البُطَين -يعني أسامة بن زيد- لا أقاتل رجلًا يقول: لا إله إلا الله أبدًا. قال: فقال [سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلًا يقول: لا إله إلا الله أبدًا. فقال][1] رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتىٰ لم تكن فتنةٌ، وكان الدِّين كله لله. رواه ابن مردويه[2].

وقال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع عن أنس، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم.

وقال محمَّد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتىٰ لا يفتن مسلمٌ عَن دِينِهِ.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ[3]﴾ قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس في هذه الآيةِ، قال: يخلص التَّوحيد لله.

وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله.

وقال محمَّد بن إسحاق: ويكون التَّوحيد خالصًا لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونَهُ مِن الأنداد.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا يكون مع دينكم كفر.

ويشهد له ما ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: **«أُمِرتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ ﷻ»**[4] وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرَّجل يُقاتل شجاعةً ويُقاتل

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٢) ثبت نحوه في «صحيح مسلم» (٩٦)، والبيهقي (٨/ ١٩٦).
(٣) لوحة (١٩١ب).
(٤) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

حَمِيَّةً، ويُقاتل رِيَاءً، أيُّ ذلك في سبيل الله ﷻ؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ»(١).

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ [أي: بقتالكم - عمَّا هم فيه مِن الكُفْر، فكُفُّوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم](٢) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:٥]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣]. وفي «الصَّحيح» أنَّ رسول الله ﷺ قال لأسامة لمَّا علا ذلك الرَّجل بالسَّيف، فقال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله - فقال لأسامة: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» قال: يا رسول الله، إنَّما قالها تعوُّذًا. قال: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «مَنْ لَكَ بِلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» قال أسامة: حتىٰ تمنَّيت أني لم أكن أَسْلَمْتُ إلا ذلك اليوم(٣).

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: وإن استمروا علىٰ خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ سَيِّدكم وناصركم علىٰ أعدائِكُم، فنِعْم المولىٰ ونِعْم النَّصِير.

وقال محمَّد بن جرير: حدَّثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبان العطار، حدَّثنا هشام بن عروة، عن عُرْوَة: أنَّ عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلامٌ عليك، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعد، فإنَّك كتبت إليَّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ مِن مكَّة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله، كان مِن شأن مخرج رسولِ الله ﷺ مِن مكَّة، أنَّ الله أعطاه النُّبوَّة، فَنِعْم النَّبي، ونعم السَّيِّد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خيرًا، وعرَّفنا وجهه في الجنَّة، وأحيانا علىٰ ملَّته، [وأماتنا عليها](٤) وبعثنا عليها وإنَّه لمَّا دعا قومه لِمَا بعثه الله له مِن الهدىٰ والنُّور(٥) الَّذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يَسْمعُون مِنه، حتَّىٰ ذكر طواغيتهم، وقَدِم ناسٌ من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه النَّاس واشْتَدُّوا عليه وكرهوا ما قال، وأَغْرَوْا به مَن أطاعهم، فانصفق عنه عامَّة النَّاس(٦)، فتركوه إلا مَن حفظه الله منهم، وهم قليلٌ، فمَكَثَ بذلك ما قدَّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتَّبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةً شديدة الزِّلزال، فافتُتِن مَنِ افتتن، وعصم الله مَن شاء منهم، فلمَّا فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلىٰ أرض الحبشة.

وكان بالحبشة ملكٌ صالحٌ يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَىٰ عليه مع ذلك،

---

(١) البخاري (١٢٣) (٢٨١٠) (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٧١٧)، والترمذي (١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٢٣)، وابن ماجة (٢٧٨٣).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

(٣) البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٤) سقط من (ز).

(٥) لوحة (١٩٢أ).

(٦) أي: رجعوا وانصرفوا.

وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتَّجرُون فيها، وكانت مَسْكنًا لتجارهم، يجدون فيها رفاغًا(١)(٢) من الرِّزق وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها النَّبيُّ ﷺ فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف(٣) عليهم الفتن، ومكث هو فلَمْ يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدُّون علىٰ مَن أسلم منهم، ثمَّ إنَّه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجالٌ من أشرافهم ومَنَعتِهم(٤)، فلمَّا رأوا ذلك [استرخوا](٥)(٦) استرخاءةً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولىٰ هي [التي](٧) أخرجت مَن خرج(٨) من أصحاب رسول الله ﷺ قِبَلَ أرض الحبشة مخافتها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفِتَنِ والزلزال، فلمَّا استرخىٰ عنهم ودخل في الإسلام مَن دخل منهم، تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّه قد استُرْخِي عمَّن كان منهم بمكَّة، وأنَّهم لا يفتنون، فرجعوا إلىٰ مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون، وأنَّه أسلم من الأنصار بالمدينة ناسٌ كثيرٌ، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكَّة، فلمَّا رأت قريش ذلك، تآمَرَتْ علىٰ أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم، فحرصوا علىٰ أن يَفْتنُوهم، فأصابهم جهدٌ شديدٌ، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فِتْنَتَان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلىٰ أرض الحبشة، حين أمرهم النَّبيُّ ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا مَن يَأْتِيهم مِن أهل المدينة، ثم إنَّه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سَبعون نقيبًا، رءوس الَّذِين أسلموا، فوافَوْه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطَوْه(٩) عهودهم علىٰ أنا منك وأنت منَّا، وعلىٰ أن مَن جاء مِن أصحابك أو جئتنا، فإنَّا نمنعك ممَّا نَمْنَع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم(١٠) قريش عند ذلك، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلىٰ المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ﷻ فيها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾(١١).

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنَّه كتب إلىٰ الوليد -يعني ابن عبد الملك بن مروان- بهذا، فذكر مثله وهذا صحيحٌ إلىٰ عروة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١٢).

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

---

(١) رَفُغَ عيشه رفاغةً: اتسع، وترفَّغ الرجل: توسع.
(٢) في (ز): «يتخذون فيها رفاغًا»، والمثبت هو الصواب وهو موافق لما في «الطبري».
(٣) في (ز): «وخافوا»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٤) المَنَعَة: جمع مانع، مثل: كفرة وكافر، وهم الذين يمنعون من يريدهم بسوء.
(٥) أي: خففوا عنهم العذاب. (٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز).
(٨) في (ز): «من أخرجت». (٩) لوحة (١٩٢ب).
(١٠) في (ز): «عليه». (١١) مرسل: رواه ابن جرير (٩/ ٢٤٩).
(١٢) مرسل كسابقه: الطبري (٩/ ٢٥٠).

يُبيِّن تعالىٰ تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمَّة الشَّريفة، مِن بين سائر الأُمَمِ المتقدِّمة، مِن إحلال المغانم.

و«الغنيمة»: هي المال المأخوذ مِن الكفَّار بإيجاف[١] الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجِزْية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفةٍ من علماء السَّلف والخلف.

ومن العُلماء مَن يُطْلِق الفيء علىٰ ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة علىٰ الفيء أيضًا؛ ولهذا ذهب قتادة إلىٰ أن هذه الآية ناسخةٌ لآية «الحشر»: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية «الأنفال» تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها [للمجاهدين][٢] وخمسًا منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بَدْر، وتلك نزلت في بني النَّضِير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النَّضير بعد بدر، هذا أَمْرٌ لا يُشَكُّ فيه ولا يُرْتَاب، فمَن يفرق بين معنىٰ الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعًا إلىٰ رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ توكيدٌ لتخميس كل قليل وكثيرٍ حتىٰ الخيط والمخيط، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا[٣] يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسِّرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نَصِيبٌ من الخمس يجعل في الكَعْبَةِ.

قال أبو جعفر الرَّازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرِّيَاحي قال: كان رسول الله ﷺ يؤتىٰ بالغَنِيمَةِ فيقسمها علىٰ خمسة، تكون أربعةَ أخماسٍ لِمَنْ شَهِدَها، ثمَّ يأخذ الخمس فيضرب بيَدِهِ فيه، فيأخذ منه الَّذِي قبض كفَّه، فيجعله للكعبة وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي علىٰ خمسة أسهم، فيكون سهم للرَّسول، وسَهْمٌ لِذَوِي القربىٰ، وسهمٌ لليَتَامَىٰ، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لابن السَّبيل[٤].

وقال آخرون: ذِكْر الله هاهنا استفتاح كلام للتَّبرُّك، وسهم لرسوله ﵇.

قال الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاس ﵄: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سَرِيَّةً فغنموا، خَمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [قال:

---

(١) الإيجاف: سرعة السير، وأوجف دابة: حثها.
(٢) سقط من (ز). (٣) لوحة (١٩٣أ).
(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦) إلىٰ ابن المنذر وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم (٩٠٨٦) وإسناده مرسل.

وقوله][1] ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مفتاح كلام، لله ما في السَّموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحدًا[2].

وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، والحسن بن محمَّد ابن الحنفيَّة، والحسن البصري، والشَّعبي، وعَطاء ابن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة وقتادة، ومغيرة، وغير واحدٍ: أن سهم الله ورسوله واحدٌ.

ويؤيِّد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله[3] بن شقيق، عَن رجل [مِن][4] بلقين[5][6] قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرىٰ، وهو يَعْرِضُ فرسًا، فقلت: يا رسولَ الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خُمُسُهَا، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ لِلْجَيْشِ». قلت: فما أحد أولىٰ به مِن أحد؟ قال: «لا وَلا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ، لَيْسَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ المُسْلِمِ»[7].

وقال ابن جرير: حدَّثنا عمران بن موسىٰ، حدَّثنا عبد الوارث، حدَّثنا أبان، عن الحسن قال: أوصىٰ أبو بكر[8] بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضىٰ مِن مالي بما رَضِيَ الله لنفسه[9].

ثمَّ اختلف قائلو هذا القول، فروىٰ علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: كانت الغنيمة تقسم علىٰ خمسة أخماس، فأربعة منها بين مَن قَاتَل عَلَيْهَا، وخمس واحدٌ يقسم علىٰ أربعة[10] فربع لله وللرَّسول [ولذي القربىٰ -يعني: قرابة النَّبيِّ ﷺ-][11] فما كان لله وللرَّسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النَّبيُّ ﷺ من الخمس شيئًا، [والربع الثَّاني لليتامىٰ، والرُّبع الثَّالث للمساكين، والرُّبع الرَّابع لابن السبيل][12][13].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو مَعْمَر المِنْقَري، حدَّثنا عبد الوارث بن[14] سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُرَيْدَة في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال: الذي لله فلنبيِّه، والذي للرسول لأزواجه[15]. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت من «تفسير الطبري».

(٢) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦) إلىٰ الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه، وهذه رواية منقطعة كما تقدم فالضَّحَّاك لم يلقَ ابن عبَّاس وهو كثير الإرسال، ولكن يؤيده الحديث الآتي.

(٣) في (ز): «عبيد الله»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٤) سقط من (ز).

(٥) رجل من بلقين؛ أي: من بني القين حي من بني أسد.

(٦) أي: بنو القين -خففت- وهم حي من بني أسد.

(٧) صحيح: «السنن الكبرىٰ» (٦/ ٣٢٤).

(٨) في (ز): «أوصىٰ الحسن بالخمس»، وهو خطأ، وما ذكرناه هو الصواب، وهو موافق لما في «تفسير الطبري».

(٩) رواه الطبري (١٠/ ٣).

(١٠) في (ز): «علىٰ أربعة أخماس»، والمثبت من «الطبري».

(١١) سقط من (ز).

(١٢) سقط من (ز).

(١٣) ضعيف: رواه الطبري (١٠/ ٤)، وإسناده مرسل، وما بين المعقوفتين من «تفسير الطبري».

(١٤) لوحة (١٩٣ب).

(١٥) رواه ابن أبي حاتم (٩٠٨٩).

قال: خمس الله والرسول واحدٌ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء -يعني: النَّبيَّ ﷺ[(١)].

وهذا أعم وأشمل، وهو أنَّ الرسول ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ، حدَّثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنَّه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي ﷺ فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعُبَادَة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ بهم في غزوةٍ إلىٰ بعيرٍ من المغنم، فلمَّا سَلَّم قام رسول الله ﷺ فتناول وَبَرة بين أُنملتيه فقال: «**إنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الخُمُس، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَدُّوا الخَيْطَ وَالمَخِيطَ، وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ، وَلا تَغُلُّوا، فَإِنَّ الغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللهِ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ، وَلا تُبَالُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللهِ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَجَاهِدُوا فِي [سَبِيلِ]**[(٢)] **اللهِ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ [عَظِيمٌ]**[(٣)] **يُنَجِّي بِهِ اللهُ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ**»[(٤)].

هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، ولكن روىٰ الإمام أحمد أيضًا، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول[(٥)].

وعن عمرو بن عَبَسة[(٦)] أن رسول الله ﷺ صلَّىٰ بهم إلىٰ بعيرٍ من المغنم، فلمَّا سلَّم أخذ وبرة مِن ذلك البعير ثم قال: «**وَلا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذِهِ، إِلَّا الخُمُسَ، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ**»[(٧)]. رواه أبو داود والنَّسائي.

وقد كان للنَّبيِّ ﷺ من المغانم شيء يَصْطَفِيه لنفسه عبدًا أو أَمَةً أو[(٨)] فرسًا أو سيفًا أو نحو ذلك، كما نَصَّ علىٰ ذلك محمَّد بن سيرين وعامر الشَّعبي، وتبعهما علىٰ ذلك أكثر العلماء.

وروىٰ الإمام أحمد، والترمذي وحسنه عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ تنفَّل سيفه[(٩)] ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأىٰ فيه الرُّؤيا يوم أحد[(١٠)].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٩٠٨٨). (٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) حسن: رواه أحمد (٥/ ٣١٤، ٣١٦)، وفي الإسناد عبد الله بن أبي مريم: ضعيف، لكن له متابعات عند أحمد (٥/ ٣٢٦)، وله متابعات أخرىٰ عند الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ومن شواهده حديث عبد الله بن عمرو وحديث عمرو بن عَبَسَة الآتيان؛ لذا فقد أورده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٧٢).

(٥) حسن: أحمد (٢/ ١٥٤)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٢/ ١٧٨). (٦) في (ز): «عنبسة».

(٧) صحيح: أبو داود (٢٧٥٥)، وإسناده صحيح، وصححه الألباني. (٨) لوحة (١٩٤أ).

(٩) أي: أخذه نفلًا، غير نصيبه من الخُمْس.

(١٠) صحيح: أحمد (١/ ٢٧٦)، والترمذي (١٥٦١)، وابن ماجة (٢٨٠٨).

وعن عائشة ﵂ قالت: كانت صفية من الصَّفي[1]. رواه أبو داود في «سننه».

وروى أيضًا بإسناده، والنسائي أيضًا عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجلٌ معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَىٰ بَنِي زُهَيْرِ بْنِ أُقَيْشٍ، إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَأَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَدَّيْتُمُ الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ، وَسَهْمَ النَّبِيِّ وَسَهْمَ الصَّفِيِّ، أَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ وَرَسُولِهِ». فقلنا: مَن كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ[2].

فهذه أحاديثُ جيِّدةٌ تدلُّ علىٰ تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إنَّ الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلَّامة ابن تيمية ﵀: وهذا قول مالك وأكثر السَّلف، وهو أصحُّ الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعُلِمَ، فقد اختلف أيضًا في الَّذي كان يناله ﵇ من الخمس، ماذا يُصنَعُ بِهِ مِن بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يَلِي الأمر مِن بعده. روىٰ هذا عن أبي بكرٍ وعليٍّ وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع[3].

وقال آخرون: يُصْرَف في مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردودٌ علىٰ بَقِيَّة الأصناف: ذوي القربىٰ، واليتامىٰ، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النَّبيِّ ﷺ وسهم ذوي القربىٰ مردودان علىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعةٍ من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربىٰ كما رواه ابن جرير.

حدَّثنا الحارث، حدَّثنا عبد العزيز، حدَّثنا عبد الغفار، حدَّثنا المِنْهَال بن عمرو، وسألت عبد الله بن محمَّد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالا: هو لنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقالا: يتامانا ومساكيننا[4].

وقال سفيان الثوري، وأبو نُعَيْم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمَّد ابن الحنفية ﵀ عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ[5] فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٩٩٤). (٢) صحيح: أبو داود (٢٩٩٩)، والنسائي (٧/ ١٣٤).

(٣) من حديث أبي بكر ولفظه: «إِذَا أَطْعَمَ اللهُ نَبِيًّا طُعْمَةً ثُمَّ قَبَضَهُ كَانَتْ لِلَّذِي يَلِي بَعْدَهُ فَلَمَّا وَلِيتُ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّهُ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ» رواه البيهقي (٦/ ٣٠١) (٦/ ٣٠٣)، وأحمد (١/ ٤)، وحسنه الألباني كما في «إرواء الغليل» (١٢٤١).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٨). (٥) لوحة (١٩٤ب).

قائلون: سهم النَّبيِّ ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقرابة النَّبيِّ ﷺ، وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع قولهم علىٰ أن يجعلوا هذين السَّهْمَيْن في الخيل والعُدَّة في سبيل الله، فكانا علىٰ ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

[قال الأعمش، عن إبراهيم كان أبو بكر وعمر](١) يجعلان سهم النَّبيِّ ﷺ في الكُرَاع(٢) والسِّلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليٌّ يَقُول فيه؟ قال: كان [علي](٣) أشدهم فيه.

وهذا قول طائفةٍ كثيرةٍ من العلماء -رحمهم الله.

وأمَّا سهم ذوي القُرْبىٰ فإنَّه يُصْرَف إلىٰ بني هاشم وبني المطلب؛ لأنَّ بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة [وفي أوَّل الإسلام](٤) ودخلوا معهم في الشِّعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحمايةً له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّةً للعشيرة وأَنَفَةً وطاعةً لأبي طالب عَمِّ رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل -وإن كانوا أبناء عمهم- فلم يوافقوهم علىٰ ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالئوا(٥) بطون قريش علىٰ حرب الرَّسول؛ ولهذا كان ذَمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللَّاميَّة أشد من غيرهم، لشدَّة قربهم، ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

جَـزَىٰ اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَـمْسٍ وَنَـوْفَلا ... [عُقُوبَـةَ شَـرٍّ عَاجِـلٍ](٦) غَيْـرِ آجِـلِ
بِمِيـزَانِ قِـسْطٍ لا يَخِيـسُ شَـعِيرَةً ... لَـهُ شَـاهِدٌ مِـنْ نَفْسِهِ غَيْـرُ عَائِـلِ
لَقَـدْ سَـفُهَتْ أَحْـلَامُ قَـوْمٍ تَبَـدَّلُوا ... بَنِـي خَلَـفٍ قَيْـضًا بِنَـا وَالغَيَاطِـلِ(٧)
وَنَحْـنُ الـصَّمِيمُ مِـنْ ذُؤَابَـةِ هَاشِـمٍ ... وَآلِ قُـصَيٍّ فِـي الخُطُـوبِ الأَوَائِـلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي [بن نوفل](٨) مَشَيْت أنا وعثمان بن عفان -يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس- إلىٰ رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وَهُم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ»(٩).

رواه مسلم وفي بعض روايات هذا الحديث: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ»(١٠).

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير(١١): وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روىٰ عن خُصَيْف، عن مجاهد قال: عَلِمَ الله أَنَّ في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصَّدقة.

---

(١) سقط من (ز). (٢) الكُراع: يجمع الخيل والسلاح.
(٣) سقط من (ز). (٤) سقط من (ز). (٥) في (ز): «وقالوا».
(٦) في (ز): «بشر عاجلًا»، وكتب فوقها: «عقوبة سوء من غرام محائل».
(٧) قيضًا: عوضًا، والغياطل: بنو سهم. (٨) سقط من (ز).
(٩) البخاري (٣٣١١، ٣٩٨٩)، والبيهقي (٦/ ٣٤١)، وقد وهم المؤلف في عزوه لمسلم.
(١٠) رواه عبدالرزاق في «مصنفه» (٧/ ٣٩٣) رقم (٣٦٨٧٥). (١١) لوحة (١٩٥أ).

وفي روايةٍ عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة.

ثم روىٰ عن علي بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

[حدَّثني يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثني عبد الله بن نافع، عن أبي مَعْشَر، عن سعيد المقْبُري](١) قال: كتب نَجْدَة(٢) إلىٰ عبد الله بن عبَّاس يسأله عن «ذي القربىٰ»، فكتب إليه ابن عبَّاس: كنَّا نقول: إنَّا هم فأبىٰ ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربىٰ(٣).

وهذا الحديث في صحيح مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي من حديث سعيد المقبري [عن يزيد بن هرمُز أن نجدة كتب إلىٰ ابن عبَّاس يسأله عن ذوي القربىٰ](٤) فذكره إلىٰ قوله: «فأبىٰ [ذلك](٥) علينا قومنا» والزِّيادة مِن أفراد أبي معشر نَجِيح بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا إبراهيم بن مهدي المِصِّيصي، حدَّثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عِكْرِمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غُسَالَةِ الأَيْدِي؛ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ**»(٦).

هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وَثَّقه أبو حاتم، وقال يحيىٰ بن معين يأتي بمناكير، والله [أعلم](٧).

وقوله: ﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ أي: يتامىٰ المسلمين. واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ علىٰ قولين.

﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾ هم: المحاويج الذين لا يجدون ما يسدُّ خَلَّتهم ومسكنتهم.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المريد للسَّفر، إلىٰ مسافةٍ تُقْصَر فيها الصَّلاة، وليس له ما ينفقه في سَفَره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آيةِ الصَّدقات مِن سورة «براءة»، إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثِّقة، وعليه التُّكلان.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائِم، إن كنتم تُؤْمِنُون بالله واليوم الآخر وما أنزل علىٰ رسوله؛ ولهذا جاء في «الصَّحيحين»، من

---

(١) تكررت هذه العبارة في (ز). (٢) نَجْدَة: هو الحَرُوري، تقدم التعريف به.

(٣) رواه الطبري (١٠/ ٦) دون قوله: «وقالوا: قريش كلها ذو قربىٰ» فإنَّ هذه اللفظة مما انفرد بها أبو معشر؛ لذا فالحديث رواه مسلم (١٨١٢)، وأبو داود (٢٩٨٢)، والترمذي (١٥٥٦)، والنسائي (٤١٣٦) من طريق أخرىٰ لم يذكروا فيها هذه الزيادة، وقد أشار الحافظ ابن كثير إلىٰ ضعف هذه الزيادة كما في «متن الكتاب».

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز).

(٦) ضعيف: إبراهيم بن مهدي المِصِّيصي قال في «التقريب»: مقبول، لكن الجملة الأولىٰ من الحديث يشهد لها الحديث الصحيح: «إِنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»، وأمَّا تعليل ذلك بكفايتهم بالخمس فلم أجد شاهدًا لذلك.

(٧) سقط من (ز).

حديث عبد الله بن عبَّاس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وَآمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[١]، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ...» الحديث بطوله[٢] فجعل أداء الخمس مِن جملة الإيمان، وقد بوَّب البخاري علىٰ ذلك في «كتاب الإيمان» من «صحيحه» فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عبَّاس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في «شرح البخاري» ولله الحمد والمنَّة.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [أي: في القسمة، وقوله][٣]: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يُنبِّه تعالىٰ علىٰ نعمته وإحسانه إلىٰ خلقه بما فَرَق به بين الحَقِّ والباطل ببدرٍ ويسمَّىٰ «الفرقان»؛ لأنَّ الله تعالىٰ أعلىٰ فيه كلمة الإيمان علىٰ كلمة الباطل، وأظهر دينه ونَصَر نبيَّه وحزبه.

قال علي بن أبي طلحة والعَوْفِي، عن ابن عبَّاس: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فَرَق الله فيه بين الحَقِّ والباطل. رواه الحاكم.

وكذا قال مجاهد، ومِقْسَم وعبيد الله بن عبد الله، والضَّحَّاك، وقتادة، ومُقَاتل بن حيان، وغير واحدٍ: أنَّه يوم بدر.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزُّبير في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله [فيه][٤] بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أوَّل مشهدٍ شَهِدَهُ رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لِتِسْعَ عشرةَ -أو: سبع عشرة- مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلثمائة وبضعة عشر رجلًا والمشركون ما بين الألف والتِّسعمائة.

فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة علىٰ السَّبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روىٰ الحاكم في «مستدركه»، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال في ليلةِ القدر: تحرُّوها لإحدىٰ عشرة يبقين فإن صبيحتها يوم بدر. وقال: علىٰ شرطهما[٥].

وروي مثله عن عبد الله بن الزبير أيضًا، من حديث جعفر بن بُرْقَان، عن رجل، عنه[٦].

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا يحيىٰ بن واضح، حدَّثنا يحيىٰ بن يعقوب أبو طالب، [عن

---

(١) لوحة (١٩٥ب).
(٢) البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).
(٣) سقط من (ز).
(٤) سقط من (ز).
(٥) صحيح: رواه الحاكم (٣/ ٢٠).
(٦) الطبري (١٠/ ٩)، ورواه نحوه عن الحسن البصري وروىٰ ابن أبي شيبة عن جعفر كما عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٧٢).

أبي عَوْن محمَّد بن عبيد الله الثقفي][١] عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال[٢] الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقىٰ الجمعان لسبع عشرة من رمضان إسنادٌ جيِّدٌ قوي[٣].

ورواه ابن مَرْدوَيه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت[٤] ليلة الفرقان، ليلة التقىٰ الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من شهر رمضان[٥].

وهو الصَّحيح عند أهل المغازي والسِّير.

وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الدِّيار المصريَّة في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع علىٰ هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

يقول تعالىٰ [مخبراً عن][٦] يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدُّنيا القريبة إلىٰ المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعيدة الَّتي مِن ناحية مكَّة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التِّجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مما يَلِي سِيفَ البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ [أي: أنتم والمُشْرِكُون إلىٰ مكانٍ][٧] ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

قال محمَّد بن إسحاق: وحدَّثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعادٍ منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلَّة عددكم- ما لقيتموهم، ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته مِن إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشِّرك وأهله، عن غير ملإٍ منكم[٨]، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنَّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يُريدُون عِيرَ قريش، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوِّهم علىٰ غير ميعاد[٩].

---

(١) في (ز): «عن ابن عون عن محمَّد بن عبد الله الثقفي»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من «تفسير الطبري»، وكتب الرجال، قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: كان في المطبوعة: «عن ابن عون، عن محمَّد بن عبد الله الثقفي، فأفسد الإسناد كل الإفساد، وكان من المخطوطة عن ابن عون محمَّد بن عبيد الله الثقفي، وهو خطأ هين، صوابه ما أثبت».اهـ وفي نسخ ابن كثير علىٰ الخطإ أيضًا.

(٢) في (ز): «قال كان». (٣) الطبري (١٣/ ٥٦٢). (٤) لوحة (١٩٦أ).

(٥) عزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (٤/ ٧٣) إلىٰ ابن مردويه، وكذلك عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٣٨٥) ولم أقف علىٰ إسناده، لكن هذا هو المشهور عند أصحاب المغازي والسير كما أشار بذلك ابن كثير.

(٦) سقط من (ز). (٧) سقط من (ز). (٨) أي: اجتماع وتشاور.

(٩) رواه البخاري (٣٩٥١).

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب، حدَّثني ابن عُلَيَّة، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشَّام، وخرج أبو جهل لِيَمْنَعَهُ مِن رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاءِ، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتَّىٰ التقت السُّقاة، ونهد الناس[(١)] بعضهم لبعض[(٢)].

وقال محمَّد بن إسحاق في السِّيرة: ومضىٰ رسول الله ﷺ علىٰ وَجْهِهِ ذلك حتىٰ إذا كان قريبًا من «الصفراء» بعث بَسْبَس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَّغباء الجُهَنيين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتىٰ إذا وردا بدرًا فأناخا بعيريهما إلىٰ تلٍّ من البطحاء، فاستقيا في شَنٍّ[(٣)] لهما من الماء، فسَمِعَا جاريتين يَختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني[(٤)] حَقِّي وتقول الأخرىٰ: إنَّما تأتي العير غدًا أو بعد غدٍ، فأقضيك حقَّك. فَخَلَّص بينهما مَجْدي بن عمرو، وقال: صَدقت، فسمع ذلك بَسْبَسٌ وعَدِيٌّ، فجلسا علىٰ بعيريهما، حتىٰ أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر، فتقدَّم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أَحْسَسْتَ علىٰ هذا الماء مِن أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلَّا أنِّي قد رأيت راكبين أناخا إلىٰ هذا التَّلِّ، فاستقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقا فجاء أبو سفيان إلىٰ مُناخ بعيريهما، فأخذ مِن أبعارهما، فَفَتَّه، فإذا فيه النَّوىٰ، فقال: هذه والله علائف يثرب ثم رجع سريعًا فضَرَبَ وجه عيره، فانطلق بها فَسَاحَلَ[(٥)] حتىٰ إذا رأىٰ أن قد أحرز عيره بعث إلىٰ قريشٍ فقال: إنَّ الله قد نجَّىٰ عيرَكم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا.

فقال أبو جهل: واللهِ لا نرجع حتَّىٰ نأتي بدرًا -وكانت بدرُ سوقًا من أسواق العرب- فنقيم بها ثلاثًا، فَنُطْعِمَ بها الطَّعام، وننحَرَ بها الجُزُر ونُسْقَىٰ بها الخمر، وتعزف علينا القِيان[(٦)]، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا.

فقال الأخنس بن شُرَيْق: يا معشر بني زُهَرة، إنَّ الله قد نَجَّىٰ أموالكم، ونَجَّىٰ صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدي[(٧)].

قال محمَّد بن إسحاق: وحدَّثني يزيد بن رُومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ -حين دنا من بدر- عليَّ بن أبي طالب، وسعدَ بن أبي وقَّاص، والزُّبير بن العوام، في نفرٍ من أصحابه، يتجسَّسون له الخبر فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلامًا لبني سعيد بن العاص، وغلامًا لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يُصَلِّي، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما، ورجَوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما

---

(١) أي: نهضوا إلىٰ القتال.

(٢) مرسل: رواه ابن جرير (١٠/ ١١)، وإسناده مرسل، وعمير بن إسحاق قال في «التقريب»: مقبول.

(٣) الشَّن: القربة البالية.
(٤) لوحة (١٩٦ب).

(٥) فساحل: أي سار بها جهة الساحل.
(٦) القيان: الجواري.

(٧) رواه ابن هشام (١/ ٦١٧)، وإسناده مرسل.

أذلقوهما[(١)] قالا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ». قالا: هم وراء هذا الكَثيب الذي ترىٰ بالعدوة القصوىٰ -والكثيب: العَقَنْقَل- فقال لهما رسول الله ﷺ: «كَمِ القَوْمُ؟» قالا: كثير. قال: «مَا عِدَّتُهُمْ؟» قالا: ما ندري. قال: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، قال[(٢)] رسول الله ﷺ: «القَوْمُ مَا بَيْنَ التِّسْعِمَائَةِ إِلَىٰ الأَلْفِ». ثم قال لهما: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخْتري بن هشام، وحكيم بن حِزَام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيمة بن عدي بن [نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن][(٣)] خلف، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ علىٰ الناس فقال: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفلَاذَ كَبِدِهَا»[(٤)].

قال محمَّد بن إسحاق رحمه الله: وحدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقىٰ الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا[(٥)] تكون فيه، ونُنِيخ إليك ركائبك، ونلقىٰ عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزَّنا فذاك ما نُحِبُّ، فقال: وإن تكن الأخرىٰ فتجلس علىٰ ركائبك، وتلحق بمَن وراءنا من قومنا، فقد -والله- تخلَّف عنك أقوامٌ ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، لو علموا أنَّك تلقىٰ حربًا ما تخلَّفوا عنك، ويُوادُونك ويَنْصُرونك. فأثنىٰ عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به. فبُنِيَ له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما[(٦)].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلمَّا أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصَوِّب[(٧)] من العَقَنْقَل -وهو الكثيب- الذي جاءوا منه إلىٰ الوادي قال: «اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِفَخْرِهَا وَخُيَلَائِهَا تُحَادُّكَ[(٨)] وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ أَحِنْهُمُ الغَدَاةَ»[(٩)].

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ قال محمَّد بن إسحاق: أي ليكفر مَن كفر بعد الحجَّة؛ لما رأىٰ من الآية والعبرة، ويُؤمِن مَن آمن علىٰ مثل ذلك.

وهذا تفسيرٌ جيِّدٌ، وبَسْطُ ذلك أنَّه تعالىٰ يقول: إنَّما جمعكم مع عدوكم في مكانٍ واحدٍ علىٰ غير ميعادٍ؛ لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحقِّ علىٰ الباطل؛ لِيَصِير الأمر ظاهرًا، والحجَّة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقىٰ لأحدٍ حجَّةٌ ولا شبهةٌ، فحينئذٍ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ أي: يستمرَّ في الكفر مَن استمرَّ فيه علىٰ بصيرةٍ مِن أمره أنَّه مبطل، لقيام الحجَّة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن مَن آمن ﴿عَنۢ

---

(١) أي: بالغوا في ضربهما.
(٢) لوحة (١٩٧أ).
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٤) «السيرة» لابن هشام (١/ ٦١٦).
(٥) العريش: شبه خيمة يستظل بها.
(٦) المصدر السابق (١/ ٦٢٠).
(٧) التصوب: المجيء من مكانٍ عالٍ.
(٨) تُحَادُّك: تعاديك، وأحنهم: أهلكهم.
(٩) المصدر السابق (١/ ٦٢١).

﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجّة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]،وقالت عائشة في قصّة الإفك: فيّ هلك مَن هلك؛ أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك(١).

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم وأنّكم تستحقّون النّصر علىٰ أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قال مجاهد: [أراه الله إيّاهم](٢) في منامه قليلًا فأخبر النّبيُّ ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتًا لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحدٍ. وحكىٰ ابن جرير عن بعضهم: أنّه رآهم بعينه التي ينام بها.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يوسف بن موسىٰ المدبر، حدَّثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بِعَيْنِك.

وهذا القول غريب، وقد صرّح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلىٰ التّأويل الذي لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلًا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تَجنُّه الضّمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصُّدور.

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضًا مِن لطفه تعالىٰ بهم، إذْ أراهم إيّاهم قليلًا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدرٍ، حتىٰ قلت لرجل إلىٰ جانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتىٰ أخذنا رجلًا منهم فسألناه، قال: كنا ألفًا. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير(٣).

وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخِرِّيت عن عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم علىٰ بعض.

إسناد صحيح.

---

(١) لوحة (١٩٧ب). (٢) في (ز): «أرهم الله»، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٣) رواه الطبري (١٠/ ١٣).

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب، للنِّقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام علىٰ مَن أراد تمام النِّعمة عليه مِن أهل ولايته.

ومعنىٰ هذا أنَّه تعالىٰ أغرىٰ كلًّا من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلمَّا التحم القتال وأيد الله المؤمنين[1] بألفٍ من[2] الملائكة مردفين، [بقي حِزب الكفَّار يرىٰ حزب الإيمان ضِعْفَيه][3] كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلًّا منها حقٌّ وصدقٌ، ولله الحمد والمنَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

هذا تعليمٌ مِن الله عبادَهُ المؤمنين آدابَ اللِّقاء، وطريق الشَّجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾.

ثبت في «الصَّحيحين»، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ، عن رسول الله ﷺ أنَّه انتظر في بعض أيَّامه التي لَقِي فيها العدوَّ حتىٰ إذا مالت الشَّمس قام فيهم فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثم قام النَّبيُّ ﷺ وقال: «**اللَّهُمَّ، مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»[4].

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ فَإِنْ أَجْلَبُوا وَضَجُّوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ**»[5].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدَّثنا أمية بن بِسْطام، حدَّثنا معتمر بن سليمان، حدَّثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الصَّمْتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ: عِنْدَ تِلَاوَةِ القُرْآنِ، وَعِنْدَ الزَّحْفِ، وَعِنْدَ الجَنَازَةِ**»[6]

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالىٰ: «**إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِزٌ**

---

(١) في (ز): «وأيد الله المؤمنين بالملائكة».
(٢) لوحة (١٩٨أ).
(٣) في (ز): «بقي حزب الإيمان يرىٰ حزب الكفر ضعيفًا».
(٤) البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).
(٥) ضعيف بهذا السياق: رواه عبد الرزاق (١٢/ ٤٦٣)، وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف.
(٦) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٢١٣)، وفيه رجل لم يسم، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٠٣).

قِرْنَهُ»[١] أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي[٢].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون عند الضِّراب بالسُّيوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدة بن سليمان، حدَّثنا ابن المبارك، عن ابن جُريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذِّكر عند الزَّحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يَجْهَرُون بالذِّكر؟ قال: نعم[٣].

وقال أيضًا: قُرِئَ علىٰ يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما مِن شيءٍ أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من قراءةِ القرآن والذِّكر، ولولا ذلك ما أمر النَّاس بالصَّلاة والقِتَال، ألا ترون أنَّه أمر النَّاس بالذِّكر عند القِتَال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال الشاعر:

ذَكَرْتُكَ وَالخَطِّيُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ نَهَلَتْ فِينَا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

وقال عنترة:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ شَوَاجِرٌ ... فِينَا وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فأمر تعالىٰ بالثَّبات عند[٤] قتال الأعداء والصَّبر علىٰ مبارزتهم، فلا يَفِرُّوا ولا ينكلوا ولا يَجْبُنُوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النَّصر علىٰ أعدائهم، وأن يُطِيعُوا الله ورسوله في حالهم ذلك فما أمرهم الله تعالىٰ به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه مِن الإقبال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وقد كان للصَّحابة ﷺ في باب الشَّجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه -ما لم يكن لأحدٍ من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحدٍ ممن بعدهم؛ فإنَّهم ببركة الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلَّة عَدَدهم بالنِّسبة إلىٰ جيوش سائر الأقاليم، من الرُّوم والفرس والتُّرك والصقالبة والبربر والحبُوش وأصناف السُّودان والقِبْط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتىٰ عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه علىٰ سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلاميَّة في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل مِن ثلاثين سنةً، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنَّه كريمٌ وهَّاب.

---

(١) ضعيف: الترمذي (٣٥٨٠)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قلت: وفيه عفير بن معدان: ضعيف، وأبو دوس: مقبول.

(٢) قال الشيخ القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: وفي الآية إشعار بأن علىٰ العبد ألا يفتُر عن ذكر ربِّه، أشغل ما يكون قلبًا، وأكثر ما يكون همًّا، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقًا بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال.

(٣) لوحة (١٩٨ب).

(٤) في (ز): «في».

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ[1] مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالىٰ بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيًا لهم عن التَّشبُّه بالمشركين في خروجهم مِن ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعًا للحق، ﴿وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾ وهو: المفاخرة والتَّكبُّر عليهم، كما قال أبو جهل -لما قيل له: إنَّ العير قد نجا فارجعوا- فقال: [لا][2] والله لا نرجع حتىٰ نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدَّث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنَّهم لما وردوا ماء بدرٍ وردوا به الحِمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلَّاء، صَغَرَةً أشقياء في عذاب سرمدي أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم علىٰ ذلك شر الجزاء لهم.

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال محمَّد بن كعب: لما خرجت قريش من مكَّة إلىٰ بدر، خرجوا بالقيان والدُّفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: حسَّن لهم -لعنه الله- ما جاؤوا له وما همُّوا به، وأطمعهم أنَّه لا غالب لهم اليوم من النَّاس، ونفىٰ عنهم الخشيةَ مِن أن يؤتوا في دِيَارِهِم مِن عدوِّهم بني بكر فقال: أنا جارٌ لكم، وذلك أنه تبدَّىٰ لهم في صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك النَّاحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالىٰ عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال ابن جريج قال ابن عبَّاس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس[3] برايته وجنوده مع المشركين، وألقىٰ في قلوب المشركين: أن أحدًا لن يغلبكم، وإنِّي جارٌ لكم. فلما التقوا، ونظر الشَّيطان إلىٰ إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبرًا، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية[4].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس قال: جاء إبليس يوم بدر في جندٍ من الشياطين، معه رايته،

---

(١) لوحة (١٩٩أ). (٢) سقط من (ز). (٣) في (ز): «سار الجيش».

(٤) رواه الطبري (٧/ ١٩)، وإسناده منقطع بين ابن جريج وابن عبَّاس لكن يشهد له الروايات الأخرىٰ المذكورة في الباب.

في صورة رجل من [بني][(١)] مدلج، والشيطان في صورة[(٢)] سراقة بن مالك بن جُعْشُم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ فلما اصطف النَّاس أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التُّراب فرمىٰ بها في وجوه المشركين، فولَّوْا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلىٰ إبليس، فلما رآه -وكانت يده في يد رجل من المشركين- انتزع يده ثم ولىٰ مدبرًا [هو][(٣)] وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنَّك لنا جار؟ فقَال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأىٰ الملائكة[(٤)].

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم، فلمَّا حضر القتال ورأىٰ الملائكة، نكص علىٰ عَقِبَيْهِ، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ فتشبث الحارث بن هشام فنخر[(٥)] في وجهه، فخرَّ صعقًا، فقيل له: ويلك يا سراقة، علىٰ هذه الحال تخذلنا وتبرأ منَّا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(٦)].

وقال محمَّد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عقبة، عن شعبة -مولىٰ ابن عبَّاس- عن ابن عبَّاس قال: لما تواقف النَّاس أغمي علىٰ رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر النَّاس بجبريل في جندٍ من الملائكة ميمنة النَّاس، وميكائيل في جند آخر ميسرة النَّاس، وإسرافيل في جند آخر ألف، وإبليس قد تصوَّر في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجي، يدبِّر المشركين ويخبرهم أنَّه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدوُّ الله الملائكة، نكص علىٰ عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرىٰ أنَّه سراقة لما سَمِعَ مِن كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرىٰ حتىٰ سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يا رب، موعدَكَ الذي وعدتني[(٧)].

وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع قريب من هذا السياق[(٨)] وأبسط منه ذكرناه في السيرة.

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدىٰ لهم إبليس في صورة

---

(١) سقط من (ز). (٢) لوحة (١٩٩ب). (٣) سقط من (ز).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ١٨)، وابن أبي حاتم (٩١٥٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٧٧) إلىٰ ابن منذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» وإسناده ضعيف للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عبَّاس، لكن يشهد له الرواية السابقة.

(٥) النخير: صوت الأنف.

(٦) ضعيف جدًّا: رواه عبد الرزاق (٩٩٠) في إسناده محمَّد بن السائب الكلبي متهم بالكذب، فالإسناد ضعيف جدًّا.

(٧) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٧٠)، والواقدي متروك الحديث رغم سعة علمه، وشعبة مولىٰ ابن عبَّاس: صدوق سيئ الحفظ.

(٨) رواه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٤٢)، وفيه عبد العزيز بن عمران: منكر الحديث، كما قال البخاري وابن أبي حاتم، وقال الحافظ: متروك.

سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي -وكان من أشراف بني كنانة- فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيءٍ تكرهونه، فخرجوا سراعًا[١].

قال محمَّد بن إسحاق: فذكر لي أنَّهم كانوا[٢] يرونه في كلِّ منزلٍ في صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه، حتىٰ إذا كان يوم بدرٍ والتقىٰ الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام -أو: عمير ابن وهب- فقال: أين، أين سراقة؟ ومَثَلَ[٣] عدو الله، فذهب -قال: فأوردهم ثم أسلمهم- قال: ونظر عدوُّ الله إلىٰ جنود الله، قد أيَّد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص علىٰ عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهكذا روي عن السُّدِّي، والضَّحَّاك، والحسن البصري، ومحمَّد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنَّه رأىٰ جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنَّه لا يَدَانِ له بالملائكة[٤] فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن عَلِمَ أنَّه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له[٥]، حتىٰ إذا التقىٰ الحق والباطل أسلمهم شرَّ مُسْلَمٍ، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمَّد بن إسحاق: حدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن [ببدر][٦] ومعي بصري، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارىٰ فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحىٰ الله إليهم: أنِّي معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أنَّ الملائكة كانت تأتي الرَّجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنَّهم ليسوا بشيءٍ، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأىٰ إبليس الملائكة نكص علىٰ عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضِّض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خِذلان سراقةَ إيَّاكم، فإنَّه كان علىٰ موعدٍ مِن محمَّد وأصحابه، ثم قال: واللَّات والعزَّىٰ لا نرجع حتىٰ نقرن محمَّدًا[٧] وأصحابه في الحبال، فلا

---

(١) رواه الطبري (١٠/ ١٩)، وإسناده مرسل.
(٢) لوحة (٢٠٠أ).
(٣) أي: زال عن موضعه.
(٤) أي: لا قدرة له ولا طاقة بهم.
(٥) أي: انقاد له وأطاعه.
(٦) سقط من (ز).
(٧) لوحة (٢٠٠ب).

تقتلوهم وخذوهم أخذًا[١].

وهذا مِن أبي جهل -لعنه الله- كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، وهو مِن باب البُهْت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمَّة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة[٢] عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا رُئِيَ إِبْلِيسُ فِي يَوْمٍ هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَدْحَرُ[٣] وَلَا أَغْيَظُ [مِنْهُ فِي][٤] يَوْمِ عَرَفَةَ وَذَلِكَ مِمَّا يَرَىٰ مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَالعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ». قالوا: يا رسول الله، وما رأىٰ يوم بدر؟ قال: «أَمَا إِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عليه السلام [يَزَعُ][٥] المَلَائِكَةَ»[٦].

هذا مرسل مِن هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم مِن بعض قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلَّل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وإنَّما قالوا ذلك مِن قلَّتهم في أعينهم، فظنُّوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكُّون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال قتادة: رأوا عصابةً مِن المؤمنين تشدَّدت لأمرِ الله، وذكر لنا أنَّ أبا جهل عدو الله لما أشرف علىٰ محمَّدٍ ﷺ وأصحابه قال: والله لا [يعبدون][٧] الله بعد اليوم، قسوة وعتوًّا.

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم قومٌ كانوا من المنافقين بمَكَّة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبي: كان ناسٌ مِن أهل مكَّة قد تكلَّموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدرٍ، فلمَّا رأَوْا قلَّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري (٤/ ٧٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٦)، ورواه الطبري في «تهذيب الآثار» (١/ ٥٥٦) من طريقٍ أخرىٰ عنه، وفيه الزبير بن المنذر، قال الذهبي: تابعيٌّ لا يعرف، وقال الحافظ في «التقريب»: مستور، قلت: وهو المشار إليه في الرواية الأولىٰ، فلا يصح الإسناد. وفي إسناده مجهول، وهو قوله: بعض بني ساعدة.

(٢) في (ز): «ابن أبي عليَّة»، وهو خطأ وتحريف.

(٣) أدحر: أبعد عن الخير. (٤) في (ز): «من»، والمثبت موافق لما في «الموطأ».

(٥) في (ز): (يزغ)، والمثبت موافق لما في «الموطأ» ومصادر التخريج.

(٦) ضعيف: رواه مالك (١/ ٤٢٢)، وعبد الرزاق (٨٨٢٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١٩٣٠)، والطبري (١٠/ ١٩)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب»، وإسناده مرسل، قال المعلق علىٰ «الموطأ»: ووصله الحاكم عن أبي الدرداء.ا هـ.ولم أقف عليه.

(٧) في (ز): (يعبدوا).

وقال مجاهد في قوله ﷻ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئةٌ مِن قريش: [أبو][1] قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة ابن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكَّة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلمَّا رأوا قلَّة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلَّة عددهم وكثرة عدوهم.

وهكذا قال محمَّد بن إسحاق بن يسار، سواء.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمَّد بن عبد [الأعلى][2]، حدَّثنا محمَّد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قومٌ لم يَشْهَدُوا[3] القِتَال يوم بدر، فسُمُّوا منافقين -قال معمر: وقال بعضهم: هم قومٌ كانوا أقرُّوا بالإسلام، وهم بمكَّة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلمَّا رأوا قلَّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: لا يُضام مَن التجأ إليه، فإنَّ الله عزيز منيع الجناب، عظيم السُّلطان، حكيمٌ في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر مَن يستحق النَّصر، ويخذل مَن هو أهلٌ لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾

يقول تعالى: ولو عَايَنْتَ يا محمَّد حال توفِّي الملائكةِ أرواحَ الكفَّار، لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

قال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أستاههم، قال: يوم بدر.

قال ابن جُرَيْج، قال ابن عبَّاس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسُّيوف، وإذا ولَّوْا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يوم بدر.

وقال وَكِيع، عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى ابن مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ قال: وأستاههم ولكن الله يَكْنِي. وكذا قال عمر مولى غُفْرة.

---

(١) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري»، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله عندها (١٤/ ١٣): (...كتب ناشر المطبوعة: «قيس بن الوليد بن المغيرة»، وأخطأ، إنما هو «أبو قيس بن الوليد» وهو الذي شهد بدرًا، وقتله حمزة بن عبد المطلب. فأثبته...) اهـ.

(٢) في (ز): «بن عبد الا».

(٣) لوحة (٢٠١أ).

وعن الحسن البصري قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنِّي رأيت بظهر أبي جهلٍ مثل الشِّراك[(١)(٢)] قال [ما ذاك؟][(٣)] قال: «ضرب الملائكة»[(٤)].

رواه ابن جرير وهو مرسل.

وهذا السِّياق -وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ؛ ولهذا لم يخصصه تعالىٰ بأهل بدر، بل قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها وتقدَّم في سورة الأنعام [عند][(٥)] قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: باسطو أيديهم بالضَّرب فيهم، يأمرونهم إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرًا، وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما [جاء][(٦)] في حديث البراء[(٧)]: إنَّ ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصُّورة المنكرة يقول: اخرجي أيَّتها النَّفس الخبيثة إلىٰ سَمُومٍ وحميم، وظلٍّ مِن يحموم، فتتفرَّق[(٨)] في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السَّفُّود[(٩)] من الصُّوف المبلول فتخرج معها العُرُوقُ والعصب؛ ولهذا أخبر تعالىٰ أنَّ الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السَّيِّئة في حياتكم الدُّنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحدًا من خلقه، بل هُو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ مِن رواية أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(١٠)] ولهذا قال تعالىٰ:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالىٰ: فعل هؤلاء [المشركون المكذِّبون][(١١)] بما أرسلت به يا محمَّد، كما فعل الأمم المكذبة

---

(١) الشِّراك: سير النعل الذي يكون علىٰ ظهرهما.
(٢) في (ز): «مثل الشوك»، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٣) سقط من (ز). (٤) ضعيف: رواه ابن جرير (١٠/ ٢٢)، وإسناده مرسل.
(٥) سقط من (ز). (٦) سقط من (ز).
(٧) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٨).
(٨) لوحة (٢٠١ب).
(٩) السفود: حديدة ذات شعب معقفة، يشوىٰ عليها اللحم.
(١٠) مسلم (٢٥٧٧)، وهو حديث طويل مشهور.
(١١) في (ز): «من المشركين المكذبين».

قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا؛ أي: عادتنا وسُنَّتنا في أمثالهم من المكذِّبين مِن آل فرعون ومَن قبلهم مِن الأمم المكذِّبة بالرُّسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ][1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [أي:][2] لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالىٰ عَن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنَّه تعالىٰ لا يُغيِّر نعمةً أنعمها علىٰ أحدٍ إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، [وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي:][3] كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسَلَبَهُم تلك النِّعم التي أسداها إليهم مِن جنَّاتٍ وعيون، وزروعٍ وكنوزٍ، ومقامٍ كريمٍ، ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أخبر تعالىٰ أنَّ شَرَّ ما دَبَّ علىٰ وجه الأرض هم الَّذين كفروا فهم لا يؤمنون، الَّذين كلَّما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلَّما أكدوه بالأَيْمَانِ نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ[4]﴾ أي: لا يخافون مِن اللهِ فِي شيءٍ ارتكبوه من الآثام.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حربٍ، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكِّل بهم، قاله: ابن عبَّاس، والحسن البصري، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة، ومعناه: غَلِّظ عقوبتهم وأَثْخِنْهُم قتلًا ليخاف مَن سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقال السُّدِّي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ[5] ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).
(٣) سقط من (ز). (٤) لوحة (٢٠٢أ).
(٥) قال الشيخ القاسمي رحمه الله: دلت الآية علىٰ جواز معاهدة الكفار لمصلحة، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم =

يقول تعالىٰ لنبيِّه، صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنَّك قد نقضت عهدهم حتىٰ يبقىٰ علمك وعلمهم بأنَّك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنَّه لا عهد بينك وبينهم علىٰ السَّواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدَّرِ الأَعْدَاءِ حَتَّىٰ يُجِيبُوكَ إِلَىٰ السَّوَاءِ[1]

وعن الوليد بن مسلم أنَّه قال في قوله: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: علىٰ مهلٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي: حتَّىٰ ولو في حقِّ الكفارين، لا يحبها أيضًا.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يَسِيرُ في أرضِ الرُّوم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضىٰ الأمد غزاهم، فإذا شيخ علىٰ دابَّةٍ يقول: الله أكبر الله أكبر وفاءً لا غدرًا، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلَّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ**» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عَبَسة[2] رضي الله عنه[3].

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» من طرق عن شعبة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدَّثنا محمَّد بن عبد الله الزُّبيري، حدَّثنا إسرائيل، عن عطاء بن السَّائب، عن أبي البَخْتري عن سلمان -يعني الفارسي- رضي الله عنه: أنَّه انتهىٰ إلىٰ حصن -أو: مدينة- فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنَّما كنت رجلًا منهم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإذا أَسْلَمْتُم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أَبَيْتُم فأدُّوا الجزية وأنتم صَاغِرُون، فإن أبيتم نَابَذْنَاكُم علىٰ سواء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يفعل بهم ذلك ثلاثة أيَّام، فلمَّا كان اليوم الرابع غَدَا النَّاس إليها ففتحوها بعون الله[4][5].

= أمارة الخيانة ، وتدل علىٰ إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك؛ لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد ... هذا ، وما ذكر من وجوب إعلامهم إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها ، كما هو منطوق الآية . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورًا مقطوعًا به فلا حاجة للإمام إلىٰ نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة رسول الله ﷺ، فلم يَرُعْهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمَرِّ الظهران ، وذلك علىٰ أربعة فراسخ من مكة.

(١) الغُدر: جمع غدور.

(٢) في (ز): «عمرو بن عنبسة»، وهو خطأ.

(٣)صحيح: أحمد (٤/ ١١١)، وأبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠).

(٤) لوحة (٢٠٢ب).

(٥)ضعيف: رواه أحمد (٥/ ٤٤٠)، والترمذي (١٥٤٨)، وحسنه، قلت: ورجاله ثقات غير أن أبا البختري لم يدرك سلمانًا، قال الترمذي: وسمعت محمَّدًا يقول: أبو البختري لم يدرك سلمان؛ لأنه لم يدرك عليًّا، وسلمان مات قبل عليٍّ.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمَّد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي: فاتُونا فلا نقدر عليهم، بل هُم تحت قهر قُدْرَتِنَا وفي قبضة مَشِيئَتِنَا فلا يعجزوننا، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤] أي: يَظنُّون، وقال تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

ثم أمر تعالىٰ بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطَّاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ أي: مَهْمَا أمكنكم ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾.

[قال][(١)] الإمام أحمد: حدَّثنا هارون بن معروف، حدَّثنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثُمامة بن شُفَيّ، أنه [سمع][(٢)] عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»[(٣)].

رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجة عن يونس بن عبد الأعلىٰ، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به.

ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث صالح بن كَيْسان، عن رجلٍ عنه[(٤)].

وروىٰ الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا»[(٥)].

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَىٰ رَجُلٍ وِزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ[(٦)] -أَوْ: رَوْضَةٍ- فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا[(٧)] ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ[(٨)] -أَوِ: الرَّوْضَةِ-

---

(١) سقط من (ز). (٢) سقط من (ز).

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٧)، وأحمد (٤/ ١٥٦)، وأبو داود (٢٥١٤)، وابن ماجة (٢٨١٣).

(٤) مسلم (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤)، وابن ماجة (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٦).

(٥) الترمذي (١٦٣٧)، وابن ماجة (٢٨١١)، وأحمد (٤/ ١٤٤)، ورجاله ثقات عدا عبد الله بن زيد الأزرق، قال الحافظ: مقبول.

(٦) المَرج: الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرج فيه الدواب؛ أي: تُخلَّىٰ تسرح مختلطة متىٰ شاءت.

(٧) الطِّيَل: الحبل الذي تربط فيه. (٨) في (ز): «وفي المرج».

كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ[(١)] شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ؛ فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا[(٢)] وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً[(٣)] فَهِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ وِزْرٌ». وسُئِل رسول الله ﷺ[(٤)] عن الحُمُر فقال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الجَامِعَةَ الفَاذَّةَ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾» [الزلزلة: ٧، ٨].

رواه البخاري -وهذا لفظه- ومسلم، كلاهما من حديث مالك[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكَيْن بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «الخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَعَلَفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ، وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللهُ، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ فَالفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا، فَهِيَ سِتْرٌ مِنْ فَقْرٍ»[(٦)].

وقد ذهب أكثر العلماء إلىٰ أنَّ الرَّمي أفضل مِن ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلىٰ أن الرُّكوب أفضل مِنَ الرَّمي، وقول الجمهور أقوىٰ للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج وهشام قالا: حدَّثنا ليث، حدَّثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماسة: أن معاوية بن حُدَيج مر علىٰ أبي ذرٍّ، وهو قائمٌ عند فرسٍ له، فسأله ما تعالج مِن فرسك هذا؟ فقال: إنِّي أظنُّ أنَّ هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده ما مِن فرسٍ إلا وهو يدعو كلَّ سحرٍ فيقول: اللَّهمَّ، أنت خولتني عبدًا من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحبَّ إليه مِن أهله وماله وولده[(٧)].

قال: وحدَّثنا يحيىٰ بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدَّثني يزيد بن أبي حبيب، عن سُوَيْد بن قيس؛ عن معاوية بن حُدَيج ؛ عن أبي ذرٍّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ، يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ

---

(١) استنت: جرت، والشَّرَف: المكان العالي من الأرض.

(٢) أي: استغناءً عن الناس، وتعففًا عن السؤال.

(٣) أي: مناوأةً ومعاداةً. (٤) لوحة (٢٠٣أ).

(٥) رواه مالك (٢/ ٤١٤) ورواه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨، ١٦٥٩)، والنسائي (٥/ ١٢)، (٢/ ٤١٤).

(٦) ضعيف: أحمد (٦/ ٣٩٥)، ورجاله ثقات عدا القاسم بن حسان، قال الحافظ: مقبول، وشريك بن عبد الله النخعي: صدوق يخطئ كثيرًا.

(٧) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٦٢)، ورواه النسائي (٦/ ٢٢٣) مرفوعًا.

أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ» أو «أَحَبَّ أَهْلَهُ وَمَالَهُ إِلَيْهِ»(١).

رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيىٰ القطَّان به.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدَّثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا يحيىٰ ابن حمزة، حدَّثنا المطعم بن المقدام الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية - يعني: سهلًا-: حدَّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَأَهْلُهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا، وَمَنْ رَبَطَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَتِ النَّفَقَةُ عَلَيْهِ كَالمَادِّ يَدَهُ بِالصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا»(٢).

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفي «صحيح البخاري»، عن عُرْوَة ابن أبي الجعد البارقي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الخَيْلُ(٣) مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ»(٤).

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾(٥) أي: تُخَوِّفُون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: منَ الكُفَّار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، وقال السُّدِّي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هُمُ الشَّياطين التي في الدُّور. وقد ورد حديث بمِثْلِ ذلك، قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحِمْصِي، حدَّثنا أبو حيوة -يعني: شريح بن يزيد المقرئ- حدَّثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب -يعني: يزيد بن عبد الله بن عريب- عن أبيه، عن جدِّه أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ قال: «هُمُ الجِنُّ»(٦)

ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيْم؛ عن أبيه، عن محمَّد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان، عن يزيد ابن عبد الله بن عريب، [به](٧) وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُخْبَلُ بَيْتٌ فِيهِ عَتِيقٌ مِنَ الخَيْلِ»(٨). وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٧٠)، ورواه النسائي (٦/ ٢٢٣)، ورواه الحاكم (٢/ ١٤٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح من غير الجملة الأخيرة: رواه الطبراني (٦/ ٩٨)، وأحمد (٤/ ١٧٩)، وأبو عوانة (٥/ ١٦)، ورجاله ثقات غير أنَّ الحسن البصري: مدلس، والحديث له شاهد من حديث جابر، رواه أحمد دون الجملة الأخيرة وهي قوله: «وَمَنْ رَبَطَ فَرَسًا...إلخ»، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٣٥١).

(٣) لوحة (٢٠٣ب). (٤) البخاري (٢٨٥٠).

(٥) قال الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتىٰ إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٦) منكر: رواه الطبراني (١٧/ ١٨٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» فيه مجاهيل، وقد علق عليه ابن كثير بقوله: منكر لا يَصِحُّ إسناده ولا متنه.

(٧) سقط من (ز). (٨) هو جزء من الحديث السابق.

وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنَّه يوفىٰ إليكم علىٰ التَّمام والكمال، ولهذا جاء في حديثٍ رواه أبو داود: أنَّ الدرهم يُضاعَف ثوابه فِي سبيل الله إلىٰ سبعمائة ضعف؛ كما تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدَّثنا أبي، عن أبيه، حدَّثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يأمر ألَّا يُتصدَّق إلا علىٰ أهل الإسلام، حتىٰ نزلت: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فأمر بالصَّدقة بعدها علىٰ كل مَن سألك مِن كلِّ دين (١). وهذا أيضًا غريبٌ.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

يقول تعالىٰ: إذا خِفْت مِن قوم خيانةً فانبذ إليهم (٢) عهدهم علىٰ سواء، فإن استمروا علىٰ حَرْبك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فمِلْ إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصُّلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلىٰ ذلك مع ما اشترطوا منَ الشُّروط الأخر.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدَّثنا محمَّد بن أبي بكر المقدمي، حدَّثنا فضيل بن سليمان -يعني: النميري- حدَّثنا محمَّد بن أبي يحيىٰ، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ [بَعْدِي] (٣) اخْتِلَافٌ -أَوْ: أَمْرٌ- فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلْمَ، فَافْعَلْ» (٤).

وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة.

وهذا فيه نظر؛ لأنَّ السِّياق كلَّه في وقعةِ بدرٍ، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقول ابن عبَّاس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخُراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه

---

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم (٥/ ٩١١٤)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير، وبقية رجاله ثقات.

(٢) لوحة (٢٠٤أ). (٣) سقط من (ز).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٩٠)، وفيه إياس لم يُوثِّقه غير ابن حبان كما في «تعجيل المنفعة»، وفضيل بن سليمان صدوق له خطأ كثير كما في «التقريب».

الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [التوبة:٢٩] فيه نظرٌ أيضًا؛ لأنَّ آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأمَّا إذا كان العدو كثيفًا، فإنَّه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النَّبيُّ ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكَّل علىٰ الله، فإنَّ الله كَافِيكَ ونَاصِرُك، ولو كانوا يُرِيدُون بالصُّلح خديعةً ليتقوَّوْا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾(١) أي: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمتَهُ عليه بما أيَّده به مِن المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها علىٰ الإيمان بك، وعلىٰ طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإنَّ الأنصار كانت بينهم حروبٌ كثيرةٌ في الجاهليَّة، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التَّسلسُل في الشَّرِّ، حتىٰ قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي «الصَّحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأنِ غنائم حنين قال لهم: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً(٢) فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي**» كلمَّا قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسوله أَمَنُّ(٣)(٤).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ(٥) ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء مَن توكَّل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، [أنبأنا](٦) علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمَّد بن الحسن القِنْديلي الإِسْتَراباذي، حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد بن النعمان الصفار، حدَّثنا ميمون بن الحكم، حدَّثنا بكر بن الشرود، عن محمَّد ابن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عبَّاس قال: قرابة الرَّحم تُقْطَع، ومنة النِّعمة تُكفَر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك موجودٌ في الشعر:

إِذَا مَتَّ ذُو القُرْبَىٰ إِلَيْكَ بِرَحْمِهِ ... فَغَشَّكَ وَاسْتَغْنَىٰ فَلَيْسَ بِذِي رَحْمِ

---

(١) في (ز): «فإن الله حسبك»، وليست بآية.
(٢) عالة: فقراء.
(٣) أمن: أكثر عطاءً، من المن، وهو العطاء والإحسان.
(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).
(٥) لوحة (٢٠٤ب).
(٦) سقط من (ز).

وَلَكِنَّ ذَا القُرْبَىٰ الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ أَجَابَ وَمَنْ[(١)] يَرْمِي العَدُوَّ الَّذِي تَرْمِي

قال: ومن ذلك قول القائل:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الأَسْبَابِ

فَإِذَا القَرَابَةُ لا تُقَرِّبُ قَاطِعًا وَإِذَا المَوَدَّةُ أَقْرَبُ الأَسْبَابِ

قال البيهقي: لا أَدْرِي هذا موصولٌ بكلام ابن عبَّاس، أو هو من قول من دونه من الرواة[(٢)].

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ﷺ سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابُّون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله.

رواه النَّسائي والحاكم في «مستدركه»، وقال: صحيح[(٣)].

وقال عبد الرازق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاسٍ قال: إن الرَّحِم لتُقْطَع، وإنَّ النِّعمة لتُكفَر، وإنَّ الله إذا قارب بين القُلُوب لم يُزَحْزِحْهَا شيءٌ، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[(٤)].

رواه الحاكم أيضًا.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدَّثني عبدة بن أبي لُبَابة، عن مجاهد -ولقيته فأخذ بيدي- فقال: إذا تراءىٰ المتحابَّان في الله، فأخذ أحدُهُما بيَدِ صاحبه، وضَحِكَ إليه، تحاتَّتْ خطاياهما كما يتحاتُّ ورق الشَّجر[(٥)]. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾! قال عبدة: فعرفت أنَّه أفقه مني.

وقال ابن جرير: حدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا ابن[(٦)] يمان عن إبراهيم الخُوزي عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقىٰ المسلمان فتصافحا غُفِرَ لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحةٍ[(٧)] يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني.

---

(١) في (ز): «وأن يرمي».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٣٤)، ورواه أيضًا من طرق أخرىٰ عن طاوس -بدون ذكر الشعر- البيهقي في «الشعب» والحاكم (٢/ ٣٢٩)، وقال: حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين وأقره الذهبي.

(٣) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٢١٠) والحاكم (٢/ ٣٢٩)، وصححه علىٰ شرط الشيخين وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في «الشعب» (٩٠٣٥).

(٤) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٣٢٩)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٣٢- ٩٠٣٣).

(٥) تحَات ورق الشجر: تساقط من غصنه إذا ذبل.

(٦) في (ز): «أبو يمان»، وهو خطأ.

(٧) لوحة (٢٠٥أ).

وكذا روىٰ طلحة بن مُصَرِّف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنَّا نحدث أنَّ أوَّل ما يُرفع من النَّاس [-أو قال: عن النَّاس-][(١)] الألفة.

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَري، حدَّثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدَّثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدًا أبا عثمان، حدَّثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا، كَمَا يَتَحَاتُّ الوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ، وَإِلَّا غُفِرَ لَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُمَا مِثْلَ زَبَدِ البِحَارِ»[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يحرِّض تعالىٰ نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين علىٰ القِتَال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنَّه حسبهم؛ أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم علىٰ عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قلَّ عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدَّثنا عبيد الله بن موسىٰ، أنبأنا سفيان، عن شوذب[(٣)] عن الشعبي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: وروي عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][(٤)] مثله.

ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: حثهم [وذمِّر][(٥)] عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض علىٰ القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: «قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ». فقال عُمير بن الحُمام: عرضها السَّموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ» فقال: بَخٍ بَخٍ، فقال: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ

(١) سقط من (ز). (٢) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٥٦).

(٣) في (ز): «ابن شوذب»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «الطبري». وكذا هو الموافق لما في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٦١)، وشوذب هو أبو معاذ معروف بالرواية عن الشعبي، ورواية سفيان عنه كما عند ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٣٧٨).

(٤) سقط من (ز). (٥) سقط من (ز)، وفي بعض النسخ: «ومرهم عليه».

بَخٍ بَخٍ؟» قال: رجاء أن أكون مِن أهلها! قال: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فتقدَّم الرَّجل فكسر جَفْن سيفه، وأخرج تمراتٍ فجعل يأكل منهنَّ، ثمَّ ألقىٰ بَقِيَّتَهُنَّ مِن يده، وقال: لئن[١] أنا حَيِيت حتىٰ آكلهن إنَّها لحياةٌ طويلةٌ! ثم تقدَّم فقاتل حتىٰ قُتِل رضي الله عنه[٢].

وقد روي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أنَّ هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمُل به الأربعون[٣].

وفي هذا نظر؛ لأنَّ هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكَّة بعد الهجرة إلىٰ أرض الحبشة وقبل الهجرة إلىٰ المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ مُبَشِّرًا للمؤمنين وآمرًا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كل واحدٍ بعشرةٍ ثم نسخ هذا الأمر وبَقِيَتِ البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدَّثنا جرير بن حازم، حدَّثني الزبير بن الخِرِّيت[٤] عن عكرمة، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شق ذلك علىٰ المسلمين حين فرض الله عليهم ألَّا يَفِرَّ واحدٌ مِن عشرة، ثمَّ جاء التَّخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال: خَفَّف الله عنهم من العُدَّة، ونقص مِن الصبر بقدر ما خُفِّف عنهم.

وروىٰ البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه[٥].

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عبَّاس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألَا يَفِرَّ عشرون من مائتين، ثم خَفَّف الله عنهم، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلا ينبغي لمائةٍ أن يَفِرُّوا مِن مائتين.

وروىٰ البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان به ونحوه[٦].

وقال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عبَّاس، قال: لما نزلت هذه الآية ثَقُلت علىٰ المسلمين، وأعظموا أَن يقاتل عشرون مائتين، ومائةٌ ألفًا، فخَفَّف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرىٰ فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا علىٰ الشطر مِن عدوِّهِم لم يَنْبَغِ لهم أن يَفِرُّوا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم[٧].

---

(١) لوحة (٢٠٥ب). (٢) رواه مسلم (١٩٠١).
(٣) مرسل: هكذا أورده مجردًا عن الإسناد، وهو مرسل.
(٤) في (ز): «الزبير بن الحارث»، وهو خطأ، والمثبت موافق لما في «البخاري»، و «الطبري».
(٥) رواه الطبري (١٠/ ٤٠-٤١) انظر: «صحيح البخاري» (٤٦٥٣).
(٦) إسناده صحيح: وانظر: «صحيح البخاري» (٤٦٥٢).
(٧) رواه الطبري (١٠/ ٣٩)، وإسناده صحيح، ويشهد له الروايات السابقة.

وروى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عبَّاس، نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضَّحَّاك نحو ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن (١) ابن عمر رضي الله عنه: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحابَ محمَّد ﷺ (٢).

وروى الحاكم في «مستدركه»، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾

قال الإمام أحمد: حدَّثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: استشار رسول الله ﷺ النَّاس في الأسارىٰ يوم بدر، فقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ» فقام عمر بن الخطَّاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النَّبيُّ ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ». فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النَّبيُّ ﷺ، ثم عاد النَّبيُّ ﷺ فقال للنَّاس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، نرىٰ أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغَمِّ، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾ الآية (٤).

وقد سبق في أوَّل السُّورة حديث ابن عبَّاس في «صحيح مسلم» بنحو ذلك.

وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَىٰ؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استَبْقِهم واستَتِبْهُم، لعل الله أن يتُوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذَّبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: [يا رسول الله](٥) أنتَ في وادٍ كثير الحطب، فَأَضْرِمِ الوادي عليهم نارًا، ثم أَلْقِهِمْ فيه. قال: [فقال العبَّاس: قطعت رحمك قال:](٦) فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا، ثمَّ قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ اللهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ

---

(١) لوحة (٢٠٦ أ).

(٢) [لم يذكر بقيَّة الإسناد] وعزاه لابن مردويه، ويكفي في بيان ذلك ما تقدم من حديث ابن عبَّاس، والله أعلم.

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٢٣٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: سلام بن سليمان -أحد الرواة في السند- واهٍ.

(٤) حسن: أحمد (٣/ ٢٤٣)، وعلي بن عاصم صدوق لكن يخطئ ويصر، ويشهد للحديث الروايات الأخرىٰ المذكورة بعد.

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٦) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

حَتَّىٰ تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّىٰ تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ [عَلَيْهِ السَّلَامُ][(١)] قَالَ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي[(٢)] فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أَنْتُمْ عَالَةٌ[(٣)] فَلَا يَنْفَلِتَنَّ[(٤)] أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ».

قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنَّه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء مني في ذلك اليوم، حتىٰ قال رسول الله ﷺ: «إِلَّا سُهَيلَ بْنَ بَيْضَاءَ» فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥ أَسْرَىٰ﴾ إلىٰ آخر الآية[(٥)].

رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش به، والحاكم في «مستدركه»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروىٰ الحافظ أبو بكر ابن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري[(٦)].

وروىٰ ابن مردويه أيضًا -واللفظ له- والحاكم في «مستدركه»، من حديث عبيد الله بن موسىٰ: حدَّثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر[(٧)] قال: لما أسر الأسارىٰ يوم بدر، أسر العبَّاس فيمن أسر، أسره رجلٌ من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَنَمِ اللَّيْلَةَ مِنْ أَجْلِ عَمِّيَ العَبَّاسِ، وَقَدْ زَعَمَتِ الأَنْصَارُ أَنَّهُمْ قَاتِلُوهُ» فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: «نَعَمْ» فأتىٰ عمر الأنصارَ فقال لهم: أرسلوا العبَّاس فقالوا: لا والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضًا؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضًا فخذه. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عبَّاس، أسلم، فوَاللهِ لَأن تسلم أحبُّ إلي من أن يسلم الخطَّاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسولُ الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتَك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية[(٨)].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من (ز). (٢) لوحة (٢٠٦ب). (٣) عالة: فقراء.

(٤) في (ز): «فلا ينفكن»، والمثبت موافق لما عند الترمذي وأحمد.

(٥) أحمد (١/ ٣٨٣)، والتِّرمذي (٣٠٨٤)، والحاكم (٣/ ٢١)، ورجاله ثقات لكنه منقطع؛ لأنَّ أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وقد أشار ابن كثير إلىٰ شواهد أخرىٰ بها يتقوىٰ الحديث.

(٦) أورد السيوطي رواية ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما وعزاها لابن مردويه، وأمَّا حديث أبي أيوب فلم أقف عليه.

(٧) في (ز): «عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ».

(٨) حسن: الحاكم (٢/ ٣٢٩)، وفيه إبراهيم بن مهاجر البجلي، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق لين الحفظ، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢/ ٢١١).

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال سفيان الثوري [(١)]، عن هشام -هو ابن حسان- عن محمَّد بن سيرين، عن عَبِيدة، عن علي ﵁ قال: جاء جبريل إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يوم بدرٍ فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارىٰ: إن شاءوا الفداء، وإن شاءوا القَتْلَ علىٰ أن يقتل منهم مقبلًا [(٢)] مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منَّا [(٣)].

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» من حديث الثوري به، وهذا حديث غريب جدًّا.

وقال ابن عون [عن محمَّد] [(٤)] عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارىٰ [يوم] [(٥)] بدر: «**إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ وَاسْتَمْتَعْتُمْ** [(٦)] **بِالفِدَاءِ، وَاسْتُشْهِدَ مِنْكُمْ بِعِدَّتِهِمْ**». قال: فكان آخر السَّبعين ثابت بن قيس، قُتِلَ يوم اليمامة ﵁.

ومنهم مَن روىٰ هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا فالله أعلم [(٧)].

وقال محمَّد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عبَّاس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنِّي لا أُعَذِّب مَن عصاني حتىٰ أتقدَّم إليه، لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ.

وكذا روىٰ ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سبق منه ألَّا يُعَذِّب أحدًا شهد بدرًا. وروىٰ نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد ابن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة [(٨)] ونحوه عن سفيان الثوري ﵀.

---

(١) لوحة (٢٠٧أ).
(٢) في (ز): «مقبلًا منهم».
(٣) صحيح: الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٦٦٢) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث الثوري لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. قلت: لا يضر ذلك فابن أبي زائدة: ثقة متقن.
(٤) الزيادة من «المستدرك» و «الدلائل»، وهو: محمَّد بن سيرين.
(٥) سقط من (ز).
(٦) في (ز): «واستغنيتم».
(٧) رواه الطبري (١٠/ ٤٦) مرسلًا، ورواه الحاكم (٢/ ١٤٠) موصولًا، وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
(٨) ذكر الشوكاني ﵀ في «فتح القدير» عند هذه الآية أن المفسرين اختلفوا في هذه الكتاب الذي سبق ما هو؟ علىٰ ستة أقوال خلاصتها:
(١) ما سبق في علم الله أنه سيحل الغنائم.
(٢) مغفرة الله لأهل بدر.
(٣) أنه سبحانه لا يعذبهم ورسول الله فيهم.
(٤) أنه لا يعذب أحدًا بذنب فعله جاهلًا لكونه ذنبًا.
(٥) أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.
(٦) أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد تأكيد الحجة.
- وقد أورد الرازي عدة أقوال وناقشها، واختار أن الكتاب الذي سبق هو: حكمه في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة؛ لأنه كتب علىٰ نفسه الرحمة، وسبقت رحمته غضبه. وقوله هذا أقرب للقبول لأن الأمر مردود في الآية إلىٰ محض الفضل والرحمة من الله لعباده.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ يعني: في أُمِّ الكتاب الأوَّل أنَّ المغانم والأسارىٰ حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من الأُسارَىٰ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الله تعالىٰ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ ﴾ الآية.

وكذا روىٰ العوفي، عن ابن عبَّاس، وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضًا: أنَّ المراد: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ لهذه الأُمَّة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في «الصَّحيحين»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ**[1] **إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً**»[2].

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِسُودِ الرءوس غَيْرِنَا**»[3].

ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فعند ذلك أخذوا مِن الأسارىٰ الفداء.

وقد روىٰ الإمام أبو داود في «سننه»: حدَّثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدَّثنا سفيان بن حبيب، حدَّثنا شعبة، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عبَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ جعل فِدَاءَ أهلِ الجاهليَّة يوم بدرٍ أربعمائة[4].

وقد استقرَّ الحكم في الأسرىٰ عند جمهور العلماء: أنَّ الإمام مخيَّرٌ فيهم: إن شاء قتل، كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادىٰ بمال، كما فعل بأسرىٰ بدر، أو بِمَنْ أُسِرَ من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللَّتين كانتا في سَبْي سلمة بن الأكوع، حيث رَدَّهُما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الَّذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استَرَقَّ مَن أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفةٍ مِن العلماء، وفي المسألة خلافٌ آخر بين الأئمَّة مقرَّرٌ في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ[5] إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

(١) لوحة (٢٠٧ب). (٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٣) صحيح: الترمذي (٣٠٨٥).

(٤) ضعيف: أبو داود (٢٩٦١)، ورجاله ثقات غير أبي العَنْبس الكوفي، قال الحافظ: مقبول.

(٥) في (ز): «الأسارىٰ»، وهي قراءة أبي عمرو.

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني العبَّاس بن عبد الله بن مغفل، عن بَعْضِ أهله، عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «**إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ، قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا، لا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ** -أي: من بني هاشم- **فَلا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا البَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَلا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا**». فقال أبو حذيفة ابن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العبَّاس؟! والله لئن لقيته لأُلْجِمَنَّه بالسَّيف؟ فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «**يَا أَبَا حَفْصٍ**» -قال عمر: والله إنَّه لأوَّل يوم كنَّاني فيه رسول الله ﷺ- «**أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ؟**». فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفًا، إلا أن يكفِّرها الله عني بشهادةٍ. فقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا رضي الله عنه(١).

وبه عن ابن عبَّاس قال: لما أمسىٰ رسول الله ﷺ يوم بدرٍ، والأسارىٰ محبوسون بالوَثَاق، بات رسول الله ﷺ ساهرًا أوَّل اللَّيل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ -وقد أَسَرَ العبَّاسَ رجلٌ من الأنصار- فقال رسول الله ﷺ: «**سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّيَ العَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ فَأَطْلِقُوه**»، فسكت، فنام رسول الله ﷺ(٢).

قال محمَّد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارىٰ يوم بدرٍ فداء العبَّاس بن عبد المطلب، وذلك أنَّه كان رجلًا مُوسرًا فافتدىٰ نفسه بمائة أوقيةٍ ذهبًا.

وفي «صحيح البخاري»، من حديث موسىٰ بن عقبة، قال ابن شهاب: حدَّثني أنس بن مالك أن رجالًا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذَنْ لنا فَلْنَتْرُكْ لابن أختنا عبَّاس فداءه، قال: «**لَا وَاللهِ لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا**»(٣).

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عُرْوَة -وعن الزُّهري، عن جماعةٍ سمَّاهم قالوا: بعثت قريش إلىٰ رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدىٰ كل قوم أسيرهم بما رَضُوا، وقال العبَّاس: يا رسول الله، قد كنت مسلمًا! فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللهَ يَجْزِيكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا، فَافْتَدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخِيكَ: نَوْفَلَ بْنَ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرٍو أَخِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ**» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «**فَأَيْنَ المَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الفَضْلِ؟ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أُصِبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَهَذَا المَالُ الَّذِي دَفَنْتُهُ لِبَنِيَّ الفَضْلِ، وَعَبْدِ اللهِ، وَقُثَمَ**». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إنَّ هذا لشيءٌ ما عَلِمَهُ أحد غيري وغيرُ أمِّ الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم منِّي: عشرين أوقيةً مِن

---

(١) لوحة (٢٠٨ أ).

(٢) إسناده ضعيف: لأنَّ فيه مجهولًا، وهو قوله: عن بعض أهله.

(٣) البخاري (٤٠١٨).

مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا، ذاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْكَ**». ففدىٰ نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العِشْرين الأوقيَّة في الإسلام عشرين عبدًا، كلهم في يده مال يضرب به(١)، مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ.

وقد روىٰ ابن إسحاق أيضًا، عن ابن أبي نَجِيح، عن عطاء، عن ابن عبَّاس في هذه الآية بنحو مما تقدَّم(٢).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا ابن(٣) وَكيع، حدَّثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق](٤) عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: قال العبَّاس: فيَّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فأخبرت النَّبيَّ ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مِنِّي، فأبىٰ، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا، كلُّهم تَاجِرٌ، مالي في يده(٥).

وقال ابن إسحاق أيضًا: حدَّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، عن جابر بن عبد الله ابن رئاب قال: كان العبَّاس بن عبد المطلب يقول: فيَّ نزلت -والله- حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي، ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله(٦).

وقال ابن جُريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عبَّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ عبَّاس وأصحابه. قال: قالوا للنَّبيِّ ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لَنَنْصَحَنَّ لك علىٰ قومنا. فأنزل الله: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ إيمانًا وتصديقًا، يخلف لكم خيرًا مما أخذ منكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ الشِّرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العبَّاس يقول: ما أُحِبُّ أن هذه الآية [لم](٧) تنزل فينا، وأنَّ لِيَ الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ وأرجو أن يكون غُفر لي(٨).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في هذه الآية: كان العبَّاس أسر يوم بدر، فافتدىٰ نفسه

---

(١) الضَّرب يقع علىٰ جميع الأعمال إلا قليلًا، يقال: ضرب في التِّجارة، وفي الأرض، وفي سبيل الله.

(٢) رواه مرسلًا وموصولًا من طريق ابن إسحاق، قد صرَّح بالتَّحديث في الرواية المرسلة، وأما الموصولة فلم يصرح بالتَّحديث، والظاهر أن القصة لها أصل صحيح. والله أعلم.

ويؤيد ذلك الحديث الآتي.

(٣) لوحة (٢٠٨ ب).

(٤) سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».

(٥) ضعيف: فابن وكيع هو سفيان بن وكيع: ضعيف، والحديث رواه ابن جرير (١٠/ ٤٩)، والرواية الثانية من طريق الكلبي وهم متهم بالكذب.

(٦) انظر التعليق السابق.

(٧) سقط من (ز).

(٨) رواية عطاء الخراساني عن ابن عبَّاس مرسلة، لكن أصل القصة لها شواهد يقوي بعضها بعضًا.

بأربعين أوقيةً من ذهب، فقال العبَّاس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله ﷻ خَصْلَتَيْن، ما أُحِبُّ أنَّ لِيَ بهما الدُّنيا: إنِّي أُسِرْتُ يومَ بدرٍ فَفَدَيت نفسي بأربعين أوقيةً. فآتاني أربعين عبدًا، وأنا أرجو المغفرة الَّتِي وعدنا الله، جَلَّ ثناؤه(١).

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذُكِرَ لنا أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قَدِمَ عليه مالُ البحرين ثمانون ألفًا، وقد توضَّأ لصلاة الظُّهر، فما أعطىٰ يومئذٍ ساكتًا ولا حرم سائلًا وما صلىٰ يومئذٍ حتىٰ فرَّقه، فأمر العبَّاس [أن](٢) يأخذ منه ويحتثي، [فأخذ. قال:](٣) فكان العبَّاس يقول: هذا خيرٌ مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدَّثنا عمرو بن عاصم، حدَّثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلىٰ رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ. قال: فنثرت علىٰ حصير ونودي بالصَّلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائمًا علىٰ المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذٍ عددٌ ولا وزنٌ، ما كان إلا(٤) قَبْضًا، قال: وجاء العبَّاس بن عبد المطلب يحثِي في خَميصة(٥) عليه، وذهب يقوم فلَمْ يَسْتَطِعْ، قال: فرفع رأسه إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع عَلَيَّ. قال: فتبسَّم رسول الله ﷺ حتىٰ خرج ضاحِكُه(٦) -أو: نابه- وقال له: «**أَعِدْ مِنَ المَالِ طَائِفَةً، وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ**».

قال: ففعل، وجعل العبَّاس يقول -وهو منطلق-: أمَّا إحدىٰ اللَّتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما نَدْري ما يصنع في الأخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية، ثم قال: هذا خيرٌ ممَّا أُخِذَ منَّا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرىٰ فما زال رسول الله ﷺ ماثلًا علىٰ ذلك المال، حتىٰ ما بَقِيَ منه درهم، وما بعث إلىٰ أهله بدرهم، ثُمَّ أتىٰ الصلاة فصَلَّىٰ(٧).

حديث آخر في ذلك: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمَّد بن محمَّد بن عبد الله السعيدي، حدَّثنا مَحْمَش بن عصام، حدَّثنا حفص بن عبد الله، حدَّثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بمالٍ من البحرين، فقال: «**انْثُرُوهُ فِي المَسْجِدِ**».

قال: وكان أكثرَ مال أُتِي به رسول الله ﷺ، فخرج إلىٰ الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضىٰ الصَّلاةَ جاء فجلس إليه، فما كان يرىٰ أحدًا إلا أعطاه، إذ جاء العبَّاس فقال: يا رسول الله، أعطني [فإني](٨) فاديت نفسي، وفاديت عَقيلًا. فقال له رسول الله ﷺ: «**خُذْ**». فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقِلُّه(٩) فلم يستطع، فقال: مُرْ

---

(١) رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس مرسلة لكنها شاهد للرواية السابقة.

(٢) سقط من (ز). (٣) سقط من (ز).

(٤) لوحة (٢٠٩ أ). (٥) **الخَمِيصة**: كساء أسود مربع.

(٦) **الضواحك**: كل سن تبدو عند الضحك، أو هي الأنياب الأربع التي بين الأسنان والأضراس.

(٧) صحيح: ورواه الحاكم (٣/ ٢٣٩)، وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي ويشهد له حديث أنس الآتي.

(٨) سقط من (ز). (٩) أي: يرفعه ويحمله.

بعضهم يرفعه إليَّ. قال: «لا». قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه، عَجَبًا من حِرْصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم[١].

وقد رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» تعليقًا بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طهمان» ويسوقه، وفي بعض السياقات أتم من هذا.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: بالإسار يوم بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح الكاتب حين ارتَدَّ، ولحق بالمشركين[٢].

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخراساني[٣]، عن ابن عبَّاس: نزلت في عبَّاس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا[٤].

وفسرها السُّدِّي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقَسَّمَهُم إلى مهاجرين، خرجوا مِن دِيَارِهِمْ وأموالهم، وجاؤوا لِنَصْرِ الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آوَوْا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض؛ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كلُّ اثنين أخَوَان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدَّمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في «صحيح البخاري»، عن ابن عبَّاس[٥]. ورواه العَوْفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه وقال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جَرير -هو ابن عبد الله البجلي- رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ [أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ][٦] وَالطُّلَقَاءُ مِنَ

---

(١) صحيح: البخاري تعليقًا (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥)، ورواه البيهقي (٦/ ٣٥٦).

(٢) مرسل: رواه الطبري (١٠/ ٥٠) نحوه. (٣) لوحة (٢٠٩ب).

(٤) رواه الطبري (١٠/ ٥٠) نحوه، والإسناد منقطع بين عطاء الخرساني وابن عبَّاس.

(٥) البخاري (٦٧٤٧)، وانظر: «صحيح مسلم» (٢٥٢٩).

(٦) في (ز): «بعضهم أولياء بعض»، والمثبت موافق لما في «المسند».

قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ» تفرَّد به أحمد(١).

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا شيبان حدَّثنا عِكْرِمة -يعني ابن إبراهيم الأزدي- حدَّثنا عاصم، عن شَقِيق، عن ابن مسعود قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ». هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود(٢).

وقد أثنىٰ الله ورسوله علىٰ المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ(٣)﴾ الآية.[التوبة: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قِيلَ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يحسدونهم علىٰ فضل ما أعطاهم الله علىٰ هجرتهم، فإنَّ ظاهر الآيات تقديمُ المهاجرين علىٰ الأنصار، وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر [أحمد](٤) بن عمرو بن عبد الخالق البزار في «مسنده»: حدَّثنا محمَّد بن مَعْمَر، حدَّثنا مسلم بن إبراهيم، حدَّثنا(٥) حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خَيَّرَني رسولُ الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة(٦).

ثم قال: لا نعرفه إلا مِن هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ [قرأ حمزة: «ولايتهم» بالكسر، والباقون بالفتح، وهُمَا واحدٌ كالدِّلالة والدَّلالة](٧) ﴿مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ هذا هو الصِّنف الثَّالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يُهَاجِرُوا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خُمسها

---

(١) حسن صحيح: أحمد (٤/ ٣٦٣) شريك بن عبد الله النخعي، صدوق يخطئ كثيرًا تغير حفظه لما ولي القضاء، لكنه توبع فقد رواه الطيالسي (٢٥١٢)، والخطيب في «تاريخه» (١٣/ ٤٤) من طرق عن عاصم به، وله طريق أخرىٰ عند أحمد (٤/ ٣٦٣) بسند صحيح.

(٢) ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٥٠٣٣)، وفيه عكرمة بن إبراهيم الأزدي: ضعيف، قال ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار، ويرفع المراسيل، لا يجوز الاحتجاج به.

(٣) لوحة (٢١٠أ).

(٤) سقط من (ز).

(٥) في (ز): «مسلم بن إبراهيم بن حماد»، وهو خطأ.

(٦) ضعيف: رواه البزار (٢٧١٨-كشف الأستار)، وفيه علي بن زيد: ضعيف.

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).

إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا وَكيع، حدَّثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيْدة، عن أبيه: بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه [في](١) خاصة(٢) نفسه بتقوى الله ومَن معَهُ مِن المسلمين خيرًا، وقال: «اغْزُوا [بِاسْمِ اللهِ](٣) فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ إِحْدَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ. فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَىٰ إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ. فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ»(٤).

انفرد بإخراجه مسلم، وعنده زيادات(٥) أخر.

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الَّذين لم يهاجروا - في قتالٍ دِينِي على عدوٍّ لهم فانصروهم، فإنَّه واجبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ؛ لأنَّهم إخوانكم في الدِّين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكُفَّار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: مهادنة إلى مُدَّةٍ، فلا تخفِرُوا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الَّذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ(٦) تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

لما ذكر تعالى أنَّ المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفَّار، كما قال الحاكم في «مستدركه»:

حدَّثنا محمَّد بن صالح بن هانئ، حدَّثنا أبو سعد(٧) يحيى بن منصور الهروي، حدَّثنا محمَّد بن أبان، حدَّثنا محمَّد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان،

---

(١) سقط من (ز). (٢) في (ز): «خصاصة». (٣) سقط من (ز).

(٤) رواه مسلم (١٧٣١)، وأحمد (٥/ ٣٥٢). (٥) لوحة (٢١٠ ب).

(٦) الصحيح أن الضمير يعود إلى ما يسبق في الآيتين معًا قال القاسمي رحمه الله: (أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل، وتولِّي بعضكم بعضًا، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار - تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأن المسلمين ما لم يكونوا يدًا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرًا والفساد زائدًا في الاعتقادات والأعمال).

(٧) في الأصل: أبو سعيد، قال السلامة: في جميع النسخ (أبو سعيد) والتَّصويب من كتب الرجال (٤/ ٩٧).

عن أسامة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١).

قلت: الحديث في «الصحيحين» من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ وَلَا الكَافِرُ المُسْلِمَ»(٢) وفي «المسند» و«السنن»، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّىٰ» وقال التِّرمذي: حسن صحيح(٣).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدَّثنا محمَّد، [عن محمَّد بن ثور](٤) عن معمر، عن الزهري: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: «تُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَأَنَّكَ لَا تَرَىٰ نَارَ مُشْرِكٍ إِلَّا وَأَنْتَ لَهُ حَرْبٌ»(٥).

وهذا مرسلٌ من هذا الوجه، وقد روي متصلًا من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ بَيْنَ ظَهْرَانَي المُشْرِكِينَ»، ثم قال: «لَا يَتَرَاءَىٰ نَارَاهُمَا»(٦).

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدَّثنا محمَّد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيىٰ بن حسان(٧)، أنبأنا سليمان بن موسىٰ أبو داود، حدَّثنا جعفر بن سعد بن سَمُرَة [بن جُنْدُب حدَّثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة](٨) عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَامَعَ المُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»(٩).

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدوَيه، من حديث حاتم بن إسماعيل(١٠)، عن عبد الله بن هرمز، عن محمَّد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ» ثلاث مرات(١١).

وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٤٠)، وصححه.
(٢) رواه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).
(٣) حسن: رواه أبو داود (٢٩١١)، وأحمد (٢/ ١٩٥)، ولم أقف عليه عند الترمذي، والله أعلم.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من (ز)، والمثبت موافق لما في «الطبري».
(٥) حسن صحيح: رواه أبو داود (٢٩١١)، والترمذي (٢١٠٩)، وابن ماجة (٢٧٣١).
(٦) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، أخرجاه بلفظ: «بَيْنَ أَظْهُرِ المُشْرِكِينَ».
(٧) في (ز): «يحيىٰ بن حبان»، والصواب ما أثبتناه.
(٨) ما بين المعقوفتين سقط من (ز).
(٩) صحيح: رواه أبو داود (٢٧٨٧).
(١٠) لوحة (٢١١أ).
(١١) حسن: لم أقف عليه من حديث أبي حاتم المزني، ولكن رواه الترمذي (١٠٨٤)، وحسنه، قلت: فيه عبد الحميد بن سليمان: ضعيف، قال ابن معين: ليس بشيء. وابن وثيمة النصري: مقبول. وقد حسنه الشيخ الألباني بشواهده.

ثم رُوِيَ من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عَجْلان، عن ابن وَثِيمة[١] النَّصْري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[٢].

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في النَّاس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين النَّاس فسادٌ منتشرٌ طويلٌ عريضٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالىٰ حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقةِ الإيمان، كما تقدَّم في أول السورة، وأنَّه سيجازيهم بالمغفرة والصَّفح عن ذنوب إن كانت، وبالرِّزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطَّيِّب الشَّريف، دائمٌ مستمرٌّ أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسْأَم ولا يُمَل لحسنه وتنوعه.

ثم ذكر أنَّ الأتباع لهم في الدُّنيا علىٰ ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وفي الحديث المتَّفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[٣]، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ**»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وَكِيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ[٥]: «**الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعُتَقَاءُ مِنْ**

---

(١) في (ز): «ابن أبي وثيمة النصري»، والصواب ما أثبتناه.
(٢) انظر التعليق السابق.
(٣) رواه البخاري (٣٨٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٤) رواه الخطيب في «تاريخه» نحوه (٥/ ١٩٦)، وفيه إسماعيل بن يحيىٰ: ضعيف، ورواه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٩)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» لكن يشهد له الرواية السابقة.
(٥) لوحة (٢١١ب).

ثَقِيفٍ بِعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ». قال شريك: فحدَّثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النَّبيِّ ﷺ مثله[١].

تفرَّد به أحمد من هذين الوجهين.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض علىٰ القرابة، الذين لا فرض لهم ولا [هم][٢] عصبة، بل يُدْلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحًا في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نَصَّ ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: علىٰ أنَّها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللَّذَيْن كانوا يتوارثون بهما أوَّلًا، وعلىٰ هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلَّةٍ من أقواها حديث: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[٣]، قالوا: فلو كان ذا حقٍّ لكان له فرض في كتاب الله مسمىٰ، فلمَّا لم يكن كذلك لم يكن وارثًا، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «الأنفال»، ولله الحمد والمنَّة، وعليه الثِّقة والتُّكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٤/ ٣٦٣)، وفيه شريك بن عبد الله النخعي: صدوق يخطئ كثيرًا تغير حفظه، لكنه توبع، فقد رواه الطيالسي (٢٥١٢)، والخطيب في «تاريخه» (١٣/ ٤٤) من طرق عن عاصم به وله طريق أخرىٰ عند أحمد (٤/ ٣٦٣) بسند صحيح.

(٢) سقط من (ز).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢١٢١)، والنسائي (٢/ ١٢٨)، وابن ماجة (٢٧١٢)، وأحمد (٤/ ١٨٦)، وفيه شهر بن حوشب: صدوق، لكنه كثير الإرسال والأوهام، لكن للحديث شواهد كثيرة، منها حديث أبي أمامة، رواه الترمذي (٣٥٦٥)، وأبو داود (٢٨٧٢، ٣٥٦٧)، وابن ماجة (٢٧١٣)، وأحمد (٥/ ٢٦٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

الفهرس

تفسير سورة المائدة ٣

- فصل: إذا أرسل كلبًا علىٰ صيد فقتله بثقله ولم يجرحه ١٧
- الآثار في إباحة الصيد إذا أكل منه الكلب عند صيده ٣٦
- قاعدة مهمة في الجراح ١٣٤
- مسألة: لو اقتص المجني عليه من الجاني فمات ١٣٥
- ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر ١٩٧
- ذكر أقوال السلف في كفارة صيد المُحْرم ٢١٣
- ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة علىٰ الحواريين ٢٤٨

تفسير سورة الأنعام ٢٦٠

تفسير سورة الأعراف ٤١١

- فصل في بيان ما يوضع في الميزان يوم القيامة ٤١٤

تفسير سورة الأنفال ٥٧٤

الفهرس ٧٥٩